المجلس الأعلى للثقافة

عندما جاء السردين

قصص من الجنوب الأفريقي



المشروع القومي للترجمة

إعداد وتقديم : ستيفن جراى
ترجمة : سامية دياب

331

المشروع القومى للترجمة

عندما جاء السَّرْدِيْنُ

قصص الجنوب الإفريقى

ترجمة : سامية دياب

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٣٣١
- عندما جاء السردين
(قصص الجنوب الأفريقى)
- مختارات من تحرير ستيفن جراى
- سامية دياب
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة لكتاب : The Penguin Book of Sonthern African Stories

الصادر عن دار Penguin 1985

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

إلى روحى أبى وأمى ..

الغائبَيِن الأكثر حضوراً فى حياتى الآن ..

للصديقة "ماتيلدا مالي" . .
أحببنا هذا الكتاب معا ،
وراجعته بصبر
فوجب لها مني كل الشكر .

المحتويات

مقدمة

هذه المجموعة هى المحاولة الأولى على نطاق واسع للمقارنة المنظمة بين آداب الجنوب الإفريقى المتنوعة ، وذلك حتى يمكن ترتيبها ضمن الخبرات العامة ، توضح صفحة المحتويات أنه لا يوجد تقسيم يضع أدب منطقة الجنوب الإفريقى المكتوب باللغة الإنجليزية فى جانب ، والأدب المكتوب باللغة الإفريكانية فى جانب آخر ، وترك أدب الأهالى السود فى قريته النائية الخاصة ، ولأنى لم أتبع هنا التقسيمات التقليدية انطلقت من فرضية أن هذه الآداب أجزاء متكاملة داخل منظومة أكثر اتساعًا يمكنها أن تشمل التقاليد السائدة للأدب ذاته ـ وبهذه الطريقة سوف يتضح ما فى آداب شبه القارة من امتداد وتداخل .

ولعلها المرة الأولى أيضًا التى يوضع فيها أدب منطقة جغرافية واسعة أكثر مما يفعله محررو المجموعات الأدبية الذين يتجهون إلى نوع واحد أو آخر من آداب الجنوب الإفريقى ، فى السابق كانت بؤرة الاختيار إما ضيقة جداً مثل " أدب الزولو"، أو واسعة جداً مثل "الأدب الجديد باللغة الإنجليزية فى إفريقيا "، أو أدب متمركز حول الموضوع ، مثل "أدب التمييز العنصرى" أو يجرى تصنيفه بطريقة مدرسية مثل "أدب الاحتجاج الأسود"، كل هذه التصنيفات التى جمع فيها المؤرخون مناطق من الأدب كثيرة لم تصمد أمام النقد ، ولم تكن كافية بحد ذاتها

أو مـتـفـردة ، إذن فنحن هنا إزاء مـحـاولة جـديدة لإزاحـة الحـدود إلى أقصى مدى حتي نصل إلى الواقع القائم ، هذا يعنى بلغة الجـغرافية الحديثـة ، أن هـذا التقسـيم يشـمل كلاً من : جمـهورية جنـوب إفريقيـا و "ليسوتو" ، "وبتسـوانا" ، "وسوازيلاند" ، "وناميبيـا" ، "وزيمبـابوى" ، و "مـالوى" - وفى رأيى أن هذه البلدان يمكن وصفـها بأنها منطقة أدبية واحدة ، والتى - من خـلال التبادل التـجـارى لزمن طويل عبـر التاريخ ، ومن خـلال تطبيقاتها فى النشـر والتعليم - امتلكت خـصـائص مشتركة تجاوزت الاختلافات والتقسيمات التقليدية ، فلنسمِّ هذه المنطقة إذن " الجنوب الإفريقى " ، وأعنى بذلك حقلاً أدبيًا ، وليس مـجـموعة من الدول القومية الحالية .

أزيحت الحـدود أيضًـا إلى الوراء فـيـمـا يتـعلق بـالزمن ، ومن الموضـوعات التى تستـحق النقـد ؛ مـا يثار عن عمـر الأدب فى الجنوب الإفـريقى ؛ لأنـه كـمـا يذهـب مـؤرخــو الأدب ، ينظـر إلى أوروبا عـادة على أنها الأقـدم والمخضـرمـة فى الإبداع الأدبى ، وينظر إلى إفريقيـا عـلى أنهـا المراهـقـة غـيـر النـاضـجـة ، ولكن الأمـر ليس كـذلك حـتى فى النظرة المحلية الإفريقية ، فإذا كـان "الأنثروبولوچيون" يقولون لنا : إن إفريقيا هـى مـهد الجنس البشرى ، وفى منطقة "الترانسفال" نشأت أول لغة تكلم بها الإنسان ، فإن معيار الزمن الذى يتمسك به " توماس برينجل" و" أندرو جيد بن" - بوصفهما أبوين مؤسسين للأدب فى سنوات العشرينيات من القرن التاسع عشر - يتعامل مع الثوانى الأخيرة فى يوم يمتـد طويلاً فى عمق الزمن البشـرى ، وعلى الرغم من أن القصـة الأولى فى هذه المجموعة لم تدون على ورق إلا فى ستينيات القرن التاسع عشر ، إلا أنها ترجع حقيقة إلى ما قبل الميلاد على أقل تقدير ، هذا

النص الذي يصف مقدم الفناء بين البشر هو بداية مناسبة لهذا الأدب، إذ إنه يحمل الإجلال ذاته الذي يكون لأي نص غربي مقدس ، على الأقل هذا ما اكتشفه كتابنا .

هذا الجنوب الإفريقي الهائل من حيث الزمان والمكان يتصادف أنه الآن تحت هيمنة جمهورية جنوب إفريقيا ، لكن ليس تحت سيطرتها المطلقة ـ كان ذات يوم يُسمى رأس الرجاء الصالح ، ويوماً ما بالتأكيد سوف يُسمى "آزانيا "– ومن الصعب الآن التغاضي عن حقيقة أن جنوب إفريقيا هي التي تجمع في آن واحد بين كونها العملاق الصناعي في المنطقة ، والمنتهك الأكبر لحقوق الإنسان* ، هذه الحالة الازدواجية التي لا انفصال بين ركنيها ، هي التي يدور حولها الأدب أولا وأخيراً ، ولا يتجنب أية من قضاياها ، وبناء على ذلك ، فإن الكثير من النقد الموجه إلى أدب الجنوب الإفريقي هو نقد يقظ إلى هذين العاملين المتناقضين ، فالذي حدث أن النقد بيع بيعًا لا رجعة فيه لصالح رجال الأعمال في مجال النشر والتوزيع ، أو تحول إلى نقد حزبي مباشر يضع النصوص في حرب مستميتة حتى التحرير ، وليست هذه الأوضاع في صالح الأدب أحيانًا ، إن مزيداً من البحث والتعمق قد يجيب على أسئلة مثل : لماذا يجيء عمل معين على هذا النحو ، في لحظة تاريخية معينة ؟ وكيف أن تتابع اللحظات يدخل في نسق أدبي يشمل الماضي ، والحاضر، والمستقبل ؟

روعي هذا الخط في تلك المجموعة ، مستنداً إلى شكل واحد فقط ، هو القصة النثرية the story in prose ، ولنسمها قصة " خيالية قصيرة " short fiction ؛ لأن الكثير من النصوص المقدمة هنا تختلف

* يشير الكاتب إلى فترة الحكم العنصري في جنوب إفريقيا .

جوهرياً عما اعتدنا تسميته أو وصفه بـ "القصة القصيرة" short story ، لعبت القصة الخيالية القصيرة ـ كنوع أدبي ـ دوراً أساسياً ولزمن طويل في كل فروع الأدب في الجنوب الإفريقي ، وهي تبدو مفيدة من نواحٍ كثيرة : فعلى مستوى الأدب الأصلي – أدب ما قبل الاتصال – خاصة أدب " خويسان " فيما قبل عام ١٨٠٠ ، عملت كأداة نقل للأساطير وحكايات الحيوان الخرافية ، إلى قلب أدب السود المكتوب بلغاته الأصلية ، وفي القرن التاسع عشر خاصة ، وعلى مستوى الأدب الكولونيالي الموجود في نفس الفترة ، كانت أداة نقل للحكايات الخرافية والفولكلور الذي كتب باللغات الأوربية ، وأيضاً كانت أداة نقل للحكايات التي تحكى للسمر بجوار مواقد النار ، ولكي لا نستطرد حول هذه النقطة ، فإن الكثير من هذه الأنواع الشفاهية قد تم استيعابها في شكل القصة القصيرة الحديثة المكتوبة في القرن العشرين ، إن مصطلحات " الأسطورة " ، و" حكايات الحيوان الخرافية " ، و"الحكايات الخرافية" ، و" الفولكلور " ، و" الحكاية الشعبية " ، و" القصة القصيرة " ، ليست مصطلحات قطعية مانعة للتبادل فيما بينها ، وإذا كان لهذه المجموعة من فرضية فهو أن هذه الأنواع كلها تعد قصة خيالية قصيرة ، تعتمد على بعضها البعض وتتعايش جميعاً في الجنوب الإفريقي ، وكل هذا متاح دائماً للكاتب لينهل منه كيفما شاء ، إذا كان النموذج المتطور للآداب الأخرى يفترض أن أحد أشكال القصة الخيالية القصيرة يتفوق على ما يليه .. وما يليه هذا ، ينمو في اتجاه التركيب والتعقد الذي تحتويه عملية التطور ، فإن الأدب الجنوب إفريقي ليس به

هذا الفصل ، وليس به عمليات هيمنة تقليد ما ، مثل التى حدثت فى القصة القصيرة فى الأدب الإنجليزى أو الأمريكى اللذين أنتجا نماذج محددة تمثل اتجاهات أدبية ، هنا تمارس جميع أنواع القصة الخيالية القصيرة فى نفس الوقت : من "چوهانسبرچ" ، حيث يُمتدح نشر مجموعة من القصص القصيرة التقليدية باللغة الإنجليزية فى مآدب الغداء ، وإن اتجهت شمالاً إلى "بريتوريا" ـ حيث يحدث نفس الشيء ـ لكن باللغة الأفريكانية ، أو إذا اتجهت إلى "مافكينج " حيث حكايات السمر حول مواقد النار ، أو إلى " أوكافانجو" حيث أساطير " الخويسان "، وفى زيمبابوى حيث نجد لنقل : الحكايات الخرافية ، أو إلى " ترانسكى" حيث نجد لنقل : الفولكلور أن الأمر هنا لا يتعلق بآداب منفصلة متناثرة ومختلفة ، وإنما يتعلق بوحدة أدبية متكاملة وفعالة .

هناك الكثير من الأفكار ووجهات النظر التقليدية فيما يتعلق بأشكال القص القصير ، فمن الذى يستطيع القول بأن أحد هذه الأنواع أكثر صلاحية من النوع الأخر؟ ! يصر الكثير من الأدباء نوى الاتجاه القومى على وأد المجموعات الصغيرة بوضع كل منها داخل دولة أو أمة منفصلة أو متخيلة زاعمين أن لكل منها تفردها الأدبى بل إنهم يفصلون بين هذه المجموعات بحواجز اللغة وقيودها الراسخة ، ومن ثم فهناك أدب الـ" ڤيندا " ، وأدب " زيرونجا " ، وأدب " سوتو الشمالية " و "سوتو" الجنوبية ، وأدب " الشونا " ، والأدب الأفريكانى والإنجليزى والاثنان فى بسلة واحدة ، قد يكون هذا صحيحاً إثنوجرافيًا ، لكن فى مجال الأدب ، فإن هذا يعنى سياسة فرِّق " تَسد " ، كوسيلة لإضفاء

نوع من السمو على الأعمال المكتوبة باللغات الأوربية الأصل ، ونحن لا ينبغي علينا أن نؤكد على التراتب الهرمي ، وإنما نؤكد على التداخل بين هذه الآداب .

ونتيجة التقارب والتماس بين مصادر اللغة ، فإن الجنوب الإفريقي قد قدم مستوى راقياً من الكتاب متعددي الثقافة ، وهي مسألة جدلية غير مسبوقة ، لكنها بديهية ؛ إذ نجح الأدب نفسه في تحدي عمليات الفصل وإقامة الحدود ، ولم تكن النتيجة امتصاصاً وسيطرة ، وإنما استجابة وتحولاً ، فحتى الآن لم تنقرض أية ممارسة أدبية وإنما خضعت كل الآداب للتكيف ، تلك كانت سمة وديناميية الأدب "عملية اندماج وامتزاج وتجدد تثمر معان جديدة" .

وإذا كان هناك تغيراً عاماً جرى خلال المائة والخمسين عاماً الماضية ، فهو الانتقال من الشفاهية **Oracy** إلى الكتابية **Literacy** ظهرت لغة الـ" زاهوسا" مطبوعة لأول مرة في ١٨٢٣ ، وظهرت أول الأشعار باللغة الأفريكانية في ستينيات القرن التاسع عشر، في مالوي نشر أول كتاب أدبي في وقت متأخر جداً بسنة ١٩٦٩ ، ثمة سمة هامة أخرى تميز أدب الجنوب إفريقي حتى اليوم ، وهي أن نسبة كبيرة من القصص تروى ولا تكتب ، وأن نسبة كبيرة من القصص القصيرة قد سجلها الأدباء المتعلمون ، بالطبع ، وهي تحمل سمات قصص مرحلة ما قبل الأدب المكتوب ، لا أفترض أن كل الكُتاب المتعلمين من "البيض" غالبا ، وأن الشخصيات والرواة غالبًا من " السود " في الأدب السابق على الكتابة ، ذلك لأن الشاهد في العمل ليس في صالح الاستقطاب السطحي البسيط ، لقد كانت معركة القراءة والكتابة تجرى على عدة

جبهات ، وظلت شبه القارة ، بعد خمسة قرون من الاحتلال على نفس الوضع ، وفى بعض المراكز التجارية بقى معظم السكان أميين ، كانت هذه حقيقة معترف بها لدى أساتذة مثل " سول ت. بلاتييه " فى قصة "چوكاتونج " ، وكذلك عند " هيرمان تشارلز بوزمان " فى قصة "الدخيل " إن فعالية النشاط الأدبى فى شكله الغربى التقليدى مازال قاصراً على النخبة ، وهو يرتبط بعدد قليل من القراء نسبياً ، وعلى ذلك فإن الانتقال من الشفاهى إلى المكتوب مازال موضوعنا الأساسى .

لكن كُتّاب هذا الأدب هم أنفسهم – فى اعتقادى – لم يظلوا قلة أو فى عداد النخبة ؛ "فبلاتييه" – على سبيل المثال - الذى كتب فى لغة "تسوانا" ، وبالإنجليزية ، والإفريكانية ، كان يرى أن ضمن مهامه الرسمية أن يكون وسيطاً ، فيقدم الأعمال الأدبية من تراث " البيض" ليعلم السود رموز أدب البيض ، وفى نفس الوقت يقدم أعمالاً من تراث السود ليعلم البيض رموز أدب السود ، ونجد أن "يوجين ن. ماريس " الذى كان ضليعاً فى اللغتين الإنجليزية والإفريكانية ، عندما صاغ حكايات "أوتا هندريك " الراوى الشامانى فى ١٩١٣ ، فقد أدرجها بذلك ضمن الأدب الإفريكانى ، وهكذا كان يقدم نصوص أطفال تجعل قراءه الجدد يرون أعمالاً مطبوعة وفى نفس الوقت يتعرفون على التاريخ الشفاهى ، واليوم نرى كاتباً مثل " إزكيا مفاليل "، بقصصه الخرافية الساخرة المكتوبة بالإنجليزية ، نراه يقوم بنفس المهمة ، فهو يقدم لقرائه تقنيات العمل المكتوب ، وفى نفس الوقت يقترب من منابع الماضى السحيق ، وحتى قصة " نادين جورديمر " هنا تستخدم إحدى التقنيات الشفاهية ، وهى فى هذه الحالة تستخدم شكل الإشاعات .

فى هذه العملية كلها - وهى الحدث الرئيسى والمستمر فى شبه القارة - نجد أن الكاتب قد لعب دوما دوراً حيوياً وبالغ الأهمية فى عملية تحول الخبرة الشفاهية إلى خبرة كتابية ، حيث يلتقى عالم الطباعة والكتب والتغليف بلغة البيئة ، تلك هى السمة الرئيسية لأعمال مختلفة مثل قصة " أ. س. جوردان " فى "ملك المياه " ، وعند " بولين سميث " فى "المعلم" ، وعند " د.ب.ز.نتولى " فى " مرة فى القرن" ، ولدى " بيسيه هيد" فى " العشاق" ، و" إلزا جوبيرت "فى " لبن" كل هذه القَصص تميز الكاتب كناسخ وصائغ ومسجل للكلمة المنطوقة .

والترجمة أيضًا إحدى أهم السمات المميزة للأدب الجنوب إفريقى ، ففى بلاد تتزاحم فيها اللغات مثلما يتزاحم الناس فى الأسواق - وربما لا يحدث ذلك فى المجال الأكاديمى – فإن الكاتب يخسر الكثير إذا لم يكن قادراً على الانتقال من لغة إلى أخرى بشكل تلقائى وسريع . ويمكننى أن أقرر أنه لا يوجد بين الكتاب أصحاب القصص فى هذه المجموعة كاتب واحد محصور فى مصادر لغة واحدة ، وفى هذا الوضع القائم نجد أن محاولة النقاء اللغوى مسألة غير واردة ، فبعض الكتاب يكتبون بأكثر من لغة ، ومعظمهم على دراية بالكتابة بأكثر من لغة ، لذلك من الطبيعى أن يزدهر الأدب بالترجمة والإعداد ، ففى اللحظة التى تسافر فيها الفكرة الأدبية عبر اللغة ، فإنها تدب فيها حياة جديدة ، وتكتسب صدقًا جديداً ، ويعاد صياغتها فى نسيج جديد إن التعقيد الذى يحدث به ذلك التقاطع أو الالتقاء اللغوى يتم على درجة عالية من التعقيد والتركيب بحيث لا يمكن رصد تفاصيله هنا ، ويكفى القول بأن العملية البسيطة للمصادر والتأثيرات التى تجعل الأدب ينمو ويزدهر فى

ثقافة أحادية اللغة – هذه العملية يجب أن يضاف إليها عنصر الترجمة الذى ثبت أنه عنصر فعال وخلاق فى إثراء الأدب ، وينبغى أيضًا ألا ننظر إلى عملية الترجمة هذه على أنها مجرد النقل من لغة غير معروفة على نطاق واسع إلى لغة أكثر انتشاراً ؛ فقد أثرت الترجمة على بعض الكتاب بطريقة عكسية ، بمعنى أنهم اهتموا وأفادوا بالنقل من لغة منتشرة إلى لغة أقل انتشاراً .

مع ذلك تظهر هذه المجموعة القصصية باللغة الإنجليزية ، وأغلب المواد كُتبت فى الأصل بالإنجليزية ، وبعض هذه القصص لكتاب لم يكونوا يفضلون الإنجليزية مثل " ر.ر.ر. دولومو" ، ولا أعنى بذلك القول بأن أدب الجنوب الإفريقى هو فى الحقيقة أدب إنجليزى نقل إلى منطقة مدار الجدى الإفريقية حيث تأثر ببعض الخبرات الجديدة ، نعم قد تتوافق بعض الصيغ الجديدة لتدخل فى نموذج أدب المدينة "المتروبوليتانية" الذى كان موجوداً فى المستعمرات الإنجليزية القديمة ، لكن اختيار هذه المجموعة لتصدر باللغة الإنجليزية ليس مقصوداً به الإيهام بأن هذا أدبٌ إنجليزىٌّ .

إن اللغة الإنجليزية ـ فى الحقيقة ـ قد أدت خدمة بوصفها لغة أولى أو لغة ثانية لغالبية كتاب المنطقة التى عينتها هذه المجموعة منذ عام ١٨٠٠ على الأقل ، إلا أنه لم يثبت أن اللغة الإنجليزية كانت هى الوسيط اللغوى الوحيد الذى يقع عليه الاختيار ؛ إذ إن جمهور القراء المقصودين لم يكونوا يتكلمون الإنجليزية ، لقد أثبتت اللغة الإنجليزية جدواها فيما يخص مجال الأعمال ، أما فى مجال الأدب فالأمر يشوبه الشك ؛ فاللغة الإنجليزية لغة مستوردة حديثًا ، حيث لم تؤثر – بعد – فى الخبرة

العميقة للناس ، كما أنها لغة عالمية عامة جداً ، بحيث لا تستطيع الإمساك بدقائق الأقوال والمشاعر ، إلا أن قوة وفائدة اللغة الإنجليزية هى الوصول إلى خارج حدود الإقليم ، وخارج "جيتو" العقلية المحلية ، فماتزال هذه القوة متفوقة وفعالة ، ومعظم أعمال الكتاب التى انتقلت إلى خارج حدود الجنوب الإفريقى انتقلت عن طريق اللغة الإنجليزية فى أشكال أدبية مقبولة لدى الذين يقرأون بالإنجليزية فى العواصم الكبيرة ، ولعلنا نجد أمثلة واضحة لدى كاتبة مثل " أوليف شراينر" التى قدمت بالإنجليزية أول رواية كولونيالية ذات أهمية منذ أكثر من قرن ، "ووليم بلومر" ، "ودوريس ليسنج" ، "وآلن باتون" ، "وإيزاكيا مفاليل" ، "ونادين جورديمر" ، و "بيسى هيد" ، و"إلزا جوبيرت" ، وآخرين ، ولكن ما هو مقبول وذو معنى فى لندن ونيويورك فى زمن ما لا يكون بالضرورة مفيداً ومقبولاً وذا معنى هنا . إن الكتاب هنا قد خدعوا أنفسهم زمناً طويلا بأن النجاح فى الخارج ، ومن خلال اللغة الإنجليزية فقط هو أعلى وسام وأكبر دليل على نجاحهم ككتاب : ولكن الصحيح أيضاً أن البيئة التى نشأوا فيها والتى تستقبل إنتاجهم الأدبى هى الأكثر حسماً فى تأثيرها عليهم ، وعلى هذا فإننى أرى - فيما يخص هذه المجموعة - أن المجال الحيوى لهؤلاء الكتاب يكمن هنا - فى شبه القارة المفعمة بالخيال ، هذا الخيال يتخذ من الوحدة والتنوع فى شبه القارة معياراً ونموذجاً ، والذى يطير فرحاً وبهجة إزاء حركات التوفيق الجريئة وما ينتج عن الشىء ونقيضه من جديد ، فهذا فى مجمله أكثر أهمية من أية موهبة فردية أو عمل أدبى فذ ينتج عن هذا الوضع .

لقد اخترت مجموعة القصص هذه دون اعتبار كبير لمسألة الشهرة أو المكانة ، وتجنبت عن وعى الحكايات المفضلة لدى محررى المختارات القصصية السابقين ، وأعنى القصص المكررة فى كتب كثيرة كما لو أنها وحدها التى تم اكتشافها ، وربما يجد القارئ أن معظم القصص الواردة هنا غير معروفة حتى لدى دارسى الأدب المتعمقين ؛ وأنا واثق بأن هذا الوضع لن يبقى على هذا الحال بعد ذلك .

أما عن كون هذه المجموعة مكتوبة بالإنجليزية ، أو مترجمة إلى الإنجليزية ، فإن هذا من باب المصادفة فقط ، إن التاريخ الحقيقى لأدب الجنوب الإفريقى يقع بين صفحات هذه القصص ، وسوف يظهر ذلك فى الوقفات والقفزات التى ستجرى فى ذهن القارئ وهو ينتقل من موقف لآخر ، مثلما صاغ الكتاب قصصهم جملة إلى جانب أخرى ، أرجو أن يظهر شكل "الموزييك" الذى هم أنفسهم على اختلاف ألوانهم يشكلون أجزاءه بوضوح . إنها قطعة موزييك فريدة فى نوعها ، شاملة للمشهد الأدبى عند رؤيته ككل .

ستيڤن جراى - چوهانسبرج .

أصل الموت

ترجمها إلى الإنجليزية عن لغة الناما و.هـ.بليك

يحكى أنه ذات يوم أرسل القمر[1] السلحفاة[2] للبشر قائلاً: " اذهبى للبشر وأخبريهم : " مثلما أموت وبموتى أحيا ، أنتم أيضًا سوف تموتون ، وبموتكم تحيـون " ، انطلقت السلحفاة بـالرسالة ، وبينما هى فى طريقـها أدركـها الأرنب البـرى الذى سـألها : " أية رسـالة تحـملين ؟ " أجابتـه السلحفاة : " أرسلنى القمر للبشر لأخبرهم : بأنه مثلما يموت وبموته يحيا ، هـم أيـضًا سوف يموتـون ، وبموتهم يحـيون " قال الأرنب البـرى : " دعينى أذهب بالرسالة ، فأنت لست بعداءة بارعة " .

جـرى الأرنب بسرعـة وهو يحمل تـلك الكلمات ، وعندمـا وصل للناس ، قال : " لقد أرسلنى القـمر لأخبركم بهذه الرسـالة" : " مثلما أمـوت ، وبموتى أفنى ، فـإنكم سـوف تموتـون أيضًـا ، ويكون فى ذلك فناؤكم التام " .

عاد الأرنب البرى بعد ذلك إلى القمر ، وأخـبره بما قاله للبشر ؛ ووبّخه القمر بغضب ، قائلاً : "كيف تجرؤ على إخبار الناس بشىء لم أقله ؟ !" بـعـد هـذه الكلمـات رفع القمر قطعـة من الخشب وضربه على أنفه منذ ذلك اليوم ، صار أنف الأرنب البرى مشقوقًا .

(١) القمر فى النص الإنجليزى مؤنث .

(٢) فى نصوص قبائل "الهوتنتوت" – وهم جيران قبائل "البوشمان" أصحاب هذا النص – يرسل القمر الحرباء ، وسترد فى سياق قصة المنفى .

اليمامة وابن آوى(٣)

جمعها ونقلها عن لغة الزاهوسا **فرانك براونلى**

بين كل الطيور لا يوجد ما يشبه اليمامة ، كل تصرفاتها ناعمة ، ولا تؤمن بوجود الشر أبدًا ، أما ابن آوى فهو كائن ممتلئ بالحيل والمكر.

فى يوم من ذات الأيام حطت اليمامة على فرع شجرة ، حيث كانت تسهر على أفراخها الثلاثة الصغار الذين كانوا يستكنون معًا فى عشهم المصنوع من أعواد القش ، عندما مر ابن آوى تحت الشجرة ، كانت اليمامة تغنى لأفراخها بهدوء ودعة ، سمع تغريد اليمامة ، فجلس تحت الشجرة ، ونظرلأعلى ، رأى اليمامة وقال : " يوم طيب يا ابنة أختى الصغيرة " .

ردت اليمامة : " يوم طيب يا خالى "

سأل ابن آوى : " يا يمامة ، ماذا تفعلين عندك بأعلى الشجرة ، وما قصدك بالغناء ؟ "

قالت اليمامة : " أنا أغنى لأفراخى ليناموا مطمئنين هادئين فى عشنا القش " .

قال ابن آوى : " غناؤك، يا يمامة ، جميل جداً . كم فرخًا لديك ؟ "

(٣) انظر للمقارنة : اليمامة وابن آوى فى كليلة ودمنة .

قالت اليمامة : " إنهم ثلاثة " .

طاف ابن آوى بسرعة حول المكان ليرى إذا ما كان هناك أحد يراقبه أم لا ، ثم عاد لمكانه تحت الشجرة وقال : " يا يمامة ، أنت لديك عائلة كبيرة . . . وأنا جائع ، ألقى لى بواحد من أفراخك كى آكله " .

قالت اليمامة : " لا يخطر ببالى أن أفعل هذا " ؛ ذلك لأن كل أفراخها لهم ذات المحبة فى نفسها .

قال ابن آوى متخابثًا : " هل يطاوعك قلبك أن ترقدى بأعلى الشجرة ، وأنت الكائن الذى يقال إن كل تصرفاته غاية فى النبل ، تجلسين هناك بصحبة ثلاثة أفراخ سُمان ، بينما كائن بأسفل يتضور جوعاً ؟ انظرى فقط لضلوعى كيف تبرز من الجوع ! " وراح يشفط بطنه حتى تبرز ضلوعه بحدة .

قالت اليمامة : " يا بن آوى ، أنا آسفة جدًا ، لكن أفراخى أعزاء على نفسى ، ولن ألقى بأى منها " .

راح ابن آوى يذرف الدمع ، ثم رقد وقال : " يا يمامة ، هل ستبقين جالسة هناك مع ثلاثة أفراخ سُمان ، بينما هناك من يموت أمام عينيك ؟ ! " رقد ابن آوى ، وراح يعوى وينتحب .

قالت اليمامة : " يا بن آوى ، اذهب لمأواك واحصل على طعامك من حيث اعتدت الحصول عليه " .

عند ذلك تحرك ابن آوى بسرعة ناهضًا فى غيظ ، قال : " أنت يا هذا الشىء الضئيل هناك هل تهينيننى بينما أنا أحدثك عن جوعى الشديد ؟!

لقد عاملتك بصبر شديد ، إلا أن صبرى قد نفد ، الآن . إذا لم تلقى لى بواحدٍ من أفراخك سوف أتسلق الشجرة إليك وآكل ؛ ليس فقط أفراخك ولكنْ أيضًا سآكلك أنت وعشك القش " .

ارتعدت اليمامة من هذا التهديد ، وخافت إلى حد أنها نسيت أن ابن آوى لا يقدر على تسلق الشجر ؛ ولكى تنقذ فرخيها الآخرين وعُشها ونفسها ، ألقت إليه بواحدٍ من أفراخها .

أكل ابن آوى ذلك الفرخ ، وبعد أن أتم أكله طاف بالمكان ليرى إن كان هناك ثمة من يراقبه أم لا ، ثم عاد لمكانه تحت الشجرة ، وراح يعوى وينتحب مرة أخرى ، سالت دموعه من عينيه ، رقد على الأرض وتصنع الموت ، ثم نظر لأعلى حيث تقيم اليمامة ، وقال : " أوه ، يا يمامة ، أنا أحتضر من الجوع ، ساعدينى ، كم فرخًا لديك ؟ "

ردت اليمامة : " عندى اثنان فقط ، اثنان ، اثنان " .

قال ابن آوى : " يمامة طيبة ، ألقى لى بواحدٍ آخر فقط حتى لا أموت " .

ردت اليمامة : " لا ، لا ، لا ، لم يبق لى سوى اثنين فقط ، اثنين ، اثنين " .

قال ابن آوى : " هل نسيت تساهلى معك ؟ قلت : إذا لم تلقى لى بواحد آخر ، فسوف أتسلق الشجرة ، وآكلك أنت وأفراخك وحتى عُشك القش ؛ ألقى لى بواحدٍ آخر حتى لا أموت من الجوع " .

قالت اليمامة : " أنا عندى اثنان فقط ، اثنان ، اثنان " .

طاف ابن آوى بسرعة حول المكان ليرى إن كان هناك ثمة من يراقبه أم لا ،عاد وقال : " يا يمامة ، استعدى لنهايتك ، سوف أتسلق الشجرة لآكل كل أفراخك وآكلك أنت وحتى عُشك القش" .

كانت اليمامة خائفةً جداً حتى أنها ألقت بثانى أفراخها ، أكله ابن آوى بسرعة وجلس ساكنًا لبرهة ؛ ثم جوّل بسرعة حول المكان ليرى إذا ما كان هناك أحد يراقبه أم لا، ورجع لمكانه تحت الشجرة ثم قال : " يا يمامة ، ساعدينى ، أنا أحتضر ؛ ألقى لى فقط بواحد آخر من أفراخك ، وإلا رقدت تحت شجرتك حتى أموت ، كم فرخاً لديكِ ؟ " .

ردت اليمامة : " واحد فقط ، واحدٌ فقط ، واحد فقط ، إذا كان يجب أن تموت ، فمت إذن " .

قال ابن آوى : " يا يمامة ، الآن ، لقد أهنتينى بشدة ، لقد احتملت الكثير منك . إذا لم تلقى لى بذاك الفرخ ، سوف آكلك وعُشك القش" . اندفع ابن آوى أثناء حديثه إلى جذع الشجرة وتصنع التسلق .

ارتعدت اليمامة ، ونسيت أن ابن آوى لا يقدر على تسلق الشجر، وألقت بآخر أفراخها ، أكله ابن آوى فوراً ، وبعد أن طاف بسرعة حول المكان ليرى إن كان هناك من يراقبه أم لا ، ذهب فى طريقه .

نظرت اليمامة أثناء جلوسها على فرع الشجرة لبيتها الخاوى وراحت تنوح بحزن : " ووو، ووو، ووو " . وبينما كانت تنوح لنفسها فى هديل حزين ، كان يمشى بالقرب من مكانها مزهواً " الندوى " ، وهو "الكركى الأزرق" عندما سمع هديل اليمامة الحزين على الشجرة ، نظر لأعلى وقال : " أختى الصغيرة ، ما هذا الهديل الحزين؟ ما سبب حزنك ؟ "

في بادئ الأمر كل ما استطاعت اليـمامة قوله : " ووو، و . . . ، و . . . " ثم قالت : " كان ابن آوى هنا ، ووو . . . وطلب منى أن ألقى إليه بأفراخى ، ووو . . . ، ثم هددنى بأنه سـيأكلنا جميعاً ، فـألقيت إليه بفـرخ ، ووو . . . ، هـــدد مـرة ثانية ، فـألقيت إليـه بالفـرخ الثانى ، ووو . . . ، ووو . . . ، وهدد المرة الثالثة ، فألقيت إليه بالفرخ الثالث والأخير، ووو، ووو، ووو " .

وقف الكركى ساكنًا لوقت طويل وهو ينظر لأعلى حيث تقيم اليمامة ، ظل يمشى ببطء فى هذا الطريـق وذاك ، ثم وقف ساكناً تحت الفـرع الذى كانت تقعد عليـه اليمامة ، أدار رأسه ناحية طـريق جانبى ، حتى إنه كان ينظر لأعلى بعين ، وينظر بالعين الثانيـة لأسفل ؛ رفع جناحيه ووضعـهما بحرص على ظهـره مثلمـا يفعل الكراكى عندمـا يستحـوذ عليهم التـفكير العميـق ؛ ثم قال : " أنا حزين لفقـدك أفراخك ، لكنك آمنة فى مكانك فوق الشجرة ، من الذى قال لك إن ابن آوى يمكنه تسلق الشجر ؟ ! "

أجابته اليمـامة : " ووو ، ووو ، ووو ، هو ابن آوى الذى قال إنه سوف يتـسلق شجرتنا ، وأنا من خـوفى نسيت أنه لا يعرف كـيف يتسلق الشجر ، ووو، ووو، ووو، بسبب بلاهتى ضاع أولادى " .

قـال الكركى : " أخـتى الصغـيـرة ، ليس فـقط بلاهتك هى التى أفقدتك أفراخك ؛ بل إن بساطتك هى التى سببت لك هذا الحزن ، سوف أنظر فى كيفية التصرف مع ابن آوى هذا " ، بهذا القول ، انصرف الكركى بخطوات واسعـة وقد عَـدَّل من وضع جناحيـه بالطريقة التى يكون عليـها الكراكى عندما يعـتزمون أمرًا ، كانت خـطواته بطيئة ، وهو مسـتغرق فى

التفكير ، أجفلته خشخشة مفاجئة بين الحشائش والأعشاب القصيرة بين أشجار الغابة . بسط جناحيه استعداداً للطيران ، عندئذ لاحظ وجود ابن آوى ، وأنه هو السبب فى هذا الترويع الذى أصابه . وبالتالى عَدَّل من وضع جناحيه اللذين كانا مبسوطين ليبدو لابن آوى أنه كان يستعد للطيران، بدا على ابن آوى أنه كان يعدو من مسافة بعيدة ؛ لأن لسانه كان متدليًا من فمه ويقطر اللعاب من طرفه الأحمر.

وقف الكركى صامتاً وأدار رأسه جانبًا حتى إن إحدى عينيه نظرت لأعلى ، والثانية وقعت على ابن آوى الذى انحنى بتذلل بين الشجيرات والحشائش ، قال ابن آوى لاهثاً : " يوم . . طيـ . . ب ، يا جدى ، هذه مقابلة غير متوقعة" ، وفى ذات الوقت سحب لسانه الذى يقطر منه اللعاب إلى داخل فمه ، لكنه مده للخارج مرة أخرى ليعطى نفسه فرصة للتنفس براحة .

حدق فيه الكركى عن كثب - من جانب واحد من رأسه - وقال :
" ما هذه الرحلة العاجلة التى جعلتك تصل إلى هذه الحالة من الإعياء ؟ "

سحب ابن آوى لسانه ـ الذى كان متدليًا إلى جانب فمه ـ للداخل ، ثم بلع لعابه واضطر لإخراج لسانه مرة أخرى ، رد من بين لهاثه : "عندى زوجة وعائلة من ثلاثة جراء فى بيتى عند الصخور، ها ، ها ، ها ، طلب "جـرو" من جرائى طعامًا طريًا ـ ها ، ها، ها : وأنا ألهث بالفعل من الآن ، لكن عفوك يا جدى ، أرى الجو ينذر بعاصفة من المطر ، ويجب أن أعود لبيتى " .

قال "الكركى" : " إذا ما كان يجب أن تعود إلى بيتك ، فيستحسن أن تفعل ذلك فورًا ، أنتم يا أهل المشى على الأرض تتــحركون ببطء ، أما بالنسبة لنا نحن الذين نطير ، فإن المسافة الطويلة ليست ذات بالٍ " .

قــال ابن آوى قــاصــدًا إرضــاء وتملق الكــركى : " كــووو ، أنتم يا أصحاب الأجنحة العريضة ؛ كنت دائماً أحسدكم يا جماعة الطيور ، فأنتم لا تبالون بالمسافات الطويلة " .

قال "الكركى" : " قابلنى غدًا فى هذا المكان وفى مثل هذا الوقت، ومثلما علمت أبنائى الطيران ، كذلك سوف أعلمك " .

وافق ابن آوى ، شاكراً الكركى لوعده له بتعليمه الطيران ، على أن يكون فى هذه البقعة فى اليوم التالى ، وانسحب ماشيًا ، ثم اختفى بين الشجيرات .

فى اليوم التالى تقابل ابن آوى والكركى فى المكان المتفق عليه ، مشى الكركى ذهابًا وإيابًا بخــطوات واسعــة بطيئــة ؛ بينمــا جلس ابن آوى على حافــة أجمة كثــيفة ، قــال "الكركى" : " يا بن آوى إن كنت ترغب فى تعلم الطيران ، إذن ، لابــد من أن تقوم بكل ما أخــبرك به " ، وافق ابن آوى على ذلك ، قال الكركى : " هل ترى شجــرة السنط تلك التى يسيل منها الصمغ ؟ اذهب إليها وافرك جسمك كله بالصمغ " .

ذهب ابن آوى إلى الشجرة وفرك جسمه بالصمغ ، ثم عاد للكركى، وقال : " إن تعلم الطيــران أمر غيــر مريح ، كل شعــرى التصق ببعــضه بطريقة مــزعجة ، " لم يتفوه الكــركى بشىء ، لكنه راح يقتلع الريش من جســمه ويلصــقه على الصــمغ الذى يغطى جسم ابن آوى ، حتى امــتلأ جســمه بالريش ، ثم أخذ الكركى ريشــة طويلة من ذيله ورشقــها فى ذيل ابن آوى .

كان ابن آوى مســروراً جداً بمظهره حتى إنه دار على قدميــه الخلفيتين ورفرف بقدمــيه الأماميتين ، قائـلاً : " كووو ! اليوم أنا طائر ، لن تكون المسافـات الطويلة ذات بال بالنسبة لى ، " حـاول الطيران لكنه وجد نفسه غير قادر على الطيران ، لذلك مضى إلى الكركى قائلاً : "ما هذه الحيلة ؟ لقد جعلت منى طائرًا ، لكننى غير قادر على الطيران بعد " .

قال الكركى : " أنت متعجل جدًا ، ما زال علىّ أن أعلمك الطيران بنفس الطريقة التى أعلم بها أبنائى ، يجب أن تعتلى ظهرى وسوف أصعد بك عاليًا فى الهواء ، وعندما أقول لك طِر ، لابد من أن تنزل عن ظهرى وتطير ، هكذا أعلم أبنائى الطيران " .

لم يقل ابن آوى شيـئًا ، جلس ونظر إلى السمـاء ، ثم نظر للكركى متشككًا فى الأمر .

قـال الكركى : " إذا نظرت إلىّ بهـذه الطريقـة المهـينة فلن أعلمك الطيران" .

قال ابن آوى : " سامحنى يا ريس ، لم أقصد أية إهانة ، كنت فقط أحاول قياس المسافة ! "

فى آخر الأمر ، اعـتلى ابن آوى ظهر الكركى ، وعندما اسـتقر على ظهره بثبات ، بسـط الكركى جناحيه وارتفع عاليًا ، وعاليًـا ، واستمر فى الارتفاع . فى النهاية قال : " الآن ، يا بن آوى ، استعد للطيران " .

نظر ابن آوى لأسفل ، كان على ارتفاع كبير جدًا حتى أن النساء اللاتى يعزقن الأرض فى الحقول بَدَوْنَ مثل النمل الصغير ، وظهرت أكواخهن مثل نقاط بُنية صغيرة ،

قال الكركى : " يا بن آوى ، عندما أقول " طيران " لابد من أن تقفز من فوق ظهرى وتطير. يا بن آوى ، الآن ... ' "طيران" " . وفى اللحظة ذاتها سحب الكركى نفسه من تحت ابن آوى . حرك ابن آوى رجليه بطريقة ظن أنها الطيران ، لكن الريش فقط هو الذى انتشر، انتشر الريش وراح ينتشر، وهو يهوى حتى أصبح وراءه ذيل طويل من الريش ، نظر لأسفل ، ورأى النساء على الأرض يعزقن الحقول ، صاح : "هاى ، يا نساء ، أبعدن معازقكن حتى لا أسقط عليها " ، سمعت النساء صوتًا آتيًا من السماء ، خفن ، وألقين جميعًا معازقهن وجرين مبتعدات عن المكان، سقط ابن آوى فوق المعازق مرتطما ارتطامة شديدة ، وهكذا مات .

ملك المياه(٤)

نقلهــا عن لغة الزهوسا — أ . س . جوردان

حسبما تحكى بعض الحكايات حـدث أن " تفولاكو " صائد الحيوانات الشهير وابن الزعيم الكبير ، كـان عائداً لموطنه مع رفاقه الشباب بعد رحلة صيد اسـتغرقت عدة أيام . فـى ليلة ضبابية ضلوا طريقـهم فى الغابات ، وعندما أشرق فجر اليوم التالى ، وجدوا أنفسهم يسيرون فى أرض منبسطة مكشوفة ، أرض قـاحلة لم يروا مثيلاً لها من قبل . قـرب منتصف النهار صارت الشمس شديدة الحرارة كان مع الشباب متاع كثير : جلود وجماجم الطرائد الكبيرة ، وهيـاكل الطرائد الصغيرة ، بالإضافة لملابـسهم ومعدات الصيد ، كانوا يشعرون بالجوع والعطش ، ولم يكن هناك أية بقعة يمكن أن يعسكروا فـيها ، فـلا توجد أشـجار ، أو حطب لإشعـال النار ، ولا ماء أيضاً لذلك مـشوا متـعبين فى ضجـر ، وصارت أمتـعتهـم أثقل فأثقل ، وتلوت أحشاؤهم من الجوع ، وجفت شـفاههم ، واحترقت حلوقهم بنار العطش .

أخيراً ، عندما بدأت الشمس تنحدر نحو الغرب ، فجأة ظهر أمامهم وادٍ خصب يرقد بين جـبلين ، تحت أقدام الجبلين وقفت غابة صـغيرة من

(٤) ترجمها إلى الإنجليزية عن لغة الزاهوسا : أ . س جوردان .

أشجار باسقة أحاطت بنبع جميل من الماء البارد المثلج ، بصيحات الفرح ، أنزل الصيادون الشباب متاعهم على العشب الأخضر فى الظل وهرعوا نحو النبع ، ثم راحوا يتناوبون الوقوف والشرب فى مجموعات ، كان "تفولاكو" ، فى المجموعة الأخيرة ، على رأس مجموعة من أتباعه المباشرين ، عندما ركع وانحنى ليشرب ، جف النبع فجأة ، وكذلك الجدول الذى كان يجرى خارجاً منه الماء ، تراجع الشباب مجفلين . تبادلوا النظرات فيما بينهم ، لكنهم لم يتفوهوا بشىء . وقف " تفولاكو" محدقاً فى النبع ، ثم طلب من أتباعه أن يتقدموا ، ويركعوا وينحنوا مرة أخرى ، أطاعوا أمره ، فامتلأ النبع بالماء وبدأ فى الجريان كما فى السابق . تقدم " تفولاكو" للأمام وركع بجوارهم ، ولكن بمجرد أن ركع ليشرب ، اختفى الماء ثانية ، وعندما تراجع ظهر الماء ، فشرب رفاقه حتى ارتووا . مضى " تفولاكو" راجعاً لمكانه فى الظل صامتًا ، ومن مكانه أشار للجميع بالاقتراب .

قال : " يا رفاق ، لقد شاهدتم جميعًا ما حدث توًا ، أؤكد لكم أننى لا أعرف ما المقصود بذلك ! ، وأنتم تعرفوننى جيدًا ، أنا لم أمارس السحر مطلقاً ، ولا أتذكر أننى قد فعلت أى إثم قبل أو أثناء أو بعد رحلة الصيد هذه ، وبالتالى ليس لدى ما أعترف لكم به ، يا رفاق ، يبدو كأن لهذا الأمر مغزاه الخاص ، مغزى لا يمكن لمن هو فى مثل أعمارنا أن يدركه ومع ذلك ، أوصيكم بأن تشرعوا فى الإعداد لوليمة اليوم : جمع الحطب ، إشعال النيران ، سلخ رؤوس الحيوانات والشواء ـ كما لو أن شيئًا لم يحدث ، سوف نحتفل ونمتع أنفسنا ، لكن قبل أن نترك هذا النبع ، لابد

من أن أشرب ، فنحن لا نعـرف أين ومتى سوف نجد الماء مـرة أخرى فى هذه الأرض الغريبة " .

شرع الشباب فى أداء واجبـاتهم المحددة لهم ، البعض يسلخ الطرائد البرية ، والبـعض يجمع الحطب ، والبعض يشعل النار ، والـبعض الآخر يُقطع رؤوس الحيـوانات المسلوخة لقطع صـغيرة ويشـويها ، وهكذا مـحا الانشغـال فى إعداد الطعـام إحسـاس الجوع فى الوقت الراهن من عـيون الصحبة ، وأوقف جريان لعابهـم ، حاول " تفولاكو" أن يأكل بعضًا من قطع اللحم المشوية ، لكن ذلك زاد من عطشه ، وهكـذا وقف على مسافة مراقباً النبع ، امـتلأ النبع مرة أخرى ، جرت المياه فى الوادى مـثلما كانت عندما اقتربوا من هذا المكان الغريب لأول مرة .

عندما صارت الوجـبة الرئيسيـة جاهزة ، لحق برفاقه كـما وعدهم ، لكنه وجد من المستـحيل عليه أن يأكل بسبب اشتـعال حلقه من العطش ، فجلس هناك فقط مشاركًا فى الثـرثرة ، وحاول المشاركة فى نكات الشباب التى صاحبت الطعام .

بالطبع ، جـعل أكل اللحم الـشبـاب عطشى مـرة أخـرى ، ولذلك تناوبوا الشرب من النبع ثانية ، تقدم " تفولاكو" مع مجموعته ، لكن مرة أخرى ، غاض النبع وجف بمجرد أن انحنى ليشرب .

لم يعد من شك الآن ، أنه هو ، وهو وحـده فقط ، الذى يجب ألا يشـرب ، هو وحـــده من يجب أن يموت من العطـش والجـوع ، هو ابن الزعـيم الكبيـر ، لكن أية قوى تلك التـى تسيطر على هذا النبع ؟ تحـرك مبتعدًا عن النبع وراح يفكر مليًا ، لقد سمع حكايات عن " ملك المياه "

الذى يمكنه أن يُجرى الأنهار أو يجففها ، وتوصل إلى أن ملك المياه ، مهما كانت هيئته أو كينونته ، لابد من أنه يسكن هذا النبع ، وأن هذا الملك لابد من أنه تعرف عليه بوصفه ابن الزعيم الكبير ، لذلك فإن هذا الملك لابد من أنه قد اعتزم أن يجعل ابن الزعيم الكبير يدفع ثمنًا باهظاً من أجل ماء هذا النبع أو يموت عطشًا ، لكن ما الثمن الذى يُنتظر أن يدفع له ؟ عندئذ انعطف فجأة ، ومضى مسرعًا إلى حافة النبع ، و . . فى يأس مطبق ، نادى بصوت عالٍ : " ملك المياه ! إننى أموت من العطش، اسمح لى بأن أشرب ، وسوف أهب لك الأخت الأجمل من بين أخواتى لتكون زوجة لك " .

فى الحال امتلأ النبع ، وانحنى " تفولاكو " وأطفأ ظمأه ، بينما كان جميع رفاقه ينظرون فى صمت ، بعد ذلك أخذ نصيبه من اللحم .

بعد هذا ، شعر كل الرفاق بالارتياح ، وتعرى الشباب واغتسلوا فى الجدول البارد لاستعادة نشاطهم قبل الرحلة الطويلة التى تنتظرهم ، وأخذ " تفولاكو" نصيبه من كل هذا وراح يستمتع متناسياً ما حدث منذ قليل .

عند غروب الشمس ، ملأوا قربهم بالماء من النبع ، رفعوا أمتعتهم واستأنفوا السير لموطنهم . فى عصر اليوم الرابع كانوا ضمن حدود مقاطعة زعيمهم الكبير ، وللإعلان عن اقترابهم غنوا أغنية صيدهم المفضلة :

يى ها هى ! يى ها هى !

إعصار شديد ، هو الجاموس البرى !

اجروا لبيوتكم ، يا من تخافونه . .

يطاردونه من بعيد ، يطاردونه من قريب !

أما نحن ، فنقتل أقواها ،

يى ها هى! يى ها هى!

إعصار شديد، هو الجاموس البرى !

هكذا دخل " تفولاكو " ورفاقه بوابات " القرية الملكية " بين مدائح شعراء القبيلة وتهليل النساء ،

انتهز " تفولاكو " أول فرصة ، بعد أن هدأت مظاهر الترحيب بعودة الصيادين ، ليخبر قومه بما حدث عند النبع ، لا أحد ، ولا حتى أكبر أعضاء مجلس المستشارين سنًا كان لديه فكرة عن كيف تبدو هيئة " ملك المياه " ! اعتقد أغلبهم أنه منذ أن سكن فى (ـ) الماء ، صار يشبه ثعلب ماء عملاقًا أو حيوانًا زاحفًا عملاقًا ، بينما عبر البعض عن أملهم فى أن يكون " روحًا شبيهًا بالإنسان ، لكن الجميع بما فيهم الأميرة الجميلة ، شعروا بأن العرض الذى قدمه " تفولاكو " كان الحل الوحيد المطروح أمامه فى مثل هذه الظروف ، لذلك توقعوا قدوم " ملك المياه " .

ذات أصيل ، بعد اختفاء عدة أقمار ، اقترب من " القرية الملكية " إعصار مخيف ، عند رؤيته ، هرع الناس إلى داخل أكواخهم وأحكموا إغلاق الأبواب ، عندما أصبح قريبا جدًا ، قلص الإعصار نفسه وتوجه مباشرة إلى كوخ الفتيات ، حيث كانت الأميرة الجميلة والبنات الأخريات بداخله ، وبدلاً من أن يجتاح الإعصار الكوخ ويدفعه أمامه ، مثلما تفعل الأعاصير عادةً ، إلا أن هذا الإعصار طوى نفسه واختفى عند الباب .

عندما عاد الهدوء ، اكتشفت الفتيات أنهن موجودات فى صحبة ثعبان هائل الطول ، كان حجمه أكبر من فخذ رجل ضخم ، لم يرين من

قبل ثعباناً بمثل هذا الحجم ، فى ذلك الحين ، خمن الجميع ، أنه لابد من أن يكون الـ " نكانيمبا " ، ملك المياه ، قد جاء يطالب بعروسه ، خرجت الفتيات واحدة بعد الأخرى ، إلى أن صارت الأميرة وحدها مع العريس . اعتزمت الأميرة أن تتبع الفتيات الأخريات ، لكن بمجرد أن نهضت لتمضى ، مد جسده بسرعة ، والتف حول جسدها ، وأراح رأسه على نهديها وحملق فى عينيها باشتهاء .

اندفعت الأميرة خارجة من الكوخ بحملها الثقيل المحيط بجسدها ، ودون أن تتوقف للتحدث مع أى امرئ فى القرية الملكية ، بدأت رحلة طويلة ، إلى أرض عشيرة أمها ، بأعلى قمم الجبال ، وفى أثناء ذهابها ، غنت بصوت رفيع حزين :

أنا ابنة شعب التفولاكو ، أيعقل أن ..

أنا ابنة شعب التفولاكو ، أيعقل أن ..

أضاجع ذلك المدعو ثعبان ، ثعبان ؟

وفى رده غنى "ملك المياه" بصوت عميق :

طويل ورشيق ، ذلك أنا ، رشيق جداً ،

طويل ورشيق ، ذلك أنا رشيق جداً ،

ألا يمكننى مضاجعة تلك التى تدعى امرأة ، مجرد امرأة ؟

وهكذا سافرا عبر غابة ووادٍ ضيق ، طوال يوم وليلة ، كل منهما يغنى مفتخرًا بنفسه ، عند الغسق وصلا إلى موطن عشيرة أم الأميرة .

لكن الأميرة قررت الانتظار بعض الوقت فى الظلال ، عندما تأكدت من عدم وجود أحد بكوخ الفتيات ، دخلت إلى هناك خفية وأغلقت الباب . بعدئذ ، ولأول مرة وجهت كلامها مباشرة إلى حملها الثقيل :

ملك المياه القوى !

المالك الوحيد لعصب الحياة !

بمشيئتك تجرى الأنهار أو تجففها !

منقذ حياة الصيادين من العطش !

أنت يا من تولد فى أجنحة العواصف القوية !

أنت يا ذا الطيات الكثيرة طويل ورشيق !

فى هذه الأثناء ، كان " ملك المياه " يستمع إليها رافعًا رأسه عن الموضع الذى كان يتوسده وهكذا استمرت الأميرة قائلة :

أنا تعبة وقبيحة يغطنى تراب الطريق أتوسل إليك ، فك نفسك واسترح هنا ، بينما أذهب لإعلان أخبار زيارتك العظيمة لعشيرة أمى ، ثم سأستغرق بعض الوقت أيضًا فى الاغتسال وارتداء ملابس تليق بمضيفة أعظم الملوك ، " نكانيمبا " القوى ، " ملك المياه . "

دون أن ينطق ، ودون أن يجرح نفسه انزلق " ملك المياه " عن جسدها ، وزحف إلى نهاية الكوخ حيث لف نفسه فى كومة ضخمة وصلت إلى خشب السقف .

مضت الأميرة مباشرة إلى " الكوخ الكبير " ، وهناك حكت - وهى تبكى - كل القصة لخالها وزوجته ، راحا يطمئنانها وأكدا لها أنهما سوف يخلصانها من الـ " نكانيمبا " فى نفس الليلة ، وذلك فقط إذا ما كانت شجاعة وذكية ، جففت دموعها فى الحال وأكدت لهما أنها ستكون شجاعة وحازمة ، طلب خالها من زوجته أن تأمر فوراً بغلى كميات كبيرة من الماء كى تستحم الأميرة ، وفى أثناء إنجاز هذه الترتيبات ، أخرج بعض الدهان وخلطه مع بعض المساحيق التى لم ترَ الأميرة مثلها من قبل ، بعد ذلك أعطى الخليط لزوجته وأمرها بدهن جسم الأميرة كله فور أن تنتهى من حمامها ، اختفت الأميرة وزوجة خالها ، تاركتين رب العائلة جالسًا هنالك وحده متجهمًا وقد عقد العزم على شىء .

عندما رجعت المرأتان ، بدت الأميرة منتعشة وفاتنة فى عُريها ، فقد تجردت من معظم حليها ، كل ما كانت تلبسه ، طوق نحاسى على رأسها ، وعقد تتدلى حلقاته برقة بين نهديها ، وزوجى أساور بأعلى ذراعيها ، وخلخالين .

عندما دخلت المرأتان ، نهض الخال واقفًا وسأل : " هل أخبرتك زوجة خالك بكل ما ستقومين به هناك ؟ "

ردت الأميرة مبتسمة ابتسامة متألقة : " كل شىء يا خال " .

" هل أنت متأكدة من أنك لن ترتكبى أى خطأ ، وستقومين بأداء ذلك بسرعة على النحو المتفق عليه ؟ "

" يا خال ، إننى هادئة الآن ، يمكنك أن تثق بأنى سوف أفعل كل شىء فى اللحظة المناسبة " .

عندئذ ، أحضر رب العـائلة ثوب " الكاروس " الجميل المصنوع من جلود النمور ، فرده ، وغطى به ابنة أخته " ، اذهبى الآن يا ابنة أختى ، أنا على يقين من أنك سوف تكونين زوجة مناسبة تماماً لهذا ـ الثعبان " ،

مضت الأميرة بهمة راجعة إلى كـوخ الفتيات ، فور دخولها ، ألقت عنها ثوب "الكاروس" وبدأت فى مغـازلة الملك : " ملك المياه ! أنا أقف هنا ، أنا بنت شعب التـفولاكو ، مـستعدة لمعـانقة ' نكانيمـبا ' الطويل الرشيق " .

بينما كانت تردد هذه الكلـمات راحت تفرد ذراعيها الجـميلتين بإغراء داعية ملك المياه إليها .

قَبِلَ ملك الميـاه هذه الدعوة بلهـفة ، لكن عندمـا حاول أن يضمـها بلفاته ، انزلق وسقط محدثاً صوت ارتطام مكتوم بالأرض ، فردت الأميرة ذراعيها مرة أخرى ، مبتسمـة ومعاتبة له ، ودعته لمحاولة جديدة ، حاول مرة أخرى ، لكنه سقط ثانية على الأرض محدثاً نفس الصوت . مرة ثالثة فردت الأميرة ذراعيها مشجعة ، لكن ملك المياه وجد جسمها زلقاً ومراوغاً حتى أنه بكل طياته ولفـاته وحراشيفه لم يستطع الإمـساك بها ، هذه المرة انزلق وارتطم بالأرض فاقداً كل قواه ، كان يحرك جسمه بالكاد ، وكل ما استطاع عـمله فى الرد على دعوة الأميـرة هو أن يمتع عينيه برؤية جـسدها الجـميل ، قـالت الأميـرة وهى تنـزل ذراعيـهـا : " إنه خطئى ، أيهـا الرشيق ، بسـبب تلهفى أن أبدو جـميلة فى نظر " ملك الميـاه " وضعت كثيراً جداً من الدهان على جسـدى ، سأعود إلى " الكوخ الكبير" وأزيل هذا الدهان فوراً ، وسـوف أرجع كى أطالب بهذا العنـاق الذى أتوق إليه بشدة " .

بهذه الكلمات التقطت ثوب "الكاروس" ، تجاوزت العتبة ، وأحكمت إغلاق الباب من الخارج ، كان الخال وزوجته مستعدين بالمشاعل الموقدة ، وبمجرد خروج الأميرة وإحكامها إغلاق الباب ، سلماها المشاعل دون أية كلمة ، اختطفتها ودارت حول الكوخ ، وأضرمت النار فى عدة مواضع بحطب السقف ، وفى النهاية دفعت الشعلة الموقدة من خلال السقف فوق الباب تماماً ، أمسكت النار فوراً بالقش ، وأضاء اللهب المنزل وما حوله .

لم يصدر عن " ملك المياه " أى صوت للمقاومة فى الكوخ المشتعل ، لقد فقد كل قواه ، ليس له من قوة ترفع جسمه عن الأرض ، لا قوة له لاستجماع أجنحة العواصف الشديدة كى تحمله بعيدًا عن اللهب المحرق ، احترق " ملك المياه " حتى الموت .

تم كل شىء بسرعة كبيرة حتى أنه عندما حضر الجيران لم يجدوا شيئاً سوى طقطقة الخشب .

تساءل الجيران واحدًا بعد الآخر : " ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟ "

" إنه فقط أمرٌ من تلك الأمور التى تحدث بسبب وجودنا فى هذا العالم " .

تساءلوا : " هل الجميع سالم بمنزلكم ؟ "

" يا جيرانى ، الجميع سالمون ، اذهبوا وناموا فى سلام ، عندما يغيب قمر اليوم ، سوف أدعوكم جميعاً هنا لوليمة على شرف ابنة أختى الجميلة ، آنذاك ، سوف أخبركم بكل ما كان عن الشر الذى دمرناه تواً " .

فى الصـباح ، نهض رب العـائلة مبكرًا ، وذهب لمعـاينة مكان النار بحرص شديد ، وجد جسم وعظم الـ " نكانيمبا " قد تحولت إلى رماد ، إلا أن الجمجمة كـانت لا تزال سليمة ، رفعها بحرص وراح يتـفحصها ، ثم جمع بعض الخشب ، وكدسه فوق الـرماد وأضرم فيه النار ، بعد ذلك أخرج مخ الـ " نكانيمبـا " من كل فتحة صغيرة بالجمـجمة ، وأسقط كل ذلك فى النار ، كل مادة أزيلت ، وضعت فى النار وأحـرقت تماماً ، أخذ الجمـجمة للداخل وغـسلها غسـيلاً جيـداً بالماء المغلى ، ثم دعكها جـيداً بالدهان والمسحوق اللذين استعملتهما الأميرة فى الليلة السابقة .

أثناء ذلك كانت الأميرة تغط فى نوم عمـيق ، ولم تستيقظ من نومها إلا عصـرًا . أمرت زوجة خالهـا بعدم دخول أى امـرىء إلى الكوخ ، ما عـدا هى ، لمدة يوم وليلة طالما الأمـيـرة نائمة ، وهكـذا بعد أن أبعـدت جمجمة " نكانيمبا " ، خرج رب العائلة لأعماله اليومية ، وظل بعيداً عن كوخ ابنة أخته .

لكن فى صبـاح اليوم التالى ، فور علمـه باستيقـاظ الأميرة ، ذهب لرؤيتها آخذاً معه الجمجـمة ، ارتجفت الأميرة عند رؤيتها ، قال الخـال :
" يا ابنة أختى ، المسيها ، المسيها ، وسوف يزول كل خوفك منها "

لمست الأميرة الجـمجمة ، لكن الخال لاحـظ أنها ما زالت ترتجف ، أبعد عنها الجمجمة وراح يتحدث معها قليلاً .

فى وقت آخر من اليوم ، ناقش رب الأسرة وربة البـيت حال الأميرة ، اتفقا على إدخـال بنات الخال إليها ليجـلسن معها ويثرثرن كـما يشأن على شرط أن تبقى فى الـسرير حتى تتلاشى كل مظاهر الخـوف ، وبالتالى كان

الخال يحضر كل صباح الجمجمة إليها ويجعلها تلمسها بيدها ، وعندما صار مقتنعاً بأنها لم تعد ترتعد منها ، قال لزوجته إن الأميرة الآن فى حالة تسمح بالنهوض من الفراش وممارسة الحياة العادية مع بقية العائلة .

ذات يوم ، جلس رب العائلة وربة المنزل يتحدثان مع الأميرة فى الكوخ الكبير عندما نهضت الأميرة ، ومشت عبر الردهة وأنزلت جمجمة الـ " نكانيمبا " من مكانها على الحائط ، راحت تقلبها بين يديها مرة بعد أخرى ، فى حين كانت مستمرة فى الحديث كما لو أنها لا تفكر فى الجمجمة البتة . تبادل الكبيران النظرات ، وأومأ برأسيهما لبعضهما البعض ، وابتسما .

قال رب العائلة بمجرد أن انفرد بزوجته : " الآن يمكننى القول إنها مستعدة للعودة لوالديها . لم تعد تخشى هذه الجمجمة ، لقد أصبحت الجمجمة مثل أى وعاء فى المنزل ، لذلك علينا أن نباشر الترتيبات اللازمة لسفرها " .

يومان . . ثلاثة . . ، وأقيمت مأدبة على شرف الأميرة حضرها كل الجيران ، وأخبرهم رب العائلة بحكاية وعد " تفولاكو " لـ " ملك المياه " ، وبكل ما حدث بعد ذلك ، مدح الجيران الأميرة لشجاعتها ، وشكروا جيرانهم نيابة عن والديها وأخيها ، عين الخال بعد ذلك خمسة رؤوس من الماشية وهبها لابنة أخته لتصحبها معها إلى البيت ، ثم نهض أصدقاؤه وجيرانه واحداً بعد الآخر للتعبير عن صداقتهم بإلقاء كلمات قصيرة، شكروه فيها على هداياه لابنة أخته ، وأضافوا عليها هداياهم ، من العجول الصغيرة ، " التى ستصحبها الأميرة معها " ، إلى أن اجتمع عشرون رأساً من الماشية ، وبعد كل هدية من العجول الصغيرة ، كانت

الأميرة تقبل اليـد اليمنى لمقدمها ، ثم جاء دور الخال لـيشكر جيرانه لأنهم رفعـوا شأنه وأكبروه حين أثروا الهـدية التى سوف تحملهـا ابنة أخته معـها لموطنها .

انسحـبت أمهـات القرية لمكان قـصى بالبيـت ، وبينما كـان الرجال يقدمون هداياهم من رؤوس الماشية كانت النـساء يصنعن هدية مشتركة من السلال المجـدولة والقدور والسلاطين وحليـات من كل الأنواع ، عندما تم تجمـيع تلك الهدايا ، طلب رب العـائلة من سيـرافقون الأمـيرة الحـضور ليـراهم . بعض الأمـهات الأكـبـر سناً ألقين بعض الكلمـات ، وقـدمن "هداياهن المتواضعة " للأميـرة باسم كل الأمهات ، وتمنين لها رحلة عودة سعيدة للوطن ، شكر رب العائلة وربة البيت الأمهات ،

قرب نهاية الاحتفال أرسل شـباب القرية من يتحدثون نيابة عنهم إلى آبائهم ، كى يلفتوا نظرهـم إلى احتياج الأميرة لمرافقين ،

قال رجل مُسن مبتسـمًا: " نحن نعرف ذلك جيداً ، ولكن لا يمكن أن تذهبوا جـميعًـا . ودعونى أذكـركم أنتم يا من ستذهـبون ، لن يكون عليكم فقط أن تقودوا القطيع ، لكن أيضًـا سيكون عليكم حمل كل تلك القدور والأشياء الأخرى التى عبأتها وحزمتها الأمهات للأميرة "

رد رئيس المتـحـدثين الشـبـاب : " يا أبى ، نُـدرك ذلك ، نحن مسـتعدون لحمل كل الأشـياء ، لقد اتفقنـا أيضًا أنه من المناسب أن يرافق الأميرة من هم فى مثل سن أخيها ، "تفولاكو "

تمتم بعض كبار السن : " لقد فعلتم خيراً "

بعد عدة أيام ، وبينما الأميرة تحزم أغراضها الخاصة بمساعدة زوجة خالها ، أحضر رب العائلة ثوب الـ " كاروس " الجميل الذى كانت ترتديه الأميرة ليلة مقتل " نكانيمبا " ، تقبلته الأميرة بامتنان كبير ، وعانقت خالها على هذه الهدية الرائعة ، ثم أحضر جمجمة الـ " نكانيمبا " وسلمها لها نهائياً .

سألت الأميرة بدهشة كبيرة : " ماذا سأفعل بهذا الشىء يا خالى ؟

رد خالها : " إنها تخصك ، أنت من حملت " ملك المياه " طوال الطريق من قرية موطنك لتقضى عليه هنا "

تلقت الأميرة الجمجمة بكلتا يديها ، شكرت خالها ، ثم نظرت إلى الجمجمة برهة وابتسمت ،

بينما تحزم أمتعتها قالت : " أعرف ما سأفعل بها "

سألها خالها : " ألن تخبرينا بهذا السر العظيم ؟ "

أجابت الأميرة : " فى الحقيقة ، لا يوجد سر أخفيه عنكما يومًا ما ، عندما يصبح أخى " تفولاكو " زعيمًا لقومنا ، سوف أعطيه هذه الجمجمة ليستعملها كوعاء للغسيل " .

علق الخال : " تفكيرك سليم ، يا ابنة أختى "

" لماذا تقول ذلك يا خال ؟ "

" لأن هذا بالضبط ما تمنيت أن تفعليه بهذه الجمجمة "

كانت الرحلة سارة بالنسبة للأميرة وأبناء خالها الشباب الآخرين من سن أخيها ، لم يسرعوا فى رحلتهم ، حيث كان عليهم أن يسمحوا للماشية بالرعى فى أثناء سفرهم ، وهم أنفسهم كلما وصلوا لمكان جميل بشكل خاص ، كانوا يقيمون معسكرهم ويرتاحون ، غنوا فى أثناء سفرهم ، ومن بين تلك الأغنيات ، علمتهم الأميرة الأغنيات التى غنتها هى و" ملك المياه " كل منهما للآخر فى نفس تلك الغابات والأودية الصغيرة . غنت أغنيتها بالصوت الرفيع العالى ، ورد الشباب عليها بأغنية " ملك المياه " بشكل جماعى .

فى عصر اليوم الثالث من رحلتهم ، عندما اقتربوا من " القرية الملكية " شرعوا فى الغناء ، الذى تعرف عليه فوراً كل القرويين الذين كانوا قد سمعوه يوم الإعصار ، عُرف صوت الأميرة ، لكن تلك الأصوات الغليظة العميقة العديدة بدت لغزاً .

لم ير أحد " تفولاكو " وهو يجرى مندفعًا إلى كوخه مختطفًا رماحه والدرع ، لكنه كان موجوداً هناك ، واقفًا بمفرده قرب البوابة حاجبًا الشمس عن عينيه بكفه ، لكى يكون أول من يتعرف على المغنين الذين ظهروا فى الأفق .

عندما صار المغنون وقطيع الماشية على مرمى البصر ، جال بخاطره أن أخته قد جاءت مكرهة فى رفقة " نكانيمبا " ، وأنهما جاءا مع جماعة من الأتباع يسوقون مهر العروس المعتاد من الماشية .

صاح ، مشتعلاً بالغضب : " ماذا ! هل يعنى هذا أن أختى ما زالت مكبلة بحمل هذا الثعبان الكريه كل هذا الوقت ، سوف أذهب لأحررها ! " ثم تخطى البوابة المغلقة بوثبة واحدة .

صاح كبار الحكماء : " انتظر يا أخا الجميلة ، إنك ذاهب للخطر ، انتظر إلى أن يأتوا هنا " .

" لن أسمح لتلك الأفاعى بأن تدخل من هذه البوابة ، أنا لا أريد أياً من ماشيتهم فى حظائر آبائى ، إن لم يأت أحد معى ، سوف أحاربهم وحدى ، دعهم يحضرون كل الـ " نكانيمبا " الموجودة فى العالم ، سوف أموت محارباً من أجل أختى " ، وجرى لمقابلة المغنيين

قبل أن يصل إليهم ، كان قد لحق به الصيادون الذين فى مثل عمره ، أما نساء " القرية الملكية " ، فقد رفعن عقيرتهن بصيحات الإنذار ونشرنها عبر القرية ، وانتقلت من قرية لأخرى ، حتى أنه فى وقت لا يذكر ، كان كل الشباب قد سحبوا رماحهم ودروعهم وتبعوا الاتجاه الذى جاءت منه صيحات النساء

توقف الغناء فجأة ، وانفجر ضحك مرافقى الأميرة صاح واحد منهم: " اكبحوا رماحكم! العدو الذى تبحثون عنه ليس هنا ، ذلك الذى كان عدواً أصبح الآن رماداً عند عشيرة أم " تفولاكو " ، ها هى ذى أخت " تفولاكو" جميلة مثل الشمس المشرقة "

خطت الأميرة للأمام لتقابل أخاها الذى كان قد وثب فعلاً لمقابلتها ، تعانقا بحنان وشجن .

قال " تفولاكو -فى تأثر بالغ - سامحينى يا ابنة أبى " .

لكن الأميرة لم تعط فرصة لأخيها ليذرف ولو دمعة في حضور الشباب الآخرين ، ضحكت ، وجذبت نفسها من بين أحضانه ووقفت بعيداً عنه .

تساءلت : " على أى شيء أسامحك ؟! أسامحك على أنك منحتنى جدارة أن أكون أخت " تفولاكو " ، صائد الجاموس البرى " .

قبل أن يتمكن "تفولاكو" من الرد شرعت في غناء أغنية صيده المفضلة ، مستبدلة كلماتها لتناسب الحدث ، في هذه الأثناء ! اختلطت مجموعتا الشباب معًا في ود ، حالما شرعوا في الغناء ، سحبت الأميرة جمجمة الـ " نكانيمبا " ، ورفعتها عاليًا ، وقادت المسيرة إلى القرية ، وعبرت بوابات " البيت الملكى " وهى تغنى :

" يى ها هى ! يى ها هى !

إعصار شديد ، هو النكانيمبا !

اجروا لبيوتكم ، يا من تخافونه ..

يطاردونه من بعيد ، يطاردونه من قريب !

أما نحن ، فأحرقنا الأعاصير ..

وحملنا جماجمها عالياً .

يى ها هى! يى ها هى!

إعصار شديد ، هو النكانيمبا !

البنت المزعجة

البنت المزعجة التى جزاها الكلب بما تستحقه من عقاب أو وصفة لتنويم أى أحد .

نقلها إلى الإنجليزية (٥) عن الراوى دامارا (٦) هـ . ى . بليك

قال دامارا :

كان فيه بنت صغيرة ، وكان عندها عنجى (نوع من الفاكهة) . قالت لأمها : " أمى لم لا تقولين لى ، يا بكريتى ، أعطينى العنجى ؟ يا هل ترى سأرفض أن أعطيها لك ؟ "

قالت أمها : " يا بكريتى ، أعطينى العنجى ! "

أعطت البنت الفاكهة لأمها ، ومضت بعيداً . أكلت أمها العنجى .

عندما عادت البنت ، قالت : " يا أمى ، أعطينى عنجتى ! " ردت عليها أمها : " لقد أكلت العنجى ! "

قالت البنت : " أمى كيف تأكلين عنجتى التى قطفتها من شجرتنا ؟ "

أعطتها أمها إبرة بدلاً من العنجى حتى تسترضيها .

(٥) نقلها إلى الانجليزية عن لغة هيرورو فى ناميبيا : وليم بليك

(٦) لغة الراوى دامار ، هى لغة قبائل الهوتنوت التى تسكن ناميبيا حالياً ، والهوتنتوت من أهم القبائل التى تسكن الجنوب الغربى من إفريقيا ، وهذه التسمية ترجع للمستعمرين البيض الهولنديين الأوائل ، أما اسم هذه القبائل الأصلى فهو " خوى – خوى " ، أى سادة الرجال .

مشت البنت الصغيرة بعيداً ، قابلت أباها الذى كان يحيك السيور الجلدية بشوكة ، فقالت له : " أبى ، كيف يكون ذلك ؟ تخيط السيور الجلدية بالشوكة ؟ لم لا تقول لى يا بكريتى ، أعطينى إبرتك ؟ يا هل ترى سأرفض أن أعطيها لك ؟ " فقال والدها : " يا بكريتى، أعطينى إبرتك ، " أعطته الإبرة ومضت بعيداً لبعض الوقت . راح والدها يخيط بالإبرة ، لكن الإبرة انكسرت ؛ وعندما عادت البنت وقالت : " أبى أعطنى إبرتى ، " رد : " الإبرة انكسرت" ؛ لكنها راحت تتشكى متذمرة قائلة : " أبى ، كيف تكسر إبرتى ، التى حصلت عليها من أمى التى أكلت عنجتى ، التى كنت قد قطفتها من شجرتنا ؟ ! "

لكى يسكتها ، أعطاها والدها بلطة .

مشت البنت لمكان أبعد ، قابلت الصبية الذين كانوا يخدمون القطيع ، كانوا مشغولين باستخراج العسل ، ولكى يحصلوا عليه ، اضطروا لقطع الشجرة بالحجارة .

خاطبتهم قائلة : يا أولادنا ، كيف تستخدمون الحجارة لكى تحصلوا على العسل ؟ لماذا لا تقولون ، يا بكريتنا أعطنا البلطة ! ترى هل سأرفض أن أعطيها لكم ؟ أم ماذا سأفعل ؟ " . قالوا : " يا بكريتنا، أعطنا البلطة ! " فأعطتهم إياها ، وابتعدت لبعض الوقت . انكسرت البلطة . عندما عادت سألتهم : " أين بلطتى ؟ من فضلكم أعطونى إياها ! " ردوا : " انكسرت البلطة" ، عندئذ قالت : " كيف تكسرون بلطتى التى أعطاها لى أبى ، الذى كسر إبرتى ، التى كنت قد حصلت عليها من أمى التى أكلت عنجتى التى قطفتها من شجرتنا ؟ "

أعطوها بعض العسل لكى يسكتوها ،

ثم رحلت بعيدًا مرة أخرى ، فقابلت سيدة عجوز قصيرة ، تأكل الحشرات، فقالت لها : " يا سيدتى ، كيف تأكلين الحشرات ؟ لماذا لا تقولين لى : " يا بكريتى أعطينى عسلاً ! ترى هل سأرفض أن أعطيك أم لا ؟ " عندئذ قالت السيدة العجوز القصيرة : " يا بكريتى ، أعطينى عسلاً ! " أعطتها البنت العسل ومضت بعيدًا ، لكنها عادت تواً وقالت : " أيتها السيدة العجوز القصيرة ، أعطينى عسلى ! " كانت السيدة العجوز تدبر لأكل العسل كله فى غياب البنت ، لذلك ردت : " أوه ، لقد أكلت العسل كله ! " عندئذ راحت البنت تتذمر قائلة : " كيف تأكلين عسلى ، الذى تلقيته من الصبية الذين يعملون فى خدمة قطيعنا ، الأولاد الذين كسروا بلطتى ، التى حصلت عليها من أبى ، الذى كسر إبرتى ، التى كانت هدية من أمى ، التى كانت قد أكلت عنجتى ، التى كنت قد قطفتها من شجرتنا ؟ "

أعطتها السيدة العجوز طعامًا ، ورحلت البنت بعيدًا .

هذه المرة ذهبت إلى طيور الحجل الذين كانوا ينبشون فى الأرض، وقالت : " يا طيور الحجل لِمَ تنبشون فى الأرض؟ لِمَ لا تقولون يا بكريتنا ، اعطنا طعامًا ! أتظنون أننى لن أعطيكم أم سأعطيكم ؟ "

قالوا : " يا بكريتنا . . . ، " وعليه أعطتهم الطعام ، ومضت بعيدًا . عندما عادت وطلبت إعادة طعامها قالوا : " لقد أكلنا الطعام ! " سألتهم : " أتأكلون طعامى الذى تلقيته من السيدة العجوز القصيرة التى أكلت عسلى الذى كنت قد حصلت عليه من الصبية الذين يعملون فى خدمة

ماشيتنا الذين كسروا بلطتى التى حـصلت عليها من أبى الذى كان قد كسر إبرتى التى كانت هدية من أمى التى أكلت عنجتى التى كنت قد قطفتها من شجرتنا ؟!! "

حلقت طيـور الحجل عاليًـا ، وانتزع كل طائر ريشـة من جسـمه ، وألقوها للبنت الصغـيرة ، ثم واصلت البنت الصغيـرة المشى حتى قابلت الأولاد الذين كانوا يجـزون صوف الغنم حتى الجلد ، سألتـهم : " كيف تجزون الصـوف حتى الجلد لماذا لا تقـولون يا بكريتنا ، اعطنا الريش ؟ " قـالوا : " يا بكريتنا ، أعطـنا الريش " أعطتـهم الريش ومـضت أنكسـر الريش كله وعندما رجعت إليهم قالت : " أعطونى ريشى " ، قالوا : " لكن الريش انكسـر كله " ، راحت تتـذمر : "هـل كسـرتم ريشى الذى تلقيته من طيور الحجل التى أكلت طعامى ، الذى حصلت عليه من السيدة العجـوز القصيرة . . . " ، فـأعطوها بعض اللبن ،ثم مضت فى طريقـها حيث قابلت كلبـها الوسيم يعضعض العظـام ، قالت : " يا كلبنا، كيف تعضعض العظام ؟ " رد الكلب : " أعطينى اللـبن ! " أعطته اللبن فشربه كله . ثم قالت للكـلب : " أعد لى اللبن ! " قال : " شـربته كله ! " كررت نفس الكلمات التى كانت تقولهـا من قبل ، لم يستمع إليها الكلب وفر هاربًا ، وعندمـا تبعته جرى وصـعد فوق الشجرة . تسـلقت الشجرة وراءه ، فقـفز الكلب نازلاً من الجانـب الآخر . حاولت أن تفـعل مثله ، لكنها لم تسـتطع ، عندئذ قالت : " يا كلبنا ، من فضلك سـاعدنى على النزول " ، رد الكلب : " لا ، لن أساعدك ، لماذا تبعتنى ؟ " وهرب ، تاركًا إياها على الشجرة ،

قال دامارا : " لحد كده كفاية "

٧ قصبة الصغير الشاطر فى الدوامة(١٧)

جمعها يوجين . ن . ماريس(٨)

كـان أول ساعى فى "جَـامدوكـيس" ، هو البـوشمـان(٩) الأصفـر الصغير، الذى كان اسمه " قصبة الشاطر فى الدوامة" .

أطلق عليه هذا الاسم جده العجوز" هايتسى آبيب " عندما كان الولد مايزال يُحمل فى الجلود ، كان " قصبة الشاطر فى الدوامة " يستطيع أن يجرى بسـرعة كبيرة إلى حـد أن التراب كان يدّوم حول عـقبيه على هـيئة زوبعة صغيرة ، وعندما كان ينطلق بأقصى سرعة ، كان يصبح مجرد خط باهت على الدرب .

ذات يوم ، هدد "جَـامدوكـيس " خطر عظيم ، عـقـد العجـوز " هايتسى آبيب " فى تلك الليلـة مجلس الحرب ، لأن الخطر كان كـبيرا ، فقـد استدعى حتى " أرنب الصـخر ذا العين الواحدة " ليـحتل مكانًا فى المجلس ، على الرغم من أن " أرنب الصخر" كـان عجوزًا إلى درجة أن فكه كان قد بُلى ، وتلاشت عيونه ، وانغلقت تقريبًا .

(٧) أشـار د. مـحـمـد عـمـران ، إلى أن اسم هذه الشـخـصـيـة يعنى "عـقلة الأصبع/الصُبـاع" الموجود فى تراثنا الشعبى ، وهى تسمية ولفتة مفيدة ، إلا أننى آثرت التسمية المحلية الطويلة ، للاحتفاظ بالطابع الإفريقى المستخدم لديهم .

(٨) ترجمتها عن اللغة الأفريكانية : شالكوك .

(٩) من قبائل البوشمان الإفريقية ومن صفاتهم الجسدية الطبيعية الشعر اللولبى المفلفل ، وقصـر القامـة ، والأطراف النحيلة مع أرجل صـغـيـرة ، ويميل لون البشرة إلى الاصفرار. عن د. محمد عوض محمد ، كتاب الشعوب والسلالات الإفريقية .

جلسوا طوال الليل حول النار الموقـدة فى حوض النهر الجاف ، وفى آخر الأمر ، قال " أرنب الصـخر ذو العين الواحدة " القرار الحكيم ، ثم استدعوا " قصبة الشاطر" عند الشفق لحمل الرسالة إلى "روى جوجوم " .

عندما وصل إلى مكان المجلس ، سـمع الفتيـات فى الأكواخ القش يصـرخن مسـتنجدات : " هوت تاجـورا ، هوت تاجورا " ، والرجـال خائفون لدرجـة أن أظفار أقدامهم كانت تطقطق ، والعرق البـارد يتصبب مثل البَرَد من رءوسهم حتى أصابع أقدامهم ، وكانوا يلهثون حتى أن نَفَسَ الواحد منهم يمكن أن يطفئ النار .

عندمـا مـال النهـار لـلغـروب ، اندفع " قـصـبـة " خـارجـا من "جامدوكـيس " ، كان يحمل فى يده اليسرى أدواتـه ، ويدق بيده اليمنى على جبهته ـ حتى لا ينسى الرسالة ـ فكل ضربة من قـبضته على جبهته ، كانت تعنى كلمة من كلماتها .

كانت وصـية جـده : " حاذر من " نجالى " . فـقد تهـاجمك فى مكمن بحيلهـا الكثيرة ، وسحـرِها القوى ، إذا وضعت قدمًـا فى موضع خطأ ، فسوف يُسحب جسدك ويُشد مثل قوس الرمكى الكبير " .

عندمـا ارتفـعت الشمـس فى السمـاء ، كـان يمكنهم رؤية الزوبعـة الصغيرة التى تلتف حول قدميه عند أبعد تل ، لكن " قصبة الشاطر " هو نفسه ، لم يكن سوى خط باهت على الدرب .

بعد ذلك ، قال " أرنب الصخـر ذو العين الواحدة " صاحب القرار الحكيم : " آررى ، هناك ومضات فى ذيل الذئب ! " .

عندما لم يعـد فى إمكان " قصبة " أن يرى ظله ، نظر أمـامه على طول الدرب ، رأى هناك فتاة رفيعة من البـوشمان ، قطعت الفتاة الطريق

بقليل من الخطوات وهى تعدو عدوا بطيئا ، هتف " قصبة " متعجبا : " آررى ، أختاه ، هل تستطيعين الجرى ؟ "

قالت : " أخى ، ماذا ستضع فوق كُثيب النمل كرهان ؟ "

قال قصبة : " هذه الأدوات ، لا يوجد أفضل منها " ، ثم وضعها على كُثيب الرمل الذى صنعه النمل ، قال : " وماذا عندك يا أختاه ؟ "

سحبت عقد الخرز الأزرق من حول رقبتها ووضعته جانبا ، ثم راحا يتسابقان فى المرج ، ظلا يعدوان رأسًا برأس حتى وصلا إلى كُثيب النمل الثالث ، لكن من عند هذا الموضع راحت الفتاة ترقص حوله فى دوائر ثم رسمت نصف قمر كبير ، وارتدت عائدة فى اتجاه "جامدوكيس" ، أراد " قصبة " أن ينادى عليها قائلا : " أختاه ، من هذا الطريق ! من هذا الطريق ! " ، لكن صوته خانه بسبب أنفاسه المتلاحقة من الجرى ، أما هى فراحت تتراقص بسرعة كبيرة حتى إنها طيرت كلماته مع الريح ، سقط قلب " قصبة " بين ضلوعه ، وفكر : " سوف أعدو عائدا ذلك الطريق بأقصى سرعة ، وأنقذ أدواتى " ، لكنه عندما انطلق عائدا ، رأى فتاة صغيرة سمراء تتراقص عن بعُد عند قمة الجبل مثل سحابة مندفعة أمام الريح ، وبينما كان مايزال على مسافة بعيدة اكتسحت الأدوات ورفعتها واستعادت عقدها الخرز ، سمع ضحكاتها ، ونادت عليه : " يا بُنىّ ، سوف أكون دائما متفوقة عليك ، وسوف أبلغ " نجالى " تحياتك " ، عندما ابتعدت متراقصة ، عرف أنه كان يعانى طوال الوقت من ريح الصحراء الكبيرة المُدومة .

قال : " هوت تاجورا ! " قوس الرمكى الـكبير ! ذلك لأن الشمس كانت تنحدر تدريجيًا نحو المغيب وما زالت " رؤى جوجوم " بعيدة .

عاد يعدو مرة أخرى ، لكنه لم يعد الآن يردد كلمات الرسالة ، لأن الحزن ملأ قلبه لفقده أدواته .

اندفع يعدو بسرعـة البـــرق على الـدرب الطويل حتى تجـــاوز ممر " ميدلبرج " ، ثم لاحظ أحد البوشمان جالسا إلى جوار الصخرة المتقلقلة على يسار الطريق ، وبينما هو يعدو سمع صـيحة " الرفيق الشاحب " : " ما الأسباب المؤسفة التى دعت أخى يجر قدميه اليوم ؟ "

توقف " قصبـة الشاطر" إلى جواره تماما ، وسـأله : " هل يستطيع أخى أن يجرى أسرع منى ؟ "

قال "البوشمان الشاحب " : " نساء "جاكالزدارى" قلن لى هذا "

اشتعل قلب " قصبة " من الغـيرة ، لأنه لم يقابل قط امرءاً أسرع منه ، سأل " قصبة الشاطر" : " هل السـباق سيكون على الطريق الجبلى ؟ قال " البوشمان الشاحب " : " هايتـسى ، القرود فحسب هى التى تتسلق الجبال ، لا يا صديقى ، دع السباق يجرى حتى حافة الصخرة " ، وأشار بيده لأسـفل الوادى ، ثم وضعا عـلاماتهمـا ، عندما انطلقا اخـتفى " البوشمان الـشاحب " عن البصر ، أغلق " قصبـة " عينيه ، وانطلق بكل ما لديه من قوة . وعندمـا شعر بالأرض مستوية تحت قـدميه ، رفع بصره مرة أخرى ، فرأى " البوشمان الشاحب " كـأنه سحابة صغيرة من التراب ، بعيدًا عند آخر الدرب ، ظلل بيده فـوق عينيه ، فعرف أنه كان" أوريبى " ، ظبـى " نجالى " الصـغير ، وضع " قصـبة الشاطر" يده على فـمه وهدأ قلبه ، ثم استدار عائدا وثبا إلى الجبال .

حل الظلام قبل أن يصل " قصبة الشاطر " إلى ضفتى " موتميكر " المنحدرتين ، حيث توقف هناك للمرة الأولى ، عندما هاجمه البرق صرخ " هياتسى ، إن نجالى تشعل الضوء لتعرف مكانى ! " و اختبأ ، كان يمكنه أن يسمع هدير المياه العميقة من على بعُد ، حيث كان النهر يهدر فى توحش ، وإلى أمامه عند المنحدر كان يمكنه أن يرى خيط نور الفجر يشبه ذيل سمكة ، يدوم فى الدوامة .

قال " قصبة الشاطر " لنفسه : " إما أن أعبر النهر ، أو سأتحول إلى قوس الرمكى " ، وخطى نازلاً داخل الماء .

على ضفة النهر الأخرى ، كانت تقف ـ " كيرى " عجوز "نجالى" ، وهى مخلوقة من نواة شجرة المُر ـ تضحك ، وقد سمع " قصبة " ضحكتها المستهزئة ، ومن ثم قال : " هياتسى ، مرحبا أختاه ! سوف نتكلم وجها لوجه . أنا السيد هنا " ، عقب ذلك فوراً ، وقع له أمرٌ مؤسف ، لقد نسى الرسالة التى كانت قد وصلت إلى " جامد وكيس " وحملوه إياها ، والتى تقول : إن " نجالى " قد حصلت أخيراً على العصا السحرية التى جعلت منها " سيدة على التماسيح " والمسيطرة الوحيدة عليها . وعندما دخل " قصبة الشاطر" المياه العميقة ، أحس بالتماسيح تدور من حوله ، فغنى تعويذته المضادة للتماسيح :

سوف آخذ نصيبى من هنا ·· وأنتَ تأخذ نصيبك من هناك . .

أوه ، وأنتِ أيتها المخلوقات الصفراء ·· خذى نصيبك . .

كانت التعويذة بلا جدوى ، وعلى الجانب الآخر ، عند الضفة الأخرى ، رأى الدوامة عند قدميه ، وبدا له العبور مستحيلا ، لاحظ جذع شجرة من الخشب الحلو الشائك على مقربة منه ، وكان أحد أطرافه غاطسا فى المياه الضحلة ، تسلق ببطء جذع الشجرة الحلو الشائك ، وحدق إلى المكان

الذى كانت " كـيرى " تابعة " نجـالى " راقدة عنده ، ثم ابتسم بابتـهاج وهو يدارى ضحكته ، أحس بزند الخشب الحلو وقد بدأ يتحرك من تحته ، انشب أظفاره فيه ، ونادى على جده الأكـبر ثلاث مرات باسمه الأعظم ، لكن بلا جدوى ، ثم سمع صوت " كيرى " المُرة متحديا : " بُنى ، من السيد الآن ؟ "

لكنه كان قد نسى الرد .

عرف بعـد ذلك أن جذع الشـجرة الحلو الشـائك ما هو إلا تمسـاح " نجالى " ؛ وفى اللحظة التاليـة وجد نفسه على الضفـة الرملية التى كان قد بدأ من عندها ، لكنه لم يعبأ بهذا .

انطلق يعدو مرة أخرى فى الليل ، وهو يضـرب على جبهته ، وراح يستـدعى رسالة العجوز " هيـاتسى آبيب " ، وأمامه مبـاشرة ، رأى النار الكبـيرة ، فـتوقف وسط الجـمع عند طلوع الفـجر بالضـبط ، وبدأ يلقى الرسالة ، لكنه قبل أن يصل لمنتصف الرسـالة ، انتزعوه من نومه ، عندئذ أدرك أنه فى "جامدوكـيس " ، وأن الشخص الذى أمسك بقدمـه اليسرى كان جده بشحمه ولحمه .

وكان " هيـاتسى آبيب " يقول لـ " أرنب الصخر العـجوز ذى العين الواحدة " : " يبدو أنه لابد لنا من سحبه أكثر من قوس الرمكى الكبير " .

بعد ذلك أطفأوا اللهب الصغير لحكاية ·· قصبة الصغير الشاطر فى الدوامة .

تأليف : «أنتونى ديليوس»

حملة على قبائل الفتـــكانى
بقيادة " هانيبل هـامبتون "
مهداة إلى أبى وعمتـى " مـارجريت "
وأختى " إلزا-جين " وابن العم" فريـدى "

الاثنين (فتـرة ما من يونيو) ، معسكر عند جرف قبيلة "الكافير"(١٠)

نحن هنا مع عشـرة من رجال الحملة ، بالإضافـة إلى آل " بوكر" الأربعة الذين يقـومون بحـمايتنا ، وعلى مسـافة تمدد إلى جـوارى السيـد "بـت جوفن " ، يشبه صورة ذلك الفارس الراقد فى مدفنه ، و أنفه جهة السماء ، غير عابئ بما حوله ، أما أنا ، فأستخدم سرجى كمكتب ، ووتد الخيمة القديم كـشمعدان ، يساعدنى ضوء النجوم الشـاحب ، فالليلة غير

(١٠) قير" أحد أفراد الشعوب الناطقة بلغة "البانتو" فى الجنوب الإفريقى وشعوب "البـانتـو" تشـغل الجزء الجنوبى والشـرقى والغربى من الجنوب الإفـريقى ، بما يعـادل ثلث مساحة القارة ، ومن هذه الشعوب . . مجموعات "تسنجا" و"الفندا" ومجموعة "سوتو" وقبيلة "نجراتو" وقبيلة "تسوانا" ومجموعة قبائل "شونا".. إلخ د. محمد عوض محمد المرجع السابق

مقمرة ، والأحراش حولنا كثيفة حالكة السواد مثل القار ، وأتهيأ لتدوين مغامرات يومنا ، حسنًا ، ليس هناك الكثير لقوله عن هذا اليوم ، فيما عدا أننا قضيناه ممتطين الجياد متوغلين فى أعماق الأحراش ، نتبع نصائح آل "بوكر" . وهم يقولون ، لأنهم ينطلقون فى الكلام جميعاً فى وقت واحد : " أحياناً نسوق الجياد لمواجهة جيش "الزولو"[11] القادم من الشمال الذى يقودهم الجنرال " شاكا"[12] ، عند هذه النقطة جهرت برأيى وقلت: " إن الجنرالات الأكفاء لا يغامرون بالوقوف فى مقدمة قواتهم ، ولكنهم يبقون بالمؤخرة لتوجيه المعركة ، " كان من رأى أحد " البوكر " : أننى إما جاهل قليل الخبرة أو أحمق ، إذا كنت أعتقد أن الكافير والزولو لديهم نفس الفكرة عن القتال التى للفرنسيين والإنجليز ، هو - لا تسألنى من هو، لآن كل آل " بوكر" يبدون متشابهين مثل البطيخ ـ على أية حال - لقد التمس العفو ليخبرنى بأن زعماء "الزولو" لديهم رجال من السحرة

(١١) "الزولو" : من أهم القبائل الإفريقية التى سكنت الإقليم الواقع شرقى جبال "داركنز برج" فى الجنوب الإفريقى ، وهم شعبة من شعوب "البانتو الجنوبيين". المرجع السابق.

(١٢) الزعيم المحارب "شاكا" زعيم قبائل "الزولو؛ ، استطاع أن يغزو البلاد المجاورة ويوسع الوطن ، ويجعل من "الزولو" أمة قوية مرهوبة الجانب ، وذلك فى أوائل القرن التاسع عشر.. وقد دامت سيطرة "الزولو" على منطقة جنوب إفريقيا إلى نحو منتصف القرن التاسع عشر حين بدأ "البوير" ينازعونهم السلطة فى أراضيهم ومازال "الزولو" يعيشون فى أراضيهم وإن كانت دولتهم قد تفككت على إثر الاحتلال الأجنبى د . محمد عوض ، مرجع سابق . ربما تسمى أكثر من زعيم للزولو بأسم "شاكا"، وفى هذا العمل يتضح جانبا من حروب المستعمرين ، المستوطنين البيض (البوير والإنجليز) ضد السكان الأصليين ، بعد اتفاق السلام بينهما إثر انتهاء حرب البوير ١٨٩٩ - ١٩٠٢ . المترجم

هم الذين يعدون المحـاربين ليجعلوهم غير مـرئيين تحت وابل الرصاص ، ومن ثم يمكنكم أن تعرفوا أننى لا أبغى مجـرد الحديث الألمعى ، تصبحون على خير .

ويسللى فيـل

وصلنا الآن فى غاية الأناقة ، بعد عبورنا أربعة أنهـــار : " فيش " و " بيكا " ، و "كيـزكاما " و" شالـومنـــا " ، استقـبلتنا " مارثـــا " و"چاك " بحفاوة ، كـانت العجوز " مارثا " قـد امتلأ جسمــها قليلاً ، لكن " جاك " ظل نحـيفاً مثلمـا كان دائماً ، إلا أن لحيـته صارت أطول وأخشن. على أية حال ، مازالت "مارثا" مدبرة عظيمة ، فأنا و"بت" لم نأكل جيـداً منذ أن تركنا "رِدج" من يومين ، فقد كـانا مضيـفين كريمين معنا، بل وحـتى مع آل "بوكر" ، فلابد من أن تكون مسـيحياً غـير عادى حـتى تكون مـضيـافـاً كريماً مع آل "بوكـر"ومن تعليـقـات "بت" على تصرفـاتهم: " أنه ربما قـد يطلق الرصاص على آل "بوكر" قـبل أن يطلقه على "الزولو" بزمن طويل" ، قالت عنا "مارثا" : "هاى ، لقد أصـبحتما شابين." ورد عليـها " بـت " : " أجل أختاه، ماذا كنت تـتوقعين" كل مـا فى الأمر ، أنهـا كانت سـعيـدة جـدا لوجـودنا عنـدها ، كـذلك الصـغـيران "روبـــرت" و"مارى" ، اللذان كـبـرا الآن ، أما الصـغيـرة "چينى" فعمـرها عامان تقريباً، وهى تحب "بـت" من كل قلبـها . وكان "لمارثا" "وچاك" منزل من الحـجارة ملك لهـما ، وهناك منزل أكـبر لآل "شـو" ، كـان يوجد أيضـاً مـبنى مدرسـة من نوع ردئ ، أقـمنا فيـه ، وبالطبع ، كنيـسة ، وخـلف كل ذلك يقيم "الكافـيـر" المسيـحيـون فى

أكواخهم ، كان آل "شـو" مسافرين ، وكان ذلك سبب انزعاج "چاك" ، فـقد أقـامت السيـدة " شـو" مع مجـمـوعة من المبـشرين الآخـرين فى "بترورث" ، لكن الأب "شـو" سافر إلى الشمال ليرى البعض من سلالة أحفاد البيض الذين تعرضوا للخطر .

امـتطى "الميـجـور دنداس" جـواده ، وألقى علينا مـحـاضـرة عن الانضباط ، قال : " أننى أعتمد عليكم أيها الرفاق الإنجليز الشباب لتكونوا القدوة فى الانضباط أمام البويريين(١٣) هؤلاء الهولنديون جنود وسيمون ، لكن يعـوزهم الانضـباط " ثم وزع علينـا ملء جيب من الخـرز و الأزرار لشراء الطعام فى الطريق - على الأرجح - لشراء الماشـية قال الميجـور : " إذا حـصلنا على المزيد من هذا الخـرز والأزرار ، قد يمكننا شـراء قطيع لكل منا فى طريق العـودة ، ومع ذلك نحن لا نتقدم من أجلهـا " وقال "الميجور" أيضًا : " إن الماشية تلعب دوراً شيطانيًا فى العمليات العسكرية ! "

الأربعاء (أعتقد أننا فى يوليو الآن)

واصل "البـوير" السيـر ومعـهم " درايز " ، وهكذا أصبـحنا ثلاث مجموعات، نتفوق عددًا بالفعل على آل "بوكر"، جاء الزعيم الكبير لهذه المنطقة للتعرف علينا ، كان يدعى "باتو" ، وهو فتى أنيق - بحق - ليس طويلاً مثل بعض "الكافير" الذين رأيتهم من قبل ، بل كان فى طول وبنية العجـوز " كـوبا " ، وقد كان يرتدى كل أنواع ريش الطيور حول رأسه ، وكاروس(١٤) ممتـازًا من جلد النمـر ، ويمتطى جوادًا غـيـر مهـجن ، فى

(١٣) البوير : هم المستعمرون الهولنديون .
(١٤) الكاروس : ثوب بسيطة يشبه العباءة .

صحبــته أخوه " كونجــوى" ، الذى يقولون إنه حكم هؤلاء الناس ـ الذين يدعون قبائل " أما جونو كويبى " - بعــد أن قتل البوير الزعيم العجوز ، وذلك حين لـم يكن " باتو " قد بلغ السن التى تسمح له بأن يصبح الزعيم .

كان الزعــيم " باتو " غاية فى التهــذيب ، إلا أننى استطعت أن أراه يحدق فى جمعنا الصغير من الإنجليز والبوير قائلاً لنفسه : " بحق أسلافى المقدسين ، إذا كــان هؤلاء كل من جاء لمحــاربة الزوله والفتكــانى ، فمن الأفضل أن أبدأ الــتفكير فى كــيفــية الدفاع عن نفــسى " ، مع ذلك وقف محتفظاً بابتسامة شجاعة .

الخميس ، مهمة بتروورث

اجتزنا ثلاثة أنهار أخرى : " بفلو " و " چوينابى " و " كاى " ثم واصلنا السيــر حتى وصلنا إلى إرسالية أخرى مــن إرساليات الأب "شــو" الماسودستينى(١٥) ، نحن الآن على أرض الزعيم" هنتســا" الزعيم الأكبر لكل "الكافير" ، كانت توجد بعض التلال الضخمة حولنا ، كلها مبرقشة بمنازل "الكافير: . يتعنقد المئات والمئات منها فى مجموعات فردية وزوجية . لم نر كثيراً من الماشية حول الــتلال ، وقال درايز : "محتمل أنهم أخفوهــا بسبب الإشاعات التى تدور حــول وجود "الزولو" و"الفتكانى" بالمنطقة . السيدة " شــو" والزوجات الأخريات كن غاية فى الطيبة معنا ، إلا أنهن كن قلقات على أحــوال الأب " شــو" بشأن ما قد يحــدث قرب "ريفد " فى مثل تلك الظروف العصيبة ، إلا أن "الميجور" طمأنهن ، فقد كان لا يرى أى داعٍ للقلق ، وأنه لا يوجد ثــمة خطر ، ذلك لأننا سوف ننطلق بعــيدا

(١٥) الماسودستينى : أحد أتباع الطائفة "الماسودستينية" وهى جماعة من طائفة البروتستنت .

عن تلك المنطقة فى اتجاه الشمال الغربى ، حتى منابع نهر " باشى " وبلاد زعيم قبائل " البوندو " المدعو "فـاكو" ، أما الصعب بالنسبة لنا الليلة ، فهو النوم على الأرض الباردة مرة أخرى.

الجمعة ، موقع الزعيم "هنتسا"

" بـت " فى الحراسة ، وأنا التالى إلا أنـنى كنت مرعوبا من إغلاق عينى حتى لا أرى المناظر التى شاهدتها اليوم .

لقد بدأ الـيوم بديعًا ، كنا نـسير ممتطين الجـياد فى الصـباح البـاكر، وكشفت البلاد عن روعتها ، كلمـا توغلنا فى المنطقة تظهر التلال الخضراء ، وتمتد عليـها الأكواخ مـثل فصوص بُنية علـى أرضية خضـراء ، وعن بعُد ظهرت جـبال " أماتولا "ـ التى يقال إنهـا أماكن مقـدسة لقبائل الكافـير- ممتلئة بالأودية الصغـيرة المنحدرة والغابات ، لكن المنظر الذى شـد انتباهى أكثـر من غيره ، ذلك الخط الطويل من السـحب فى الأفق الذى لا يزيد سمكه عن سُمك ريشة طائر ، عندما ارتفعت حرارة النهار ـ ذلك لأن برد الصبـاح هنا مهلك ـ عرفت أن هذا الخط ثلجٌ يرقـد لأميال وأمـيال بطول الجبال على مدى الأفق ، قال درايز : " إنها سلسلة جبال داركنزبرج" إنها "سلسلة ترتفع آلاف الأمـيال ، ومن طرفهـا الآخر يخرج ذيـل نهر النيل " ويقول : " إن "الكافـير" يعتقدون أن هذه الجـبال مليئة بـ " الـعفاريت" ، وهم يسمونها جبال " كـواثلامبا " أى " أرض العفاريت " ، ولا يذهبون إلى هناك أبداً خوفاً من أن تتلبسهم تلك الأرواح .

لكن فيما بعد ، فى ذلك الصباح ، شاهدنا مناظر مختلفة تمامًا . تلك المناظر مازالت حتى الآن وأنا أكتب عنها تُصيبنى بالغثيان ، كانت رؤوس وأذرع وأوصال مطروحة بالمكان ، البعض منها مازال يغطيه اللحم ، والبعض الآخر نصف متآكل ، وضرُبت رؤوس الصبية حتى صارت عجينة دموية يغطيها الذباب الأزرق المرعب ، وجثة مفتوحة ممزقة ، ونسران يسحبان قطعة طويلة من أحشائها بينهما كأنهما زرزوران يتصارعان فوق دودة ، وقد تزايدت الرائحة الكريهة بتأثير حرارة الشمس .

لقد سمعنا عن أشياء أكثر رعبًا مما شاهدناه ، فقد انطلق العم "هينى راديماير" - مُرشدنا البويرى - مع مجموعة من فرقته ، ووجد عددًا من القرى على نفس الحال بل أكثر ، وقد وجدوا أحد المهاجمين تُرك ليموت بين الجثث ، هذا الرجل قال : " إنه يأسف لأن الكثيرين قتلوا، وأنه جاء من وراء الجبال ، حيث بات الناس هناك مثل آكلى لحوم البشر ، ولأن عمليات القتل كثيرة فى صفوف رجال القبائل ، لذلك لم يُزرع سوى القليل من المحاصيل ، فجاءوا من أجل الحصول على الطعام " ، بعد ذلك مات ، ويعتقد "البوير" أن هناك مجموعات كثيرة من المهاجمين ،

امتطينا الخيل وانطلقنا بصعوبة إلى مكان الزعيم العظيم "هنتسا" هنا الآلاف من الأكواخ ، والآلاف من البشر ، جميعهم يجيئون ليحدقوا بنا ، ويسرقوا أى شىء تطوله أيديهم - فقد نهبوا لحظة وصولنا ، كيس الخبز الذى أعطتنا إياه السيدة " شو " ، أرسل الزعيم يستدعى مستشاريه ، وعليه ، فإن على الميجور الانتظار للتشاور معهم غدًا ، أحس بأن عينيى تؤلمانى الآن ، وكذلك كل جسمي ، إلا أننى لم يكن بى رغبة لإغلاقهما فى هذه اللحظة .. يدخل " بت " من الحراسة ، إننا قلقون بسبب اللصوص الموجودين بين حلفائنا ، أكثر من قلقنا من الفتكانى أو أىٍّ ما كان.

السبت

اليوم جلسنا جميعا فى أرض فضاء واسعة أمام موضع الزعيم العظيم "هنتسا"، وتدارسنا ما سنقوم به فيما بعد، على الأقل، جلس أغلبنا خلف الميجور ورئيس البوير، قام "كارولز" - أحد مساعدى الميجور من قبائل "الهوتنتوت"[١٦] - بالترجمة، حقًا كان المنظر أمامنا يوقع الرهبة فى النفس، الرجل العظيم بنفسه - الزعيم هنتسا - فى الكاروس الفخم، والريش الجميل على رأسه، رجل قوى البنية، بشرته السوداء تلمع من دهنها بالزيوت والدهن، وخلف الزعيم كل مستشاريه، ومن ورائهم ظهر حوالى نصف شعب الكافير، يبدو أن البعض تغيب، فقد كنا نرى عن بعُد النساء يعملن فى الحقول والحدائق بالمعازق، وبعض الصبية منكبين على رعاية الماشية - لكنى أعتقد أنه لم يتغيب رجل ناضج عن هذا الاجتماع، حسناً، كان "الميجور" يسأل الزعيم توًا، لماذا لم يستعد للدفاع عن نفسه؟ فأشار الزعيم إلى المكان الذى كان بالفعل مكتظًا بالمقاتلين الذين تجمعوا لمحاربة قبائل "الفتكانى"، ثم ظهر جيران الكافير، وهم قبائل "تامبوك"، الذين هرسهم الغزاة وكانوا قد فقدوا القرى والناس، والآلاف من رؤوس الماشية. قال "الميجور": إنه مر ببلدة الزعيم "باتو"، لكنه لم يسمع من هذا الزعيم أى أمر باستدعاء القوات،

(١٦) "الهوتنتوت": من القبائل الإفريقية الهامة، يقترن اسمهم بجيرانهم من قبائل "البوشمان"، كانوا يعيشون فى الأطراف الجنوبية الغربية من مصب نهر "كونينى" إلى شبه جزيرة "الكيب" جنوبًا، وشرقى نهر "كاى" ويقسمون حسب اللهجات إلى أربع مجموعات هى: "الناما"، و"الكورانا"، "الجوناكوا"، وسكان منطقة رأس الرجاء الصالح (الكيب)، وقد هلكت هذه المجموعات ما عدا المجموعة التى تعيش فى إقليم غرب إفريقيا شمال نهر "أورانج"، وهم مجموعة "الناما" والتى انحسرت فى مساحة ضيقة تقترب من الصحراء، بسبب الاستعمار الاستيطانى الأوربى، ولا يتجاوز عددهم الآن الـ ٢٥ ألف نسمة. د. محمد عوض، مرجع سابق.

أو أى طلب للمساعدة . قال مستشار الزعيم متسائلاً بازدراء : " لماذا يلجأ ابن من دم سلالة تشيفو ، إلى مجرد مخلوق لـ "تشيفو" ؟ " ، فور انتهاء هذه المناقشة الغريبة ، إثر تدخل الزعيم بنفسه ، تقرر ضرورة أن نذهب بسرعة إلى "فوثانى" زعيم "التامبوك" ، بعد جمع القوات ، فإن قوم "هنتسا" سوف يلحقون به وبنا ، ويتقدمون لمحاربة الفتكانى ، الذين يقول الجميع إنهم جماعة من الزولو ، إما فارين ، أو طليعة لهم ، وفى كل الأحوال ، كان من المتوقع أننا سنتحمل العبء الأكبر من القتال ، أخيراً ، بدأنا الرحلة مع خمسين من مقاتلى "هنتسا" ، الجو اليوم قارس البرد ، مما جعلنى أرحف قرب النار التى أخشى أن تحرق دفتر يومياتى وأنا أكتب .

الأحد

اليوم فى الصباح الباكر قبل أن نصل إلى مكان الزعيم " فوثانى" بمسافة طويلة ، قابلنا قومًا متجهين إلى الجنوب وهم يحملون قدورهم ، وحُصر النوم ، ويسوقون ماشيتهم، عندما وصلنا إلى الزعيم ، ساد شعور بالاضطراب ، واحتشدوا جميعًا فى المكان ، وكانت مجموعات المقاتلين المسلحة بحزم الرماح والتروس التى من جلد البقر تبدو بلا هدف ولا نظام وكثيرة الصياح ، لكن فى الوسط وقف الزعيم مهيبًا ، وبدا كأنه قد فاز بمعركة كبيرة تواً ، على رأسه عُرف من ريش الكركى الأزرق ، ويلف حول جسمه عباءة فضية من جلد ابن آوى ، فور أن رآنا ، راح يشكو شكوى مطولة عن أعداد الماشية التى أستولى عليها " الزوله "(١٧) .

(١٧) الزوله : هم قبائل الزولو المعروفة ، وهذه تسمية محلية .

تمت الموافقة أخيرا على إرسال رسائل مرة أخرى إلي "هنتسا" تفيده بتقدمنا معًا . كان اليوم الأحد ، ويرى البوير أنه من الأفضل أن نخيم ونقوم بالحراسة ونراعى يوم الراحة المسيحى ، على الأقل نتعشى عشاءً لائقاً ، لذلك طلب "الميجور" ثوراً من الزعيم لرجاله ، لكن الزعيم تظاهر بالحزن وقال : إن الزوله استولوا على كل ماشيته الجيدة .

تلون وجه "الميجور" بالأزرق والأحمر من كثرة صياحه ومطالبته : "لن أقبل بقراً عجوزاً هزيلاً ، ليس به سوى قروح ، وعظام ، وغضاريف ، بعد كثير من الجدل ، حصلنا أخيراً على ثور معقول مقابل بعض الخرز بعد العشاء ، أستغرق " بت " فى التفكير ، وعرضنا عليه أنا و "درايز" أن ندفع له بنسًا مقابل معرفتنا لما يفكر فيه .

قال " بت" معبرا عن دهشته : " كنت أفكر لو أن الأمر أحتاج كل هذا الجدل من أجل شريحة لحم ، فكم من السنين يستغرق أمر الحصول على القطيع الصغير الذى منانا به "الميجور"؟ !"

الاثنين

نزل المطر الليلة الماضية ، وراحت الأشجار تقطر علينا ، وقد اعولت الريح بشدة هذا الصباح ، ومن غير المرجح وصول رسالة من هنتسا قبل المغرب . وصل بويرى وقال لدرايز إنهم شاهدوا أفراس النهر ، وإن لحوم هذه الأفراس لذيذة جداً ، ثم تساءل إن كنا نود الذهاب لاصطياد بعضها كى نتزود باللحم ، ذهبنا معهما إلى نهر "باشى" ، وفى مكان عريض ملىء بالطين كان رؤوس أربعة من أفراس النهر تطفو مطمئنة على سطح الماء،وفتحات أنوفها وآذانها تخفق، أطلقنا عليها زخاتٍ من الرصاص عدة مرات، بيد أننا لم نصب سوى واحد فقط .

هبط "الميجور" علينا وهو يزأر كالأسـد ، صاح بعزم طاقته : " من أى داهية تعتقدون أنكم سوف تحصلون على بارود جديد لتطلقوه ؟ بحق الله ، أرجو عندما يهجم عليكم آلاف "الزوله" إلا تجدوا أكياسكم فارغة " .

الثلاثاء

وصلت الآن رسـالة من "هنتسـا" ، جاء فـيهـا أنهم سوف يلقـوننا خلف نهـر "باشى" ، ليـسـيروا قـدمـاً إلى "الزوله" ، إننى فى غـاية الانفعال لكونى سـأشارك غداً أو بعد غدٍ فى معركـة لأول مرة ، وانتابنى كذلك بعض الخوف .

الأربعاء

حل الفجر فور عبورنا نهر "باشى" ، واصلنا المسير لنصل فى موعدنا ، حولنا كان "التمبوك" يمشون فى عدو وئيد ، بينما يهتف السحرة ويطلقون أغانيهم ، هؤلاء السحرة الأطباء كانوا رجالاً غريبى المنظر ، يرتدون الجلود ويعلقون العظام وكل أنواع الجذور الجافـة ، وكانوا طوال الطريق يحافظون على ذلك الشهـيق ، واشتعلت صيحـات الغضب ، والرقص والدوران ، وأحيانا كان يرد عليهم المحاربون ، فـقط عند منتصف النهار تقابلنا وقوات "هنتسا" .

نحـاول الآن النوم مـرة أخـرى ، وسط ضـجـيج شـديد من الغناء والرقص المستـمر حولنا، وتقليـد المعارك فى ضوء النار، مع قـرع الطبول والدق على الأرض بالكعـوب ، حتى بدا وكـأن كل شىء يهتـز من جراء هذا الدق . قلت للميجور : " ألن ينام هؤلاء الناس أبداً ؟ سوف يكونون

فى غـاية التـعب من الرقص والغناء عندمـا يحـاربون فى الغـد " ، لكن "الميجور" قـال : " إن أعراف الكافير مـختلفة عن أعرافنا ، ويحـتاجون لكثيـر من إثارة الحمـاس قبل دخول المعـركة ، إذا نامـوا الآن فقد يفـقدون شجاعتهم ، وفى الغد تجدهم ينسلون جميعًا عائدين لموطنهم.

الجمعـة

صباح انتصارنا العظيم !

لابد من أن أبدأ من بداية الأحداث ، لم يكن هناك أى ضـوء عندما عادت فرقـة الاستطلاع بأخبار تقول إن الزوله قـريبون جداً ، حـل سكون رهيب بين قواتنا ، نحن و"الكافير" ، و"التامـبوك" ، واعتقد أنه قد خطر ببالنا جميعاً ، إن "الزولو" الذين هزمـوا كل القبائل الموجودة على مسافة مئات الأميـال من حولنا ، لابد من أن حربنا معهم ستكون مسـألة مختلفة عن أى شىء قد واجهه أى منا من قبل .

كان الصبـاح مغلفاً بالضباب - إلى حـد ما - وعندما رأينا "الزولو" لأول مرة ، ظـننا أنهم صف من الشجـيرات الواقـفة فى منتـصف الطريق أعلى التل ـ لكنا تنبـهنا بسرعـة إلى أنها منظمـة أكثـر من اللازم ، صاح رجل: " إنهم هم ! ها هم أولاء هناك ! "

توقف كل شىء ، حـتى ظننت أن قلبـى توقف أيضًا ـ فـقـد وقف حوالى ألف من محاربى "الزوله" جميعًا فى مجموعات من ثلاثة صفوف أو أربعـة ، يقطعون علينا الطـريق لأعلى التل ، وقفـوا هناك صامـتين ، ينظرون إلينا فقط ، لم يتحرك أحد من "التامـبوك" أو"الكافير" أدنى حركة ،

انتابني إحساس غريب ، إحساس أن السماء من فوقنا صامتة ، ظل الزولو ساكنين مثل تماثيل سوداء ، لم أعد أشعر بالرغبة في الابتعاد والجرى ، مثلما كنت أخشى أن أفعل ، وسرني وجود "بت" و "درايزر" ، وحتى الأخوة " بوكر" بالقرب مني ، وكنت متشوقاً لأعرف ما سوف أقوم به ، وما سنقوم به جميعًا ، على هذا الحال ، جلست مثل الجميع على جوادى منتصب القامة محدقاً . عندما كنا على هذا الوضع، عادت بى ذاكرتى للوراء، وتذكرت فجأة وبوضوح تام ، صورتى وأنا جالس على أكتاف والدى فى حقول " سانت بيتر" قبل أن نغادر إنجلترا .

تقدم أحد محاربى "الزوله" فى كثير من الزينة المبهرجة على رأسه وحول كاحليه ، وراح يلوح مهدداً برمحه ، ثم أطلق صيحة مدوية فى اتجاهنا ترددت متموجة فى الوادى لمسافة كبيرة من حولنا، تقدم أحد السحرة الأطباء من جانبنا فى الحال ، ورفع حزمة من الرماح بيد واحدة فى اتجاه السماء ، وباليد الأخرى رفع عصاه السحرية ، وراح يصيح بنهر من الشتائم واللعنات ، فى اللحظة التالية ، صدرت قعقعة عن كل يد ، ودمدمت الشفاه ، ورأيت كل محارب حولى يضرب على ترسه بحربته ، لم يخط أى أحد ياردة خارج الخط ، و"جلس الميجور" على جواده برصانة ، وجميعنا جلسنا على جيادنا مثله ، واستمرت الصلصلة والقعقعة من حولنا، وهبطت قعقعة "الزوله" فى اتجاهنا ، ثم جاء رسول من الزعماء إلى الميجور يسأل : " ألا يمكن إطلاق بعض الطلقات على الزوله ؟ " لكن الميجور أرسل رده بحدة واضحة : " لماذا لا يقوم "التمبوك" ، والكافير ببعض الهجوم ؟" وقفت القوتان لوقت طويل تصلصل وتقعقع بالأسلحة تجاه بعضها البعض ، فى النهاية قال الميجور بضيق : " حسناً إذن ، حسناً جداً " ثم صاح علينا : " فلتتقدم المفرزة

مائة خطوة " ساد على جانبنا صمت رهيب شمل الزولو، ولم يكن هنالك سوى أصوات صلصلة وخبب خيولنا وهى تتقدم .

صاح "الميجور" : " قف ! حدد هدفاً ، أقصى ضرب نار ! " وانطلق وابل عشوائى من الرصاص - كأنه لا يوجد شيء محدد يتوجه إليه ، وسقط رجل من بين الزولو ، وقد انثنى نصفين وهو يصرخ .

صاح الميجور : " أحسنتم يارجالى الشجعان ، عبئوا أسلحتكم كى تعطوهم ضربة أخرى ! " لكن فجأة راح "الزوله" يصعدون التل ، وصدر زئير هادر من الكافير ، و"التمبوك" الذين تسابقوا فى صعود التل وراءهم ، وامتلأ الجو بالرماح .

انطلقنا على الجياد وراءهم لأعلى التل مثل المجانين ، وصاح الميجور: " حافظوا على الخط، وابقوا عيونكم عليّ. " فور أن بلغنا القمة، شاهدنا الكافير، والتامبوك وقد اشتبكوا فى قتال فعلى ، فقد كان هناك قوة أكبر من رجال "الزوله" فوق التل ، وجرى رجالنا بينهم فى فوضى .

صاح "الميجور" : " اتبعونى ، طوقوا من الجانبين، وأطلقوا النار على خطوطهم مباشرة ، مضينا خلف الميجور لتنفيذ تلك التعليمات. كل شيء الآن يتطاير مثل يوم شديد الرياح يصطفق فيه كل شيء، وتختلط الأصوات والأشياء، صاح الميجور: " اثبتوا ، أطلقوا النار عند سماع الأمر، اضرب ، أعد التعبئة ، اضرب ، أعد التعبئة ، اضرب ، " رأينا الرعب والهلع يجتاح صفوف "الزولو" ، وراح رجالهم يتساقطون على الجانبين والخلف أو يصرخون من الجراح ، وكفوا عن التقدم نحونا، وتحولوا إلى جهتهم متراجعين ، وعمت الفوضى صفوفهم، وانهمرت

عليهم رماح الكافير والتامبوك أيضا من الأمام ، وكـان "الميجور" يصيح طوال الوقت : " الآن ، أضـربوا بالدور، نصف يعـبئ، والنصف الأخـر يضرب. اضـرب ! اضرب ! اضرب ! " بعـد ذلك الضرب المكثف، راح الزولو يتدفقـون منسحبين فى اتجاه الغابات من خلال وادٍ ضـيق ، ساحبين معهم الموتى والجرحى وهم يتراجعون.

صاح الميجور: " أوقف التعبئة ، أوقف التـعبئة ، دع الكافير يقومون بدورهم . " أما نحن فكنا نجـوس بميدان المعركة الرئيـسى نبحث عن بعض القتلى الذين تركهم الزوله خـلفهم ـ بينما جرى الكافير والتـامبوك وراءهم وهم يطعنونهم بالحـراب، كان منـظر الموت يدعو للأسف. ومن الغـريب أننى لم أشـعر بأن رجال الـزوله الموتى أعدائى ، بل شـعرت بغـصة من أجلهم .

قال بويرى باحـتقار: " أهؤلاء المهـزولون المتضورون جـوعاً ، هم الزوله ؟ ! كنت أظنهم عمالقة " .

قال الميجور: " لا أحد يبدو أفضل وهو ميت " .

سرعان ما كان لدينا انشغال آخر للاهتـمام به ، فقد وجد التامبوك، والكافير ماشيتهم فى الغابات ، وقد راحوا يتصيدون الماشية فى كل مكان، ونسوا محاربى "الزوله" ، وقد جـاء إلينا بعض النساء والأطفال مسرعين ، وقالوا لنا أن التـامبوك والكـافير يقـتلونهم فى الغابات ، فسلمـناهم للزعيم ليعتنى بأمرهم ، ومع ذلك ملأتنا الشكوك ، وتساءلنا عما قد يحل بهم ، واسترحنا عندما شاهدناهم أحياء بعد ذلك اليوم .

اليـــوم التـــالى

سأكف عن الكتابة عن انتصارنا ، فقد تشنجت يداى من كثرة الكتابة ، وتعبت فسرجى كان المكتب ، لكن يجب أن أخبـركم عن الاحتفال الكبير الذى أقمناه بمناسبـة انتصارنا ، اصطففنا عند غـروب الشمس عائدين إلى الساحة الكبيرة عند الزعيم التـامبوكى ، قانعين بانسحاب الزولو الكامل ، فقد شبـعوا من بنادقنا ، لم يتوقف الكافير أو التامـبوك لشكرنا ، أو حتى استئذاننا فى الانصراف ، بل تركونا وانهمكوا فى دفع أكبر عدد من الماشية يمكن لهم سوقـها ، أقسم إنه إذا أعـاد الزولو الهجوم مـرة أخرى فى هذا الوقت ، فإنهم كـانوا سيواصلون السـير بالماشية حـية، ويتركـوننا نصارع الزولو وحدنا قدر طاقـتنا ، فى النهاية ، بتنا فى كرال[(١٨)] الزعيم العظيم " فوثانى " ـ ولم تكن هناك لجنة للترحيب بنا، لم يكن هناك أكثر من اللبن الحامض أو بيرة الكافير.

فى صباح اليـوم التالى ، سأل بعض البوير الميجـور عن الماشية التى سيقدمـها لعمل الوليمة ، مضى الميجور وهو يدق الأرض بقـدميه ، وعاد وهو يسب ويلعـن بكلام رهيب ، قـال : " إنه يتـمنى أن يعـود الزوله ، ويستـعبدوا كل الشعـب التامبوكى ، بما فـيهم الزعيم فـوثانى " ، فى آخر المطاف أرسل إلينا الزعيم " فوثانى" بقرتين عـجوزين نحيفتين ، برز عظام صدريهما ـ كان قد أمسك بهـما رجل عجوز وصبى، أوه ، كان يجب أن ترى وجه الميجور متشامخاً مثل القمر فى عليائه ، ومع ذلك كنا مضطرين

(١٨) الكرال : القرية فى جنوب إفريقيا ، والكرال أيضا تعنى وحدة اجتماعية متكاملة ، وتعنى " زريبة " للحيوانات الأليفة ، وهى هنا القرية التى تمثل وحدة اجتماعية خاصة فى جنوب إفريقيا .

لعمل شيء من تلك البهائم ، ذبحنا البقرتين لإعداد الوليمة، ثم مرت علينا إحدى زوجات "فوثانى" ببعض البيرة ، قالت إنها لا تفهم لِمَ نقيم وليمة منفصلة، وهناك استعدادات جارية لعمل وليمة كبيرة الليلة القادمة للاحتفال بالنصر الكبير الذى أحرزه "التامبوك" "والكافير" على "الزوله" . لكن الميجور رد : " سيدتى ، أخبرى زوجك أننى أتمنى لكم الاستمتاع بوليمتكم وحدكم ، لأنه عندما يأتى "الزوله" فى المرة القادمة ، سوف تضربونهم وحدكم" ، قال هذا بغضب شديد حتى أن البوير كادوا يتدحرجون من الضحك ، وكان من الصعب علينا المحافظة على تعبيرات وجوهنا أمام السيدة " فوثانى" ، الزوجة الثالثة أو الرابعة بين زوجاته ، وانصرفت المرأة وقد بدا عليها الارتباك، حسناً ، كان هذا أول احتفالاتى بنصر .

الاثنين

حسنًا ، كتبت كثيراً عن المعركة حتى خشيت أن ينتهى المداد ، نحن الآن فى طريق عودتنا ، نغطى مساحة كبيرة من الطريق ذاته مرة أخرى. خلال هذه الفترة وقع حادث بين الچنرال وقائديى الفيلق المعاونين جدير بالذكر ، عندما وصلنا لمكان إقامة المعسكر الليلة ، تبين للميجور اختفاء كيسين من أكياس الأزرار النحاسية والخرز ، بعد استجوابهما، اقتنع الميجور أن "هندريك" هو السارق ، فعلقه إلى شجرة طوال الليل، ثم قال : " سنعقد محاكمة عسكرية له صباح الغد" ، وعليه ذهبنا للنوم ، فقد كنا جميعاً غاية فى التعب.

الثــــــلاثــاء

عقدنا المحكمة هذا الصباح ، وكان "هندريك" في وضع يائس تماماً ، عندما رُبط إلى الشجرة ، أمر الميجور قائد الفيلق الآخر "كارولز" ، بجلده خمسًا وعشرين جلدة بسوط الشامبوك ، جرى الدم على ظهر هندريك ، وراح يصرخ وينتحب ، فـشعرت بالأسف له ، وحسب أوامـر الميجور ، أمسكنا به ، وطرحناه فـى بركة أفراس النهر كى يبـرد جسمـه ، ألقينا فى إثره بكل مـلابسه ، أخيـراً ، وقف الزميل وفـر إلى الضفـة الأخرى ، ثم توقف هناك وراح يصيح منادياً على الميجور: " أين راتبى ؟ "

" لقـد حـصلت على راتبك ، وإذا أمـسكت بك فى أى وقت مـرة أخرى ، فسوف تنال الكثير مما نلته !" راح "هندريك" يهدر بأقذع الشتائم واللعنات يصبها على الميجور وأمــه وجميع أقاربه ، وفى النهاية رحل وهو يترنح ويتعثر داخل المرج ، وظللنا نسمع تأوهاته وصياحه لوقت طويل .

سألت "كارولز" : " ماذا سيحدث له الآن؟ " ،

" سيذهب لينبش ويستخرج ما سـرقه ، ويشترى بقراً سميناً ، وربما يتزوج من كافيرية أيضًا "

واصلنا السـير مرة أخـرى ، وقرب منتـصف النهار ، أدركـنا رسولاً قادمًا مــن "جراهامز تاون " ، قال: " إن الكولونيل "سُـمرست" يعلن أنه قد خـرج لصد هجوم الزولو ومـعه قوات كبـيرة، وأنه يعسكر حـالياً فى "كـاى" .

الخميــس

حسناً، ها هي ذي مـفاجأة ، ودعنا الميجور والآخـرين ، وبقينا هذه الليلة مع الكولونيل "سُـمرست" وقواته ، أسـفت لرحيل الآخرين ، فـقد أحببناهم ، بما فيهم الأخوة "بوكر" ، ألقى الميجـور على كلينـا ، "بت" و أنا ، كلمة قبل أن يرحل . قال : " يا أولاد، إنكما من الرجال الممتازين ، ثابتان مثل الصخور، سوف تقومان بأعمال شجاعة إذا عشتما طويلاً، "

لكن لابد من أن أحكى لماذا بقينا نحـن الاثنين هنا ، فى تلك المنطقة الجمـيلة فوق منحدر "كاى" ، نراقب قـطيعًا من الأفيـال وهم يرشون الماء على أجـسـامهـم ، بدلاً من العـودة للوطن ، سـوف ينقل لكم "درايز" رسائلنا فى طريق عودته، وصلنا هذا المعـسكر عند منتصف نهار الأمس ، انتظرنا على مقربة من خـيمة القائد ، بينما مـضى الميجور لرؤية الكولونيل داخلها، وسـمعنا الكثيـر من الجدل، كان الكولـونيل يقول : " يا رجل ، هذا شيطانه، لا يمكنك التأكد " ثم خرج الميجور بعد قليل وهو يقول : إن علىّ أنا و "بت" أن نمضى لرؤية الكولونيل.

دخلنا على الكولونيل، كان جالسـاً عند طاولة المعسكر، وهى منشور عليـها خريطـة ، كنا نسمع جـميـعنا منذ فتـرة طويلة أن الكولونيل رجل مـتغطرس، لكنا أعـجـبنا به ، وتبين لنا أنه ودود جـداً ، رغم حاجـبيـه الكثـيفين وشـاربه الكث ، تحدث إليـنا برهة قائلاً : " إن للمـيجـور رأيًا عظيـمًا فـينا ، وإننا شبـاب يُحب" ـ ثم واصل : " أتظنان أننى أتملقكمـا لغرض ما ؟ حسنًا ، أجـل ، هو كذلك! " وضحك كأنه أطلق أعظم نكتة فى العالم ، ثم قـال: " إن الميجور يظن أنه لا حـاجة لنا لتنفيـذ ما طُلب

منا، فهـو يعتقـد أن الزولو قد تراجعوا ، قـد يكون هذا صحيـحًا ، ربما انسحب الزولو ، لكن لن يهربوا لسقـوط بضع عشرات من القتلى ، فكما أعرف عنهم ، هذا ليس من طبيعتهم "

طلب منا الكـولونيل أن نركب فى الحـال إلى " بويرى " يعـرفـه ، يعيش فى بلدة الكافـير، ولديه معلومـات مؤكدة عن حـال قوات الزولو، ويعرف هل يتقدمون أم ينسحبون، هذا البويرى يدعى السيد "روجيبرج" ،

سأل " بـت " : " كولونيل ، هل هو مبشر ؟"

أطلق الكولونيل شخرة طويـلة وهو يصيح : " هارا ، هو ماذا ! فى الحقيقـة هو متشرد بائس ، يعيش فى بلدة الزعيم "هنتـسا" ، لكنه يعرف كل شىء يجرى من عند الحدود حتى ساحة الزعيم شاكا " .

أول شىء علينـا فـعله فى الغـــد هو أن نسـافـر ، وســوف يركب الكولونيل عائداً إلى "جرهامز تاون" لقضاء بعض الشئون، وعلينا أن نقدم له تقريرنا هناك ، طلبت من مساعد الكولونيل اصطحاب دفتر يومياتى معه ، وإذا فُقدنا أو حدث أى شىء ، عليه تسليمه لوالدى ،

الخميـس

عدنا إلى "جرهامزتاون" بسلام ، إلا أننا كنا نحمل أنباءً سيئة ، فقد قال السـيد "روجبـيرج" : إن قوات ضـخمة من الزوله مـازالت تتدفق، لذلك خرج الكولونيل واصطحـبنا معه عند أول ضوء لليـوم التالى ، وقد استـعـدت دفـتر يومـيـاتى ، وسـوف أخبـركم عن هذا البـويرى .. "روجبيرج" ، عندما وصلنا " بترورث" ، وجدنا السيد " شـو" وعائلته

قد رجعوا بالفعل إلى " ويسللى فيل" ، أعطتنا السيدة "شروزبيرى" الكافيرى المسيحى "جونثان بلكو" ليكون دليلاً يرشدنا إلى مكان "روجبيرج" ، حين اقتربنا من منزل"روجبيرج" ، رفض دليلنا الاقتراب من المنزل ، وبقى فى مكان بالقرية وأرسل معنا صبيًا ، الذى اختفى فور أن دنونا من المكان ، أو على الأصح كان يدور بنا حول المكان حتى كاد يُطلق علينا الرصاص، وثب علينا "روجبيرج " واثنان من الكافير، وهم يسددون بنادقهم إلى رؤوسنا حتى قبل أن نعرف أين نحن ، كاد دليلنا الصغير يموت من الرعب ،

أنصت "روجبيرج " إلينا بكثير من الشك حتى بعد أن شرحت له مهمتنا . كان رجلاً ضخماً ، له أكتاف ثور ، يرتدى ثياباً من الجلد الرث . لقد كان طول "بت" ستة أقدام وثلاث بوصات ، إلا أنه بدا هزيلاً أمام حجم "روجبيرج" ، هذا بالإضافة إلى كتلة من الشعر الأصفر المتشابك ، ووجه ممتلئ محترق من الشمس بلون القرميد ، وقطعتى زجاج على أنفه كنظارة ، وبذلك تخلصون إلى صورة تخيف أى إنسان ،

جلسنا معه خارج كوخ كبير يشبه كوخ الزعيم الموجود فى الساحة الكبيرة ، وإن كان مختلفًا عن الأكواخ الأخرى بخطوطه المستقيمة ، عند غروب الشمس رأينا نهراً صغيراً ، والبحر وشاطئه المتعرج بطول الساحل، رأينا كل هذا يتلاشى فى الليل ، بينما كان "روجبيرج " يقدم لنا البيرة ، التى أحضرتها امرأة كافيرية ضخمة رائعة الشكل ـ كانت فى ضخامة "روجبيرج" تقريباً ـ إلا أنه لم يقدمها لنا ، لقد أخبرنا أسوأ الأخبار عن قبائل الزوله وزعيمهم الذى يدعى " شاكا " ، وأكد لنا أن جيش "الزوله" الضخم ، نزل من التلال لمطاردة مجموعة أخرى ، لقد أمر الزعيم " شاكا

" أن تمحى هذه المجمـوعة من على وجـه الأرض ، وربما يكون قـد لقن أيضاً " فـاكو" زعيم البـوندو درسًا قاسـيًا ، ويرى أنه من الحكمـة تحذير الكولونيل " سومـرست " ، ومن الأفضل أن يتقـدم مع بعض القوات إلى الحدود الشماليـة لبلاد الزعيم "هنتسا " ، كتذكـرة للزوله بعدم التقدم إلى أبعد من ذلك ، عندما فـرغ من كلامه ، ودعنا ، فغـرنا أفواهنا دهشة من هذه المعاملة ، إلا أن "بت" قال له بتلقـائية : " ألا يمكننا المبيت الليلة ، فخيولنا متعبة من السفر طوال اليوم " .

حملق فـينا ، ونخر ثم اصطحـبنا إلى كوخ ، عند نهـاية الطريق ، وتركنا نحكّ جيادنا ، ونطعمها بعض العلف الذى أحضره أحد رجاله. أما نحن، فكنا نستعد للنوم ببطون خـاوية، إلا إن "روجبيرج" برز من الظلام يدعونا لتنـاول العشاء مـعه ـ بيرة الكافـير، ثريد الحنطة اليـابسة، مع لحم ومرق ، راح يشرب مثل كافيرى صمـيم ، فكان يتلمظ بشفتيه فوق البيرة ، وبعد كل شفطة كبيرة يهمهم همهمات استمتاع ، وأمام ركية النار، راح يمدح تفوق كل ما هو كافيرى وهو يرفع قرعة ممتلئة: "هذه البيرة عظيمة ، لا يقارن بها أى خـمر من خمركم الإنجليـزى الواهى ! لماذا ؟ لأنها طعام ، وأيضاً لا تأكل المعـدة مثل "براندى الكـيب الأحـمـر ذاك " ، أكلنا بشهـية وحاولنا قدر طاقتنا ألا نكثر فى الشـراب ، بغرض أن نحافظ على صداقتنا به ، لكن " بـت " قـضى على كل شيء تقريبـاً عندمـــا سـأل : " منذ متى وأنت تعيش بهذه الطريقة ؟ "

وكطلقة الرصاص صـاح "روجبيرج" : " مثل مـاذا ؟! ورأينا عينيه الزرقاوين اللتين احـمرتا من تأثير البيـرة ، تشعان غضـباً نحونا عبـر ركية النار.

قلت مستدركاً : " حسناً، إنها تبدو حياة حرة " .

انفجر فى الـكلام بانفعال : " أجل ، هذه حيـاة حرة ، وأنا حر ، أعيش كـما قـصد الرب أن يعيش الإنســان ! والآخرون لا يقـومون بذلك لأنهم مجموعة من الجبناء ، فى قلوبهم يحسدوننا ـ أنا و "كونراد بايز" ، الذى تزوج "أم جـيكا "ـ ويحـسدون كـل الرجال الآخـرين الفـارين من الكتاب المقدس والسرير المزدوج " .

بقينا صامـتين محافظين على هدوئنا وهو يحدق فـينا منتظراً أن نقول شيـئًا ، وفى النهاية صـرح برأيه فينا نحن الذين لم تنمُ لحـاهم وشواربهم تحت أنوفهم ولم يروا شيئاً فى حياتهم بعد وصاح : " هاى ، تعتقدون أن الإنجليز مخـتلفون ؟ كل ما علينا أن نمشى خمسين ميـلاً أو نحو ذلك فقط إلى الشـمـال ، لنرى سـلالة الضابـط الإنجليزى ، وبنـاته الذين تحطمت سفينتـهم عند الشاطئ فى القرن الماضى ، وقال باستـمتاع : " أجل ذلك الضابط الإنجليزى المـمتاز ، الذى سمع أنه تزوج بطابور من نسـاء الكافير فى قناعة تامة ، ولم يقـم بأدنى محاولة للعودة إلى إنجلترا ، واليـوم كما يقول "روجبيـرج" : فإن سلالتهم ، باستثناء اللون ، هم كافـير أكثر من جيـرانهم الأصليين ، ونسـوا من زمن بعيـد أنهم كانوا مـسيحـيين" ، كنا مضطرين أن نصـدق على كلامه بأن كـثيراً من الإنجليـز ، وحتى كثـير من البـوير قد فـعلوا ذلك ، عندما توقـفوا عن الخـوف من الكتاب المـقدس ، والمبشرين ، والأمهات ، والجدات . . . إلخ

قلنا : " إن الأمر كله بالتأكـيد مثير للاهتمـام ، لكن لدينا يوم سفر شاق ، ولذلك نحن مضطرون للنوم ، ونشكرك ، عند ذلـك وثب مختطفاً

بندقيتـه، وصوبها إلينا من فوق النار، وراح يزأر بصـوت عال : " هذا ما تريدان ، أليس كذلك ؟ حسناً ، ضعا إصـبعا على إحدى نسائى، وسوف أنسفكما نسفاً ، وأرسلكما إلى الجـحيم ، فأنا أرى مثلما يرى قط ويمكننى إطلاق الرصاص فى الظلام ! "

عند ذلك استفز " بـت " وقال : " سيـد روجبيرج ، أنا أيضا قادر على ذلك ! "

لم يكن هناك من طريقة لمعرفة قـدرة كل منهما ، إلا بأن أضع جمرة صغيـرة على بعد ثلاث ياردات ، وقد أخطأها "روجبـيرج" بعد أن أطلق ثلاث طلقات ، بينما أصابها "بـت" من أول طلقة، وظلت متقدة بعض الوقت إلى أن تلاشت. قال "روجبيرج" بكثير من الاحترام : " أرى أنك تحكم التصويب ، ومع ذلك لا تحاول أن تلمس أية من زوجاتى ! "

وهكذا مضينا لننام ، ورحلنا قبل الفجر ، لم يكن هناك أحد بالخارج لتوديعنا. قلت لـ"بت" ونحن نسير : " إن العـجوز "روجبيرج" أعجب ببراعتك فى التصويب ، وكنت أخشى أن يهديك إحدى زوجاته ! "

قـال "بـت" : " أنا نفـسى ظننت ذلـك ، حتـى فكرت فى أن أخطئ الهدف " . ثم عدونا كالريح بأخبارنا عن الزولو.

الاثنين ٢٤ أغسطس

كنا حوالى ألفاً أو أكـثر ، وهذا كان مخـتلفًا عن المجموعة الصـغيرة تحت قيادة الميـجور"دانداس" ، تلك الحملة كان لها طعم الحـياة العسكرية الحقة ، أقمنا معسكرنا على منحـدر طويل قرب نهر"باشى" ، جاء السيد

"روجبيرج" إلى المعسكر، حيـانا ـ بت و أناـ كأصدقاء قدامى، ثم ذهب إلى حديث طويل مع الكولونيل. وصلت رسـائل الـزعيمين "فـوثـانى" ، و "هنتسا" تحمل أخبار اقتراب قوات كبيرة من الزوله.

انتبهنا على جـدل بين ضابط الفرقة خمسـة وخمسين ، وبين الكابتن "إيتشسون" ، قائد كتيبة الفرسان الرماة حملة البنادق ، فقد استخف ضابط الفرقة ببعض الملاحظات عن قيمة قـبائل "التوتى" ، وبأهميتهم كجنود ، ورد عليه الكابتن "إيتـشسون" : " إنه يفضل أن يجد فى ظهـره محاربى التوتى ، فى مثل هذا النوع من الحرب ، أفضل من أن يجد أى جندى من سلاح الفـرسان ذاك، وذلك لأن "التـوتى" يعرفـون الكافيـر ، ويفكرون بطريقتـهم ، وهم أسرع من كلاب الصـيد عبـر الأدغال " ، ومن رأيه أن فرقة "الخمسة والخمـسين" : " ما هى إلا كلب بولدوج يرتدى فانلة حمراء ، ثقيل وثعبان " .

الثـلاثـاء

الحـدث الكبيـر ، المشـاورات بين الزعـمـاء"هنتسـا " و" فوثـانى" و" فـاكـو" زعـيم البونـدو الشمـاليين ، مـتى كنا، بت وأنا ، لا نجـرى لتوصيل رسائل الكولونيل لأعلى وأسفل المـعسكر ، فإننا كنا نجلس نستمع لما يقال. كـان وعداً بأن يزحف ١٢٠٠٠ من "الكافـير"، و "التمـبوك " تجاه نهر"باشى"غداً ، حضر هذا الاجتماع أيضاً ، الزعيم "فاكـو"، وهو رجل ضخم ، مرح جداً على الرغم مما حدث لقومه ، قوى الملاحظة جداً ، حتى أنـه كان يراقب كل شىء من طـرف وهـو يضـحك، ما أعنيـه ، أنه فقد الكثير من قومـه ، وقطيعه فى معركة مع طليعة الزولو، أو "جوام"،

أو "الفتكانى "ـ أياً كانوا، فالبعض يقول هذا والبعض يقول ذاك ـ ومع هذا ـ ها هو ذا بوجهه الضخم ولحيته الصغيرة يهتز مرحاً كأنه ثمل .

اتفق الجميع على أن هناك قوة كبيـرة عند "أومتاتا" سوف تلحق بها قـوات أكبـر، فى ذلك المسـاء ، امتـلأ السهل بالكـافيـر هنا وهناك وهم يرقصـون حول نيـرانهم ، وقد كـان الزولو وحدهم من يـفتخـرون بأنهم يمتلكون الرماح الضخـمة ، والقلة منهم معهـا بنادق ، يعرفون بالكاد من أية ناحية تخرج الرصاصة.

الجمعـة

اشتركنا ، أنا و"بـت" فى معركة " أمبولومبين" ، وكان هذا اشتباكنا الكبيـر الثانى ، ويسعـدنى أن أخبركم بأنـنا فزنا بهذه المعـركة - ولم يكن ذلك بفضل حـلفائنا التمـبوك ، والكافـير والبوندو ، أول مـا رأينا الزولو شاهدنا مجـموعة صغيـرة وقد قاموا بالهـجوم الأول من الأرض التى أمام الغابات مباشرة ، ركب الكابتن "إيتشسـون" مع مجموعة صغيرة ، وراح يقـول للزولو بأن يتـراجعـوا إلى بلدتهم ـ لكنهم هـزؤوا به وسخـروا منه وراحوا يهاجمونه بطعنات الحراب ، عند ذلك ، رجع "إيتشسون" مسرعًا مع رجال " الهوتنتـوت" ، ثم توقف وأطلق النار، ثم ركض عائداً ، ثم توقف مـرة أخـرى ليطلق النار إلى أن وصـل لخطوط الأسلحـة النارية ، وأطلق النار من جـميع الأسلحة ، فى الحـال تقدم الخط الأحمـر للكتيـبة الخامـسة والخـمسين ، وأطلق وابلاً على خط هجـوم الزولو ، كاد الهـجوم الخاطف الذى قـام به محـاربو الزولو يتلاشى ، إلا أنه اندفع مـن الغابات خط هجوم آخر، اصطدم بالكتـيبة الخامسة والخمـسين ، وصدر عن جميع

الأسلحة ضربات عنيفة، على إثرها سُمع صخب وهتافات وصرخات من ناحية رجال الزوله ، وتقدم خط هجوم آخر من بين الأشجار ، فجأة ، كأن أحداً قرع ناقوساً ضخماً بحجم السماء ، سرى صفير حاد من فوقنا ، فقال "بت" : " إنها المدفعية ". وفى الحال تحول كل شىء إلى صخب هائل من الأصوات فووم - فووم - فووم ! اصطدام ، وفرقعة مدوية ! بانج ، بانج ، بانج ! صدرت صرخات وصيحات استهجان عن محاربى الزولو !

فور أن انقشع الدخان وأصبحت الساحة واضحة، ظهر رجال الزولو مضطربين، فأمطرهم رجال البوندو والكافير برماحهم، وهجموا عليهم كتلة واحدة وهم يتصايحون بأعلى أصواتهم ، قال "بت" : " أى جُبناء! " قال أحد رجال "الهوتنتوت" ضاحكاً : إذا كنا نفعل ذلك لهم، فلماذا يجب أن يجروا ويقتلوا ؟ أعتقد أنهم على حق، لكن ذلك لا يثير الإعجاب .

سرعان ما وقع عراك بين الأشجار، وانطلقت صيحات ذعر وألم مرعبة وعويل، وتردد أن مذبحة دموية تجرى بين النساء والأطفال ، أرسلنا الكولونيل إلى هناك بسرعة. كان منظراً بائساً ، كل عائلات الزولو ، الأباء والأمهات والأطفال والرضع ، جميعهم قد ضربوا بالهراوات حتى الموت، كان يجب أن تسمعوا وتروا وجه الكولونيل عندما أخبرناه ـ لقد صار وجهه أرجوانياً من الغضب ، وصاح : " اسحب تلك المدفعية اللعينة إلى هنا ! " وفى اللحظة التالية سددها إلى كتلة الكافير من رجال "هنتسا" الذين هرعوا إلى الغابة، فمرت القذيفتان الأوليان من فوق

رؤوسهم ، وعندما لم يتـوقفوا ضرب اثنتين سقطتا وسطهم ، حـينئذ فقط توقفوا وهم يسددون رماحهم وقبضاتهم ويتصايحون.

جاء أحد الزعـماء مندفعاً وهو يتسـاءل : "ما هذا الذى نفعله ؟" ، فقال الكولونيل : " بحق الله سوف أسقـيكم جميعًا من نفس الدواء الذى شرب منه الزوله إذا لم يتوقف هذا القتل ! " قـال الزعيم : " لقد فعلوا بنا مثل هذا ! " عندئذ قال الكولونيل: " أيا كانت عادات الكافير، فإن عادات الإنجليـز هى الإبقاء على حـياة العـدو بعد المعـركة ، وعدم إيذاء الـنساء والأطفال ، وحـيث إن القوات الإنجليزية هى التى أحـرزت النصر فى هذه المعركة ، فإن عاداتهم هى التى سوف تحترم، " قال الزعماء : " ليس من عـاداتهم إيذاء الأطفـال والنسـاء ، لكن هؤلاء الزوله قـتلوا سكان قـرى كاملة، وحسبما تقول بعض الإشاعات: إنهم أكلوهم أيضًا ، وأنه لا يمكن كبح جماح الناس فى الأخذ بثأرها " ، قال الكولونيل : " إما أن تكبحوه أنتم ، أو سوف أكبـحه أنا ، وسأفعل ذلك بدوى المدافع حـتى لو نسفت نصف رجالكم بكل فخر ، كى أعلمهم بعض الإنسانية " ، وبذلك توقفت المذبحة ، على الأقل فى الأماكن التى سمع بها الكولونيل .

سرت اليوم إشاعـة بأن هؤلاء الناس لم يكونوا من قبائل الزولو على الإطلاق، لكنهم من قـبائل "الفـتكانى" و "الجـوامى"، الذين هربوا من الزوله، أخبر الكابتن "إيتشسون" الكولونيل ، بأن رجـال المدفعية يعتقدون أن "فاكـو" و "هنتسا" قد خـدعاه بمحاربة هؤلاء القوم ، ذلك لأن الزوله الحقيقيين لا يصطحبون زوجاتهم وأطفالهم معهم ، فالزولو يشكلون الفوج من الرجال فقط ، وللحـقيقة أن العدد القليـل من النساء والأطفال وبعض الرجـال الذين أحـضرناهم مـعنا ، كـانوا نحـافـًا ويشى مظهـرهم بأنهم

يتضورون من الجوع ، لم يستمع الكولونيل لأى من تلك الإشاعات ، فقد أحرزنا نصراً سهلاً ، وحافظنا على سلامة الحدود.

السبت

جاء السيد "روچبيرج" مرة أخرى ، وأخبر الكولونيل عما سمع من إشاعات غريبة ، مفادها أن القوة الرئيسية للزوله قد ارتدت عائدة ، أو أنها هزمت من قبيلة أخرى على الطريق ، وقد جاء الزعماء الثلاثة "فوثانى" و " فاكو" و " هنتسا" مرة أخرى لمقابلة الكولونيل، ووعدوه بالصفح عن أسرى الزولو أو الجوامى أو أيًا من كانوا حسب العادة الإنجليزية، لقد زال الخطر الأساسى ، وتستعد قواتنا الرئيسية للعودة. وكان الزعيم "فاكو" هو الأكثر سعادة ، فقد شع وجهه الضخم بالسعادة واهتزت لحيته الصغيرة وهو يتحدث مع الكولونيل ـ وكان يعده " بأنه سيعامل أسراه مثل أطفاله " ، جلس إلى جواره الزعيم "هنتسا" الذى كان أكثر وقاراً وجدية ـ الذى أثق فيه ، مازال بعض النساء والأطفال موجودين ، وهن من قُتل أزواجهن أو اختفوا ، وكان الجميع سيرسلون إلى المستعمرة ، مع أنه لا أحد كان يعلم ماذا سيعملون هناك ؟

الثلاثاء " ويسللى فيل"

وصلنا مع مفرزة الجيش التى اصطحبت النساء والأطفال للمستعمرة ، وقد شكرنا الكولونيل لما قدمناه من مساعدة وقال : إنه يمكننا الرحيل ، كنا نشعر بالأسف للوداع ، ومع ذلك كنا سعداء بالعودة للبيت ، وكان الكولونيل دمثًا معنا دائمًا ، فعندما كنا نستعد للرحيل قال: " أخبرا والديكما بأنه يحق لهما الفخر بكما ، أيها الزميلان الشابان ، يوماً ما قد

تكونا ضابطين ، وسوف أزكيكما لأية مـهمة فى أى وقت تطلبونها منى " ، فيمـا بعد نطق "بيتر" بما كان يدور بنفـسى فى هذه اللحظة : " إن ثمانية أسابيع من نوع هذه الحياة كافيةٌ تمـاما ، ولا أحب أن أعيشها للأبد ، حتى لو كنت كولونيلاً " .

قابلنا السيد والسيدة " شـو" مرة أخرى ، وقضينا المساء مع "مارتا" و "چاك" أيضا ، اللـذين كانا مفـتونين بمآثرنا العـسكرية . قال لى السـيد "شـو" ـ الذى كان بمكان ما فى الخارج : "أتمنى أن يزورنا والدك يوماً ما" ذلك لأنه عندما جئت إلى هنا أول مرة ، كان لا يأمل خيراً ، قال لي هذا بهـدوء شـديد ، لكننى متأكـد من أنه سيرحب بـزيارة والدى ، كذلك "جاك" و "مارتا" ، وأيضًا ابن و بنت أخى " بـت " الصغيران .

الخميـس

العودة للبيت ، ونهاية المذكرات .

جوكاتونج والجاموس البرى[1]

ترجمها عن لغة تسوانا : سول ت.

چوكاتونج چيلاشى ، زعـيم قبيلة "بكوينا " فى ماليبالو ، يعـد الباكونى الذى ارتحل كثـيراً ، سواء سـيراً على الأقدام ، أو ممتطيـا جوادا ، أو فى القطارات ، أو متنقلاً بالقوارب فى النهر والبحر .

اصطاد الفيلة والأسود ، وشاهد الكثـير ، وبعض حكاياته عن تجاربه تبدو غير معقولة وغريبة ، والحكاية التالية واحدة منها ، يقول :

" كنا مـجـموعـة من البكونيين عـائدين من المنجم فـى روديسيـا ، قاصدين السـفر إلى "جويلو" للحاق بقطار العودة إلى بتـسوانا ، كان فى الغابة التى نعبـرها ما يشبه آثار حوافر قطيع من الماشيـة ، مختلطة مع آثار أقدام كـلاب ، وتساءلـنا ما نوع القطيع الذى يمكن أن يعـيش بعيـداً عن بيوت البشر ، وبينما نـحن فى دهشتنا ، ظهر بعض من " المتابليين" ، وهم من مقـتفى الأثر . أخبـرونا بأنها ليست آثار ثيـران وكلاب ، إنما هى آثار جاموس وحمُر وحشية ، ثم واصلنا سيرنا حتى محطة البريد ، حيث كان من المعتاد تغيير جياد عربات البريد هناك .

كان مسئولا المحطة رجلين أبيضين ، حملا بندقيتيهما ، وامتطيا جواديهما ، وسـارا فى الطريق معنا ، عندمـا توغلنا فى الغابة ، قابلنا قطيعًا ضـخماً

من صغار الجاموس البرى ، تقدم الرجلان الأبيضان ، واستعدا لإطلاق النار ، قال المتابلى : " الآن سوف يضع الأبيضان أقدامهما فى عش الزنابير ، وراح يبحث عن بعض الأشجار القوية ، ثم تسلق إحداها ، وقال لنا : " من لا يتسلق الشجرة الآن لن يرى أمه مرة أخرى " ، بينما فتح الرجلان الأبيضان المتقدمان النار على القطيع ، فصرخ عجل من بينها .

حين كنا جالسين بين أفرع الأشجار ، رأينا سحابة من التراب ، ظلت تكبر حتى بدا أنها سوف تبلغ سحب السماء ؛ ثم قال المتابلى : "إنهم قادمون " ، اقتربت سحابة التراب ، وبزغ من الغابة فى الحال ، قطيع من الجاموس البرى يعدو مسرعًا ناحية العجول ، امتطى الأبيضان جواديهما وفرا هاربين .

عندما اقترب الجاموس من العجول ، تنحى ثور عن الآخرين ، وظل يعدو مطاردا الرجلين الأبيضين ، برغم سرعة الجوادين ، إلا أننا اندهشنا لرؤية الثور يتفوق عليهما ، بل اندفع فيما بينهما ، وتخطاهما ، ثم استدار أخيرا عائداً ، لينضم للقطيع ثانية ، لقد حدث كل ذلك بسرعة حتى أننا ظننا أن الثور لم يفعل شيئاً ؛ وفى الحقيقة كان قد فعل ، لقد تسبب فى خراب كبير .

عندما استدار الثور عائدًا ، كان قد أسقط جوادًا براكبه ، وحين نزلنا من على الأشجار ، وجدنا الثور قد مزق جانب الجواد بقرنيه فى أثناء عدوه ، وسحق ريلة ساق الرجل ، لكن لحسن حظه لم تنكسر أية عظمة ، إلا أن الجواد نفق ، حملنا الرجل الجريح ، ووضعناه على ظهر الجواد الآخر ، ونقلناه إلى محطته ، ثم واصلنا رحلتنا " .

خارج الزمن

تأليف: «ج. بيرسى ڤيتز باتريك»

" إن مهارة الحكى لا تضاهى براعة اكتمال الحدث " ،

صدر هذا التعليق ذات ليلة فجأة عن شخص مـا نسيته فى كوخ أحد رواد الغابات منذ سنوات وسنوات - وكنا قد فرغنا من صـيد الحيات ، وموسم الصيد كله، وبضربات حظ موفقـة نجونا من المخاطر- فانصرفنا لحديث عن الصُّدف ، روى لنا أحـد الموجودين تجربة مـر بها ، فقـد انضم إلينا رجل معروف فى مـجال نشاطنا ، وكان من الواضح اسـتحالة تقابلهمـا معاً من قبل ، حيث قارنا التواريخ والأماكن التى تواجدا فيها لعشر سنوات مضت . بل وكلاهما كـان متحيـراً من الافتراض الغامض بأنهـما شاهدا بعضـهما البعض من قـبل ، وفى حالة صديقنا، بسبب شىء مـا مؤكد كان تعلـيقه على الآخر : "لا أستطـيع أن أفسر لك إحساسى بأننى شـاهدتك من قبل فى مكان ما مخيف ، أو قد أكون رأيتك فى حلم" .

تلاشى هذا الانطباع الأول بسرعة ، ونسيه كـلاهما تمامًا ، وفيما بعد تقاسـما كوخًا قـرب "رايمر كريك" ، ثم عندما راجت فكرة المنازل عـاشا لسنوات عـديدة معًـا ، إلا أن ذلك الانطبـاع الأول كـان يرقد كـامناً فى نفسيهما ، وإن لم يَمُت .

ذات يوم فى أثناء تبادل الحكايات ، تحدث الرجل الآخر "عن أخطر تجربة مرت به للنجاة بحياته" ، وكان ذلك بسبب خطأ بسيط ، حكى أن "الكمساري" كان قد جمع التذاكر من الركاب النازلين من القطار عند نهاية جسر المشاة، فبدلاً من أن يجمعها من الركاب فور نزولهم من القطار وقبل أن يعبروا الجسر ، أخذها منهم عند نهايته ، وكانت النتيجة أن حشد المشاة كان كبيراً جداً على الجسر الصغير، فانزلق الجسر من فوق دعاماته ، وحمل معه حوالى مائتى شخص إلى النهر، وكان الذى يحكى واحد منهم . عندئذ تحركت الفكرة الكامنة وظهرت للحياة، فقد رفع صديقنا يديه مثلما فعل منذ خمسة عشر عامًا ، عندما انهار الجسر الصغير فى مدينة "باث" ، وشهق قائلاً : " يا إلهى ! كنت أنت ذلك الرجل الآخر الذى تعلق بسياج الجسر ! ذاك هو المكان الذى تقابلنا فيه " .

وهذا ما دعى الشخص الذى كان ناسياً : بعد أن انحدرنا إلى الصمت ـ للقول : " إن مهارة الحكى لا تضاهى براعة اكتمال الحدث" .

لقد استدعيت هذا التعليق كذريعة لقول الحقيقة التامة كما حدثت بالفعل .

عندما يقضى الإنسان بضع سنوات من حياته ـ سنوات الشباب ـ فى الـ" فيلد"(١٩) ، أو السكك الحديدية ، أو خيمة ، أو دغل ، فهناك قاعدة ثابتة ، بأن شيئًا ما لا نستطيع تحديده ينبت داخله ويموت بموته فقط ، هذا الشيء ـ غريزة ، أو شعور ، أو رغبة ملحة ـ سمِّه ما شئت ، تستيقظ فيه دورياً ، وتصبح جنوناً مطبقاً ، يطلقون على هذه الحالة " حُمى السفر" ،

(١٩) جزء من هضبة الترانسفال ، تتنوع فيها الحياة النباتية من الأعشاب القصيرة إلى غابات الساڤانا - المترجم - .

حينئذ ، مثلما اعتاد صديقى العجوز القول : " لابد من أن ترحل ، أو ستنفجر! " هناك الكثير من الحكايات عن حمى السفر، لكن هذه ليست واحدة منها ، وإذا سألتم هؤلاء الذين عرفوا هذا النوع من البشر ، أو من الأفضل ، أن تمسك بأى من الأيدى العجوز والرأس العنيد ، والملاحظات المألوفة ، والأفكار غير الرومانتيكية لهؤلاء الأشخاص الذين عاشوا فى الفيلد ـ وإذا منحتهم وقتاً ، سوف تجدهم لا شعوريًا ، وبلا استثناء ـ لديهم ما يحكونه حول نار المخيم ، أعتقد تماماً أن أكبر متعة فى حياة الفيلد كامنة فى التحلق حول نار المخيم ، حيث تبادل الحكايات حول النار ، وتشويقها ، وخصوصيتها ، والصمت العميق ، إن أقل الناس حديثًا فى العالم سوف يجد نفسه تحت إغراء فض حكاية وسط دائرة الضوء حول نار المخيم .

كل شىء هادئ تمامًا ، مؤنس ، والموضوعات فى المرج ليست كثيرة ، حتى إن أى رجل عنده شىء ممتع سوف يسيطر على المستمعين ، لا أحد يمل ، ولا أحد يقاطع ، ربما كانت حالة شبه الكسل هى الحالة المفضلة للقيام بدور المستمع ، وهى الطريقة الوحيدة الأفضل من الملل ومقاطعة الحديث .

فتنة الحياة التى تفوق الوصف ، من تذوقها لا يملها ولا ينساها أبدًا ، ولا يتوقف إحساس الشوق فى أن يعود إليها فور أن يتركها .

كان ذلك فى عام ٩١ ، العام الذى تلا ارتياد الرواد طريق الأدغال مع مرشدهم "سيلوس" ، واحتلوا "ماشونالاند"[٢٠] ، كنا نتتبع آثارهم ،

(٢٠) ماشونالاند : هذا الاسم الذى أطلقه الأوربيون فى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً على أرض قبائل "شونا" وهم من الشعوب المتحدثة بلغة البانتو ، يعملون بالفلاحة ورعى الماشية ، وقد قسم البريطانيون ماشونالاند الواقعة فى الشمال الشرقى من جنوب إفريقيا إلى مقاطعتين ، ماشونالاند وكانت تدعى روديسيا منذ ١٩٢٣ ، ومتابلى لاند (التى يسكنها شعوب ندبيلى) . وقد استقلت ماشونالاند بشطريها وأصبحت تدعى الآن زيمبابوى . دائرة المعارف البريطانية Britanicom .

وعشنا مرة أخـرى لياليهم وأيامهم المشوبة بالقلق ، عندمـا كانوا حفنة من الرجـال فى أدغال كثيفـة ، تحـت رحمـة الآلاف من قبائل "الماتبليه" ، لا يعرفون متى سينقضون عليهم ليذبحوهم .

عبـرنا "اللندى" ، وفى مكان مـا بعده ، حـيث قضى الـرواد أسوأ لياليهم ، استرخينا فى سـلام وأمن، ورحنا نثرثر حول ما أشيع عن المعابد القديمة ، ومـقابر الرواد الجـدد ، كنا ستـة، رقدنا حول النـار فى صمت مشجع على الكسل ، مـكتفين من الحديث ، نحيا ببـساطة ونشرب نخب بهاء ليلة إفريقية يجل جمالها عن الوصف .

كسر الصمت الطويل شخصٌ ما خـبط غليونه وطلب تبغًا ، كان هو العجوز "بربرتونيان" الذى اضطر لفك كيس التبغ ، نظر حوله بسمت من يحتـاج لأحـدٍ يتحدث إليـه ، وإذ لم يبد أىٌ منا إشارة، سأل من فوره : " يا شباب ، هل أنتم نائمون ؟ "

أجابته أصوات واضحة يقظة ، بكل درجات التأكيد : " لا ! "

قال وهو يعـيد حشو غليـونه ببطء : " تعرفون أن كل شيء يعـتمد على وجهـة النظر ، فقـد كنت أفكر توًّا فى مثل هذا الـنوع من الأمور ، أقصد أن ليلة مثل هذه ، وكل ما حـولنا من جمال ، على الرغم من أنها تبدو غاية فى الكمـال من وجهة نظرنا ، إلا أنها قد تكـون بالنسبة لأسـد أو نمر بلاءً تامًا " .

قال مساح الأراضى : " أيها العجوز ، إن عطفك لا حدود له ، ألق لى بنار ، وعزِّ نفسك بأن أصدقاءك من الحيوانات المفترسة قد قامت بالواجب عندما كان الآخرون فى غاية البؤس ، فلتكن نظرتك لصالح الإنسان أكثر " .

اقترح آخر : " إذا أردت التعبير عن تعاطفك الإنسانى ، ألق لى بوسادة ، فقد صنعت من الدلو وسادة ، والنتيجة أنى حصلت على انبعاجة فى رأسى ، الوسادة المكتنزة يا والدى العجوز ، لو أعطيتنى الوسادة المكتنزة سوف أوافق على أن الأسود تواجه وقتًا عصيبًا عندما يصادفها جو جميل وصافٍ مثل هذا " .

أشعل "بربرتونيان" غليونه ، وألقى بالوسادة إلى المتحدث ، راح ينخر ويهمهم بين نفحات الدخان ، ثم قال: "كنت أفكر فعلاً فى ذلك من وجهة نظر إنسانية ، من وجهة نظر ذلك الشقى المسكين الذى تاه هنا منذ شهرين ، هو الآن غير قادر على التفكير فى ليالٍ مثل هذه ، هل تظن أنه كان يتأمل جمالها ؟! "

قال واحد منا : "أوه، لقد سمعت شيئًا عنه، تاه لأربعين يومًا فى البرية ، أليس هو من تقصد ؟ لقد أثرت الصدمة فى نفسه بشدة " .

"أجل ! ، والحادث كان محض مصادفة ، فقد تاه أربعين يوما وليلة فقط ، " رحل ومعه بندقية وخمس خراطيش ليصطاد دويكر"[٢١]، قرب ضفة نهر "نينا" ، و بشكل ما ضل طريقه قرب غروب الشمس ، عندئذ

(٢١) نوع من الظباء الإفريقية .

فقد صوابه ، كل ما كان معه، خمس خراطيش، وسبعة أعواد كبريت ، بلا طعام أو غطاء ، ولا بوصلة ، وبلا خبرة أو شطارة! " ثم واصل حديثه : " تلك بداية مبشرة بالنجاح لنزهة الأربعين يومًا أليس كذلك ؟ حسنًا ، أطلق كل خراطيشه فى الظلام محاولاً إبلاغ معسكره عن مكانه بالإشارة ، بعد ذلك رمى بندقيته ، فى الواقع! كان يرتعد من الخوف ، فكسر عودى كبريت قبل أن يدرك أن كل ما معه سبعة أعواد فقط ، ولأنه لم يكن لديه ما يطهوه، فلن يحدث فرقاً إذا كان معه كبريت أم لا " .

"ماذا ، فى فصل الشتاء ، والأسود تدور حوله ؟ "

" أجل، حسنًا، يعتاد الإنسان على أى شىء ، كان الجو باردًا، والدنيا حوله غارقة فى المياه ، أحياناً، فى أول الأمر أخافته الأسود كثيراً، وجعلته يلجأ إلى الشجرة عدة ليال ؛ لكنه يقول إن ذلك لا يعد شيئًا ذا بال ، حينما تفقد الحس بكينونتك ـ لكن رغم ذلك ـ يبقى الإحساس بالموت حيًا نشطًا .

"ما هذا ؟ هل مازال حيًا ؟ "

"أوه ، هو نفسه لم يكن يعرف كيف ظل على قيد الحياة ، إلا أننا استطعنا أن نعرف كيف عاش عندما رأينا الظروف التى وجدناه فيها ، كنا نصطاد على مسافة خمسة أميال تقريبًا فى اتجاه منبع النهر ، وعند لسان رملى شاهدنا آثار أقدام حديثة ، كانت أقدامًا عارية، فظننا أنها لزنجى. وتعجبنا لأنه لا يوجد " كرال " بالقرب من ذلك المكان ، ولم نر أية آثار لقطيع أو مدق ، كنت أقف عند رأس ضفة النهر متوقعًا فى كل لحظة ظهور ظبى صغير أو وعل يندفع من الدغل ، وأصدقكم القول ـ لا أعرف

متى كانت بداية هذا التحول ـ فـعندما وقعت عيناى على وجه أبيض ينظر إلىّ من حفرة دب النمل، لـم يـكن هناك نظرة أكثر بؤسًا وغرابة ووحـشية ومطاردة من تلك النظرة الـتى جعلتنى أوجـه بندقـيتى إليـه عندمـا اتجـه ناحيتى - حين وصـل الآخرون، راح يتقدم ببطء وهو يزحف ، مـتصلبًا، عاريًا تمامًـا، ومحـترقًا من الشـمس، وكان جلده كله مـخربشًـا ، إنسانًا مذهولاً، ظل يحـدق إلينا بنظرة ممسوس، ثم زحف نحـونا ، وضحك ! عدنا به إلى مخيمنا ، لم يكن قادراً على إخبارنا بشىء ، لا يكاد يفهم أى سؤال من أسئلـتنا ، كان يلهث ، يداه مجروحـتان ومشوهتان ، فـقد بليت أظفاره من الحفر فى أثناء بحثـه عن الجذور ، ذهبنا إلى وكره ، كان حفرة دب نمل كبيرة، تحت شجرة عتيقة بين الصـخور ـ بقعة مختارة بعناية أعتقد أنه هو الذى حفرها ـ وإلى جانبها حفرة صغيرة مثل عش الحمام المجوف، داخل الحفرة، كـانت بقايا البندق، وجذور ممصوصة، وبذور فاكـهة ومثل هذه الأشياء ، لم أفـهم كيف يمكن أن يكون إنسان مجنوناً تقريبـاً - مثلمًا كان هو حين ذاك - وأن يكون لديه وعى يدفعه لجمع جـذور الفاكهة البرية ليحافظ على الروح والجـسم معا ـ ؟! فقد كـان لديه بالفعل حس غريزى أكثر منها إدراكاً أو معرفة .

قال المليونيـر الذى لديه من الملايين فى حسابه أكثر مما يتـوقع بالنسبة لرحال فى مـاشونالاند : "حقـاً إنه موضـوع موحى ، رجل يحتـضر من الجوع على مدى طلقة رصاص من أصـدقائه ومن الزاد ، عاجز بالرغم من الثروات التى منحتـها له الحضارة ، وأنقذ من الموت المحـقق بفضل الغريزة المباركة التى لا نعرف أنها بداخلنا منذ القردة العليا شبيهة الإنسان ! همم ! أنت على حق يا "بربرتونيان" ! إنه لم يكن قادرًا على تأمل جمال الليل ،

هذا إذا كان قد فكر على الإطلاق ، لابد من أن لديه تفسيرًا ممتازًا لتردى وانحدار الإنسان حين كان ينبش الأرض بحثًا عن الجذور بأصابع دامية خالية من الأظفار ، أو وهو يتسلق من أجل البندق بدون ذيل يعتمد عليه ليثبته فوق الأشجار! " .

كان بيننا رجل بحرية متقاعد ، نظيف الهيئة ، برونزى البشرة ، له نظرة داهية ، وكان مصراً على الاستماع للحديث فحسب ، ونادراً ما أبدى ملاحظة على ما يقوله المتحلقون حول النار ، جلس مربع الساقين ، وبعين مغلقة - أظن أنها عادة خاصة بمن ينظرون فى التلسكوب - راح يراقب "بربرتونيان" وهو مفتون بحديثه ، أخيراً تكلم بتأن ، وفيما يبدو كان يتكلم تحت إلحاح دافع لا يقاوم ، قال : " أجل ، إنك لا تدرك أبدًا كيف يتلقون الصدمات ، ذات يوم انتشلنا رجلاً كان زميلاه ممددين إلى جواره ميتين لأيام وأيام ، كان آخر شىء يذكره قبل أن يهذى ، هو حصوله على بعض من حمض الكربوليك من وعاء ظبى صغير ، كان زميلاه قد ماتا قبل هذه الواقعة بيومين ، ولم تكن لديه القوة لرفعهما من فوق المركب ليلقى بهما إلى البحر ، كنت أظن أنه يريد أن يشرب الكربوليك ، على أية حال ، كان يسكب الحمض ويفقد صوابه من رائحته المحيطة به ، تعافى أثناء وجوده معنا - حيث كنا عائدين من رحلة استطلاعية مضجرة فى عرض البحر - ومع ذلك فقد وعيه وعاود الهذيان ، وعانى من الحالات الأخرى التى وجدناه عليها مرتين خلال الفترة التى استغرقتها رحلتنا ، بعد بحث ظروف الحادث، اكتشف طبيبنا أن سبب هذه الحالة ، كان رائحة الكربوليك تلك التى كانت تذهب بعقله- ذات يوم - بعد سنوات من هذا الحادث الذى مات بسببه تقريباً - أصابته حمى ، وكانوا يطهرون

حجرته ، ولحسن حظه أنه أصبح خطراً وعنيفًا ، فاضطروا لنقله إلى مكان أخر ، وبعد بضعة أيام أصبح على ما يرام . "

" لكن هل تعتقد أن الإنسان قادر على أن يعيش خارج المعقول فترة طويلة من عمره بمثل تلك الطريقة التى عاش بها الفتى أربعين يوماً ؟ لنفترض أنه يمكنه ، تخيل أن ينسى الإنسان الاستعمال الحضارى للسان والأطراف والعقل ، شىء مهول ! أليس كذلك ؟ ومع هذا، هناك أناس يختارون أن يعيشوا الحياة البدائية والهمجية ، رجال كانت حياتهم أصلاً مريحة ! "

قال "بربرتونيان" : " كل ذلك حسن جداً ، إنك تتحدث الآن عن ناس يقيمون بين الهمج ، وفى البرارى بإرادتهم واختيارهم ، وباحتياطات معينة وضعت للحالات الطارئة . . إلخ ، وليسوا رجالاً تائهين"

حتى فى هذا الوضع ، فإن تلك الظروف تفسد الإنسان بشكل فظيع . "

قال "بربرتونيان" متأملاً: "حسنًا ، إنى أعرف الكثير عن ذلك ، إن هذا يعتمد على الرجل ذاته ، وأذكركم بأننى أعتقد أن نهايتهم تكون دائمًا إخفاقًا مأساويًا ، مشكلة، ودمار، وقل ما شئت من تلك الصفات السلبية ، فنحن لا يمكن أن نرتد إلى البربرية بإرادتنا ، فقد اخترنا الحضارة بحسناتها وسيئاتها، والإنسان الذى يهجرها يدفع ضريبة باهظة فى الطريق الذى يسلكه ، على الأرجح، سيصل إلى حيث لم يتوقع قط"

ابتسم الصحفى ،

قـال ونظرة خبث تطل من عيـنيه : " أعـرف هذه الحكاية ، لقـد حكيت لنا عنها فى مخيم " تشـرشل" الليلة الماضية ، رجل صاحب نفوذ ومنزلة رفيـعة ، صـار همجيًـا وتزوج امرأتين ، واخـد بالك ، امرأتين ! وهن من نساء الكافير ، وأصبح زعيماً لقبائل " سوازى " ، ونتج عن ذلك مأساة . . . "

رد "بربرتونيان" : " اللعنة على تلك الحكاية ! هذه حالة واحدة من بين عشرين حالة من هذا النوع. "

التقط بربرتونيان السخرية التى فى حديث الصحفى ، وكَرِه أن يتاجر به، فتوقف عن الحديث. "

قـال المليونـير: " فى عـام ٨٦ ، كنت على الحـدود بين التـرنسفـال وسـوازى[٢٢] اذكـر أنك أخـبـرتنا بحكايـات مماثلة آنذاك ، إه ؟ كـانت "سـوازى لاند" حـارة جـداً ، حـتى ظـننت أنها المنطقـة الأشـد حـرارة فى جنوب إفريقيا كله، إه ؟ "

" أنت على حق، فهى فعلاً حـدث ، " ثم قال "بربرتونيان" بحـذر : " إنك تتحـدث عن رجال متهـورين ، يلعبون لعـبة الأبيض و الزنجى ، حسنًا بمقدورى أن أخـبركم عن هذا، فإن صديقين من أصدقـائى لعبا هذه اللعـبة ، أراهن بحـياتى إنهـمـا من أفضـل الرجـال ، وليس هناك رجل متحضر أفضل منهما، ولا يمكن لكل طرق الكافير أن تغيرمن سلوكهما المتحضر"

(٢٢) سوازى ، سوازيلاند ، أرض شعوب السوازى ، يعيشون فى منطقة جنوب شرق أفريقيا ، أو شرق الترنسفال ، وشعوب السوازى من الشعوب الزراعية ، كما يقومون بالرعى تنتمى لغاتهم إلى مجموعة لغات "البانتو" - "كونغو" ، "والنيجر" - "كونغو" ، بالإضافة إلى لغة قـبائل "الزولو "، "وزاهـوسـا" ، كما توجـد مـجـمـوعة أثنية تدعى "ناجونى" فى جنوب سوازى لاند ، دائرة المعارف البريطانية .

سأل المليونير : "هل تقصد أنك عرفت رجالاً من البيض استقروا بين القوم المحليين، ويعيشون بينهم كأفراد منهم، ومع ذلك يحتفظون بالسلوكيات، والعادات، والقدرات الطبيعية، والطرق المميزة العقلية والجسدية، بل وطموحات الرجل الأبيض؟"

"حسنًا ، لا أستطيع قول ذلك ، لأن طموحاتهم إن استطعت قياسها ، أصبحت طموحات كافيرية ، بمعنى أنهم يطمحون لامتلاك قطعان الماشية ، والصيد بمهارة ، لكنني ـ لا أعرف إن كان صحيحاً قول هذا أم لا ـ إنه فى كل الحالات ، كان هؤلاء "يشعرون بحنين جارف" للعودة لحياة البيض ثانية إن آجلاً أو عاجلاً ، ربما كان طموحهم بأن يكونوا من الكافير نوعًا من التطلع المؤقت ، أو أن رغبتهم فى العودة لطرائق البيض نوع من الهوس العابر ، من يدرى ؟! من خبرتى بهم ، يمكن أن أقول: إن العودة إلى بنى جنسهم، تعنى حكمًا عليهم بالإخفاق والدمار، لا أدرى لماذا ؟! إلا أنى لاحظت ذلك، وهو يبدو لى كنوع من القضاء والقدر ، إذا كنت تعتقد فى مثل هذه الأمور"

بعد أن سحب عدة أنفاس من غليونه للمرة الثانية، قال: " أتدرى، يوجد حس من العدالة فى ذلك، فالحضارة التى احتُقرت وهزىء بها، هى أداة الانتقام لنفسها ! إذا أمكن للإنسان أن يُلبس الحضارة المجردة مشاعره الخاصة ، فيا له من انتقام !! عندما ترى الحضارة المرتدين ، مرضى وحزانى ، مخزيين ، تراهم وهم يعودون إلى طرائق شبابهم وأعراقهم، خاضعين لجزء مما كانوا يحتقرونه ويرفضونه"

اتخذ "بربرتونيان" ثمة الحكيم المتفلسف وهو يستعيد الذكريات خلال تلك الليلة الصافية، فإن أبدى أحد ملاحظة عن ما هو الجمال عامة ،

يجلس منتصب القـامة، ويهز رأسـه العجوز بضع مـرات في صمت ، ثم وبحكم العادة، يتفـحص غليونه ويخبطه في كعب حـذائه ويتدفق حديث الذكريات الذى يوضح فلسفته .

كان يسبق حديثه عادة بفترة تشويق تأملية طويلة ، ثم يقول : " حسنًا ، أتعرفون ، كنت أعتقد دائمًا أن ثمـة شـيئًا غريبًا في هـذه الأشياء ، " وقـد ينظر بعينين نصف مـغمضتين ناحـية تجويف غليونه الفـارغ ، ويبحث عن التبغ ، وقـد ينخر نخـرتين ، بعد ذلك يشعل غلـيونه ومن خلال نفـثات الدخان يقول ٠٠ اذكر أنه في ٧٨ ، خلال رحلة حج ، أو ، في عام ٨٦ كان لى رفيق طريق .

أما هذه الليلة فكان يجلس على طريقة الترزى ، مُرتكزًا بمرفقيه على رُكبتيـه المطويتين ، ويداه متشابكتان فوق تجويف غليـونه ، قال وهو يبتسم ابتسامة المتأمل : " من أغرب المقـابلات التى مرت بى في حياتى ، كانت في بلاد السوازى عام ٨٥ ، هل أخبرتكم عن "ماهاش" والمهماز الفضى ؟" ثم ضحك ضحكة خافتة راحت تقرقر في التجويف الضخم لغليونه ،

"كنا اثنين يجوبان بلاد السـوازى على جوادين، متجـهين إلى المخيم عند نهر"مـابوتا" ، كنا قد تعاركنا مع البـرتغاليين حول بعض الماشـية التى سرقها منا الزنوج ، أصيب بعض الزنوج أثناء الشجار ، ومن ثم كان لابد من أن ننزح عن المـكان لبـعض الوقت ، ونأخـذ قـسـطًا من الراحـة في "ليبومبو" ، إلا أن ذلك لم يحدث ، فـعندما وصلنا إلى "كوماتى" ، قيل لنا : إن هناك رجـلاً أبيض في "ليـبـومبـو" ، وكـان الكافـير يسـمـونه "سيبوجـوان" ، يطلق الزنوج هذا الاسـم عـلى مـن يلبس " مونكل " أو نظارات ، كنا نخب بالجياد كى ننجز الثـلاثين ميلاً التى علينا أن نقطعها في اليوم ، وكنا نعيش على العيش المقدد الذى يسوى فوق صفيحة صغيرة ،

وعلى الطيـر البـرى السـويزى إذا صـادفنا ، كل وجـبـتين مـرة ، وعلى "الأمـازى"- أى اللبن الرايب - ، اعـتـدنا النوم فى المرج كـل ليلة بدثار واحد لـكل منا، والسرج "نعـمله" وسادة ، ونضع أوتاد الجـياد إلـى جوار رؤوسنا، كانت تلك الليالى رائعة ! على الرغم من أننـا كنا دائما متعبين ، وكثيـراً ما كنا جائعين ، إلا أن الرقاد فى سـلام وهدوء بالأدغال ، والنظر للسماء المرصعة بالنجـوم التى تشبه ذرات الماس ، لا تأبه بشيء فى العالم ، ياه . . . ياه ـ هذه هى الحـيـاة ! لشـهـور لم نكن ندرى شـيـئـاً عن العلم الخارجى، ولـم نكن مهـتمين بالعالم ، لدرجة أنه لـم يعد له وجـود بالنسبة لنا ، كان لدينا كتاب واحد ، هو كتاب "أنجولدسبى" للحكايات الخرافية، وكنت تسـمع الضـحك العـالـى هنا وهناك على "غـراب ريمز"، و"مـرح الساحرات"، والحكايات الأخرى، حتى ليمكن عمل دراسة عن وجه كل منا .

ما علينا ، سأحدثكم عن "ماهاش" ، كان "ماهاش" إندونيًا كبيراً ، لديه من خـمـسة إلـى سبـعـة آلالاف مـحارب ، وكـان تابعًـا للزعـيم "أوماندينى" ، إلا أنه كان يدفع إتاوة رمزية فقط ، وفى حـقيقة الأمر يبدو مستقلاً ، كان من أذكى الزنوج الذين رأيتـهم فى حياتى ، ضئيل الجسم، نحيف ، بسـيط المظهر ، له يدان شديدتا الرقـة ، وملامح وجهـه حادة، وعيون سـوداء لامعة نفاذة ، يتـرك لدى الواحد انطباعاً بأن نظرات عـينيه تختـرق كل شيء وتصل لما وراءه ، ورغم ندرة حديثه إلا أنه يبـدو رجلاً هادئًا قوى الإرادة .

كان يجب أن نمر بمكانه حتى نصل إلى "سيـبوجوان"، وبالطبع كان لابد من أن نمكث بقية اليـوم لتقديم احتراماتنا وتحيـاتنا ، وكان كراله على قمة الهـضبة الأكثر ارتفـاعا قرب جرف "ماننجـا" ، هذا الجرف يقع عند

طرف الغـابة ، وملتقى مـدقات الماشـية ، كـان الطريق شديد الانـحدار والصخرية ، مع هذا لك أن تتـخيل أننا لم نكن منزعجين فى هذه اللحظة من ذلك ، بل إن مـا كان يحـيرنا نوع الهـدية التى علينا تقـديمها للزعـيم عندما يتفضل بالحديث إلينا ، لا نجرؤ على مجرد التفكير فى اقتسام البنادق والذخـيرة مـعـه ، وكنا نخـشى أن تكون هى الشيء الوحـيـد الذى يريد الاستيلاء عليه ، أخيرًا خطر لنا أن نهديه أحد مهاميز صديقى الفضية ، لم يحبذ "هيـرون" ذلك كثيرًا ، قال من المحتـمل أن تسبب مشكلة ، لكنى صمـمت على ذلك ، رغم عدم مـيله للفكرة ، وذلك حـتى أفسد عـليه زوجى المهامـيز التى يختـال بهمـا ، كان الزعيم قـد اشترى جـوادا قبل وصولنا بيـومين فقط ، وكان قد أرسل فى طلبـه من "ليدن برج" ، وهو الأول من نوعه الذى شـوهد فى البلدة ، ومن الغريب أننـا عرفنا أن اسم الزعيم "ماهاش" يعنى الجواد ، ما علينا ، لنكمل الحكاية ، وعدنا الزعيم بأنه سيقابلنا فى اليوم التالى ، وبعـد انتظارنا ساعات طويلة كالمعتاد ، تمت المقابلة ، وقدمنا المهماز الفضى ، لابد من أن اذكـر أنه راح يتفحصه بارتياب شديد ! وعندما أريناه كيـفية استعماله ، ابتـسم ابتسامة خفيفة مـتراخية ، متـشككة ، وأبدى بعض الملاحظات بصوت خـفيض لأحـد مستـشاريه ، بدأت أتفق مع "هيـرون" حول عدم الحكمـة فى إهداء شخص هدية غـير مفهومـة له بالمرة ، وكنت سأشعر بالراحة إذا أتيح لى تغـييرها، لكن ذلك الماهاش الذى كان ذا عـقل عملى ـ أرسل رجـلاً ليأتى بجيـادنا ، ومنحنا فرصة امتطاء الجواد باللجام ، قـدمنـا عرضًا لاستعمال المهماز وهذا أسعده وكذلك نحن شعرنا بالرضى، للحظة ! لكن الأمور تعقدت ولم يكن هناك فرصة للتراجع، عندمـا أعلن أنه سوف يمتطى جواده، ويرغب أن يربط له "هيرون" المهماز حـول قدميه الحافيتين، وكان علينا أن نعـتمد على حسن

الحظ وحضور ذهن "هيـرون" ، ذلك أن عرقوبه النحيـل لـن يملأ المهماز، فأحكم "هيرون" تثبيت ناخسة المهماز بحجر لتضيقه، وغير معظم مواضع الربط ، ومع ذلك ، لم ينفع كل هذا، فالزعيم لم يمتـط جوادًا من قبل ، لذلك رفعـه محاربان مـتينا البنيـة على ظهر الجواد ، وفـور أن وضع فوق ظهر الحصـان ، أمسك بعرف الجواد بكلتـا يديه، وقبض كعبـيه بقوة تحت بطنه وقد تدلت أذناه على عنقه ، تراجـع المحاربان اللذان يسنداه ، تأرجح "ماهاش" ومال إلى جانب واحد، وأظن أنه أحدث جدبة متشنجة بالكعب المسلح ، تعالت فى الجو صرخات حادة طويلة ، وتدافع ، وسلسلة متصلة من الصياح الأسـود، وطارت من خلفه ملاءة حمراء ، راح الزعيم يتـقافز بالجواد فى منحـدر صخرى ، ثم طرح بقـوة لمسافة عـشرة أقدام تقـريبا ، وارتطم رأسه بصـخرة ، أقـول لكم ، لدقيقـتين كنا كمن أطبق الجـحيم عليهم ، ألقـينا بنادقنا - التى نحملهـا دومًا - وجرينـا إلى مكان الزعيم ، أعتقد أننـا لو كنا احتفظنا ببنادقـنا فى تلك اللحظة ، فإنهم كانوا سيغرزون حرابهم فى أجسامنا ، فقد كان هنـاك عدد لا حصر له من الشياطين السود يحيطون بكل واحد منا ، ويدفعون الحـراب فى وجوهنا ، وهم يتصايحـون :

" بولا ليـلى أنكوس ، أومتـاجاتى ! أومتاجاتى ،أى لقـد قتلوا الزعيم ! سحر! سحر! . " . . فـى اللحظة التالية ، رأينا "ماهاش" واقفًا مستندًا على عدد كبـير من محـاربيه ، وهو يمسك رأسه بيده ، وازن نفـسه ، ثم ألقى علينا نظرة مبهمة ، ومشى إلى مكانه الخاص .

بقينا هناك أربعة أيام ، فى الحقيقة كنا سجناء ، على الرغم من عدم تسميتها بذلك ، لم يقل أحد شيئًا عن رحيلنا ، إلا أن بنادقنا وجيادنا اختفت ، ومنحونا كوخًا فى وسط الكرال ، لم نكن نعرف هل مات "ماهاش" ، أم يحتضر ، أم ليس ثمة خطر عليه ؟! ، لم نعرف حتى إن كنا سنقتل أم سيطلق سراحنا، أم سيبقوننا إلى الأبد ، فى صباح اليوم الخامس وجدنا جيادنا مربوطة مع قطعان القرية أمام كوخنا ، وأخبرنا رجل من "الإندونا" ذو شعر رمادى ، بأن "سيبوجوان" الذى نبحث عنه ، يقيم بمكان ليس بعيدًا عن هنا ، هناك فوق الهضبة ، تلقينا الإشارة أسرجنا خيولنا فى الحال ، بينما كنا سنبدأ السير ، أحضر العم " فإن " جديًا صغيرًا ، مذبوحًا ونظيفًا ، وأعطاه لنا ، هدية من الزعيم ، ومضى الإندونى العجوز إلى "هيرون" ، ثم نظر إليه نظرة غريبة ، بوجهه المتغضن الماكر، وقال: "يقول الزعيم : ' همبجلى ' ، أى رحلة موفقة ، وأرسل لكما هذا . "

كان المهماز الفضى : ألقى "بربرتونيان" نظرة أخرى على غليونه، وضحك ضحكة خافتة عندما تذكر التجهم الهزلى على وجه الزنجى العجوز ، ثم واصل حديثه : " لكننى كنت سأخبركم عن الرجل الأبيض الذى يسكن فوق هضبة "بومبا" ، حسنًا، لم نكن بعيدًا عن دروب قرية "ماهاش" ، وقد أدركنا كم كانت فرصتنا ضئيلة إذا كنا حاولنا الهرب ؛ فقد كنا نتلمس طريقنا فى الغابة متبعين الدرب الذى كان لا يسمح سوى

بمرور شخص واحد فقط ماشيا على قدميه، فكل مائة ياردة أو نحو ذلك كان علينا الترجل لإزاحة الأفرع المتدلية، أو جذوع الأشجار التى تعترض الطريق ، أو شبكات الحبال التى تستخدمها القرود ، واعتادت الجياد التعامل مع هذا المكان الوعر ، حتى أصبحت تمشى مثل القطط ، وفى مواضع كثيرة كانت تغطس تحت الأشجار الكثيفة التى تدلت على شكل شفرات مقوسة حادة خلال الممر الصغيرالمظلم ، كان هذا هو طريق الخروج الخلفى الوحيد من منطقة ماهاش ، وبالطبع كانت الحواف شديدة الانحدار لسلسلة جبال " ليبومبو " من أمامها .

واصلنا السير أربع ساعات على هذا المنوال، نرى ضوء الشمس بالكاد من خلال أوراق النباتات الكثيفة ؛ وعندما خرجنا أخيراً إلى أرض مسطحة مستوية خضراء ، بهرنا ضوء الشمس الساطع والخضار ، هناك قابلنا بعض النسوة والصبية الذين أجابوا على أسئلتنا الكثيرة عن الطريق نفس الإجابة السالفة التى كنا نسمعها منذ أربعة أيام : " سيبوجوان ؟ أوه ، بعدنا طوالى . "

أقسمنا قسم رجل واحد : أن نصل إلى هذا الهولندى الطائر هذه المرة بلا مزيد من خيبات الأمل ، بحثنا حولنا عن مكان للتوقف ، واتجهنا إلى رابية محاطة بالأشجار.

كان "هيرون" فى المقدمة ، عندما وصلنا إلى الأشجار ، كبح جواده وتوقف، وبابتسامة عـريضة نادى علىّ: " أقول لك، انظر هنا ! هذه بداية غريبـة !" كان صديقنا "سيـبوجوان" واقـفاً يداه فى خاصرته ، وسـاقاه منفرجتان ، يرسم زاوية حادة مع هيكل بيت .

كان يلف "منشـفة" حول عورته، ويضع عـوينة ربطت بإحكام قرب العين ، ولا شىء آخر!

شاهدنا "بروفيله" لفترة ، وقد رآنـا حين استدار جهة طريقنا ، كان وجـهـه من أفـضل الوجـوه التى ابتـسـمت لنـا فى ذلك الوقت، مـشى "سيبوجوان" بهمة لملاقاتنا وقـال : "مرحبًا يا سادة ، نادرًا ما أرى وجهًا أبيض هنا ، وبالمناسبة لا تؤاخذونـى على ملابسى ، هلا عذرتمونى ؟ إنها ملابس أهل البلد ، وكما تعلمون عندما تكون فى رومـا فافعل مثلما يفعل الرومان ، هـيا ترجلوا عن جـيادكم ، وتناولوا وجـبة خـفيفـة "، ثم نادى : "كومولا ! يوڤان ! هاى ، أنـتم يا أولاد ! أين هم بحق الشيطان ؟ تعالوا هنا وخذوا الجيـاد أطعموها ، الآن هيا بنا إلى حـجرة الاستقـبال ، أؤكد لكم أن كلمتى المقتبسة هذه لا تنذر بسوء. . . »"

راح يستحثنا فى السير من هنا إلى هناك بكثير من المرح ، واستمر فى إطلاق وابل من الأسئلة ، والإجابات ، والتعليقات ، والتفسيرات فى أثناء انشغاله بتوفير سبل الراحة لنا.

قادنا إلى كوخ مستدير ، لم يكن عـلى شكل الأكواخ الإفريقية المألوفة ، بل كان مـبنيًا من الأخشـاب والأغصـان المجـدولة ، ومكسواً بالجص ، هذا الكوخ كان منيراً ونظيفًا مثـل "بروش" جديد ، فصلت ستائر النوافذ

ومفــارش المائدة من قــماش " الشــيت " و " الموسلين " و " الكابلان " الزاهية الألوان ، بيــنما صنعت المائدة من صناديق زجــاجات " الجن " ، وكانت أرجلها مثبتة فى الأرض ، بينما صنعت المقاعد من جذوع الأشجار ، وكانت غيــر مثبتة بالأرض ، وبلا ظهـر ؛ لــكن ما أذهلنى واعتبرته شــيئًا غــير عــادى بالمرة ، منظــر الصحف الإنجـليزية والمجـلات المصــورة وهى موضوعة فى نظام وترتيب دقيق على المائدة ، مثلما يراها الواحد منا مرتبة ومنظمة فــى مكتبة قــبل تداولها ، كــان هناك أيضاً رف معلــق وضع عليه خــمســة كتب ، لم أســتطع منع نفــسى من الابتســام : الكتاب المقــدس وشكسبير، وجدول مواعيد البحرية، وقاموس، ودليل "ريف".

يقولون إنك تعرف الرجل من أصدقــائه ، والأكثر أن تعرف ذلك من كتبه ، إلا أننى لم أخرج من هذه الكمية بالكثــير، باستثناء كتاب واحد ، فنظرت إلى تصرفاته البسيطة، وسلوكه الرفاقى ، والرضــا ، واللحية المدببة ، وتوصلت إلى أن جدول البحرية ، مؤشر يعرفنا به - إلى حد ما - مع ذلك ، حافظ علــى سير الأمــور بطريقة مــرضيــة مرحة ، بحــيث لا يكون لدى الإنسان أى وقت لكى يلحظ الكثير.

حدث الكثير من الأشــياء الصغيرة الخلابة الممتــعة ، بالنظر إلى غرابة المكان المحــيط بنا، ولظروف حيــاة الرجل ، أكــثر منهــا بسبب الأحــداث نفــسها، مــثلاً ، عندمــا صرحنا بأنــنا لم نتناول الإفطـار، وجدنا أنفــسنا مســتمتعين بأكل البــيض المسلوق مع التوست، وابتســمت ابتسامة عــريضة عندما انتظرنــا الخادم "السويزى" فى زى مناسب وهو يــحمل المنشفة فوق كــتفــه ، بالتأكــيد لابد من أن يكــون رجلاً غــريــب الأطوار بعض الشىء ليعيش مــثل هذه الحياة ، وفى مثل هذا المكان وحده ، ويأخــذ على عاتقه تعليــم زنجى كيفية التخديم على الضيوف بالطريقة التقليدية .

فكرت فى مدى تفاهة تعليم ولد زنجى مهنة النادل فى مثل هذه الظروف، وتوصلت إلى أن صديقنا لا يعمل تاجرًا بسبب حاجته للمال ، بعد الإفطار قدم لنا السجائر الفاخرة ، وكان ذلك دليلاً آخر على التناقض البادى فى حياة هذا الرجل. "

كنا قد اتفقنا على التخييم عند نهر "تيمبى" ، وقد اعتزمنا على مواصلة السير مرة أخرى فى ذلك اليوم ، المخيم المُرضى، لذلك بقينا هذه الليلة، وصرنا أصدقاء، " لكن مضيفنا ألح علينا للبقاء ، ونحن نوع ، لم نكن متلهفين على أن نحول ظهورنا عن ذلك .

كنت على صواب حقًا ، فقد كان يعمل بالبحرية لسنوات طويلة ، وقد تركها ليلعب لعبة الاستكشاف. قال إنه استقرهنا حيث وجد السلام المطلق والسعادة الاستثنائية بعيدًا عن المشاكل الدنيوية المعتادة ، وكان ساعى محلى يحضر له رسائله والصحف مرة فى الأسبوع، وفى الحقيقة ، كما قال : " إنه قريب من العالم بالقدر الذى يريد ، وبعيد عنه بالقدر الذى يريد. " ، كان لديه حلية ذهبية ملفتة للنظر ، مربوطة فى سلسلة الساعة ، وقد شاهدتها متدلية من عند طرف يده ونحن جالسون فى قاعة الطعام . كنت أنظر إلى هذه الحلية متحيرًا ، بدت غير شبيهة بأى شىء رأيته من قبل ، وقد لاحظ حيرتى، وبعد أن تركنا فى تخمينات غير ذات جدوى ، أخبرنا ضاحكًا بأنه قد وجدها بإحدى القرى التى نهبوها على الساحل الغربى ، لم أدر أى دور كان له فى هذه الحروب الصغيرة الكريهة ، لكننى أراهن على أنه لم يكن وضيعًا ، فى تلك الليلة استمعنا لساعات إلى حديثه السلس الشيق ، ومع أنه لم يكد يذكر شيئًا عن نفسه أو عمله - إلا أنه من الواضح أنه شخص رائع يجيد التصرف فى الأوقات الحرجة

أحب ركوب المخاطر. فمن حين لآخر كان يلقى لنا بإشارة عن الصعوبات، وعمليات الهروب ، والمخاطر التى مرت به ، ولكنه لم يكن يفعل هذا إلا حين يكون ذلك ضروريًا لتفسير ما يحكيه لنا ، أكثر ما أثار دهشتنا هو وصفه للچنرال "چوردون" بأنه "جوردون الصينى" ـ الذى تبين أنه كان على صلة حميمة به لفترة طويلة. التفاصيل الدقيقة التى وصفها لنا شكلت صورة حية رائعة عن هذا الجندى القديس ، الرجل الذى استطاع قيادة الهجوم العاصف شبه اليائس ، بكتاب مقدس فى يد وعصا الجنرال فى اليد الأخرى ، شكلت صورة كاملة لرجل بحبه اللامتناهى ورقته ، وقراره الحاسم وعدالته العمياء ، وصفاته التى تكاد تصل فى درجتها إلى صفات الآلهة ، شعرت وكأننى أرى هذا الرجل وهو يسعىٰ لمساعدة وتغذية رجاله بمؤنته القليلة ، وهو يصلى بهم ، الرجل الأكثر تواضعًا ، مثال الرحمة ، لكننى رأيته أيضًا يواجه فوجًا من البرابرة شبه المتمردين ضمن جيشه ، وبقرار مخيف ، وبلا رحمة كالقضاء والقدر، يعمد إلى القادة واحدًا بعد الآخر ـ وهم فى جملتهم اثنا عشر رجلاً ـ ليرديهم قتلى بالرصاص أمام زملائهم ، ثم يستدير بهدوء ودون أن يحرك ساكنًا ، كى يكرر أمره ، الذى فى هذه المرة ، يصبح مطاعًا ! تصورت هذا الرجل ذا العبقرية العملية المدهشة ، قادرًا على إعادة غزو الصين وإعادة تنظيمه ، ثم يحتفظ بهذه الحلية التى حصل عليها معتقدًا أنها جاءت من شجرة الحياة التى قطفت منها حواء الفاكهة المحرمة ، بالتأكيد هذا الرجل يعد لغزاً من ألغاز التاريخ .

سأل المليونير ، حين توقف العجوز "بربرتونيان" : " هل تقصد أن تقول إن ذلك حقيقي؟ "

"على قدر علمي، هو حقيقي بالتأكيد ، فقد حكاه صديقنا "سيبوجوان" على أنه حقيقة ، ولم يكن يسخر ، لأنه كان يكن أعمق التبجيل والاحترام لجوردون ، فضلاً عن ذلك ، فقد أكد لنا أن جوردون ظل جريح المشاعر من صديق له تناول هذا الأمر بسخرية على أنه نكتة ، ولم ينس جوردون ذلك قط ، فكان دائمًا يتحفظ في حضرة هذا الرجل بعد ذلك. "

أتمنى لو أنني كنت أتذكر واحداً في المائة من النكات التي أطلقت على الناس المشهورين والتي حكاها لنا مضيفنا، ووصفه للأماكن ، والشعوب ، ورواياته عن الرحلات والمغامرات ، كان يبدو كأنه يعرف كل إنسان وكل الأماكن، استمر حديثنا حتى الثالثة صباحاً قرب الفجر، قبل أن نفكر في أن نأوي للفراش ، بعد الإفطار امتطينا جيادنا ، وتبادلنا تحيات الوداع ، ومشى صديقنا معنا بعضًا من الطريق ، ليرشدنا إلى الممر الصحيح ، كان يحمل حزمة من أزهار الدغل البيضاء - فكرة غريبة على ما أظن - بالنسبة لرجل يرتدي منشفة وعوينات ، أشرت لجمال أزهار الجبل التي يمسك بها.

قال: نعم ، إنها جميلة، أليست كذلك ؟ آه يا "تاري" المسكين، العجوز ! لقد كان تابعيًا ، وهو الرجل الأبيض الوحيد الآخر الذي عاش هنا لسنوات كثيرة ، ومات هنا منذ صيفين ، بعد إصابته بالحمى عند "التيسمبي" ، رفيقي العجوز المسكين ! لقد دفنته عند المتحدرات العالية

القائمة هناك ، حيث كان معتادًا على جمع تلك الزهور والجلوس هنا كل يوم من أيام حياته ، مشرفًا على اتجاه "ديلاجوا" ، متسائلاً : هل سوف يأتى علينا يوم نترك فيه هذا المكان، ونشاهد أيرلندا مرة أخرى ، وأنا أحضر له الزهور كل فترة ، هيا نصعد لنرى أين يرقد صديقى العزيز. "

تركنا الجياد وارتقينا الممر الوعر، رأينا السياج الحجرى المتواضع والشاهد الأملس محفوراً عليه :

أيها الأيرلندى ، "تارى" ، ارقد فى سلام

هل أنت مستعد ؟

سيدى، نعم، نعم ،

ارتجف مساح الأراضى من الفكرة ، " ثم انحنى صديقنا فوق الحائط الحجرى الواطى، واستبدل بإكليل الزهور الذابل الآخر الجديد اليانع"

تركناه واقفاً فى ثقة عند حافة الجبل، وسلكنا طريق النزول حيث درب الماشية الوعر الذى يزداد صعوبة كلما التف ، أتذكر تلك الوقفة التى كان يقفها ، قدم على صخرة ، وذراعيه متشابكين ، إلى أن شارفنا على المنحنى الذى سيخرجنا من المشهد ، عندئذ لوح لنا مودعًا ، "

" مرت بنا أوقات عصيبة فى تلك الرحلة إلى "تيمبى" ، فقد قابلنا كل المتوحشين القتلة فى تلك الأحراش ، فى نزاع وخلاف مستمر فيما بينهم ، يسرقون ، ويطلقون الرصاص بكل طاقتهم ، رغم ذلك خرجنا سالمين بعد شهور من الترحال والطواف ، وعندما وصلنا إلى "ليذن برج" مرة أخرى كنا قد نسينا كل شىء عن "سيبوجوان" ، بمرور الزمن ،

وبسبب مشـاكل هؤلاء الكافير ، لقد كان دائمـا هناك شيء ما يحدث في ذلك المكان الجهنمي الخارج عن القانون في "سوازيلاند" ، وتلك الأحداث جعلتـنا لا نشعر بمرور الزمن "

" عـاد صديقي الحـميم إلى مـزرعتـه، أمـا أنا فلم يكن لي بيت ، فعـدت إلى الطريق ، لكن بالقطار ، ووصلت إلى منطقتي بأسعـار زهيدة جداً ، وحين وصلت هناك كانت انتعاشة "شيبا" الاقتصادية في ذروتها ، فقـد تدفقت الشركـات الاقتصـادية يومًا ، والأسهم في قـمة ارتفاعـها ، وتدفق المال بحرية. كان الجميع مبتهجين بشمس الحاضر المشرقة ، ولم يلق أحد بالاً للغد، وكان المضاربون يكدسون المال أكوامًا، والسماسرة يكسبون بالآلاف .

" تعرفـون كيف يكون الحـال في مكان مثل هذا، بعـد أن نصل إلى هناك ببضع ساعات ، أو يوم أو يومين ، نبـدأ في سماع اسم واحد يتردد أكثر من غيـره ؛ رجل واحد يبدو الأكثر شعبـية وأهمية ، ولا غنى عنه ، نعم ، كـان الأمـر ذاته هنا ، وُجـد دائما هـذا الاسم في كل مكان ـ في السوق والمناجم ، والرياضة والترفيه ـ في أي دائـرة مباركة يمكنكم تخيلها ، وتتصورون مبلغ دهشتي عندما وجدت صديقي البحار ، الكافيري الأبيض العاري "سيـبوچوان" هو رجل الساعة. في أول الأمـر لم أصدق ، وبعد فترة، بدا أن الأمر هو الأكـثر طبيعية في العـالم ؛ لأنه إذا كنت قد قابلت رجلاً مـثالاً للقوة العـقلية والأخلاقيـة والجسدية، صـاحب مزاج طيب ، رشيقًا وصريحًا ـ ولد ملكًا بين الرجال ـ فهو هذا الرجل . "

" قابلته فى اليوم التالى ، فبدا ممتلئًا بالحيـاة والجاذبية الشخصية أكثر من ذى قبل، بعد ذلك لم أره لثلاثة أو أربعـة أيام أنتم تعرفون كيف يضيع الوقت فى الأسـواق المزدهرة ، ثم أخبـرنى صديق مـا أن "سيـبوجـوان" مريض ، كان يعانى من الدوسنتاريا والحمى أثناء وجوده فى "فونيكس" ، ذهبت فى الحال لرؤيته ، لم أصدق عينى ، نحل وهزل وأحاطت الهالات السوداء بعـينيه الغائرتـين ، وكان ضعيـفًا لحد أنه لـم يكن قادراً على رفع ذراعه عندما انزلقت عن السرير ، تحدث إلىّ بكلمة أو كلمتين وهو يهمس ويلهث ، ثم استند إلى الوسـائد وعينيه تعبـران عن ألم فظيع ، حتى أنه عندما أغلق جـفنيه ، شعرت أن الحـجرة قد خلت فجأة من هـذا الشعور بالألم . "

" وقفت عند طرف سريره لا أعرف كيف أتصرف أو ماذا أقول ، لم تكن لى أية حيلة أمام هذا الألم ، فأحسـست بعدم جدوى وجودى بالحجرة ، ومع ذلك لم أعـرف كيف أخـرج منهـا ، لم تدم هذه الحال سـوى بضع دقائق . . .أو ربما نصف سـاعة ، لا أعرف ، لكنه بعد نوبة إغـماء طويلة فتح عينيه فجأة ونظر نظرة طويلة ثابتة إلى عينى ، وجلس دون أى مجهود ، ثم رفع بصـره لأعلى كما لو كـان ينظر من فوق رأسى إلى شـىء ما على الحائط مـعلق ورائى ، ثم رفع كلا ذراعـيه ، وفردهمـا كأنه يتلقى بينهـما شيئًا، وراح يئن : " أوه ، يا إلهى زوجتى المسكينة" بعدها مات .

عندما توقف "بربرتونيان" عن الحديث ، كانت خمسة وجوه مشرئبة ناحيتـه ، سقط وهج النار على تلك الوجوه فأضاءها ، والمليـونير القريب منى همس لنفسه : " يا إلهى " ، هذا شىء شنيع"

سأل الصحفى : "حسنا ، هلا أخبرتنا من هو ؟"

نظر "بربرتونيـان" إليه طويلاً ، ثم قـال "بترو" : " لـم نـعرف أى شىء آخـر عنه قط ، منذ ذلك اليوم إلى الآن لـم يسمع عنه شـيء يلقى الضوء على هويته أو على ما قاله. "

بعيدًا جدًا فى سكون ليل إفريقى ، سمعنا نخر وتأوه سد نافذ الصبر ، وعن قـرب كان صـوت صرصـار الليل ، وفى التـو سقط جـذع شجـرة واستقر على الأرض بعد قليل من الجلبة ، وارتفع لسان لهب جديد، حرك "بربرتونيان" قشة داخل غليونه لتسليكه ، وقال بطريقة وعظية : " أجل ، ها هى ذى الحضارة تحـقق انتقامها مـرات كثيرة بتلك الطريقـة ، تمامًا مثل المرأة ."

لم ينطق أحد بكلمـة ، فى هذه اللحظة ، صدر غطيط مسـموع من تحت عربات القطار حيث كان ينام السائقون.

رقد الكلب إلى جوارى ينشج وقد "مط" قـدميه ، كأنه كان يصطاد فى أرض الأحلام ، شعرت بالكآبة من هذه الحكاية التى حكاها "بربرتونيان" ،

عادة لا يسود صمت طويل بعـد حكى حكاية، بالعكس ، فكثيراً ما يستهلون أخرى ، لأن كل حكاية تستـدعى ذكر حكاية أخرى ، ولا تحتاج لكثير من الجهد كى تحث رجلاً آخر على الحكى .

شرع ماسح الأراضى فى الحديث هذه المرة ، فقـد شعرت برغبته فى الحكى ، جلس منتصب القامة ومـد وجهه النظيف الحليق ، ثم أغلق عينه اليمنى ونظر إلى "بربرتونيان" .

بدأ حديثه بتأن: "هل تعرف أنك تحدثت عن رجال ماتوا بسبب شيء ما وقع ـ مشاجرات أو أخطاء أو جرائم أو أى ما كان ـ أعرف أنها كلها حكايات مختلقة ، ومع ذلك أعترف بأنها تشدنى دائما على الرغم من معرفتى بأنها هراء ، بسبب أن حكاية مرت بى ـ حكاية أحد زملائى فى البحرية ، وكان أفضل الرفاق الذين مشوا على الأرض قاطبة ، كان حقيقة إنساناً رائعًا ، أسطوريًا ، يجيد عمل كل شيء .

كان رجلاً مثاليًا ، إلى أن تعرفه عن قرب ، فتكتشف أنه لعُن بسمة فى منتهى البؤس ، فهو أبدًا، ويشكل قطعى جازم ـ لا يغفر أدنى جرح أو إساءة ، أو إهانة ، أو موضوع شجار، لم يكن متعجرفًا أو سيء الطبع قط ـ بل كان مشرقًا لا مثيل له ؛ الأكثر صبراً ، بل حتى هادىء الطبع ، لكنه حقاً مرعب بما لديه من عناد غير قابل للتغير ، فى رفضه المغفرة أو التسامح مع من يخطئ فى حقه ، وقد حدثت واقعة تحت بصرى ، فقد تشاجر مع واحد من أصدقائه ـ ولابد من أن أذكر أن العيب لم يكن منه ـ لا شيء فى العالم ، أو أى عالم آخر ، بالنسبة لذلك الأمر ، كان يمكن أن يجعله يصفح أو يجدد معرفته بهذا الشخص ، كرمه ، وإيثاره ، كانا بلا حدود ، إخلاصه وشجاعته كانا يفوقان الوصف ، إلا أن أى إنسان عرف عيبه هذا كان يأسف له أشد الأسف ، ويروع من هذا الطبع الصارم ، الموت الذى يحيط به ، منظره بين أصدقائه ، توقعه لموته، كل ذلك لا يغير من عناده اللعين، وقد حصل على وسام الملكة "فيكتوريا"، لأعماله البطولية المرموقة ـ والتى هى فى الحقيقة جنونية ـ ولشجاعته فى إنقاذ ضابط زميل ، الرجل الذى أنقذه ، وحارب لإنقاذه ، وكاد يموت من جراء عملية الإنقاذ هذه ، كان هو نفس الرجل الذى رفض أن يتحدث إليه سنوات طويلة ، الله وحده يعلم سبب الخلاف ، كان هذا لقاءهما الأول

منذ أن ترك السفينة، وعندما أنقذ صـديقه السابق ، حمله وتركه بسلام فى ركن الجَراح الميدانى ، أمـسك الرجل الذى يصارع الموت بردائه ، وقال : "ياوالدى العجوز، لـيباركك الرب" فمـا كان منه إلا أن حرر كـمه من قبضة الآخر برقة، و بلا أية كلمة أو نظرة، عاد للقتال ، كان ذلك بالنسبة لنا أمراً لا يصدق، رفضه التعامل معـه بأية حال ، كان قد محاه تماما من حياته "

كانت هذه السـمة هى لعنته ، كـان ثريًا ، وله علاقات قيـمة، ذات وزن. وقد تزوج إحدى أجمل النساء اللاتى قـابلتهن فى حياتى ، لسنوات لم يكن أحد منا يعرف أنه مـتزوج ، أما زوجته ، فـهى امرأة فاضلة ،أ نا مقـتنع بذلك ، كانـت امرأة صغـيرة وجـذابة ، امرأة كـاملة حقـاً، آسرة بالطبيعة ، لكنها ربما كانت حمقاء حين أظهرت سعادتها من أنها تحوز حب وإعجـاب الآخرين، أنتم تـعرفون الغـياب الطويل لـلبحار، ربمـا كان من الحكمة لو كانت قـاطعت المجتمع تمامًا، وفى الحـقيقة،كانت امـرأة طيبة، وكانت تحبـه حب عبادة. لا أحد منا يعرف مـا حدث بينهما، فقـد تركها والطفلة، وقد وهبـهما كل مـا يملك فى الدنيا، وسلمـهما أمـلاكه ودخله تقريبًـا، وحقـه فى الميراث حين يوافـيه الموت ، وهجـر الدنيا ، ببساطة محاهما من عقله ومن حياته ، "

كان هذا منذ عـدة سنوات ، على ما أظن عـشرة أعـوام ، وأكره أن أفكر فى هذا الموضـوع ، وأنا أتمنى لو كنت واثقًا من المستـقبل مـثلما أنا واثق بأنه لن يسلم بوجودهما مرة أخرى. "

ارتجف ماسح الأراضى من الفكرة.

" لقـد كـان الرجل الذى يسـتطيع فـعل أى شىء لا يقـدر الرجـال الآخرون على فعـله ، كان الأفضل فى كل شىء ، محبـوبًا من زملائه ، معبودًا من رجـاله ، يحوز إعجاب ومحبة كل من يقـابله إلى أن يكتشفوا هذه الصـفة. لابد من أن الآخـرين قد شـعـروا بما شعـرت به ، فعندمـا اكتشفت تلك الصفـة به ، لم ادرِ هل كنت أشـد خوفًا منه ، أم أشد حزناً عليه ، لا أعرف فلم ألتصق به قط أكثر مما يجب ـ ربما كان شعور شفقة ـ لمعرفتى أنه بتـلك الصفة كان عدواً لنفـسه وأنه فى حاجة للمـساعدة ، لم أسمع قط عنه أو منه منذ ترك الخـدمة ، على الرغم من أننى كنت أعتـقد أنى أكثر أصدقـائه حميمية ، كان اسـمـه ··· " أوليفر ريموند ريفرز" ، اسم موسيقى ، أليس كذلك ؟ "

أسقط "بربرتونيان" غليونه :

يـا إلهـى !! " سيبوجوان "! .

وردة المرأة

تأليف : أوليف شرينر

لدى صندوق قـديم بنى ، منقوش غـطاؤه مكسور ومـربوط بدوبارة ، أحتفظ فيه بوريقات صغـيرة ، بداخل هذه الوريقات خُصل شعر ، وصور صغيرة كـانت معلقة ذات يوم فوق سرير أخى عندما كنا صـغارًا ، وأشياء أخـرى صغـيـرة تافـهـة ، لى فى هذا الصندوق وردة ، لدى كل النسـاء الأخريات أيضاً مثل هذه الصناديق التى يحـتفظن بداخلها بمثل هذه الأشياء ، لكن ليس لدى أية واحدة منهن وردتى .

عندما تجتاحنى التعاسـة ، ويصيب قلبى الإعياء ، ويهتز إيمانى بالمرأة ، ويكون حاضرها عـذابًا بالنسبة لى ، ومسـتقبلها مصـدر قنوط ، فإن عطر تلك الوردة الميتة ، الذابلة منذ اثنى عشر عامًا ، يأتينى ، فأعرف أنه سوف يكون هناك ربيع ، بثقة مثل ثقة الطيـور حين تعرف بقدومه عندما ترى من فوق الجليد ورقتين خضراوين صغيرتين ، تلمعان ، فالربيع لا يخذلنا أبدًا .

فى الصندوق ذاته أزهار أخرى : حزمة من زهور الأكاسـيا البيضاء ، جمعتها يد رجل قوية ، عندما كنا نسير بشارع وسط قرية ذات عصر شديد الحرارة ، حيث أمطرت الدنيا ، وسقطت حبات المطر علينا من أوراق شجر الأكاسيـا ، كانت الزهور منداة ، فتركت آثارًا من العـفن على الورقة التى لفقتها بها ، بعـد عدة سنوات ألقيت بهذه الزهور ، ولم يبق منها الآن شىء

بالصندوق ، سوى آثار باهتة لرائحة أكاسيا جافة ، تلك الرائحة التى استدعت لذاكرتى تلك الأمسية الصيفية الحارة ، لكن الوردة ، لا زالت باقية بالصندوق .

مضى الآن على ذلك سنوات كثيرة ، حين كنت فتاة فى الخامسة عشرة ، وزرت مدينة صغيرة بأعالى البلاد ، كانت بلدة صغيرة فى تلك الأيام ، على بعد يومى سفر من أقرب قرية ؛ وسكانها أغلبهم من الرجال ، القليل منهم كان متزوجًا وله زوجة وأطفال ، لكن معظمهم كانوا عُزّاباً . عندما وصلت ذلك المكان كانت به شابة واحدة فقط ، كانت فى حوالى السابعة عشرة ، جميلة ، وممتلئة ، فى الواقع مدملكة ، ذات عينين زرقاوين حالمتين ، وشعر كثيف متموج ، وشفتين ممتلئتين - إلى حد ما - إلى أن تبتسم ، فتبزغ الغمازات بوجنتيها وتلتمع أسنانها البيضاء ، ربماً كان لدى صاحب الفندق ابنة ، ولدى مزارع بالضواحى ابنتان ، لكننا لم نرهن قط ، أما هى فكانت ملكة تحكم وحدها ، كل الرجال كانوا يعبدونها ، كانت المرأة الوحيدة أمامهم ليفكروا فيها ، تحدثوا عنها طوال الوقت ، فى السوق ، وفى الفندق ، وانتظروها عند النواصى ، وكرهوا الرجل الذى تحييه أو تمشى معه بالشارع ، أحضروا لها الزهور حتى عتبة البيت ، وقدموا لها جيادهم ، وتوسلوا إليها أن تتزوج منهم عندما جرأوا .

كان ثمة شىء نبيل وبطولى فى غرام هؤلاء الرجال ، المعزولين عن العالم ، لأفضل امرأة عرفوها ، ومن ناحية أخرى ، كان هناك جزء طبيعى ، وهو أن يتدفق عند أقدام امرأة واحدة العبادة التى تكفى لعشرين امرأة ؛ وجزء آخر وضيع فى حقدهم على بعضهم البعض ، فإذا فُرض ورفعت إصبعها الصغير ، أعتقد أنها كانت تستطيع أن تتزوج أى واحد من بين العشرين الموجودين آنذاك .

ثم جـئت أنا ، لا أظن أننى كنت أجمل ، بل لا أعـتقـد أننى كنت جميلة مـثلها ، ولم أكن بالتأكيد وسـيمة . لكنى كنت مفعمـة بالحيوية ، وكنت جديدة عليهم ، وكانت هى أكبر سناً ـ كلهم هجروها ولاحقونى ، أحبونى حب عبادة ، تحـولت الزهور إلى بابى ؛ وكنت أنا من قدموا إليها العشرين فـرسًا ، فى حين أننى لم أكن قادرة على امتطاء غيـر فرس واحد فقط ، وأصبحت أنا التى ينتظرونـها عند نواصى الشوارع ، وكل ما كنت أقوله أو أفعله أصبح شغلهم الشـاغل ، لقد أحببت ذلك - إلى حد ما - ، فقد عشت حياتى كلها وحيدة ، ولم يقل لى أحد قط أننى جميلة ، وإننى امرأة .

صدقتهم ، ولم أكن أعرف أنها كـانت ببساطة موضة ، تلك الموضة التى كان أحد الرجـال يقرر بدأها ، فيتـبعه الآخرون بلا تعـقل . أعجبت بطلبهم الزواج منى ، وأعجبت بنفسى وأنا أقـول : " لا " لقد استخففت بهم ، فـقلب الأم لم يكن قـد نما بداخلى بعـد ، لم أكن أعـرف أن كل الرجال أطفـالى ، مثلما تعرف المرأة الناضـجة عندما ينضج قلبـها ، كنت صغيرة جدًا على أن أكون رقيقة ، لقد أحببت سطوتى ، كنت أشبه بطفلة معها سوط ، طوحته فى كل اتجـاه ، غير عابئة بما يصيب ، لم أستطع أن أطوى السوط وأنحيـه جانباً ، الرجال ، تلك الكائنات الغريبـة ، أحبتنى ، ولم أستطع أن أفسر سبب ذلك .

أمرٌ واحد فحسب كان ينال من سعادتى ؛ ولم أستطع احتماله ، وهو هجرهم لها من أجلى ، لقـد أحببت عينيها الحالمتـين الزرقاوين ، وأحببت مشيتها المتمهلة ، وطريقة كـلامها، وحين رأيتها جالسة بين الرجال ، بدت لى أنها أقـيم من أن تكون بينهم ؛ كنت سأمـدحهـا كل المدح الذى كانوا

يمدحونه لها جميعًا ، إذا هى ابتسمت لى مثلما تبتسم لهم ، بكل ما يشيعه وجهها من بهاء ، بغمازاتها وتألق أسنانها ، لكننى أدركت أن ذلك لن يحدث أبداً ، شعرت بإحساس مؤكد أنها تكرهنى ، بل وأنها تمنت موتى ، وتمنت لو لم أجئ قط إلى القرية ، لم تعرف ، أنه عندما ذهبنا للتريض بالجياد ، جاء الرجل الذى كان يتريض إلى جوارها ليرافقنى ، لكننى أبعدته عنى ، وذات مرة تصور رجل أنه قد يكسب ودى بالسخرية أمامى من مشيتها البطيئة وطريقة كلامها ، فاستدرت إليه بوحشية حتى إنه لم يجرؤ على أن يجئ إلى جوارى مرة أخرى ، عرفت أنها علمت أن الرجال بالفندق قد تراهنوا على من الأجمل ، هى أم أنا ، وأنهم سألوا كل رجل دخل المكان عن ذلك ، وأن الرجل الذى راهن على أننى الأجمل قد كسب الرهان . لقد كرهتهم من أجل ذلك ، لكننى لم أكن لأدعها تعرف أننى مهتمة بخصوص ما تشعر به تجاهى .

لم نتبادل الحديث معًا قط .

وإذا تقابلنا فى شوارع القرية ، كان يحيى أحدنا الآخر ونواصل السير؛ وعندما نتصافح ، كنا نقوم بذلك فى صمت ، ولا تنظر إحدانا إلى الأخرى ، لكننى اعتقدت دائماً أنها تشعر بوجودى فى الحجرة تماماً مثلما أشعر بها .

أخيراً ، حان موعد رحيلى . كنت سأرحل فى اليوم التالى ، أقام أحد معارفى حفلاً لتوديعى دعا إليه كل القرية .

كان منتصف الشتاء ، لم يكن ثمة شيء فى الحدائق سوى بعض زهور الداليا والكريزانتيم ، وأعتقد أنه لم تكن هناك وردة واحدة فى محيط مائتى ميل تشترى لا بالحُب ولا بالمال ، فقط فى حديقة صديق لى ، فى

ركن مُشمس بين الفــرن والسور الحجرى ، كانت هناك شــجرة ورد نما بها برعم واحد ، وردة بيــضاء ، كانت مــوعودة للفــتاة صاحــبة أجمل شـعر سوف تتقلدها فى الحفل .

حل المساء ، عندما وصلت ودخلت حجرة الانتظار ، خلعت عباءتى ، وجدت الفتاة سبــقتنى إلى هناك بالفعل ، كانت تلبس "أبيض فى أبيض" ، وذراعاها ناصعا البــياض وأكتافها عارية ، وشعــرها الفاتح يتألق فى ضوء الشمعة ، والوردة البــيضاء مثبتة على صدرها ، بدت مــثل ملكة متوجة ، قلت : " مساء الخير " ، وذهبت بسرعة إلى المرآة لترتيب وشاحى الأسود القديم ، فوق فستانى الأسود القديم .

عندئذ شعرت بيد تلمس شعرى .

قالت : " قفى ساكنة . "

نظرت فى المرآة ، تناولت الوردة البيــضاء من صدرها ، وثبتــتها فى شعرى .

يا له من شعــر أسود جميل ، يبرز جــمال الوردة ، ثم خطت خطوة للوراء ، ونظرت إلىّ وقالت : " إنها أكثر جمالاً هنا ! "

استدرتُ .

قلت : " أنت أكثر جمالاً منى"

قالت بطريقتها المميزة فى نطق لغة المستوطنين : " آه ، إننى فى غاية السعادة . "

وقفنا تنظر إحدانا للأخرى

ثم دخلوا ، ورافقونـا للرقص ، طوال الأمسية لم نقتـرب من بعضنا البعض ، مرة واحدة فقط ، عندما مرت بجوارى ، ابتسمت لى .

غادرتُ المدينة فى صباح اليوم التالى .

منذ ذلك الحفل ، لم أرها ثانية قط .

سمـعت بعد ذلك بسنوات أنها تزوجت وهاجـرت إلى أمريكا ؛ ربما كـان ذلك صحـيـحًـا أو لا ـ لكن الوردة ، الوردة بقـيت فى الصندوق ! وعندما تضـعف ثقتى بالمرأة ، نتيـجة لنقص الحب والشهامـة ، وعندما لا تستطيع المرأة أن تلعب دورًا فى تحقيق مسـتقبل أفضل ، عندئذ ، تعود إلىّ رائحة ذلك الشىء الصغير الذابل ـ فالربيع لا يمكن أن يخذلنا أبداً .

المعَلم

تأليف : بولين سميث

كنت أذهب كثيـرًا إلى مزرعة جدى وجدتى بـ "نويتجادخت" ، التى تقع فى وادى "غامكا" ، ذلك لأن صدرى كان ضعيفًا ، وكانت جدتى تعتقد أنها الوحيدة القادرة على شفائه ، فى "نويتجادخت" ، حيث كان يعيش جدى وجدتى لأكثر من أربعين عامًا ، كان هناك دائما شباب وشابات يلتفون حولها ، وأطفال متعلقون بذيول "جونلاتها" ، أو يقذف بهم جدى عاليا ثم يلتقطهم مرة أخرى ، لم يكن هناك أحد من الأبناء أو الأحفاد لم يحب الجد والجدة "ويلبورت" ، لذلك عندما ماتت العمة "بيتيه" ، كان من رأينا جميعا أن أطفالها الأيتام الصغيرة "نيلتيه" و"هانس" و "كوز" و "مارتينوس" و "بيات" ، لابد من أن يعيشوا فى "نويتجادخت" ، كانت جدتى فى ذلك الحين قد بلغت الستين من عمرها تقريباً، وكانت امرأة بدينة، لكنها تتحرك بسهولة وخفة، مثلما تتحرك كل النساء الرشيقات . ذات يوم رأيت سفينة مبحرة فى ميناء "زاندت باى" ، وكانت جدتى تمشى فى كامل "جونلاتها" الفضفاضة مع أطفال العمة "بيتيه" ، الذين كانوا يتأرجحون حولها مثل القوارب الصغيرة، فوجدت فى منظرها هذا شبهًا كبيرًا بتلك السفينة ، إن هذه المرأة الضخمة ،

الحكيمة ، الوديعة ، التى يملأ قلبها حب لكل العالم ، كانت ترى فى كل أمر يحدث مشيئة الرب ، بعد ثلاثة أشهر من إقامة أطفال العمة "بيتيه" فى المزرعة ، حضر شخص غريب ذات ليلة يسأل عن مأوى من العاصفة التى بالخارج ، الله وحده يعلم من أين جاء ، وأدركت جدتى أن "الرب" أرسله لنا.

قدم ذلك الغريب نفسه ، عندما أدخلته جدتى إلى حجرة المعيشة ، باسم "يان بوتيه" ، الذى كان رجلاً ضئيل الحجم ، أسمر ، ذا لحية مدببة بدت وكأنها لا تنتمي إليه ، كان خداه هزيلين وشاحبين ، كذلك كانت يداه ، نادراً ما كان يرفع عينيه لينظر لأحد ، إلا إذا تكلم ، وعندما يفعل ذلك ، كنت أحس كأننى أرى أمامى "ابن الأرملة نانين" ، يقوم من بين الأموات ، خارجاً من الكتاب المقدس الخاص بجدتى ، أجل ، كأن "يان بوتيه" بعث وجاء إلينا من بين الأموات فى تلك الليلة ، ففكرت فى إعداد الطعام فى الحال ، أعددت قهوة بسرعة ، ووضعتها أمامه .

عرف جداى كل ما يريدان معرفته عن "يان بوتيه" فى أثناء أكله ثم شربه القهوة ، كان هولنديا، وقد جاء مؤخراً إلى جنوب إفريقيا ، ولم يكن له قريب أو صديق فى المستعمرة. كان فى طريقه إلى شمال البلاد سيراً على الأقدام ، فى طريقه لمناجم الذهب .

جلست جدتى فى صمت لفترة بعد حديث "يان بوتيه" عن مناجم الذهب ، ثم بعد قليل قالت: " سيدى ، أنا تلك العجوز لم أر فى حياتى رجلاً سعيداً ذهب للتنقيب عن الذهب، أو رجلاً أصبح سعيداً عندما

وجده ، أكـيد أن الخطيـئة والحـزن هما مـا يقودان الرجل للبـحث عنه ، والخطيئة والحزن هما مـا يجنياه منه ، "شوف" ، ابق معنا بالمزرعة ، وقم بتعليم أحفادى ، أيتام ابنتى "إليزابيث" ، ربما بذلك تجـد السلام . "

رد عليـها "يان بوتيـه" : "إذا كانت سيـدتى على حق بأن الخطيـئة والحزن قـد ساقانى إلى بلدها من أجل الذهب ، فـهل أنا أهل لثقتـها كى أقوم بتعليم أحفادها ؟! "

قالت جدتى بصوتها الخفيض الواضح الذى امتلأ بالحب والشفقة :

" أتوجد خطيئة لا يمكن أن تغتفر ؟ أو حزن لا يمكن أن نتقاسمه؟! "

رد "يان بوتيه" : " أمـا حزنى فلا أسـتطيع أن يشاطرنى فيـه أحد ، وخطيئتى لا أغفرها لنفسى أبدًا"

مرة أخرى قالت جـدتى : " سيدى ! لا يعلم ما فى نفس الرجل إلا اللّه والرجل وحدهما ، افعل ما تراه فى صالحك ، لكن بالتـأكيد إذا كنت ستبقى معنا ، فإننى سوف أعهد بأحفادى إليك ، واعلم أن الله أرسلك إلينا . "

لوقت طويل ، طويل جدًا ، أو هكذا خيل إلىَّ ، جلس "يان بوتيه" أمامنا ولـم ينطق بكلمة ، أثناء فـترة الصـمت هذه كتمت أنـفاسى ، بل شعرت بأن العالم يسمع صوت تلك الأنفاس ، كـان أطفال العمة "بيتيه" فى الفراش منذ فـترة طويلة، وكننت : أنا وجـدى وجدتى نجلس مـعه ، انتظرنا طويلاً ، وطال انتـظارنا ، فى النهاية ، عنـدما تكلـم "يان بوتيـه" وقال : "سأبقى " ، شعرت كأنه قـد سمع دعائى، فقد كنت أضرع للرب أن يساعده على اتخاذ هذا القرار .

هكذا، بقى "يان بوتيـه" مـعنا بالمزرعة ، وقـام بتـعليم أبناء العمـة "بيتيه" ، كانت الحجرة التى يقـوم بالتدريس فيها هى الحظيرة التى يوضع فيها "الكارته" ـ حيث كان جـدى قد بنى واحدة جديدة منذ فترة طويلة ـ وضعتُ - أنا وجدتى فيـها مائدة ومقاعد بدون ظهـر له ، ولتلاميذه ، لم يكن لهـذه الحجرة نافـذة ، فكان "يان بوتيـه" يجلس هو وتلاميـذه قرب البـاب "الموارب" ليروا الضـوء ، من خلال البـاب الموارب كنت ترى فى الخارج بستـان البرتقال، الذى تم فيـه تعميد كل أبناء جـدتى ، وأحفادها أيضًا ، وفى خـلفية أشـجار البـرتقال ترتفع قـمم جبـال "شوارزتكوف" السوداء تماما فى الصيف ، البيضـاء تماما فى الشتاء حين يكسوها الجليد ، يتخلل الجـبال طريق رئيسى بمحاذاة نهـر "غامكا" ، عبر هذا الطريق يـسافر الرجال لشمـال البلاد ، عندما يرحلون للتنقيب عن الـذهب ، وينحدر نهر "غامكا" وسط هذا الممر الجبلى ؛ ليـروى مزارع الوادى ، فى انحدار النهر إلى "نويتجادخت" ، يعبره الرجال من عند منحدر "رويكرانز" .

داخل "حظيـرة العربة" ، كـان جدى يخـزن براميل "البـراندي" ، "وتبـغه" ، "والقـرع" ، "وكـيزان الذرة" الـتى تخصـه، "ومـحاريثـه ومســاحيـه" ، وسيـاطه ومهـاميـز الجياد ، وكـل الأشياء التـى تعتبـر من مـستلزمـات المزرعة فى ذلك الحين ، وكـانت تتـدلى من عوارض الـسـقف الخشبية، جلود وسـيور ضخمة ، كان يستعملهـا عادة لخيله ، فكانت دائما رائحة المُـعلم "يان بوتيه" ، خليطًا من رائحـة التبغ والبـراندى والجلود ، وعندما كانت تبتل الأرض الطينيـة المجاورة للباب من الندى ، كانت تفوح منه رائحة العجول وروث البهائم .

عندمـا جاء "يـان بوتيه" عندنـا، لم يكن بالمزرعـة أية كتب سـوى الأناجيل ، والكتب الدراسيـة القديمة التى اعتقد الأعمـام والعمات أنها لم تعد صـالحة لاصطحابهـا معهم بعـد زواجهم ، فكان الكتـاب المقدس هو كتاب القـراءة بالنسبة لأطفال العمـة "بيتيه" ، واستعـمل أحد جلود جدى كسبورة ، كان يكتب عليهـا بالطينة الزرقاء الجافة المجلوبة من النهر، وراح يعلم الصغـار الحروف ، والكبار منهم الأرقام ، كـما علمهم الجغـرافيا ، لكنها كانت نوعًا فريدًا من الجـغرافيا ، لم يُدرس بمنطقة "بلاتكوبس" قط ، أجل ، بالتأكيد لـم يكن العالم ليكون أكثر دهشة وغرابةً عـما رسمه لنا "يان بوتيه" ـ فقد كنت أذهب أنا أيضا لفصله فى حـصة الجغرافيا بحظيرة جدى ، عندما كان يتحدث عن المدن والعجائب التى شاهدها ، دائما كنت أفكر كم كان حـزنه مريرًا ، كم كانت خطيئـته كبيرة ، تلك الخطـيئة التى ساقته إلى تلك المدن ، ثم إلينا.

قد يحدث أحيانا أن يسألنى : " إنجـيلا ، ماذا سنجهز لدرس قراءتنا ؟ " عندئذ قد اختار الإصحاح الرابع عشـر من سفر أخبار الأيام ، أو الإصحاح الثامن من الملوك .

ذات يوم سألنى : " إنجيلا ، ما الذى يجـعلك تختارين 'الصلاة فى المعبد ؟ " وأنا التى لا تعرف إلى أى حد اقتـربت شفقتى عليه من الحب ، أجبـته : " سيدى ، لأن الملـك سليمان صاح مـبتهـلا : " اسمع وأنت فى موضع سكناك فى السـماء ، وإذا سمعـت فأغفر " ، إننى أدعـو للغريب القادم من بلاد بعيدة .

منذ هذا اليوم أصبح "يان بوتيه" ، الذى كان طيبا مع الجميع ، طيبا ولطيفا معى أيضًا ، مرات كثيرة وجدت عينيه تستقران علىّ ، وأحيانا كان يأتى ويجلس إلى جوارى هادئا بينما أحيك الملابس ، فكـان قلبى يخفق بضربات عنيفة من الفرح والألم معا ، باستثناء تلاميذه ، فإنه لم يتحدث مع أى إنسان فى المزرعة ما لم يبدأه الآخر بالكلام ، لكنه الآن يحادثنى ، وعندما كنت أخرج مع الصغيرة "نيلتيه" وأخيها للبحث عن كل الأشياء الرائعة بالنسبة لطفل ، كان "يان بوتيه" يجىء معنا، وفى مثل هذا الوقت كنت أنا التى تُعلم "يان بوتيه" أية ثمار التوت تؤكل و أيتها تقتله ، وأية الأعشاب يُترك وأيتها تشفى الإنسان من المرض ، وأية الجذور والأبصال يطفئ ظمأه ، علمته الكثير من هذه الأشياء البسيطة فى المرج ، ولزمن طويل ، طويل جدًا، حمدت الله على أننى فعلت ذلك ، أجل ، كان كل حبى ذاك لـ"يان بوتيه" ، فقط لكى أرشده فى البرية.

حل عيد ميلاد الصغيرة "نيلتيه" ، وكان قد مضى على "يان بوتيه" معنا فى ذلك الحين أكثر من ستة أشهر ، جعلت جدتى من هذا اليوم إجازة لكل من الأطفال ، و"يان بوتيه" وأنا ، وكان علينا أن نصعد معهم فى "الكارتة" التى يجرها بغلان ، إلى الوادى الصغير الذى يرقد وراء منحدر"رويكرانز" ، كان يومًا صافيًا هادئًا مثلما يحدث كثيرا بوادى "غامكا" فى شهر يونيو ، كنا نسوق العربة بـ"نليتيه" وأخوتها ، ورحنا نغنى معا بأصوات مرحة جميلة ، كأنها فى سمعى أصوات ملائكة الرب ، كنت لضعف صدرى لا أستطيع الغناء ، ومع ذلك ، فى هذا اليوم ، لأن "يان بوتيه" كان يجلس إلى جوارى فى هدوء ، كنت أشعر بقلبى وكأنه

ممتلئ كلية بالغناء حتى خلت أنه يسمعه ، أجل إننى عجوز جدًا الآن ، لكننى لم أشعر قط بمثل هذا الفرح الذى اجتاح روحى وجسدى حينذاك .

قدنا "الكارتة" من المزرعة إلى أن وصلنا لمنحدر "رويكرانز" ، وقد استغرق منا الطريق خمس عشرة دقيقة ، فى ذلك الشتاء ، سقط قليل من المطر والثلج فوق الجبال ، وفى حوض النهر تكون جدول صغير ، كانت ضفتا النهر فى هذا المكان شديدتى التحدر ، وعلى الضفة المقابلة ، كانت توجد الصخور الحمراء الضخمة التى أعطت المنحدر اسمه ، أما هنا فقد عمل النحل البرى عسله ، وبنى الإوز البرى أعشاشه ، كم كان جميلاً الهواء الرقيق الصافى ، ومنظر الصخور الحمراء مقابل السماء الزرقاء ، وإلى أى حد كانت أجنحة الإوز البيضاء جميلة مقابل تلك الصخور .

عندما عبرنا الجدول الصغير ، أوقف "يان بوتييه" الكارتة، ونزلت "نليتيه" وأخوتها إلى حوض النهر وهم يتصايحون ويصفقون بأيديهم ، ليدفعوا الإوز للطيران بعيداً عن الصخور التى فوقهم ، كنت وحدى معه بالعربة فراح يستحث البغلين بالسياط، لكنهما لم يتحركا، وقف "يان بوتييه" فى الكارتة وزاد من سوطه لهما ، تراجع البغلان للخلف فى اتجاه النهر ، قفز من العربة ، وبطرف عصا سوطه ضرب البغلين فوق أعينهم ، وتحول وجهه ، الذى كان غاليًا جدًا عندى ، تحول فجأة وأصبح غريبًا ومرعبًا ، ناديته : " يان بوتييه"!، إلا أن ضعف صدرى غلبنى ولم يخرج صوتى ، وقفت داخل الكارتة كى أنزل منها ، وبينما كنت أهم بالنهوض ، أمسك بالسكين فى يده ، وأنشبها فى عيون البغلين ليعميهما ، صدر عن البغلين صرخة رعب حادة ، أعلى من

ضحك الأطفال وصيحات الإوز البرى ، وسقطتُ من فوق العربة إلى الرمال الناعمة لحوض النهر ، عندما نهضت من سقطتى ، كان البغلان قد غاصا فى الجدول ، والعربة تسقط وراءهما وهى ترتطم بالصخور وتتشظى ، "ويان بوتييه" يتبعهما ، هكذا فجأة وبسرعة تملكه جنونه وتغلب عليه ، حتى أن الأطفال لم يدروا بما جرى وظلوا فى لهوهم يضحكون ويصفقون بأيديهم ، وظل الإوز يحلق من فوقنا بين الصخور الحمراء .

الرب وحده يعلم كيف جمعت الأطفال ، وأرسلت الأولاد الكبار للمزرعة بسرعة ، وعدت أنا مع "نليتيه" وبقية الصغار ، امتطى جدى الفرس ، وسار لمقابلتنا ، أخبرته بما قدرت عليه ، وما قدرت عليه كان قليلاً ، ثم واصل هو السير نازلاً فى اتجاه النهر ، عندما وصلنا المزرعة ، جرى الأطفال للبيت إلى حيث جدتى ، أما أنا فمشيت إلى حظيرة العربة ، فتحت الباب وأغلقته ورائى ، تسللت فى الظلام إلى كرسى "يان بوتييه" ، حيث مكثت طويلاً ، طويلاً ، ورأسى بين ذراعى على مكتبه ، أحسست كأن العالم ليس فيه سوى الحزن الذى كسر قلبى ، والظلمة التى تنبعث منها رائحة التبغ والبراندى والجلود ، بقيت وقتًا طويلاً ، إلى أن دخلت علىَّ جدتى وقالت : " إنجيلا صغيرتى ، نور قلبى ، كنزى ! " .

وجد جدى البغلين وقد أصابهما "بوتييه" بالعمى، فأطلق عليهما الرصاص ، ولفترة طويلة بقيت شظايا العربة منتشرة فى حوض النهر ، أما "يان بوتييه" ذاته ، فلم يعثر عليه جدى ، على الرغم من أنه أرسل الرجال للبحث عنه فى الوادى عدة أيام ، واعتقد الجميع أنه قد رحل لشمال البلاد فى الليل ، كنت بعد الحادث ولفترة طويلة مريضة جدًا حتى

أن والدى جاء من مـزرعته ليـراني ، وكان يريد اصطحابى مـعه ، لكننى طلبت من جدتى أن تبقينى ، وكان أبى لا يرفض طلبا لجدتى ويثق فى كل ما تقوم به ، فتركنى عندها .

لم يمض على رحـيل أبى عـدة أيام إلا وأحضـر "فـرانز لانجرمـان" لجدتى وجدى أخـباراً عن "يان بوتييه" ، يقيم "فـرانز لانجرمان" بمكتب تحصيل الرسوم عند مدخل الممر الموجـود بالجبال ، وقد جاءه "بوتييه" فى هذا المكان ليطلب منه أن يبـيع له عربة يد صـغيـرة تقف عند بوابة المكتب ، وكانت عربة اليد هذه ثقيلة وغيـر مصقولة ، حتى إن عمال رصف الطرق الذين يصلحون طريق الممر تركوها خلفهم لهذا السبب ، وقد سأله "فرانز لانجرمان" عما سيفعله بهـذه العربة ، فرد عليه "بوتييه" : " أنا الذى قتل البغلين ، ويجب أن أعمل الآن مثل البـغل إذا كنت أريد الحياة " ، ثم قال له : " اذهب إلى مزرعـة نويتجادخت ، وقـل للسيدة ديلبـورت إن كل ما يوجد فى الصندوق المعدنى الصغير بحجـرتى أصبح ملكًا لها كثمن مقابل البغلين ، وهناك أيضـا ما يكفى لتـغطية ثمن عربة اليـد ، هذا إذا وافقت السيدة ، وعليها أن تعطيك حقك فقط . "

سألت جدتى "فرانز لانجرمان" : " لكن ما الذى يريد عمله بتلك العربة ؟ "

أجابها : " سيدتى ، سوف يمضى عـبر البلاد يجر عربة اليد بدلاً من البغل ، ويجـمع الأشيـاء التى قد يجدها ، بعـد ذلك يبيـعها ثانيـة حتى يستطيـع العيش ، وقد صنع "يان بوتيـيه" لنفـسه لجامًـا بالفعل من سـير جلدى أعطيته له . "

دخلت جدتى حجرة "يان بوتييه" ، ووجدت الصندوق مثلما قال "فرانز لانجرمان " ، كان به نقود تكفى لسداد ثمن البغلين وعربة اليد ، ولا شىء آخر ، أخرجت جدتى الصندوق أمام "فرانز لانجرمان" وقالت : " خذ الصندوق كما هو ، ودع السيد يعطيك المطلوب بنفسه ، أما أنا ، فلن آخذ بالتأكيد ثمن البغلين ، أليست سبعة شهور الآن وهو يُعلم أحفادى ؟ ليساعده الرب ، وليرحل فى سلام" .

لكن "فرانز لانجرمان" رفض أن يأخذ الصندوق وقال: " سيدتى ، لقد أقسمت له إننى لن آخذ سوى ثمن العربة فقط، وسأترك الباقى"

أعادت جدتى الصندوق لحجرة "يان بوتييه" ، وحملت "فرانز لانجرمان" على قدر ما يستطيع أن يحمل تلك الأشياء التى يحتاجها الواحد فى رحلة لحمًا مقدداً ، بقسماطاً ، وجبة طعام ، حقيبةً جلديةً صغيرةً مليئةً بالفاكهة المجففة" ، أما أنا لو أعطيت كل العالم لـ"يان بوتييه" فإن ذلك يكون قليلاً عليه ، وعندما ترك "فرانز لانجرمان" البيت وعبر الفناء ، جريت وراءه وأنا أحمل كتابى المقدس الصغير وناديت : " فرانزلانجرمان" ! "فرانزلانجرمان" ! قل لـ"يان بوتييه" أن يأتى مرة أخرى إلى مزرعتنا ! قل له إننى سوف انتظره طوال حياتى ! " .

أجل قلت ذلك ، والرب وحده يعلم ماذا كانت تعنى رسالتى بالنسبة له ، أو أى معنى كانت تحمله عنده ؛ لكن كنت وكأنى سأموت إذا لم أتمكن من توصيلها إليه .

في تلك الليلة ، جاءت جـدتى إلى حجرتى فى سـاعة متـأخرة من المساء وأنـا مستلقـية يقظة على الـفراش ، ضمـتنى لصدرها وأبقـتنى فى حـضنها، وكـان الظلام يسود فـى الخارج، قلت وأنا أبكى : " جـدتى ! جدتى ! هل الحب يعنى كل هذا الحزن ؟"

مازال يمكننى سـماع صـوتها الخفـيض الواضح الذى أجابنى بتـحفظ شديد : " فرح وحـزن ، عطاء ومنع ، ليس الحـب فى آخـر الأمـر إلا ما يصنعه الإنسان به "

فى اليوم التـالى : " طلبت جدتى أن أقوم بالتدريس لأحـفادها مكان "يان بوتييه" ، فى أول الأمر، وبسبب ضـعف صدرى الذى كان يجعلنى دائماً خجولة ، لم أعتقد أنهـا تعنى ذلك بجدية ، لكنها كانت تعنيه فعلاً فجـأة ، أدركـت أننى سوف تواتينى الشـجاعة على هـذا العمل من أجل "يان بوتييه" ، استدعيت الأطفال ونزلنا جميعًا إلى حظيرة العربة ، حيث درست لهم هناك ، وكـانت الكتب التى استـعين بها فى عـملى تأتينا من راعى كنيسة "بـلاتكوس" طوال شهور ربيع وصيف هذا العـام ، وحققت رغبة جدتى فى تعليم أحفادها.

ولأنى أحب الأطفال وصبورة معهم ، ومن أجل "خاطر" "يان بوتييه" ، نسيت ضـعف صدرى ، وأصبـحت معلمـة جيدة ، ويومًـا بعد يوم كنت أجلس على كـرسى فى حظيرة العربة ، أتـخيله وهو يجر عـربة اليد عـبر المروج ، يوما بعد يوم ، كنت أحمد الرب على أننى علمته أية ثمار يأكل، وأية البصيلات تروى عطشه ، أجل ، بمثل هذه الأشياء سوف يجد حبيبى راحته.

حل الشــتاء بوادى "غامكــا" هذا العام مــبكرًا، وفى أحد أيام شــهر مايو، انهمــر الثلج لأول مرة ، و ملأ النهر حــتى فاض على الوادى نازلاً من الجبــال ، اصطحب جدى الأطفــال إلى النهر لمشــاهدة الفيــضان ، لم أذهب معــهم، وبقيت وحــدى مع كتــبى أعمل بحظــيرة العربة ، عــندما تطلعت فى ذلك النهــار عبــر البــاب الموارب ، نظرت لأعلى، فشــاهدت بستان البرتقــال ، وقمم جبال "زفارتكوبس" ناصعة البيــاض مقابل السماء الزرقاء ، عند ذلك غشــيت قلبي سعادة غريبة حــزينة ، أحسست أن "يان بوتييه" وجد السلام أخيرًا، وأنهم فى طريقهم ليقولوا لى ذلك.

فى هذا اليوم ، وأنا فى حظيرة العربة ، فكرت فيــه كثيرًا ، كثيراً ، وعندما سمعت وقع الأقدام الثقيل ، والهمهمات عبر الفناء ، لم أعرها أية أهميــة ، ثم تلاشت الأصوات ، ووجدت جــدتى واقفة أمــامى وحدها، وعيونهــا ممتلئة بالدموع ، وفى يدها كتــاب صغير مُبتــل ومنتفخ ، تعرفت عليه، إنه الكتاب المقدس الذى أرسلته لـ"يان بوتييه" . . .

وجدوا جســده عند سفح المنحدر : لجامه حول صــدره ، ويد عربته مازال فى يده .

هذه الليلة مضــيت وحدى إلى الحجــرة المسجى بها "يان بوتيــيه" ، سحبت الملاءة التى تغطيه.

كان اللجام قــد ترك علامة فوق صدره حــتى أخشن الجلد ، ركعت إلى جــواره ، وضغــطت رأسى إلى صدره ، ومــن أعمــاق قلبى تدفــقت كلمات الوداع ، كلمات رقيقة مثل التى اعتادت جدتى قولها :

يا فرحــى وحزنى . . .

يا نور قلبى ، يا كنــزى .

أوتا سام وبابا نويل

تأليف : تون فان دن هيفر[٢٣]

كانت الحلوى فى ذلك الوقت مجرد ذكرى تخايلنى ، واللحم ليس أكثر من كلمة تجعل اللعاب يسيل ، كان طعامنا ثلاث مرات فى اليوم ، حنطة الكافير ، وشرابنا ثفل القهوة المغلية المصنوعة من جوز البلوط ؛ وتُطبخ حنطة الكافير بطرق متعددة نتباهى بتنويعاتها: ثريد حنطة الكافير ، ومسحوق حنطة الكافير ، وأخيراً عصيدة الحنطة اليابسة الكافيرية .

راح "جانى" ينتحب : " أج ، أوتا سام ، أود قطعة صغيرة طيبة من اللحم، أو ملعقة حساء فوق عصيدتى ، أو قليلاً من السكر فى قهوتى"

كان والد "جانى" وأخوته فى مهمة فدائية بمكان بعيد، وقد تركوا الولد بالمزرعة فى رعاية "آيا كوما "، الخادمة العجوز من "الجريكوا" ، وزوجها "أوتا سام" .

ذات يوم راح "جانى" يتنهد كثيراً حسرة على طواجن اللحم فى مصر، فاستسلم "أوتا سام" لمزاجه الظريف ، وقلى قطعة من سير جلدى قديم ، وأوهمه أنها كرشة خروف ، كانت رائحتها شهية ، لكن عندما

(٢٣) ترجمها عن اللغة الإفريكانية « پارپراماكينز»

عض الولد "جانى" عليها، كشر بقرف لا يوصف، مما جعل "أوتا سام" يسقط على ظهره من الضحك، ويرفس برجليه فى الهواء من السرور ، الأمر السيء أن هذا السرور لم يدم ؛ لأن "آيا كوما" ظهرت في المشهد ، وتصرفت نيابة عن مولاها وسيدها الغائب ، فقد انقضت على "أوتا سام" بضراوة ، حتى أنه احتاج وقتًا طويلاً قبل أن يتجرأ ويغامر بالدخول إلى المطبخ مرة أخرى ، إلا أن العجوز "أوتا سام" كان من النوع الذى لا يقدر أحد على قمعه لفترة طويلة ، فهو عندما يقترف عملاً مشينًا ، كان دائماً يبحث عن بعض وسائل الترضية ليستعيد مكانته .

فى هذا المساء ، عندما كان "جانى" جالسًا كالعادة أمام مدفأة المطبخ ، استهل "أوتا سام" الحديث بطريقته المسرحية المعتادة : " ستيفانوس "يوهانس" ، "ياكوبس" ، "كاسترول" ، هل حضرتك يمكن أن تقول لى أى يوم يكون غداً ؟ " .

لم يكن "جانى" عند تعميده قد تسمى بأى اسم من تلك الأسماء التى ناداه بها "أوتا سام" ، لكن نغمته الرزينة كانت كافية لأن تثير استجابة فورية لديه : " لا أعرف يا "أوتا سام . "

" فليبارك الله روحى ؛ هل تقصد أن تقول لى يا ريسى الصغير ، إنك حقًا وصدقاً لا تعرف . "

" نعم ، أوتا سام ، لا أعرف . "

قال له فى نغمة تأنيب : " ستيڤانوس! احمنا ، أنقذنا ، أنك لست إلا وثنياً جاهلاً ! ألا تخجل من نفسك ؟ "

" حسناً أوتا سام ، ومع ذلك ، ما أهمية معرفة ما يوم الغد ؟ "

" إنه عيد الميلاد المجيد ، اليوم الذى يولد فيه مخلصنا المبارك ، إلهنا . "

" لكن يا "أوتا سام" ! إلهنا موجودٌ دائمًا ، هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ إذن كيف يمكن أن يولد غداً ؟ "

" أنظر يا ريسى ، هذه الأمور الكبيرة الرائعة ، أعلى من فهم معظم الناس الكبار ، فلا تزعج نفسك بها ولو للحظة ، ويوماً ما عندما تنبت لحيتك ؛ فإن "أوتا سام" سيفسرها لك"

مر الوقت فى سعادة عندما جلسا يتذكران احتفالات أعياد الميلاد فى السنوات السابقة ـ المرح، والإثارة ، واليوم الكبير الذى يذبح فيه الخنزير، والشواء الكثير، وهدايا الكريسماس ، حتى أن العجوز "أوتا سام" كاد يبكى من التأثر ، خاصة عند ذكر جرعة البراندى المعتبرة التى كان يشربها فى هذه المناسبة، والتى استغنى عنها الآن مضطراً.

أبدى العجوز "أوتا سام" ملاحظة قبل أن يلقى تحية المساء قائلاً :
" يا ريسى سأرقد فى سريرى منتظراً "بابا نويل" العجوز، فيبدو لى أنه يتفادى المجيء لمزرعتنا ؛ لكننى سوف أظفر به الليلة بالتأكيد ، حتى لو اضطررت لسحبه من ذقنه ، حسنًا ، علق الليلة كيس الحبوب هذا فحسب عند طرف سريرك ـ أمهلنى الليلة فقط لأمسك بـ"بابا نويل" ، وسوف تحصل على هديتك ـ وإلا ستقع مشكلة لشخص ما، مشكلة كبيرة ! "

عندمـا استـيقظ "جـانى" فى الصـباح ، رقـد فى السرير سـاكنًا ، سارحًا، إلى أن عاودته فجأة حـديث الليلة الماضية ، ومثل البرق ، اندفع خـارجًا مـــن الفراش منقضًـا عـلى الكيس ، " أجل، هناك كـتلة ما ! ماذا تكون؟ هاى ، لكنها شيء أكبر من أن يـكون "هارمونيكا" أو مطواة فضية ! " ، دفع يده داخل الكيس ، وأغلق عينيه بـأحكام وراح يتلمس بيده ما بداخله ، يا إلهى : كم هى غريبـة تلك الأشياء التى ألمسهـا ، سحبهـا للخارج . . برطمان عسل أسـود، وعيدان قصب مقطعة بأطوال مخـتلفة، وفى الآخر دجـاجة سـودانى ضـخمـة ! صـرخ "جانى" من الفـرحة، حـتى إن "أوتا سام" و آيا كوما" هرعا مسرعين لحجرته ليشاركاه فرحته.

حوالى السـاعة الحادية عـشرة صبـاح ذلك اليوم ، تصاعـدت رائحة الدجاجة الشهية ، لدرجة أن "جـانى" لم يتحمل الجلوس بالخـارج وقتًا أكثر من ذلك ، ومع ذلك لم يضيع وقـته فى نعيم الشمس ، فكان يراقب عمل "آيا كوما" وفكاه مشغولان بمص القصب ، وفى نفس الوقت ، كان "أوتا سام" واقفًا تحت نير، فى كل طرف منه يتأرجح دلو ممتلئ بمياه النبع ، وعلى كل دلو إكليل من أغـصـان الصفـصاف ، تمنع إراقـة الماء ، توقف كالميت ومنخـراه ينتفخـان وينطبقان للداخل والخـارج مثل كشحى حـصان يلهث من الركض.

" هاى ، تاى ، يا ناس ! الرائحة هنا كـثيرة جدًا، احـترسوا وإلا فسوف تنفجرون اليوم من الأكل"

اندفعت كلمات "جانى" وراء بعـضها البعض : " أجل أوتا سام ، أوه ، أشكرك، أشكرك إلى أبعد حـد لأنك ذهبت وأمسكت "بابا نويل" ، لكن ، أين وجدت الهدايا ؟ "

" على ظهر القمر ، في ذلك المكان يجد الإنسان كل شيء"

لكن قل لي يا "أوتا سام" ، كيف استطعت أن تمسك بـ " بابا نويل" وتحضره إلى هنا ؟ أكانت معركة كبيرة ؟ "

أنزل العجوز سام الدلوين ووضعهما على "الدكة" بالمطبخ ، ثم بعين الخبير ، راح يقدر الرضا على وجه "آيا كوما" ، بعد أن اطمأن إلى رضاها ، جلس على "الدكة" نفسها وتنهد براحة ، ثم قال "يا ريسي الصغير ، إذا لم تمانع "آيا كوما " في إعطائي شيئا أرطب به حنجرتي ، فإنني سأحاول تهيئتها للكلام . "

بلا أية كلمة ، صبت له "آيا كوما" قهوة جوز البلوط . "

" يا بن أبيك ، إن تجلب "بابا نويل" العجوز إلى هنا ليس شيئًا هينًا ، لا ، وحياة "جولي" إنه ليس كذلك ! فهو من زمن بعيد يسوق أيائل الرنة التي تجر عربته وتسرع بها ، وينزلق بخفة فوق الأرض ، حتى أن عجلات عربته تمس الأرض مسًا عابرًا عند قمة التل المنحدرة ، أتعرف : إن طريقه يجري بطول سلسلة جبال "روى كوبس" ، لكن عطر قافلته يظل عند القمم القريبة ، كيف كان لعجوز مثلي أنا "أوتا سام" أن يلحق بطرف حيوانه ويمسك به بيده العزلاء ؟ لذلك أخذت قليلاً من حزم الشعير الجديد ، حتى أُغري أيائله بالتوقف ، وأخذت رقاً كي أجعلها تحزن وتأبى المسير في حال إمساكي بها من الجهة التي تهب منها الريح ، وحملت مقلاعي على ظهري تحوطًا ، إذ ربما يفقد الرجل العجوز صوابه ويتصرف معي بتهور ، ثم هرولت ناحية الطريق وصعدت تلال " شوجربَش " العالية ، وذلك كي ألتقط نظرة خاطفة من الرجل العجوز.

" أتعرف ، لم أكن حتى تجاوزت "ديل فـونتين" عندما لمحت أمامى مباشرة على الطريق ، شخصًا ما يعرج وعلى ظهره كيس ممتلىء .

فى أول الأمر خطر على بالـى أن أطلق عليه الرصاص، فـقد ظننت حينذاك، أنه مجـرد أحد أولئك التجار الهنود ، لكننـى تذكرت أننا لا نجد فى هذه الأيام أى هندى يجول على مقربة من منطقة "الترنسفال" ، لذلك اقتربت منه فى ضوء القمر ، وحدقـت فيه من تحت طرف قبعتى ، تصور من كان ! أحلف لك إنه كان "بابا نويل" بشحمه ولحمه.

صحت : " أوه بابا نويل ، يا إلهى الـرحيم ، كيف تسافـر فى مثل هذه الليلة سيرًا على الأقدام كأنك تاجر يهودى ؟ ماذا حدث لعربتك ؟ "

رد بابا نويل : " منذ جاء "جولى روبـرتس" إلى البلاد لم يعد لدى من شىء سوى القـلق ، والغيظ ، والأسف ! ليلة أول أمس خـيمت فى الخـلاء عند" فلورز فنـتـرز" على رابيـة فى " دوال هوك" ، قـرب نهـر "فال" ، وسقت أيائلى وسط حيـواناته فى الكرال ، تصور ، فقدت أيائلى هناك ، أيائلى المجلـجلة التى تجـر عربتـى ! لسوء الحظ ، أحـد رجـال "جولى روبرتس" ، وهو واحد من هؤلاء "التـوميز"[٢٤]، جاء فى الليل ليقضى على حيوانات "فلورز فنترز" الصغيرة ، وأنت تعرف الـ"تومى " شاطر جـدًا عندما يتـعلق الأمر بقـتل الحيوانات ، وكنت قـد وصلت توًا لتحيتهم تحية ودية ، لكن مع الأسف ، كانوا قد قتلوا أيائلى .

عندئذ قلت لنـفسى : يـا ولد يا سـام ، لا تضيـع هذه الليلة وأنت واقف تنوح ، لذلك غمـزت الكيس الذى يحمله بابا نويل بضع غَـمزَات

(٢٤) التوميز : اسم أطلقه الأفارقة على الإنجليز المحتلين أثناء حرب البوير ، وهى تسمية مشتقة من اسم تومى ، «دائرة المعارف البريطانية» .

وقلت له : " أيها الأب المبجل ، هل لديك شيء ولو بسيط لصغيرى ، فى مزرعة "بيتفونتين " نمرة١٤٤ ؟ أنك تعرفها ، أليس كذلك ؟ على بعُد مسافة قصيرة من "داسبورت" ؟ أليس معك شيء أحمله إليه ؟

"أج ، أوتا سام ، بنى العزيز الطيب ، حقًا أنا آسف جدًا ، فالهدايا التى أحضرتها له مازالت بعربتى فى فناء "فلورز فونترز" ؛ وهى ثقيلة جدًا وليس بمقدورى حملها ، كان بها حصان رمادى منقط هزاز ، وبندقية سوداء ـ ليست مثل تلك القصديرية ـ وبعض علب طلقات الرصاص من أجل البندقية ، وكذلك مطواة ذات مقبض أسود بحدين ، وعلم القراصنة ، وكان هناك . . . لكن ما فائدة البكاء على اللبن المسكوب ؟ هيا دعنا نرى لعلنا نجد شيئا له هنا . "

أفرغ "بابا نويل" كل بضاعته على الأرض ، ورحنا نجول بنظرنا بين الأشياء : قليل من أقراص التبغ الأسود ، وبضع لفات من علكة التبغ، وزجاجة أو زجاجتان من عطر اللافندر ، وشرائط صغيرة تربط حول العنق، وغليونان ، وماكينة حلاقة مع مشحذ أمواس جلدى ، وشرائح من أطوال مختلفة من فك الحوت، وعلب إبر خياطة مع قطعة من الدنتيل.

هز بابا نويل رأسه بأسف وقال : " أوتا سام ، لا يبدو أن لدى شيئا يجعل قلب صغيرك يقفز من الفرح . "

استجمعت شجاعتى وسألته : " بابا نويل ، ألا يمكننا أن نحاول محاولة بسيطة ونعود إلى نهر "فال" مرة أخرى ، لعل . . .؟"

" مــاذا بهاتين القــدمين العــجوزتين الواهتتين ؟ أوه ، أوتا ســام ، فليـباركـنى الرب ، لقد جـئت تواً من هناك ! كـيف يمكن عـمل ذلك ؟ خاصة إنه مازال على زيارة "هيدلبـرج" و بوكسبرج" و" اليندرزفونتين" ، كل ذلك على قدمىّ ! " .

قلت بخبث : " أوه ، يا إلهى ، مـسـكين بابا نويل ، لكن يا أبى ، لا أحد فى العالم يمكنه أن يقوم بعملك هذا. "

تأوه بابا نـويل ، وجلس حـزيـنا على الكيس ، وحـك قـدمـيـه "الموجوعتين" فى بعضهما قائلاً : " حقيقى فعلاً " فانتهزت الفرصة وقلت بكل مكر : "شـوف" ، لا تفـقد عـزيمتك ، لأنه حـيث تتـوفر العـزيمة والإرادة يكون هناك حل ، تعـال مـعى حالاً إلى مـزرعـة سيـدى ، على الجانب الآخر من هذا التل الحجرى الصغير ، وسوف أُقلك وحمولتك إلى حيث تريد ، فنحن لدينا الكثير من المركـبات ، والحيوانات ، وعدة الخيل ، كل شىء موجود هناك "

" عندما وصلنا المزرعة جن جنون العجـوز العزيز ، لأنه رأى بلمحة أن كل ماشيـتنا وجيادنا قد أُلحقت بالجـيش الإنجليزى ، رحت ألاطفه بكل كيـاسة وقلت : " أبى انتظر قلـيلاً ، وسوف ترى كـيف أن الرجل الذكى يمكنه أن يصنع شيئا من لا شىء ، " ثم سحبتُ "الكارتة" القديمة التى كان والدنا خبأها عن "التوميز" بين البـوص ، عدلتها ورحت أُحرك العجلات ، ثم دفعت بقـوة المسامـير لأعلى وأسـفل ، ثم للخلف والأمام ، ولليـسار واليمين ، إلى أن بدت مثل قنفذ كبير. "

" ربطت فى كل مسمـار حبلاً قطنيًا ، هذا طويل ، وهذا قـصير ، وفى الطرف الآخر من الحبل ، ثبت خنفساء من خنافس الروث ، وفى لمح البصـر ، صار العـشب أسود من تكدس أسـراب الحشرات فـوق بعضـها البعض مثل الجراد على فرشاة مكنسة ، كانت الخنافس تجول وتتصارع على أذرع التوصيل وتتـشابك فوق بعضهـا البعض فوق عدة الفـرس مثل ثيران مقـرونة صـغيـرة حمـقاء ، لم يمض وقت طويل حـتى راح " بابا نويل" يغمغم ويدمدم مـتذمرًا ؛ لذلك كان علىَّ استرضاءه ومـلاطفته ثانية ، ألا أعـرف أن خنافس الروث تجوع بشـدة حين تقل الماشـية ؟ حـسناً ، لذلك خرجت لمكـان قريب ثم عدت بمقـبض سوط طويل ، وكـسوته بمعـجون الروث عند طرفه ، مـثلما يفـعل الأطفال بأعواد البـوص عندما يلطخـونها بالطين وهـم يلعبون " .

" صحت : " أبى ، اقفز إلى داخل العربة ! اقفز وإلا ستجد نفسك متخلفاً وراءنا ! "

" وما إن لمس سـروال "بابا نويل" المقعـد حتى غـرزت السوط عند مقدمة العربة ، وصحت : " ويرا - ويرا ، هيا ! " ما الذى حدث ؟ عندما تلقت خنافس الروث الإشارة ، اندفـعت العربة العنكبوتية الـقديمة لما فوق النخيل القصـير ، حتى أن سعفـها تسطح ، ثم رفعت مقـبض السوط قليلاً ، وعندها ، أقسم ، راحت أجنحة الخنافس تطن مثل مليـون نحلة مهتاجة ، كلها مهتاجة ومجنونة ! ثم رفعت السوط لمسافة قصيرة بهدوء إلى ما فوقى ، عندئذ ، كان لابد من أن ترى هذا المشهـد ، حين تلاشت المزرعة من تحتنا على كلا الجانبين ، ولم أتمكن من تمييز أى شىء فـيما عدا خزان المياه وهو يلمع تحتنا من بعيد! "

" انحرفنا بسـرعة جهـة اليسار حـتى نتجنب سـحابة مثـقلة بالمياه ، وكذنـا نلمس طرف الهلال الأيسـر! وعلى سبـيل الدعابة ، عـملت بضع انعطافات ودورانات حادة ؛ وقد أردت أن أعـرف إذا كان « بابا نويل » خائفاً ، أم أنه أخذ الأمـور ببسـاطة. لم يكن خائفـا ! حتى حين انحـرفت بحدة مستـديراً ، ومالت العربة عكس اتجاه الريح ، فإن العـجوز أطلق ضحكة مـجلجلة ، حتى أن فـمه بدا مـثل بوق وهو يهـتف بى : " سام ! سـام العجـوز ! يا كذا وكذا ! يا الله ، سـام أنت ولد بألف ولد ! أنت بطل ، أوتا سام ، أنت الأفضل ، أنت ملك عليهم جميعاً " .

وصلنا "فلورز فنترز" ، قبل أن يختفى القمر. كانت "هيدلبرج" وراءنا ، مازال بعض الناس يعيشون فى القرى ، والمزارع ، فأنزلنا حمل الهدايا من العربة العنكبوتية ، فأصـبحت أخف وزنا وأسرع ، فحلقنا فى الجو ، عند أول صيـحة للديـك ، كنا بالفعل نندفع بسـرعة البـرق عائدين للبـيت ، مخلفين عن يسارنا قرية " نيجـل". "

"شوف" ، أنت تعـرف أن ليلة عمل مثل هذه تجـعل الماشية جـائعة مثل الذئاب ، ولذلك نزلت إلى يمين "هيـدلبرج" ، وهناك كانت جـماعة من "الشُطار" الذين استطاعوا إخفاء ماشيتهم ، ورأيت إفريقيا وقد بدأ يهبط ، ربما كانت قد جـفت غمرة الروث من على سوطى بسـبب الريح ، فلأول مرة كنا نحلق على ارتفاع منخفض جداً، وكـان "بابا نويل" سعيداً جداً ، وبينما كنا ننزلق بين حقول " دورز فان توندرز" ، كان "بابا نويل" يلملم من الحقول ويكدس أكواماً فى العربة ، يا الله ، كـان جميلاً رؤية العجوز وهو يمـرح ، كـان يغنى بكل طاقـته ، ويُمـسد لحـيتـه التى فـردتهـا الـريـح على وجنتيه " .

" حين كنـا نمر فـوق أشـجـار الصـمـغ الرمادية الضـخمـة فى "يان فـيرمـاكس " ، راحت السـماء تتلون بـاللون الوردى ، رحنا نحلق عاليًا لنتفاداها ، لكننى صـحت : " يا جماعة ، هاى . . . هاى ، حلقوا عاليًا ، حلقوا عاليًا ، " أقول لـك ، لقد أصابنى خوف ما بعده خوف ، أكبر مـن كل المخـاوف التى عانيت منهـا فى حياتى ! لماذا ؟ لأن "كرال" "يان فير ماكس" كان مليئا بالماشـية الإفريقية الحمراء ! ولابد من أن الخنافس قد تعرفت عليه من رائحة الروث ، فقد كـان طنين أجنحتها شديدًا ، مثل وتر ملولب إلى أقصى حد ، وفى التو انطلقوا بأقصى سرعة صوب الكرال" .

" صاح بابا نويل : ارتفع بنا عاليًا ، ارتفع عالياً " .

" صحت : اصعدوا ، هيا يا أولاد ، اصعدوا !"

" لكن لم يحدث ! أخـيرا أمسكت بالسوط عـمودياً ، ومع ذلك لم تصـعد الخنافس ، كنا نندفـع تجاه سـور الكرال مثل قطار سـريع ! وراح السور يكبر أكبر فأكبر، كلما اقتربنا أكثر . . فأكثر و . . . بـو . . . و. . . م ".

" هل انقلبت العربة ؟ ويرا . . ويرا ، انقلبت العربة ، أوه ، قدمىّ ، تسألونى يا جماعـة ، هل شاف "أوتا سام" النجوم هذه المرة ؟ أى نعم ، فقد تدلينا مثل زوج من القردة ، ارتطمت العربة العنكبوتية القديمة بالأرض ارتطامة قوية ، وقفـزت من على سور الكرال ، والخبطة الثانية ، أوقـعتها بسرعـة البرق على كوم من الروث عند الجـانب البعيـد من حفرة مـصرف الكرال ؛ وفى ارتدادها للمرة الثالثة ، يقـسم لكم "أوتا سام" إنها سقطت رأسًا على عقب فى قاع "وايلديز كوبـى" ، وكل ما استطعت رؤيته كانت لحية "بابا نويل" وهى تبرز من جانب واحد ، مثل ريش طائر وقع فى شرك" .

" وضعت كتفى تحت محور العجلة ، ورحت أرفع العربة حتى ارتعشت ركبتاى ، خرج "بابا نويل" يزحف على أربع ببطء وراح يزيل الروث عن لحيته بأصابعه . بينما كنت أرفع الروث عن العربة العنكبوتية كى أستطيع عدلها مرة أخرى ، وجدت "بابا نويل" راقداً فوق دجاجة سودانية كادت تفطس.

" أوه ، يا إلهى ، يالها من فوضى وقعت بين الأشياء ! الجواد الهزاز الرمادى المنقط الذى كان فى كيس بابا نويل ، بدا مثل " قولحة " الذرة النتنة صحنت فى ماكينة الدريس، أما السرج واللجام الأحمر ، فكانا قد تنسلا ، والبندقية التوت مثل فتاحة السدادات المبرومة ، أما القطعة الفضية التى على مطواة "رودجير" ، فقد ظهر لها ساقان واختفت" .

" عندما وقف بابا نويل ، ترنح فى وقفته كأنه سكران ، ثم راح يبحث فى جيب معطفه وجذب زجاجة العسل ؛ التى لم تنكسر لأنها لابد من أن تكون قد وقعت فوق الدجاجة السودانى ، ثم وضع العسل ، وقصب السكر والدجاجة معا ، وقال بأسف : " أوتا سام ، يا رفيقى العزيز الطيب ، خذ هذه الأشياء وضعها فى كيس حبوب صغيرك مع تحياتى ، يا خسارة الهدايا اللطيفة ، لكن كما يقال : لا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب ، وما حدث قد حدث ، أوتا سام ، أنت بطل ، أنت صاحب المرتبة العليا ، أنت الأفضل! إنها حقيقة لا أستطيع إنكارها ، فى المستقبل يمكنك أن تسوق العربات كيفما شئت ، لكن لن تصطاد "بابا نويل" مرة أخرى ، فلا يلدغ المرء من جحر مرتين ! " .

" وآخر مرة رأيته كان يتهادى على قدميه ، من بعيد على الطريق السريع ، يظلع من جانب لآخر ، أكثر جمالاً مما وصفته أغنيته القديمة" .

الدَّخيل[25]

تأليف : هيرمان تشارلز بوزمان

قال العم "شالك لورانس" : إن الإنجليز ناس غريبو الأطوار ، مثلا : في ذلك اليـوم الذى اشتـبكت أنا وابن أخى "هانس" مع إنجليزيـين قرب "ديوتسدروف" ، كان هذا المكان يقع على مقربة من مكتب بريد "سـنا" ، كنت و "هانـس" رابضين خلف صخـرة نراقب الطريق ، وكان "هانـس" يقضى مـثل تلك اللحظات الغـريبة يَبْـردُ أطراف خراطيش سـلاحه الموتزر على صـخرة مـسطحـة ، إلى أن تظهـر الكريات الصُّلب من بين غـلاف الخرطوش ، وبذلك يحولها إلى طلقات "دَمْ دَمْ"[26] .

تحدثت مراراً مع ابن أخى "هانـس" عن تحـويله للطلقات ، واعتدت أن أقول له : " هينى ، إن ما تفعله خطيئة ، الرب يراك "

وكان هانس يرد : "حسناً، حسنًا ، الرب يعلم أن هذه حرب البوير[27] ، وفى زمن الحرب ، فـإن الرب لا يهتم بمثل هــذه الحماقـات الصغـيرة ، خاصة أن الإنجليز كثيرون " .

(٢٥) عنوان القصة فى الأصل باللغة الإفريكانية The Rooinek ، وتعنى الإنجليزى. آثرت ترجمتها بالدخيل . المترجم .

(٢٦) نوع من الطلقات المحرمة دوليًا . المترجم .

(٢٧) حرب البوير : ١٨٩٩ - ١٩٠٢ ، وقعت بين الإنجليز والهولنديين حـول التقسيم الجديد للمستـعمرات فى جنوب إفريقيا ، شارك فيها القبائل الإفريقية منحازة إلى أحد الفريقين ، وضع فى معسكرات الاعتقال ٣٠ ألفًا من نساء وأطفال البوير . و ١١٥٠٠ من نساء وأطفال الأفارقة ، مات نصفهم خلال ثلاثة أشهر فقط ، وكانت نسبة وفيات الأطفـال الأفارقـة خـلال هـذه الشـهور بنسبة ٨١٪ . دائـرة المعارف البريطانيـة Anglo - boermu

على أية حال ، ونحن كامنون مترقبون خلف تلك الصخرة، شاهدنا من على بعُد بأسـفل ، فارسين يعدوان على الطريق، بقينا سـاكنين تماما، وتركناهما إلى أن اقتربا منا بمسافة أربعمائة خطوة ، كانا ضابطين إنجليزيين ، امتطيـا جوادين من الدرجـة الأولى ، وزيهـما الرسـمى راق وأنيق جداً ، كانا من أكـثر الرجـال الذين رأيتهم منذ فـترة طويلة أناقـة ، لدرجة أننى أحسـست بالخجل من بنطلونى وحـذائى الممزقين ، وسعـدت بأننى خلف صخرة لا يستطيعان رؤيتى ، خـاصة وأن سترتى ممزقة بطول الظهر، ذلك لأنى منذ ثلاثة أيام اجتـزت بسرعة سلكًا شائكًا ، وقد اجـتزته فى الوقت المناسب أيضا ، ذلك لأن "الفيلد-كـورينت" ، وهو رجل بدين، لم يقدر عـلى الجـرى السـريع ، فكان خلفى بمسافـة عشـرين ياردة ، هذا الرجل ، ظل معلقًا على السلك برصاصة اختـرقته ، لذلك كنت سعيداً طوال حرب البوير بكونى نحيفاً ، وليس لدى مشاكل بقدمىّ .

"أنا وهانس" أنا أطلقنا الرصاص فى وقت واحد تقريبًا على الضابطين ، سقط أحدهما عن جواده ، وارتطم كتـفاه بالأرض وتدحرج مرتين ، مثيراً التراب حوله ، عنـدئذ أقدم الجندى الآخر على عمل غـريب ، فقد ترجل عن جواده ، ثم نظر جهتنا مرة واحـدة فحسب ، سحب جواده إلى حيث كان الرجل الآخر يتلوى على الأرض ويزحف بصعوبة ، احتاج رفع زميله عن الأرض إلى ظهر جواده بعض الوقت ، فليس أن ترفع رجلاً عاجزاً ، وقد فعل الرجل هذا ببطء وهدوء غريب ، كـأنما لم يكن يعنيه أن الرجال الذين أطلقوا النار على صديقه كـانوا رابضين على بعُد مئات من الياردات عنه ، نجح فى رفع الجريح عـلى السرج وسنده بطريقة مـا ، ثم مشى إلى

جانب الجـواد ، بعد أن مـشى بضع ياردات ، توقف كـأنه نسى شيـئًا ، استدار ولوح ناحية المكان الذى ظن أننا نخـتبئ فيه ، كأنه يدعونا لإطلاق الرصاص عليه ، فى أثناء كل هذا كنت منبطحًـا أرقبه ، وقد اندهشت من رباطة جأشه .

لكن عندمـا لوح بيـده ، دفـعت خـرطوشـة أخـرى إلى بندقـيـتى "المارتين" وصوبت نحوه ، لم أكن لأخطـئ قط من على تلك المسافة ، سددت بعناية وحـرص ، وعند لحظة سحب الزناد ، دفع هانس مـاسورة بندقيتى لأعلى .

قال : "عمى شالك" ، لا تطلق عليه الرصاص هذا رجل شجاع "

نظرت إلى "هانس" فى دهشـة ، كان وجهـه شاحبًـا تمامًا ، فلم أقل شيئًـا ، وأنزلت فوهة بندقيتى إلى العشب ، لكنى لم أفـهم الشعور الذى اسـتبـد بابن أخى ، وخـيـل لى أنـه ليس الرجل الإنجليـزى وحـده هو الغريب ، لا يُقـتل لأنه شجـاع ، هذا هراء ، فأنا أرى أنه إذا كـان رجلاً شجاعًا ، يحارب فى الجانب الخطأ ، فهذا أدعى لقتله .

أمضيت مـع ابن أخى "هانس" بضعة أشهـر بعـد هـذه الواقعة ، وذات يوم فى منـاوشـة قـرب نهـر "فـال" ، اضطر "هـانس" وبعض المواطنين الذين عزلوا عن الاتصـال بالفدائيين للاستسـلام للعدو ، فكانت تلك آخر مرة أرى فـيها ابن أخى ، وقد سمـعت فيما بعـد ، عندما أسره الإنجليز فـتشوه ووجدوا بحـوزته طلقات الـ" دَمْ دَمْ" فأعـدموه بسببـها ،

كنت فى غاية الحزن عند سماعى بموت هانس، فقد كان ممتلئاً حيوية ، وروحه المعنوية عالية دائمًا، ربما كان هانس على حق عندما قال: "إن الرب لا يهتم لحماقة صغيرة مثل طلقات الـ "دَمْ دَمْ " ، لكن خطأه أنه نسى أن الإنجليز يهتمون "

كنت بالمروج إلى أن وقعوا اتفاق السلام ، ثم ألقينا أسلحتنا وعدنا لبيوتنا ، كنت قبل الحرب أتعرف على مزرعتى بحفرة المحجر التى كانت تحت التل ، حيث كنتُ أقتلع منها الأحجار الارتوازية للجرن، بقيت هذه الحفرة كما تركتها ، أما أى شيء آخر فقد ضاع ، احترق بيتى ، انبسطت مزرعتى بوراً ، نُحرت ماشيتى وأغنامي، حتى الأحجار التى كومتها من أجل المزرعة بُعثرت ، أخرجت زوجتى من معسكر الاعتقال ، وذهبنا معا لنلقى نظرة على مزرعتنا ، لقد دخلت زوجتى معسكر الاعتقال مع طفلينا ، وخرجت منه وحدها ، عندما رأيتها لأول مرة بعد عودتى من الحرب ، لاحظت تغيرها الشديد ، فعرفت - أنا الذى خاض غمار القتال - أننى لم أعرف حقيقة حرب " البوير " .

لم تواتِنا الشجاعة للحياة بالمزرعة مرة أخرى ، فالحياة ستكون مختلفة بدون الطفلينِ وهما يعبثان ويلعبان حول المنزل ، دفعت لنا الحكومة تعويضات ضئيلة كى تعوضنا عن خسارتنا ، اشتريت بذلك المبلغ عربة وثوراً ورحلت عن الـ"فرى ستيت (٢٨)" التى لم تعد تُدعى بهذا الاسم ، بل أصبحت تدعى الآن "أورانج ريفر كولونى (٢٩)" . سافرنا بالعربة التى

(٢٨) الولاية الحرة . المترجم

(٢٩) مستعمرة النهر البرتقالى ، والولاية أو الدولة الحرة بمنطقة الترنسفال فى الشمال ، وهما مستعمرتان هولنديتان ، بينما كان الإنجليز فى مستعمرتى الكيب ، وناتال فى جنوب الترنسفال . المترجم

يجرها الثيران ، وشققنا طريقنا ببطء عبر منطقة "الترنسفال" ، واتجهنا إلى الجزء الشمالى من "ماريكو بشفيلد" ، منذ سنوات مضت ، عندما كنت صبياً ، سافرت مع والدىّ إلى هذه المنطقة ، والآن عندما عدت إليها مرة أخرى ، أحسست أنها ماتزال موطنًا صالحًا للعيش به ، حصلنا على مزرعة حكومية عند الجانب القصى من "دوارسبرج" بالقرب من "ديرديبورت" ، بعدئذ انتقل فلاحون آخرون إلى هنا ، كذلك جاء للسكنى واحد أو اثنان من "الفرى ستيت" ، وتعرفت عليهما ، كان يوجد أيضاً بعض المتمردين الذين كنت رأيتهم من قبل فى الغارات ، جميعنا فقدنا أقرباء لنا فى الحرب ، البعض مات فى معسكرات الاعتقال ، أو فى ساحة المعركة ، وآخرون أعدموا بالرصاص لاشتراكهم فى التمرد ، لذلك ، وبوجه عام ، كنا نحن الذين انتقلوا إلى "ماريكو" ، قرب حدود "بتشوانا لاند" ، ممرورين وكارهين للإنجليز فى هذا المناخ ، ظهر الدخيل .

حدث ذلك فى السنة الأولى بعد استقرارنا حول "ديرديبورت" ، فقد سمعنا أن إنجليزيًا اشترى مزرعة بعد مزرعة السيد "جيرهاردوس جروبيلار" ، سمعنا هذا ونحن جالسون فى بيت "وليم أودينال" ، هذا البيت الذى كان يستخدم أيضًا كمكتب بريد ، كانت عربة البريد تأتينا مرة فى الأسبوع بالخطابات من "زيروست" ، فكنا نذهب جميعا إلى بيت "وليم أودينال" ، نتحدث وندخن ونشرب القهوة ، وكان القليلون منا يتسلمون خطابات ، وما كان يصل منها كان عبارة عن مطالبات بسداد قيمة حفر الآبار التى حفرناها فى مزارعنا ، أو قيمة الأسمنت ، أو مواد بناء

الأسيجة ، ومع ذلك كنا نذهب كل أسبوع بحجة البريد ، أحيانا لم تكن تأتى عربة البريد عند فيضان نهر "جرين" ، فيعود أغلبنا إلى البيت دون أن يلحظ غيابها .

عندما سمع "كوز شتاين" أن رجلاً إنجليزيًا قادم للعيش بيننا ، هب واقفًا عن المكتب .

قال : " عندما يأتى إنجليزى ، فهذا يعنى أن على "البوير" أن يتراجع بعد قليل ، سوف أحزم أمتعتى وأجهز عربتى وأعد القهوة ، وأول شىء أفعله فى الصباح ، أن أرحل فوراً "

عندئذ ضحكنا ، فقد كان "كوز شتاين" كثيراً ما يقول أشياء مضحكة من هذا القبيل ، إلا أن البعض لم يضحك ، فهناك بعض الحقيقة فيما قال "كوز شتاين" .

ناقشنا الموضوع ، وتوصلنا إلى أننا - نحن "البوير" المقيمين فى "ماركو" - لدينا القدرة على إقناع الإنجليزى ألا يعيش بيننا كثيرا ، بعد ذلك بنصف ساعة دخل أحد أطفال "وليم أوديندال" وقال : إن عربة غريبة قادمة على الطريق الرئيسى ، هرع الجميع إلى الباب ، نظرنا للخارج بحذر ، ورأينا العربة التى تتقدم على الطريق مكدسة بكل أنواع الأثاث وألواح الحديد وأدوات الزراعة ، وكان المتاع كثيراً جداً على حجم العربة ، حتى أنهم اضطروا لرفع الغطاء ، الذى من المفترض أن يغطيها، كى يتمكنوا من تعبئتها .

تهادت العربة ، وتوقفت أمام واجهة البيت ، كان بالعربة رجل أبيض واثنان من الكافير ، قال الرجل الأبيض شيئًا ما للكافير، ثم ألقى سوطه . مشى إلى حيث كنا نقف . كان يلبس مثلمـا نلبس تمامًا ، قميصًا وبنطلونًا وصندلاً ، وكان التراب يغطيه من رأسـه لقدميه ، إلا إنه عندما خطى أول خطوة فوق شجيرات الشوك ، رأيناه مرتديًا جوربًا قصيرًا ، ومن هنا عرفنا أنه إنجليزى .

كان "كوز شتاين" واقفًا عند واجهة الباب ،

ارتقى الإنجليزى الدرج وأمسك بيده ،

قال بالإفريكانية : " عمتم مساءً ، اسمى " ويبـر " ،

صافحـه "كوز "وهو يقدم نفسـه بطريقته الساخـرة : " الأمير اللورد الفريد ميلنر " .

كان ذلك اسم اللورد "ميلنر" حاكم الترنسفـال ، فضحكنا جميعًا ، وضحك الإنجليزى أيضًا .

رد عليه قـائلاً : " حسنًا ، لورد برنس ، إنى أتحدث لغـتك قليلاً ، "وأتعشم" فى أن أتحدث بها بطـريقة أفضل فيما بعد ، لقـد جئت للإقامة هنا ، أرجو أن نصبح أصدقاء جميعًا "

ثم اتجه نحونا ، إلا أن الآخـرين تحولوا عنه ، ورفضوا مصافـحته ، فى آخر المطاف وصل إلىّ ، شعـرت بالأسف تجاهه ، فعلى الرغم من أن أمته قـد عاملت أمتى بغيـر عدل ، وبرغم أننى فقدت طفلىّ فـى معسكر

الاعـتـقال ، إلا أن ذلك لـيس خطأ هذا الإنجليـزى ، إنه خطأ الحكومـة الإنجليزية التى أرادت الاسـتيلاء على مناجم الذهب الـتى تخصنا ، غلطة الملكة "ڤـيكتوريا" التـى لم تكن تحب العم "بول كروجـر"(٣٠) ، فقـد أشاعـوا أن العم "بول كروجر" قام برحـلة إلى لندن ، وتحدث معهـا مرة واحدة فقط لبـضع دقائق، وفى نهاية اللقاء قال لهـا : إنه رجـل متزوج راغب عن الأرامل .

عندما عاد الإنجليزى "ويبـر" إلى عربته ، مـشيت و"كوز شتاين" معه ، أخبرنا أنه اشـترى مزرعة بعـد مزرعة "جيرهاردوس جـروبيلار" ، وليس لديه خبرة بالزراعة ، إلا أنه اشترى بعض الكـتب عن الزراعة سيتعلم منها كل مـا يستطيع ، عنـدما قـال ذلك، نظرت بعـيداً تجـاه الميناء ، فلم أكن أرغب فى أن يرانى أضحك ، أما كوز شتاين، فكان تصرفه مختلفاً .

قال له : " يا رجل ، دعنى أرى هذه الكتب" ،

فتح "ويبـر" صندوقًا فى قـاع العربة وأخرج حوالى ستة كـتب كبيرة ذات أغلفة خضراء .

قال كوز شتـاين : " هذه كتب جيدة جداً ، نعم ، إنهـا جيدة جداً للنمل الأبيض ، سيأكلها فى ليلتين " .

(٣٠) بول كـروجـر (١٨٥٢-١٩٠٤) ، رجل دولة وقـائد الأفـريكان (البـوير ، أى الهولنديين) فى الحرب ضد بريطانيا . ولد فى مسـتعمرة الكيب ، وهاجر وهو صغير مع والديه فى الهجرة الجماعية للبوير إلى الترنسفال بعيداً عن السيطرة البريطانية ، وقد شارك فى العديد من المعارك ضـد قبـائل "الزولو" ، نتج عن تلك الهجرة الجمـاعية للمسـتوطنين الهولنديين القضـاء على أعداد كبيرة من قبائل متابلى وإجلاؤهم عن أراضيهم والاستيلاء عليها ، كذلك قضى هؤلاء المهاجرون على القوة الكبيرة لقبـائل "الزولو" ، حتى أن آخر معاركهم ضدهم - والتى بعدها أعلنوا سيطرتهم على أراضـى "الزولو" وقيام جمهورية جنوب إفريقيا التى استولت عليها بريطانيا بعد ذلك - عرفت بمعركة نهر الدم التى قتل فيها أكثر من ثلاثة آلاف من محـاربى "الزولو" برصاص المستوطنين .. عن "كـارين ستيڤن" ، (هجرة البوير الكبرى) الصفحات من ١٥٣:١٥٨ ، مكتبة جامعة فيرچينيا .

كما قلت لكم ، كان "كوزشتاين" صاحب تعليقات هزلية ساخرة ، لا يستطيع أحد أن يمنع نفسه من الضحك على ما يقوله .

حـلت بنـا أوقـات سـيئـة ، فـقـد عـم الجفـاف ، ولم نـستطع بذر حبوب الذرة ، وكـانت السدود فارغة ، وملأت أعـشاب العام الماضى المروج ، ثم نزل المطر وتحسنت الأحوال .

فى تلك الظروف، رأيت "ويبـر" للمرة الثانية ، ومـا سمعته منه دل على اجتـهاده ومثـابرته على العمل ، وبالطـبع لا يمكن لأى "دخيل" أن يدبر معيشته من الزراعة إلا إذا كان يرسل له أموالاً كثيرة من إنجلترا شهريًا ، اكتشفنا أن "ويبـر" قد صرف كل أمواله على المزرعة ، بمداومته المطالعة فى تلك الكُتب الخضراء وبحـثه فيها عمـا يجب أن يفعل ، من حسن الحظ أن هذه الكتب كانت بالإنجليـزية ، ولذلك لم يتمكن "البوير" من قـراءتها، وإلا كان سيحل الخراب بكثير من المزارعين كل عام ، فقد كان يبحث فيها عن علاج لكل الأمراض ـ سـواء إذا أصيبت ماشيـته بداء تضخم القلب ، أو أصيـبـت أغنامه بداء اللسان الأزرق ، أو إذا ظـــهر الدود القــارض ، أو أصيبت سيـقان الزرع بالتشقق ـ فيلجأ لكتـبه بحثًا عن حلول ، وأظن أنه راح يبحث فى كتبه عن أغنامه التى سرقها الكافير.

كان "كوز شـتاين" يساعد "ويبـر" كـثيراً ، وعلمه الكثـير ، فلو كان اتبع تلك الأكاذيب التى فى الكتب الخضراء ، لكانت النتـيجة سيئة . أصبح "ويبر" وكوزشـتاين صديقين مقربين ، كانت زوجـة "كوز شتاين" قد أنجبت طفلة قـبل أسبوعين من وصول "ويبـر"، سعـد الزوجان بها ، فهى طفلتهما الأولى التى رزقا بها بعد سبع سنوات من الزواج ، وقد علق "كوز شتاين" على ذلك قائلاً : " فى أول الأمـر ظننتها ولداً ، لكن حتى ذلك ، أفضل من لا شىء ، للحـقيقة ، فـإن "ويبـر" أحب تلك الطفلة وتعلق بها من أول لحظة، وقد عـمدوها باسم"جيميمـا" على اسم أمها.

كثيراً ما كنت أمر بمنزل "كوز شتاين" ، فأرى الإنجليزى جالسًا على البسطة الأمامية حاملاً الطفلة على ركبتيه.

في الوقت نفسه ، تضايق المجـاورون له من هذه الصداقة ، وقالوا : إن "كوز شتاين" عميل وخائن ، إنه يصـادق رجلاً ساعد على سقوط الأمة الإفريكانية ، مع ذلـك كان من رأيى أنه ليس من العدل اتهامـه بأنه عميل ومستسلم ، فإن "كوز شتاين" كـان يقيم فى مقاطعة "جراف راينت" عندما اندلعت الحرب ، وكان من "كيب تاون" ، أى لم يكن فى حاجة للاشتراك فى القـتال ، ورغم ذلك انضم لقـوات الفدائيين فى "الـفرى ستـيت" ، وبقى مـعهم حـتى عُقـد اتفاق السـلام ، ولو كان الإنجليـز أوقعـوا به ، لأعدموه على أنه متمرد ، بنفس الطريقة التى أعدموا بها "شيبرز" وآخرين .

وقد ذكرتُ "جيرهاردوس جـروبيلار " بهذا ، عندما كنا بمكتب بريد "أوديندال" .

رد "چيـرهاردوس" : "هذا تقـديـر خـاطئ للأمـور، "فـالبـويرى" والإنجليزى أعداء منذ مـعركة "سلجترزنك" ، لقد خـسرنا هذه الحرب ، لكن يومًـا مـا سوف ننـتصـر ، إنه الواجب الذى ندين به لأحـفـادنا ، أن نتصدى للدخلاء ، عليك تذكر معسكرات الاعتقال .

تبًا لى ، ثمة حقيقة فيما قال " چيرهاردوس "

رد "كوز" : "لكن الإنجليز هنا الآن ونحن مضطرون للتعامل معهم ، أعتقد أنه حين يفهم كل منا الآخر، ربما قد لا نحتاج للقتال ثانية ، ها هو ذا الإنجليزى "ويبـر" يـحاول تعلم وإجادة الإفـريكانية[٣١]، ويومًا ما ربما

(٣١) الإفـريكانيـة : لغـة المسـتوطنين الهـولنديين في جنوب إفـريقـيـا ، وهـى خليط من الهولندية ولغات السكان الأصليين .

يصبح واحداً منا ، الشيء الوحيد الذى أعيبه عليه أنه يستحم كل صباح ، لكنه إذا توقف عن ذلك ، وإذا كف عن غسل أسنانه بعد الآن ، فلن تستطيعوا التفرقة بينه وبين البوير " .

على الرغم من أنه حول الموضوع إلى مزحة ، إلا أننى شعرت بأن فى كلام "كوز شتاين" شيئًا من الحقيقة أيضًا .

ثم فى العام الذى تلى الجفاف ، ظهر مرض بطحال الحيوان ، وانتشر مثل النار فى الهشيم ، فبدا كأنه موجود فى العشب ، ومياه السدود ، وحتى فى الهواء الذى تتنفسه الماشية ، فى كل مكان كنا نجد البقر والثيران ميتة ، وأصبحنا نحن جميعنا محبطين ، فكلنا تقريبًا - فى هذا الجزء من ماريكو - بدأنا الزراعة مرة أخرى بما أعطته الحكومة لنا من تعويضات .

الآن ماتت الماشية ، ولم يتبق لنا شيء ، حيث كان الجفاف قد أعادنا من حيث بدأنا ، والآن بسبب هذا المرض اللعين لم نعد نأمل فى أى شيء .

لم نستطع بذر البذور بسبب نسبة الوفيات المرتفعة بين المواشى ، وفى فترة وجيزة ، لم يتبق لنا أى ثور يجر المحراث ، وبدأ الناس يتحدثون عن العمل بمناجم الذهب . أرسلنا عرائض للحكومة ، لكنها لم تجب .

ثم خطرت فكرة الارتحال والانتقال من المكان على بال شخص ما ، ولأيام لم نتحدث عن شيء آخر، وطرح سؤال إلى أين ؟ وقد كان التفكير فى الانتقال إلى مكان آخر فى الترانسفال تفكيرًا عقيمًا ثم ذكر شخص ما منطقة غرب إفريقيا الألمانى ، لم يكن أحد هناك من قبل ، وفى اعتقادى أن هذا كان سبب اختيارنا لهذه المنطقة .

قال "جيرهاردوس جروبيلار" : "لعنة الإنجليز سادت جنوب إفريقيا ، إذا بقينا هنا سنموت ، يجب أن نبتعد إلى مكان لا يرتفع عليه علم إنجليزي " .

خلال بضعة أسابيع كنا قد رتبنا كل شيء ، عبرنا صحراء كلهارى ، وذهبنا إلى الإقليم الألماني ، وسقنا كل ما نملك على العربات التى تجرها الثيران ، وقدنا ما تبقى من ماشية في المقدمة ، ومشينا خلف عرباتنا ، كنا خمس عائلات : " آل شتاين" ، و "آل جروبيلار" ، و "آل أوديندال" ، و "آل فيرارى" ، وأنا وسانى ، جاء معنا أيضًا ، "ويبر" ، أعتقد أن فكرة الرحيل لم تقلقه ، ذلك لأنه قد أصبح هو و"كوز شتاين" على علاقة وثيقة ببعضهما ، ولم يرغب الإنجليزى فى البقاء وحده .

كانت "جيميما" طفلة " كوزشتاين" أصغر فرد فى قافلتنا ، وكان عمرها آنذاك ثمانية عشر شهراً، كانت الأثيرة لدينا جميعًا لكونها مازالت طفلة صغيرة.

باع "ويبر" عربته وركب فى عربة "كوزشتاين"

عند نهاية اليوم الأول ، كنا قد قطعنا عدة أميال داخل محمية "بتشوانالاند" ، وكنا فى غاية السعادة لأننا قطعنا تلك المسافة بعيداً عن منطقة الترنسفال ، تلك التى عانينا فيها الكثير من المحن وسوء الحظ ، وبرغم أن المحمية أرض إنجليزية أيضًا ، إلا أننا شعرنا بالراحة هناك أكثر مما كنا فى بلدتنا ، أصبحنا نرى "ويبر" كل يوم الآن ، وعلى الرغم من أنه أجنبى ذو عادات غريبة عنا ، وسوف يبقى أجنبيًا حتى موته ، إلا أن كراهيتنا له قد خفت عن ذى قبل باعتباره إنجليزيًا.

عندما وصلنــا إلى " مالوبولى" كان ذلك أول يوم أحــدٍ يمر علينا ، فى الجزء الأول من طريق البلدة كـانت ماتزال شجيـرات المرج موجودة ، من نفس نوع الأشجار الشوكية التى تنمــو فى "ماريكو" ، فيما بعد راحت تقل كلما توغلنا فى اتجاه صحراء كلهارى التى ارتحلنا إليها، كذلك صارت الأرض رملية أكــثر فأكــثر ، بل قبل أن نصل إلى "مــالوبولى" ، صارت صحــراء تمامًا ، وتبعثــرت شُجيـرات الشوك على مســافات متبـاعدة على الطريق ، ذلك الأحد أقــمنا قداسنا ، قـرأ "جيرهاردوس جـروبيلار" من الكتاب المقدس ورفع الصــلاة ، ثم أنشدنا عددًا كبيرًا من المزامـير ، بعدها صلى بنا "جيــرهاردوس" مرة أخرى ، سوف أتذكر دائــمًا ذلك الأحد ، والطريقة التى جلــسنا بها على الأرض إلى جوار إحــدى العربات ، ونحن نستــمع "لجيرهاردوس" ، لأن ذلك اليــوم ، كان آخر يوم أحــدٍ كنا فــيه كلنا جميعًا.

جلس الإنجليـزى إلى جــوار "كوز شــتاين" فى مـقـدمة العــربة ، والطفلة "جيميــما" على حجره ، كانت تلعب فى أصابعه تحــاول عضها ، وكانت ملاحظتهــا وهى تفعل ذلك مسلية ، نظر "ويبـر" إليها مبـتسمًا ، حينئذ رحت أفكر فى ذلك . . فـعلى الرغم من أن "ويبـر" ليس واحدًا منا ، إلا أن "جيـميما" لا يعــنيها ذلك ، فى هذه الحــالة ، ربما كانت الطفلة أكثر منا حكمة ، فلا يشكل أدنى فرق لديها إن كان الرجل الذى تعضعض أصابعه قد ولد فى بلد آخر ، أو لا يتحدث لغتها.

هناك الكثير الذى أتذكره عن قافلتنا التى كانت تحاول عبور صحراء كلهارى، إلا أن هناك شيئاً يبدو لى الآن غريبًا ، فمنذ اليوم الأول نصبنا "چيرهاردوس جروبيلار" قائدًا لنا، فأى شيء كان يقوله كنا ننفذه دون نقاش ، وقد شعرنا جميعًا بأن أى شىء صحيح لمجرد أن "چيرهاردوس" رغب فيه ، لم يكن ذلك لمعرفتنا أن "چيرهاردوس" رجل دين ، فنحن نعرف ذلك بالفعل ، بل على الأصح لأننا آمنا "بچيرهاردوس" على أنه إلهنا ، أعتقد أنه لو أن "چيرهاردوس " لم يكن رجلاً غير مؤمن ، فإننا كنا سنتبعه بنفس الطريقة ، فعندما تكون بالصحراء ، وليس هناك ماء ، وطريق العودة طويل ، فى مثل هذه الموقف ، تشعر بأنه من الأفضل أن يكون معك رجل قوى قادرٌ على التصرف ، لا يقرأ فى "الكتاب المقدس" كثيراً ، على أن تكون مع رجل صالح متدين لا يعرف إلى أى مدى تسير القافلة كل يوم أو فى أى اتجاه يمضى .

و"جيرهاردوس" كان يعرف الله ، وفى الوقت نفسه ، كان لديه شىء يُشعرك بأن العمل بنصائحه يضمن لك النجاح ، لقد عرفت رجلاً واحدًا فقط فى كل حياتى ، كان من السهل عليه إقناع الناس وقيادتهم لعمل ما يريد . هذا الرجل كان " بول كروجر"، إنه يشبه "چيرهاردوس" إلى حدٍ كبير ، إلا أن "جيرهاردوس" كان أقل مشاكسة . لكن إذا فاضلت بينهما ، فإن "بول كروجر" يعد الرجل الأعظم.

أذكر أن "جيرهاردوس" فقد أعصابه مرة واحدة فقط ، كان ذلك قرب " نجمال" عند "أيلاندسبرج" ، كان يوم أحد ، وكنا نعسكر إلى جانب نهر "كروكوديل" ، تنقل " جيرهاردوس" فى الصباح الباكر من عربة لأخرى ، وقال : إنه يريدنا جميعًا أن نكون عند عربته ، كان الرب

راضياً عنا فى ذلك الوقت، حتى أنه أنزل علينا مطرًا كثيرًا لنا ولماشيتنا التى بدأ يزيد وزنهـا ، وعلل "جـيـرهاردوس" هذا الطلب بأنه يريد أن يقـيم قداس شكر للرب لكل أعماله الحسنة ، وخـصوصًا لما قدمه الرب لمزارعى الجزء الشمالى من مقاطعة "جـروت ماريكو"، كانت فكرة جيدة ، فذهبنا جمـيعًا نحـمل أناجيلنا وكتب التـراتيل . لكن رجلاً واحـداً لم يأت معنا وبقى فى عربـته ، كان ، كـارل بيتر " . ذهب جـيرهاردوس إليـه مرتين يستـدعيه لحضـور القداس ، لكن بيتر الذى كـان راقداً على الأرض ، لم ينهض لحـضور القداس . وقـال : " صحـيح ، شكرًا للرب على نزول المطر الآن ، لكن ماذا عن مـواسم الجفاف وموت ماشـيتنا من العطش ؟" هز "جيرهاردوس" رأسه بحزن وأسف ، ثم قـال: " أنه ليس بوسعه عمل شىء الآن لأنه يوم أحـد" ، صلى بـنا ثم دعى أن يهـدى الرب الأخ "بيتـر"، أنهى الصلاة بـقوله: " على أية حـال ، إنه فى الصبـاح سوف يساعد على هداية الأخ بنفسه " .

فى الصباح ، مشى "جيـرهاردوس" إلى حيث يجلس "كارل بيتر" أمـام ناره يراقب الكافيـر وهـم يعـدون الـقهـوة ، كان كـلاهـمـا ، "كارل" و "جـيرهاردوس" قويّ البنيـة ، تعاركا، وكان "جـيرهاردوس" اكثـر إجادة للعـراك فى النهاية فـاز ، وربط " كارل " إلى دولاب عـربته بسلبه الثور ، وجلده أمام زوجته وأبنائه.

لقد حدث ذلك منذ سنوات بعيدة ، لكن لم ينسه أى منا ؛ لذلك ، ونحن فى الكلهارى ، عندما دعانا للصلاة لم يتأخر أحد .

خارج "مالوبولى" مباشرة ، يوجد نُهير "عكر" ، يجف فى الفصل غيـر المطير من السنة ، وتصل المياه فـيه إلى قدم فى فـصل المطر، وكانت مياهه مالحة بعض الشىء ، كنا محظـوظين لوجودنا فى وقت امتلأ النُهير.

فى باكورة الصباح ، ملأنا براميل الماء التى كانت فى عرباتنا قبل خروجنا من "ماريكو" ، لأننا كنا سندخل إلى عمق الصحراء بعد ذلك مباشرة ، ولم نكن نعرف أين سيمكننا الحصول على الماء مرة أخرى ، حتى كافيرجوا ، قبائل "ماكوينا " لم يكن فى استطاعتهم إخبارنا بشكل مؤكد عن ذلك .

عندما شرعنا فى التحرك ، صاح "كوز شتاين" : " قافلة دورستلاند الكبرى" ، على أية حال لم يكن حالنا أسوأ من حال قافلة الـ "دورستلاند" ، فسوف نفقد ماشية أقل مما فقدوا، ليس لشيء سوى أننا نملك ماشية أقل منهم ، وباعتبار أننا خمس عائلات فقط ، فلن نخسر سوى اثنى عشر فرداً بالموت عطشًا .

عندما أطلق "كوز شتاين" هذه المزحة عن هجرة " دورستلاند" الجماعية[٣٢]، اعتبرتها فألاً سيئاً عليه ، وأظن أنّ الآخرين أحسوا بنفس الشعور ، سرنا طوال ذلك اليوم فى الصحراء ، عند غروب الشمس ، لم نكن قد أتينا على أية إشارة للماء ، قرب المساء ، قال "إبراهام فيريرا" : ربما يكون الأفضل أن نعود إلى "مالوبولى" ، ونحاول معرفة أفضل طريقة لاجتياز " الكلهارى " ، رد الآخرون ، وكأننا كنا مخدرين ، أنه لا داعى لعودتنا ، وسوف نجد الماء فى الغد بالتأكيد ، وبما أننا انطلقنا ، فلا داعى لأن نعود للوراء ، لكن بعد أن سقينا الماشية لم يتبق لنا الكثير منه .

(٣٢) لم أجد أية إشارة فى كثير من المراجع عن هذه الهجرة ، وإن كان البوير قد قاموا بالهجرة فى جماعات صغيرة فى أول الأمر ، أغلبها عائلية مع الجيران المقربين ، والكثير من هذه الجماعات كانت تشتبك مع السكان المحليين للمناطق التى حاولوا الاستقرار بها ، وقد قتل أعداد كبيرة من هذه الجماعات البويرية قبل أن يتجمعوا تحت قيادة مركزية موحدة تحت رئاسة "أندرياس بريتوريس" الذى قادهم إلى القضاء على "الزولو" وإعلان أراضى "الزولو" ملكًا للمهاجرين البوير ، عن كران ستيفن ، المرجع السابق ، مكتبة جامعة فرچينيا .

عند منتـصف اليوم التـالى ، نفـدت ميـاهنا فيـما عـدا القليل الذى احتـفظنا به للأطفـال ، ومع ذلك تابعنا سـيـرنا ، الآن وقـد توغلنا فى الصحـراء ، أصبحنا نخـشى العودة إلى "مالوبولـى" ، فى المساء كنا فى غاية الاضطراب ، ركعنا جميـعًا على الرمال ورحنا نصلى ، تردد صوت "چيرهاردوس" حزينًا ، جادًا وهو يضرع إلـى الرب أن يشملنا برحمته ، خاصة الصغـار ، وذكر الطفلة "جيميما" بالاسم ، كـان الإنجليزى راكعًا إلى جوارى ، فلاحظت ارتجافه عندما ذكر "جيرهاردوس" طفلة "كوزشتاين" .

كان المسـاء مقمـرًا ، وكل ما حولنا صـحراء ، بدت عرباتنا ضـئيلة وموحـشة ، يلفـها شىء حدادى ، لفت النسـاء والأطفال أذرعـهم حول بعـضـهم البعض ، وظـلوا يبكون لوقت طويل ، وقـد وقف تابعـينا من الكافير على مسافة يراقبوننا ، وضعت زوجتى "ساني" يدها على يدىّ ، وعُدت بذاكرتى إلى مـعسكر الاعتقال ، المسكينة ، عـانت الكثير ، كنت أدرك أن أفكارها تماثـل مـا يدور بفكرى فى هذه اللحـظة ربما كـان مـوت طفلينا فى الماضى أفضل من موتها الآن .

كنا قـد توغلنا فى الصحـراء كثـيراً جـدًا ، حتى أننا "رحنا" نـقول لبعـضنا لابد من أننا قد اقتـربنا من النهاية ، مع أننا كنا نعـرف أن الغرب الألمانى مازال بعـيداً ، ومع إننا نعرف أن بوتيـرة السير التى نسافـر بها لم نقطع سوى مـسافة أكثـر قليلاً من بداية الكلهـارى ، مع ذلك رحنا نقول الأكاذيب لبعضنا عن احتمـال قربنا من الماء ، قلنا هذه الأكاذيب لبعضنا ، لكن فى دخيلة كل رجل ، كان يعرف الحقيقـة ، فيما بعد توقفنا حتى عن قول الادعاءات عن الفرصة الذهبـية التى أتاحت لنا الفرار أحياء من الوباء ، يمكنكم تصور الورطة التى كنا فيها مع النساء والأطفال بشأن إخفاء وضعنا

عنهم ، البعض منهن بكين ، لكن هذا لم يشكل أى فرق ... لم يعد أحد يحاول تعزية النساء والأطفال الذين كانوا يبكون ، وعرفنا أن النساء لسن أقل شجاعة من الرجال ، فبعد فترة لم يعد هناك المزيد من البكاء فى قافلتنا ، بعض النساء اللائى مرت بهن أحداث الأيام المقبلة ، وعدن بسلام إلى الترنسفال ، لم يبكين فى حياتهن مرة أخرى ، فما شهدنه حجر أفئدتهن ، لقد أصبحن مثل الرجال ، أعتقد أن هذا أكثر الأشياء حزنًا فى العالم ، أن تمر النساء بمعاناة ساحقة شديدة تجعلهن يصبحن مثل الرجال .

تلك الليلة لم ننم تقريبًا ، وفى الصباح الباكر خرج الرجال للبحث عن الماء ، بعد ساعة من شروق الشمس ، عاد "فيريرا" وأخبرنا أنه وجد بركة ماء موحلة على بُعد بضعة أميال ، ذهبنا جميعًا إلى هناك ، ولم يكن بها سوى قليل من الماء ، حصلنا على ذلك القليل ، فشعرنا ببعض التحسن ، لكن عندما قررنا قيادة الماشية لبركة الماء ، وجدنا الكافير من أتباعنا قد هربوا أثناء الليل بعد نومنا ، فلم تستطع بعض الماشية الراقدة التحرك عن موضعها والذهاب إلى البركة ، لذلك تركناها ، وقد دهس البعض فى بركة الطين حتى الموت أو اختنق فى الطين ، فكان علينا جرها خارج البركة لندع البقية تنزل ، كان حالنا بائسًا .

قبل أن نترك المكان ، ماتت إحدى بنات "فيريرا" ، جرفنا الرمل وحفرنا حفرة ودفناها .

عند ذلك قررنا العودة .

بعد دفن الطفلة ، تطلع "إبراهام ڤيـريرا" إلى "چيرهاردوس" وقال له : " إننا إذا كنا قد أخـذنا بنصيحتـه عن العودة مبكراً ، فما كـانت ابنته لتموت" .

رد "چيـرهاردوس" عليه: " إبراهام ، ابـنتك ماتت ، لا فـائدة من الحديث عنهـا أكثر من ذلك ، كلنـا لابد من أننا سنموت يومًا مـا ، وقد رفضت أن نعود مبكراً ، لكنني أقرر العودة الآن . "

حـدق "إبراهام ڤيـريرا" في عيني چيـرهاردوس وضحك ، ســوف أتذكر دائما رجع صـدى هذه الضحكة في الصحراء ، صـوته المبحوح من الرمل والعطش ، صـوت متهـشم من فعل الصحـراء به ، و وجهـه مسطراً بالأسود ، وشفتاه سوداوان ، ولا شيء مما حوله يعزيه في كارثة فقد ابنته .

رد عليـه : "عمي چيرهـاردوس ، ابنتك مازالت على قـيد الحـياة " وأشار إلى العربة حيث ترقـد زوجة "جيرهاردوس" واهنة مع الطفلة التي ولدتها منذ بضعة أشهر فقط .

رد "چيرهاردوس" : " نعم مازالت على قيد الحياة ... ماذا بعد ؟

استـدار "ڤيريرا "ومـشى وهو يضحك ، وسمـعناه بعد قليل يفـسر لزوجته بصوت مشروخ سبب ضحكته.

راقب "چيرهاردوس" "جـروبيلار" انصـراف الرجل الآخر دون أن ينطق بأي شيء ، كان إيماننا كبيراً "بچـيرهاردوس" فتبعناه في كل شيء ، لكن لحظة أن قرر العودة ، فقدنا كل إيماننا به ، فـقدناه فجأة ، كنا نعرف أنه من الأفضل أن نعود ، وأن الاستمرار يعني أن نموت كلنا في الكلهاري ،

رغم ذلك ، إذا كان "چيرهاردوس" قال لنا أن نستمر ، فإننا كنا سنستمر ، كنا سنمضى معه حتى النهاية ، لكن الآن ، بعد أن ظل يردد : " إن الصحراء قهرته " ، لم يعد لنا أى إيمان به ، وهذا ما جعلنى أقول أن "بول كروجر" أعظم منه ، لأن "بول كروجر" كان نوعًا من الرجال مازلنا نؤلهه ، حتى حين قرر العودة والتراجع ، لو كان "بول كروجر" هو من قال لنا لابد من أن نعود ، كنا سنعود بقلوب قوية ، كنا سنعود بنفس الحب لقائدنا ، ونحن نعرف أنه هُزم ، لكن من لحظة أن قال "جيرهاردوس" يجب أن نعود ، عرفنا أنه لم يعد قائدنا ، وعرف هو ذلك أيضاً .

عرفنا ما الذى يتربص بنا ويمتد بيننا وبين "مالوبولى" ، لذلك حين حولنا اتجاه عرباتنا ، ملأ قلوبنا القلق والشك الأسود ، كانت ماشيتنا فى غاية الضعف ، وعلينا أن نقرنها كلها إلى العربات حتى نتمكن من السير ، ولم يكن لدينا ما يكفى من النير لذلك ، فقطعنا عرائش للعربات من الشجيرات المنتشرة ، وربطناها إلى المركبات ، اضطررنا لتثبيت النير بسيوره الجلدية إلى رقاب الثيران مباشرة ، لذلك اختنق منها الكثير .

ثم رأينا "كوزشتاين" وقد بات مجنونًا ، لقد رفض العودة ، وقرن ثيرانه واستعد لمواصلة الرحلة ، جلست زوجته صامتة مع الطفلة فى العربة ، فأينما يذهب زوجها سوف تكون معه ، وهو بالطبع الحل الوحيد الصحيح بالنسبة لها ، ودعتها النساء باكيات ، لكن زوجة "كوزشتاين" لم تبك ، حاولنا إثناء "كوز" عن رأيه ، لكنه رفض الإصغاء ، وقال : إنه لن يقفل راجعًا من أجل بعض الهراء .

قال له "چيـرهاردوس" "جروبيلار" : "لكــن يا رجل ، ليس معك ماء للشرب" .

رد "كوز شـتاين" مـازحًا كـعادته : " إذن سـأشرب القـهوة " ، ثم أمسك بسوطه ومضي مبتعداً بعربته ، ذهب "ويبـر" معه ، فى تصورى ، لمجرد أن " كـوزشتـاين" كان طيبًـا معـه ، وهذا سبب قولـى أن الإنجليز غريبو الأطوار ، فهو يعلم بالتأكـيد إن لم يكن "كوزشتاين" جن فعلاً ، فإن ما يقدم عليه هو الجنون بعينه ، ومع ذلك استمر معه .

افترقنا ، مشت عرباتنا راجعة إلى "مالوبولى" ببطء ، بينما توغلت عربة "كـوزشتاين" داخلة الصـحراء ، كانـت عربتى آخر عـربة مشت ، نظرت للوراء على عربة "كـوز" ، فى هذه اللحظة ، كان "ويبـر" ينظر وراءه أيضًا ، شاهدنى ، فلوح لى بيده ، وذكرنى هذا المنظر ، بذلك اليوم من أيام حرب "البوير" ، بذلك الإنجليزى الذى كنا أطلقنا النار على زميله ، عندما استدار ولوح لنا أيضًا .

أخيراً ، وصلنا "مـالوبولى" بعربتين وعدد ضئيل من الماشـية ، فقد تركنا عرباتنا الأخرى بالطريق ، لقد حدثت أشياء رهيبة فى تلك الصحراء ، مات عدد من الأطفال ، كانت عربة "جيرهاردوس" تسير أمامى ، فشاهدت صُرة تسقط دفعة واحدة عن جانب غطاء العربة ، عرفت ماهية هذه الصرة ، لم يتجشم "جيرهاردوس" عناء دفن طفلته ، وكانت زوجته راقدة أضعف من أن تتـحرك ، لذلك نزلت من العـربة ، وحفـرت موضـعًا دفنت فـيه الطفلة ، وكومت قليلاً من الرمل فوق الجـثة ، كل ما أتذكره بعد ذلك عن

العـودة إلى مـالوبولى" هو الشـمس ، والرمـال ، والعطش ، فى بعض الأوقات ظننا أننا فـقدنا الطريق ، إلا أن ذلك لم يعد يهـمنا فى شىء لقد فـقدنا الشـعـور ، ولم نعد قـادرين لا على الصـلاة ، ولا على اللعن ، والتصقت ألسنتنا التى جفت من العطش بحلوقنا .

حتى اليـوم ، وأنا غيـر متأكـد من الأيام التى استغـرقناها فى طريق عودتنا ، إلا إذا جلست لأحسبها ، وبعد ذلك أفـترض أننى حسبتها خطأ ، عدنا إلى مالـوبولى حيث الماء ، وقلنا إننا لن نبتعـد عن هناك ثانية أبداً ، وأظن أن الأباء والأمهات الذين فقدوا أطفالهم ، لم يحزنوا عليهم فى هذا الوقت .

فقـد كانوا مصـعوقين مما مروا به ، لكننى أعـرف أنهم فيمـا بعد - سوف يسـترجـعون كل شىء ، وعندئذ ، سـيتـذكرون أشـياء عن مـقابر سطحية فى الرمال ، وسيفكر "جيرهاردوس جروبيلار" وزوجته فى الصرة الصغيرة التى رقدت عارية فى الكلهارى ، عرفت كيف كانا سيشعران .

بعد ذلك ، جهزنا عربة بثيـران جديدة ، وحملنا مؤنة وافرة من الماء ، وعدنا إلى الصـحراء بحثًا عن عـائلة "كوز شتـاين" ، وبمساعدة كافـيريو "سكون" الذين يجـيدون اقـتفاء الأثـر ، وجدنا العـربة ، كانت الثـيران منتشرة بالمكان ، بعضها رقد ميتًا إلى جوار العربة ، حدد الكافير آثار أقدام على الرمـــال ، تلك الآثار بينت لنـا الطريق الذى سلكه هـذان الرجـلان وتلك المرأة .

فى النهاية ، وجـدناهم .

رقد " كوز شتــاين " وزوجته إلى جوار بعضهــما فى الرمال ؛ رأس المرأة يتوســد كتف الرجل ؛ وشــعرها الطويل انحل وراح يطيــر مع الريح بنعومة ، وسفت الرمال وتراكمت على جسديهما ، على مقربة منهما رقد الإنجليزى ووجهه لأسفل ، لم نعثر على الطفلة" جيميما" قط ، لابد من أنها ماتت بمكان ما على الطريق ودفنها "كوزشتاين" ، واتفقت آراؤنا على أن الإنجليزى "ويبـر" لابد من أن وقد مر بأشياء شنيعة ، فهو لم يقدر قط على فهم كيف يعرض الزوجان " شتاين " طفلتهما للخطر ؟! ، ربما كان يعتقد حتى لحظة موته أنه يحــمل الطفلة ، ذلك لأنه عندما رفعنا جسده ، وجدناه مازال يحتضن بين ذراعيه المتيبستين خرقا بالية من ملابس الطفلة ، وبدا لنا أن رياح الكلهارى تهب ناعمة وتسفى بهدوء هذا الصباح .

نعم ، كانت الريح تسفى بهدوء .

طفل السحاب

تأليف : ستيفن بلاك

ذات مرة قلت لأحد الأجانب أننى لم أصعد قط إلى قمة جبل "تَّابُل" ، أو حتى إلى نصفه على الرغم من إننى ولدت وترعرعت فى "كيب تاون" ، نظر إلىَّ غير مصدق ، لذلك قررت صعود الجبل منذ بضعة شهور ، أعترف ، أنى لم أصعد على قدمى ، لكن المهم أننى وصلت للقمة ، بينما كانت البغال تتقلب فى الرمل ونبات السرخس ، رحت أتجول حول الصهاريج ومررت بطفل أوربى الملامح ، مع أن لونه كان أسمر مثل العديد من أبناء الكيب ، كان طفلاً خجولاً ، شعره أشعث وبلا حذاء ، يرتدى " شورتًا " واسعًا وقميصًا صوفيًا، كنت مندهشًا حقًا، كيف لطفل حاسر الرأس حافى القدمين فى السابعة من عمره أن يصعد إلى قمة جبل " تابُل " ، بينما أنا لم أصعد إليه وعمرى ثلاثون عامًا، لكن الأكثر إثارة للدهشة ، أن الولد لم يكن قد نزل من على الجبل قط ، لقد أقام طوال حياته بين السحاب .

قال : " ولدت هنا فوق" ، مشيراً إلى منزل عند نهاية الصهريج ، قال هذا بعد أن تغلبت على خجله ، وذلك بأن سمحت له بأن يتفحص صنارة الصيد المجهزة ، وكنت قد سحبت تواً سمكة " الحسناء المبرقشة "

التى وزنها على الأقل ٦٥٠ جرامًا ، ورحت أنظر إليها بفخر ، علق الولد فى بساطة : " أنا لا أصطادها أبداً ، " نظر إلى بأسى ، ورأيت دمعة تتجمع فى عينيه عندما سحبت الخطاف من فم السمكة وهى تتلوى ، واصل كلامه : " إننى أحب مراقبة السمك وهو يسبح فى الماء ، أحب أن أراه فى الشمس وهو يتقافز، ويتلوى.

تركت الصنارة جانبًا ، وقد شعرت بعدم الراحة من نظرته ، سألته : "ما اسمك ؟" رد : " اسمى ڤيليب ، وينادوننى ، ڤيل" سألته : " من اسماك هذا الاسم ؟" يبدو أنه كان سؤالاً سخيفًا، فرد عليى بنغمة دهشة : " أبى وأمى ، " لم يكن يدرى أن هناك أطفالاً بلا والدين.

" قل لى ماذا تفعل طوال اليوم ، " كان مفهومى عن الحياة فى الجبل أنها حياة مملة كئيبة. سرنا بعيداً عن المياه، والسمكة معبأة فى السلة. وقد انتابنى شعور بالأسف على صيدها .

بدأ ڤيل الكلام ، قال : " إنه استيقظ فى الصباح ، وذهب إلى أشجار الصنوبر التى تنمو عند حافة الماء ليستمع إلى هديل الحمام ، كان يعرف كل عش من أعشاش طائرر "الحسون" ؛ ذلك الطائر الذى يبنى عشه على الماء ، كانت طيور " الحسون " الكافيريه جميلة ، كذلك عيدان قصب السكر وكان ينمو بالوادى " نبات الـ" ديساس" الأحمر والأزرق ، كل شيء يقف أعلى من رأسه ، أطول منه ، النباتات دائمة الإزهار ، وزهور "سكولباد" و"تيبوش بيزيه" التى يقطفها الناس، لكن "ڤيل" قال أنه لم يضطر لقطف هذه الزهور قط ، فهى تنمو فى كل مكان ، كما أنها فى مكانها أفضل من قطفها ووضعها فى إناء حيث تذبل ، وكانت عيدان

قصب السكر الممتلئة بـالعصير الحلو تنضج فى الخريف ، فيجـمع عصيرها فى قدر لأمه التى وتغليه وتصنع منه عسلاً لذيذًا، كثيراً ما كان يرى الظباء ، وهى ليـست متـوحـشة بالمرة ، ولا أحـد يزعجـهـا بالبنادق ولا تطاردها الكلاب ، أما كلبه فأسمه "مـاك" ، وفى مثل هذا الوقت ، يكون الكلب مع والده عند الطرف الآخر من الخزان .

كان ساحـرًا أن تسمع طفل السحاب وهو يتكلم ، كـان طفلاً بسيطًا ، صادقًا ، مـثاليًا ، فى حين أن معظم أطفـال المدينة فى عُمْر السابعـة قساة عندمـا مشـينا إلى المكان الذى يمكـن أن نشاهد منه المديـنة بأفضل صـورة أخبرنى . . إنه قرب الليل يحب مراقـبة طيور الـ" الدورى " الحمراء وهى عائدة لموطنها على المـرتفعات ، هذه الطيور تتصـايح بحزن ، وتأكل ثمار التوت فقط ، بينما عصافـير "الدورى" ذات الرووس البيضاء تحوم طوال اليوم حول أبقار والده ، وتتصايح عالياً عندما تأكل القراد من على جسمها ، " عندما وصلنا عند حـافة الجبل صحت بفرح للمنـظر الذى رأيته أسفل الجبل ، لمـعت عيون الولـد بالفرح أيضًا. قـال : " إننى فى غايـة الشوق للنزول تحت ، وأنت أيضًا ؟"

أجبته وأنا أشعر لأول مرة هذا اليوم بالتفوق: " لقد كنت بأسفل" قال فيـــل بفخـــر: " أبى أيضًـــا ينزل. وأمى قالت أنهـا نزلت بى حين كنت ولدًا صـغـيرًا ، ســـوف نذهب جمـيـعًا يومًـا مـا فى السلة ذات السلك الكهربى "

كـان المنظر من أروع المناظر التى رأيتـها فـى حيـاتى ، مع أن الناس القـادمين من الخارج بـالسفن يقـولون إن منظر جـبل "تـابل" أجـمل فى

الصباح الباكر حين يرونه من على بعُد بضعة أميال فى البحر ، لكن ليس هناك أى منظر يمكن أن يمحو الانطباع الذى يتركه فى النفس . . . المنظر من على قمة الجبل ، من بعيد ظهرت سلسلة جبال " هوتنتوت هولندا" ، وكل ما حولنا يعمه السلام .

تكلم الولد : " عندما كنت ولدًا صغيراً، اعتادت أمى أن تأتى معى كثيًاً إلى هنا ، كانت تُرينى البحر والسفن والمنازل البيضاء الكبيرة ، إلا إننى أريد أن أراها عن قرب ، فهى هكذا بعيدة جدًا ، " ثم سأل فجأة وهو يشير إلى سفينة عملاقة كانت تبحر : " هل يجرى هذا القارب الصغير فى البحر ؟" قلت نعم ، لكنه ليس قاربًا صغيراً ، بل سفينة كبيرة جداً ، " وظلت السفينة التى تحمل عشرة آلاف طنًا تبدو له قاربًا صغيراً من هنا .

قال الولد : " إننى أرى السفن كل ليلة من هنا ، تأتى السفن كل ليلة مثلها مثل النجوم والزهور التى تأتى فى الربيع ، وتذهب مثل الطيور إلى أعشاشها ، لكن ، لماذا تأتى ثم تذهب ؟ لابد من أنها فى مشكلة كبيرة ؟ وإلى أين تذهب النجوم كل ليلة ؟ فأنا أراها فقط عندما أذهب للفراش ؛ لكن عندما أستيقظ فى الصباح تكون قد اختفت "

كان معى منظاران ممتازان ، أخرجتهما من جرابيٍّ ، لابد من أنها ستكون تجربة ممتعة لـ"ڤيل" ، سوف يرى السفن والمنازل البيضاء الكبيرة ، قبل أن أتكلم قال : " لابد من أنها جميلة من بأسفل ، هل يمكنك أن ترى الجبل دائما من هناك ؟ نحن نكون محاطين كثيراً بسُحب كبيرة ، رطبة ، عندئذ لا أستطيع رؤية السفن أو المنازل ، تأتى السحب وتغطينا ، ثم تهب

الرياح ، تقــول أمي في مـثل هذه الأوقـات ، إنه لابـد من أن أبقى في البيت. مـا هي تلك الأشياء الصغـيرة التي تشبه زهور الأقـحوان الموجودة على الأرض قرب البحر؟"

تحتنا، على الرمال البيضاء ، رأيت حشداً من الناس متجمعين ، قلت له : " إنهم ناس "

رد : " أوه"

راح طفل السـحاب يـسألني عن كـثـير من الأشـيـاء ، حدثتـه عن القطارات التي تجـري ذهابًا وإيابًا تحـت سحـابات الدخـان ، فظل سـاكنًا مـتـفكرصـا لوقت طويل، ثم قـال : " أريـد أن أرى قطاراً ، إنني أحب الأشياء الكبيرة التي تجري حول الجبل والبحر ، يقول أبي ، إنها عربات " ترام" تعمـل بالكهرباء ، حقًـا ، هذه العربات الكبـيرة جـميلة ، فـعندما تصعد الجبل في الظلام ، تكون مثل النجـوم المتحركة ، تقول أمي أن هذه العـربات تمشي في الليل ، إلا أنني في هذا الوقـت أكون نائمًـا ولا أرى سوى عربتي "ترام" بنجـوم ، أول مرة رأيتها كنت ولدًا صـغيراً، وظننت أنها نجوم تأتي في الليل مـثل الأخريات ، لكنها مرت بسرعة جـدًا، مثلما تفعل الشهب وهي مسـافرة ، سأكون سعيدًا جـدًا عندما أنزل من الجبل ، لأنني سأرى كل تلك الأشياء التي أحبها. "

" أتعشم في ذلك يا فُيل"

ثم واصل كـلامه بشـغف : " إنني أرى كثـيرًا من المنازل الصـغيـرة الجمـيلة التي تتحـرك هنا وهناك ، تمشي قليلاً ثم تتـوقف قليلاً ، أعرفـها كلها، كل ليلة قـبل أن أوى إلى الفراش أفكر في تلك المنازل الصغـيرة ،

وأصلى للرب وأقول : يا إلهى الحبيب ، أعطنى واحـداً منها عندما أكبُر، لأجل خاطر المسيح ، آمين ! ثم صاح فجأة : " انظر ، انظر ، ها هى ذى واحدة قادمة "

تناولت منظارى ، ثم عَدّلتُ عـدساته ، وبينما أقـوم بذلك شاهدت بوضوح عربة ضخـمة يسحبها أربعة أحصـنة ، إلا أننى لم أستطع تمييزها من على مسافة بعيدة .

" ما هو ، ما هو ؟ بيتى يصعد ويهبط ، قل لى ما هو؟ !

كان لدى شك ، لكننى لم أنطق. وبدلاً من الرد عليه ، أطلتُ النظر فى المنظار ، فقد رأيت عربة قمامة البلدية ، إلا إننى لم أخبُر الصبى .

عندما جاء السردين

تأليف: وليم بلومر

يتصرف الناس العاديون أحيانًا بطريقة غير عادية ، فقد يتملكهم مزاج فجائى ، يسوقهم إلى التخلص من صلاتهم الحميمة ، التى يجدونها تقف حائلاً فى طريق تحقيق رغباتهم الجديدة التى تتصف بالجنون ، فيحلقون عاليًا ، إذ لم تعد بهم حاجة للأودية المريحة ، يهجرون الواقع، ويعانقون الهواء ، على أية حال ، ذاك كان حال السيدة "ريموند" .

فى أوائل العشرينيات من هذا القرن ، عند الساحل الجنوبى لـ "ناتال" ، كان هناك مكان منعزل ساحر ظهرت عليه مظاهر الفساد ، أو كما يقال الآن : التطور! . . . الطريق مثلاً ، الذى يمر الآن بمحاذاة آل "ريموند" ، يعج بالمواصلات ، وارتفعت المبانى فى كل مكان ، لكن فيما مضى ، كانت وسيلة الاتصال الوحيدة بالعالم الخارجى ـ بعد درب أو اثنين يمران عبر الدغل ويؤديان إلى منطقة السكان الوطنين ـ هى محطة القطارات الصغيرة جداً، التى عُرفت بموقف "ريموند"، لم تظهر قط بجدول مواعيد القطارات ، فكنت تلمحها بطريقة خاطفة من القطار، كان خط السكة الحديدية يمر بين البحر والمنزل ، وفى كل مكان كان يُرى الدغل المميز الكثيف ، انتصب منزل آل "ريموند" على أرض قُطعت أشجارها

وحولت إلى حديقة جميلة : نجيلة ، نخيل ، نبات البونسيه وغيرها ، خلف المنزل نجد معشوشبًا أسماه السيد "ريموند" "المزرعة" ، حيث أطلق فيه بعض البقر ، وبعض الطيور الداجنة ، وأبقى على بعض حقول الذرة، وبستان كبير للخضراوات ، فكانت تلك الأشياء تستنفد جلّ وقته ، وبرغم ذلك ، فإن السيد "ريموند" كان يتناول كافة الأمور ببساطة تامة، وهو ما يزال تحت الخمسين ، ولقد تركت الحرب آثارها السيئة عليه ، يمثل نوعًا من الرجال الهادئين ، غير مؤذٍ، رصين ، غير مهتم بالسياسة - على عكس أغلب مواطنى جنوب إفريقيا، فقد اعتاد القول: "كل الحكومات متشابهة"- وهو ، على عكس الكثير من جيرانه أهل الريف ، يعامل الوطنيين بعدل، وحتى بطيبة ، لذلك كانت له سمعه طيبة بينهم.

أما زوجته ، فكانت أصغر منه ، وقد زعم الناس أن زواجهما رومانسى ، محتمل أنه لم يكن أكثر رومانسية من معظم الزيجات الأخرى كانا بلا أطفال ، إلا أنه كان واضحًا أنهما سعيدان معًا ، متشابهان بما يكفى (فى ميلهما للحياة الهادئة، مثلاً) ، ومختلفان أيضًا بما يكفى ليتوافقا معًا، فقد التمس السيد "ريموند" فى الاهتمامات الهادئة بـ "المزرعة" ما ينسيه شقاء حياته السابقة ، أما زوجته ، على العكس ، وجدت أمور المزرعة تضيق عن اهتماماتها ، فبذلت جهدًا لتبقى على اتصال بالعالم الخارجى ، قرأت قليلاً من الكتب ، لعبت كثيرًا من التنس، وعزفت القليل لـ" شوبان" ، وأبدت اهتمامًا بكل الأنشطة ، لم تكن متعلمة تعليمًا راقيًا ، شعراؤها المفضلون "روبرت بروك" و"عمر الخيام" ، بينما كان التراب يغطى كتب "إيلا وهلر ولكوكس" ، مع ذلك كانت تستمتع بالمجهودات التى تبذلها لتحسين مستواها والاستمتاع بما حولها ، هذا

الاختلاف بين طبيعة كل من الزوج وزوجته خلق توازنًا جيداً، فقد كان يجلس أحيانًا على كرسى مداد فى الشرفة يستمع إليها وغليونه فى فمه، وعندما تنتهى من الكلام ، ربما يسألها المشورة أو يخبرها عن هذا أو ذاك من الأمور التى حدثت بالمزرعة ، وضعت فى حسبانها دائمًا قضاء يوم فى "دنّ سبورت" مرة فى الأسبوع ، من ناحية لأغراض التسوق ، ومن ناحية أخرى ، لمقابلة ورؤية أصدقائها هناك ، بينما كان ذهاب السيد "ريموند" إلى المدينة أقل منها بكثير.

كان يضرب بهما المثل كزوجين ، إلى أن أصبح الملل الطفيف فى سلوك السيدة "ريموند" ملحوظًا ، بدت تصرفاتها كأنها لم تعد تستمتع بأنشطتها في ذاتها، لكنها تؤديها كمتنفس للطاقة المحبطة ، على الرغم من إنها لم تعد شابة بعد، يتوقع منها أن تكون مثل زوجها : قانعة، مستقرة، إلا أنها أيضًا ليست متقدمة فى السن إلى الحد الذى يجعلها تتصرف كأن الحياة لم تعد سوى استكانة للراحة ، لا، إنها مازالت مفعمة بالحياة ، على الرغم من أن الوقار والرضى بالأمر الواقع كانا قد تركا عليها مسحة خفية تشى بعمرها.

طالب الطب الشاب المدعو "إدواردز" هو من أتيح له أفضل فرصة ليلاحظ تصرفاتها ، إنه ابن عم السيد "ريموند" ، جاء لقضاء شهرين عندهما : التماسًا للهدوء ، لأن لديه بعض الدراسات التى عليه أن يتمها استعداداً للامتحان ، بالتأكيد ، كانت المزرعة أفضل الأماكن هدوءاً، فاندمج فوراً فى الروتين المعتاد، الذى كانت تقطعه أحيانًا حفلات الرقص فقط ، وعطلات نهاية الأسبوع فى "دن سبورت" ، اعتاد "إدواردز" النزول إلى الشاطىء مع كتبه بعد الإفطار مباشرة ، كان يذهب دائمًا حافى

القـدمين ، ينحدر أولاً بـضع خطوات فى اتجاه السـكة الحديدية ـ حـيث يكون كل شىء متـقداً تحت شمس الصـباح ، ثم يمر فوق القـضبان الملتهـبة اللاسعة ، بعد ذلك يمضى فى الدرب القصير الذى يشبه النفق و يمر خـلال الدغل مؤدياً للبـحر، هذا الدرب داخله ظليل ورملى ، وساكن ، وفـجأة يجد المرء نفـسه خارجاً مرة أخـرى إلى الشمس وصوت الأمـواج ، اعتاد العمل طوال النهـار ، ثم يسبح بعض الوقت ويعود لـلمنزل لتناول الغذاء فى الشرفة ، ينام بعض الوقت فى الهواء الطلق ، ثم يذهب للصيد ـ رغم أنه لم يصطد إلا القليل ـ أو يمـشى بمحاذاة السكة الحـديدية ، أما إذا كـان الجو شديد الحرارة ، فإنه يذهب مرة أخرى للـسباحة ، وعادة يعود للعمل ثانية ، إلى ما قـبل العشاء ، ويقضى المساء فـى المسامرة ، أو الغناء ـ فى الواقع كان غناؤه سيئاً ـ بمصاحبة السيدة "ريموند" ، بينما زوجها يجلس فى الشرفة يدخن غـليونه ، الاختلاف الوحيـد عن هذا البرنامج هو الزيارات من وإلى جيـرانهم ، هؤلاء الجيـران الذين لا يسكنون قريبـاً جداً منهم ، ذات يوم اصطحبـه السيد "ريموند" للصـيد البرى ، فى الخلاء ، لكنهـما عادا تقريبـاً بلا صيد يذكر، فسـخرت منهما السـيدة "ريموند" ضاحكة ، وفى ضحكتها رنة أسى .

حل فصل الشتـاء ، وكان الطقس مثالياً تقريبـا ، فى بعض الأحيان كانت تـشتد الريـح بعض الشىء ، انتشـر فى الجو خـمول ونعـاس أشاع الهـدوء والرضى ، عكره فـقط الاضطراب الطفيـف للسيـدة "ريموند" ، والخلافات التافهة التى تحدث كل يوم ويُبالغ فى أهميتها فى الأماكن المنعزلة النائية .

قال السيد "ريموند" لضيفه مرة أو مرتين : " آمل أن تكون موجودًا، عندما يأتى السردين" .

كان من المتوقع قدوم السردين فى موعده من كل عام ، الحدث السنوى الكبير ، أفواج هائلة سوف تمر ببطء متجهة إلى الشاطىء ، ومنتهية قربه ، يتبعها أعداد لا حصر لها من طيور البحر والأسماك المفترسة الضخمة ، وفى ذلك الوقت ، يتوقف الجميع عن العمل ويتحولون لصيد السمك.

كان "إدواردز" مازال يقيم لدى " آل ريموند" عندما جاء السردين قرب نهاية يونيو فى يوم جميل ، ولكن ، مثل معظم الأمور الجميلة ، لم يبق هذا اليوم جميلاً للنهاية ، فقد وقع حدث كبير فى تلك الفترة ، لم تكن ثمة سحب أو أمواج ، ولم يكن ثمة ريح ، الجو حار تمامًا، وساكن ، والبحر يتماوج بكسلٍ شديد حتى خُيل لنا أن المد والجزر توقفا ، وصار نادرًا ما يضطرب الماء عند حافته ، كانت السماء فى الأفق بلون أزرق أشد دكنة من ماء البحر ، وقت الغداء ، جلب مساعد المطبخ إشاعة اقتراب وصول السردين ، ساد جو غير عادى من التوتر والإثارة فى التو، مثلما يحدث غالبًا قبل وقوع بعض الأحداث الطبيعية ، وبدا الثلاثة كأنهم فقدوا شهيتهم ، بعدئذ ، اشتدت الرياح قليلاً ، ولم يعد البحر ساكناً تمامًا ، لكن هذا كان حاله المألوف عند كل أصيل .

حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، شوهدت بعض البقع الداكنة ترتفع وتنخفض مع الأمواج ، اضطربت المياه حول تلك البقع و حومت الطيور فوقها، بعد برهة سمعوا أصواتاً آتية من جهة الشاطىء ونزل الجميع

مسلحين بصنارات الصيد والشباك والسلال ، وقد سبقهم الخدم إلى الشاطئ.

الرمال التى كانت مهجورة معظم الوقت ، أصبحت الآن تعج بكل نوعيات البشر ، رجالاً ، ونساءً ، وأطفالاً ، من كل الألوان والأعمار ، وعن اليمين واليسار، ارتفعت مئات الصنانير فى الهواء ، الجميع كان يشخص ببصره تجاه البحر، قرب الشاطىء إلى الرقع السوداء ، التى كانت أفواجاًهائلة من السردين ، راحت تنتشر وتنتشر ، وكلما اقتربت أصبحت أكثر ضخامة ، كان يمكن للمرء أن يرى بوضوح لمعان الزعانف المثلثة ، والذيول المقوسة للأسماك الأكبر التى كانت تسبح بجنون حول فريستها، كانت معظم الطيور التى تحوم من النوارس والأطيش ، مثل ثلج أبيض فى "عز" شمس الظهيرة ؛ كانت الطيور تنزل منقضة مثل القذائف ، دقيقة أو اثنتان ، ثم ترتفع "بُنيَّة" ومبللة من الأمواج ، وسمكة عالقة بالمنقار، المد، التيار، المطاردون ، التحالف الغامض بين القدر والطبيعة ، ساقوا جميعهم وبشكل تدريجى أعداداً لا تحصى من الضحايا تجاه الشاطىء ، حيث تحولت الإثارة إلى نشوة ، فى آخر الأمر ساقت موجة أول فوج إلى الشاطىء ، وعند تراجعها ، تركت بعض الأسماك الفضية المتخبطة على الرمال المبللة ، فوراً ، جرت حركة مفاجئة بين الناس، واندفعت فى اللحظة التالية سيدة هندية عجوز ، فى "جونلتها" الأرجوانية إلى المياه مع سلتها ، وفى ذات اللحظة ، وصل السردين ، يشعر المرء بأن ثمة عدالة شاعرية فى حقيقة أن لا أحد كان يهتم بأمر هذا السردين ، فالسردين له ما يكفيه من الأعداء بالفعل ، لقد كان الصياد العجوز فى

قلب كل إنسان وراء لعبة أكبر، فالسمك الكبير الذى يلاحق السردين ، هو ما سعى كل صياد للحصول عليه.

بلغت الإثارة ذروتها ، كان هذا يوم الجنون والصخب فى السنة، ليس فقط لأن السردين جُن خوفًا ـ أو أيًا كان ما يقابل هذا الشعور ـ من مطارديه ، بل تملك السردين خوف آخر ، خوف أن يساق بعيدًا عن بيئته.

أما فيما يتعلق بالغنيمة الهائلة من الأسماك الكبيرة ، فإن حمى المطاردة فى البحر ساقتها فى نوبة سعار شديد إلى الشاطىء بغض النظر عن أى عواقب تنتظرها هناك ، حتى أن الكثير منها كانت مدفوعة دفعاً بكل طاقاتها ، وقوة الأمواج إلى الشاطىء ، حيث حفرت زعانفها اللامعة ، وذيولها الصلبة أخدودًا فى الرمل الناعم المبلل ، مثل الأخاديد التى تتركها بطون الزوارق حين تجرى مرتطمة بالأرض فى الضباب ، حتى تلك اللحظة ، فإن عداء الأسماك الطبيعى للإنسان كان خاملاً ، ولو كانت الأسماك قادرة على استيعاب هذه الكراهية لكانت اعتبرت الإنسان عدوها بلا شك ، ثقل الجو بالأجنحة وصيحات الطيور، لكن الطيور حافظت على ارتفاع معين بينها وبين الأسماك .

كان أكثر ما يلفت النظر فى كل هذا ، هو سلوك الناس ، كان سلوكاً مختلطًا ومتنوعًا جدًا ، هنود ، و"موريشيسيون" ، يعملون بمعمل تكرير السكر الموجود على بُعد بضعة أميال ، الزولو من "كرال" و"كيتشن" ، فقراء البيض ؛ والمختالون بأنفسهم بعض الشىء ، كالمهندس الإسكتلندى من المعمل، وبنطلونه الآن مطوى حتى ركبتيه ، وواحد أو اثنان من نوعية آل "ريموند" ، ومجموعة منتقاة من الأشخاص غريبى

الأطوار الذين اعتادوا العيش فى هذه الأنحاء ، مختبئين هنا وهناك فى بيوت صغيرة عند نهاية الدغل بطول الشاطىء ، كانت هناك أيضاً ، المرأة النحيلة ، النباتية ، التى تسكن بمفردها وتعول نفسها من عمل لوحات الألوان المائية ؛ وبحار نرويجى يعيش بين الشمس والبحر لابسًا شورتًا كاكيًا فقط ، وقد صار لون جذعه المغطى بشعر ذهبى ناعم ، فى لون خشب الورد ؛ وأسرة من اللاجئين الروس: أب كهل لا يبرح منزله أبدًا ، وابنته التى تعمل فى "دن سبورت" ، وابنه الشاب ، اعتادت السيدة "ريموند" و"إدواردز" إطلاق النكات على هذه الأسرة ، خاصة الابن ، وهو شاب طويل ، مهذب ، بعيون بريئة ملفتة ، بالفعل ، كانا قد أطلقا عليه تدليلاً اسم "طفل الدغل" ، نسبة إلى "جلاجو" ، مخلوق الغابات الغريب ، ذلك المخلوق ذو العيون الواسعة ، "طفل الدغل" هذا ، مثله مثل أى امرئ آخر فى الجوار ، الذين كانوا معروفين لهم بالشكل أو بالسمعة ، كان على الشاطئ فى هذا اليوم عندما جاء السردين . . .

تركت الإثارة ، فى ذلك الحين ، تأثيراً غير عادى على أذهان كل هؤلاء البشر ، تأثيراً بعنف وسحر التأثير على الأسماك ، وحّد هذا الحدث بين الناس الذين كانت الفوارق قائمة بينهم طوال الوقت : فوارق عرقية ، مالية ، طائفية ، طبقية ، امتيازات ، اللغة ، الغرور ، الخوف ، وما يفوق كل هذه الفوارق ، فارق اللون ، الهنود والوطنيون يتبادلون الاحتقار فيما بينهم ، "الملونون" ينظرون بازدراء لجيرانهم السود ، البيض ومن يقاربهم فى اللون ينظرون بازدراء للجميع ، بسبب ذلك ، ولسوء الظن المتبادل بين الجميع ، انقسموا طوال الوقت ، أما الآن ، وبشكل مذهل ، صاروا كلهم فى مستوى واحد تمامًا ، مثل الأعداء عندما يتحدون أمام الخوف

والخطر المشترك ، سوف يوحدهم شيء ما، شيء يثير عاطفة تشبه الخوف البدائى ، أو تشبه ، وعداً بامتلاك شيء بلا مقابل ، فى هذه الحالة ، لمسة الطبيعة القوية جعلت من الناس المختلفين عشيرة واحدة .

امتزجت أصوات المياه المتساقطة و"طرطشاتها" ، بصيحات الطيور والأطفال ، وسُمع هسيس أسلاك الصنارات الملقاة وأزيز لف البكرات ، هنا وهناك كانت تُصاد سمكة كبيرة ، ورؤية قضبان الصنانير المعدنية منحنية انحناءً مضاعفًا ، تكاد تنكسر فى أية لحظة ، مهتزة اهتزازات عنيفة متقطعة دون توقف ، كأن موتور دراجة بخارية معلق عند نهاية الخطاف المعقوف وليس سمكة ، باستثناء حال البحار النرويجى العجوز ، كان مستحيلاً تقريبًا بالنسبة لفرد أن يسيطر على سمكة واحدة ؛ فكل صنارة علقت بها سمكة اختص بها صيادان على الأقل ، وكان ممكنًا رؤية هندى أو زولو ، أو أبيض أو مهجن وقد اتحدوا جميعًا فى عمل مشترك ـ وإنه لمشهد نادر حقًّا فى "جنوب إفريقيا المتحدة" ! .

لم يمض وقت طويل حتى قالت السيدة "ريموند" لـ "إدواردز" : "أوه ، تشارلز ، انظر ، ها هو ذا طفل الدغل الروسى ! لقد صاد سمكة!"

ها هو ذا ، شاب أشقر تحت العشرين بقليل ، يرتدى "شورتا" وقميصًا مفتوحًا ، نحيف إلى حد ما ، بعيون واسعة لامرئٍ عرف ، وهو صغير جداً، معنى الجوع ، وشاهد الموت عن قرب فى وقت مبكر، كان يتمايل بشدة على الرمل ، وبدا كأنه يؤدى بعض الرقصات البربرية، أحكم شد كل عضلة فى جسمه ليمنع نفسه من أن يُسحب داخل البحر، ولكى يُبقى على الصنارة رأسية التى تقوست على شكل حرف " د " وراحت

تتطوح فى يده ، مثل شجيرة فى إعصار تقاوم الانفلات من يده أو الانكسار والخادم الذى جاء معه كان يمسك به من الخلف ، وولدان أو ثلاثة هرعوا لمد يد المساعدة عند الضرورة ، كان الانطباع برمته ، أنه بدلاً من أن يناوروا السمكة ، كانت هى التى تتلاعب بهم جميعًا.

كانت السيدة "ريموند" مفتونة بما يجرى ، لم تكن عيناها تتحولان إلى أى شىء آخر ، كان زوجها مشغولاً على مسافة منها ، وبدا واضحًا أنه لم يصطد شيئًا بعد ، أما "إدواردز" فقد اصطاد فعلاً سمكة مناسبة الحجم، وسلم صنارته لمساعد المطبخ ، ولم تلق السيدة "ريموند" بالاً لأى منهما ، ولا حتى عندما صاد الأطفال سمكة ضخمة من سمك المسلمين بأيديهم فقط ، وسحبوها وهى تتخبط فى الماء ، فقد كان انتباهها منصرفًا كلية.

الشاب الروسى ، أو بالأحرى ، سمكة الشاب الروسى ، تحركت تدريجيا جهة اليسار، بعيدًا عن المشهد الرئيسى للحدث ، وتحركت السيدة "ريموند" معها أيضًا، لم يفهم "إدواردز" ما الذى يثير فضولها إلى هذا الحد ؟ ! أحس بالمشهد كأن اثنتى عشرة مشادة غير عادية ، تجرى فى وقت واحد.

الأحداث الهامة فى الحياة غالبًا تأتى فجأة وعلى غير توقع ، حتى أنها تترك الإنسان مشدوهًا مبهور الأنفاس ، فإذا حدثت لإنسان آخر، ويكون المرء متفرجًا فقط ، فإن الأمر غالبًا يصعب فهمه على المتفرج ، فضلاً عن توصيله أو الوصول لمعرفة سببه الحقيقى ، أو تفاصيله وعواقبه.

كل ما كـان يعرفه "إدواردز" أنه أحس بشـعور أكيـد بأن شيئًـا هامًا سوف يقع ، وأن ذلك الشـيء لن يقع له هو ، على يسار الشـاطئ وقفت صخور مفلولة ، وقد راح الروسى يقتـرب منها، وظل مساعدوه يحذرونه بانفعال كى يحاول تجنبها ، والسمكة فى حالة وحشية أو ربما كانت حكيمة ، فـقـد غطست متـعـمدة فى ذات الاتجـاه ناحيـة الصـخور ، وبين ألفـينة والأخـرى ، كانت ترتفع خـارجة من الماء ، وفى الضـوء الأخيـر بدت، لخيـال المشاهدين الخصب ، كبـيرة فى حجم دولفين ، فى اللحظة التـالية وثب الشاب الروسى على صخرة مرتفعـة ، ووقف على بقعة متقلقلة تمامًا ، فبدا كـأنه سيقع ، لكنه تشبث بمكانه ، وتوقع "إدواردز" أن تقـول السيدة "ريموند" : " أليس جريئـا"؟! لكنها كانت بعـيدة بانتباههـا عن أى كلام. ألقى "إدواردز" نظرة خاطفـة للوراء ليرى مقـدار المسافة التى بينهـما وبين الحشد، وإذ ذاك سمعها تطلق فجأة صرخة قصيرة بصوت مثير للمشاعر ، بدا له كأنه خارج من قلبها مباشـرة، وعندما استدار بسرعة، شاهد الشاب الروسى وقد اختفى ، جـرت مسرعة للأمام، يغوص كعبـا حذائها العالى فى الرمال ، و"إدواردز" يتبعها.

عندما وصلا إلى مكان الصخـرة، كان الشاب الروسى قد رُفع من الماء ، سقط شعره المبتل على وجهـه ، ونزفت ساقه بشكل رهيب ، وبمعجزة ، لم تنكسر الصنارة ، ولم تُفقد مع التيـار ، فقد سبح هندى نحيل قوى فى نفس اللحظة ثم وقف فى الماء حتى خـصره ، ورفع الصنارة بكل قوته إلى أعلى ، وضغط عقبهـا الغليظ فى جنبه ، الشاب الروسى ، "طفل الدغل" ، فقد وعـيه من النزيف ، ولحسن الحظ ، فإن كـلا من "إدواردز" والسيدة "ريموند" كانا يعرفان ،ما يجب عليهما فـعله ، كانا قد قاما ببعض أعمال التمـريض أثناء الحرب العالميـة ، عندما كُبح تدفـق الدم بالرباط الضاغط،

حُمل الشاب إلى البيت، وأُرقد، بناء على أوامر السيدة "ريموند"، فى فراشها ، تلفتت مرة باحثة عن زوجها، لكنه كان قد رحل قبل وقوع الحادث، ولم يعرف بما جرى إلا بعد رجوعه إلى البيت.

قالت وهى تلتفت ناحية "إدواردز": " أتحضر الطبيب يا "تشارلز" ؟ أفضل ذهابك أنت وليس أحد الخدم . "

ذهب "إدواردز" ، متجهًا لمكان الطبيب ، وكان ذلك يعنى رحلة طويلة مخترقًا عشش السود ، بل لن يتمكن من العودة معه قبل العاشرة ، كل ذلك تغير الآن ، فلديهم تليفون وسيارة وهلم جرا، ظهر أن السكين التى يقطع بها الطعم هى سبب الجرح، فقد كانت تلبس عادة حول الوسط عادة دون "جراب" ، ووجد أيضًا كسرًا بسيطًا بالقدم من أثر السقطة ، النتيجة ، تقرر ضرورة بقاء المريض فى مكانه حيث هو ، وقد بقى بالفعل ، يجدر القول أن السمكة التى أكمل الهندى اصطيادها ، كانت من نوع السمك "الوثاب" ، طولها يزيد على خمسة أقدام ، بهيئة ولون الطوربيد، قبل تقطيع السمكة ، صور "إدواردز" المريض والهندى مع الجثة الرائعة للضحية ، ملأ ذلك السيدة "ريموند" ابتهاجاً.

قالت لمن حظى برعايتها: "أنت - فعلاً - من أمسكت بها. "

فى غضون ذلك ، استمر "إدواردز" فى عمله كالمعتاد ، وذهب السيد "ريموند" كل يوم لرؤية والد المريض العجوز يحمل إليه أخبار تحسن الشاب ، مثل كل الروس ، كان الوالد متحدثاً عظيمًا ، ومثل كل اللاجئين الروس ، صور حاله ليبدو كأنه على علاقة ما بالبلاط ، على أية حال، نشأت علاقة صداقة هادئة بينه وبين السيد "ريموند" ، الذى كانت

زياراته لمعارفه الجـدد تزداد نمواً كل يوم ، وهكذا، أصبحت علاقـة السيدة "ريموند" بمريضها أقرب مما كانت ستكون عليه فى وضع مختلف .

التغير الذى طرأ عليـها خلال الأيام التالية كان لافـتًا للنظر ، ما كان لديها من ضجر راح يتلاشى ، وبدت أصغر عن عمرها بعشر سنين ، كانت تصمت أحياناً لبضع دقائق ، على غير طبيعتها، وعندما تشرع فى الحديث ، فإن حديثها يدور حول "بوريس" : تقدمه فى الشفاء ، وما حكاه لها عن حيـاته السابقـة، وما قاله عن هذا أو ذاك ، أو عن الآخـرين ، فى بعض الأحيان كـانت تشبه أمًّا تتـباهى بمهارة ابنها، ولن تكون هناك مـبالغة عند القول بأنها فى أحيـان أخرى كانت تبدو مثل شابة تطرى حبيـبها بحياء ، عندما أصبح "بوريس" قادرًا على النهوض من الفـراش والعرج باستخدام عكازين ، كانت فى غاية السعادة حتى إنه لم يكن مستغرباً سماع صيحتها : "انظر ، يمكنه المشى !" كانت سعادتهـا غاية فى الوضوح ، إلا أنها كانت تنزع إلى الفظاظة مع زوجها ، بل إلى إهماله ، أو هكذا تصور "إدواردز" ، الذى راح يراقب السيد "ريموند" عن كثب ليـتعرف على وقع ذلك عليه ، لكن ذلك الرجل المعتدل المزاج ظل على حاله دائمًا .

وفى ذات يوم كان ماشيًا حـافى القدمين فى الشرفة، تصادف أن نظر من النافذة، فـرأى "بوريس" يقبل السيـدة "ريموند" . بعد أن تغلب على المفاجـأة ـ رغم أن الأمر لم يكـن مفاجـأة بالمرة ـ تساءل : ألن يـكون غرًّا وأحمق ، إذا اضطر لـلفت انتباه السـيد "ريموند" لما كـان يجرى ؟ إلا أنه لحسن الحظ كان لديه ما يكفى من حـسن التقدير كى يمسك عن الكلام ولا يتفوه بشىء .

سرعـان ما تخلى " بوريس " عن عكاكيـزه واستعاض عنهـا بعصى المشى ، اعتـاد هو والسيـدة "ريموند" الذهاب معًـا سيرًا عـلى الأقدام فى نزهات قصيرة ، بل قصيرة جدًا، لأنهما كثيرًا ما كانا ينزلان للحديقة ، ثم يعبران خـط السكة الحديدية ، ويسلكان الدرب عبر الدغل ، ثـم يقصدان مجموعات الصخور على الشاطئ ، ويجلسان مستترين بها لساعات طويلة فى كل مرة .

عندما تحـسنت حالة "بوريس" ثانيـة ، عرف أنه بدلاً من ذهابه إلى كـوخ والده على السـاحل، سـوف يذهب للالتـحـاق بوظيـفـة فى "دن سبـورت" ، قبل يومين من سـفره، تصادف مـرور "إدواردز" خلال درب النباتات الهادئ، بين السكة الحديدية والسـاحل، وخاض مجهدًا فى الرمل الكثيف الجـاف، فلم يستطع تجنـب استراق السـمع للأصوات القـادمة فى اتجاهه.

قال "بوريس" ، بلكنته الأجنبية الجذابة: " إذن تعرفين استحالة هذا فعلاً . . . "

ردت السيدة "ريموند" ، وقـد تغير صوتها مـن الانفعال الداخلى : " لكننى لن أنسى أبدًا. "

راح "إدواردز" يتنحنح، وعندمـا صار وجهـاً لوجه مـعهـما، أبدى بعض الملاحظات عن حال الطقس ، ومثلما ضاعت ملاحظته أدراج الرياح ، كذلك كانت العلاقة .

رحل بوريس من فـوره، ولأسبـوع أو أسـبوعين، كـان واضحًـا أن السيدة "ريموند" تفتقده بشكل مـوجع ، فى الواقع إنها كانت تحاول إخفاء تلك الحقيقـة، فكانت تذكر افتقادها عرضاً أكـثر من مرة ، حتى تظاهرت بالمزاح فى هذا الأمر، والقول بأنها عادت لطبيعـتها مرة أخرى ليس دقيقاً.

وعندما كانت تحاول تكييف نفسها بقدر ما تستطيع مع غياب بوريس، كان يبدو عليها أنها فقدت ضجرها السابق، وعلى نقيض حماسها الجديد، ظهر سنها الحقيقى على نحو واضح.

خلال بضعة أسابيع كان يبدو كأنها قد تصالحت مع فارق السن بينها وبين زوجها، وحل سلام جديد مؤكدًا نفسه فى علاقتهما، وثقة متبادلة ذات يوم فى أثناء جولة على الشاطئ، التفت السيد "ريموند" إلى "إدواردز" وبدا أنه يحاول الحديث، لكن كان واضحاً أن الكلام يشق عليه، فهو لم يكن كثير الكلام فى أى وقت، وغير معتاد على التعبير عن مشاعره الحميمة.

قال: "أوه، "تشارلز"، أريد أن أفسر لك شيئًا قد لا تستطيع فهمه تماماً."

"نعم؟"

قال "ريموند"، وهو ينظر ناحية البحر: "عن زوجتى، وبوريس"

"نعم"

"لماذا تقول "نعم" بمثل هذه الطريقة؟ أفترض أن لك أفكارك ... أظن أنك تتساءل لماذا لم أفعل شيئًا حيال ذلك الأمر؟! هذا بالضبط ما أردت تفسيره لك، حسناً، أنت تعرف أحوالنا، ليس لنا أطفال، ولا نلتقى بكثير من الناس هنا، بالطبع أنا لا أهتم بذلك، لكن بالنسبة لزوجتى، للمرأة، أنت تعرف، فهذا أمر ليس مريحًا، أحيانًا كنت أحس شعورها بالوحدة والانعزال، حسنًا، وهى بالطبع غير معتادة على حياة الريف

مثلى ، عرفت كيف يكون ذلك بعـد ، بعد مجىء السردين ، هذا الشاب أصبح بالنسبة لها كل شىء كان الابن والصديق والحبيب كلهم اجتمعوا فى شخص واحد ، حسنًا ، أنا لست رجلاً غيورًا، إلا أننى لا أستطيع القول: إنى أحببت هذا الأمـر برمته ، لكنك تعرف ، إذا كـان ثمة شىء لم أقدر على تحمله ، فهو أن أشعر بأن زوجتــى لم تكن سعيدة ، اعتقدت أنه من الأفضل أن أدع الأمور تأخذ مجراها ، كنـت متأكدًا من أنه زوجتى سوف تعود للأرض مرة أخرى سلـيمة معافاة ، وقد عـادت . . . الآن أنا متأكد من أنه لا شىء مثل هذا سوف يقع لنا مرةً أخرى ، إننى أجرؤ على القول إنه أمر غير سارٍ أن تشعر المرأة بأنهـا سوف تواجه قريبًا خريف العمر . . . ومن ثم ترى ، النساء غريبات ! سوف تكون غاية فى الضيق إذا ظنت أننى لم أكن أغـار، وإذا عرفت أنـنى كنت أغار فـإن ذلك كـان سيـستفـزها أيضاً. . . آه ، حـسنًا، أنا متأكد من أن كل شىء قـد انتهى الآن . . . لا أعرف لماذا أخـبرك بكل هذا ؟! فيـما عدا أننـى لا أرغب أن تدور بنفسك أفكار خاطئة ، لابد من أن أقول : إن الأمر ما كان ليصبح أسهل إذا كنت غير موجـود بيننا ـ فمثلثات العشـاق تميل لأن يكون لها زوايا حادة ـ على أية حال ، إذا لم تكن موجودًا هنا، كان سيفوتك مجىء السردين . "

قال "إدواردز" : "لم أكن قط أحب أن يفوتنى شىء . "

لقد تاق لمـعرفة كـيف بررت السيـدة "ريموند" تصرفـها بعـد رحيل بوريس ، هل ذرفت دموع الندم ؟ هل اعتُبر كل شىء أمرًا واقعًا ؟ أم ماذا ؟ـ لكنه لم يرغب الخـوض فى ذلك ، عـلاوة على أنه أراد أن يظهـر بمظهـر الفاهم ، كرجل ذى حنكة ، فشارك بـالصمت ، على أية حال ، كانا قد

وصلا قرب البيت ، وراحت السيدة "ريموند" تلوح لهما من عند مائدة الشاى الموضوعة فى الشرفة .

عندما غادر "إدواردز" الساحل الجنوبى سرعان ما انشغل بشئونه الخاصة ، لكنه كلما تذكر آل "ريموند " كان يلازمه صوت المرأة قائلة : "لن أنسى أبدًا . . . " وتعاوده صورتها وهى تسرع ، وكعبا حذائها العاليان يغوصان فى الرمال عند كل خطوة تخطوها، فى اتجاه آخر عاطفة فى حياتها.

موت ماسابا

تأليف : ر. ر. ر. دلومو

"يا زملاء ، ما رأيكم فى موضوع "ماسابا" ؟"

"حسنًا ، أخبرنا بما حدث"

"الولد يحتضر. وقد سمعت من "ستيملا" مساعد الريس ، أن ماسابا أصيب بالإغماء مرتين فى المنجم اليوم ، جرى إلى رئيس العمال "توم" ، الذى لم يرغب حتى فى الاستماع إليه ، وقال : " اغرب عن وجهى ، هناك الكثير من الصبية السود فى العشش "

" لكن، لماذا أغمى على ماسابا فى المنجم ؟"

"حسناً. . . اعتقد أن هناك "غلطة" فى بطاقته التى لم تختم لمدة عشرة أيام من العمل تحت الأرض"

ضحك الآخرون ، عندما سمعوا كلمة "غلطة".

تصايحوا: "خلّصْ ، ليس هناك أى غلط ! فنحن الصبية الأكبر سنًا نعرف تمامًا أن "ماسابا" إذا كان رجلاً أبيض ، فلن يكون ثمة "غلطة" فى بطاقته ، ألم يقل الريس توم إن هناك الكثير من الكافير فى عشش السود ؟! إذا مات واحد ، وهو يقصد "ماسابا" ، فإن الحكومة سوف تأتى بكثيرين

غيره ، ألم يقل ذلك حين أخبره ستيمـلا أن ماسابا مغمى عليه ، وأنه غير قادر على القيام بالتكسير! "

بقوا صامتين ، وكل مشغول بأفكاره.

كـان هذا الموضوع ينهش قلوبـهم ، هؤلاء الرجال ـ الخـمسـة الذين تحلقوا حول راكية النار المتوهجـة ـ كانوا قد تركوا قراهم وذهبوا إلى مناجم الفحم مجـبرين على ذلك من الجوع والفاقة، تركوا بيـوتهم وهم مدركون للحوادث المرعبة التى تحـدث تحت أسطح المناجم ، وكان أملهم الوحيد ، أن الناس البـيض الحكمـاء دائـمًا ، سـيكـونون منصـفين لهم ، وسـوف يعـاملونهم بطريقة حـسنة : أى يحـمونهم من مـخاطر وأخطار مـا تحت الأرض ، ويعاملونهم كـبشر لهم مـشاعر مـثلهم على الرغم من جلودهم السوداء .

كان مـوقع العمل المخـصص لهم منخفـضًا عن سطح الأرض حـتى عمق الطبقـة الثامنة عشـرة ، وكانت الحرارة عند هذا المسـتوى رهيبـة ؛ حرارة شديدة لدرجـة أن الصبية غـير المؤهلين لهذا العـمل كانوا عرضـة للإصابة بضـربة حرارة ، يمتـد خلفـهم ممر رأسى غـائر واسع ، موحش ، يهـدد حياتهم ، بـينما فى المقدمة صخـرة مسلولة ترتفع فوقهـم وتصدر صريرًا، ومن شراستها تلوث الوجوه بوحل يقتر نقاط ماء قذر سام.

تحت كل هذه الظـروف المهلكة مع الموت الذى يطـل من كل مكان، ووجود الـريس "تـوم" ينخسـهم كأنه روح انتـقام تسـعى وراءهم ، هنا كانت أجسـادهم النصف عارية منحية باستمـرار على المجارف والرفوش ، وحتى الأيدى العجوز المدربة على تكسير الحـجارة ، كانت تخون أصحابها من شدة الحرارة وعض الجـوع ، كأن هذا قدرهم اليومى فـى الحياة ، هذا

القــدر الذى لا يفكرون فيــه أبداً، لأن لديهم ثقــة مطلقة بســادتهم ، لكن اليوم، عندما رأوا ماسابا ضحية الإهمال واللامبالاة القاسية، أجل ماسابا، زمــيلهم الصبى الريــفى - الذى لا يفتــرض حتــى أن يعمل مع جــماعــة التكســير، دمــيت قلوبهم ، الحادثة الأولى وقــعت عندما كــانوا يجــرفون بجنون، فجأة سقط "ماسابا" . . . وأغمى عليه.

"ستــيملا" ، رئيس الصــبيـــة ، جـــرى لإخــبار الريس "تــوم" : "يا ريس ، الولد مــاســابا أغمى عليــه ، إنه غــير قــادر على العــمل فى التجريف. "

اندهش الريس تــوم جداً عــندما سمع أن كافــيراً غيــر قادر على أداء العمل الوحيد الذى خلق له ، وهو العمل بالجــاروف ، وقال "لستيملا" : "ماذا! ماسابا غير قادر على العــمل ؟! هل الكافير الملعون . . . غير قادر على التجريف ؟!"

رد ستيملا : "سيدى ، لكنه أصيب بالإغماء بمجرد أن . . . ، أظن أنه لم يعتد على ذلك العمل بعد "

"أوه، "ستيملا" ، ارفسه"

كان "ستيملا" أحد رؤساء الصبية الطيبين ، اختفى من أمام " تــوم " ، وبدلاً من إيقاظ ماسابا برفســة تبعاً للأوامر ، ذهب إليه وقــال له : " قم يا بنى ، وحــاول العــمل ، سوف يضــربك الريس "تــوم" ، يقــول إنك تضيع الوقت بالتهرب من العمل"

ذهب "ماسابا" المسكين وألقى بنفسه على قدمىّ سيده.

"يا ريس ، إننى لم أعتد العمل فى التجريف بعد ، سيدى ، لقد تعبت جداً ، ورأسى آلمتنى جداً جداً ، وقد غامت عيناى عندما انحنيت للتجريف ، أتوسل إليك يا سيدى، يا ريسى الفاضل الطيب ، يا والدى ، اعطنى عملاً آخر إلى أن أعتاد على العمل فى التجريف ، سيدى سوف أعمل جيداً ، سوف أعمل أى شئ من أجلك. يا ريس!! ، أرجوك . . إن العمل هذا يقتلنى"

وانفجر فى البكاء ، بينما زملاؤه العمال يهمهمون من بين أنفاسهم المنذرة بالشر.

إنه أمر صعب وشاق على صبى ورئيسه أن يتوصلا لتفاهم سريع فى المنجم ، تحت الأرض ، هناك تختلف لغتهم عن لغتنا ، ويتألف خطابهم من تلك الكلمات العارية المكشوفة المثيرة للاشمئزاز ، التى يخجل منها أمير الظلام نفسه ، مازال العمال يهمهمون فيما بينهم ، قالوا : " ماسابا ، هل بطاقتك مختومة ؟ "

راح ينشج وهو يقول : " لا أعرف ، هذه أول مرة أعمل فى المنجم ، لقد بدأت العمل أمس"

زعق السيد " توم" وهو يتقدم ناحيتهم : " هاى . . ماذا يجرى هناك؟ ماسابا ، إذا ضبطتك تتكلم مرة أخرى ، سوف أريك الجحيم"!!

صاح "ستيملا" بصوت متوتر : "سيدى!! ، إنه يحتضر"

عندئذ ، نطق رئيس العمال "توم" بكلمات تبدو بريئة فى اعتقاده ، لكنها فى أذهان السكان الوطنيين مليئة بالمعانى اللعينة ، رئيس العمال الأحمق الذى لا يعرف طريقة تفكير العمال الوطنيين قال : " هناك الكثير من الكافير فى العشش . "

لم يتحــمل الرجال هذه الكلمات ، وانحنوا أكـثر على مجـارفهم ، لكن صيحة حادة أوقفت عــملهم ، صيحة تمزق نياط القلب ، على إثرها سقط "ماسابا" سقطة أحدثت صوتاً مكتومًا ، وراح يتخبط رأسه فى قطعة صخر مســننة فى الحفيرة ، بسرعة حُــمل إلى السطح ، ومن هناك أسرعوا به إلى المستشفى ، اكتأب زملاؤه القرويون عندما سمعوا بحالته الخطيرة.

"إلهنا ، نرجــوك إنقاذ "مــاسابــا" ، لأجل "خاطر" أمــه المسكينة. سوف تكون وحدها بالحياة."

فى اليوم التــالى، بينما كانوا يغـيرون ملابسهم المبـتلة، دخل حارس المنجم إلى حــجرتهم: " يا جمــاعة، قــال لى المدير : إنه لابد من أن آتى وأخبركم بموت "ماسابا"."

عندما أجرى تحقيقاً حــول موت "ماسابا" أدين رئيس العمال "توم" ، فهو المسئول عن "ترك ولد جـديد يعمل فى التجريف تحت الأرض قبل أن يضعه أولاً فى عمل خفيف ، مثلما هى القــاعدة المتبعة مع الصبية الجدد، وتسبب بإهماله ولامبالاته فى موت "ماسابا""

"يا زملائى ، إننى أقــول لو أن "ماســابا" مات موتًا طبــيعيًــا ، فإن ذلك لم يكن ليــغضــبنى ، لكننى أعتــبره قــتل ، ذلك لأن بــطاقته كــانت مختومة : " لا يوظف فى التكسير"

" أووه – هوه ، ألم تسمع أن الريس " تــوم" قـــال "لستيملا" : " إن هناك الكثيــر من الكافير فى العشش ؟ " أووه ! أووه ! ألا تــعرفون القوم البيض ! ومضوا لحفر قبر "ماسابا".

المستوحش

تأليف : بيتر إبراهامز

كنت قد وصلت توًا إلى "كيب تاون" ، عندما اكتشفتها ، جرى ذلك بسرعة كبيرة ، أتعرفين، كنت سعيدًا وأنا ماضٍ فى طريقى ، إلى أن وصلت إلى تلك البقعة . كانت بقعة غريبة ، ومنذ ذلك الحين وأنا أتساءل لماذا كان يجب أن يتوقف القطار هناك؟ أتعرفون، فيما بعد ، كان لها تأثير كبير جدًا علىّ ، فلم أستطع النوم لليالٍ ، وكنت أواصل التفكير فيها.

عندما تأملت الأمر، رأيت كل شىء مرة أخرى . بعض المنازل على جانبى خط السكك الحديدية ، عندما مر القطار . . موغلاً فى وادٍ ، بانت الأرض خضراء ، جميلة وخضراء ، وأصابع صغيرة من الحشائش انبسطت وامتدت لتلمس الشمس ، تماماً مثل البشر عندما يمدون أيديهم ليلمسوا شيئاً لا يعرفونه . ومن الغريب حقًا أن الناس يريدون الأشياء التى لا يعرفونها ، لكن هذا ما يجعل الحياة جديرة بأن تُعاش . . . أكره الفلاسفة أحياناً ، وأعرف أن أصدقائى سوف يقولون : " أوه ، لا تقل ! ألا تعرف أنها جريمة ؟! " لكننى أحب الجرائم أحياناً ، ذلك النوع من الجريمة ، إنها لجريمة أن تعرف كثيراً ، وأن تفهم كثيراً ، مثل الفلاسفة .

ما أعنيه ، أن الطبيب الذى يساعد امرأة على الولادة إنما يؤدى عملاً ، مجـرد عمل ، فـإذا ما كان طـبيبًـا حديث التـخرج ، فإن لـلأمر بعض الإثارة، لكنه يبقى مجرد عمل . . . أمـا الولادة بالنسبة لى ولكِ فهى أمر مخـتلف جداً . إنها الأرض ، أجـيال من الأرض ، الأرض السـرمدية . تتفجر بلين وبطء . تظهر ثم تتـفتت ، أتعرفين ، مثل كرة من الطين المبلل ، تتفسخ ؟ تنظر داخلها ، فلا ترى شيئاً . ومع ذلك ، جميل أن تنظر إليها ، رغم أنك لا ترى شـيئًا . . . ذلك مـا يفتـقده الفلاسـفة ، ولهـذا السبب أكرههم أحياناً.

الوادى قاتم بدون الشمس ، كـان ذلك فى الصباح الباكـر ، أحضر الساقى قدح القـهوة الذى كان بلون الماء الموحل ، أتعرفين ، كنت مـسافراً فى عربة الملونين ، وهى بعيدة جداً عن عـربة المطعم ؟ لذلك كانت القهوة موحلة وباردة . . . لكننى شربت أشياء أسوأ من ذلك فى حياتى ، وكانت على ما يرام ، لم أوبخه على مطالبته لى بـ "تيكيه"٣ ب عن قدح القهوة البارد الموحل ، بل قلت : " أشكرك " ، بتهـذب شديد ، وابتسمت له، أما هو فنظر إلىّ فـحسب ، وأخـذ "التيكيه" ، وأنصـرف. حتى ذلك لم أوبخه عليه . أتعرفون ، كان رجـلاً أبيض وأنت كل شىء إذا كنت أبيض ، أسقفاً ، ملكاً ، ساقيًـا ، عاطلاً ، ساعياً فى مكتب . . . ، تكون "ابن الله المختار" ، حتى السيدة "ميلين" تقول ذلك ، فهى تقول : " إننا نحن الملونين أبناء الله غير الأشقيـاء ، " كل الصحف تؤمن على قولها "حقـًا ، حقـاً " ، إذن ماذا أقول؟ حسنا ، لا شىء .

غير أن هذا القدح كـان جميلاً فى هذا المكان الصغـير ، بعد أن أخذ الساقى "التكيه" وانصرف، جلست أغص بالماء الموحل، فلا يجب أن أنظر إليه نظرة متشائمة، حتى لا يثير غيظى النظر إليه ، كانت القهوة فى داخلى

أفضل منها فى خـارجى ، لأن داخلى ليس له عيون، ولذلك لن يرى الماء الموحل ، نظرت من النافذة . . . كان من الأفضل لى أن أنظر لاستراحات موظفى السكك الحديدية التى على الطريق ، فأنا أعرف كيف تبدو مساكن "الوطنيين" ، أعـرفهـا تمامًا دون رؤيتـها ، كـان يجب أن أفحص بيـوت الموظفين، لكننى لم أفـعل. بل رحت أتفحص منازل "العـمال الوطنيين" الذين هم عـمال، أقـول هذا لأن فى هذا البلد عمـال وعمـال وعـمـال، فعمال بالحروف الصغيرة تعنى كل عـمال الطبقة العاملة. وعمال بالحروف المتـوسطة، هم الذين يتلقون الأوامـر من العـمال المكتـوبة بحروف كلهـا كبيرة، ثم يمررونها إلى هؤلاء العمال المـكتوبة بحروف كلها صغيرة، إذن، فهى " عمال ، وعمال وعمـــال " .

إذا ما كنتِ محظوظةً بما يكفى لأن تكون لك نظرة طائر سـقيمة وهو محلق ، سـوفَ تعرفين ما أعنيـه . . . فقط نظرتكِ السريعـة سوف تكون كافيـة، فهـذه المنازل لم تكن بأية حال منازل، نصفَ "دسـتة" مـن قطـع الحديد المعـوج، عمـود ، عادة جذع شـجرة مـتعفنـة ، وبعض الأسلاك الشائكة ، حـبال ، دوبارة ، وألواح خشب عـفن، كل أنواع الخردة . . . ثبت كل هذا جميعاً ، بذلك تكون لديك صورة لهذه المنازل التى رأيتها أنا لكننى لم أصدم مطلقاً. أردت إنعاش ذاكرتى فحسب.

أتعرفين، إنهـا هكذا فى كل مكان فى هذا البلد ، انطلق من "لويس ريتشارد" أو "بيـترس بورج" ، واهبط إلى "كيب تاون" أو "ناتال" ، وإذا لم تكن قد سافرت من قـبل، أسدل ستار النافذة لتغـازل الفتاة التى ركبت عند المحطـة النهـائيـــة ، تلفت حـولـك، وقل: " يا للأشـيـــاء السـوداء المسكينة" ، وألق بـقطعة نقـدية صـغـيـرة عندما ترى أبـناء الوطنيين وهم

يستجـدون على أرصـفة المحطة، ثم اسدل الستار مرة أخـرى . . . فكثيراً ما سوف تقدم على مثل هذه التصـرفات ، إن لم تفعل، سوف ترى الكثير مما يماثلها فـى كل مكان ، سوف ترى القذارة، والموت، والروائـح العفنة، والبؤس، وسوف تتعجب.

إن كل الناس فى هـذا البلد ألِفـوا كل ذلك، الجـميع يفـعلون كل الأمور التى حكيت عنها ، أسدلوا ستائرهم ، غازل الفتاة التى ركبت عند المحطة النهائيـة ، وهمهـم: "يا للأشيـاء السـوداء المسكينـة". ألق بـ "التيكيه" واضحكى وأنتِ تراقبين الحقائب الصغيرة من جلد وعظم وهى تتقاتل عليها.

"يا للأشياء السوداء المسكينة".

هذه جنوب إفـريقـيـا ، أرض الرجل الأبـيض، سُـرقت من الرجل الأسود. إنه يقـول هذا. أنا لم أقل ، أنا لا أقول شـيئًا مـن عندى ، فأنا ليس لى عـقل. يفترض، هنا، أن الـزنوج بلا عقل. وأن العـقل جريمة ، قال لى أصـدقائى مرة أخرى: " لا يجب أن تقـول مثل هذا الكلام. نحن من البـيض، لكننا نحتـرم عقلـك، نعاملك على قـدم المساواة مـعنا، ألا نفعل؟ لا تكن انهزامياً. وسـوف تنصلح الأحوال ، يتعلم البيض، فى هذا البلد، ليعرفوا أن السود متـساوون معهم تماماً. ويجب أن تؤدى دورك فى تعليمهم ، "

نعم ، لكن من أنا ؟ هل أنا رجـل خارق ؟ مـتفـهـم دائمًا ؟ أقـوم بالأعمـال الصحـيحة دائمـا؟ هل يجب أن أكون الشـخص الكامل الواعى دائما ! أنا إنسان ، أيضـا ! أريد أن أعيش حياة معقـولة ومنطقية ، أنا لا

أريد العمل من أجل أمور ربما تأتى وأنا غير موجود على قيد الحياة ، لماذا يجب أن أعمل من أجل عالم جديد رائع قد لا أراه؟ إننى أفكر، أيضًا ، فى أمور الحياة البسيطة.

كانت هذه هى الأشياء التى حدثتها عنها عندما قابلتها فى "كيب تاون" فور وصولى.

كان النظر إليها جميلاً ، أعتقد أننى أحببتها قليلاً ، فى الواقع لم أفعل ، أعتقد ، أن ذلك الحب كان بسبب الوحدة فحسب ، أظن أن الوحشة جعلتنى أتخيل أننى واقع فى حبها - لحد ما - التعاطف الإنسانى، التفهم، وشخص ما أشاطره بعضًا مما يعتمل فى نفسى . . .

ـ لكن، يا رفيق، أنت انهزامى، يجب ألا تفكر فى مثل هذه الأمور، أنت تعرف بوجود رفاقية في الحركة - بقدر ما -

ـ إلى حدٍ ما .

ـ إلى أى حد ؟

مرة أخرى حدثتها عن الأرصفة حيث توقف القطار، وما فعله الساقى، وكيف نظرت إلى أكواخ العمال الوطنيين، وحدثتها عن أصناف العمال الثلاثة.

لم تفهم ، أعرف أنها تحسبنى مجنونًا بعض الشىء، وأننى انهزامى، وأننى تخليت عن الحركة : آه ، شىء غريب! حسنًا ، إنها الحقيقة ، الحركة، الناس التى تعيش فى أكشاك ، الناس تستجدى الرزق.

شعور المثقفين الصغار العقيم.

إنهم لا يفقهون ، وقالوا: "يا رفيق، لا تقل هذا الكلام ، تلك انهزامية. "

ما معنى الانهزامية بالنسبة لى، بينما أنا أشعر بالوحشة ؟ لِمَ أهتم بأى شىء، فى حين أننى أحتاج رفقة وتعاطفًا إنسانيًا ، وقيل لى إن كل شىء سوف يكون على ما يرام بعد الـ . . .

ماذا عن القليل منه الآن ؟

زنجى له عقل ! زنجى يفكر ! لا . . أنا آسف لأننى "خيبت" أملك ، أخاف التفكير ، سوف أجن إن فكرت ، فالآخرون الذين فقدوا عقولهم كانوا يفكرون بتلك الأمور ، لقد دفعوا بهذه الأمور لوعيى ، حدثتها عن تلك الأمور ، عن قليلٍ من الرفقة ، لا نقاش لأى شىء ، لا إصغاء إلى أننى "كاتب" الحركة الواعد ، ألا يقال لى إنهم يعتقدون أن كتابى سيكون مفيدًا ، لا لكل هذه الأشياء ، لا أريد أن أسمع أن هناك " لقاء جماهيريًا" وأننى لابد من أن أمنح الحشد أفضل ما عندى.

ماذا عن قليل من الدفء ؟ شخص ما احتضنه بين ذراعى ، شخص ما أحبه وأرقد إلى جواره عندما أكون متعبًا ؟

مثقف صغير؟ يكون أفضل إذا كان أحمق صغيراً.

ونحن جالسون على مقهى مخصص لغير الأوربيين ، حيث ذهبنا ليكون كل شىء على ما يرام ، حدثتها عن كل تلك الأشياء .

كنت واقعًا فى حـبها بعض الشىء ، أو بالأحرى ، واقـعًا فى غرام صحبتها ، كان يمكنهـا أن تتفهم أن تمنحنى تعاطفاً ، وبعدئذ تشـدنى إلى " اللقاء الجمـاهيرى" ، لكننى خمنت أنهـا تريد أن تنطلق إلى العرض ، وهكذا تناولنا الشاى بسرعـة بالغة ، فقالت لى مرة أخـرى إن " الحركة " محكوم عليـها بالإخفـاق إذا ما كان القـادة من المثقـفين الصغار مـثلى قد أصبحوا انهزاميين ، فماذا يفعل الرفاق فى البلدان الأخرى ؟!

ـ لديهم على الأقل من يتحـدثون معه ، امرأة تتـفهم ، جنس يمكن الحصول عليه فى الشارع ، لكن الرفاقية هنا مثل دين إله .

توقف القطار عند الوادى الأخضر، قرب الأرصفة . . .

الزرائب المكشوفة التى أنعشت ذاكرتى عن شعبى.

الساقى .

الليالى المنقضـية فى القراءة ، محدثًا نفـسى بصوت عالٍ ، لا لشىء سوى أن أسمع صوتاً ، أى صوت ، وإن كان صوتى ، فقط حتى لا أُجن عند الصباح.

مثقف صغير!

الله والحركة ، يجب فعل شىء.

هل تعرف مـاذا يعنى أن تكون زنجى الجسم؟ إنـسان أدنى ، فى رأى إنسان آخر؟ هذا مـا أسميه الوحـشة ، لكن لا تنس ، أنا لا أفكر ، تلك فضيلة خاصة بالأوروبيين فقط ، أما الزنوج فيزج بهم فى السجون .

تلك البقعة . . . الزنوج الصغار يلتمسون بنسًا . . .

رجل أبيض يغازل الفتاة التى ركبت عند المحطة النهائية.

ساقى ، وماء موحل ، أوه ، يا رب !

كانت تتكلم ، ماذا عن الوضع فى الشمال؟ كيف يجرى العمل؟ . . إلى الجحيم بالعمل والوضع، وكل شىء! كونى رفيقة حياتى! انظرى، أنا وحيد ، أنا لم أحادث إنساناً طوال سنوات ، فإما الكلام عن الحركة أو لا كلام ، أستحلفك بالله، تكلمى عن أى شىء ، أى شىء قديم لعين.

تلك البقعة ، الوادى الأخضر على مقربة من الجبال عند الأرصفة حيث توقف القطار ،

سنوات من الوحشة التامة ،

الحركة ،

امرأة أحادثها ، امرأة ذات عقل يمكنها أن تتحدث معى، بدلاً من، هذيان الصمت.

المسيح ، جسد زنجى ، جسد حيوان ،

عقل إنسان ،

تلك البقعة ، الماء الموحل ، الرب وأجساد زنجبية بعقول زنجية ، لكم تمنيت أن أكون مثلهم!

أحمق وملعون ، التحق بالجامعة .

ليس المتكلم أنا .

- "هل تعرف ما قلت ؟ هل تفهم ؟

إذا كنت لا تفـهم ، لا تخـجل من أن تقول ذلـك ، فالملايين أيضًـا فشلوا فى الفهم .

من الأفضل جدًا قول الحقيقة ، حتى تتمكن من الفهم .

إذا كنت قد فهمت ، فهذا أكثر بكثير مما أصدق!

لا تُخفِ ابتسامة أسفك . "

- أنا أفهم. . .

الوحشة علمتنى . . .

البقعة . .

الرب !

مجئ سيبوليللو للبيت(٣٤)

س . إى . مويكانجو

وقفت "سيبـوليللو" بنت قبيلة "باسوتو"(٣٥) تتأمل الموقف . هناك على أرضـية الكوخ ، كـان يرقد الزوج ، من قـبيلة "الزاهـوسا" (٣٦) ، وسط السائل الذى تقيـأه قبل أن يسقط ، وبعد أن ضربها فى ثـورة غضبه وهو سكران .

راحت تفكر : " لو أعرف أن الحياة الزوجية بهذا الشكل ، لبقيت فى بيت أبى و أمى ، ولسـعدت بأن أُدعى عـانسًا ، بدلاً من أن أعامـل مثل كلب . لم تخبرنى أمى أن الحياة الزوجية علاقة نتنة .

حملت طفلهـا ، ثم وضعتـه على ظهرها وربطت الأحـزمة الجلدية الرافعـة حتى لا ترتخى أثناء انطلاقهـا وهى خارجة مـسرعة ، وجـمعت أشياءها الشخصية فى "صرة" لتحملها فوق رأسها ، قالت : " أبـق هكذا ، كلب عديم القيمـة، أبق متمرغًا فى رائحة ذلك القَـذر الذى تقيأته" ، ثم أسرعت خـارجة من نطاق البـيت ، بعد أن خلفت باب الـبيت وراءها ،

(٣٤) ترجمها الكاتب "مويكانجو" عن لغة "سوتو" الجنوبية .

(٣٥) شعوب "سوتو" ، أرضهم تقع غرب جبال "داركنزبرج" مباشرة ، تعرف الآن باسم "باسوتو لاند" ، ومن مجموعة شعوب سوتو أيضاً ، قبائل بتسواناالاند (. د. محمد عوض – مرجع سابق .)

(٣٦) "الزاهوسا" قبائل فى نفس المنطقة ، ولغتهم تحمل نفس الاسم ، وهى الآن أحد اللغات الرسمية بجمهورية جنوب إفريقيا ، إنترنت ، إفريقيا ، كوم .

راحت تحادث نفسها مرة أخرى كما لو كانت تحادث شخصًا ما: " مازال أبى و أمى يحباننى ، لن يبعدانى عن البيت"

مشت مسرعة بقدر ما أسعفتها قدماها ، وحيدة تماما فى الليل ، كانت بحكم تربيتها خائفة من الأرواح ، لكن بسبب ما تعانيه الآن نسيتهم تمامًا .

كان الطفل الذى تحمله على ظهرها هو طفلها الثانى ، فقد أجهضت فى الشهر الخامس من الحمل فى طفلها الأول.

بعد أن مشت مسافة ميلين تقريبًا ، قابلت جماعة صغيرة من الرجال الذين كانوا عائدين من حفل زفاف ، ارتعدت ، لكنها تماسكت واستجمعت شجاعتها مثل شخص يتحفز لأى طارئ ، تعرفت عليهم من أصواتهم ، وهم أيضا ، تعرفوا عليها فى الحال .

" مساء الخير يا صبية ، "

" مساء الخير يا آبائى، "

سأل كبيرهم المدعو "بوتسو" : " من أين أنت قادمة؟! ، وإلى أين تذهبين فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل " .

" أنا قادمة من هناك ، من القرية ، وسوف أذهب إلى موطنى ، لقد مضى وقت طويل منذ آخر مرة زرت فيها أمى و أبى "

" ما الخطب الذى جعلك تضطرين للسفر فى الليل ، والأسوأ ، سفرك وحدك؟! " .

" فضلت السفر بالليل حيث يكون الجو لطيفًا ، كما أريد أن أصل موطنى قبل شروق الشمس. "

غمغم "تيبلو" : " يا رجال ، لدى شك فى أن تلك المرأة هجرت بيتها ، فلا توجد امرأة لديها الشجاعة للسفر وحدها فى الليل على هذا النحو ، تُرى هل وافق زوجها على سفرها لزيارة والديها ؟ " ، مع ذلك تركوها تمضى فى طريقها .

جدت "سيبوليللو" السير خوفًا من أن يخبر الرجال حماتها ، فتلحق بها وهى مازالت قريبة من القرية ، كانت تسافر فى ليلة مقمرة ، حيث يمكن رؤية الواحد للآخر وهو على مسافة بعيدة ، بينما كانت تسير بالطريق وأفكارها مشتتة، حيث كانت تفكر فى منزل حميها ، كانت تنظر خلفها كثيراً ، ثم سمعت قرع طبول : تو - تولو - توتولو - تو، وغناء، وكان الغناء يأتى من بعيد مكتومًا غليظًا ، توقفت لتتعرف على الاتجاه الذى يأتى منه هذا الطبل والغناء . سمعت الصوت بوضوح آتيًا من الاتجاه الذى كانت ذاهبة إليه ، وراح يقترب أكثر فأكثر ، فتملكها خوف مفاجئ ، قالت : " أوه ، سأموت وطفلى فى بلد غريب ! نظرت حولها ، رأت على جانب الطريق بمسافة قصيرة ، شجرة ضخمة كثيفة الأوراق . قدرت ارتفاع الشجرة ، وتسلقتها بسرعة ، وجدت بها مكاناً يشبه مستراحًا بين الأغصان تكون من ضربة مطرقة ، فجلست فيه مربعة الساقين وطفلها فى حضنها .

كانوا مجموعة كبيرة من الرجال والنساء ، كلما اقتربوا أكثر ، صار الغناء وقرع الطبول أوضح .

كان قادة المجموعة يحملون بيرقًا طويلاً جدًا ، من طوله بدا كأنه سيبلغ السحاب ، تدلت من البيرق أشياء صغيرة عند حوافه ، أحدثت صوتًا مثل صوت الناقوس : دينج، دينج .

وكان هناك ثلاث طبول ، واحدة حملها القادة ، والثانية حملها من في وسط الموكب، بينما الثالثة حملها من في المؤخرة ، كان موكبًا مرعبًا من الرجال والنساء ، وبينما "سيبوليللو" جالسة تراقبهم وهي مرتعدة من الخوف ، رأتهم ينحرفون عن الطريق ويتجهون مباشرة صوب الشجرة التي اتخذتها ملاذا هي وطفلها ، هؤلاء الرجال والنساء كانوا يتحركون ويجرون وهم عرايا تمامًا.

كانت "سيبوليللو" مقتنعة تمامًا بأنهم السحرة الذين سمعت عنهم كثيرا في طفولتها ، لكنها لم تكن تعتقد في وجود مثل هؤلاء الناس قط.

قالت: " ها أنا ذا أراهم اليوم بعيني. "

أدوا كل أنواع الكهانة والعرافة الغريبة لفترة قصيرة . ثم استهلوا مراسم "الصولجان السحري" ، الذي قيل أنه الدرس الأخير الذي يتعلمه المرء الذي يرغب في تلقي أسرار السحر ، وبتدبير العناية الإلهية استغرق طفلها في النوم .

تحدثت امرأة ما وقالت : "أنتم ، فلان ، وفلان ، وفلان ، وفلان ، ارقدوا على بطونكم قرب هذا الحجر الصغير ، أما أنتم ، فلان ، وفلان، وفلان ، وفلان ، ارقدوا قرب كومة الحشائش تلك - كل زوج يتجه اتجاه عكس زميله ، أنتما ، "خوري" ، و"هوفواي" ، ارقدا هناك على جانبيكما في مواجهة بعضكما البعض ، و شبكا أيديكم ببعضها ، لابد من أن تغلقا عيونكم تمامًا"

ثم أمسكت بـ "العصا السحرية" التي تسبب النعاس والنوم ، وقالت: " أريدكما أن تنظرا إلى هذه العصا عن قرب بدقة ، وتشيرا إلى الفرق بينها وبين العصا الأخرى التي تسبب اليقظة"

راحت تحرك "العصا السحرية" عليهما كالمروحة ، وقد راح الاثنان الراقدان على الأرض يغطان بسرعة فى نوم عميق ، بعدئذ قالت: " أنت يا "لبلين" ، هز " كاتس " ، وحاول إيقاظه ؛ أمسكه من يديه واسحبه للأمام ، ثم أمسك به واحمله فوق كتفك "، أدى كل ما قالته ، كأنه كان يتعامل مع جثة . فجأة انفجر فى الكلام : " هذا الرجل ميت . "

أمسكت الساحرة المعلمة « العصا السحرية » الأخرى وقالت : « هذه هى العصا التى تستعمل لهما ذات الطول والسُمك ، وكذلك لهما اللون نفسه ، لكنهما مختلفتان فى الثقوب التى على كليهما فقط ، فعصا الإيقاظ بها ثقب صغير جداً عند الطرف الرفيع يُرى بصعوبة بالغة ، ولها رأس حاد ،" أمسكت بها وراحت تحركها عليهما كالمروحة ، فاستيقظا ، لكنهما كانا غير قادرين على قول ما حدث خلال الوقت الذى قضياه نائمين .

بعد ذلك قالت الساحرة المعلمة: " ما ـ "سيبوليللو" ، تريدين تلقى أسرار مهنة السحر ، إن السحر ليس لعبة ، فلابد للمرء من أن يكون مستعداً لتقديم اسمى تضحية ، حياة البكرى هى الاختبار الحقيقى لنواياه.

جلست "سيبوليللو" على الفروع العالية ساكنة كالميتة ، بينما الساحرة كانت مستمرة فى الكلام ، لكن فجأة تبول طفلها الذى كانت تحمله بين ذراعيها ، ونزل الماء عبر فروع الشجرة. ، نزل الماء يقطر: دريب ، دريب ، دريب ، دريب ، دريب ، دريب ، دريب ".

" صاح شخص ما أسفل الشجرة: " أوه ، هذا يوم الحظ السعيد حقًا ! الطيور تبول ! وقد أوشك نور الفجر أن يُدركنا . دعونا نرحل ! "

نهضوا جميعاً وتركوا المكان فى عجالة ، لم يعد يسمع أى صوت بعد رحيلهم ماعدا نعيب البومة على فترات متباعدة ، البومة طائر السحرة .

راقبتهم "سيبوليللـو" إلى أن اختفوا تماماً ، الآن لا صوت لطبول ، ولا لأى غناء .

كانـت "سيـبوليللو" حـائرة بين رأيين ، رأى يقول : " ارجـعى من حيث أتيت " ، والآخر يقول : " واصلى إلى موطنك ، " قالت لنفسها ؛ سأنتظر قليلاً على الشجرة وأرضع طفلى ، فربما قد يعود أحد من الجماعة بالمصادفة . "

كان رأياً صـائبًا فعـلاً ، فقد شـاهدت امرأة عـائدة تجرى على طول الطريق . وصلت إلى المكان وراحت تـنظر باحثـة عن شىء ، وفى وقت قصير ، وجدت الشيء المفقود . وقالت: " لم أفقد شيئاً ذا أهمية " كان الصوت الذى سمعته معروفًا لها جيداً .

عندما جلست "سيبوليللو" استـغرقت فى التفكير ، وراحت تتساءل عن كل ما سـمعتـه ورأته ، وغلبها الـنوم ، وراحت فى سبات عـميق ، فالنوم عدو لا يعترف أبدًا بوجود الأعداء الذين يحيطون بالإنسان ، عندما استيقظت كان ضوء الفجر قد بزغ ، فحملت الطفل على ظهرها ، والصرة على رأسها ، وواصلت السير فى اتجاه موطنها .

جدت فى السيـر فوصلت موطنها عند شـروق الشمس . . . وصلت إلى البيت الذى عـاشت فيه طفـولتها ، حـيث كبرت وصـارت فتاة غـير مخـتونة ، فيمـا بعد مرت بجـميع المراحل الطقسـية لدخول عـالم النساء وأصبـحت كاملة الأهلية . . . فى هذا البـيت رغبوا فى تزويجـها ، وفى النهاية تزوجت، وصلت فى الوقت الذى كان الجميع مشتاقين فيه لرؤيتها.

استولى خــوف مفاجئ على أختهــا الصغرى "سيبــاتى" عندما رأتها فجأة عند السياج ، صاحت صيحة تعجب ودهشة : "أختنا سيبوليللو ! " ، خــرج على إثرها كل من بالبـيت ، تعانقـتـا عند الباب ، حـتى الكلاب ابتهجت وبدت كأنها تسـأل : أين كنتِ طوال هذا الوقت ؟ خرجت أمها ، رحبت بها وقبلتها بلطف ، سألت وقد ارتسمت على وجهها نظرة دهشة : " سيبوليللو، ابنتى ، من أين جئــت فى ليلة كهذه ، كنا نعتزم أنا ووالدك سؤال حميك ليـأذن لك بزيارتنا حتى نرى طفلك الذى رزقتِ به ، والذى سمعنا عنه ولم نره ، يا له من طفل وسيم ! ما اسمه؟ " .

" أمى ، أسماء الزاهوسا صعبة ! لا أعرف هل فى استطاعتك نطقه . لقد سُمى على اسم أحد زعماء قبيلة أبيه ، سموه " ساندايل" .

" سانتـيل ، حفيـدى ، تعالى " ، ثم مدت يديهــا ، وتلقت الطفل وقبلته .

" ياله من طفل ذى سجية سمحة ! إنه ليس مثل الأطفال الآخرين ، فهو لا يرفض الناس. "

كان جده آخر من خرج من البيت، قد أيقظته الجلبة التى فى الخارج، رحب بابنته وسأل عن أحوال الحياة .

" أين أصدقائى ، "موزنداكى" ، و "مدلامينى" ، كيف حالهما ؟ "

" أبى ، الجميع بخير "

" هل تمطر هناك ؟ "

" إذا كان على المطر فهناك الكثيـر منه ، سوف يكون عام وفرة ، إن لم تأت الرياح الباردة التـى تهلك المحاصيل، كـيف حالك أنت يا أبى؟" ابنتى ، ليسبغ الله رحمته علينا "

" لقد مـات فى الشهر الماضى "ناهـينج" ، الابن الأكبر لزعـيمنا ، فقـد كان مريضًـا جدًا ، كـان الأطباء يسهـرون على العناية به ، مع ذلك رأيناه وهو يفـارق الحيـاة ، ليس لدينا أى مطر ، فى بداية الشهـر الماضى سقط عندنا وابل من المطر، فغـرسنا بذورنا فى قليل من أراضى البساتين ، لكن المحاصـيل احترقت من الحـر وهلكت ، وكان علينا الذهاب لمسـاعدة جيراننا فى الحصاد . "

التفت ناحـية زوجته وقـال : "ما ـ سيبـوليللو ، من فضلك أعطنى الطفل ، أود أن أراه " ، أعطته الجدة الطفل ، تلقاه الجـد وقبل خده وقال معلقاً : " ياله من طفل زاهوسى وسيم ! إنه يشبه قومه ، إنهـم قوم رائعو الشكل ، أما لون بشرته وفتحة أنفه ، فهما صورة طبق الأصل من أمه. "

تدخلت "ما -سيبوليللو" مقـاطعة "را -سيبوليللو" : " الطفل الذى كنا نسعى له وصل مـعها، وها نحن أولاء نراه لأول مـرة ، ألا يوجد أى حيوان نذبحه ترحيباً بهما فى بيتهما ؟ هذا الطفل زعيم فى موطنه ، لذلك يجب أن يعامل بتبجيل . "

" نعم ، إنها الحقيقة ، فهو يزور موطنه الأمومى لأول مرة " .

عندما ترك القـطيع الـ " كرال [٣٧] " فى اليـوم التالى ، استُبـقى "خونيلى" الثـور الأحمر المنقط ، الذى يـقود قطيع "را- سيـبوليللو" ،

(٣٧) "الكرال" : القرية فى جنوب إفريقيا ، والكرال أيضـا تعنى وحدة اجتـماعية ، وتقال أيضًا على " زريبة " للحيوانات الأليفة

وترك فى الساحة الواسعة بالكرال وأرجله الممـدودة مقيدة . . . الثور الذى كان عزيزاً جـداً على قلب "را - سيبوليللو" حتى إنه كان قـد ألَف بضعة أبيات من الشعر تعبيراً عن حبه له :

خونيلى ، ثوررا - سيبوليللو الأحمر المنقط ،

عندما كان فى أسر باتولكو لم يرحهم ،

وراح يجأر بصوت حزين ،

من الظلم سماع حيوان "كونينج" يصرخ فى قرية غريبة ،

صرخاته ، أطلقت القطيع من الأسر .

كان يقودهم عندما دخل قريته ،

ومنخاره مخضل . . حيوان "سوتو" المعبود .

بعـد ذبح وسـلخ الثور ، قطعــه الرجـال للشـواء إلى قطع صغيرة . جذبت رائحة شواء لحم الثور اللذيذة المارة إلى الساحة الواسعة ، ذلك لأن الثور كان يرعى فى مراعى غنية، فصار سمينا حتى حافره .

راحت النساء يعملن بين القدور بهـمة ، طبخن نصف الحيوان ، لأن فى بيت"را - سيـبوليللو" عـدداً كبيـراً من الأطفال ، وبينما كـانت "ما -سيـبوليللو" تغـرف اللحم فى الصحون وتورعـه حسب العُـرف المتبع ، نادت على ابنتها كى تريها الصحون وتعطيها النصائح والأوامر بشأنها .

" ابنتى ، انتبهى جيدا ، هذا الصحن يخص الرجال فى "الخوتلا [٣٨] ، وهذا لوالدك ، وهذا لك ، وهذا لى ، وهذا الأخير للنمل الذى يملأ بيت أمك . . للأطفال ، آمل أن ينفذ كل شيء بالضبط . سأذهب لتنشق السعوط عند "ما ـ بوتسان" ؛ تلك المرأة التى تسحن وتصنع سعوطًا جيدًا . "

" حسنا يا أمى ، سوف أتبع ما قلته بالضبط ، " عينت سيبوليللو كل صحن كما حددته أمها ابتدأت بصحن الأطفال ، وانتهت بصحن الرجال فى الـ "خوتلا " .

ذهبت السيدة العجوز ، وغابت لوقت طويل فى بيت صديقتها ، ثم عادت بعد فترة .

" كنت أظن أننى سأعود سريعاً ن ولم أعرف أن "ما ـ بوتسان" ستؤخرنى بحكاياتها الكثيرة ، لقد سعدت عند سماعها بوصولك ، وقالت أنها سوف تأتى غداً لترحب بك ، لأنها اليوم مشغولة فى جدل حشية لزوجة أبنها التى فى المخاض"

" ابنتى ، هل أكلت نصيبك من اللحم ؟ "

" لا يا أمى ، لقد أكلت تواً لحم دجاجة سمين جداً أحضرته عمتى "مزيلى" ، سوف أكل نصيبى من اللحم بعد إرضاع الولد . "

(٣٨) " الخوتلا " : مجلس استشارى للقبيلة ، يرأسه زعيم القبيلة عادة ، ويضم مستشاريه من كبار السن والأعيان ، منوط به تصريف زمور القبيلة أو العشيرة ، يشبه المجالس العرفية فى بلاد المجالس العرفية فى بلاد العرب .

قالت الأم : " إذن إحضرى صحنى ، أريد أن أكل لحـمًا كثيرًا حتى أشبع . تعلمين أننا لا نذوق اللحم إلا عندما يكون عندنا ضيوف مثلك فحسب "

ولأنهـا لـم تذق اللحم منذ زمن طويل ، ابتلعـت القطع الغليظة دون مضغهـا جيدًا . وكان باقيا قطعة غليظة من اللحم يغطيـها الدهن ، فجأة سمعوا : " إه ، إه ، إه ،إه ، إه أ " ، وزاغت عينا "مـا -سيبوليللو" فى محجريهما .

استُدعى "را - سيبوليللو" على وجه السرعة من "الخوتلا" .

" سأل ما الأمر ؟ ماذا حدث ؟ "

" لا ندرى يا أبى"

" أسـرع واستـدع الطبيب ، قـل له أن يأتى حالاً " ، لكن قـبل أن يصل الرسول إلى مكان الطبيب ، كانت الروح قد فارقت الجسد .

" يقول الطبيب إنه قادم" وبينمـا الرسول مازال يتكلم ، قال آخر : "هاهو ذا العجوز "مامبورو" قادماً ببطء يعرج . . . "

"مامـبورو" الطبـيب العراف صـاحب الخبـرة الشهـير ، يعـرفه ، ويحترمه الجميع كثيرًا لإنجازاته التى أذاعت صيته .

" ما الأمر ؟ "

أجابه شخص ما: " سنعرف منك ما حدث"

أخرج "مامبـورو" صرة من حقيبته ، وقـام بحلها ، ثم أخرج منها الـ"سيروكولو" ، وقطع منها قطعة بأسنانه ، ومـضغها ، ثم قرع بها على عظام كانت بين يـديه ، ألقى بالعظام على الأرض ، ومكث صامـتًا بضع دقائق ، وراح يتفحصها طوال الوقت ، ثم تلى تعويذة :

" فالفلافا تابعة راخاتوى ،

تلك المُعلقة على شفا كارثة مع فأر الحقل الرضيع ،

المُروحون الذين يحركون ما لا يتحرك ،

ادفعيهم للأمام حتى يظهروا ،

حكاية السحرة التى لم تنفض قط ،

فقط "مامبورو" "التسوانى" هو من يكشف مثل هذه الأمور.

هاهو ذا قرد ينزل من على سطح بيت ،

قل لى أسماءهم واحداً وأحداً ، دعنا نسمع . "

" مامبورو ، إنهم لن يكونوا من خاصتى ، لا يُتعاطف أبدا مع من يقتل نفسه ، "ما ـ سيبوليللو" قتلت نفسها ، امرأة معينة أعطتها لفيفة سُم صغيرة ، هاهى ذا تلك المرأة ، تشير العظام إليها ، قردتان تتحادثان . ها هما ذان وجهاهما متقابلان وهما تتناقشان.

المرأة العجوز ، "ما ـ سيبوليللو" ، أمرت بقتل شخص ما ، كى يتسنى لها الدخول لمهنة السحر وذلك باستعمال أجزاء جسم القتيل ، وقد تسبب هذا الدواء فى مقتل "ما ـ سيبوليللو" .

بعدئذ جمع "مامبورو" عظام الحيوانات الميتة ، التى يتنبأ عن طريقها بأمور الحياة ، حياهم جميعا قائلا : " أترككم على خير" ، ورحل .

عاد "مامبورو" لبيته وترك الناس مصعوقين من الحزن ، وقد قال شخص ما ملاحظة : " أليس من المستحسن استدعاء طبيب آخر .

" لم تكن سيبوليللو تعـيـر الأمـر أدنى اهتمام ، وراحت تطحن أحجار المغرة الحمراء .

نادت على أختـها : " تالين ، أعطنى 'السيابيلو' الموجـود فى البيت كى أخلطه مع دهن ثور أبى ، فـأنا أعده حتى أدهن به جـسمى، أريد أن يعرف الجميع أننى فى بيتى الآن. "

تعجب كل الحاضرين من تصرفها .

فى أثناء ذلك ، انتفخ جسم الميـتة وتغير لونه ، وأصبح أخـضر مثل طحالب الماء ، الفم مفتوح عن آخـره وقد علاه الزبد ، وتدلى اللسان مثل لسان كلب بعد صيده حيـواناً فى وقت القيظ ، والعينان بارزتان مثل عينى تلك البومة التى كـانت بين فروع الأشجار الكثيفـة فى وضح النهار ، كان "را - سيبوليللو" خجلاً من تصرفات ابنته .

قال : " إنك تخجليننى حقًا ، نحن فى حـزن شديد ، ومصدومون لموت أمك ، وأنت تبدين وكأن شيئاً لم يحدث " .

" أبى ، يؤلمنى حقا أن ترانى مخطئـة ، لا أظهر الاحترام الواجب ، لكن إذا عرفت ما أعرفه ، ما قلت لى هذا الكلام . "

" ما هذا الذى تعرفينه ؟ أخبرينا به حتى نسمعه ونقدره. "

" الأباء والأمـهات ، أصـغوا إلى جـيداً حـتى تفـهمـونى ، إنكم تستـدعون الأطباء وليس لديكم أية ثـقة بهم ، ومع أن البعض منهم غـير أهل للثقة ، إلا أن اليوم ، هذا الطبيب بالتحديد قـد ذكر الحقيقة التامة ، لقد اتـصلت به أرواح الأجداد ، تلك الأرواح التى تعـيش فى ذلك المكان والتى لا تحمل ضغينة أو شر ، وبينت له علامة "

ساد صـمت قـاتل ؛ حتى الذين يبكون جـففـوا دموعـهم وأنصتـوا باهتمام وراحوا يتابعـون كلام "سيبوليللو" فى تبريرها عدم اهتمـامها غير اللائق بموت أمهـا ، واصلت "سيـبوليللو" الحـديث بصعوبـة كأن الكلام ينتزع منها انتزاعا.

أكملت حـديثها قائلة : " تركـت بيت حماتى قرب مـوعد النوم ، حين عبرت نـهر "ليخلاتين" عند منتـصف الليل تقريبا ، وعندمـا اقتربت من الشجرة الضخمة عند النهر ، ومن ناحيتنا ، سمعت غناء وقرع طبول، وقفت ساكنة وأصغـت السمع ، ثم رأيت موكباً كبيـراً من الرجال والنساء قـادماً على الطريق ؛ وكـان واضـحاً أننا ستتـقابـل ، فقلت لنفـسى: "يا شجـرة، ستكونين أبى وأمـى اليوم ،" تسلقت الشـجرة ، ووجـدت بها مكاناً صالحـاً لى بين الفروع ، فاستـقررت به ووضعت طفلى بحـجرى ، كنت أظن أنهم قـد يمرون إلى مكان بعـيد عن مـكانى، إلا أنهم انحرفـوا وجاءوا مباشـرة إلى الشجرة حيث كنا مختبـئين ، كنت فى الواقع ميتة من الخوف ، هـؤلاء الرجال والنسـاء ، الذين كانوا فى طليـعة الموكب كـانوا عرايا ، وكى يبـعدوا عنهم الشـعور بالخجل ، أدوا كل أشكال السـحر . شاهدت الـعصوين القـصيـرين اللذين يداران مثل المروحـة على الناس ، لتنويمهم أو لإيقاظهم ، وسـمعت أيضاً التـعليمات التى قيلت بخـصوص كيفية استعمال هاتين العصوين ، لكننى سمعت أكثر من ذلك بكثير" .

" وبعد وقت طويل تكلمت امرأة وقالت :أنت يا "مـا ـ سيبوليللو" تريدين تلقن أسـرار مهنة السـحر ، إن الـسحـر ليس لعبـة ، أنه يتطلب التضحيـة بحياة شخص ، ثم سـلمت أمى صُرة صـغيرة وهى تقول: " إن من يسعى لهذه المهنة عليه أن يهئ نـفسه لتقديم تضحية كـبيرة ... حياة بكريه هى الأساس المتين ، يجب أن تأكل "سيبوليللو" ، وسوف نأتى بعد

دفنها ونبش قبرها فى الليل ، ونستعمل الأجزاء المستقطعة من جسدها لنبدأ معك طقوس الدخول لمهنة السحر، إذا اتبعت تعليماتى ، دون خطأ واحد ، فإننى أؤكد لك أنه لن يُعرف مطلقاً سر ما حدث . ها أنا ذا أمامك ، لدى حتى الآن أكثر من مائة وثلاثة وأربعين ضحية تحت الأرض ، ومدة زواجى ثلاثة وأربعين عامًا فقط ، ولم يشم هؤلاء الأطباء العرافون المشهورون رائحتى ، أو يكتشفون أعمالى ، لماذا ؟ لأننى اجتزت طقوس هذه المهنة ، لأنى ضحيت بابنى البكر "مويتسيبى" ، ذلك الطفل الذى كنت أحبه كثيرًا "

" صديقتى ، أرجو أن تكونى تابعت وفهمتِ ما قلته جيداً " .

ثم اختفت الجماعة وتفرقت عندما تبول ابنى من فوق الشجرة . رحلوا بسرعة ، بينما جلست أفكر مليًا ، وتساءلت عما شاهدته وسمعته . وحين رفعت بصرى رأيت هيئة إنسان قادم مسرع على الطريق ، وصلت امرأة إلى المكان الذى كنت به ، بحثت عن شيء تحت الشجرة ووجدته، بعد ذلك جرت وتبعت الجماعة ، لقد عرفت من كانت هذه المرأة من هيئتها وصوتها .

بعد اختفاء تلك المرأة ، سألت نفسى أسئلة كثيرة ، ثم رحت فى غفوة أنا وابنى ، عندما أيقظته كان الفجر قد بزغ ، نزلت عن الشجرة ، واتخذت الطريق إلى موطنى حتى وصلت لبيتى بمجرد أن غربت الشمس عن الأرض. لن أزعجكم بحكاية ذبح "خونيلي" التى تعرفونها جميعاً ، فاللحم كان قد أُعد وتم طبخه ، وبعد تقسيم اللحم ، استدعتنى أمى ، حين كنت مشغولة فى أعمال البيت ، لترينى ترتيب الصحون. قالت إنها

سوف تذهب إلى بيت "مـا ـ بوتسان" لاسـتنشاق بعض السعـوط ، وقد أنهت حـديثهـا بهـذه الكلمـات: " يا ابنتى ، أرجو أن يـنفذ كل شـيىء بالضبط " .

حسنا يا أمى سينفذ كل شىء بالضبط . ورحت أوزع الصحون واحدا تلو الأخر ، وأشرت لكل صـحن بإصبعى ، فهـذا للأطفال وهذا للرجال فى الـ " خوتلا " وقالت لى أمى : " لن تكونى ابنتى التى ربيـتها إذا ما اخطأتى توزيع الصحون " .

أخيرا عادت أمى من عند صديقـتها وقالت لي: " ابنتى ، هل أكلت نصيبك من اللحم ؟ من فضلك أعطينى صحنى حتى أشبع شوقى الشديد له ، فأنت تعرفين أننا لا نأكله إلا عندما يكون لدينا ضيوف مثلك" هذا ما حدث ! الآن ترون نتـيجـة الصُرة الصـغيرة التـى التقطتهـا أمى من تحت الشجرة . هل مازلتم تصـرون على أن الطبيب العراف كاذب ، وأنه يجب استدعاء طبيب آخر ؟

واصلت "سيبوليللو" الحـديث: " أستطيع التعرف على بعض أولئك الرجال والنســاء الذين كانوا ضـــمن ' "جماعـة الليل" ' ممن يعيـشون فى قريتـنا ، بل ويمكننى أن أسمـيهم بأسـمائهم عند الضـرورة ، أما أغلبـية الرجال والنساء فكانوا من القرى المجاورة . "

كانت المرأة التى ذهبت إليها "ما ـ سيـبوليللو" لاستنشاق السعوط ، وأؤلئك الذين كانوا ضمن الجماعة فى تـلك الليلة موجودين ، وقد شعروا بتأنيب الضـميـر ، وحسبـوا أن أسماءهم سـوف تعلن على الملأ . أولئك خفضوا عيونهم ولـم يستطيعوا النظر لوجوه الحاضرين .

كان "أبو – سيبوليللو" رجلاً ذا مكانة ؛ مهيبًا ومحترمًا في القرية وفى البلاد ، فقد كان مستشارا فى "خوتلا" للزعيم " ثولوان" ، أصبح مشوش الذهن بسبب الكارثة التى حلت به ، ومع ذلك كان مضطراً لأن يبلغ الزعيم بما وقع ، قال: " سينوكوان ، أسرع إلى الزعيم، وأخبره بأننى أرسلتك لتطلعه على موت "ما–سيبوليللو" المفاجئ ، ومن الضرورى أن تحكى له كل الحكاية مثلما روتها "سيبوليللو" ".

كان الزعيم "ثولوان" زعيم " تالجو الصغرى" يسكن فى "مفاران " ، زعيمًا ذائع الصيت، ليس فقط لمآثره فى الصيد ، بل وأيضا لحكمه بالعدل تبعاً للقانون فى "خوتلاه" ، وقد كانت حالات المراجعة والاستئناف من قراراته نادرة جداً .

رحل الرسول بسرعة بالغة ، لأن الجثة كانت فى حالة سيئة بالفعل . وقد أجبرت الناس على ترك الكوخ ، ولحسن الحظ وجد المستشارين مجتمعين فى الخوتلا للاستماع للدعوة.

رفع الرسول يده بالتحية للزعيم قائلاً: " موتنج ! "

بعد قليل همس أحد المستشارين فى أذن الزعيم ، وأخبره بوجود رسول فى الخوتلا، فتأجلت الدعاوى لبعض الوقت .

"أيها الزعيم ، لقد أرسلنى إليك "را–سيبوليللو" لأنقل إليك نبأ وفاة "ما–سيبوليلو" المفاجئ".

سأل الزعيم : "متى حدث ذلك ؟ لقد شاهدنا "ما ـ سيبوليللو" مارة إلى جوار بيت "مابوتسان" ، وشاهدناها وهى تدخل من باب البيت"

" أيهــا الزعــيم ، لقد مــاتت أخــر النهــار ، فور عــودتهــا من عند مابوتسان ، ولكى يعرف الزعيم الموقف على حقيقته ، أُمِرت أن أحكى ما حدث بالتـفصيل . لــقد وصلت "سيــبوليللو" عند شــروق الشمس إلى البيت ، قــادمة من موطن أهل زوجــها ، وقدمت لنا تفــسيرًا كــاملاً لموت أمها" .

ثم راح "سينوكـوان"يروى حكاية "جماعة الليل" ومــا حدث تحت الشجرة قرب نهر "ليختلان"، وكل مــا رأته وسمعته "سيبوليللو" هناك. ووصف كـيف ذُبِحَ "خونيـلى"ثور "را-سيــبولــيللو" ، وطُهى اللحم ، وغُرِف الطعام تبعــاً لأوامر الأم المتوفاة ، كما أخبــر الزعيم بما قاله الطبيب "مامبورو" ،

الذى كشف الأمــر عندما ألقى عظام العــرافة والتنبؤ ، وكـيف أن ما قاله إتفق مع الرواية التى روتها "سيبوليللو" بعد رحيله"

قال الزعيم : "أخبر "را ـ سيــبوليللو" أننى تلقيت الأخبار المحزنة ، وأعبر له عن تعاطفى معــه ومع عائلته ، ومع كل أقارب دمه ، ومع ذلك ، فإن جثة تلك الكلبة ، تلك الساحــرة قاتلة شعبى ، يجب أن تسحب على الأرض ويلقى بها بعيداً على قمــة الرابية التى تشرف على القرية ، إلى أن تنهشــها النسور ويُشــبع آكلو اللحوم جــوعهم منها ، ولا يدفن جــسدها بالطريقة المعتادة. "

رغم أن أوامر الزعيم كانت مؤلمة، إلا أنهم كانوا مضطرين لتنفيذها.

أمررا ـ سيــبوليللو "سينكوان" : " أربط الجسم بالحبل وأســحبه ، ثم ألقِ به بعيداً فوق تلك الربوة . "

قال سينوكوان: " ما من طريقة لربط الجسم وسحبه على الأرض لأنه قد تحلل ، الحل الوحيد هو حمل الجسم على عارضة خشبية ، مع أننى أعرف أن هذا مخالف لأمر الزعيم"

قال صاحب الجثة: " احملها إذن وسوف أتحمل العواقب " .

تبادلوا حملها بالدور ، كانت المتوفاة امرأة بدينة وضخمة ، وضعوا الجثة فى المكان المحدد وتركوه مهجوراً .

عندما رحلوا ، شاهدوا النسور تحلق عاليًا فى الجو ، وبمجرد أن دخلوا القرية كانت الطيور الجارحة تجثم فوق الجثة ، منتظرة وصول النسر "موريناتلاك" ، ملك النسور، ذى الرأس الأصلع ، ليفتح الطريق أمام عوام النسور كى يشبعوا جوعهم وصل النسر الملك ، وتقدم من الفريسة ، جذب إحدى العينين ، ثم الأخرى ، وهكذا أعلن عن افتتاح الوليمة . فى طرفة عين لم يبق شىء من الجثة سوى الهيكل العظمى ، وشكلت الضلوع ما يشبه القفص الذى يمكن أن يبنى النحل فيه خلية بسهولة ، وكان منظر تجويفى العينين يثير الرعب فى نفس من ينظر إليهما .

أخافت كلاب القرية الطيور الجارحة وأبعدتها ، ثم تحركت فوق الجثة وهى تقضم ما تبقى بالهيكل العظمى من لحم ، أبعد الصبية رعاة القطيع الكلاب عندما وصلوا بالماشية والغنم من المرج عند الغروب ، بعد حلب الماشية ، وإدخال العجول الزرائب ، أمسكوا الهيكل العظمى بسياطهم وسحبوه إلى البركة الكبيرة ، التى عادة كانوا يسقون قطعانهم منها.

فى اليوم التالى ، وجدت كل الكلاب التى كانت تنهش فى الهيكل العظمى ميتة ومتحللة، وتساقط اللحم من أحشائها عند لمسها .

أرسِل رسول إلى جبال "متلاكنج" لمعرفة حال النسور .

ترك أحـد الرحـالة " تـوتيـسنج" إلى "بايتـسنـج"، عندمـا وصل "خوتلا" "مَفَـرّانْ"، كان منفعلاً جـداً ، لدرجة أنه نسى العادات المتـبعة عندما يقابل الرجال بعضهم البعض لأول مرة ، قال: " عندما مررت بقرب متلاكنج ، شاهدت منظراً غاية فى الـغرابة ! هناك، عند سفح الجبل كانت العشرات والعشرات من النسور ميتة ، يبدو أنها سقطت متدحرجة من على جـانب الجبل ، وبأعـلى المنحدرات ، رأيت الريـش وأجزاء من الأجنحـة التصقت بجانب الجبل . وكانت الرائحة غـير محتملة ، لقد سافرت بطول وعرض البلاد ولـم أر شيئاً مثل هذا قط "

قال "تسو" أشهر صيـادى "مَفَرّانْ" : " إن الذى قتل هذه النسور هو الذى قتل كـلابنا ، لقد فقـدت أجمل كلب لدى . كـان يدعى "فافِم"، وكان يتعقب الطرائد ، وقد كلفنى سبـعة أغنام دفعتها للزعيم ، لم أَر فى حيـاتى مثل هذا العـداء السريع ، لم يكن يجـرى ، بل كان يطيـر ، كان يطعم أسـرتى ، فلم تبت يوماً بلا لحـوم ، كلما خـرجنا للصيـد ، كنت اعتبره مثل بندقيتى ، أننى أعانى من خسارة لا تعوض ، أن القوة السحرية لتلك المرأة كانت سـماً قوياً ، مـثلما أرادته أن يكون ، وأخشى أن يُـبـيد الناس ، لو كنت الزعيم لكنت لأجـبرت "سيبـوليلو" على ذكر اسم تلك الساحـرة ولقتلتـها " تجـول الرحال فى القـرية ، وتطلع إلى حيـث ترقد الكلاب الميتة متعفنة ، عندئذ عرف سبب موت النسور .

قـال: " أتفق معكم ، يجب عليـكم أيها الرجـال أن تجعلوا الزعـيم يدرك مدى الخطر الذى يهدد قبيلته" .

عندما عاد الرسول الذى كان قد ذهب للجبال ، لم يكن قادراً على وصف بشاعة موت النسور ، وبشاعة الرائحة المنبعثة منها .

قال : " لقد أحصيت عشرين نسراً ميتًا ، بما فيهم زعيم النسور العظيم " موريناتلاك" ، الذى كان يرقد برأسه الأصلع بين أتباعه .

قال "تسو" وقلبه يتوجع عندما تذكر كلبه المحبوب "فافِم" ، وكل ما أصاب القرية منذ أن عادت "سيبيوليللو" لموطنها : "كل هذه الطيور المسكينة ، وزعيم هذه المخلوقات ، وكلابنا ، كلهم بلا شك ضحايا ما–سيبوليللو . "

مَرَّةٌ في القرن

تأليف : د. ب. ز. نتولى[٣٩]

الأبناء، والأحفاد، وأبناء الأحفـاد ، جلسوا على العشب فى الظل ، كانوا جميعًا يحملقون متوقـعين شيئًا من "ما ـ ماسومى" ، السيدة الطويلة العجـوز جدًا، جلست وأومأت لهم بـعينيهـا الدامعتين الرمـاديتين ، كان وجهها شبكة مختلطة من الخطوط والتجـاعيد، وعندما ابتسمت ، كشفت عن سنة وحيدة ، كان لديها كل الحق لكى تبتسم هذه الابتسامة العريضة ، لأن أبناءها قد رتبوا حفلاً رائعًا للاحتـفال بما قُدر أنه السنة المائة من حياتها على هذه الأرض .

" أبنائى، مـاذا تريدون ؟ أتريدون أن أحكى لكم حكاية أهم حـدث وقع لى خلال هذه السنوات المائة التى عشتها ؟ "

أعلن أبناؤها الكبار ، الذين رتبوا للحفل ، موافـقتهم فى حماسة ، فهم يعرفون أن فى حياة أى إنسان عـاش مائة عام ، حدثًا خاصًا بعينه ربما يتمـيز عن الأحـداث الأخرى التى مـرت فى العمر ، قـال أحد الأحـفاد : "جدتى ، لا تحكى لنا حدوتة ! "

(٣٩) ترجمها إلى الإنجليزية عن لغة "الزولو" : ث.س.ز نتولى .

"أبنائى ، ليس هناك تجربة حقيقـية لم أحكِ لكم عنها ، لقد حكيت لكم كل شىء اسـتطعت تذكره ، إذا كنتم تريـدون قصة ، دعـونى أحكِ لكم حدوتة ،"

"لا يا جدتى ، من فضلك ! أحكى لنا قصة حقيـقية ـ شيئًا ما وقع لك بالفعل - لا يهمنا حتى إذا كان البعض منا قد سمعها من قبل ، سوف تكون جديدة بالنسبة للكثـيرين منا على الأرجح ، من فضلك يا جدتى ، الحدث الأهم الذى وقع فى حياتك"

توقفت السيدة العجوز عن الابتسام ، وقطبت غضون جبينها: "حسنًا يا ولدى، هذا حقيـقى ، مع أننى حكيت لكم الأحداث الهامـة تقريبًا فى حياتى ، إلا أن هناك حدثًا احتفظت به طوال السنين ، قلت لنفسى : إننى سوف أحكى قـصة هذا الحـدث إذا أراد الخالق لى أن أعيـش طويلاً جدًا، حسنًا، وأنتم تقولون : إننى عشت طويلاً جدًا ، إذن ، ربما يكون قد حان الوقت لأروى القصة ، إنها قـصة التجربة الأكثر رعـبًا التى مررت بها فى حياتى ، حـاولت دائماً، وبجدية، أن أنسى تلك التجربة المخـيفة ، لأننى كلما فكرت فيها أصاب بالرعب تمامًـا، فقد كنت أخشى أن يحدث كل ما حدث مـرة أخرى ، مثلما حـدث فجأة فى ذلك المسـاء البشع ، منذ زمن بعيد . . . بعيد"

تنحنحت السـيدة العـجوز بتـمهل كى تجلو صـوتها ، ومـرت على تجاعـيدها بالمنديل الجديد ، ثم راحت تحـدق باضطراد فى الوجوه المضيـفة المتألقة حولها، كـانوا كلهم آذانًا صاغية وعيونًا منتبـهة ، حتى الصغار بين أذرع أمـهاتهم سكنوا كـأنهم مقـدرون لفـرق السنوات بينهم وبين السيـدة العجوز.

" حدث ذلك بعد أن أصبحت واحدة من عائلة "مالنجانى" بوقت قصير ، أعتقد أنه لا يجب أن أخبركم بهذه القصة ؛ لأننى إذا حكيتها قد لا تنامون الليلة جيدًا . "

صاحت كثير من الأصوات الصغيرة جمعيًا : "لا يا جدتى ! من فضلك أحكى لنا القصة ، لن نخاف ، "

قطبت جبينها مرة أخرى ، هذه بالتأكيد ليست مجرد واحدة من الحكايات الفاتنة التى كانت تحكيها من قبل ، لابد من أنها قصة فريدة ، لأن الجدة لم يكن من عادتها أن تتوسع فى حديث ملتف حتى تصل لحكاياتها، ساد الصمت تحت الشجرة ، ولم يقطعه إلا الحفيف الرقيق لأوراق الشجرة .

" لم يكن "مالنجانى" فى البيت ذلك اليوم ، وكانت البنت الصغيرة التى جاءت معى يوم زفافى قد خرجت لجمع الحطب ، كنت وحدى تمامًا أغنى أغنية مثلما كنت أغنى فى بيت أهلى ، فجأة اقشعر بدنى ووقف شعر رأسى ، قلت لنفسى .. إنه لا شىء ، ثم وقف شعر رأسى مرة أخرى ، تقلصت كل فروة رأسى وصارت باردة ، كل شعرة فى رأسى وقفت منتصبة لآخرها، توقفت عن الغناء ، وانتشر الخدر فى كل جسمى، شعرت بعدم الأمان فى الكوخ ، كأن كائناً مهلكًا على وشك الانقضاض علىّ ، أبعدت المكنسة التى كنت أنظف بها الأرضية ، نظرت حولى ، هل استطاعت حية أن تنسل لداخل الكوخ؟ لا، لم تكن هناك حية ، إذن ، هل كان هناك شىء يطاردنى خلسة من الخارج ؟ ذهبت إلى الباب واختلست النظر إلى الخارج ، لم يكن هناك شىء أمام الكوخ مباشرة ، نظرت يمينًا ، لا شىء هناك ، ثم نظرت يسارًا، و . . . كان الشىء هناك! منذ ذلك اليوم

البعيد يا أبنائى ، وأنا لا أفهم لماذا لم أسقط ميتة عند مدخل الباب ؟! لقد كان الشيء هناك ، واقفًا ساكنًا تمامًا ، مثل مامبا[٤٠] سوداء تقف متحفزة للانقضاض. . . "

"جدتى ، ماذا كان ؟ أسد ؟"

" لا يا بُنىّ ، بل شيئًا مرعبًا إلى أقصى حدود الرعب ، كان رجلاً أسود عملاقًا " !

" كان أسود بلون القار ، يلبس جلد أسد فقط ، ويحمل نبوتًا ضخماً فى يده اليسرى ، لم يتحرك ، لم يتكلم ، كان يحملق فىّ فحسب، مغضبًا وعيونه واسعة مثل عيون الثور الواقف هناك ، كنت مرعوبة ، خطوت خطوة للخارج ، ونظرت بعيداً عن تلك العيون للحظة حتى أرى إن كان هناك أى إنسان يمكن أن يسمعنى إذا صرخت ، كأن العالم كان مهجوراً، فكرت فى أن أجرى هاربة ، لكن لمحة إلى تلك الأرجل أقنعتنى بأن ذلك الكائن الوحشى سيلحق بى ببضع خطوات واسعة من ساقيه ، كان متين الجسم ، عضلاته الضخمة تنتفخ كأنها ستندفع خارجة من تحت جلده الأسود.

" أبنائى ، لقد رأيت تلك العضلات بوضوح عندما راح ذلك الكائن البشع يتحرك ناحيتى ببطء ، اقترب ، حينئذ لاحظت إلى أى حد كان بشعًا، لقد كان مسخًا بشعًا بلا أية قسمات ، اقترب منى بكل قبحه اللزج المثير للغثيان ، ارتعشت ، أردت أن أصرخ ، توقف على بضع خطوات منى فقط ، راح يحملق فىّ ، كان قفص صدره يرتفع وينخفض ، انتبهت حينئذ لصوت تنفسه العالى . "

(٤٠) أفعى إفريقية سامة .

"فتحت فـمى كى أصرخ ، لكن لرعبى الهائل ، لـم يخرج صوتى من حنجـرتى ، توقـفت ورحت أحـملـق فى الرجل الأسـود ، دق قلبى بعنف ، للحظة حولت نظرى بعيدًا عن عينيه ، وفى تلك اللحظة صرعنى بضربة من نبوته"

"عندما استعدت وعيى ، التقطت أذناى صوت هدير مطرد ، فتحت عينىّ ، كان ستار من الماء الأبيض المثلـج يندفع بعنف من فوق قمة جرف عال ، ويغوص بهدير داخل بركة واسعة عند قاع الجرف ، كنت أرقد قرب شلاّل ، والوقت حينئذ كان بعـد غروب الشمس ، حاولت النهوض ، لم أستطع ، فكل جسمى كان يؤلمنى ، ثم سمـعت نقيق الضفادع على مسافة بعيدة عند مجرى النهر، واستطعت أن أرى دغل البوص والأرض السبخة ،

حاولت التعرف على المكان ، لكننى لم أستطع التعرف عليه ، سألت نفسى لماذا أنـا هنا؟ ثم تذكرت . . . الرجل الأسود ! هـو آخر شيء كنت قد رأيته. وعندمـا فتحت عينىّ ثانيـة ـ الآن أصبح تفكيرى صافـيًا تمامًا ـ رأيته ، كان جالسًـا على حجر يحملق فىّ ، مثلما فـعل قبل أن يضربني، كنت مروعة ، وفكرت فى "حمواىَّ" ، فكرت فى أبى وأمى ، فكرت : "ماذا لو وجدونى هنا ؟ ما الذى سيلحق بسمعتى ؟ "

"جلس الرجل هناك ينظر إلىّ فحـسب ، بل لم تطرف عينه ، أظلم المكان تدريجيًا ، لم أسمع أية ضجة فيما عدا نقيق الضفادع وهدير الشلال ، لم أرَ سـوى سقـوط الماء الأبيض والرجل الأسود ، حـاولت أن أنهض ، لكننى لم أستطع تحـريك أى طرف من أطرافى ، شعرت كأن كـل جسدى مشلول . "

" ثم ، رأيت هيئته واهية فى ظلمة الليل الزاحفة ، ظل الشلال يهدر برتابة حتى أصابنى الدوار ، رحت أشجع نفسى حتى لا يغمى علىّ ، راودنى أمل فى أن يغلب النوم آسرى ، نظرت ناحيته ، فربما يكون قد نعس بالفعل، كاد قلبى يقفز إلى حلقى ، فقد كانت عينا الرجل الأسود الآن متقدتين مثل جمرتين ، أدركت حينئذ أن ورطتى أشد مما كنت أظن ، مرة أخرى حاولت النهوض والصراخ لطلب النجدة ، لكن بلا جدوى ، "

"الشلال الهادر صار رماديًا فى الظلمة ، العينان الناريتان ما زالتا تحملقان نحوى ، صارت الجمرتان بالتدريج شعلتين ساطعتين تضيئان كل المكان أمام الرجل الأسود ، ورأيت ركبتيه "وبينما كنت أحاول بكل جهدى التفكير فى طريقة للهرب ، سمعت ضجيجًا آخر غيره ونبوته . "

صوت الشلال ونقيق الضفادع ، كانت أصوات كثير من البشر ، ارتفع الضجيج تدريجيًا ، وعرفت أن الناس يتقدمون أقرب فأقرب ، كلما علت الأصوات، كلما زاد الدوار الذى أصابنى ، أحسست كأننى أتأرجح فى الجو ، والآن سمعت ما كان يغنيه هؤلاء الناس ، رحت أنصت كأن حياتى تتوقف على سماع جوقة المنشدين المقتربين ، أصوات أطفال ! كانوا يغنون ويصفقون بأيديهم على الإيقاع ، رحت أنصت ، التقطت كلمات الأغنية الغامضة :

هاسيسى ، هاسوسا ،

شيا شيا هاسيسى، هاسوسا ،

كويا خويا، هاسيسى، هاسوسا ،

" اقترب الغناء ، لم أر المغنين ، لكننى سمعتهم واقفين من حولى ، ضجيج الشلال صار أضعف تدريجيًا ، بينما ارتفع دوى الغناء : "هاسيسى ، هاسوسا" .

"فجأة هدر صوت رعدى من المكان الذى كان يجلس به الرجل الأسود قائلاً : "ما ـ ماسومى" ، إننا الآن فى حميّة العمل ، أنت أيضًا يجب أن تغنى ، هيا ، الآن! "

"ولدهشتى الكبيرة ، عادت حنجرتى للعمل بالطريقة العادية مرة أخرى ، وبدأت الغناء مع أطفال غير مرئيين ، فى البداية غنيت بتمهل وتردد، ثم التقطت اللحن الذى كان يغنيه الأطفال ، رددته بضع مرات ثم غنيت كأحسن واحد فيهم ، وبسرعة صرت المغنية التى تقود الغناء : "هاسيسى، هاسوسا. . . "

" نفذت الأغنية إلى عقلى ، وقلبى ، وروحى ، غنيتها بكل أحاسيسى حتى كدت أبكى ، بتُ واعية تمامًا لكل ما يدور حولى ، مدركة تماماً لما أفعله ولماذا أقوم بذلك ، حتى الدوار انتهى ، كان ذهنى صافيًا ، وفكرت فى جدكم ، تساءلت ما الذى سيفعله حين يكتشف اختفائى ، فكرت فى أن خبر اختفائى لابد من أنه سينتشر بين الجيران ، وأن جدكم حتماً أرسل رسولاً إلى موطنى ، ولابد من أن البحث والتقصى قد بدأ"

" قرأ الرجل ذو العينين الناريتين أفكارى ، زأر قائلاً : " لا تقلقى ، إننى المسئول هنا ، اليوم سوف تتحولين ، سوف أقرر ماذا ستكونين ؟ ، لن تحتاجى فترة طويلة لتعتادى على العيش بالطريقة التى أريدها، أريدك أن تكونى مثل أولئك الذين يغنون ، ارفعى صوتك أعلى ! غنى ، أعلى "

"غنيت بصـوتى الحاد ، ثم شـرع الرجل فى الغناء بصـوته العميق الغليظ ، اقتربت الشـعلتان أكثر ، وعرفت مـا الذى يعنيه ؟ : كان الرجل الأسود يقـترب أكثـر فأكثر، وعـرفت من حركة الشـعلتين أن ذلك الكائن الوحـشى يرقص انطلقت أصوات الأطـفال بالغناء فى نشـاط متـزايد وهم يلقون بتعليق بين الفينة والأخرى إعجابًا بأداء الرجل الأسود، اقتربت عيناه الناريتـان منى جـداً، عندئذ ، لم يعد لدىّ شـك فى أن أيامى فى الحيـاة الإنسانيـة الطبيعـية قد انتـهت فى هذا الليلة كنت سأتحـول إلى واحدة من أشبـاه البشر، أولئك الذين رفـضت دائمًا الاعـتقاد فى وجـودهم ، كانت العينان الناريتان تثـقـبان دماغى ، بينما كان الشخص المرعـب واقفًا منفرج الساقين يغنى فوق جسدى المسـجى ، كان يغنى ، وكنت أغنى ، والجميع يغنون: هاسيسى ، هاسوسا."

"فجأة ، أمـسكت بى أيدى كثيرة خشنة ، رفـعونى فى وقت واحد عن الأرض ، واسـتـمـروا فى الغناء وهم يـرفعـونـنى ، ولم أتوقف عن الغناء، بينما راح الرجل يغنى فى صخب ، ثم تـكلم مرة أخرى : "اسمى بادلوزا، أنا الذى يغير الأشـياء ، سوف تنفذين مشيـئتى" ، بعد ذلك راح يغنى ، فكنت أرتفع أعلى . . . فأعلى . . . ، ثم بعد جذبة قوية طرحتنى الأيدى فى البركة ، بمجرد أن لامـست الماء ، نزل النبوت الضخم على أم رأسى ، وفقدت الإحساس بالمكان والزمان .

عندما أفقت ، كان جسمى مغمـوراً فى ماء مثلج ، شعرت بجسمى ينكمش ، ويغدو أصغر فأصغر، وهم مستمرون فى الغناء : "كوياخويا ، هيـا ، هاسيسى ، هاسوسا."

"آه يا أبنائى ، عندما أقول: إننى عجوز جدًا، فإننى أعنى بذلك شيئاً أكثر من العمر الذى يحسب بالسنين ، إننى أشير إلى تنوع، وعمق ، وكثافة التجارب التى مررت بها"

ساد الصمت بين الأبناء ، وأطل التشوق من عيونهم ، رأت "ما - ماسومى" تعبيرات التعاطف العميق ، وطلبوا منها أن تستمر فى الحكى.

" أبنائى، من الصعب الاستمرار، أعتقد أنه لا يجب أن أخبركم ببقية ما حدث لى فى تلك الليلة ، فقد كان شيئًا مرعبًا غاية الرعب ، إننى لن أنساه أبدًا حتى فى قبرى ، فى الحقيقة، ولأننى لم أمت فى تلك الليلة ، اعتقدت أننى لن أموت أبدًا، هناك مظاهر فى الحياة لا يصدقها الإنسان، إلى أن يمسك بالحقيقة العارية لتلك الأشياء ، عندما تسمعون عن الغواصين الذين قضوا فترات طويلة فى قيعان البرك العميقة ، وظلوا يتنفسون ، ربما تعتقدون أنها خرافات نساء عجائز ، ومن السهل أن تهزوا رؤوسكم بالإنكار فى ثقة عندما تسمعون عن أرواح الماء ، أو الجثث التى عادت للحياة وتحولت إلى عفاريت ، لكنكم عندما . . . حسنًا ، حسنًا ! دعونى أرجع للحكاية"

" كان جسدى مغموراً بالمياه المثلجة ، وشعرت به ينكمش ، ثم راح جسمى يأكلنى كأن جيوشًا من النمل الصغير تقضم جلدى ، وعلى الرغم من كل ما حدث فإن عقلى كان ما يزال صافيًا، تذكرت ما قاله الرجل الأسود عن كونى تغيرت إلى شيء آخر، وصممت على أمر: إذا كان يعنى أنه يريد تحويلى ، إذن فهو مخطئ خطأ كبيراً، فأنا لست على استعداد للتغير، وسوف أظل كائنًا إنسانيًا عاديًا ، اشتد القرص على جلدى ،

لم أكن أريد أن أتغير، فأنا غير مستعدة للانفصال عن "مالنجانى" أبدًا ! استمر المغنون فى الغناء ، وبرز فى المقدمة الزئير الغليظ للرجل الأسود ، وراح الآخرون يلثغون بنشاط وقوة مثلما كانوا دائمًا، إلا أن أصواتهم صارت مبحوحة ، ثم تحدث الرجل : "ما ـ ماسومى" ، إنك جوزة صعبة الكسر ، سأعبر بك الآن للمرحلة التالية ، وسوف تخضعين لمشيئتى . "

" شعرت بالأيدى مرة أخرى ، سحبونى خارج البركة وحملونى بعيدًا وهم يغنون أغنيتهم طوال الطريق ، حملونى إلى كهف واسع ، فى الضوء الخافت للنار التى كانت مشتعلة بالكهف النتن ، شاهدت كثيراً من الجماجم البشرية ، وجماجم قرود البابون ، وجماجم الكلاب ، وجماجم كثيرة لحيوانات غريبة أخرى ، وفى الضوء ذاته شاهدت ـ لأول مرة فى تلك الليلة الطويلة ـ أى نوع من المخلوقات التى تألفت منها جوقة الرجل الأسود ،كانت هيئتهم هيئة بشر، كل الذكور والإناث بالنظر إلى أجسامهم يظنهم الواحد أطفالاً ، فقد كانوا جميعًا قصارًا، لكن رؤوسهم كانت مثل رؤوس الكبار ، وكان للرجال لحى قصيرة ، وكلهم يلبسون "تنورات" من القش ، رقصوا وغنوا بحماس ونشاط أكثر ، ومع ذلك لم يعرقوا. "

" وبينما مازلت أتطلع حولى فى ذهول ، دخل الرجل الأسود ، لم يعد هناك المزيد من النار فى عينيه ، جاء وجلس إلى جوار النار ، ثم راح يغنى ، مرة أخرى أسر عينىّ إلى عينيه ، وبينما يواصل التحديق فى عينىّ راحت رأسى تدور مرة أخرى ، الرائحة الكريهة زادت من مشقتى وعدم ارتياحى ، تحدث الرجل : " ما ـ ماسومى ، هذه نهاية الطريق ، وكما تعرفين الآن ، فإن اسمى بادلوزا، لم يقاومنى أحد قط فى هذه المرحلة ،

هذه هى المرحلة الأخيرة ، "ما مـاسومى" ، إنك شخـص عنيد ، وأنا سعيد لأننى استحوذت عليك ، سوف تكونين مفيدة لى جدًا، أنتم هناك ، هيا ارقصوا! غنوا! "

" راحت الكائنات القصيرة ترقص بهمة أكثر من قبل ثم شكلوا صفاً واحـداً ، وتحركـوا حولى ، وهـم يرقصـون ويصفـقـون بأيديهم ، رَجَّع الكهف صدى الغناء ، ودقـات الأقدام ، وتصفيق الأيدى : "هاسـيسى، هاسوسا" .

" أمسك الرجل شقـفة من الشقفات الفخـارية المكسورة المحيطة بنا، ووضع بعض الجمرات فيها ، نثر بعض المسحوق فوق الجمرات المشتعلة ، وتصاعد دخـان أزرق من المسحوق المحترق ، أمـسك الرجل برأسى وأمال وجهى جـهة الأرض فـوق الدخان المتصـاعد ، ثم أمرنى أن اسـتنشق هذا الدخان ، عندما فعلت ذلك ، أحسست بأن رأسى قد انشق إلى نصفين ، وفجأة حل محل كراهيتى للكهف البشع ، حبٌ متقد لهذا المكان ، أحببت الرقص ، أحببـت الرجل الأسود ، وشعرت بكراهية شـديدة لجدكم ، بل وتمنيت ألا أراه أبدًا مرة أخرى ، ولأول مرة مـنذ صُرِعت أمام باب كوخى ، نهضت وانضممت للرقص .

" رقصت كـما لم أرقص حـتى فى يوم عرســى ، كل ما تمنيـته أن أتحول وأكون فى مـثل طول الآخرين ، أما فيمـا يخص الغناء ، فقد كنت ناجحة تمامًا وراضية عن نظرى ، ارتفع صوتى الحاد الندىّ عاليًا واضحًا ، حين كنت أقود الأداء الأفضل لأغنيتنا الرائعة :

هاسيسى ، هاسوسا،

شيا شيا، هاسيسى، هاسوسا،

كويا خويا، هاسيسى، هاسوسا.

"أبنائى ، تلك التجـربة هى أكثر تجاربى التى تسـتحق أن أذكرها من سنواتى المائة التى قضيتها فى الحياة "

سأل أحد المستمعين : "يا جدة ، ماذا حدث بعد ذلك فى الكهف ؟ إننى أراك ما زلت طويلة جداً ، كيف هربت ؟"

قالت العجوز مبتسمة : " أوه ، أنت وأسئلتك ! حان وقت الطعام ، أحضر كل الطعام الشهى اللين الذى لا يحتاج أى مضغ ، ثم سوف أريكم كيف تحتفلون ، لكن احنوا رؤوسكم أولاً ، ودعونى أتفحصها"

انحنت كل الرؤوس أمام العجوز ، صـفقت بيديها ، وصـاحت : " كما حسبت تماما ! الآن عرفت أنه ليس حقيقيًا أن تظهر القرون فى رأس أى إنسان يستمع لحكاية خرافية بالنهار !"

ضحك الجميع .

خارج النافورة

تأليف: دوريس ليسنج

كان يمكنني أن أبدأ القصة بأن أقول : في يوم من ذات الأيام كان هناك رجل يدعى "إفرايم" عاش في . . . لكن بالنسبة لهذه القصة ، فقد بدأت بسبب الضباب ، حيث تسبب ضباب باريس في تأجيل رحلة طيران إلى لندن نحو ساعتين ، ولذلك جلست مجموعة من المسافرين حول مائدة يحتسون القهوة ويتسلون بتبادل الحديث مع بعضهم .

راحت امرأة من "تكساس" تتندر بأنها الأسبوع الماضي كانت قد ألقت بعملات معدنية إلى النافورة في روما ، أملاً في حسن الطالع، ومع ذلك، لازمها سوء الحظ منذ ذلك الوقت ، وقالت الكندية إنها أنفقت مالاً كثيراً في إحدى العطلات ، ومنذ ثلاثة أيام عند النافورة نفسها ، حين لم يكن يراها أحد، حاولت استخراج العملات بمغناطيس ، وقال شخص آخر أنه في الليلة الماضية كان في مسرح برلين ، وكان بالمسرحية مشهد لفتاة ترمي النقود على خشبة المسرح ، بإيماءة احتقار كبيرة ، وهذا دفعنا إلى الحديث عن احتقار المال : دوسه بالأقدام ، وحرقه ، أو رميه ، أو أية طريقة طقسية غريبة أخرى تدل على هذا الاحتقار ، ففي الماضي لم يكن يحدث في الحياة مثل هذه الأفعال ، قالت عجوز من "نيويورك" : ليس بشكل مطلق ، فقد رأت بعينيها بعض الصبية من بائعي الزهور يحرقون المال

على الرصيف ، لإظهار احتقارهم له ، وأنها كانت تعتقد أن هؤلاء الأطفال لابد من أن أهاليهم من الأغنياء ، وهذا ما مهد للقصة، أو بمعنى آخر، كان الضباب.

إذا وضعنا فى الاعتبار الدور الذى يلعبه المال فى كل حياتنا، فمن الغريب أن نجد كثيراً من الكُتاب يجعلون شخوصهم تحتقر وتهين أوراق الدولار، والروبل والجنيه ، ما الذى يجعل جمهور المشاهدين يعودون لمنازلهم ، والقراء يغلقون كتبهم ، وهم يشعرون بأنهم تطهروا من المادة ؟ وأنهم يسمون عليها ؟

بينما قرأنا عن السلاطين الذين كانوا يلقون بالعملات الذهبية إلى الناس ، الذين كانوا يتدافعون عليها فى سعادة ، وأن الملوك كانوا يغدقون الذهب على وزرائهم المفضلين ؛ لذلك إذا كان قد قيل للناس : إن السماء تسقط أحجاراً كريمة ، فلم يكن ليتشكك أحد فى الأمر.

ومن الحوادث القريبة التى يتذكرها أى منا عن مثل هذه التصرفات الملكية، مكافأة أحد أقطاب الصحافة فى لندن، لصحفى شاب واعد (عن مقال أُعجب به هذا القطب) ، حيث أرسل له مظروفًا محشواً بأوراق البنكنوت فئة الخمسة جنيهات مع مرسال خاص ، إلا أن مثل هذا التصرف يفتح بابًا للتفسيرات الفظة القاسية ؛ ويظهر أيضًا المشاعر العدائية التى تملأ قلوب الزملاء الصحفيين ، ربما الخوف من القيل والقال أثار الرعب فى نفس المتلقى ، وربما يكون هذا هو السبب الذى يجعلنا نقدم تلك المشاهد المسرحية معكوسة ، ويفسر لماذا عندما نكون عند حافة نافورة سحرية ، نسرب عملة ؟! ، كأنها رسالة غرامية فى علاقة يعتبرها الحس الراقى مشينة ، سحر تعاطفى ، لكنه سحر صغير ، سحر مُصغر ، الاستدعاء

الأكثر خفية لآلهة الذهب و إذا ارتفعت يد من النافورة وألقت إلينا بالمال ، أو المجوهرات ، فالشيء الأكثر احتمالا ـ هو أننا نحن الذين تربينا وتثقفنا بالآداب الحديثة ، سنهزأ من ذلك ، وسنعيدها إلى النافورة ـ بالتمام والكمال مثلما يقال .

ثم تحدث الرجل الذى لم يتكلم من قبل وقال : إنه شاهد موقفًا كانت الجواهر تتساقط على الأرض ، فى أحد الميادين العامة بإيطاليا ولم يعدها أحد ، وأخرج حافظة من جيبه ، ثم أخرج منها ورقة مطوية مثل التى يستعملها الصاغة ، وفى الورقة كان شيء يشع ويضوى :كانت شريحة من الأوبال بألوان قوس قزح واللبن ، قال: أجل ، لقد كان هناك والتقط كِسرة واحتفظ بها ، بالطبع لم تكن نفيسة ، وقال: أنه كان سيحكى لَنا الحكاية لو كان هناك وقت ، فلبعض الأسباب كانت الحكاية أثيرة لديه ، لذلك لا يريد أن يحكيها بغير إتقان بسبب العجالة ، تكاثفت دوامات الضباب الناعم خلف الحاجز الزجاجى للمطعم، وأُعلن عن تأخير الرحلة مرة أخرى ، تأخير آخر لا مفر منه .

لذلك حكى لنا القصة ، ذات يوم قدمنى أحدهم إلى شاب يدعى " نيكى " ـ أو سموه ما شئتم ـ ولد أثناء الحرب العالمية الثانية فى إيطاليا. كان والده بطلاً، وأمه الآن زوجة للسفير فى ٠٠٠ أو قد أصادف فتاة ، ربما فى أتوبيس ، أو حفل عشاء ، يتدلى من عنقها سلسلة بها لؤلؤة، وعندما أسألها عنها ، قد تقول : " تصور أعطى أمى هذه السلسلة رجلٌ لا يمت لها بصِلة ، وعندما أعطتها لى قالت ٠٠٠ قد يحدث أحيانًا شيء بمثل هذه الطرِيقة : غير أن هذه القصة لها بداية مختلفة ، ليس سببها الضباب على الإطلاق .

كان هناك رجلٌ يـدعى "إفرايم" ، عاش فى "جـوهانسبـرج" ، كان والده يعمل فى مجال الماس، مثلمـا كان أبوه من قبل ، وكانت العائلة من المهاجرين ، هذه حقيقة مؤكدة عند كل الناس فى "جوهانسبرج" ، المدينة ذات المائة عام ، كان "إفرايم" الابن الأوسط ، ليس حـاد الذكاء ولا غبيًا ، ليس طيـبًا ولا شـريرًا ، غـير مميـز ، أصبـح أخواه تاجـرى ماس ، أمـا "إفرايم" فلم يكن يصلح لأى شىء مما ذكـرناه ، وفى نهاية المطاف أصبح حرفـيًا متـمرنًا لدى عمـه ، راح يتعلم حرفـة قطع وتشذيب الماس ، كى تقطـع ماسة قطعـاً جيـدًا ، فإن هـــذا يـشبه انغراز سيف السامـوراى ، أو تصويب رامى سهام بارع على المركز ، عندمـا يشكل الرجل ماسة قيمة ، ربما يقضى أسـبوعًا، أو حتى أسابيـع ، يدرسها ، ويستجـمع كل طاقات الانتباه والتـذكر والتخيل ، إلى أن يصل فـى النهاية إلى تلك اللحظة التى يعرف فيها ، أن نقرة واحدة على الحجر، فوق نقطة الجهد المحددة بالضبط ، سوف تفلقها على النحو المطلوب .

عندمـا كان "إفـرايم" يتـدرب على هذا العـمل ، عاش فى البـيت بإحدى ضواحى "جوهانسبـرج" ، تزوج إخوته و أخواته وكونوا عائلات ، أمـا هو فكان الابن الذى يتـروى فى موضـوع الزواج ، وهو الذى كـانت الأسرة تطلق عليه النكات ـ أنه مدقق صـعب الإرضاء ـ ثم كفوا عن ذلك عندما راح الآخرون يتـحدثون عنه بتلك اللهجة القاسيـة ، الغضبى ، مع بعض الخـبث ، بل والخـوف الذى يسـببـه هؤلاء الرجـال والنسـاء الذين يرفضون تحقيق الأغراض العادية للطبيعة ، أما الطيبون فقالوا: إنه ابن بار،

يعمل بهدوء تحت إشـراف عمه "بـن" ، ويعيش باحـترام فى البيت ، وفى ليال الآحاد يلعب "البوكر" مع أصدقائه من العُزاب .

أصبح فى الخامسة والعشرين ، ثم الثلاثين ، ثم الخامسة والثلاثين ، ثم الأربعين ، وصار والداه عـجوزين ، وماتا ، فـعاش وحده فـى بيت العائلة ، وكف الناس عن ملاحقته ، فلم يعد أحد يتوقع منه شيئًا.

ذات يوم مـرض الرجل الأول فى العـمل ، فطُلب من "إفـرايم" أن يحل محله فى السفر إلى الإسكندرية فى مهمـة خاصة ، فقد اشترى تاجر ثرى من الإسكندرية مـاسة غيـر مشـذبة هدية لابنته ، التى سـوف تتزوج قريباً ، وكـان يرغب فى أفضل تشذيب للماسة ، وقـد توج "إفرايم" بعد هذه الزيارة، كواحد من أساتذة العالم فى تشذيب الماس، سافر إلى مصر، حيث قضى بعض الأيام فى صـلة حميمة مع الحجـر الكريم بغـرفة هادئة فى بيت التاجر ، ثم قطعها إلى ثلاث قطع بديعة ، حلق وخاتم .

وبعد .. كـان يجب أن يركب الطائرة عائدًا للوطن ، لكن التـاجر دعاه لتناول العشـاء ، تلك الدعوة الغريبة ـ غير عاديـة – فـليس كثير من الناس يدخلون ذلك العـالم الثرى المـغلق ، لكن ربما كان التـاجر قـد تأثر بالأسـبوع الذى قضـاه "إفرايم" وحـده فى عزلة مـع الماسة داخل حـجرة هادئة.

قابل "إفرايم" على العشاء الفتاة التى كانت المجوهرات مقدرة لها ، والآن ـ ما الذى يمكن قـوله عن الأسبوعين الـلذين تبعا هذا العـشاء ؟ بالتـأكـيـد لم يعُـد هذا "إفـرايم" ، الصـائغ الماهر النكـرة القـادم من "جوهانسبرج" ، حين وقع فى غرام "ميـران " ابنة التاجر الأمير الجديد ،

لا شيء بسيط ، لكـن هذه المسألة غيـر العادية فى عـرفهم ، بانت فى رد فعل التاجر ، الرجل التقليدى المحافظ والد "ميران" عادية.

تقليدى ، عادى ، تافـه ، تلك مصطلحات هذه الجماعـة أو الطبقة التى تنتمى إليها "ميران كانطانيس" ، يعيشون فى مواطن متفرقة من مدن البحر المتوسط ، أثرياء جدًا، بذوق راق جـدًا، بل يتبعون أحدث الموضات العـالمية ، ويفـضلون "باريس" فى هذا ، و "لـندن" فى ذاك ، يقومـون برحلات إلى نيـويورك وروما ، يصطافـون فى أى منتجع يختـارونه ، فى نوع من التجـمع الغريزى ، فـيصبح الشـاطئ المناسب للعام ، و يتـقبلون تفاوت الآراء بصـدر رحب ، كانوا بشرا بلا أى شيء مميـز سوى ثرواتهم ، و"مـيران" التى تسـبى القلوب ، التى شـاهدها أول مرة عند النافـورة فى "الموسلين" الفضى المطرز ، دعنا نقـول ، إنها لم تكن الأكثـر جمالاً ، ولا الأكثر مـوهبة من بين حفنة من فتـيات الإسكندرية ، ولا من بين ألف وأكثر من فتيات مصر كلها ، ولا من مئات الآلاف من الفتيات فيما حولها من البلاد ، فأية واحـدة منهن لها مثل هذا النمط الخاص - نمط جـمالها: عظام دقيقة ، شعر فاحم ، عيون سوداء ، بشرة مشمشية ، لدنه .

عاشت "مـيران" فى هذا الوسط من التـرف المنتقى بعنـاية ، أحبت أمهـا وتشاحنت مع أخواتها ، واحتـرمت أباها ؛ الذى اعتزم تزويجها من " باولو" ، شاب من "أمريكا الـلاتينية" ، والذى معه سوف تسـتمر فى ذات الحياة ، لكن فى "بوينس أيريس" .

بالنسبـة لها ، كانت أمـسية عـادية ، عشـاء عائلى يحضـره صديق "بـابـا" ، لم تكن تعـرف بأمر الماسات.. فـهى مفاجـأة ، كانت ترتدى ثوبًا على مـوضة العام المـاضى ، وعقداً من اللـؤلؤ المقلد.. فقـد كانت

موضة هذا العام ارتداء اللؤلؤ المقلد ، وترك اللؤلؤ الحقيقى فى صندوق على التسريحة .

رأى "إفرايم" ابن صاغة الجواهر، اللؤلؤ المقلد حول تلك الرقبة ، فعذبه ذلك .

مع ذلك ، لِمَ هى ؟ "فجوهانسبرج" مليئة بالفتيات الجميلات ، ربما لأنه لم يسافر كثيرًا، وجوهانسبرج قاسية ، قائمة على الذهب ، كأن ناسها يتنفسون بقوة الذهب ، "جوهانسبرج" شمعية باهتة ، تزدهر أو تضمحل بثروات الذهب ـ (كأنها مدينة تناسب هذه القصة) ـ ربما تكون مثيرة، وعنيفة ، ورنانة ، لكن بلا غموض ، لا شىء متروك للخيال ، بلا أية أبعاد غير مرئية ، فى حين أن الإسكندرية ... هذا البيت مثلاً ، بأسواره الخارجية التى تخفى أى شىء ، جريمة ، أو تخفى بلاطًا سريًا لملك معزول ، يحيط بالبيت حدائق ، ونوافير ، و "ميران" ترتدى اللون الفضى ، والتى ... فى الواقع ، ربما لم تكن فى أفضل حالاتها فى هذا المساء ، كان هناك من قالوا : "إن لها ضحكة مزعجة"، فقد كانت الأسرة أحيانًا تمازحها بأنه لحسن حظها ليست مضطرة لكسب معاشها ، ربما دفعها شعور أثناء العشاء للمساهمة فى الضيافة ، فحكت قصة سطحية مهلهلة ماجنة عن صديقة ، بالتأكيد كانت تشعر بالضجر، فقد تثاءبت مرة أو مرتين ، ولم تحاول إخفاء تثاؤبها ، حدق فيها صانع الماس القادم من "جوهانسبرج" ونسى أن يأكل ، وسألها مرتين لماذا تلبس اللؤلؤ المقلد ؟، أصدرت حكمها عليه بأنه رجل أخرق ، وتجاهلته ، لم يعد للوطن ، أبرق يطلب مالاً .

كان يدخر هذا المال ، ويبخل به على نفسه ، لذلك توفر له قدر كبير منه يصلح لشراء لؤلؤة واحدة مثالية ، تلك التى قضى أيامًا يبحث عنها ، وقد وجدها فى آخر المطاف فى الشوارع الخلفية لحى قديم من أحياء القاهرة ، حيث ظل يساوم تاجرًا فارسيًا عجوزًا على فناجين قهوة لعدة أيام ، وكان هذا التاجر العجوز يعرف الكثير عن الأحجار الكريمة بنفس القدر الذى يعرف به هو ، ولم يكن يتاجر سوى فى أجودها .

وصل إلى بيت والد " ميران" بتلك الدُّرة ، وعندما أُجلس فى حجرة مفتوحة على ردهة القصر الداخلية ، حيث الياسمين يكسو الحوائط ، والسوسن يطفو على حوض الماء ، طلب الإذن بتقديم اللؤلؤة للفتاة .

كان غريبًا أن يدعو " بابا" هذا التاجر مرة أخرى إلى العشاء . وكان غريبًا أيضاً ألا يغضب ، فقد كان رجلاً داهية .. لا .. بل كان هو الدهاء ذاته ، لم تصدر عنه أى نظرة توحى بأن فكره تجارى "بحت" ، ولا نبرة من صوته ، ولا كلمة فى تركيب جملته ، إلا أنه كان واثقًا تمام الثقة من صحة تقديره لهذه اللؤلؤة ، أمام هذا الرجل الخرافى ، الذى لا يدخل بيته سوى الأثرياء ، جلس قاطع الماس النكرة ، الذى اعتزم أن يقدم لابنته ثروة صغيرة على هيئة لؤلؤة ، والذى لا يرغب فى شىء مقابلها .

شربوا القهوة ، ثم شربوا "الويسكى" ، وتحدثوا عن عالم الأحجار الكريمة والعُرس الوشيك ، ثم دعى "إفرايم" للعشاء .

جلست "ميران" على العشاء مقابل السيد الكهل ـ كان فى الخامسة والأربعين ـ الذى عرفته على أنه رجل أعمال صديق لـ"بابا" ، والذى كان عادة مهذبًا شديد التهذيب عندما كان ينظر إليه "بابا" . المشاركون

فى العشاء .. "ميران" وخطيبها "باولو" ، و"إفرايم" ، أما الأم والأخوات فكن يقمن بزيارة ، لم يحدث أثناء تناول الطعام شيء يذكر ، وكان العروسان الشابان فى غفلة عن الكهلين ـ فى النهاية ، أخرج " إفرايم" ورقة مطوية من جيبه ، وفضها عن لؤلؤة مثالية ، راحت تضوى مثل جسد وردى ، جسد فتاة فى العشرين - قدم هذه اللؤلؤة لـ"ميران" ، مع تعليق بأنها لا يجب أن تلبس أبداً لؤلؤة مقلدة ؛ وللمرة الثانية كان يتصرف بخشونة ، وتذمر ، أو لوم لنقص الكمال .

وضُعت اللؤلؤة على الحرير الأبيض فى ضوء الشمعة ،وكان " إفرايم" يميل بوجهه فى الضوء الواقع على اللؤلؤة ، هذا الوجه الذى كان من الصعب عليها تذكر ملامحه منذ أن رأته آخر مرة من أسبوعين .

بالطبع ، كانت لحظة غير عادية ، لكن لم تكن مفاجأة درامية ، بل كانت لحظة تفتقر إلى الذروة الحرجة ، مثل تلك التى كان ينقر فيها "إفرايم" ماسة ، أو مثل لحظة إطلاق رامٍ بارع لسهمه، نظرت "ميران" إلى والدها بحثاً عن تفسير ، كذلك فعل خطيبها . لم يبد على الأب أى ارتباك، أو تورط ، بل إنه ارتدى سمت الرجل المحايد ، كما لو أنه غير المختص بالحكم فى هذا الموقف ، ومن المحتمل أن "ميران" لم يكن لديها قط فى كل حياتها من قبل حرية اتخاذ قرار .

التقطت اللؤلؤة من على الحرير، ثم تركتها فى راحة يدها ، نظرت هى وخطيبها ، ووالدها إلى اللؤلؤة ، التى كانوا جميعًا قادرين على تثمينها ، بينما نظر " إفرايم" إلى الفتاة بتجهم ، رفعت أهدابًا كثيفة سوداء ونظرت إليه فى تساؤل ، وعيناها تنشدان تركها لحالها، كانت عيناه

تقران بالإحباط، وقالتا كل ما عبر عنه بالكلمات من قبل : لماذا ترضين بأشياء من الدرجة الثانية ؟

ـ غير معقول . . .

ـ شيء غير محتمل . . .

كانت فى هذه الليلة ترتدى " الأورجانزا " الوردى ، أخيراً هزت كتفيها هزة خفيفة وقالت لـ "إفرايم" : " أشكرك ، أشكرك جداً. "

نهضوا عن المائدة ، شرب الأربعة القهوة فى " التراس" ، حيث حرك قمر الإسكندرية المشاعر، وكان قبل يومين من اكتماله ، قمراً لا يشبه أبداً أيًا من تلك الأقمار التى تسطع فوق "جوهانسبرج" الصاخبة ، تركت "ميران" اللؤلؤة راقدة على راحة يدها تعكس ضوء القمر، وعيناها السوداوان تخاطبان "إفرايم" من حين لآخر ـ ولكن أيًا كان لون عينيه ـ فهذا لن يهم أحداً ـ كانتا عينا رجل يحذر ، أو يُذكر ، أو حتى يوبخ .

عاد فى اليوم التالى إلى "جوهانسبرج" ، وعلى التسريحة وضعت "ميران" علبة فضية صغيرة ، بداخلها لؤلؤة مثالية .

كانت ستتزوج بعد ثلاثة أسابيع .

انتشرت الواقعة فى الحال بين العائلة: ذلك اليهودى ، ضئيل الشأن ، المخبول ، وقع فى غرام "ميران" . . . ، وكان قبولها للؤلؤة يفسر على أنه تصرف كياسة ، وشفقة ، فـ "ميران أشفقت جداً على ذلك الشيء العجوز المسكين ، " هكذا هذبوا ما حدث ، وجعلوا الواقعة التى لا تُقبل فى حياتهم وعرفهم مقبولة ، لكنهم كانوا يعرفون ، بالطبع ، خاصة ميران، أن شيئًا آخر قد وقع .

عندما رفضت الزواج من "باولو" بمنتهى الظرف والرقة ، علق الأب والأم" كانطانيس" التعليقات التقليدية عن حماقتها ، وعقوقها ... إلخ ، وفى مثل تلك الحالات من الخطبة ، لا يتوقع انكسار القلوب ، لأن مثل هذه الزيجات تشبه الزيجات المرتبة بين السلالات الحاكمة ، فإذا لم تتزوج من "باولو" ، فإنها ستتزوج من آخر يماثله ..ثم إنها مازالت شابة بعد .

لاحظ الأهل أنها لم تعد لطبيعتها منذ حكاية اللؤلؤة ، قال الوالد فى نفسه ، إنه لن يدعو إلى مائدة عشائه مزيداً من المسافرين الذين يصلون ليلاً ، ورتبوا لها زيارة للأقارب فى إسطنبول .

فى غضون ذلك ، كان قاطع "الماس" فى "جوهانسبرج" يعمل فى مهنته ، يشذب الماس ويشكله خواتم خطبة ، بروشات ، دبابيس أربطة العنق ، عقود وأساور ، تخيل طبقًا مسطحًا من "الكريستال" يضوى كالماس متكتلاً بالورود ، كل وروده بيضاء ، بكل درجات الأبيض ، تخيل به ورودًا من مرمر أبيض بارد ، وأبيض يجاور لون القهوة ، وأبيض يميل للاخضرار يشبه لون أجنحة بعض الفراشات ، والأبيض حين يتورد ، وأبيض بلون الزبد ، وأبيض يقارب البيج ، وذلك الأبيض الذى يميل بالكاد للاصفرار، تخيل مئات من درجات الأبيض فى ظلال الوردة ، كل ذلك مصهوراً جميعا ، فطعم به طبق كريستال ووهبه لاسم "ميران" ؟ ربما أصبح من النادر أن يفكر فيها ، وإن كان يتخيل كل الأحجار الكريمة التى جمعها بدرجات اللون الأبيض ، ويبدع منها حلية .. أسورة أو عقد ، أو مشبك شعر، ويهدى كل هذا لاسم " ميران " ؟ وهل يهم لمن كانت

هذه الحلى ؟ راح يشتـرى الأوبال الذى يشبه الضبـاب الرقيق المعلق خلف زجاج تتموج وتختفى عليه الأضواء ، والأوبال بلون اللبن الذى أطفىء فيه نار ، والأوبال بلون نَفس فتاة تكثف فى ليلة صـقيع ، اشترى اللآلئ كل واحدة على حدة ، وكل واحدة مـثالية ، اشترى الصدف، وأحـجار القمر التى تشبـه الماس المغبش ، اشتـرى حتى اللمبات الـزجاجية التى صـممت لتعكس الضوء بشكل فريد ، واشترى "اليشب" الأبيض "والكريستالات" ، وجمع شظايا الماس ، كل هذا ليركبه على اللؤلؤ و الأوبال المطفأ المكتوم ، ليضفى عليهم بريق الأحجار الأخرى ، واحتفظ بهذه المجوهرات فى ورقة مطوية وضعهـا بعلبة سجائر صغـيرة ، بعد ذلك نقلها فى علبـة أكبر ذات تجاويف ، ثم نقلهـا إلى علبة أكـبر كان يوضع بهـا السيجـار ، لعب بهذه الأحجـار الكريمة ، وجرت أحلامه حـولها ، وراح يرتبهـا فى عقله بآلاف الطرق ، أحيـاناً كان يتـذكر فتـاة غاية فى الأناقة، كـانت ترتدى الموسلين الفضى : وشيئًا فشيئًا ، أصـبحت الذكرى مثـل بطـاقة بريـدية رقيقـة ، أو "روزنامة" عتيقة .

تزوجت "ميران" فى أسطنبول دون موافقة عائلتها من مهندس إيطالى شاب ، لم تكن لتقبله فى حياتها العـادية ، كان عمها يعمل فى إعادة بناء "يخت" ، عندما دخلت "ميران" ، كـان المهندس فى مكتب العم لمناقشة العـمل فى إعادة البناء مـعه ، كـانت البـادئة : هكذا استـدعى الموقف ، المهندس فى السـابعة والعـشرين، بلا شئ سـوى راتبه، وبلا أية توقـعات خاصة لمستقبله، يدعى " كـارلوس" ، ويعمـل بالسياسـة. أو على وجه

الدقة ، كان ثوريًا ، متمردًا ، متآمرًا ، ولم تكن بالسياسة قد دخلت عالم ميران ، أو على الأصح نستطيع القول إن هذه العائلات هى السياسة بطريقة ما ، فالسياسة مظهر لثرواتهم ، إلا أن هذا كان يُرى فقط عند عقدهم الصفقات التجارية الضخمة التى لها طابع دولى ، ويكون صيت الصفقة له دوى يماثل دوى التحالفات والخلافات بين الدول .

أطلق "كارلوس" على "ميران " الأوزة البيضاء" ، عندما حاولت أن تؤثر عليه بمكانتها . وأطلق عليها " العاهرة الصغيرة الغنية" وتعطف عليها باصطحابها إلى اجتماع مع الشباب الجادين ، رجالاً ونساءً الذين يناقشون موضوع الحرب الوشيكة ـ وكان العام ١٩٣٩ ، وهذا يتماشى وطبيعة مثل هذه العلاقات : فعائلتها كانت ترى أنها تلقى بنفسها فى الحضيض ، وهو وكل أصدقائه اعتبروه مكسبًا لها .

ولكى تمنح نفسها الشجاعة فى حسم نزاعها معه وتكون كفأ لبطلها الشاب البارز ، كانت تفتح علبة فضية صغيرة ، حيث رقدت اللؤلؤة فى الحرير، وتقول لنفسها إنه يظن إننى بلا قيمة . . .

تزوجت كارلوس فى نفس الأسبوع الذى تزوج فيه "باولو" فتاة من السلالة الحاكمة فى فرنسا ، انتقلت " ميران" إلى روما وعاشت فى فيلا بلا خدم يخدمونها، وبلا شىء تلجأ إليه سوى ذكرى رجل يصعب وصفه ، كان قد جلس أمامها طوال سهرتى عشاء مملتين ، ثم أهداها لؤلؤة كأنه يلقنها درسًا ، كانت تفكر فى أنها طوال حياتها لم يطلب منها أحد غيره أى شىء ، أو يسألها رأيها عن شىء ، لم يأخذها أحد قط على محمل الجد .

بدأت الحـرب وعـاشت العـروس التى احـتلت مكانهـا فى "بوينس أيريس" فى ترف ، أما "ميـران" فأصبحت ربة بيت فقيـرة ، ترى زوجها الذى كان ثائرًا ضد الفاشست و "موسولينى" ، مجُندًا إجباريًا فى جيوش "موسولينى" ، ثم رأته يذهب للقتال بعيدًا ، بينما كانت تنتظر مولودها الأول .

التهمتها الحرب ، سُمع عنها مرة أخرى عندما مات بطلها وطفلها الأول، وكانت قد اكتـشفت حملها الثانى بعد فى الزيـارة الأخيرة لـ"كارلوس" ، ومن المنتظر أن تلد خلال شهرين ، عاشت فى مـدينة صغيرة بوسط إيطاليا بلا موارد ألبتة ، كبرياؤها يمنعـها من الاتصال بأهلهـا : فقـد أقسمـت ألا تستجدى موافقة أهلهـا تحت أية شروط سوى شروطها ، وكانت عائلة زوجها تعانى معاناة شديدة ؛ فقد كانت تعيش فى حجرة ببيت عمة زوجها .

كان الألمان يتراجـعون عبر إيطاليا: ومن ورائهم جـيوش الحلفاء . . . لكن هذا يتردد كتاريخ رسمى للحرب .

فلنعـد للطرف الآخر: بطـول وعرض شـبه الجـزيرة التى دمرتهـا ، وخربتهـا، وأجاعتها الحـرب كان جيشان غريبـان عن مواطنى البلد ، فى تحرك دائم ، جيش ينسحب إلى جسم أوروبا والآخر يتبعه ، وكانت هناك بعض الأماكن الجغـرافية تتقابل وتتمـازج فيها أجساد الجـيشين تمامًا ، ولا يفرق بينهما سوى الزى ، كلا الجيشين مـستدفىء ، رجاله يلبسون جيدًا ، يتغذون جيدًا ، مزودون بالكحوليات والسجائر.

فى أحد الجيوش ، كان رجل يدعى " إفرايم" جنديًا غير مقاتل . . لأنه كان كهلا لذلك ألحق بجهاز الإمداد "عـريفًا " غير لافت للنظر مثلما كـان فى الحيـاة المدنية ، طوال السنـوات الأربع التى قضـاها جنديا ، فى

أقصى جزء من شمال إفريقـيا ، كان يسعى وراء هدف خاص ، أو هاجس استـحوذ عليـه مدفوعـا إلى البحث عن الأمـاكن أو الناس الذين يمكن أن يضيفوا شظية قزحيـة اللون أو جوهر براق إلى الكتلة التى يحملها فى علبة صفيح مسطحة داخل "مخلتة" .

وجد فيـه الرجال وفى انشغاله مـادة تسلية لطيفة ، لم يكن مـحبوبًا تماماً ، ولم يكن مكروهًا لدرجة أن يصبح هدفًا للسخرية ، لم يسخروا منه ولم يدعوه مـجنوناً ، ربما كان أكـثر شبهًـا بذلك الكلب ، حيـوان الفوج المدلل ، ذات مرة نسى أين وضع علبته الصـفيح التى بها ثروته ، فجازف رجلان وتعرضا للخطر مـن أجل إعادتها : فقد كان أحيـانًا يحضر له أحد رفـاق السلاح قطـعة صـغـيرة من حـجـر ما ، أو يلتـقط آخـر من بازار "كهرمان" أو تميمة من "اليشب" ، كان ينصحهم كيف يساومون ، وقـام معهم بزيارات لشراء هدايا من الأحجار الكريمة للزوجات والبنات يقدمونها هدايا عند العودة للوطن .

هذا الأسبـوع كان فى إيطاليا ـ عندما كـان كل شيء متفسـخًا ، أى إنسـان دخل الحرب ، أو اقـترب منهـا ـ فى ذلك الوقت - هذا يعنى كل إنسان فى أوروبا ـ يعرف فترة التفسخ تـلك التى قد تمتد أسبوعًا أو أياماً ، وأحيانًا تكون مجرد ساعات ـ عندما يتداعى كل شيء ، ويتلاشى كل نظام بما فى ذلك الحدود التى تعين الفرق بين عدو وآخر .

فى فـترة التـفسخ تلك ، تُصـفى كل أنواع الحـسابات القـديمة ، إنه الوقـت الذى يُقتل فيه الضبـاط المكروهون "صدفة " ، الوقت الذى يقتل أو يضرب فيه رجل رجلاً آخر يكن له كراهية، والرجل الذى اشتهى امرأة

يغتصبها إذا كانــت بالمكان ، أو يغتصب امرأة أخرى بدلاً منها إذا لم تكن موجودة ، أما اللائى يرغبن فى الاغتصاب فعليهن التواجد فى المكان الذى يغتــصبن فيــه ، والمرأة التى تكره امرأة أخــرى سوف تُقدم علــى إيذائها ، باختصار ، إنه وقت الفوضى، والسلب ، والحرق المتعمد ، والتخريب من أجل التخريب ، يعتقــد البعض أن هذا الوقت الخارج عن النظام المعتاد هو سبب الحــرب ، كلها مظاهر تــختفى وراء مــا نراه ، فيــما بعــد لن توجد سجلات لما حدث ، فلا أحد يحتفظ بالسجلات ؛ فكل واحد سوف يكون مشغولاً بالمشاركة فى الغنيمة ، أو بحماية نفسه .

كــان " إفرايم " فى مــدينة صغــيــرة قرب "فلورنســا" حين وصلت الحرب إلى تلك الحالة ، وكان معــه " كوربورلا " من چوهانسبرج "أيضاً" ، عيناه تلمــعان كلما تحدثا عــن علبة " إفرايم" الممتلئــة بالمجوهرات ، ذات مساء ، عنـــدمــا كان كل إنسان إما صائدًا أو فــريسة ، مناوراً من أجــل مصلــحــة أو متبــعًا حــسب الريح ، كان هذا الرجل ، الذى هــو صاحب دكان فى الحــياة المدنيــة ينظر داخل حجــرة "إفرايم" ويكشر عــن أنيابه ، عرف "إفــرايم" ماذا عليه أن يتوقع ، كل واحــد عرف ما يتوقــعه ، وفى مثل هذه الحالة عــادة ما تطفو المعارف والغــرائز القديمة على السطح ، ترك "إفرايم" فــصل المدرسة التــى كانوا يقــيمون بهــا فى هدوء ، وكانــت قد تحــولت إلى مطعم للجنود هذا الأســبــوع ، خرج مــبكراً فى الظلمــة إلى الشوارع الخالية بسبب الخوف ، حيث كانت الحوائط ما تزال تهتز ، وتنهال سحــابات التراب من جراء قــصف المدافع القريبة ، إلا أن الشــوارع كانت هادئة أكثــر مما ينبغى ، صــمت رعب بارد يصيب بالغــثيان ، وأيدى غــير مرئية توضع فوق الأفواه ... الشــخص الذى يمر عرضًا فى تلك الشوارع

يجب أن تسبقه عيناه ، ويطبق فمـه ، فى هذه الحالة إذا تقابل شخصان ، فإنهمـا لا يريان بعضهمـا سوى للحظة ، حين تصطدم العيون فى مـعركة تساؤل ضاريـة ، خلف مصراع كل نافذة ، أو عنـد ناصيـة شارع ، أو باب ، سواء كـان الناس واقفـين أم جالسين أم منحنيين ، فـإنهم ينتظرون الوقت الذى تنتـهى فـيـه حـالة الخروج علـى النظام وفى مـتناول أيديهم الأسلحة والآلات الحادة .

مشى " إفـرايم" خلال تلك الشـوارع ، لم يره "الكوربورال" حين خرج ، لكنه الآن لابد من أنه قـد استشعـر ذلك ، فى أية لحظة سينقض على "إفرايم" الذى يحمل علبة صفيح مسطحة فى يده ، والذى كان أثناء تجواله يتطلع داخل فجوات الجدران ، وإلى الأرصفة ، ويحدق فى الكنيسة التى انسدت حـتى نصفهـا بالأنقاض ، ويتحـقق من الأرض التى مزقتـها شظايا القنابل ، بل ويرفع بصره إلى فروع الأشجار حينما كان يمر بالنباتات الناميـة عند مداخل البيـوت ، أخيراً ، وعنـدما مر بالنافـورة التى انسدت بالأنقاض ، انحنى للحظة ودس علبته فى الطين ، ثم مشى مـبتعداً بسرعة دون أن يلتفت ورائه ليتحقق من أن أحـداً لم يره ، وعند ناصية الكنيسة ، قابل الكوربورال " فان دير ميرف " ، عندما ظهر " إفرايم" أمام عدوه ، كانت يداه فارغـتين ، فـوقف ساكنًا ، كان "الكوربورال" رجلاً ضـخمًا ويصغره بعشـرين عامًا ، ألقى "فان دير ميرف" عليـه نظرة جهمة ، دالة على ما يملكه من دهاء ـ تشبه إلى حد ما نظرة والد " ميران" عندما سمع كيف أن هذا الرجل النـكرة اعتزم أن يهـدى ابنته لؤلؤة نفيـسة بلا أى داع على الإطلاق ـ وحين اقـتـرب منه ، رفع " إفرايم" يـديه فى الحال فـوق رأسه كأنه أسيـر يستسلم، بينما " فان دير ميرف" يفـتشه ، فى لحظة كاد "إفرايم" أن يقـتل : حين فقد توازنه ، إلا أن مـرور مجمـوعة من الجنود

كانت تسلب الصور والأشياء الثمينة من كنيسة أخرى أنقذه ، فانصرف انتباه "ڤان ديرميرڤ" إليهم ، وراح يراقب "إفرايم" وهو يمشى مبتعداً ، ثم أسرع " الكوربورال " ليلحق بالنهابين ، بمضى الزمن انتهى موسم الفوضى ، وكان "إفرايم" على بُعد مائتى ميل شمالاً ، ثم بعد سبعة أشهر كان فى مدينة تبعد عشرة أميال عن مكان المدينة التى كاد أن يُقتل فيها على يد أحد مرءوسيه ، لكن تلك الحادثة تلاشت ودفنت فى نسيج أبعاد أخرى - طلب "إفرايم" تصريحاً بالخروج مساءً ، وسافر إلى المكان الذى كان يتخيله : سيمشى فى الشوارع المهجورة إلى نافورة ممتلئة بالأنقاض وبجوار هذه النافورة سيجثو ، ويدس يده فى الماء العطن ويسترد كنزه .

إلا أن الصورة اختلفت ، فقد امتلأ الميدان بالناس ، ولم يعد ذلك الزمن الذى كان هناك مقهى واحد لا يقدم سوى القهوة أو الماء برائحة المطهرات ، الآن المقهيان ممتلئان بالناس الذين يتضورون من الجوع تقريبًا ، لكنهم يعيشون أشكال الحياة العادية ، والمقهيان يقومان على خدمة الزبائن بتقديم كميات لا محدودة من النبيذ الرخيص ، الجميع مخمورون ، أو مترنحون من السكر ، فى بلد النبيذ ، عندما لا يوجد طعام ، يصبح الخمر نوعًا من الطعام ، احتياج مثل الطعام ، مشى "إفرايم" بمحاذاة النافورة ، ورأى الماء الآسن ، ملوثًا إلى حد لا يدع أحدًا يفكر أن يرى ما به ، أو أن يزيل الأنقاض ، وبين الأنقاض يرقد كنزه .

جلس على الرصيف إلى منضدة خشبية متصدعة تحت مظلة ممزقة وطلب قهوة ، كان الجندى الوحيد هناك ، أو على الأقل ، البذلة الرسمية الوحيدة ، حيث كان المد والجزر الأساسى للجنود يُعّمر جانبًا وحيدًا من هذه المدينة الصغيرة ، البذلة الرسمية كانت تعنى المقايضة ، تعنى الطعام ، والملبس ، والسجائر ، فى طرفة عين كان ستة من الصبية رهن إشارته يعرضون عليه الفتيات ، ونساء من كل الأعمار يمشين بتؤدة قرب المقهى ، يظهرن أنفسهن بطريقة أو بأخرى محاولات جذب عينيه ، حيث وصلت حال النساء فى تلك المدينة إلى الحالة التى نصفها ـ بأنهن على استعداد لبيع أنفسهن مقابل سيجارة ، أما العجائز من النساء والشيوخ من الرجال ، والمشلولين ، وكل أصناف البشر ـ مدوا أياديهم إليه بأشياء تافهة .. ولاعات ، ساعات ، أباريم قديمة ، حليات معدنية ، أو زجاجات أو بروشات – وهم يأملون فى الحصول مقابلها على شكولاته أو طعام ، استمر "إفرايم" جالسًا ، يأسف فى قرارة نفسه لأنه لم يحضر معه بيضًا أو معلبات أو شكولاته ، لم يتصور ذلك ، جلس والناس الجوعى ووجوههم الحادة التى تلمع من حمى الخمر ، يتزاحمون ويلحون عليه ، وأجساد اثنتى عشرة امرأة أو نحو ذلك ، عدلن أنفسهن على هذا الوضع أو ذاك ليعاينهن ، شعر بالغثيان ، هم بالرحيل ونسيان أمر علبته الصغيرة الممتلئة بالمجوهرات ، عندئذ جاءت امرأة بادية التعب ، بطنها مرتفع أمامها ، ورداءها غُسل كثيراً ، جاءت وجلست إلى منضدته ، ظن أنها جاءت لبيع نفسها ، لم يطق النظر إليها ، فلم يقدر على احتمال فكرة أن امرأة حامل قد وصلت بها الحال إلى هذا الوضع .

قالت : "ألا تذكرنى ؟ "

راح يتطلع كل منهما - متفحصا - وجه الآخر، كان ينظر إلى "ميران" ، وكانت تحاول أن تعرف كنه ذلك الشيء الذى غير حياتها ، أن تكتشف المعنى الذى جسدته تلك اللؤلؤة التى تحملها معها فى قطعة قماش صغيرة مخاطة فى قميصها الداخلى .

جلسا يحاولان تبادل الأخبار ، لكن هذين الشخصين لم يكن لديهما إلا قليل من الأشياء المشتركة ليقولاه لبعضهما: كيف كذا وكذا ؟ ما الذى حدث له ولها ؟ .

انسحب سكان البلدة الجائعون إلى طريق جانبى صغير ، لأن هذا الرجل صديق لـ" ميران" ، إذن فهو صديق لهم .

بقيا معا ساعتين ، غلبهما الارتباك ، كان واضحًا لكليهما ـ أنه مهما كانت الأحداث التى وقعت ، خطيرة أم لا ، فإنهما لم يكونا على استعداد للخوض فيها ، تلك الأحداث إذا رجعا لحقيقة ذاتهما كانت غريبة ، وإذا كانا صادقين ، فإنهما غرباء عنها أيضًا ، فلم تكن المسألة أنها فتاة من الإسكندرية لا تنسى ، وقد أصبحت امرأة مغبرة تنتظر ولادة طفل فى بلدة حطمتها الحرب ؛ لم تكن المسألة أنه لأجلها حمل معه خلال سنوات الحرب الأربع ثروة من المجوهرات ، بعضها نفيس وبعضها غير مبالغ فى قيمته، والبعض عديم القيمة ـ إنما المسألة أن هذه القطع الصغيرة من الأحجار الكريمة جمعها شىء واحد مشترك تعود إليه كل قيمتها إلى: ارتباطها بأشياء أخرى طيبة ، ارتبطت كلها على نحو اعتباطى ولفترة قصيرة ، باسم "ميران" .

أصبح الجلوس هناك شيئًا لا يطاق ، يشـرب قهوة صنعت من حبوب محـروقة، وكل العـيون الجائعـة جوعًـا شديدًا مُسلطة علـيه ، على ذلك الجندى ، الذى جـاء بكل قـسوة إلـى بلدتهم التى تتـضور جـوعًـا ويداه فارغتان ، كان مضطـرًا أن يرحل ، فقد وصل إلى هذه البلدة جالسًا على حافة عربة فلاح ، فلم يكن هنـاك وسيلة ركوب أخرى ؛ وإذا لم يحصل على "توصيلة" من نفـس النوع فإنه سيضطر أن يمـشى عشرة أميـال حتى يصل إلى المعسكر قـبل منتصف الليل ، على الجانب الآخـر من الميدان ، ظهر قمر رطب جائع، لا يشبه قمر مدينته ، ولا قمر الإسكندرية البرى ، أخيرًا، نهض ببساطة ومشى إلى حافة النافورة ذات الرائحة البغيضة ، ركع عند حافتـها ، دس يده داخلها ، صادفته كل أنواع الأشـياء اللزجة ، ربما فئران أو قطط ميـته أو حتى قطع صغيرة من أجسـاد بشر موتى وبعد وقت من تلمس وتحسس يده للأشـياء ، شعر بالكـتلة المألوفة لعلبته الصـفيح ، سحبها ، جففها ببعض أوراق الصحف القديمة التى كانت تطير هنا وهناك ، وعـاد إلى المنضدة ، ثم جلس وفـتح العلبـة ، الضوء والهـواء هما غـذاء اللآلئ . . لا يحب الأوبال الابتعاد عن الضوء الذى يبعث أعماقه للحياة ، أفرغ الكومة اللامعة على المنضدة الخشبية المتصدعة فراحت تضوى حيث لم يصل الماء إليهـا، طوقهما كل الناس الجوعى وراحـوا ينظرون إلى الجواهر وهم يتخيلون الطعام .

أخرجت من صدرها قطعة قماش صغيرة ، حلتها وكشفت عن لؤلؤتها ، سلمتها إليه .

قالت : " لم أفكر فى بيعها قط "

راح ينظر إليها بعبوس ، مثلما فعل فى الماضى .

قالت ـ بالإنجـليزية الجميـلة للذين تعلموها من مربيات الأطفال ـ :
" تعرف ، أحيانا أكون جائعة ! ليس عندى خدم . . . "

نظر إليها ، أوه ، لكم عرفت تلك النظرة ، لكم تأملتها فى ذاكرتها! مزيج من الغضب ، والأسى ، لكن بالأساس ، خيبة أمل ، والأكثر من ذلك ، رسالة تنبيه أو تحذير ، أحست نظرته تقول لها : " أنت أيتها الإوزة البيضاء السـخيفة ! العاهرة الصـغيرة الغنية ! التافهـة المسكينة ! لما تفهمين دائمًا خطأ ؟ لما أنت غبية ؟ ما قيمة اللؤلؤة بالنسبة لمعناها ؟ إذا كنت جائعة وتحتاجين المال ـ بالطبع ـ تبيعينها !

جلست فى ذلك الصمت المفاجئ الذى يقـال عنه : أن الإنسان يقاوم البكاء ، امتلأت عيناها الجميلتان بالدموع ، وقالت بعناد: " لن أبيعها أبداً ، أبداً ، " أما هو ، فراح يدمدم : " كان يجب أن أحـضر طعامًا معى ، لقد كنت غبيًا ، ما قيمة هذه الأشياء . . .

قرآ فى العيون الجـائعة المحيطة بهما ، أنهم يعتـقدون فى وجود نساء ورجال ـ حتى فى أوقـات المجاعة ـ لديهم طعام مُخبـأ ، يشترى بالذهب والجوهر .

قال للأطفال والنساء والمسنين : " خذوهـــا . "

لم يفهموا قصده ، لم يصدقوه .

قال مرة أخرى : " هيا ، خـذوهـا ! "

لم يتـحـرك أحـد ، عندئذ وقف وراح يقـذف فى الهـواء اللآلئ ، والأوبال، وأحجار الـقمر، وأحجاراً كـريمة من كل نوع ، سقطت كيـفما اتفق ، فى لحظات ساد مشـهد جنون ، تدافع وتزاحم الناس بالمناكب، ثم

صار الميدان فارغًا ، تسابق الناس بما التقطوه من التراب إلى العودة للأركان التى يعيشون فيها .

لم تحتج الأسطورة زمنًا لتنتشر، حكاية الجندى الذى قَدم إلى البلدة ، وبطريقة متعذر تفسيرها ، أخرج من النافورة كنزاً ، و قذف به فى الهواء مثل ملك أو سلطان ـ كنزاً غامضًا ، خصبا ، كأنه كنز ملك ـ ثم يأتى رجلٌ ويلتقط ماسة براقة ، تتحول بعد ذلك لزجاج براق عديم القيمة ، وآخر حصل على لؤلؤة صغيرة (لم تختر بعناية) فكانت قيمتها تكفى شهوراً من الطعام ، أو حتى شراء منزل أو مزرعة صغيرة .

قال إفرايم لرفيقته : " يجب أن أنصرف. "

أحنت رأسها مودعة، مثلما يحدث بين المعارف الذين يتقابلون باستمرار ، وراحت تراقب الرجل الأشيب ، البدين ، النكرة ، وهو يبتعد متجاوزاً النافورة ، والكنيسة ، إلى أن اختفى عن الأنظار.

بعد هذه الليلة ، أخرجت اللؤلؤة وأمسكت بها فى يدها ، إذا باعتها سوف تعيش فى راحة ، مستقلة عن عائلتها ، وهنا ، فى دائرة أسرة زوجها الميت ، قد تتزوج مرة أخرى من مهندس آخر أو موظف: فى هذه الحالة تكون اللؤلؤة ذات قيمة كبيرة ، حتى وإن كانت أرملة لها طفل . وبالطبع ، إذا عادت لأسرتها ، سوف تتزوج مرة أخرى ، كأرملة شابة ثرية لها طفل تخلف عن الحرب المخيفة ، التى لحسن الحظ انتهت الآن .

جال بخاطرها كل هذا: فى النهاية رأت أن ما تقرره لا يشكل أى فرق عندها ، ما أداه تدخل "إفرايم" فى حياتها ، قد انتهى عندما رفضت الزواج من "باولو"، وقد تزوجت من "كارلوس" ، وجاءت إلى إيطاليا وأنجبت طفلين ، مات أحدهما بأحد أمراض الأطفال التافهة، الذى كان

قاتلاً فحسب بسبب نوعيـة طعام الحرب .. عنـف الحرب ، لقد انحرفت عن مثالها ، عن بيئتها ، وسُحقت بسبب اللؤلؤة ـ وبشيء آخر ، لا شيء الآن قادر على إعادتهـا مثلما كانت من قبل ، لـم يعد يهم إذا أقامت فى إيطاليا أم عادت إلى الدوائر التى ولدت فيها.

أما "إفـرايم" ، فقـد عاد إلى "جوهانـسبرج" بعـد انتهـاء الحرب، واستمر فى تشذيب الماس ، ولعب البوكر فى ليالى الآحاد .

انتهت هذه الـقصة مع النداء على رحـلة الطيران ، حين مشـينا على الطريق الإسفـلتى ، كان خيط رفـيع من الضبـاب مازال عالقًـا بالمكان ، وسألت السيدة التى من "تكســاس" الرجل الذى حكى القصة : " هل من المحتمل أن يكون هو "إفرايم" ؟ "

قال د. روزن : " لا ، إن إفـرايم رجل فى الستين تقريبًـا ، يقيم فى جوهـانسبرج ، رجـل نشط ، أنيق ، لا شيء يميزه مـثل كل المواطنين فى العالم . "

لا ، ليس هو "إفرايم" بالتأكيد .

إذن كيف عرف كل هذا ؟ ربما كان هناك ؟

نعم ، كان موجودًا هناك ، وأنه لو حكى ملخـصًا لحكاية كيف جاء هذه المائة ميل ، لكانت قصة أطول من التى حكاها .

ربما كان يسـعى وراء علبة "إفـرايم" هو أيضًا ! نسـتطيع التفكيـر بهذه الطريقـة إن شئنا ، وقـد يكون لنا عـذر أن نظن ذلك ، فقـد كان بالعلبـة الصفيح ثروة ، عرف بها كل رجل فى الفوج .

هل هو صديق لـ"إفـرايم " ، حسنًا ، يمكنه قـول ذلك ، يمكنه قول إنه يعرفه ، فهو فى الخمسين تقريبًا .. نعم قد يكون صديقًا له.

جلس د. "روزن" فى الطائرة يقرأ دون أن يطلعنا على شىء آخر ، لكن ، ذات يوم ، قد أقـابل شابًا يدعى "نيكـى" ، أو "رفائيل" ؛ أو فتاة تعلق حول عنقهـا سلسلة يتدلى منها لؤلؤة ، أو ربما أقابل امرأة فى منتصف العمـر قد تقول : إنها تعتقـد أن اللآلى تجلب سوء الحظ ، وأنها لن تلمسها أبدًا ، فقـد أعطى رجل لأختها ذات يوم لؤلؤة ، وهذه اللؤلؤة دمرت حياتهـا تمامًا ، قد يحدث شىء مثل هذا ، وقد يكـون لهذه القصة شكل مختلف .

إيكاترينا

أليف: چاك كوب

إعلان عن الوصـول إلى أثينا، طوى الرجل فى المقعـد المجاور بعض الأوراق ، وبدا ضجرًا، قلت له: " رحلات الطيران تغير أفكار الإنسان عن المكان والزمان والوطن ، فى الحـقيقة لم تعد هناك بلاد بـعيدة قط ، على الأقل ليس بالمفهوم القديم ، فلم تعد هناك أماكن تبـعد عن بعضها البعض أكـثر مـن أربع وعشـرين سـاعـة، إن تلاشى الحـدود أصبح مـسـألة وقت فحسب. . "

ضحك .

قلت: "ما الغريب فى ذلك ؟ من حيث جئت ، ما زال الناس هناك يقدرون المسافـة بالأيام ، فيقول الواحد إنه يقطـن على بُعد يومين فى اتجاه الغرب ، وهذا يعنى مشى يومين. "

" يبدو هذا بالنسبة لى أمرًا يمت لما قبل التاريخ "

كان الرجل أمريكيًا وتعين علىّ شرح طبـيعة الأشياء فى بعض أجزاء إفريقيا ، فقد كنت أعمل طوال خمسين عامًا فى الأماكن الأكثر بدائية .

تابعت: " لقد حطمنـا البُعد الرابع ، لكن عقـولنا لم تستوعـبه ، لا نعرف ما الذى أصـابنا، أصبحنا مثل المراهقين ، خطـرة ، وتضاءل العالم وأصبح صغيرًا"

ظن الأمريكى أننى غير طبيـعى ، وقال : " قادم من جنوب إفريقيا ، أعتقد أنه كان يجب أن تكون أسود وتتحدث لغة "الزولو" "

أجبته : "إننى أتحدثها . "

ترك الرجل الطائرة فى أثينا ، وافـترقنا بلا أى أسف ، لم يكن يشك فى أننى متلـهف للعودة إلى "جوهانسـبرج" ، التى - بحـساب الزمن - تبعد بقدر اثنتى عشرة ساعة فـقط ، لكن بحساب المكان ، تبعد عشرة آلاف فرسخ ، وفى إفريقيا، ينتفى الزمان وتنتفى الأبعاد بعناد .

لم أكن من قبل فى أثينا ، فـأسرعت أنزل السلالم حـتى أزرع قدمى لأول مـرة فى التـربـة الإغـريقـيـة ، هنا ربما مـشـى "يوريبـيـدس" ، أو "أرسطوفانيس" ، لم أكن مصدقًا لحقيـقة أننى هنا، وأنهما ربما شهدا نفس تلك التلال البيضاء والذهبية ، وتنفسا هذا الهواء فى الماضى ، خلف المطار الدولى المترامى الأطراف .

دلفت إلى عربة "الـتروللى" الصغـيرة ، وانسحب "الـتروللى" فى خفة ، كان آخـر النهار ، وضياء الصيف المنير المتوهج يغلف التـلال البيضاء البعيـدة ، فوق دخان الزيوت الساخنة وغـار" المواتير" ، توهمت أننى أشم رائحة توابل فى الهـواء ، وعند مدخل المطار، كـانت نباتات "الآزريون" وبعض النباتات الورقيـة فى أحواض متربة وجافة ، كـانت أثينا ذاتها ترقد على بُعد بضعة أميال ، فشعـرت أن هذه فرصتى الضائعة ، فربما لن أعود إلى هنا أبدًا.

اليونان والجـزر المقدسة . . . الفـتيات وهن يقـدن بقرة صغـيرة إلى الاحتـفال ، والأشرطة حـول قرونها، "والأثيـنيون" الذين كان جـهرهم

بالإيمان علامة ضـد كل أنواع الشك لآلاف السنين ، إيمانهم : بأن الإنسان هو جمال العالم .

شاب ضئيل الحجم ، بأسنان بالية وشعر أسود صقيل أملس ، منسدل للخلف ، جذبنى من كمى ليعرض علىّ صـوراً جنسية ، مثل المطار ، ورائحة الزيت ، والمسافرين الذين بلا ملامح ، كان هو رمزاً لهذا العالم ، هل كان بوسع أحد أن ينكر: أنه ليس من سلالة الأسلاف الذين خاضوا الماراثون ؟

حينئذ جاءت جماعة صغيـرة حائرة ، دخلت بحركة عصبية إلى بهو المطار، تدلت أيدى الرجـال الكبيرة الضـاربة للحمرة من أكـمام أطول من المعتاد ، يرتدون ملابس المناسبات المتواضعة ، والنساء بأغطية الرأس حملن "صُرر" وصناديق صـغيرة ، وكان يُجر على الأرض صنـدوق سفر بألوان زاهية ، فى وسطهم وقفت شـابة تجول بعينيها الواسعـتين فوق كل الأشياء الغريبـة عليهـا غرابة مطلقـة ، كانت غائبـة عن الوعى ، ذاهلة ، ترتدى جاكت أصفر فاقع اللون معلقًا بطريقة غـير مريحة حول أكتافها ، وراحت التنورة ذات الكسـرات تتأرجح مع خطواتهـا القوية. نـظرت إلىّ مبـاشرة بنفس الذهول ، ثم ابتسمت واستدارت ، كـان "بروفيل" وجهها بلا روح تقريبًا ، إلا أنه فى غـاية كماله ـ أنف قصـير مستقـيم ، وشفتان دقيـقتان لينتـان ، نثرت على جـدائل شعرهـا السوداء السـميكة عقـود من الورود الصغيرة ، بيضاء وساطعة كالنجوم ، ابتُلع الموكب فى دفعة من الأصداء ، والجرى ، وروائح المطهرات التى تشيع فى جو المطار.

مازال الضـوء يشتعل فـوق التلال القـديمة ، وفوق الزيتون الأخـضر الفـضى على المنحدرات ، الذى يقـتم لونه كلما انحـدرت الشمس نـحو

المغيب، أما أنا حين تشـرق الشمس ذاتها مرة أخرى ، فـإنها سوف تكون شمساً حمراء شتـوية ، فوق مناجم الذهب وتضاريس الطريق الملتوى حول المسـتودعـات فى منطقـة "إيست راند" ، لماذا لا أتوقف هنـا مثل زمـيل الطائرة القادم من سـان "فرنسيسكـو" ، كى أكتشف بعض القرى العـجوز المتبـقية فى سهل " ثـيتالى" ، أو كوخ فى التـلال ؟ فربما لم تفقـد اليونان سحـرها ، وربما كان هناك طريق للتـوفيق والتصـالح ، طريق بين الماضى والحاضر، فزيارة اليونان مثل الحج، تحتاج أن تقوم به ولو لمرة واحدة .

ترددت التنبـيهـات من خلال جـهـاز النداء الخارجى، أسـرعت إلى الترولى، وقفزت داخله وهو يتحرك، ضوء الشمس المنحدرة بسرعة، كان يخطط مظلة المحطة الإسمنتـية ، حين اقتـربنا، اندفع وميض بطن الطائرة الأملس إلى عيوننا. أحنيت رأسى بسرعة وكنت آخر راكب يدخل من باب الطائرة المقـوس ، عند مكانى خلف الجناح وجـدت الكرسى المجاور وقـد تركه الأمريكى خاليًا، الآن تستقر فيه فتاة الموكب الصغير ، هبت واقفة فى الحال ، وصـافحـتنى ، وبدت فى ضـوء كوة الطائرة مـتوردة ومـحتـدمة بالانفعال ، كل حـركة بسيطة من حركاتـها كان لها تدفق الطبيـعة، كتلك التى لبعض الكائنات غـير خاضعة لرقـابة نصف مروضة ، ترددت تحيـتها بسحر غريب ، وفى عينيها كان أثر دموع.

عادت إلى مقعدها، وفوراً تشبثت بنافذة الطائرة ، لتلقى نظرة خاطفة على الأشكال البعـيدة عبر ممر الإقلاع ، فـضت منديلاً كان مطويًا بإحكام فى يدها، وراحت تلوح به عند نافذة الطائرة ، لن يرى أحد هذه التلويحة الأخيرة ، اهـتزت الطائرة عند دوران محركـات الانطلاق ، كانت الورود

التى فى شعر الفتاة من زهر البرتقال ، وإصبع اليد التى على النافذة ، يحمل القيد الذهبى اللامع لخاتم زواج حديث .

بكت فى صمت، والرجفة العنيفة التى اجتاحتها بسبب فراق الوطن لم تبْد شيئاً ذا بال أمام الاضطراب الكبير الذى يضطرم داخلها، دمدمت الآلة على طول ممر الإقلاع، وبقوس واسع انعطفت ثم توقفت بتوازن كى تقلع، واهتزت الطائرة من قوة تشغيل محركاتها ، كنا ننزلق على الأرض ، وتعاظم تدفق الدخان الأسود المندفع من المحركات، تمت الدفعة الأخيرة لأعلى ، تلاها إحساس بالراحة عندما تأرجحنا تجاه السحب البرتقالية عند حافة الأرض .

البحر المفتوح من تحتنا أزرق داكن ، وبعيداً ناحية الغرب ، فوق بقعة من الأرض مليئة بالدخان ، كان قرص الشمس الغاربة يرقد فى المياه.

فجأة ، ظهرت بجلاء على الفتاة دهشة الرحلة الأولى ، كان فمها مفتوحًا، نظرت حولها ولمست الستارة والنافذة كأنها تتأكد من شكوكها بحواسها ، عندما التقت بعينى ، وكان بهما ضحك خفيف واستغراب، وتأثر شديد ، قالت شيئاً بهدوء ، هازة رأسها، وتلألأت الدموع على أهدابها، لكن خفت وطأة الشجن وخرج الخوف ، وبعد هنيهة لمست ذراعى وأشارت منفعلة إلى شىء على الأرض ، حملقت إلى حيث أشارت عبر النافذة ، كانت أثينا تغيب فى البحر والليل ، وسفينتان تضاءلتا إلى حجم ورقتى شجر فى بركة ، كانت تجران وراءهما أثرهما الضعيف فى الماء ، كنا بالفعل قد بلغنا مستوى السحاب ؛ على مسافة كبيرة ، والسحب تتوالى كسرب من طيور "الفلامنجو" العائدة .

فكرت فى أنه من المستحسن العودة لمطالعة مجلتى ، فلم تكن هناك طريقة للمسامرة معها، وليس من معنى أن أجلس متطلعًا لجمالها الأخاذ فحسب ، لم تكن على قدر كاف من الوعى بالصعوبات التى ستواجهها ، وبعد أن جففت عينيها وطوت منديلها ووضعته فى طية ثدييها ، بدت هادئة ومستعدة لاستكشاف ما حولها من غرابة .

قالت وهى تخبط على صدرها : "إيكاترينا"

قلت لها اسمى : نيل، "نيل جوردان" ، هذا التعارف استدعى مصافحة أخرى باليد، وابتهجت لكونها فُهمت بسهولة ، وباستعمال مجموعة من الإشارات والإيماءات ، استطعت أن أجيب على أسئلتها بأننى لست إنجليزياً ولا ألمانيًا ولا أمريكيًا، بل مواطن من چوهانسبرج .

"آ . . آ . . ، "چوهانسبرج" !" ذلك كان المكان الذى سوف تتجه إليه هى أيضًا، كم أنا محظوظة ، كم هو رائع، وكم هو غريب ـ كانت تلك واحدة من الإيماءات ، أو ربما جميعها ، التى تناسب ما نطقت به نظرتها ، خبطت يديها إحداهما فى الأخرى ، وضيقت عينيها ، وعلى الفور انطلقنا فى رفقة حميمة ودافئة ، كأن التلال الصخرية ذاتها كانت تأوينا، وإن لم يكن فى الكوخ نفسه ، راحت تزقزق بتؤدة ، وتغيرت تعبيرات وجهها من حين لآخر ، وتوهجت شفتاها ، وبلا قصد أدارت خاتم الزواج فى إصبعها ، ونظرت مكتئبة ، ثم ابتسمت بغموض، متذكرة شيئاً ما ، ولم يشغلها أنها غير مفهومة على الإطلاق ، شعرتُ بتدفق كلماتها ، هذا الكلام كان بمثابة عزاءٍ لها وبحث بإصرار عما يقويها، كانت مثل طفلة تحادث نفسها أو أم تسرد أفكارها لوليدها ، لم أكن مخطئاً

بشـأنها ، للحظة نظرت إلىّ بملء عـينيهـا ، لكن عيـنيهـا بقيتـا غائمـتين وحزينتين ، وعندما توقفت عن الكلام قليلاً ، قلت إنها تشبه الصورة التى رسمتها فى خيالى لأندروماك أو "إيفچينيا" .

هزت رأسها بقـوة أن لا ، إنها ليست "أندروماك" ولا "إيفـچينيا" ، إنها . . " إى-كات-ر-ينا" . لم أجرؤ على الابتـسام، لكن الفتاة أحست بسرعة أنها قالت شيئاً مضحكاً، فانفجرت ضاحكة.

أخيراً قـالت بطريقة ذات مغزى : " نيل . . . چوهـانسبرچ" ، وهى تعنى ، من يدرى ، ربما فى يوم ما يمكننى أن أخبرها ماذا كنت أقول.

كانت مـضيفة الطائرة مـارة ، فأوقفتهـا لأسألها إذا ما كـانت تعرف اليونانيـة ، قالت باللهجـة "الترنسفـالية" الواضحـة : " ولا كلمة ، لكن هناك سـيـداً فى الخلف ، يجلس عـلى الممـر الذى بين الكراسى ، يبـدو يونانيًـا ، وسوف أسأله ، " كـان إيطاليًا ، لـكنه كان تواقًـا بشدة لتبديل الأماكن معى وتسلية الشابة.

قلت للمضيفة : " أخبريه أن يذهب للجحيم . . . "

أضيئت الأنوار؛ على ارتفـاع سبعة أميـال ، كان الأفق ينسحب إلى شريط بنفـسجى منير، وقليل من النجـوم الواهنة تؤطر الفضاء البنفـسجى للنافذة. خلعت الفتـاة سترتها ، وكشـفت عن بلوزة مطرزة بدقة وصدارة من الكتان الرقيق ، ولم تكن ترتدى ملابس تحتـية ، دعتنى لإبداء إعجابى بالبلوزة ، فابتسمت ، واسـتدارت فى مواجهتى تستـعرض بلوزتها بطريقة أبرزت حلمتيها ، من الواضح أنها طرزت البلوزة بنفسها، تلك التى كلفتها ساعات لا حصـر لها من الصبر، على عكس "الجاكـيت" الجاهز الأصفر

الفقـير، كـانت البلوزة قطعة ذات شـخصـية ، وربما ذات نكهة تقـليدية. أسرفت في امـتداحها ، وظلت ترقب تعـبيراتي بحماس وتـورد خفيف ، انقلبت عـيناها حزينتين ، جلست مـتفكرة ، راحت تسوى تـنورتها ، ثم انحنت لتزيل التـراب عن حذائها الأسود "اللمـيع" ، قررت ، وأخرجت من حقيـبتها كـيسًا مربعًا ، أخـرجت منه جواز سفرها الذى وضـعته بين يدي. كـان جواز سـفر صادرًا مـن بلدى ، بكلمات إنجليـزية وأفريكانـية مألوفة. الوجه الصغير الخائف الذى لاح فى الصورة، بعيد الشبه عن وجه إيكاترينا الجميل ، كيف حدث وأصبـحت مواطنة من جنوب إفريقيا ؟ إنها لم تكن هناك من قبل قط ، ولا وضعت قدميها خارج موطنها " هيلاس" (٣٨) الفاتن الفقير المحطم .

لم أجد صعوبة فى تكوين صورة ما حدث ، فقـد استبدلت جنسيتها بعملية زواج بسيطة ، بالزواج من أحد مواطنى بلدى ، وزوجها ؟ كان فى " چوهانسبرج " ، ستلتقيه هناك ، لم تكن قد رأته قط ، فقد هزت رأسها نفيًا بشدة ، تزوجته بتوكيل ، ووقف أخوها مكان العريس ، رتب الوالدان الزواج ، جمعت كل هذا جميعًـا ، فاكتملت الصورة ، تكفل الزوج بكل شيء ، لقـد دفع ثمنها ، أرسل المال لرحلة الـطيران ، وملابـسها كـانت بائنتها ، ثم أصدر لها القنصل جواز السـفر وتصريح الهجرة ، اتقد وجه "إيكاترينا" ، وقبضت على الوثائق بقوة

كـان العـشاء سـيـقـدم بعد نصـف ساعـة، لكننى طلبـت زجاجـة "بوجوليه" لنشرب نخب سعادتها، جـاء المسافر الإيطالى ومال فوق المقعد ، أخبرته أن إيكاترينا قد تزوجت هذا الصباح، ودعوته ليشرب نخباً ، جرب

(٣٨) هيلارس : اليونان

الحديث إليها، بالإيطالية ، والإسبانية ، والألمانية ، لكنها نظرت إليه محدقة فحسب ، رفع كأسه وأصر على تقبيل يدها الصغيرة، القوية الخشنة من العمل .

قال: "مهما كانت عائلتها، فهى جميلة جداً، هل أنت مرافقها ؟"

نفيت ذلك .. وأوضحت له أنى أحاول قدر جهدى التصرف بلباقة ، ولدى فرصة طيبة للنجاح فى ذلك .

" إنها مجرد طفلة. "

أعرف كم عمرها، فقد رأيت جواز سفرها تواً، "سنيور، ألا زلت تريد تسليتها؟"

هز كتفيه استهجاناً دون أية مدارة عائداً إلى مقعده ، قالت إيكاترينا شيئاً، وابتسمت ، رشفت رشفة من النبيذ، ولحظت شرودها، كانت قصيرة القامة ، لا يزيد طولها عن خمسة أقدام ، لكن هذا لم يكن يقلل من تأثيرها الأخاذ ، فجمالها طبيعي ، خالد، غير منتهك ، لم يكن يشعرنى بوجودها فى الواقع الفعلى سوى الدقات الضعيفة غير المرئية لنبضها، والبريق الخفيف للزغب الغامق على ساعديها.

تحولت إلىّ بجدية وهى قلقة ، قررت شيئًا ، ويبدو أن هذا الأمر كان يثير شكوكها، أتت بإشارة حازمة ، كأنها تحتكم إلىّ لدعم قضية مقدسة وخطيرة ، ثم مدت بهدوء صورة فوتوغرافية وسلمتها لى .

كانت الصورة المطبوعة فى حجم البطاقة البريدية ، لشاب فى حوالى الثامنة والعشرين أو الثلاثين ، له شعر أسود يتكتل بكثافة فوق جبهة مسطحة عريضة ؛ كان الوجه كريمًا بطريقته ، قويا إن لم يكن وسيماً، بعينيه نظرة مؤرقة لفتت انتباهى، كانت الصورة قد وضبت بالقص، إلا أن ما تبقى منها كان كافياً لإظهار الشاب وهو يستند بظهره إلى سيارة لامعة جديدة .

من هو ؟ بالطبع كان زوجها الذى لم تره من قبل قط ، قالت لى : " سافُس أثاناسيادس ! " لم أرفع عينى عن الصورة ، لأننى كنت أعرف أنها تراقبنى فى صمت قاتل وتوتر ، يعتبر " سافس" قياسًا إلى العربة ، قصيراً بشكل غير عادى ، بالتأكيد لا يزيد عن خمسة أقدام ، كنت أمتلك سيارة مثل تلك ، قبل الحرب ، لِمَ أراد العريس أن يظهر فى صورة إلى جوار سيارة شيفروليه عمرها ثلاثونَ عامًا ، هذا شأنه على أية حال .

أردت أن تصل إليها فكرة أننى سعيد بلا أدنى شك ، رجل شريف وسيد مهذب ، ورجل عظيم ، هذا هو "سافُس أثاناسيادس"

تجنبت النظر لعينيها، ورحت أصب النبيذ فى الكأسين مرة أخرى ، وحين رفعت عينىّ إليها، أدركت أن حدسها قد تيقظ بحدة ، إن بعض قوى النساء تفوق القوانين الطبيعية ، والمنطق، والأحاسيس الفيزيائية ، نظرة "إيكاترينا" قالت لى إنها لا تصدقنى ـ فلم تطرف عيناها، وأطبقت فمها كأنه نُحت من مرمر إيطالى وردى ، واستقر أنفها المستقيم وحاجباها فى جمود. بعد ذلك خفضت عينيها وتنهدت ، غلفت صورة "سافُس" بحرص ، ووضعتها فى مكانها ، انتبهت لكأسها ، ورفعتها بإيماءة وقالت : " چوهانسبرج " .

وكـان نـخـبى .. " أثينـا !" راحت تكرره ، وأضـافـت بكآبة ، وابتسامة حزينة : " فارى" ، لم أكـن أعرف "فارى" ، وحاولت تخيلها .. بلدة صغيرة قـديمة مبنية على تل مدرج من فتات الأحـجار الذهبية ، لكن الصورة التـى خلفها اسم البـلدة ، أشار إلى بلدة صناعـية ممتلئـة بالدخان والمخلفات وآلاف الشوارع المزدحمة ، "فارى" ، أينمـا كانت ، ومهما كانت ، فهى لا تزال تملك قوة وسحر الماضى، وفيها تركت "إيكاترينا" أحلامها.

قُدم العشاء على صوانٍ بلاستيكية، فى أوعـية أنيقة معقمة ، والعلبة مغلفة ـ نوع من الوجبات عديمة المذاق غير المميزة بأية ميزة ـ بأية أحد يمكنه أن يبدأ من حيث يشاء وينتهى بشعـور خيبة الأمل نفسه ، راحت إيكاترينا تأكلها بالملاحظة والتقليد ، أريتها كـيف تمسك بسكينتها والشوكة، فتدبرت الأمر بلا أى مظهر للخـجل أو الارتباك، توردت توردًا خفيفـاً من الخمر، فكانت تغمز لى من وقت لآخر بطريقة جـميلة ، كانت تحلق فوق سحابة تحملها إلى جبال "الأوليمب" قبل وليمة من ولائم الآلهة.

هبطنا فى الخرطوم ، وتركنا الطائرة لفترة قصيرة حتى تُفحص وتُرش ضد الذباب والبـعوض ، الليل الإفريقى الحى التف علينا، خانقًـا ، ثقيل الوطأة ، برائحة لا يمكن تسـميتها ، اقـتربت إيكاترينا منى حين كنا نمشى بتمهل فوق الطريق الأسـفلتى ، ترنح الذباب الدائخ فوق الموائد القذرة فى المطعم ، وشرب المسافرون الليمونادة الفاترة التى كان مذاقها بطعم الصابون المعطر ، حـدقت الفتـاة فى السكان طوال القـامـة ، المرتدين الأبيض مع الطرابيش والأحزمـة الحمـراء ، وأباريقهم الزجاجـية الطويلة ممتلئـة بسائل مقـزز. راح بائع متجـول يفرد عليـها حريراً يابانيًـا من الألياف الصناعـية

الرخيصة ، فالتمعت عيناها بالسرور والأسف ، عرضت عليها أن أهديه لها، لكنهـا رفضت برقـة ، هازة رأسهـا، لا، لا، لا ، شكرتنى ، لكن لا ، ومستحيل ، ليس لأننى كنت غـريبًا، لم يكن الأمر كذلك. ماذا ؟ ربما قد لا تسـتطيع أن ترد أى شيء فى المقـابل ، درجـة الحـرارة تعـدت المائة ، وكانت تروح على نفـسها بمنديل مـضلع ، دس البائع المتجول مـروحة من البـامبـو فى يدها، كانت تسـاوى بضـعة سنتـات ، ولـم يكن معى سـوى جنيهات صحيحة ـ لكن هذا أمر مختلف ـ فهذه المروحة ضرورية .

أقلعت الطائرة مرة أخرى ، وهى تعلو أكثر فأكثر فوق إفريقيا النائمة ، سبحت الأضواء الأخيرة فى طريق النسيان ، ولبرهة رقد النيل كفلق فضى رشيق، جـاذبًا ضوء القمـر إلى أن اندمج هو أيضًا مع الأرض السـمراء ، وظللنا نواصل الصعود وحـدنا نحو السماء اللبنية المضيـئة ، خُفضت أنوار الكابينة ، وكل الحـمولة البشـرية راحت تعدل من أوضـاعها، رجـعوا فى كراسيهم للخلف واستقروا فى أماكنهـم الضيقة ، منتهزين الفرصة للنوم ، استدارت تجاه النافذة ، أما أنا فرجعت فى الكرسى للخلف ونعست بطريقة غيـر مريحة : ركُبـة مضغوطة فـى المقعد المقابل، والسـاق الأخرى ممدودة لمسافـة فى الممشى بين الكراسى ، كـان ورائى إفريقى ضـخم بذقن تدلت طياتها ثلاثًا ، ورأس محلوق ـ دبـلوماسى من إحدى الدول الجديدة ـ راح يغط غطيطاً فائق الغلظة من ورائى .

بعد نصف ساعة من الطيران بامتداد العمود الفقرى للقارة، استيقظت دائخًـا ، ومـثل عـجل حـديـث الولادة أو جـرو ، دنت إيكاتريـنا منى واستكنت التماسًا للدفء والحماية ، كان ذراعها يلتف حول عنقى ووجهها

نصف مدفـون فى كتفى ، انبـعثت منها رائحـة دافئة حلوة ، مـثل رائحة العشـب أو أرض سوداء محـروثة حديثًـا ، استـغرقت فى النوم بسـرعة، وانطلقت روحهـا، عائدة إلى "فارى" ، عـائدة إلى شارع بأكواخ صغـيرة هادئة، إلى حجرة واحدة ممتلئـة بالأخوات والأخوة، وجدى على الأرض ، وحمـل ، وكلب أو ربما اثنين ، ودجاج راقـد ، رحت أتساءل فى نفـسى عمـا إذا كانت قـد نامت وحدها من قـبل فى أى وقت ، من كنت أنا فى نعاسها، من كـانت تحتضنه بين ذراعيها النحـيلين ؟ هل هو أخ صغير، لم يكن يكف عن البكاء ؟ أم أخت لا تهدأ من الجوع ؟ لم أفـهم كيف بيعت الطفلة الجمـيلة ، أو باعت نفسها إلى عـريس غير معـروف لها، "سافس أثانا سيادس" ، الذى ربما كـان رجـلاً ذا حيثية ومـكـانة ممتـازة فى مجال مميز، والآن يعود إلى جذوره، إلى الماضى ، إلى ما قبل زمن "بايرون" ، إلى ما قـبل الغزو التـركى ، والعصـور الوسطى ؛ عاد ليخـتار عـروسًا من سلالتـه ، من الدم اليونانى الخالد ، فيـا ليته يكون رجلاً يسـتحق ذلك ، يكون مثل إله إغريقى لُعِن ، وليس كما يقال فى النكات ، إغريقى ملعون من الآلهة ، لم أستطع كبح جماح هذه الأفكار المدومة ، فقد كنت نصف مـخدر من الإرهاق بتـأثير تحليق الطائـرة فى الطبقـات العليا من الغـلاف الجوى على أجـهزتى ، لم يكن سهـلاً القول بأن الفتـاة "إيكاترينا" لا تمثل شيئاً بالنسبة لى ، حين كانت مستغرقـة فى النوم مستدفئة ، ومفعمة بالحياة لصق جسدى .

نعستُ ، وعندما استيقظت ، وجـدت إيكاترينا مستيقظة ، تنظر إلىّ وعيناها على اتساعـهما ، لكنها لم تتحـرك ، كم من الوقت ظلت تحملق فىّ على هذا النحو ؟

قلت بكسل: " هاللو، إيكاترينا. "

" إيلو " .

ثم أغمضت عـينيها ، ولفت ذراعيها حـولى بإحكام أكثر، وأراحت وجهها ليستقر بمكانه على كتفى وعادت للنوم.

" إيكاترينا، أنا أتحدث إليك. "

حركة خفيفة من رأسها أوضحت أنها مستيقظة.

اسمعى ، ربما يكون طيبًا أنك لا تفـهمين ما أقول ، إيكاترينا، أنصتى ، لا يجب أن تكونى هنا ، عودى لموطنك ، انـتهزى أول فرصة لـتعودى ، ربما تكون هذه تجربة ناجحة ، لكنها مخاطرة ، وإهانة ، إنها خطوة خاطئة من البداية ، ولن تنقذ أحدًا، أنت لست قطعة أثاث ، إنك لست أسيرة ، لا أحـد يعرف مـا الحـرية إلى أن تسلب منه ، عـودى وتعلمى أن تكونى حرة. لقد سلبوا منك ماضيك، وأنت تغـامرين بالمستقبل ، "إيكاترينا" ، لا تهربى ، لابد من أن تعرفى أنه من الأفضل أن نموت ونحن نقاوم .

هكذا راحت تلك الأفكار تجول برأسى وأنا أحادث نفسى تقريبًا ، لا هى، ولا أحـد غيـرها يمكنه تمـيـيز أى شىء من هذا بسـبب طنين الآلات حولنا، ربما وصلها شيء ما من خـلال نبرة صوتى ، ومرة أخرى، أدركت إلى أى حدٍ كانت متوترة ، ومنتبهة ، وحساسة ، فقد راحت تبكى .

شقت الطائرة الكبيرة طريقها فى الظلمة الناعمة ، رقدت إفريقيا تحتنا كعملاق يغط أثناء رياح ليلة طويلة، ظهـر لون أخضر فى الظلام الخارجى

عند جناح الطائرة، ومن كابينة الطيـار البعيدة، تخيلت أننى أسمع شـخيراً رتيبًـا ، ما هى الرسالة التى كـانت تخترق الغـلاف الجوى الرقيق؟ بعـيداً بالأسفل ، رجال ونسـاء نائمون فى الدفء كأنهم موتـى ، والبعوض يطن فوقهم ، والعناكب و"أم أربعة وأربعين" تتحرك حولهم فى العشب .

بكت "إيكاترينا" بهدوء لفترة وجيـزة ، كأن ذرف الدموع ترفٌ كبير بالنسبة لإنسان بسـيط اعتاد المعاناة ، أمسكت بيدى وقـبلتها قبل أن أتمكن من سحبـها ، إظهار فريد للمـشاعر الحيـية الممتنة، لكن بالنسـبة لى كان تعبيراً غيـر محتمل ، جففت عينيها وأنفـها ببراءة فى ظهر يدها، وتحدثت بمرحٍ طفل ، بدت خجلة من أن أرى فى حـزنها ضعفًا ، ولـبضع دقائق، جلست فى مقعدها منتصبة متصنعة الجدية ورأسها مرفوع ، سريعاً ما تمايل رأسها من النعاس ثانية ، ارتخى جسـمها، وانفرد ذراعاها فى ظل طمأنينة غريزية وشعور بالمحبة.

وصلنا فوق هضبة "الترنسفال" قبل الفـجر، الأضواء الخافتة الغائمة تصارع للظهور عند بعض المدن الواقعة فوق هذه الهـضبة ، خلفها ، مثل خنجر أحمر حـاد، زحفت نيران الهضبة إلى مـا فوق التلال ، عندئذ بدأ الأفق يلملم الألوان الوردية والأرجوانية ، وسرعان ما ظهرت الأرض ذاتها خارجة من الفضاء ، راح المسافـرون يتحركون ، ذهبت إلى مؤخرة الطائرة كى أحلق ، عندما عدت إلى مقعـدى وجدت إيكاترينا فى حالة اهتياج ، لقد فقـدت شيئاً ، كـانت تبحث فى كل مكان، ومضيـفة الطائرة وصلت عندها وظلت واقفة فى حيرة ، لا أعرف لماذا كـانت الفتاة الإغريقية تنشج وتلوح بيديها ، ودموعها توقفت لامـعة فى عينيها السوداوين ، لم يستطع

أحـد أن يفهـم لِمَ كان كل هذا ؟! ، كـان المسـافـر الإيطالى هناك ، نزل بفروسية على يديه وركبتيه ليساعد فى البحث .

سألته: "سنيور، عن أى شىء تبحث ؟"

وقف على قدمـيه، ونظر إلىّ بغـيظ ، قال الإيطالى : "الفـتاة فى حالة سيئة، ماذا فعلت بها ؟"

" سنيور، إنك لم تنم جيداً. "

" نمت ! أنا لا يمكننى أن أنام فى تلك . . . رحلات الطيران تلك . "

"إذن ، من الأفضل أن تسافر على جمل . "

عاد إلى مـقعده ، اسـتغاثـت "إيكاترينا" بى ، لكننى لم يكن لدى فكرة أكثـر من أى أحدٍ آخر عـما فقدت ، مـهما كـان هذا الشىء ، فمن المحتمل أنه فقد فى الخَرطوم.

ألقت ذراعيـها إلى جانبيهـا قائلة : " الخرطوم"، لقد سُـرقت ما فى ذلك من شك، سـرقهـا السودانيـون ، شرعت تندب هذا الظلـم ، بينـما أمسك مسافر يجلس عند آخر الممشى لفة من ورق الجرائد مربوطة بخيط ، آه ، تلك هى ـ صحف الأمس الإغـريقية ، من أجل أن يقـرأها سافس ، "أثينا" فى المساء ، "يوهانسبرج" فى اليـوم التالى ، معجزة لأجل " أثانا سيادس" الطيب .

ساعدتها على إنزال حقائبها وصناديقهـا ، كان وجهها عاجيًا فى الجو الصقيعى ، فـرفعت طرف ياقة معطفها، ونظرت حـولها فى خوف ، عند

مكتب جوازات الهجرة انفصلنا، ولم أرها مرة أخرى إلى أن خرجت إلى الساحة الرئيسية لمبنى المطار ، خلف أصص سعف النخيل ، وكشك ومجموعات من المقاعد الطويلة مكسوة بالجلد الأخضر، وقفت إيكاترينا، بين مجموعة من أربعة أو خمسة ، وقد أحنت رأسها وأخفت وجهها بين يديها ، لم أعرف أيهم كان "سافس" ؛ فلا يوجد أى شخص ينطبق عليه الشبه الذى بالصورة .

رفعت إيكاترينا رأسها، وحدقت حولها، رأتنى ، فجاءت تجرى عبر الصالة، وضعت جبهتها على صدرى مثل طفل ، وراحت تنشج ، جماعة الغرباء الصغيرة الكئيبة نظرت من على بعد ، الآن رأيت " سافس" هناك ، العريس بشحمه ولحمه ، كان يحمل قبعة سوداء فى يد، وبالأخرى كان يمسح بمنديل فوق رأسه ، هو بلا شك " أثاناسيادس" ، أصلع تمامًا ، مسن وبدين جداً ، يقارب طوله عرضه ، وكنت قد توقعت ذلك .

" إيكاترينا ، سوف أساعدك على العودة إذا رغبت ، إلى أثينا ، فارى . . . "

أعطيتها بطاقتى ، حملقت فيها بعينين تغشاهما الدموع ، ثم أمسكت بيدى بقوة للحظة ، وجففت دموعها ، وبإيماءة إلى ، مضت ببطء وكبرياء .

التقيت ابنى وزوجته اللذين وجدانى واقفًا هناك أحدق خلف إيكاترينا بعد انسحابها.

سألت لورين: " من تكون تلك التمثال الجميل الصغيرة؟ "

" إيكاترينا ! "

"أهى قصة حب ؟"

" لورين" ، لا أعرف ، تبدو لى نهاية حزينة ، كنهاية تشبه نهاية إيفجينيا! "

على الإفطار فى المطعم الواسع البسيط المبهج، راحا يمزحان معى حول إيكاترينا.

"ببساطة ، ربما تكون قد فهمت كل شىء خطأ ، على أية حال، لم تكن قادراً على فهم كلامها، وكان عليك الاعتماد على خيالك لملأ الثغرات . "

" غريزتى " .

" لا يمكنك أن تثق بغريزتك ، المرأة فقط يمكنها أن تجازف بذلك. "

كان يجب أن أتحدث مع " سافس أثاناسيادس" ، والآن لا أعرف أين أجده ، اسمه ليس فى الدليل ، انتظرت على أمل أن أسمع شيئًا من إيكاترينا، لكن لم يحدث شىء ، ولا كلمة ، أين هى ؟ إننى أتذكر كيف كانت تمشى مبتعدة ، ورأسها مرفوع ، بهدوء ، لكن بلا جرأة ، وشعرها الأسود البراق ، وتاييرها الأصفر - "الآن أترك نفسى مع التيار . . . فربما كانت "لورين" على حق . "

أربعة أيام الآن، ولم أسمع شيئاً .

التيس

تأليف : إنجريد يونكر(٣٩)

من مكانها حيث كانت تقف عند النافذة ، استطاعت سوزان أن ترى التل الصخرى كطيف يلوح من بعيد من خلال ضباب الصباح ، ذلك المكان الذى كان التيس يفضل التجول حوله ، فى هذا الوقت لابد من أن يهبط من أعلى المنحدر الجبلى، يجد فى السير تحت ركام الضباب الأبيض، إذا ما أدارت وجهها فى اتجاه الريح ، كانت واثقة من أنها ستراه واقفًا هناك تحت شجرة السنط ، بالضبط ، خلف السياج السلكى لحديقتها ، لكنها ثبتت نظرها عند الخط القريب من شجيرات الورد ، تفتقت بعض البراعم مزهرة ، عندما مس النسيم سوزان مرة أخرى ، تحولت بعيدًا عن النافذة، ولفت " الروب " الحريرى الأزرق على بطنها المرتفع .

نادت : "هاين!"

لم يتحرك من نومه أدنى حركة ، كأنه اعتاد ذلك الصوت اللحوح الذى يصرخ باسمه دائمًا ، كان يرقد على جنبه ، ويده التى تحت خده ، غضنت جلد الوجه ، ذلك الوجه الذى لوحته الشمس ، لحيته المحددة

(٣٩) ترجمها إلى الإنجليزية عن اللغة الإفريكانية كل من المؤلفة " وجاك كوب "

البـارزة استوت عـلى الغطاء ، تذكرت "سـوزان" عمل هاتين اليـدين فى حَلْب الماعز، وغرس البذور، والمقدرة الراسخة لمعصميه النحيلين ، والفرح المنبعث من بين أصابعه ، إلا أنه فى الآونة الأخـيرة راح يبتعد عن المنزل ، ويهمل إنجـاز الأعمـال المطلوبة منه باستـمرار، عندما أحـضرت له قـهوة الصبـاح، رفع نفســه بهزة وراح يشربهـا بشراهة ويزدرد رشـفات صغـيرة متـلاحقـة بصوت مسـموع ، فسوراً ·· حدقت من النافـذة إلى الخارج ؛ ونظرت إلى الجانب الآخر من حديقة الورد تـستطلع ما تحت شجرة السنط ، لم تتمكن من تمييز هيئة الحيوان فى الضباب ، لكنها رأت رقعة أشد بياضاً مما حولهـا ، راحت تحدق فى الضبـاب حتى استـشفت الخطوط الخارجـية الباهتة لهيئة التـيس ، انزاح الضباب تدريجيًّا ، عند ذلك أيقنت أن التيس يتقدم بخطواته الحذرة ، الحريصة ، متحديًا إياها.

نطح التيس الهواء بغطرسة بضع مرات، وانتفش شعر قدميه الضارب للصفرة مع النسيم ، وقد ثبّت عينيه الخـاليتين من أى تعبير باطراد عليهاً ، من خلفه ، وقفت شـجرة السنط بأوراق قليلة وبراعم منتفخـة صفراء فى مواجهة زرقة السماء الشاحبة.

نهض الرجل من السرير، بجسمـه النحيف الأبيض، وبطنه المتغضن ، وركبتيه الممتلئتين بالعقد ، "ما الذى تحدقين فيه يا امرأة ؟"

رأت التيس يستدير، ويرعى العشب مطمئنًا غير عابئ بأحد ومؤخرته تجاههـا ، مشت مـتمايلة على الجنـبين ناحية الرجل الواقف فـى منتصف الغرفة يدعك صدره بيديه بوهن : "سوف أقتل هذا التيس فى يوم من تلك الأيام الجميلة ."

" من الذى سيُقتَل ، التيس؟ "

" نعم ، أنا أحذرك ، سوف أقطع رأسه. "

" هذه مصيبة كبيرة، ماذا لديك ضد هذا الشيء النتن؟ "

أشارت بذراعها بنفاد صبر ناحية النافذة : " أنا، ضده إننى أحذرك لابد من أن تبيعه . "

"أف ، أسقطيه من حسابك. "

" إذن ، لِمَ هو قابع هنا ؟ "

" حسنًا، لا أعرف ، أظن أنه موقعنا، والماعز يجول من حولنا، ولِمَ لا يفعل ؟ "

" لِمَ لا ؟ لِمَ لا يمكث مع بقية الماعز فوق التل ؟ ماذا يريد ؟ "

" رحمتك يا رب ، ما الإثم الذى ارتكبه فى حقكِ هذا التيس ؟ "

" يحاول دخول فنائى. "

" أنتِ تعرفين أنه لا يمكنه دخول الفناء الخلفى ، فالبوابة الخلفية مغلقة. "

" فقط ، دعه يفعل ذلك. "

" أفٍ ، الآن ، يا امرأة . . . "

" أؤكد لك ، أننى مستعدة له . . . بـ . . . عيونه الوقحة الآثمة . "

" حسناً، فلتحل عليّ اللعنة !"

كان يقف هناك عاريًا تمامًا ، فقالت : "أوه ، اذهب وارتد ملابسك . هل تظنّ أننى أحتاج لرؤيتك على هذا النحو طوال اليوم ؟ تحرك واطرد هذا التيس لأعلى التل حيث مكانه. "

هز كتفيه استخفافًا وسحب " شورته" الكاكى وقميصًا صوفيًا من الكومة التى على المقعد، مديراً لها ظهره وهو يرتدى ملابسه.

قالت سوزان: " طلعت الشمس منذ ساعات ،" ثم راحت تغمغم: " لا يريد أن يعمل ، ومع ذلك يوهم نفسه بأنه أب . "

أسرع ينتعل حذاءه ، وانطلق خارجًا من الغرفة ، لكنها استوقفته: " طبعًا، تخرج دون اغتسال.. لأنك رجل ،" فخرج من الباب يعدو دون توقف .

أحيانًا كانت تتباطأ أفكارها حول أحضانه العصبية ، ويخيل إليها فى أحيانٍ أخرى ، أنها تراه يمشى وعند طرفى كتفيه شىء صلب ، وفى المرات التى كان يرقد هادئاً ويستمتع بدفئه الخاص ، كانت تعاتبه بصمتها البارد . لقد أصبح الآن غريبًا عنها ، حتى المولود المنتظر لم يعد ذا قيمة بالنسبة لها .

كانت قد ارتدت ملابسها عندما سمعت صوت تشغيل محرك اللورى يدوى فى الصمت ، فجأة ، أفزعها هدوء البيت ، فهى لم تسمع صوت "لينا" فى المطبخ ، انقشع الضباب ، من المحتمل أن "هاين" قد ساق التيس إلى التل أخيرًا، فمكانه تحت شجرة السنط أصبح خاليًا.

تكدست الصحون فى حوض المطبخ ، يغطيها بعض الذباب ، كوب "لينا" الخزفى الأزرق كـان يعلوه الزبد فوق الموقد ، تفحـصت "سوزان" المكان حولهـا ثم شاهدت من باب المطبخ ، الفتاة الملونة قـادمة تخطر فى مشيتها بخطوات راقصة مـارة بمحاذاة شُجيرات الورد. خُيل لسوزان ، كأن الفـتاة تخطر مـتمـايلة على إيقاع نغـمة حـزينة ، لكن عندما ظهـرت فى الشمس رأت ابتـسامـتها . وقـد تقاطعت أشـعة الشمس على أكـتافـها، وسقطت على نهديها المتحررين تحت الصدارة الصوفية ، توقفت الفتاة عند بوابة الحديقة، وأراحت يدها عليها، ثـم أدارت رأسها، كأنها تنصت لتلك الأغنية وهى تخبو وتتلاشى بين أشجار البستان.

" لينا! "

فتحت الفتاة البوابة وأسرعت بالدخول.

" هل كنت فى الخارج لمقـابلة " ياجر" مرة أخرى؟ وكل الصـحون المتسخة متروكة بالحوض! "

عندما مرت الفتاة منسلة من أمامها ، شىء ما فى تصرف المرأة جعلها تلقى نظرة على الوجه المنتفخ .

" هل فقدت لسانك ؟ "

" سيدتى "

" أنا أسألك هل كنت مع "ياجر" مرة أخرى؟ "

" نعم، يا سيدتى. "

" لأى سبب؟ "

" حملت له قهوته "

" وماذا عن عـملك فى البيت ؟ اسـمعى . . إنك تتـخطين حدود واجبـاتك ، "لينا" ، كُـفى عن المراوغة ، إن "ياجـر" الملعون علـيه أن يحصل على قهوته بنفسه إذا أرادها ، هل لابد لى من أن أخبرك بذلك كل مرة ؟ "

عندما عـادت "سوزان" للمطبخ لتـجمع أدوات تشذيب الحـشائش، كانت "لينا" تجفف الصحون بطريقتهـا الرشيقة السريعة ، للحظة، حدقت فى ظهر الفتاة وراحت تراقب حركة كتفيها.

غمـغمت "سـوزا"ن متـذمرة : "حـسنًا ، أظن أنه ضاجـعك، أليس كـذلك؟ " ثم استـدارت وتناولـت مقص الحـشائش وراحت تدمـدم فى سرها ، نظرت إليـها : "على أية حال هو أكـبر منك جداً، حصـاد مبكر يعنى عفناً مبكرًا، " ثم اندفعت فى غضب قائلة : " لا أرغب فى أى رقاد مع الرجال هنا ، هل تسمعيننى ؟ "

مرت على الوجـه الشاب اليانع للفتـاة بنظرات خاطفة، الفم مـفتوح قليلاً كأنه ينتظر قبلة، وفوق الفم عينان بلونهما البنى الغامق ـ مستاءتان .

لمع المقص فى الحـديقـة، وألقت النار ببـريقـها على حـوائط البـيت البيضاء ، وقفت متلكئة عند شجرة الورد الأولى ، مدت يديها بحرص بين أوراقها ولمست برعماً متفتحاً، كانت التويجات ما تزال مطوية برقة ، هزت رأسها : " تلك الورود مازالت قادرة على أن تزهر فى مثل هذه الأرض! "

تمطى الطفل وتحرك حـركة خفيـفة تحت قلبها ، جلست تسـتريح بين الورود ، شعرت بالنعاس من أثر الشمس على رأسها المكشوف ، والروائح التى تفوح من أوراق الزهور ، تعجبت من أنها قد صارت تحب العمل فى الأرض. لابد من أنها قـد اكتسبت هذا الأمر من "هاين"، عـندما قدمت معـه وهى فتاة صـغيرة إلى قطعـة أرضه الحجـرية أعلى الخليج ، لم تكن تعرف شـيئًـا عن البستـنة ، كانت قد تربت فـى المدينة فى كنف عائلتـها الكبيرة ، عندما قابلته كانت فتاة بوجنتين متوردتين ، أما هو فقد كان أكبر منها بعشرين عـامًا ، وكرجل عاش فى المروج الواسعة، فقد كـان مستقيم القد، هادئًا ومتحفظًا.

اندفع الدم لوجنتيـها لحظة أن اشتمت فى الجو رائحـة البول اللاذعة ، كان "التيس" واقفـاً خلفها ، وعند وقوفها على قدميـها بسرعة، ودون أن تُنزل عـينيها عنـه، أغلقت بلوزتها عند صـدرها ، فى أول الأمر، تقـافز التـيس بضع قفـزات صغـيرة كـأنه يدعـوها للانطلاق واللعب ، ثم راح يضرب الأرض بمقدم حافره بإيقاع منتظم .

خطت بضع خطوات واسعـة فى اتجاه البوابة وفـتحتـها بهزة عنيـفة. التمع المقص فى يدها، وجاء "التيس" يتقافز ناحيتها.

" ألا ترى، سوف أذبحك ؟" لكنه واصل اقتـرابه ، يسيل لعابه من لسانه، نصف مازح، نصف مهتاج .

حذرته مرة أخرى : "سأقتلك!" أحنى قرنيه تجاهها بوقاحة ، ووقف ساكنا بكل شعره الأبيض اللامع ، أمسكت بشعر التيس ، فطار المقص من

يدها، فقبضت عليه بكلتا يديها وراحت تدفعه أمامها، حتى أطلق ثغاء عاليًا من حلقه قبل أن تتركه يرحل ويجرى عائدًا من الممر الخلفى للحديقة فى اتجاه المطبخ .

أسندت " لينا " المكنسة فى الركن بترتيب ، ونظرت لبرهة مشفقة على المرأة التى سقطت جالسة على الكرسى قرب منضدة المطبخ ورأسها بين يديها.

وقفت سوزان متعبة .

" سيدتى، هل أعد لك الغداء؟ "

" لا . . لا شكرًا، يا لينا" شعرت بدوار، فخرجت إلى الممر، جلست على المقعد الخشبى الأخضر على بسطة الدرج، حيث كان يمكنها رؤية مياه الخليج البراقة الزرقاء من بعيد ، ربما "هاين" بمكان ما بين صيادى السمك ، أو يشرب النبيذ فى الأكواخ الحجرية الرطبة ، أو ربما كان عند حوض السفن حيث يعمل الصيادون فى إصلاح قواربهم، أو عند المرفأ حيث تفوح رائحة السمك والطعوم من كل ذرة فى الألواح الخشبية. تكاد تراه هناك جالسًا بين الرجال بأقدامهم السمراء المبللة ، أو واقفًا يتحدث مع رجل من رجال المدينة الذين يجيئون للصيد محملين بعدة الصيد، ووجوههم الحمراء المحترقة من الشمس تختفى تحت قبعاتهم القش البيضاء.

كان آخر النهار عندما شاهدت اللورى صاعدًا عند منعطف الطريق ، طوت فى حجرها زوجىّ الجوارب اللذين ترتقهما، توقف "هاين" عند الباب ، نزل من اللورى مع آخر ضوء للنهار، وتقدم ناحيتها بتردد.

" إذن تجلسين على الدرج؟ "

ردت وهى تسحب جسمها الثقيل لمكان آخر: "همم . . . "

" آه ، حسنا ، . . . " تنهد وجلس إلى جوارها، وبغيظ مكتوم خلع " شورته " الكاكى ، وبدأ فى حشو غليونه .

قالت سوزان : " طبعًا، صار الوقت متأخرًا على البدء فى تثبيت السور، يوماً ما سوف يدخل "التيس" منه. "

" على أية حال، اليوم السبت . "

" ذلك لا يعنى شيئاً، فأنت وعدت بإصلاحه . "

" حسنًا، حسنًا . . . كنت أساعد الصيادين اليومَ فى رتق الشباك. سوف يخرجون الليلة للصيد ، وكنت أقود اثنين من القادمين الجُدد لأفضل أماكن الصيد ، حقيقة لم أتمكن من الانصراف مبكرًا. "

شعر بالحرج والارتباك عندما تذكر ممازحة الرجال بشأن زوجته والمولود القادم، وأنه قد أصبح عجوزاً على ذلك ، كانوا أيضًا يظنون بأنه نصف مليونير، ذلك لأنه يملك لورى وقطعة أرض. فى الحقيقة ، هو لا يعتبر واحداً منهم، فهو رجل مروج أكثر منه رجل بحر، وهم دائموا التطلع إليه، إنه يأسف لحال زوجته، حملها، ووجودها وحيدة لوقت طويل بالمنزل، لكنها ربما تشكره على تركه لها وحدها، ومع مجىء الطفل لن تكون بحاجة إليه ، أما هو فسوف يجد فيه سنداً له فى سنه المتقدمة .

عن يساره ، وقعت عـينه على "ياجر" ماشيًا إلى كوخـه بين أشجار الكمثـرى المزهرة ، ود أن يهب مناديًا ذلك الوغد ليعرف مـاذا فعل طوال يومه ؟ ، لكنه تسلل راجعًـا بمحاذاة العمود الخشبى ، بخـجلٍ مفاجىء ، فهو ذاته، قضى اليوم لحسابه الخاص ممتعاً نفسه.

قال على سبـيل الدعابة : " يبدو أن "لينا" و"ياجر" مـنسجمين مع بعضهـما" سوزان، التى كانت قـد لاحظت أيضًا الرجل الملون وهو يمشى متمهلاً ، هبت واقفة.

قالت: "انظر، إذا كـان الجنس بين "لينا" و"ياجر" أمرًا مـسليًا لك إلى هذا الحـد ، دعنى أقل لك صراحـة إننى لا أرى ذلك ، إنك لا تعـبأ بكونى لابد من أن أحتمل تصرفاتهمـا طوال اليوم، بينما أنت تضيع وقتك عند الخليج ولا يقلقك أمـر أن لك زوجة وطـفل فى الطريق ، لا، اللعنة على كل ذلك. لـن يمضى وقت طويل حـتى يرتفع بـطن هذه الوقـحـة، وتصيـر مثلى منتـفخة بسـبب متعـة رجل، وبعد ذلك سـوف نرى، كيف سيكون هذا الهراء المـتع المسمى جنساً ؟ لا، لن يكون هناك أى شىء من هذا القبيل بعد ذلك. . . "

نهض بدوره واقفًـا وشعره الشديد البـياض يرسم خطوطًا كبـيرة أمام شعرها الوردى الفاتح ، ارتعشت لحيته ، وعيناه الكابيتان ظلتا مشدوهتين:
"ما هذه الطريقة فى الكلام؟"

" إننى أكلمك بصراحة! "

" لكن، يا إلهى، يا امرأة . . . "

"انتبه ، إذا كنت أبلها لدرجة أنك لا تفهم، فلم لا تغلق فمك. . .؟"

اندفعت منصرفة من أمامه نازلة درجات السلم، ومضت مجهدة إلى زاوية بالمنزل ، مشت حتى شجرة السنط وهناك فقط توقفت ، حيث وقع بصرها فى الشفق على التيس وقد دخل الحديقة وراح يقضم بشراهة الفروع الجديدة لبراعم الورد ، قالت : " تلك الورود لن تزهر مرة أخرى أبداً ، كما يقول المثل ـ ليس بعد أن أكلها التيس . "

ألقت برأسها إلى الخلف ، وأطلقت صرخة بعزم قوتها : "ياجرا"

قبل أن يأتى "ياجر" خارجًا من غرفته ، كانت كل الفروع قد قُضمت، كان قميصه مفتوحاً حتى سُرته ، وبنطلونه مطوى ، انتزع ابتسامة متصنعة ملأت شفتيه.

" سيدتى ؟ "

" يا إلهى ، أليس لك عينان فى رأسك ؟ انظر إلى ذلك! "

استدار ناحية الاتجاه الذى تشير إليه بإصبعها ، وهز كتفيه استخفافاً، ثم ثبت عينيه المتسائلتين عليها ثانية.

" أمسك التيس اللعين واحجزه بالسقيفة ، يا رجل تحرك واقفز عليه. " توقف التيس عن المضغ لأول مرة، ونظر ناحيتهما، ثم جاء عامداً فى اتجاهها، متأنيًا ، واثقًا .

" ياجر ، أمسك بهذه البهيمة العمياء"

قفز "ياجر" من فوق السلك، هبط إلى الأرض بخفة ، وأمسك التيس بسهولة من قـرن واحد، انعقدت العضـلات على طول ذراعه وعلى ظهره تحت القميص الخفيف ، ثم نزل ببعض الرفـسات على جانب الحيوان حتى تمكن من السيطرة عليه والإمساك به من قـرنيه ، راح يتراجع للوراء ساحبًا معه التيس، الذى كانت حـوافره تزحف طوال الوقت على الأرض الممتلئة بالحصى ، بينما جرت "لينا" ودفعت باب السقيفة عن آخره ، وقفت المرأة تحت شـجرة الـسنط متـصلبـة، وفى الضـوء الخـافت، أبقت عـينيـهـا تتابعـان" التـيس" المسحوب المهـتاج، ورأته يُدير رأسه ناحـيتهـا قبل أن يطلقه "ياجر" داخل السقيفة ويغلق عليه الباب بقوة .

سحبت "سـوزان" أحد أدراج المطبخ دون أن تعى عم تبحث هناك، وبين بكرات الحـبـال والكبريت وركـام من الأشـيـاء ، لمع سكين الذبح، فأطبقت بأصابعها على المقبض.

" ماذا تنوين؟ "

دفعت الدرج مـغلقة إياه واستندت إليـه لكن زوجها كان قـد رأى ما بيدها ، خرجت أنفاسها متلاحقة من فمها المفتوح، ولـم ترد.

" أنا أكلمك! "

تراجع خطوة، مكوراً قبضتيه ، وقد عصر التوتر حلقه ، قالت: " لا يكدرك ألبتة أن لك زوجة بطنها يرتفع بسبب متعتك . " نظر حوله مرتبكاً ، وفى الظلال المتحركـة على الحائط ، شعر أن الاتهامات التى توجـهها إليه تتدفق من ثدييها المتضخمين من الحمل، شعر بهذه الاتهامات فيضاناً يغمره .

وقفت ساكنة تماماً وبينما تراقبه فكرت في سبب وجود طفلها، الطفل الذى كان يجب أن يساعدهما على التخلص من الغربة التى استقرت بينهما ، الطفل الذى كان يجب أن يجعلهما متقاربين كما لو كانا شخصًا واحدًا. لكنه الآن طفلها وحدها، لا طفلهما ، لقد اختلفت الحال، ليس هذا ما كانت تأمل فيه ، أما هو، فيقف دائماً بعيداً، مراقباً من قمة صخرية باردة .

سمعت فجأة ، الثغاء الأبتر آتياً من السقيفة ، وميزت "التيس" واقفًا قبَل الباب ، خيل إليها كأن عينيه مثبتتان عليها، متسائلتان ثم أفاقت على أنها كانت تحدق فى العينين الكابيتين للرجل الواقف أمامها ، اضطرب صوته : " ما الذى تقبضين عليه ؟ "

اندفع متخطيًا إياها بحركة سريعة وفتح الدُرج ، أثناء مروره صدمها فى جنبها، فقدت توازنها ومالت على المنضدة ، فأمسكت بها حتى لا تسقط ، ثم وقفت منحنية ورأسها مائل على صدرها ، اختطف السكين ووقف خلفها ممسكاً بالنصل مرفوعاً فى قبضة يده، ثم ترك السكين يسقط .

" ماذا كنت تفعلين بهذا السكين؟ "

" كنت سأشحذه ، هذا كل شىء . "

تراجع إلى الممر المظلم ، ووقف للحظة، ثم مشى متمايلاً بشىء من رشاقته القديمة ، ثم أسرع متعثرًا على نحو مضحك إلى مقدمة الدرج ، بأسفل ، انبسط الخليج وصار داكنًا، وفى أكواخ الصيادين كان الرجال جالسين بجوار المواقد مع خبزهم وحسائهم ، أمرٌ غريب، كم أحس بالدفء فى هذا الأصيل عندما راح الرجال يمازحونه قائلين : " أيها التيس العجوز، متى يكون موعد ولادتها ؟ أكيد سيكون ولدًا، " الآن فقط شعر بحد السكين ذاك كأنه انغرز فى صدره ، أحس كأنه نزف حتى الموت .

عندما جلسا للعشاء ، أسندت سوزان ذراعًا إلى المائدة ، وشردت عيناها ناحية النافذة المفتوحة إلى حيث السقيفة. تحرك فك "هاين" مرتعشًا رعشة خفيفة فى أثناء مضغه قطعة من الخبز الجاف ، عندما نهضت رجع للوراء داخل كرسيه بعدم اكتراث ، بينما مشت خارجة من باب المطبخ دون كلمة ، توقفت عند باب حجرة "ياجر" قبل أن تطرقه ، كان صرير السرير مسموعًا، فتحت الباب عن آخره، رفع "ياجر" نفسه على مرفقيه، ووقعت عيناه المشتعلتان بالغضب عليها ، استدارت الفتاة التى نهضت مفزوعة ناحيته ، بصيحة خفيضة دفنت وجهها فى صدره .

" ما الذى يجرى هنا؟ "

" سيدتى ؟ "

هبت "لينا" واقفة فجأة وسحبت أغطية السرير حول جسدها ، قالت بتصميم ورأسها ملقى للخلف : "سيدتى ، عفواً . . . ، يمكنك صرفى من الخدمة. "

" ياجر ، إذا طردتها ، ماذا ستفعل ؟ فوراً تجد لنفسك على امرأة غيرها؟ "

" سيدتى، أنا، لا . . سوف أذهب معها ، "

" وبعد ذلك ، يمضى بعض الوقت ، وينتهى كل اللهو . . . "

" سيدتى ! "

" انهض ، وامض لإخراج التيس من السقيفة ، "

" حاضر، يا سيدتى "

" قيده إلى الشجرة "

" سوف أقيده "

كـان لهواء الليل وخـز، ونصف القمـر النحـيل يلمع فوق البـراعم البيضاء لأشـجار الكمثرى ، عندما دخلت حجـرة النوم ، وجدت رجُلها راقداً مـستيـقظًا ، سقط نصف الضوء رمـاديًا على أغطية الفـراش الوثيرة ، تعرت تمامًا من مـلابسها ودخلت السرير، فتـحول هو إلى الطرف القصى ، قبل أن يستغرق فى النوم رأت بريق عينيه يتحول إليها.

هبت ريح شديدة بين الأشجار، فلـم تتمكن من سماع شىء ، ومع ذلك، عرفت أن التيس كـان يقف هناك مقيدًا إلى شـجرة السنط ، رفعت نفسـها بحرص على مـرفقيـها، فسقطت الأغطية من فـوق الرجل عارى الصدر ،كانت لحيته الصغـيرة بارزة بعناد ، اقتربت منه ، مالت عليه ، ثم سحبت الأغطية من فوقه حـتى بات بلا أى غطاء ، .يرقد شاحبًا فى الضوء الخافت ، كئيـبًا ، قاسيًا ، متحجـرًا، وضعت يدها برقة على بطنه ونزلت بها إلى ما بين الردفين الضيقين ، أشار بيـده إشارة وحشية " لا تفعلى !" أمسك بصدره بقوة كـأنه ينزف من جُرح هناك ، واستنجد بالنوم ، ورجع يرقد هادئًا ، كان فمه الملتوى المثير للشـفقة غائرًا فى وجهه ، غطته بهدوء ، ونزلت عن السرير.

الرياح التى كانت تهب فى الخارج من ناحية التلال ، ضغطت النصل البارد فى جيب "الروب" إلى بطنها.

" أيها الحقير، الآن سوف تموت! "

وقف "التيس" منتبهًا كأنه فهم الأمر ، أخرجت السكين وأمسكت بقرن الحيوان ، انبثق شبح متراخ من بين الظلال ، وانعطف ناحية جذع الشجرة .

" سيدتى ، ماذا تفعلين؟ "

قذف "ياجر" عُقب السيجارة بحركة من إصبعى الإبهام والوسطى ، سقط عقب السيجارة فوق بوابة الحديقة بومضة حمراء ، ثم نظر بعيدًا ناحية التلال .

" سيدتى ، لقد أتيت فقط لأخبرك بأننى راحل مع "لينا" ، أعتقد أن هناك أواناً للأزهار، وأوانًا للذبول ، أما الآن فإننى سوف أمضى معها"

وقف "ياجر" ساكنًا تمامًا، ثم نظر لأسفل ناحية التيس ، وقال بأسف صادق: " يا للأسف ، إنه يشبه رجلاً عجوزاً "

اهتز القرن القوى بشدة فى قبضتها حتى تراخت فعلاً ، كانت تشعر عند لمسها لشعر التيس أنه ناعم مثلما كان شعر "هاين" فى شبابه ، تخيلته دفعة واحدة ، وكأنه لقطة فوتوغرافية قديمة ، ذات صباح منسى ، مائلاً على مجرفته فى حديقة الورد فى الضوء الخافت ، بابتسامة ناعمة غامضة ، خالى البال ، هادئًا ، وغير قابل للتغيير.

راح "التيس" يقاوم مسكتها، بعدها أطلقت سراحه.

ظلت "سوزان" واقفة هناك لوقت طويل بعد أن انسل التيس هاربًا إلى التلال ، أبيض ، فى ليلٍ رمادى، فقط عندما بدأ الطفل فى الحركة ، مشت ببطء راجعة عبر بوابة الحديقة ، رقد التل خلفها فى الظلام ، محصنًا، وظهر الخليج أمامها مثلما رأته أول مرة عندما وصلت لتقيم هنا. خفت الريح وارتفع ترنيم الصمت منبعثًا من الليل ، نظرت للبيت الأبيض حيث ينام زوجها ، توقفت لتلمس شجيرات الورد .

" فى الصيف القادم ، لن تكون ورود " .

حساء للمريضة

تأليف : هينى أوكامب(٤٠)

منذ عدة سنوات ، استراحت " العمة رينسى" فى رقدتها الأخيرة ، مع ذلك ظلت واحـدة من أكـثـر الناس الذين أتذكـرهم من أيام طفـولتى سحراً ، كانت آسـرة، ليس لما نعرفه عنها ، بل لمَا كنا نتـوهمه بشأنها ، فى الحقيقـة ، لم تكن شخصًا استثنائيًا فـريداً، بل كانت تميل إلى العزلة، رغم أنها لم تكن راهبـة، كانت تحضر بـانتظام طقوس الكنيسة والأعـياد، ومن وقت لآخر، تزور الطبيب الاسكتلندى ، أو السيد والسيدة "فيروى" العجـوزين ، غير إن هذه الزيـارات كانت على فتـرات متبـاعدة ، إلى أن توقفت نهائيًا ، فقد تدهورت صحتها .

لم تتلق "العمة رينسى" أية مساعدة من أحـد ، كانت مكتفية بخدمة راعيتها وصديقة عمرها "صوفـيتيه" ، حتى حين بدا أنها مشرفة على الموت ، لم يأت أحـد من عائلتـها لزيارتـها ، قـبل عشـرين عامًـا ، وصلت هى و"صوفيتيه" إلى منطقـتنا "كاروو" ، ثم انتقلتا للسكن فى منزل "البرج" الذى كان يقع عنـد طرف المدينة ، منذ ذلك الحين لم تستـقبل أية زيارات عائلية ، هل تخلت عن عـائلتها؟ أم أنهم تبرؤوا منها ؟ أم لعلهم افـترقوا باتفاق مشترك ؟

(٤٠) ترجمها إلى الإنجليزية عن اللغة الإفريكانية : « إيان فرجسون » . .

كل محـاولات الحديث مع "العـمة رينسى" عن ماضـيهـا ، كانت تتوقـف عند حـاجز ابتـسامتـها الغامـضة ، وكل من يحاول اخـتراق هذا الحاجز ، كان يُعرض نفسه للإهانة الصريحة أو الطرد نهائيًا.

فيما بـعد صار معروفًا للجـميع فى "كليب كرال" أنه لا يجب على أى امرئ أن يتطفل على ماضى "العمـة رينسى" ، الغرباء فقط هم الذين كانوا يقعون فى هذا الشرك ، رغم ذلـك ظل الناس يتساءلون فى فضول: "ربما ولدت فى بلد آخر؟ ربما جاءت إلى جنوب إفريقيـا لأسباب صحية ؟ شىء ما فى حديثهـا، وطريقة إدارتها لمنزلها طبعتهـا بسمت مختلف . . . شىء ما ـ وعند هـذا الحد يتهـامسون عن ذلك الشىء الـغامض الذي أثار التشوش فى كل "كليب كرال"ـ كان هناك شىء ما غـير عادى فى علاقتها بـ "صوفيتيه" .

لا يجب أن يكون المرء صديقًـا حميـمًا لخادمه ، لم يكن ذلك لأنهـما كانتا ترفـعان الكلفة بينهما ،أو لأنهـما تثرثران مع بعضهـما ، لكن لأن كلا منهمـا كانت تشعـر بالأخرى إلى حد كبـير، فإذا ظهـرت "صوفيتـيه" عند مدخل البيـت وهى تتسلل بهدوء قطة ، كانت "العـمة رينسى" تحس بذلك حتى لو كانت جالسة وظهرها لهـا ، عندئذ قد تقول لها: " شاى "، فتنسل "صوفـيتيه" داخلة يبـتلعها الممر المـعتم ، وتعاملاتهـما مع بعضهـما – فى الحقـيقة ـ موجـزة ، مقتضبة ، عرفت "صوفى" وضعهـا ، – كما يقول كبار السن – والتزمت به ، و رغم ذلك ، كان ثمة شىء ما بينهما .

ذات مسـاء خاص ، أدركت بوضوح العـلاقة الصـامتة بين "العـمة رينسى" و"صوفيتيـه"، كانت المناسبة التى رأيت فيها "صوفيـتيه" تتعدى

الحدود المألوفة ، فقد كانت "العمة رينسى" متوعكة لبعض الوقت ، بصراحة أكثر ، كانت تلازم الفراش أكثر من قيامها منه ، أرسلتنى أمى ، التى كانت ممرضة الحى ، بقدر من الحساء إلى منزل العمة "رينسى".

كان الباب الأمامى مواربًا ، وعندما لم يجب أحد على طرق الباب ، دخلت ببساطة، كان باب حجرة العمة "رينسى" مفتوحًا أيضًا ، وقد جلست "صوفيتيه" على السرير بالقرب من العمة "رينسى" ، ويداها السمراوان تطوقانها كأنها تحميها ، امرأتان مسنتان ، رماديتا الشعر، واحدة بيضاء هادئة ، والثانية سمراء ، تتهامسان بحميمية ، عندما شعرتا بوجودى توقفتا عن الحديث ، ورفعتا بصرهما إلىّ، بهدوء وبراءة .

حاولت العمة "رينسى" أن تسند نفسها إلى الوسائد ، وقالت: "أوه ، ستيف ،حساء !»

قلت بفخر: " حساء طائر الحجل ، اصطدته بنفسى "

راحت العمة "رينسى" تصارع فوق الوسائد .

قالت "صوفيتيه" بحزم : " تمهلى ، قلبك "

" ليس قلبى ، بل قلبك أنتِ يا صوفى ، لا ترفعينى مرة أخرى . "

ابتسمت "صوفى" برقة، لم أرَ فى حياتى وجهها الصارم جميلًا مثلما رأيته هذه المرة ، هى أيضًا عجوز متغضنة الوجه ، إذا ما نظر المرء لوجهها عن قرب كان يرى الكثير من التجاعيد ، لكنها بدت أصغر بكثير من العمة "رينسى" ، لم تكن "صوفى" تشبه أيًا من الملونين الذين

عرفـتهم ، كان أنفهـا دقيقاً ، وفـمها يوحى بالكبـرياء ، وعيناها - ذواتا الأهداب الداكنة - براقتان .

قالت الـعمة "رينسـى" : " صوفى ، اذهبى وأحـضرى لنا أطبـاقًا وملاعق . "

بعـد فتـرة وجيـزة قـدمت لى "صوفى" طـبق حسـاء ، ارتبكت ، واعترضت قائلًا : " لقد تناولت طعامى قبلاً "

قالـت العمـة "رينسى" ملاطفـة لى : " هيا ، كُل مـعنا من أجل الشكل الاجتماعى "

جلست "صوفى" مـرة أخرى على السرير ، وأمسكت وعـاء الحساء برصانة بيدها البارعة .

لماذا تتصرف العمة "رينسى" بهذه الـطريقة الغريبة ؟ هل أصبحتُ أنا تجسيداً للعرف الاجتماعى الذى قـاومته هى مقاومة سلبية لسنوات طويلة ؟ إنه لعبء ثقـيل على صـبى عمـره اثنا عشـر عـامًا ! أم هل كـانت تريد تعليمى شيئًا ؟ أم ببساطة أصبحت عـجوزاً جداً ومتعبة لدرجة أنها لم تعُد تعبأ بالقواعد الاجتماعية .

لا يزال ذلك الأصيل يحمل فى ذاكرتى بطريقة دقيقة تفاصيل لحظات الكشف السرمدية ، عبر الستائر الخضراء ، تسرب الضوء إلى حجرة العمة "رينسى" بارداً ، فباتت كأنها حوض نباتات مائية ، يشتم المرء على نحو مفاجئ رائحة الزهور ، ولا يدرى أهى فى الحجـرة أم آتية من الخارج عبر الحديقة ، لابد من أنهـا من الحجرة ، فهى رائحة عطر ثقـيل ، تشبه إلى حد بعيد رائحة التحلل والقدم ، فجأة ، عرفت أن بين هاتين المرأتين رابطة

تفوق إدراكى ، كنت مشدود الأعصاب ، محتاجًا لدفع حدسى لأبعد مما يسمح به سنى .

ماتت "صوفيتيه" قبل العمة "رينسى" ، كنت جالسًا مع أبناء عمومتى فى "الفرى ستيت" عندما سمعنا ذلك الخبر ، وحين عدت إلى "كليب كرال" ، سمعت بما أثاره دفن "صوفيتيه" من اضطرابات ، أرادت العمة "رينسى" دفن "صوفى" فى الحديقة أمام بيتها ، لم يوافق مجلس المدينة على ذلك ، ثم طلبت أن تدفن فى مقابر البيض ، لكن الجمعيات النسائية نظمت اجتماعات معارضة لذلك ، وفى النهاية دُفنت "صوفيتيه" المسكينة إلى جوار الملونين الآخرين.

" أووم جاوى" ، سائق التاكسى الوحيد فى المدينة ، كان يصطحب العمة "رينسى" إلى مقبرة "صوفيتيه" كلما سمحت صحتها بذلك ، هناك كانت تجلس لوقت طويل على كرسى البحر الذى تصطحبه معها كل مرة ، وقد اكتسب " أووم جاوى" تدريجيًا عادة الانطلاق للمدينة ليخطف كأسًا ،ذات يوم ، بينما كان "أووم جاوى" بالمدينة ، هاجمت العمة "رينسى" عاصفة رعدية أودت بحياتها .

ترك "أووم جاوى" الشراب لبعض الوقت إحساسًا بالذنب ، لكن التضحية لم تكن ضرورية .. فإن العمة "رينسى" لم تكن ترغب فى الحياة أكثر من ذلك ، هكذا قال الجميع .

كانت وصيتها غريبة ، فقد أورثت المدينة أموالها لبناء مستشفى ، ووضعت شرطًا واحدًا.. أن ترقد بجوار "صوفيتيه" .

صار لـ " كرال كليب " مستشفى جميل بالقياس لمثل هذه المناطق الصغيرة ، لكن القس كان يقول : لابد من أن أحدًا ما يعتنى بهاتين المقبرتين .. أى أحد .

جفاف

تأليف : يان رابيى[٤١]

تكتسح دوامات التراب سطح اليابسة الأسمر، تهتز جذور العشب الذابل المترقب للمطر، والسهل الواسع المجدب ظامئ لأن تشقه الخضرة المحبوبة حتى أفقه اللانهائى ، تحت وهج شمس الظهيرة ، وقرب ليل وشيك بارد ، وسماء مرصعة بالنجوم ، يمتد خط السكة الحديدية ، مفردًا ، ومستقيمًا ، منظر عام للجفاف ، صغيران جدًا ، مثل حبتى رمل ، يبنى رجل أبيض ورجل أسود جداراً ، أربعة جدران ، ثم سقف ، منزل .

يحمل الرجل الأسود كتل الحجر والرجل الأبيض يصفهم فى المكان، يقف الرجل الأبيض داخل الجدران حيث يوجد قليل من الظل، يقول: "لابد من أن تعمل فى الخارج ، فأنت ذو بشرة سوداء، تستطيع تحمل الوقوف فى الشمس أفضل مما أستطيع أنا"

يضحك الرجل الأسود من تلألؤ عضلاته فى الشمس، منذ مئات السنين حصد أسلافه محاصيل داكنة برماحهم ، ودرسوا حمى الشمس السوداء بأقدامهم وصاغوا منها رقصة "النجوما" ، الآن يضحك الرجل الأسود ، ثم شرع فى العبوس .

(٤١) ترجمها المؤلف إلى الانجليزية عن اللغة الإفريكانية .

يسـأل : " لِمَ أنت دائم الحديث عن بشرتى السوداء ؟ "

يقـول الرجل الأبيض: " لأنك لُعنت ، منذ زمن بعـيـد لعنك إلهى واختصك بالظلام . "

يرد الرجل الأسـود فى غـضب : " إلهك أبـيض ، إلهك يكذب ! إننى أحب الشمس وأخاف الظلام . "

يواصل الرجل الأبيض الحديث حالمًا : " منذ عهد بعيد أتى أجدادى عن طريق البحـر ، أتوا من بعيـد على سفن بيضـاء شاهقة الارتفـاع مثل الأشجار، وعلى الأرض ، شيدوا حـافلاتهم ، وغطوها بأشرعة سفنهم ، ثم ارتحلوا بعيدا ، ونثروا رماد نيران مـعسكراتهم فوق هذه الأرض الواسعة الهمجـية ، لكن الآن تعب أحفادهم ، نـريد أن نبنى منازل ونعلمكم أيها السود كـيف تعيشـون معنا فى سلام ، حـان الوقت لذلك ، حتى لو ظل جلدك أسود للأبد . . . "

يرد له الرجـل الأسـود الـضـربة متـفـاخـرًا : " وأسـلافى غـمسـوا رماحهم فى دم أجدادك ورأوا رماحهم حـمراء بلون الدم ، حمراء مثل دم الـ "إمبـالا"[٤٢] الذى جـرى شبـابنا للـحاق به بين الشمسين الحـمراوين فى التلال . "

يقـول الرجل الأبيض بحزن : " آن أوان نـسيـانك الماضى اللعين ، أقبِل ، لابد من أن تتعلم كيف تعمل معى ، يجب أن نبنى هذا المنزل "

يقف الرجل الأسود طاويًا يديه : " تأتـى لتعلمنى أن الرب أبيض ، وأنه يجب أن أبنى بيتًا للرجل الأبيض . "

(٤٢) إمبالا : نوع من الغزلان الإفريقية تجرى قفزًا .

يصيح الرجل الأبيض : " أيها الكافيرى ، أنت لا تفهم شيئًا ألبتة ! (قم بما أقوله لك ! ")

يتمتم الرجل الأسود : "حسنًا ، يا ريس"

يحمل الرجل الأسود كتل الحجر، والرجل الأبيض يصفها فى المكان .

يصنع جدرانًا متينة ، توهجت عين الشمس المرعبة ،

بعيدًا ، كأنه الشجرة الوحيدة فى أرض عطشى ، اكتسح عمود التراب الأفق المرتجف .

همهم الرجل الأبيض : " هذه الحرارة اللعينة ! لو تمطر فحسب "

يمسح باستفزاز العرق المتصبب على جبهته قبل أن يقول : " أسلافك ماتوا ، آن الأوان لتنساهم . "

ينظر الرجل الأسود صامتًا وعيونه تقول : " وأسلافك ، ماتوا أيضًا ، نحن هنا وحدنا "

وحدهما ، فى السهل الجاف ، الفارغ ، يبنى الرجل الأبيض والرجل الأسود أربعة جدران .. منزلاً .

لم يتكلما معًا ، يبنيان الجدران الأربعة ثم السقف ، يعمل الرجل الأسود فى الخارج تحت الشمس ، والرجل الأبيض فى الداخل ، بالظل ، الآن يرى الرجل الأسود رأس الرجل الأبيض فقط ، يصُفَّان السقف.

أخـيرًا ، يسـأل الرجل الأسـود : " يا ريس ، لماذا تبنى بيـتك دون نوافذ أو أبواب ؟ "

صار الرجل الأبيض حزينًا جدًا. يـقول : " هذا أيضًا لن تقدر على فهـمه ، منذ زمن بعيد ، فى بلد آخـر، بنى أجدادى جدرانًا تقـيهم خطر البحر ، جدرانًا سميكة ، مانعـة للماء ، لهذا السبب بيتى ، أيضًا ، دون نوافذ وأبواب . "

صاح الرجل الأسـود بدهشة : " لكن لا توجـد هنا مياه جـارفة ، الرمال جافة مثل جمجمة! "

قال الرجل الأبيض فى نفسه : " أنت هو البـحر" ، لكنه كان بائسًا أكثر مما ينبغى ليشرح له ذلك .

يصفان السقف ، يسمران آخر لوح خشب ، آخر لوح "جمالون" ، الرجل الأسود فى الخارج ، والرجل الأبيض فى الداخل ، بعد ذلك ، لم يعد الرجل الأسود قادرًا على رؤية الرجل الأبيض .

صاح مناديًا : " يا ريس ! " ، لكنه لم يسمع جوابًا .

يفكر بخوف ، لا يسـتطيع الرجل الخروج ، إنه غيـر قادر على رؤية السماء أو معرفة الليل من النهار ، سوف يموت الرجل داخل البيت !

يدق الرجل الأسود على الجدار بقبضتيه ويصيح : " لكن يا ريس ، لن تأتى هنا أية مياه جارفة ! هنا لن يسقط المطر لأربعين نهارًا وأربعين ليلة مثلما يقول كتاب إلهك الأبيض ! "

لم يسمع ردًا .

ما زال الرجل الأسود رافعًا قبضتيه وكأنه يدق الجدار مرة أخرى ، وترتفع عيناه مشدوهتين إلى السماء الخالية من أية سحابة ، وفى الأفق ترقص أعمدة التراب الأحمر رقصة "نجوما" المرعب ، رقصة الجفاف .

وحده ، خائفًا ، يتمتم الرجل الأسود : " يا ريس ، أخرج . . . أخرج إلىَّ " .

الولد

تأليف : كيزى مونتسيبى

" الولد " ، ابن "إيستر" ، البغى وصاحبة الخمارة ، وُلِد بعرج فى ساقه اليسرى ، لكنه فى سن العاشرة كان يكسب قوته بنفسه ، باع الجرائد فى المدينة ، ادخر نقوده مثل بخيلٍ ، وبعد عام آخر، أمكنه شراء بنطلون وسترة قصيرة ملونة لنفسه ، شعر كأنه رجل عندما دار وهو يعرج مستنداً على عكازه فى بنطلونه الطويل وسترته القصيرة .

كانت " إيستر" فخورة بابنها ، على الرغم من أن "الولد" ترك الدراسة فى سن التاسعة ، إلا إن "إيستر" لم تجد فى ذلك سببًا يدعوها للقلق ، فقد أثبت ولدها أن لديه مؤهلات رجل تمكنه من تحقيق النجاح فى الحياة دون التقيد بالمعرفة التى قد يحصلها فى باقى مراحل التعليم الإلزامى .

بمرور الزمن كبر الولد ، وراح تفاخر "إيستر" بابنها يتضاءل ، فى الحقيقة ، صارت متوجسة تترقب وقوع الشر .

قالت "إيستر" لجارتها : " أوه ، ما ـ سيللو ، الولد يشغلنى بكثير من الأسئلة السخيفة، لا أعرف ما الذى يدور فى نفسه ، " كانت « إيستر » فى غاية القلق والانفعال ، حتى إن "ما ـ سيللو" حاولت أن تهون عليها

قدر طاقتها لتبدد مخاوفها ، فقالت ببال خال : " كل الأولاد فى مثل هذا السن متشابهون . أولادى يتصرفون مثله أيضًا .

نادى الولد : " أمى ! ".

ردت الأم: " نعم ، يا ولدى ؟ "

" هل تعرفين تلك السلالم التى تمشى فى محطة « جوهانسبرج » ؟ "

" نعم ، يطلقون عليها سلالم كهربائية " ، وتساءلت فى نفسها : مَن من عشاقها الكثيرين قد أخبرها بهذه الكلمة ؟! فكرت ربما يكون الطالب ذا الصدر المُشعر.

" تلك السلالم تصعد فقط ، لماذا لا تهبط ؟ "

" توجد سلالم أخرى للنزول "

" لكن هذه السلالم دائمًا تصعد لأعلى ، هل يمكننى أن أنزل من عليها بينما تصعد لأعلى؟ "

" لا أعرف "

" هل جربتِ استخدامها بهذه الطريقة ؟ "

" لا "

" هل حاول أى شخص استعمالها هكذا ؟ "

" لا أعرف ، من فضلك اسكت ! "

" سوف أذهب لتجريبها "

جرب الولد استخـدام السلالم الكهربائية ، وكان سعـيدًا جدًا عندما تمكن من النزول على السلم الكهربائي بينما السلم يتحرك صاعدًا ، سعادة تشبه تلك الرعشة التى يشعر بهـا سائق السيارة بعد أن يقطع الطريق بأمان في الاتجاه المعاكس على طريق ذى اتجاه واحد .

سأل " الولد " : " ماما ، ما حاجتنا لرجال الشرطة ؟"

قالت « إيستر » مـتوقعـة السؤال التـالى من ابنها : " نحن نحـتاج لرجال الشرطة . . . "

سأل " الولد " بإلحاح : " ما حاجتنا لهم ؟"

" للقبض على الناس . "

" إذن ، سوف أكون شرطيًا "

احتـال الـولد ليـحـصل على زوج من الأصفـاد وصفـارة بوليس ، كيف، ومن أين حـصل عليهـما ؟! سوف يبـقى هذا أمرًا غامـضًا ، لكم أحب النفخ فى تلك الصفارة ، وإلى أى حد أهاجت أعصاب « إيستر »!

قال " الـولد " لإيستـر ، ووميض العـدالة يطل من عينيـه : " أنا شـرطى ، سـوف أقبض عـلى أحد هؤلاء الـرجال الذيـن يحتـسـون الـ "سكوكيان"(٤٣) فى المطبخ . "

قـال " الولد " للرجل ذى الشعـر الرمـادى الذى رشف توًا رشفـة واحدة من علبته : " أنا أقبض عليك . "

قال ذو الشعـر الرمادى مادًا يده ممازحًا الصبى : "حسنا ، اقبض عليّ "

(٤٣) نوع من الخمر المحلى الرخيص .

كَرنْج ، كَرنْج ، انغلقت الأصفاد على معصمى الرجل .

كان ذو الشعر الرمادى بعد ساعتين مايزال يلتمس من " الولد " نزع الأصفاد ، لكن " الولد " طلب « خمسة » شلنات أولًا .

راح يكرر كلمة خمسة شلنات مرات لا حصر لها .

قال الرجل : " إذا لم تحل هذه الأصفاد سوف أركل . . . الحمراء . " .

عندئذ ضرب " الولد " الرجل على رأسه بعكازه قبل أن يتمكن الآخر من نطق أية كلمة .

صاح ذو الشعر الرمادى وقد شارف على البكاء : " إيستر ! " . وكان خيطًا رفيعًا من الدم يسيل من أم رأسه .

دفعت « إيستر » المطلوب " تمامًا " لتخليص ذى الشعر الرمادى ، ، فانفرجت الأصفاد ،

صاح " الولد " ، وهو خارج من البيت إلى الشارع يعرج : " أنا شرطى "

قال ذو الشعر الرمادى : " لن أشرب فى هذا البيت مرة أخرى . "

وهكذا تناقص زبائن " إيستر" ، الواحد تلو الآخر .

حتى عشاقها تناقصوا ، لِمَا كان يقوم به " الولد " من أفعال ، فقد كان يندفع داخلًا حجرة النوم فى منتصف الليل والعمل جارٍ على أشده ، ومهما كان من فى الفراش مع "إيستر" ، يضربه على رأسه بعكازه .

ذات يوم قال " الـولد " لأمه : " يوجد كـثيـر من الذباب فى هذا البيت ، "

لم ترد "إيستر" ، هزت رأسهـا بأسى عندما تأملت ابنها وهو خارج من المنزل يعرج . . . . . بعـد دقـائق ، عـاد " الولد " حاماراً دسـتة من علب الكبريت ، جلس عـلـى مقعـده وفـتـح علبة وسحب عوداً ، أشعله وعندما انبـثق اللهب راح يضـحك ، ظـل يقـوم بـذلك إلى أن صـارت العـلبـة فـارغـة ، ثم تناول العلبـة الثانيـة ، بعد قليل من الوقت فـرغت الاثنتا عشرة علبة .

قال " الـولد " مـحدقًا فى علب الكبريت الاثنتى عـشرة بمرح : " الآن عندى اثنا عشر تابوتًا ، سوف أقتل وأدفن اليوم اثنتى عشرة ذبابة "

فى ذلك اليوم ، دفن اثنتى عشرة ذبابة .

فى اليوم التالى وجـدت « إيستر » ابنها منهمـكًا فى تثبيت ألواح من الخشب بالمسامير ، كـان ينظر بذلك المزاج المرح حتى أن « إيستر » ، التى لم تعد تتحمس للحديث قط مع ابنهـا ، لم تقدر أن تمنع نفسها من سؤاله عما كان يفعل .

قال : " أصنع تابوتًا لـ "توبسى"

كان « توبسى » كلب العائلة المدلل .

اضـطربت « إيستر » لما تخفيه الكلمات ، وقالت : " لكن « توبسى » لم يمت ! "

قال : " كنت أحلم ليلة أمس بأنه مات "

شعرت "إيستر" بالراحة ، قالت : "حـسنا ، كان حلمًا سيئًا ، إنه لم يمت . "

راح الشاكوش يدق ، تاب ، تاب ، تاب .

قال : " إذن سوف أقتله ، لابد من أن أدفنه في هذا التابوت ! "

خرجت " إيستر" للبحث عن الكلب ، نادت : " توب ، توبسى ، توبـ . . . سى . . . ى . . ى ! "

حين أدركت الكلب ، أمسكت به ، واستـقلت سيارة تاكسى وذهبت به إلى بيت خالها الآمن فى ألكسندرا

كـانت الساعـة حوالى التـاسعـة مسـاءً عندما عـادت « إيستـر» من ألكسندرا ، وكان باب البيت موصداً ، دقت « إيستر» على الباب .

صاح " الولد " من النافذة : " اذهبى بعيداً ، هذا بيتى "

قالت : " يا ولد ! أنا ، أمك ! " .

قال : " ابتعدى ، ابتعدى أمى لم تولد بعد ! " .

المقعد

تأليف: ريتشارد ريف

" نحن جزء من مجتمع معقد ، مجتمع غاية في التعقيد بسبب أنه يحرم الأغلبية الساحقة من السكان من الحقوق الأساسية للمواطنة ، مجتمعنا هذا ، يحكم على الإنسان بمرتبة أدنى لأنه ولد أسود ، مجتمعنا هذا ، يسعى فقط للإبقاء على مكانته الاجتماعية والاقتصادية على حساب الطبقة العمالية السوداء الكبيرة .

كان "كارلى" يبذل جهداً حتى يستجمع شتات ذهنه أثناء متابعة المتحدث ، شيء ما فى خلفية عقله قال له : إن هذه كلمات عظيمة وحقيقية .. مهما كان المقصود بها ، كان المتحدث رجللا أسود ضخمًا ذا صوت متدفق ، توقف المتحدث ليرشف الماء من كوب. تصبب "كارلى" عرقًا، ضربت شمس أكتوبر(٤٤) الساخنة الجمع المحتشد بدون رحمة ، ولم يكن فى السماء المشتعلة فوق جبل "تابل" أى أثر ولو طفيف لسحابة ، والأشجار عند الـ "جراند بارادا" ، متدلية وذابلة، لا تكاد توفر سترًا ، تشبع منديله الذى كان يضعه حول عنقه بالعرق ، نظر "كارلى" بحذر إلى بحر الوجوه ، وجوه سوداء، وسمراء، وزيتونية، وبعض الوجوه البيضاء، وتبعثرت هنا وهناك بعض الطرابيش الحمراء التى يرتديها

(٤٤) « الصيف فى النصف الجنوبى من القارة عكس النصف الشمالى منها »

المسلمون ، كان يقف إلى جوار سيارة متوقفة على جانب الطريق اثنان من الشرطة السرية يدوّنان الملاحظات ، من فوق المنصة المرتفعة كان الصوت المتدفق قد بدأ مرة أخرى ، "واجب على كل واحد منا أن يتحدى شرعية أى قانون يحكم على إنسان ما بوضعه فى مرتبة أدنى، لابد من أن نعترض على ادعاء أية جماعة بأنها تتميز عنصريًا بين الجماعات على أساس لون البشرة ، أنتم وأطفالكم محرومون من الحقوق التى لكم بمقتضى كونكم مواطنى جنوب إفريقيا ، إلا إنكم مع ذلك تعاونون الفصل العنصرى لأسباب سياسية واجتماعية واقتصادية . "

شعر "كارلى" بشىء ينشط عميقًا فى داخله ، شىء لم يخبره من قبل قط ، ولم يعرف مطلقًا بوجوده فى داخله ، بدا الرجل فوق المنبر كأنه ينشر دينًا جديدًا، الرجل الذى قال : إن لـ "كارلى" ، حقوقًا بمعينة، ولأطفاله حقوقًا أخرى ، أى نوع من الحقوق؟ مثل التي للرجل الأبيض مثلًا .... أن يسكن هو و"أوباس لاتجنتين" أيضًا فى "بيتستين فونتين" ؟ صار للفكرة شكل ، وبدأت فى النمو ، فورة فى المشاعر ونفاذ بصيرة، لم يخبرهما من قبل قط ، .... وأن يجلس إلى مائدة فى مقهى بشارع "بيتستين فونتين" ويطلب هو و"نيللى" شريحة لحم وبيضًا وقهوةً ، جلسةً فى الطابق السفلى بصالة العرض السينمائى المحلية مع بقية الفلاحين، وأن يخرج فى الاستراحه ليشترى المشروبات من الـ "بانوراما" ، يرى أبناءه فى المدرسة العليا يلعبون « الرجبى» «والهوكى » ضد الفرق الزائرة ، أخافته هذه الصورة، لكنها كانت، فى ذات الوقت، مغرية ، ما رأى "أوكلاس" فى هذه الأمور الآن؟ "أوكلاس" الذى كان دائمًا يقول : « إن الله بحكمته خلق الرجل الأبيض أبيض، والرجل الملون أسمر، والرجل الأسود أسود، ولابد من أن يلتزموا مراتبهم » ، ما قول "أوكلاس"

فى كل هذا ؟ كانت تلك الأفكار الآتية من المنصة بعيدة عن "أوكلاس" وعن الـ "بيتستين ڤونتين"، ولكن بشكل ما كان لها منطق لديه.

قطب « كارلى » حاجبيه وهو يحاول أن يفهم جيداً الأفكار التى تدور حوله. كان على المنصة آخرون، أسود، وأبيض، وملون ، يتصرفون جميعًا وكأنه لا توجد أى فروق بينهم بسبب اللون ، ماذا سيقول "أوكلاس" عندما يخبره عن ذلك؟ و"أوبوس لاتجين"؟ قدمت امرأة بيضاء، فى فستان أزرق، سيجارة للمتحدث السابق الذى كان رجلاً أسود ، كان قد قُدم للجمع باسم السيد "نكيسلى"، رئيس اتحاد التجارة الذى كثيراً ما كان مسجونًا ، امرأة بيضاء تقدم له سيجارة! شعر "كارلى"، أيضًا، برغبة فى التدخين، سحب سيجارة "كافيللا" من العلبة المتغضنة.

راح يتخيل "أوكلاس" يقدم إلى "أنيتا لاتجين" نفسًا من غليونه ، ماذا سيقول أبوها؟ الأكثر احتمالًا أن "أوبوس لاتجين" سوف يمسك ببندقيته ويصيب "أوكلاس" فى التو ، كان الخاطر مثيراً للضحك، حتى إن "كارلى" انفجر ضاحكًا ، نظر واحد أو اثنان من الحضور مستغربين، وفى نوبة خجل، حوّل الضحك إلى سعال ، لكن عقله رفض التخلى عن الصورة ، ليس لـ "أنيتا" مكان هنا، لم تكن تقارن بجمال هذه السيدة ، ولم يكن لها فستان أزرق جاهز ، عندما تحركت السيدة التى على المنصة، ظهر فستانها مشدوداً على جسدها ، رأى ذلك عندما قدمت السيجارة للسيد "نكيسلى".

إذا كان كل ما قاله المتحدث حقيقيًا ، فإن ذلك يعنى إنه هو "كارلى" ، إنسان فاضل مثل أى إنسان آخر ، متساوٍ حتى مع الرجل

الأبيض، تحـرك لسانه بهـذه الكلمات، لكنه أسـرع ينحي هذه الفكرة عن رأسه ، مع ذلك بدا كـأن المتحدث يؤكد على هـذه الفكرة فقـط ، ولماذا لا يجب أن يتقـبل تلك الأفكار؟ تذكر صورة مأخـوذة عن صحيفـة تظهر هؤلاء الناس الذين تحدوا تلك القوانين التى قالوا : إنهـا غير عادلة ، كان قد سأل "أوكلاس" عن ذلك ، لكن الـرجل العجوز هز كتفيه اسـتهجانًا فحسب ، كان الناس في الصـحيفة يبتسمـون وهم فى طريقهم للسجن ، وكانت تلك الأمور مربكة وغريبة .

استمر المتحدث ذو الصوت المتدفق في حديثه، وكان "كارلى" ينصت باهتمام ، بدا المتحدث واثقًا من نفسه، وجريئًا أثناء فيض كلماته المتدفق ، أحس "كارلى" بنفسه أكبـر من "أوباس لاتجين" أو حتى أكبر من المسيطر على كنيسة البيض الوحيدة فى "بيتستين فونتين" ، بعد ذلك تحدثت السيدة ذات الثـوب الأزرق ، تلك التـى أعـطت السيـد "نكيـسلى" سـيجـارة ، قالت : "إن المرء لابد من أن يعارض ويتحدى كل قوانين التمييز العنصرى ، واجـب علـى كل فـرد أن يفـعل ذلك ، يتحـدى كل القوانين التى تقول : « إن هناك إنسانًا أدنى مرتبة من إنسان آخـر » ، اجلس حيثما تريد، سواء فى قطار أو مطعم ، دعـهم يعـتقلونك إذا جـرأوا ، " انهـمك الشرطيـان الأبيضان فى تدوين الملاحظات ، ما الذى يدفعها ، لتقول لهم ذلك؟ فهى يمكنهـا الذهاب إلى أفـضل دار عرض سـينمـائى ، وأن تسبح فى أفـضل الشواطئ، وأن تسكن فى أفضل المناطق ، ما الذى يدفع امرأة بيضاء قادرة على الحصول على كل شىء لقول مثل هذه الكلمات؟ ! ثم إنها أجمل من "أنيتا لاتجين" ، ولها شعر يلمع فى الشمس مثل الذهب.

كان مهمومًا قبل تركه "بيتستين فونتين" خشية أن تكون الأحوال فى كيب تاون مختلفة كثيرًا ، وكان قد شاهد جماعة "الإسكوليز" فى شارع "هانوفر" ، لكنهم لم يعودوا يُرهبونه بعد، على الرغم من أنه كان يخشاهم فيما سبق ، يسكن الآن فى شارع "كاليدون" قرب دار عرض "النجم"، وكان له عدد قليل من الأصدقاء ، أحدهم يسكن فى "أثلون" وهو الذى كان ذاهبًا لزيارته عندما رأى الاجتماع فى شارع "جراندا بارادا".

اكتشف أن الحى السادس حى متواضع، لكن لا أحد ولا حتى "أوكلاس" كان قد حذره من الأشياء التى يسمعها الآن ، كل هذا كان أمرًا جديدًا عليه ، هذا الحدث كان يهيئ العقل للانطلاق ، أكدت السيدة أنهم لابد من أن يعارضوا ويتحدوا تلك القوانين ويتحملوا العواقب ، نعم، يجب أن يعترض ويتحدى ، راح القرار يتخذ شكلاً فى عقله ، لكنه ما زال جريئًا وبعيدًا جدًا عن التنفيذ، وأيضًا بعيدًا جدًا عن السخف ، وفى أثناء استمرار السيدة في الكلام بدأ التصميم يزحف على الغموض ، نعم، لابد من أن يتحدى ، هو "كارلى"، سوف يتحدى ويتحمل العواقب ، هو، سوف يذهل "أوباس لاتجين" و"أوكلاس" و"أنيتا لاتجين" و"نيللى" عندما يرون صورته فى الصحيفة ، وسوف يبتسم هو، سوف يذهل حتى السيدة ذات الثوب الأزرق ، بحماس المؤمن الجديد عقد العزم على التحدى، حتى لو كان ذلك يعنى السجن ، سوف يبتسم مثل أولئك الناس فى الصحيفة.

لقد توصل الاجتماع لقرار، ثم غنى الجميع، ورفعوا أيديهم وأصابع الإبهام مشيرة لأعلى وصاحوا "إفريقيا! " انتهى الاجتماع وتفرق الحشد،

شق "كارلى" طريقه بحذر خلال الكتلة البشرية وهو ذاهب إلى محطة القطار ، سوف ينتظره صديقه فى "أثلون" ، مازالت كل كلمات المتحدثين تتلاطم فى رأسه ، أفكاره مختلطة ، إلى جد ما، لكنها فى الوقت ذاته، واضحة تمامًا ، يجب أن يتحدى ، لم يكن ليحدث مثل هذا قط فى "بيتستين فونتين" ، أو هل يمكن أن يحدث؟ انطلق فجأة صوت فرامل سيارة كصرخة ذعر ، قفز "كارلى" بعيداً عن الطريق فى الوقت المناسب ، أطل رأس غاضب من نافذة السيارة.

"انظر إلى أين أنت ذاهب، أيها القرد الأحمق ؟"

حدق "كارلى" للحظة، مبهور الأنفاس ذاهلًا لا ينطق ، بالتأكيد هذا السائق لم ير السيدة البيضاء وهى تقدم سيجارة للسيد "نيكسلى"، إنها لم تكن لتصرخ فيه، وتسميه قرداً ، لقد قالت لابد للمرء من أن يتحدى ، كل هذه الأحداث تسبب له الاضطراب ، ربما يكون من الأفضل اللحاق بالقطار، والرحيل إلى صديقه فى "أثلون" وإخباره بكل ما حدث ، أحس بحاجة إلى الحديث مع شخص ما.

رأى المحطة بعيون مؤمن حديث الإيمان، كتلة من البشر، أكثرهم من البيض ، مع بعض السود، وقليل من الملونين مثله ، هنا كانوا يتدافعون، ويشقون طريقهم بالمناكب، لكنهم بدوا كأن كل واحد منهم محاط بشرنقة كلٌ فى عالمه الخاص، الكل يتحرك حركة محسوبة فى قالب ضيق من صنعه ، ولكن لابد للمرء من أن يتحدى كل هذه الأشياء، هكذا قالت المرأة وأيضًا الرجل ذو الصوت المتدفق ، كلٌ بطريقته ، لكن كيف يمكن للمرء أن يتحدى؟ وما الذى يتحداه؟

ثم بزغ الحل أمـامه ، هنا فرصـته ، المقـعد ، مـقعد مـحطة السكة الحديـدية، بالخرافـة المكتوبة باللون الأبيض بإتقـان : " للبيض فـقط " ، لبرهة، كـانت هذه اللوحة بالنسـبة له ترمـز إلى كل بؤس مجـتمع جنوب إفريقيـا ، إذن، هنا كان تحديه من أجل حقوقه كـرجل ، هنا يقف المقعد؛ مقـعد خشـبى عادى مثـل مئات وآلاف المقاعـد فى جنـوب إفريـقـيا ، مقـاعد المحطات المتربة فى "كـاروو" ، وتحت أوراق النباتات الاستوائية فى "ناتال" ؛ المقاعـد فى طـول البـلاد وعرضـها، كل مقـعد بخرافـته ، هذا تحديه، تمركـزت حول هذا المـقعـد الآن، كل شـرور نظـام لـم يفهـمه ، كان المقعـد عائقًا بين نفسه ورجولتـه ، إذا جلس عليه، يكون رجلاً ، إذا خـاف، فلن يكـون جديـراً بإنسانيـته ،كـل تصوراته عن إصـلاح النظام انحصـرت فقط فى جـلوسه على ذلك المقـعد، هنا كـانت فرصـته ، هو "كارلى" ، سوف يتحدى.

بدا هادئًا تمامًـا عندمـا جلس على المقـعد، لكن قلـبه كـان يضطرب بعنف، تتنازعـه الآن فكرتـان ، الأولى قالـت: "ليس لك حق أن تجلس على هذا المقعد!" الفكرة الثانية قالت: "لماذا ليس لك حق الجلوس عليه ؟" هذه الفكرة الأولى هى صـوت الماضى فى حياة القـرية، من استسـلام أبيه وجده "أوكلاس" للعبودية، فـجده هو من قال "الله بحكمته خلق الرجل الأبيض أبيض، والأسود أسود!" الصوت الآخر فى داخله وعده بالمستقبل حين قال: " كارلى، إنك رجل ، لقد جـرؤت على ما لـم يجرؤ عليه أبوك وجدك، وستموت كرجل".

سحب " كـارلى" سيـجارة الـ"كافـاللا" من العلبة المتـغضنة وراح يدخن ، لم يلحظ أحد وجـوده جالسًا هناك ، هذا أيضًـا إذلال ، ما زال

العـالم يمضى فى طريقـه المعتـاد ، مـا زال الناس أحـيـاء، يتنفسـون، ويضحكون ، لم ترتفع صيـحة ابتهاج بالنصر، "كارلى، لقـد انتصرت! " كأنه إنسان عادى تمامًـا جالس فى محطة مزدحمة، يدخن سـيجارة ، أكان هذا انتصاره؟ أن يكون إنسانًا عاديًا جالسًا على مقعد!

مشت على رصـيف المحطة سيـدة بيضاء أنيـقة ، هل سـتجلس هذه السـيدة على المقـعد؟ راح الصـوت المزعج ينخر فى رأسـه: " لابد من أن تقف وتدع السيدة البيضاء تجلس ، هذا المقعد ليس لك "

ضاقت عـينا « كارلى » وهو يسـحب نفسًا من سـيجـارته بشراهة ، اكتسحته السيدة بنظرة مترفعة عند مرورها به ، هل كانت خائفة من إقدامه على التحدى من أجل حقوقه فى أن يكون إنسانًا ؟ أو لم تكن مهتمة قط؟

أدرك "كـارلى" أنه كان مـستنزفًـا تمامًا ، كـان معـتادًا على العـمل العضلى، لكن هذا أمر مختلف ، إنه مستنزف عقليًا وعاطفيًا ، تلك كانت الفكرة الثالثة الـتى تتنازعه الآن، وقد تسللت إلى نفسـه فكرة التعادل التى تقول: " أنت لا تجلس على المقـعد للتحدى ، أنت تجلس لأنك مـتعب ، أنت جالس هنا لهذا السبب ، " لن يتحرك لأنه كـان متعبًا ،وكل ما يريده هو أن يرتاح ، أم هل كان ذلك لأنه أراد التحدى؟

تدفق الناس مـن قطار "أثلون" الذى توقف عنـد الرصـيف ، كـان تدافع الناس وتصادمـهم مع بعضـهم على أشده، وبدا الأمر كـأن لا أحد لديه وقت لينتبه لوجوده ، كان القطار سـيمر بـ "أثلون" عند خروجه من المحطة ، ربما كان أسهل شيء فى العالم أن يخطو داخله وينطلق بعيدًا عن

كل هذا ، كـان بإمكانه أن يرتاح، بعيـداً عن التحـديات والمقاعـد التى لا يُسمح للمرء أن يجلس عليها. بعيدًا عن اجتماع "جراند بارادا" ، والسيدة البيضاء التى قـدمت سيجارة للسيد "نكيسـلى" ، لكن رفض التحدى يُعد استسلامًا، مـعاناة الهزيمة الشخصية ، قد يكون عليـه أن يسلم بحقيقة أنه ليس إنسانًا.

استمر جالسًا ، دخن سيجارة أخرى، وسمح لخواطره بحرية التجول بعيدًا عن المحطة والمقعد ، راح إلى "بيـتستين فونتين" وذاك الحديث الذى كـان قد دار بينه وبين جـده، عندمـا كان "أوكـلاس" يفضى إليـه بما فى خاطره ، "كـيب تاون" ، الأضواء البراقة، والوظائف الأفـضل، والأموال الأكثـر حتـى إنه يمكن أن يرسل بعضـها للبـيت، رفع "أوكلاس" بـصره بطريقة غريبة بينما كان يدخن غليـونه ، كان "أوكلاس" حكيمًا، وامتد به العمر ، أصر دائمًا على أن المرء لابد من أن يتـعلم من السفر والترحال ، عاش فى "كيب تاون" ، عندما كان شـابًا، وقد سال لعابه وبصق وضحك بمكر عندما تحدث عن الفـتيات فى الحى السادس ، ذوات البشـرة الزيتونية الجملية، وعيونهن مثل عيون المها، كان "أوكلاس" يعرف كل شىء ، قال أيضًـا : إن الله بحكمـتـه خلق الرجـل الأبيض أبيض، والرجل الأسـود أسود، ويجب أن يلتزم كل منهما مكانته.

" أنت تجلس على المقعد الخطأ ،" لم يتنبه "كارلى" للشخص الذى تكلم ، كان لـ "أوكلاس" عادة خاصة يمارسـها عندما يكون عليه أن يقرر أمرًا هامًا ـ خـصوصًا ما يتعلق بنسـائه ـ وهى أن يبصق على الأرض ويمط شفتيه بمكر.

" هذا هو المقعد الخطأ ،"

انتُزع " كـارلى" من خواطره عائداً للواقع ، كان سـينهض غريزيًا، عندما أدرك من هو، ولماذا كـان جالسًا هناك ، شـعر فجـأة بالتعب، رفع بصره ببطء، رأى شابًا أبيض نـحيفًا، عاقدًا عـصابة على جبهتـه، ووجهه ملىء بالبثـور، يسحب حـقيبـة سفر ضـخمة ، قـال: " أنا آسف، لكنك تجلس على المقعد الخطأ ، هذا المقعد مخصص للبيض فقط ، "

حملق فيه "كارلى" ، ولم يقل شيئًا ،

" هل أنت أصم؟ إنك جالس على المقـعد الخطأ، هذا ليس لقومك، إنه للبـيض فقط ، " ببطء وبتـرو، نفث "كارلى" دخـان سيـجارته وراح يفحـصها بطريقـة مبالغ فـيها ، أهذا هو المحك، أهذا هو الصـراع ؟ قدر الشاب الأبيض حجم "كارلى" .

" إذا لم تتحرك الآن، سوف تقع فى مشاكل خطيرة ، "

لاذ " كارلـى" بصمتـه العنيـد، وكان واضحًـا أن الشاب لن ينـفذ القـانون بيديه، أمـا " كارلى" فـإن النطق الآن سيكون مـضيـعة للنـفوذ والتفوق اللذين شعر أنه أحرزهما.

" حسنًا ، أنت تبحث عن المتاعب ، سأبلغ عنك"

أدرك " كارلى" أن الشاب كان يواجه الموقـف بالعجرفة، وأنه خائف وغير قادر على أن يقـدم بنفسه على أى فعل ، اختفى تاركًا حقـيبة سفره على المقعـد المجاور لـ "كارلى" ، هـا هو ذا ، "كارلى" ، قد فـاز بالجولة الأولى فى الصراع حول المقعد.

أخرج سـيجـارة أخرى ، التـردد تحول الآن إلى تصمـيم ، تحت أية

ظروف كانت، لـن يتخلي عن مقـعده ، يمكنهم فـعل ما يشـاءون، حدق بعدائية تجاه حقيبة السفر.

حلق الشرطى فوقه قائلًا:

" هيا، أنت تجلس على المقعد الخطأ ، توجد مقاعد على مسافة أبعد لقومك ،" رأى "كـارلى" الشعـر الخفيف الأحـمر حول عـنق الشرطى، وقف الشاب الأبيض خلف الضابط ، لم يقل "كارلى" شيئًا.

" أنا آمرك بالـتحرك للمرة الأخيـرة ،" ظل "كارلى" جالـسًا على المقعد.

" حـسنًا، إذن أريد اسـمك وعنوانك، وسـوف تأتى مـعى ،" لاذ "كارلى" بصمته العنيد ، أمـسك به الشرطى على حين غرة ، كان الحشد يتزايد، وصاح فتى: " إفريقيا! " ، ثم اختفى بين جمهور المشاهدين.

" سوف ألقى القبض عليك، هيا، انهض ،"

ظل " كارلى" جالسًا على المقعد، انتزعه الشرطى من أكتافه بمساعدة الشاب الأبيض ، تحول "كارلى" ليـقاوم، متشبثًا بالمقعـد، مقعده ، ضُرب بوحشية، ثم شعر بألم « غبى » من جراء ضربةٍ من قبضة يد سددت بقوة إلى معـدته ، سقط على الأرض، وانسـحج وجهه فى الأسـفلت الخشن ، حـينئذ، لف الشـرطى ذراعى "كارلـى" خلفه، وعـضت الأصفـاد على معـصميه ، اسـترخى فجأة وجـاهد ليقف على قدميـه ، لم يعد من داعٍ للمقاومة ، الآن فقط حان دوره ليبتسم، لقد تحدى، وشعر بأنه انتصر، إن لم يكن انتصارًا عليهم، فهو انتصار على ضعفه ، من يعبأ إذن بالعواقب؟ كان الشاب الأبيض ينفض الغبار عن بنطلونه.

قال الشـرطي دافعًا " كارلي" كي يمر من بـين الناس المحتـشدين، "هيا!"

نطق " كـارلي" للمـرة الأولى: " من غـيـر ريب " ، وحـدق في الحشد بكبـرياء الرجل الذي جرؤ على أن يجلس على مقـعد.. لـ البيض فقط Whites Onley.

السيدة بلام

تأليف : إيزاكيا مفالليل

اسم سيدتى هو السيدة "بلام" ، كانت تحب الكلاب ، والأفارقة ، وتقول: إنه يجب على الجميع طاعة القانون حتى وإن كان مؤلمًا ، تلك كانت المبادئ الثلاثة الكبرى فى حياتها .

جئت للعمل لدى السيدة "بلام" فى "الجرين سايد"، وهو حى لا يبعد كثيرًا عن وسط « جوهانسبرج »، بعد أن تركت عائلتين من عائلات البيض ، أول عائلة بيضاء عملت عندها كطاهية وغسالة ، كان رجلًا وزوجته ، يسكنان فى "بارك تاون نورث"، كانا سكيران ، ودائمًا ينسيان دفع راتبى ، بعد خمسة أشهر قلت لنفسى ، لا . . . هذا الحال لا ينفع ، سأترك هؤلاء "الخمورجية"، وعليه تركتهم ، فى ذلك اليوم كنت غاضبة مثل الحديد الساخن عندما يوضع فى الماء ، البيت الثانى الذى طبخت وغسلت فيه ، كان ذلك فى "بلاجرافيا"، وكان به خمسة أطفال سيئو التربية، كثيرًا ما كانوا ينادوننى: " أنت يا بنت يا سوداء"، وكنت ألتزم الصمت، لأن أمهم كانت تسمعهم ولا تقول لهم شيئًا، وكذلك لأننى كنت حديثة العهد بالبعد عن موطنى "نوكانينج"، وموطنى بعيد عن هذا المكان ، بالقرب من مدينة "راست بورج"، وكنت أريد أن

أتعلم وأعـرف الناس البـيض لكى أعرف كـيف أتصـرف مع غيـرهم ممن سأعـمل عندهم فيـما بعـد ؟ ، والآن تعلمت ، أما الشيء الذى سـاقنى للجنون، وجـعلنى أحـزم أمتـعـتى وأرحل، فهـو الرجل الذى كـان يأتى لزيارتهم كثيراً ، قالوا : إنه ابن عم أو شيء من هذا القبيل ، كان يأتى إلى المطبخ كثيراً، ويحاول ملاطفـتى ، ثم ربت على ردفىّ ، أخبرت سيدى ، مع ذلك فعلهـا الرجل مرة أخرى ، فطلبت من سيـدتى فى نفس اليوم أن تعطينى مستحقاتى وتدعنى أرحل.

تلك كانت الشهـور التسعة الأولى منذ تركت "نوكـانينج" كى أعمل فى چـوهانسبـرچ ، كان هناك الكثـيرات منا، نحن البنات والشـابات من "نوكانينج" ، و"زيراست" ، ومن "شوبنج" ، ومن "كـوستن" ، وكثيرات من أماكن أخرى جئن للعمل فى المـدن ، لذلك كانت ضواحى المدن مليئة بالسود، أغلبنـا تخطى الصف الدراسى السادس، وهذا ساعـدنا على تعلم المزيد من الإنجليزية فى الأمـاكن التى عملنا بها ، جميـعنا لم نحب العمل لدى المزارعين البـيض، لأننا نعـرف الكثـير عنهم فى المـزارع القريبـة من مواطننا ، إنهم لا يدفعون رواتب جيدة، وهم قوم قساة القلوب.

فى أعياد الفـصح ، كانت الكثيرات منا يعدن لمسقط رأسـهن لقضاء عطلة نهـاية الأسـبـوع، ولكى نرى أهلنـا ونأكل الدجـاج واللبن الرايب، والسبـانخ المجففة ، وكنا نحـمل معنا للبيت أيضًـا السكر واللبن البودرة، والشاى والقهوة والحلاوة والكسترد والأطعمة المعلبة.

كانت الـفتاة "تشـيمـانى" من مسـقط رأسى، وهى التى اتصلت بى لأحصل على عمل فى منزل السيـدة بلام ، وهذه السيدة تسكن فى الباب الملاصق للبـيت الذى كانت تعـمل به "تشيـمانى" ، أعـمل لدى السـيدة

"بلام" منذ ثلاثة أعـوام الآن ، لقد كنت سـعيدة تمامًـا معـها ومع ابنتـها "كيت"، أعنى بذلك أن مكانتى كخادمة فى "جـرين سايد" لم تكن سيئة مثل مكانة كـثير من الأخريات ، "تشيـمانى" - أيضًا لا تشتكى كـثيراً ، يُدفع لنا ستة جنيهات فى الشهر مع الوجبـات المجانية وحجرة خدم مجانية - أيضًا - لا يدعى أحد أنهم يدفعون لنا رواتب جـيدة، لذلك كنا نستمر فى الشكوى بطريقة أو بأخرى ، كلما تقابلنا بعد ظهر يوم الخميس، الذى هو يوم إجـازتنا جمـيـعًا، نحن الـنساء السـوداوات فى الضـواحى، نتكلم، ونتكلم، ونتكلم .. عن أهلنا وخطاباتهم وعن أمراضـهم وعن المحاصيل السيئـة وعن الأخت التى تريد زيًا مدرسيًا والكتب والمصـاريف الدراسية ، وعن بعض سيداتنا وسادتنا الكرماء أو البخلاء بالمال أو الطعام، أو الحمقى منهم أو التافهين، أو الذين يقتلون أنفسـهم أو بعضهم البعض، أو القذرين ، وأشياء كثيرة جدًا لا يمكن حصرها.

كنا نذهب فى أمسيات الخميس للمـدينة كـى نشـاهد المحـلات ، أو نحضـر اجتمـاعات نادى السيـدات ، ولكـى نرى أصـدقاءنا الشـباب، أو يذهـب البعـض منا للـسينما ، فكنـا نلبس ملابس غـاية فى الأناقة، كى نُرى الآخرين الملابس التى كنا نشتريهـا من تجار "المانيفاتورة" السود الذين يبيعونها لخدمات الضـواحى ، نشترى عددًا من الأشياء وهم يدورون علينـا كل شهـر لجـمع الأقسـاط إلى أن نسدد الثمن ، لذلك كنا نلبس مثل كثير من السيدات والبنات البيض، أعتقد أننا نـبدو فعلًا أنيقات ، أحيانًا نضـبط امرأة بيضاء تنظر إلينا فنضحك ونضحك ونضحك، حتى نكاد نسقـط من الضحك عـلى الأرض لأننا نشعر فى قرارة أنفسنا أننا على ما يرام.

سألتنى السيدة "بلام" فى اليوم الأول الذى أتيت فيه : بم تناديك البنت التى فى البيت المجاور؟ أجبتها: " تنادينى جين" ، قالت ، أليس لك اسم إفريقى؟ قلت ، نعم اسمى "كارابو" ، قالت سيدتى، حسنًا سوف نناديك "بكارابو" ، كانت تتحدث كأنها تعرف أن الاسم شىء هام ، فقد عرفت كثيراً جدًا من البيض الذين لم يهتموا بما ينادون به الناس السود طالما كان الاسم مناسبًا لألسنتهم ، أسعدنى هذا، أقصد استعمال السيدة "بلام" لاسم "كارابو"، لأن الفترة الوحيدة التى سمعت فيها هذا الاسم كانت فى موطنى أو عندما ينادينى أصدقائى ، ثم أوضحت لى ما المطلوب ـ الوجبات، ومواعيد الوجبات والغسيل، وعرفتنى مكان كل الأشياء التى سأستعملها.

قالت سيدتى: ابنتى سوف تكون هنا فى المساء ، إنها بالمدرسة ، عندما حضرت الابنة، أضافت، أنها ستخبرنى ببعض الأشياء التى تريد أن أقوم بعملها لأجلها كل يوم.

حدثتنى "تشيمانى"، صديقتى التى تعمل فى البيت المجاور، عن الابنة "كيت"، وكيف أنها تبدو متوحشة، وعن السيد "بلام" الذى انتحر ببندقيته فى بيتهم المغلق عند آخر الشارع ، وقد تركت السيدة "بلام" ذلك البيت وسكنت هنا.

سيدتى امرأة طويلة ، ليست نحيفة، ولا بدينة ، تتحرك ببطء، وتتكلم ببطء، يبدو وجهها حكيمًا، وجبهتها توحى بأنها ذات كبد قوى : فهى لا تخاف من أى شىء ، عيناها منتفختان دائمًا عند الجفون السفلية، كأنها لم تنم لكثير وكثير من الليالى أو مثل ضفدع كبير ، ربما

كانت حال عينيها على هذا الشكل لأنها تدخن كثيراً، مثل خشب رطب لا يعرف كيف يشتعل، أو كيـف يتوقف عن الاحتراق ، عندما تكلمنى تنظر مباشـرة فى عينىّ ، وأعرف أنها تفعل هذا مـع الناس الآخرين أيضًا ، فى أول الأمـر كـان هذا يخـيفنى منهـا لكننى الآن اعـتدت عليـها ، سيـدتى ليست امـرأة كـسولة ، فهى تقوم بأعـمال كثيـرة فى الخارج ٠٠ فى المدينة وفى الضواحى.

كان هذا أول شىء قالته لى الابنة "كـيت" عندما وصلت وتقابلنا ، قالت لى : " لا تبـالى بأمى ، فهى أحيـانًا تكون عنيفـة مع الناس بسبب أشياء تافهة ، ثم سرعان ما تهدأ وتتكلم بلطف معك ثانية " .

أحببت " كيت " كثيراً، وهى تحـبنى جداً أيضًا. قالت لى كثيراً من الأشياء التى لا تقولها امرأة بيضـاء لخادمة سوداء ، أقصد عن الأشياء التى تحبهـا والأشياء التى لا تحبها، عـما تفعل أمها وعـما لا تفعل، وكل هذه الأمور ، فى أول الأمـر كنت غير سعـيدة بذلك، وأردت إيقافـها، لكنى الآن لا أبالى .

تشبه مـلامح وجه "كيت" ملامح أمـها شبهًا كـبيراً ، وأرى كتفـيها عريضـتين قويتين ، تتحرك أسـرع من السيدة ، سألتـها : لماذا لا تزال فى المدرسة، فى حين أنها كبيرة الآن ؟! ضحكت ، ثم حاولت أن تخبرنى أن المدرسة التى تدرس بهـا مخصصـة للناس الكبار الذين أنهوا دراسـتهم فى المدارس الأولية ، كانت تتعلم أشياء كـثيرة عن الطهى والطعام ، بمقدورها أن تشرح وضعها أفـضل منى ، كانت "كيت" تأتى إلى البيت فى عطلات نهاية الأسبوع ، منذ أن جئت للعمل لدى السيدة "بلام" و"كيت" تعلمنى

الكثـيـر عن الطـهى ، فى الأول تعلمت منـهـا ومــن الســيـدة "بــلام" كلمة recipes.[٤٥] وعندما كـانت « كيت » في المدرســة الكبيرة عــلمتنى سيدتى كـيف أقرأ كتب الطهى ، فى البــداية تقدمت فى ذلك ببطء، أبطأ من عربة يجرها بغـل ، الآن أعرف أكثر ، وعندما عــادت "كيت" للبيت اكتشفت أننى أعرف قراءة الوصـفات التى تركتها لى ، وهكذا قمنا بالطهى مبــاشرة ، وتعتقـد "كيت" أننى صرت أهلًا لأن أقوم بالطهى فى فندق، وأمنت سيدتى على ذلك أيضًا ، فقلت : إن هذا لا يمكن أن يحدث أبدًا، أبدًا! فالطهى فى فندق يشبه العمل فى عَلَف الـثيران ، فلا أحد يقول لك شكرًا أبدًا ، بعد بضعـة شهور استطعت أن أطهو غداء يوم الأحـد، وفيما بعد استطعت أن أطهو أطعمة خاصة لضيوف السيدة أو ضيوف "كيت".

لــم تعلمـنى « كـيت » الطهى فقط، بل علـمتنى كيف أخـدُم على الضيـوف ، وامتدحتنى عندمــا قمت بذلك على أكمل وجه، فـهى ليست مثل البـيض الآخرين الذين عملت عندهم من قبل ، إننى لا أفـهم سبب اختلال عقول الناس الآخرين ، كان لسيدتى أيضًا صفوف دراسية فى المساء تعلم فيها الخدم كيف يقــرءون ويكتبون ، وكانت هناك امرأتان أخريان من "الجرين سايد" تقومان بالتدريس فى الكنيسة.

كما ذكــرت من قبل ، أخبرتنى "كـيت" بالكثير عن السيـدة . فقد قالت لى مرات كثيرة : أمي تذهب للاجتماعات . فأسألها: من أجل ماذا ؟ فتقـول لى : من أجل أهلك ؟ أقول لها متســائلة : لكن أهلى بعيدون فى «نوكانيـنج »،ولديهم ألسنة يتحـدثون بها ، لماذا تريد أن تقـول شيـئًا بدلاً

(٤٥) وصفات الطهى .

عنهم؟ أهى تعرف ما يريد أبى و أمى قوله؟ إنهما يستطيعان الحديث عن نفسيهما عندما يريدان ، فترفع "كيت" كتفيها وتنزلهما وتقول: « كارابو » ، كيف يمكن أن أفهمك ؟ أنا لم أقل أهلك بمعنى عائلتك فقط ، إنما أقصد كل الناس السود فى هذا البلد ،" فأقول : أوه ! ماذا يريد الناس السود أن يقولوا ؟ مرة أخرى ترفع كتفيها وتنزلهما، وتسحب نفسًا عميقًا .

أسألها : " مع من تكون فى الاجتماعات؟ "

تقول : " مع أناس آخرين يفكرون مثلها "

أسألها: " هل تقولين أن هناك ناسًا آخرين فى العالم يفكرون فى نفس الأمور ؟ "

تومئ برأسها موافقة ،

فأسألها: " ما هذه الأمور؟ "

"يجب أن يصل بعض قومك ليكونوا بين أولئك الناس الذين يحكمون هذا البلد يومًا ما ، وأن يحصلوا على أموال كثيرة مقابل ما يقدمونه للرجل الأبيض "، و . . . ما الذى قالته أيضًا ؟ نعم ، إن سيدتى وهؤلاء الآخرين الذين يفكرون مثلها ، يريدون من قومى الذين تعلموا ، أن يختاروا هؤلاء الذين يجب أن يتحدثوا نيابة عنهم فى الـ « . . . » ، أظن أنها تحدثت عن شىء يشبه الـ"خوتله"(٤٦) الموجود فى موطنى ، ذلك الذى يحكم القرى .

(٤٦) المجلس العرفى – يضم زعيم القبيلة ومستشاريه ، أو رؤساء عدة قبائل وعدد من المستشارين .

رددت عليهـا : " أوه ، فهمت يا "كيت" ، لكن لماذا تكتب سيدتى دائما على الآلة الكاتبة طوال الوقت ، كل يوم تقريبًا ؟ "

ردت قائلة : " أمى تكتب كتبًا "

أسألها وأنا أشير إلى الكتب التى على الأرفف : " تقـصدين كتبًا مثل هذه ؟ "

ترد « كيت » : « أجل » .

وقد قـالت لى "كيت" : " إن السيدة تكتب كـتبًا ، وأشيـاء أخرى للصـحف ، وأنها كـتبت للصـحف والمجلات تدافع عن الناس الـسود ، وكيف يجب أن يعـاملوا بطريقة حسنة ، وأن يدفع لهم مـالاً أكثر ، وعن الناس السود الذين يمـكنهم قراءة وكتـابة كثيـر من الأشياء وحـقهم فى أن يختاروا من يتحدث باسمهم "

وأضافت "كيت" أيضًـا : " إن أمى والنساء الأخريات اللائى يفكرن مثلهـا ، يرتدين الشارات الســوداء فوق أذرعـهن حين يكن مسـتاءات من الأمور التى تقع من القوم البيض ضـد السود ، ويردن إظهار ذلك لحكومة البيض ، فتذهب أمى والأخـريات ويقفن عند المبنى الذى يذهب إليه ناس الحكومة داخلين خارجين "

سألتـها : " هل الحكومـة والناس البيض يسـتمعـون ويتوقـفون عن خطاياهم ؟ " تقول : " لا ، لكن أمى ضمن جمـاعة من البيض مختلفين عن ناس الحكومـة ، " أسـأل : " هل يقدم ناس الحكومـة الشـاى والكعك للنساء ؟ " تقـول « كيت» : « كـارابو » ، كم أنت حمقـاء ، أوه ! " أقول لها : « عند أهـلى إذا جـاء أحـد ووقف أمام بيـتى أقول لـه تفضل ، وأقدم

لـه طعـامًا . أنتم أيها النـاس البيض " Wonderful[٤٧]، تبقـون النساء واقفات هناك، ولا يقدم لهم ناس الحكومة أى شيء ؟"

ترد « كيت »: تقصدين strange[٤٨]، كم مرة علمـتك ألا تقولى wonderful عندما تقـصدين strange ! ثم تقول بـنفاذ صبـر وهى تنظر لأعلى صائحة : " حسنًا ، حـسنًا ، إنهن لا يقفن هناك طوال اليوم لطلب الشاى والكعك اللعين ذاك . . . آه منك "

دائمًا حين تنتـهى سيـدتى من قراءة الصحف تقـدمهـا لى كى أقرأها لتسـاعدنى على الحـديث وكتابة الإنجليـزية بطريقة أفضـل ، وعندما كنت أقـرأها كانت تسـألنى أن أحـدثها عن بعض الأشـيـاء التى بها ، وبهـذه الطريقة، كنت أتحسن وأتحسن، وكان عـقلى يتفتح ويتفتح، وأتعلم وأتعلم الكثيـر من الأشيـاء عن الناس السود فى داخل وخـارج المدن التى لم أكن أعرفها قط. عندما كنت أجد كلمات صعبة جدًا، أو أمورًا لا أفهمها كنت أسأل سيدتى عنه ، كانت تقـول دائمًا : آه، أتعرفين هذا ، أتعرفين ذاك، إه؟ بصبـر لا ينفد، نعم، كتـبت السيدة رسائل عـديدة للصـحف، فـهى دائمـًا آسفة للطريـقة الـتى يضـرب بـها البـوليس الأبيض الناس السود، الذين يعملون عند الناس البـيض ، فالبوليس يحـوم حـول الـسود الـذين يجلـسون بجوار البـحيرة فى حديقة الحيـوان ويجعـلون قلـوبهم تنتـفض، ذلك لأن الـناس البيـض يقـولون « إن قـومى السود يعملون ضجـيجًا فى أمـسيـات الآحـاد، وأنهم،« البـيض » يريـدون أن يـرتاحـوا فى بيـوتهم

(٤٧) رائعون .
(٤٨) غريبى الأطوار .

وحدائقهم »، كـما تكتب عن الأشياء الكثيـرة القبيحـة التى تحدث عندما يقابل بعض الناس البيض رجلاً أسـود على رصيف أو فى شارع ، عن كل ذلك تكتب السيدة فى الصـحف حتـى يـعرف الآخـرون، وكـى تطـلب من الحكومة أن تكون طيبة معنا.

فى العام الأول أرادت السيدة "بلام" أن آكل معها على المائدة ، كان أمـراً شاقًـا على نفـسى ، أولاً : لأننى لم أعـتـد على الأكل على المائدة بالشوكـة والسكين، ثانيًـا : لأننى لم أسمع عن طبـاخ قد عومل بـطريقة خاصة مثل هذه ، فكنت خائفة ، خائفة من كل كائن، من ضيوف السيدة إذا وجدونى أفعل هذا، قالت لى السيدة : إنه لا يجب أن أكون سخيفة ، وأننى لابد من أن أثبت أن الخدم الأفـارقة يستطيعـون أيضًا أن يأكلوا على المائدة ، ثالثًا : لن أكون قادرة على أكل بعض الأشياء التى أحبها جدًا مثل ثريد الذرة باللبن الرايب، أو السبانخ البرية، أو طحين الذرة المخلوط بزيت الفول، والثريـد الحامض فى الإفطار ، وأصناف أخرى كثـيرة ، وأيضا ، باستثناء ثريد الإفطار، فإن طعامنا يكون شـهيًا عندما نأكله باليد ، فطعامنا شهى لأنـه لا يقف بالفم أو الحلق لتحـية أى أحـد حيث يمر بسـلاسة إلى المعدة .

كنا، « تشيمانى « التى تعمل فى البـيت المجاور، والبستانى ، وأنا ، نتناول غداءنا غـالبًا جمـيعًا . آه، لابد من أن أتذكر ألا أقـول "ولد" مرة أخرى عندمـا أتحدث عن رجل ، ذكرنى هـذا بواقعة حـدثت فى الأسابيع الأولى لعملى فى بيت السيدة "بلام" ، كنت أتحدث عن "ديك" ، بستانى حديقتها ، وقلت " garden boy "(٤٩) قالت لى : " كارابو ، توقفى عن

(٤٩) كلمة ولد – Boy تعنى الخادم ، ويطلقها البيض على كل السود مـهما كان عمرهم garden boy or garden man البستانى .

قـول "ولد" ، انتبـهى لذلك ، أنتم أيهـا الأفارقـة يجب أن تتعلمـوا أن تتحدثوا باحترام عن بعضكم ، وتقـول: إن الناس البيض لن يتحدثوا معنا بطـريقة لائـقة ، إذا كنا ننظر بازدراء لـبعضنا ، أجبتها قـائلة : سيدتى ، لقـد تعلمت هذه الكلمـة من الناس البـيض الذين عـملت عندهم ، فكل الطباخات يقلن " ولد " .

ردت : " هؤلاء قوم من البيض لا يفـقهون شيئًـا ،إنهم طبقة منحطة من البيض " ، رددت عليهـا قائلة: " كنت أعتقد أن الناس البـيض يعرفون كل شىء " .

قـالت: سوف تتـعلمين يا فـتـاتى، ولا بد من أن تتـعلمى فى هذا المنزل، أتسمعين؟ تركتنى عند ذلك أفكر، وكان ذهنى مشوشًا.

تعلمت ، وكبرت.

إذا كـانت أية امـرأة أو بنت لا تعـرف نادى "الغـراب الأسـود" فى شـارع "بـريى" ، فـهـى لا تعرف شـيـئًا ، أظن أن كل شىء فى الـدنيا يجـرى داخل ذلك المبنى ، هذا النادى مـوجود قـرب المصانع والسـوق ، حيث يبدأ الجـزء القذر من المدينة مباشرة ، بعـد السوق هناك المكان الذى يعيش فيه الهنود والملونون ، من عند نادى "الغراب الأسود" أيضًا ، تلف الأتوبيسات وتستدير عائدة إلى مـدينة السود، فى مدينة السود ، الضجيج والضوضاء طوال الـوقت ،كانت هناك نساء يبعن البطاطا السـاخنة والفول السودانى والبـيض المسلوق فى الشتـاء، والذرة المسلوقة وأشيـاء أخرى فى الصيف ،كل ذلك على الأرصفة ،كانت الشوارع دائمًا ممتلئة بقشر البطاطا والفـاكهـة وقشر الـفول السـودانى ، وتفوح رائحـة غريبـة للحم الخنزير

المشوى، أظن أن ذلك بسبب أسعار السلع المجمدة الرخيصة فى شارع "برى".

قالت السيدة "بلام" : إنها تعرف الناس السود الذين يعملون فى نادى الغراب الأسود، وكانت سعيدة لأننى أقضى أمسيات الخميس فى هذا النادى ، قالت: ستتعلمين الحياكة وشغل الإبرة وأشياء أخرى .. سأحبها ، هل تحبين الرقص؟ أجبت قائلة: نعم، أريد أن أتعلمه ، دفعت لى « شلنين » شهريًا حتى أتعلم الرقص.

كنا، نحن النساء اللائى يردن تعلم الحياكة - ننتظر المعلمة فى الطابق الأول ، كنا نضحك على سيداتنا وساداتنا، وأطفالهم وكلابهم وطيورهم، ونتحدث همسًا عن أصدقائنا الشباب، سس! سيدتى، أنتم لا تعرفون، إنها حقيقة بخيلة ... يووو ... يوو ... يوو .. لابد من أن ترى كلبنا الجديد ، شىء كبير هكذا ... قوم مغرورون بغباء ...

ـ ماذا! لقد رفست كلبة سيدى هذه " بالشلوت"، وألقيت بها بعيدًا، فظلت تعوى .. نجووى ... وونج .. وو! إننى لا أمزح معهم أبدًا، أنا ...

ـ عيب عليك، هذا الشىء المسكين! الرب يراك حقيقة ...

- لقد أرادوا أن أصطحب كلبهم للتمشية كل مساء، فقلت لهم : إن هذا لم يكن عملى فى البيوت الأخرى ، هذا عمل البستانى فقط ، قلت فى نفسى: "يتلهوا"، وليعضوا كيعانهم قبل أن أصطحب كلبًا للخارج ، لم أجن بعد كى أفعل ذلك ...

- آه، إن هذا ليس مثل طفل الناس البيض الذين أعمل لديهم ، والذى يحتفظ بفأر أبيض كبير فى البيت، هل تعرفون ماذا يفعل؟ إنه يضعه فى سريره عندما يذهب إلى المدرسة ، ويترك أغطية السرير تفوح منها رائحة البول، وكل القرف، ويطلبون منى أن أغسلها ، آه، يا ناس ! . . .

- هل سمعتهم عن الناس الذين تعمل "ريبون" عندهم؟ طردتها سيدتها لأن سيدها كان دائمًا يقرص مؤخرتها ، وأمس رأت السيدة السيد وهو يحتضنها . . . يووو . . . . يوو . . . يوو، يا ناس . . . !

- رجال بيض قذرون . . . !

- لا، ليسوا أقذارًا، السيدة رائحتها قديمة جدًا بالنسبة له،

- آه!! اذهب واغسل « فمك » بالصابون، « ففمّ » هذه البنت قذر . . .

- يوو ، "ريبون" ، بنت الناس!! لابد من أن نساعدها لتحصل على عمل قبل أن تفكر فى العودة لموطنها.

وصلت المعلمة ، امرأة بساقين قويتين ، ووجه صلب، وعينين طيبتين ، كان لها شعر قصير وكانت ترتدى عباءة بسيطة ذات ورود رائعة، تقف متوازنة على ساقيها وردفيها ، وكان هناك فراغ بين سنيها الأماميين ، ابتسمت لنا كأننا أطفالها أو أبناؤها ، بدأت مجموعتنا بالألعاب، ثم أخذتنا " ليليان ناجوى" إلى فصل الحياكة، كلمتنا بإيجاز عن الفصول الأخرى.

لا أستطيع نسيان الأشياء التى قالتها هذه المرأة، وكيف عرضتها لنا ، قالت لنا: إن الفتيات والنساء السود فى الضواحى قد حان لهن ألا يكتفين بالعمل وإرسال المال لأهلهن والذهاب لرؤيتهم مرة فى السنة ، قالت : إن علينا أن نتعلم أن العالم لن يكون أبدًا مكانًا آمنًا بالنسبة للناس السود إلا إذا كانوا فى الحكومة ولديهم السلطة لسن القوانين ، يجب أن تُمنح السلطة للأفارقة لأنهم الأغلبية.

سألناها بعض الأسئلة، وأجابت عليها بحكمة. سوف أحكى لكم بعضها ـ هنا ـ بطريقتى على قدر ما أتذكر.

- هل سنأخذ مكان الناس البيض فى الحكومة؟

- نعم ، البعض منها ، بل الناس من كل الألوان أيضًا سوف يحكمون جميعا ، وهناك رجال بيض صالحون يمكن أن نختارهم معنا، وهناك بعض الأفارقة سوف يختارهم البيض ليكوّنوا الحكومة.

- يوجد سادة وسيدات بيض طيبون، وآخرون سيئون ، أيجب أن نصادق الطيبين؟

- السيد والخادم لا يمكن أن يكونا أصدقاء أبدًا، لذلك أخرجوا هذا الأمر من عقولكم، فاهمين! فأنتم غير متأكدين حتى إن من تقولون عنهم إنهم طيبون ، أهم طيبون أم غير ذلك ؟ إلا أنهم لا يستطيعون التنفس والحياة بدون مجهودكم ، طالما أنكم تحتاجون لأموالهم، واجهوهم باحترام ، لكن يجب أن تعرفوا جميعًا أن أشياء كثيرة مؤلمة تحدث فى بلادنا، وعليكم دائمًا أن تتعلموا، وأن تضيفوا معارف إلى ما تعرفونه بالفعل، وتطيعوننا عندما يُطلب منكم المساعدة.

في مرات أخرى أخبرتنا « ليليان ناجوى» : " تذكروا أهلكم الفقراء في مسقط رأسكم، والطريقة التي ينقلهم بها البيض من مكان لمكان مثل الغنم أو الماشية"، وفي مرات أخرى قالت لنا: " تذكروا أن اليد لا يمكن أن تغسل نفسها وحدها، إنها تحتاج للأخرى لتفعل ذلك "

عندما كانت "ليليان ناجوى" تتحدث، كنت دائمًا أتذكر سيدتي ، سألت نفسي ماذا ستقول إذا عرفت أنني كنت أستمع لمثل هذه الكلمات ، كلمات مثل: " الرجل الأبيض اعتنت به مربيته السوداء وأمه عندما كان وليدًا ، وحين كبر اعتنت به الحكومة، وأرسلته إلى المدرسة وجعلت من المستحيل على الأبيض أن يواجه الجوع الحقيقي، وضمنت له وظيفة عند تخرجه من المدرسة ، إذن ، كم من البيض يولدون في المستشفيات البيضاء، ويترعرعون في شوارع بيضاء، ويلبسون الثياب القطنية البديعة، ويرقدون على الوسائد الوثيرة البيضاء؟ كم من هؤلاء البيض يعيشون خلف حواجز بعيدًا عن ذوى الألوان الأخرى، ثم عندما يصبحون رجالاً ونساءً ، كم منهم سيتعلم بسرعة طرق التفكير السليمة ؟ كم منهم سيتعلم بسرعة أن يتساءل وفي ذهنه أسئلة كثيرة ؟!، ثم كم منهم يستطيع التخلي عن هذا النعيم؟ قليلون، قليلون جدًا الذين سوف يفعلون ذلك "

« أما بالنسبة للبيض الذين لم يسترعهم التفكير، فقد تأخر بهم الوقت، أما الذين لحقوا بنا بكلتا القدمين في بيتنا، فهؤلاء فقط يمكننا أن نقول لهم مرحبًا "

كنت أتعلم ، كنت أكبر ، كل مرة كنت أفكر فيها في سيدتي، كانت تبدو لي مثل غابة معتمة، تلك الغابة التي يخاف الواحد منا أن يدخلها،

والتى لا يعرفـها أبدًا لكن كـانت هناك أوقات كثـيرة أفكر فيـها : أن هذه المرأة من السهل فهمها ، أنها مثل كل النساء البيض.

- ما الشـىء الآخـر الذى يعـلمـونه لك فـى «الغراب الأسود» يا «كارابو»؟

أرد عليها قائلة: لا شىء يا سيدتى ، لماذا تسأل سيدتى؟

- لأنك تتغيرين.

- ماذا تقصد سيدتى؟

- حسنًا، إنك تتغيرين.

- لكن ألا نتغير جميعنا دائمًا يا سيدتى؟

ثم تركتنى واقفة فى المطبخ ، حدث هـذا بعد بضعة أيام عندما قلت لها : إننى لا أريد قراءة أكثر من جـريدة بيضاء فى يوم واحد ، وقلت لها أريـد قـراءة المجـلات الواردة مـن الخارج فقط، إذا كانت مـتوفرة لديها ، وقلت لها : إن الصحف البيضـاء بها صور للناس البيض فى أغلب الوقت ، ويتـحدثون دائمًـا عن الناس البيض وحـدائقهم وكـلابهم، وأعراسـهم وحفلاتهم ، وسـألتها إذا كانت قادرة عـلى أن تشترى لى صحيـفة الأحد التى تتحدث عن قومى أم لا ، اشترتها لى، ولم أكن أظن أنها ستفعل ذلك ،

كانت هناك صباحات، بعد أن ننشر غسيل الناس البيض على الحبل، كنا نختلـس بعـض الوقـت عند الـسـياج لنتكـلم ، كنت دائمًا أقـف أنـا و «تشيمانى» قرب حجرتينا، حتى يمكننا أن نختبئ .

- أهلاً، « كارابو » ، هل تعلمين؟ هكذا قالت "تشيمانى" ،

- لا، ماذا ؟ قبل أن تبدئى قولى لى، هل رجع " تيمى" إليك؟

- هشش، إننى لا أهتم، فهـو لا يزال غاضبًا، لكن الشبـاب حمقى يرجعون دائمًا زاحفين على بطونهم الفارغة ، هل تعرفين؟

- ماذا؟

- الخميس الماضى رأيت "ماروتى ك. ك" وقد ضحكت حتى وقعت على الأرض، كان واقفًا أمام نادى « الغراب الأسـود» ، أعتقد أن معدته الضخمة كانت تصرخ من الجوع، لديه الآن كلب صغير يحمله تحت إبطه، وكان يقف أمام امرأة تـبيع البيض المسلوق ، و . . . ها . . .« يا بلدياتى» ، كانت "الكرشة" تغلى فى قدر . . . أوه يا للرائحة! كانت جيدة حتى إنك تشبعين منها وحدها ، أعتقد أن "ماروتى ك. ك" كان ينتظر امرأة تشترى البيض المسلوق ، لا أعرف ما الذى كانت تفـعله تلك المرأة بوقوفها طويلاً هناك ؟ ، وكنت واقفـة بالقرب منها، راح الكلب يتـملص من « ماروتى» ويدفع أنفـه للخـــارج، ناظرًا إلى « الكـرشـة » المسلـــوقـة ، ظـــل « ماروتى » يربت عليه بيده الأخرى، « شُفتى » ؟ مرة أخرى أراد الكلب أن يتحـرر من يد "ماروتى" وأطلق بعض الأصوات من أنفـه، « يا عينى »! واحد اثنـان ثلاثة ، و« هـوب »، انطلق الكلب ليخطف بعضًا من اللحم الشهى! لا أعرف كيف قفز وتفـادى السقوط فى المرق الساخن الذى كانت تعوم فـيها « الكرشـة » ، وحاول "ماروتى ك. ك" الإمســاك به، فتعـثر الكلب بالبـطاطس والبـيض المسلـوق، وصـار كـــل شىء فـى التـراب ، نهـضت البـائعة وجرت وراء« مـاروتى . ك. ك » ، وهى تصرخ عليه

وتطالبه بدفع ثمن البضاعة المهدرة، « شُفتى» ؟ أين كنت أنا فى ذلك الوقت؟ كدت أموت ضحكًا حتى نزلت الدموع من عينى.

أنا نفسى كنت أمسك السياج بقوة حتى لا أسقط من الضحك، وأمسكت ببطنى لأكتم ألم جنبىّ.

سألتها: هل عاد « ماروتى ك. ك ». ليدفع ثمن الطعام المبدد؟

- نعم، دفع.

- والكلب؟

- أمسك به ، إنه كلب إفريقى جيد، كلب يبحث عن طعامه بنفسه، حين لا يكون هناك مواعيد للوجبات ، إنه ليس مثل تلك الملائكة الغبية المدللة التى يداوم البيض على تقديم الشاى والبسكويت لها.

- هممم .

لحق بنا « ديك » بستانى حديقتنا، مثلما يفعل فى أحيان كثيرة ، عندما أعيدت له الحكاية، كان الرجل يكاد يتدحرج على الأرض من الضحك.

سأل: من يكون ذلك المبجل « ك. ك. » ؟

قلت: إنه صاحب نادى « الغراب الأسود »

- أوه!

« تشيمانى » وأنا : كان يذكر أحدنا الآخر برئيس الجمعية الدينية الضخم « ك. ك »، الذى كان يأتى إلى النادى ثم ينظر إلينا بابتسامة لزجة

ملتصقة على وجهه المستدير الأملس ، ينظر إلى كل واحدة منا بتلك الابتسامة طوال الوقت، كأنه قد نسيها معلقة على وجهه ، ربما قد نسيها فعلاً ، لأنه حين كان ينظر إلينا طويلاً ، كنا نشعر بأنه يخلع عنا ملابسنا بعيونه البراقة الدامعة، الغريب أن هذا الرجل كان بإمكانه أن يمتلك حقلًا ويجلس متأملًا قمحه الناضج مفكرًا فى أشياء كثيرة.

كثيرًا ما كان يتحدث « ك. ك » ، بلا خجل عما يسميه « ماتيتجانا » أى الفتيات الناضجات ذوات النهود المكتنزة - كان يقول : إن هؤلاء الفتيات بلا أية شائبة فى عقولهن أو أجسامهن ، وقد تحدث الجميع عنه كثيرًا، وعما يفعله فى مكتبه حين يستدعى فلانة أو « علانة » .

لم يكن المبجل « ك. ك » ، ينتمى لأية كنيسة ، كان يُجرى « التعميد » والزواج ودفن الناس مقابل أجر، هؤلاء الناس الذين ليس لهم كنيسة لتقوم بمثل هذه الأعمال ، « يقال إنه : طرد من الكنيسة الكاثوليكية، فكّون كنيسته»، لكنها لم تدم ، وفى آخر المطاف جاء وفتح نادى « الغراب الأسود » ، لقد عَرِف عند أى حد يقف مع «ليليان ناجوى »، قالت له : إنها على الرغم من أنها تستخدم ناديه لتعلمنا أشياء قد تساعدنا فى الحياة، إلا أنها لن تستطيع الاستمرار إذا كان يقوم بأى شىء شرير مع الفتيات فى مكتبه. كان « ماروتى ك. ك.» يخشاها، ولم يتخط حدوده معها . . .

عندما بدأت أحكى لكم حكايتى، كنت أعتقد أننى سأخبركم كثيرًا عن كلبَى السيدة « بلام » ، لكننى تكلمت عن الناس ، وأعتقد أن « ديك »كان على صواب حين قال: « ما قيمة كلب! هناك الكثير من الكلاب والقطط والببغاوات فى « جرين سايد »، وأماكن أخرى، حتى إن كلبى السيدة « بلام » لا يبدوان حالة خاصة ،« لكن

كنت أشعر أن هناك شيئًا ما خاص فى مسألة الكلاب فى منزل السيدة « بلام » ، ربما كانت الطريقة التى أحبتهما بها.

« مونتى» كلب ضئيل الجسم، له شعر طويل وعينان صغيرتان سوداوان ، يشبه وجه امرأة عجوز ، الآخر « مالان » ، أكبر قليلاً ، باللونين البنى والأبيض ، شعره قصير، ويبدو عاريًا إلى جوار صديقه ، يناmaن فى سلتين منفصلتين ، اللتان تظلان فى حجرة السيدة ، كانا يُحَميان ويُمشط شعرهما ويعطران ، ويجففان ويناmaن فى الكتان الوردى . للكلب "مونتى" شريط وردى ، يبقى فى عنقه معظم الوقت ، كلاهما يحمل غطاءً على ظهره ، وهما يسببان لى « القرف» « والزهق » عندما أراهما فى سلتيهما، بدينين، ويبدوان وكأنهما يعرفان كل شىء يجرى حولهما.

كان من عمل « ديك » العناية « بمونتى » و« مالان » ، يطعمهما ويقوم بكل شىء يخصهما ، يقوم بهذا العمل إلى جانب عمله فى الحديقة وفى تنظيف البيت ، لقد وصل « ديك » فى بداية العام، جاء . . . وحسب ، كأنه جاء من لا مكان ، قدمت السيدة له عملاً حيث كانت قد طردت اثنين من قبل، وقد أخبرتنى عن هاتين الحالتين فقالت: « إنهما لم يستطيعا العناية جيدًا « بمونتى ومالان» كان « ديك » صبورًا، حتى على الرغم من أنه قال لى ولتشيمانى أن كلاب الأوروبيين غبية ومدللة ، وقال : « يومًا ما سوف يُلبس هؤلاء الناس البيض كلابهم حلقان وخواتم وأساور ، وذلك سيكون اليوم الذى سيترك فيه خدمة السيدة « لام »، ذلك لأنه متأكد أنها سوف تطلب منه حينئذ أن يصقل الخواتم والأساور النحاسية"

على الرغم من إنه كان طويل البال، إلا أن السيدة كانت لا تزال غير واثقة فيه ، فكانت تذهب كثيراً إلى الكلاب بعد الوجبة وبعد التنظيف وتسألهما: " هل قدم لكما "ديك" الطعام يا أحبائى؟ أو هل « ديك » غسلكما يا أحبائى؟ دعونى أرى ،" عندئذ، كنت أرى "ديك" وهو ينتفخ مثل « البالون » من الغضب ، وكان يقول لي: " يا لهذه الكائنات المسماة بالإنسان الأبيض! يتحدثون مع الكلاب!"

أرد عليه : « الناس تتحدث مع الثيران فى قريتنا، أم أن هذا لا يحدث؟ »

يقول : « نعم، لكن في قريتنا أنت تعرفين أن الرجل يتحدث مع الثور لأنه يستحثه على جر المحراث أو العربة، أو ليقف ساكنًا لحتى يقرنه ، لا أحد يذهب ببساطة إلى ثور وينظر بعينين متباعدتين ويتحدث معه ، دعينى أسألك، هل رأيت أبدًا إنسانًا من حيث أتينا يأخذ بقرة ويحتضنها فى صدره؟ قولى لى . . . . . !!"

فأقول له: « إننا نتكلم عن ثور لا عن بقرة »

يضحك بملء فمه الواسع حتى تطفر الدموع من عينيه، وعند هذا يضحك عاليًا أيضًا.

يقول لى: « يومًا ما، عندما يكون لديك وقت، لا بد من أن تنظرى داخل حجرة نوم السيدة، عندما تضع ملحوظة خارج بابها: ممنوع الإزعاج » .

اسأل ديك: « ماذا تقول؟! »

- « أنا لا أقول، أنا أعرف في قرارة نفسى » .

كان « ديك » تقريبًا فى مثل عمرنا أنا و « تشيمانى » ، لذلك كنا ندعوه « موشيمانو » « فتى »، عندما نتحدث عن حيله، ولأنه لم يكن كبيرًا ليكون لنا « صديقًا » مثل أصدقائنا الشباب. ويدعونا هو أيضًا: يا بنات، وفمه الواسع كان متأهبًا للضحك دائمًا ، وأعتقد أن السيدة لم يعجبها ذلك ، فكثير من المرات كانت تقول له - حتى وإن كان « ديك » لا يقصد الابتسام -" ما الذى يدعوك للضحك الآن؟ « أو تقول فى مرة أخرى » : إذا أديت العمل وتوقفت عن رى نباتاتى بابتسامتك، سوف تكون أكثر فائدة » « لماذا لا تكل السيدة عن ترديد قولها: » إذا تركتك تعتنى بكلابى دون أن أتابع عملك ، فإنك سوف تغرق تلك الأشياء المسكينة ؟! »

يبتسم « ديك » للسيدة قائلاً: " أمعقول أن يؤذى « ديك » كلاب السيدة ؟ إن استطاع البقر أن يطير، فإننى لا أقدر أن أؤذى كلاب السيدة بلام. " كان « ديك » يخاف الناس البيض فعلاً ، فهو دائمًا كان يقلد لى و«لتشيمانى» فى السر، كيف تسير السيدة، وكيف تتكلم السيدة! فكان يحمل سلطانيتين ويضمهما إلى صدره، محدثًا إياهما برقة مقلدًا السيدة وهي تكلم «مونتى » « ومالان » ، أو كان يجلس إلى منضدة السيدة ويقلد الطريقة التى تجلس بها عندما تكتب، وأحيانًا كان ينظر من فوق كتفه ويمط وجهه فيصبح مثل وجه الحصان، كأنه ينظر من فوق نظارة، ويطلب أن أقوم بعمل شىء ، أو كان يجلس على كرسى بذراعين، ويضع ساقًا على ساق، ويمثل الطريقة التى تشرب السيدة بها الشاى، فكان يمسك بالفنجان المتخيل بين إبهامه وسبابته فقط، جاعلاً أظافرهما يتلاقيان، وكان يضحك

بعد كل حركة من هـذه الحركات، ويقوم بهذه التمثيليات بالطبع عندما لا تكون السيدة فى البيت، وأين كنت أنا فى مثل هذه الأوقات التى يقلد فيها السيدة ؟ أكاد أستلقى على بطنى من الضحك ،

أوه، لكن كم كـان « ديك » يرتعـد عندمـا كـانت السـيـدة « بلام» توبخه! كان يؤدى عمله فى تنظيف البـيت على أكمل وجه ، أما أى خطأ يصدر عنه، فإنما يكون مع الكلبين، مع بيـاضتهما الكتانية، وطعـامهما ، ذات مساء دخل المنزل رجل أبيض، أخبر السـيدة أن « ديك » كان مهملاً أثناء اصطحـابه الكلبين للـتريض ، وكـان كلب الرجل ينتـظر على بسطة السيدة ، راح يكرر أن « ديك » كان يقـودهما فى بحر الطريق، وأنه فك «مونتى» «ومـالان» ليعبرا الشـارع وحدهما ، وأثار الرجل الأبيض ضـجة كبيرة حـول هذا الأمر، وأعتقد أنه أراد أن تعرف السـيدة إلى أى حد كان مـفيـداً ، فظل يقول: « بوصـة واحدة فـقط، بوصة واحـدة فقط. كـان محظوظًا إننى فرملت السيارة بالـسرعة الكافية . . . لكن الولد الذى عندك ظل يبـتسم. لماذا ؟ شىء غـريب! الولد الذى كان عندى فـعلها مـرتين، مرتين فـحسب، وبعد ذلك . . . ررر . . ! " وكان الرجل يحـرك يده كأنه يوقع على قـرار طرد خادمـه الذى لم يعـد بعد ذلك قط. وبينمـا الرجل الأبيض راحل، قال: " هيا يـا راستى، الولد منتظر كى ينظفك ، " رحت أفكر ، الكلاب بأسمـاء، والرجال بدون أسـماء! " وانقضت السـيدة على رأس « ديـك ».

ذات مـرة أحـد الكلبـين -لا أعـرف أيهـما - أكـان « مـالان» أم « مونتى » ، أخـذ جواربى القـصيرة الجـديدة، ومزقـه بأسنانه ومخـالبه. عندما أخـبرتُ السيـدة عن ذلك، وكان غضبى قـد وصل لحلقى، أعطتنى

نقوداً وقالت: اشتر زوجًا آخـر ، فحدث ذلك مرة أخرى، هذه المرة قالت لى : إنها لن تـعطينى أية نقود لأننى أيضًـا يجب أن أحتفـظ بجواربى فى مكان لا يصل إليه السـيدان المهذبان ، لـم تكن الســيدة « بلام » تريدنا أن نقـول « هش » للكلبين، أمـا عن نفسى، فكنت أقـول لهمـا ذلك عندما كانا يقتربان منى، ويشمشمان فى قدمى وأصابعى ، فأنا أكره ذلك.

فى عامى الثالث بمنزل السيدة « بلام » حدثت أشياء كثيرة ، معظمها سيئة بالنسبة لها ، فقد كانت هناك مشاكل كبيرة مع « كيت »، وكان هناك مشكلة كبيرة خاصة « بتشـيمانى» ، وكان قلبى يتأرجح بين حبين، ومونتى ومالان أصبحا كلبين بالغين خلال أيام.

كانت السيدة تقيم عدداً من سـهرات العشاء والحفلات، وتدعو بعض الأفـارقة إلى تلـك الأمسيـات ، حدثتنى « كيت » عن سـبب بعض تلك الحفـلات ، مثلًا عندما تنـتهى أمهـا من كتاب، أو زائر قـادم من الخارج، وأشيـاء من هذا الـقبـيل ، لم أكن أحب الناس السـود الذين يجيئـون هنا ليأكلوا ويشربوا ، كانوا يتحدثون بالإنجليزية صـعبة، وكأنهم ناس محشوون بكل أنواع الكتب التـى فى العالم ، وكانوا يزدروننى ويـتعاملون معى على أننى أقل منهم شأنًا ، أنا الإنسان الأسود مثلهم.

ذات يوم سمعت « كيت » تتحـدث إلى أمها، تقول أنا لا أعرف لماذا تدعين كثـيراً من الأفارقة فى المنزل ؟!، يكفى عـدد قليل منهم كل مرة ، وقالت شـيئًـا عن الحكومة لم أتمـكن من سمـاعه ، ردت السيـدة: أنت تعرفـين أن الكثـير منهـم لم يقابلوا أناسًا بيضًا بعيداً عن منازلهم المظلمة ، وتقول كـيت : إنهم لا يأتون لأنهم يريدون صداقتـها ، بل لأنهم يريدون مشروبا مجانيا .

شعرت ببساطة أننى لا أقدر أن أكون خادمة للناس البيض والسود فى نفس الوقت ، فى موطنى أو فى حـجرتى يمكن أن أخدمهم بـلا إحساس بالخجل، خاصة الآن، وقد عرفت أنهم جاءوا لمجرد تناول المشروبات . . !

لكن أحد الرجـال السود وأخته كـانا يأتيان دائمًا إلى المطبخ ليتـحدثا معى ، لابد من أننى كنت عـدائية معهمـا فى المرة الأولى، لأن « كيت » كلمتنى عن ذلك فيما بعـد، عندما جاءت لى فى المطبخ. أعرف أننى فى ذلك الوقت لم أكن مرتـاحة إطلاقًا، فـقد كنت خجلة وشـعرت أن منزل الإنسان الأبيض ليس بمكان أبـدو فيه سعـيدة أمام الناس السـود الآخرين، بينما الإنسان الأبيض يواصل تفحصنا.

فى المرة الثانية كان الأمـر أسهل، جاء الرجل وحده ، لن أنسى تلك الليلة أبدًا طوال حياتى ، تحدث إلىّ بكلمات طيبة، وشعرت أن قلبى يكبر ويتسع فى داخلى ، لقد سـبب لى اضطرابًا كبيرًا، وكـان هناك الكثير من الزوار الآخرين، لكننى عرفت أننى أحببته، ولـم أستطع مطلقًا معرفة كيف يرانى، أقصد كامـرأة وهو كرجل ، لكننى أحببته ومـازلت أفكر فيه بقلب حزين، وعـرفت تدريجيًا آلام الحب، لقـد كان طبيـبًا كفـأ يفيض معـرفة ويعـرف الإنجليـزية، فلن يمكننى أن أكـون ندًا له، مع ذلك عـرفت أنه لا يمكن أن يتنازل وينظر إلىّ كإنسانة تريده أن يحبها.

انقلبت « كيت » متوحشة ، كانـت السيدة « بلام» قلقة جدًا ، فجأة بدت "كيت" كأنها شخص جديد ، بأساليب جديدة، وكل شىء جديد ، لم أكن أعـرف ما الخطأ أو الصـواب ! راحت تدير « الجرامـافون» الكبـير بصوت عالٍ، كـأنها تُسمع تلك الموسيقى لكل الـ"جـرين سايد" ، كانت

موسيقى صـاخبـة، وأضـاعت كل الـوقت فى التلوى عليها وفمهـا مفتوح نصف فتـحة ،قـامت بنفس الأشيـاء فى حجـرتها، حيـث قد أنهت الآن المدرسـة الكبيـرة وأصـبحت تخـرج كل ليلة سـبت ، عندمـا نظرت إلى وجههـا، كان به شيء ما عـميق ووحشى ، وعندما كنت أظن أنهـا شابة كانـت تبدو عـجوزاً، وعندمـا ظننت أنها عـجوز بدت شـابة ، كنا نحن الاثنتين فى الثانـية والعشريـن من العمر ، لذلك فـهمت سبب قلق أمـها عليها، وما تعانيه.

لكن الأسوأ كان قادمًا .

كانتا الآن، الأم والابنة، تصرخان علنًا كل منهما فى الأخرى ، بدأتا الشجار فى حجرة الجلوس، ثم طلعتا السلالم معًا وهما تتراشقان بكلمات سريعة سـاخنة ضارية، البعض منها لم أستطع التـقاطه ، ذات يوم جاءت السيـدة إلىّ وقالت لى : " هـل تعرفين؟ كيت تحـب إفريقى، إنه الدكـتور الذى يأتى « ليتـعشى » هنا كثـيراً ، تقول إنه يحبـها جداً، وإنهمـا سوف يتركان البلاد ويـتزوجان فى الخارج ، قولى لى « يا كارابو» ، مـاذا يعتقد قومك فى مثل هذا الشىء بين امرأة بيضاء ورجل أسود؟ لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا ، أليس كذلك؟ ! "

رددت وقلت لها : " لم نرَ ذلك يحدث قط من قبل فى المكان الذى جئت منه"

" هذا حقيقى « يا كارابو »، إنه مجرد جنون"

مضت السيدة، وكانت تبدو مثل شخص ممسوس ،

قلت لنفسى، هؤلاء النساء البيض، لماذا لا يكتفين برجالهن ويتركوننا نحب رجالنا ؟!

منذ تلك اللحظة . . لم أرغب في محادثة « كيت » قط ، كانت تبدو لى مثل لص ، أو ثعلب دخل بين قطيع الغنم فى الليل ، كرهتها ، ومما جعل الأمر أسوأ أنه لن يسمح له مطلقًا بالحضور إلى المنزل .

كلما جاءت "كيت" للمنزل، كان يسود الصمت بيننا ، ولم يمر وقت طويل حتى أردت معرفة أى شىء عما تفعله، وأين، وكيف.

رقدت فى سريرى مستيقظة بالساعات ، وأنا راقدة هكذا، شعرت بأعضائى تنبض داخلى، مثل طلمبة المياه، تضرب بعنف وتدفع ثم تضخ بعض الماء داخل فتحة واحدة، ثم تخرج المياه من الطرف الآخر، كنت أتمطى وأتلوى كثيراً إلى أن أشعر بالتعب الشديد وأنام.

وعندما كنت أسقط فى النوم، كانت أحلامى تمتلئ بأشياء مؤلمة.

ذات مساء اتخذت قراراً، بعد أن أجلت ذلك مرات كثيرة ، أخبرت صديقى أننى لم أعد أريده ، نظر إلىّ متألمًا، مما آلمنى أنا أيضًا ، ورحل.

كان التفكير فى الطبيب الإفريقى مازال مسيطراً علىّ، وكان يحزننى أن أعرف أننى لن أراه مرة أخرى أبدًا، إلا إذا قابلته فى الشارع مساء الخميس ، لكنه كان يملك سيارة ، وحتى إذا قابلته بالصدفة، كيف أجعله يعرف بحبى له؟ أخ، لا أعتقد أنه حتى كان سيوقف السيارة ليعرف أى نوع من النساء أكون.

كانت فترة من هذا الشتاء طويلة ومضجرة بالنسبة لى ، قلت فترة لأن هناك دائمًا أموراً تبقى الخدم مشغولين حين يذهب البيض إلى البحر فى الشتاء.

فى الحقيقة، إن الشتـاء وقت الخدم، وليس وقت المربيات، فالمربيات يذهبن مع سيداتهن ليـعتنين بالأطـفال ، الـناس من أمثـالى كـانوا يتركون للعـناية بشئون البيت والكلاب ، كـانت العائـلات كثيراً ما تذهـب بعـيداً ويبـقى السـادة والسـيـدات من الكلاب، وكـان يمكنك أن تـراهم وهـم يمـشـون فى الشـوارع مـثـل الناس البـيض، صـامـتين، لكن فى قـوة وشمـوخ ، وعندما تـراهم تـعرف أنهـم ممتلئـون بكثيـر من التـوافه والنـزوات ، كـان هـناك القلـيل جـداً من العـمل الـذى يـؤدى فى الشتاء.

فى أحد الأسابيع ، سرت شائعة خـفية أن " خادمًا " من بلدياتنا - نحن السود - كان يرتب لحفل فى حجرته يوم السبت ، أعتقد أننا تبادلناها على أنها مزحة ، فـإما أن يكون رجلًا جريئًا جداً أو غبيًـا! فالبولـيس كان دائـمًـا يحوم فى اللـيل مـفتشًـا عن النـاس السـود، وإذا البـيـض فى البـيت المجـاور سـمـعوا ضـوضـاء حفـل .. أو .. هوه ! لكن الفكرة مـازالت قائـمـة ، وكنا فـرحـين بذلك وأردنا الذهـاب ، أما بالـنسبـة لـ"ديك " ، فقد فتح فمه الواسع وكـاد يغشى عليه عندما سمع عن ذلك وعرف أنى نويت الذهاب للحفل.

نهار يوم السبت الموعود جاءت « كيت » ، بدت أقل شراسة ، لكننى لم أكن مستعدة أن أكلمها ، وكنت مندهشة أن أسمع نفسى وأنا أرد عليها عندما قالت لى : " كارابو، أمى تـقول : أنك لا تحبذين فكرة الزواج بين فتاة بيضاء ورجل أسود ، " و سكتت.

ثم قالت: "« كارابو » ، لكننى أريد أن أساعده "

سألتها: " تريدين مساعدته فى أى شىء ؟

" ليصبح أعلى وأعلى، ليصل إلى القمة"

أدركت أننى أرغب أن فى قول الكثير مما يغلى فى صدرى، لكن لم أستطع قوله، تذكرت "ليليان ناجوى" بنادى "الغراب الأسود" وما قالته لنا ، لكننى كنت مشوشة، ودمى يغلى.

" ألا زلت متفقة مع أمى؟"

" كل ما قلته لأمك أننى لم أر قط رجلاً أسود وامرأة بيضاء يتزوجان، أتسمعيننى؟ أما ما أعتقده فهو من شأنى "

تذكرت أننى أريد أن أكوى ردائى الخاص بالحفل، لذلك تركتها، وانشغل عقلى بالحفل مرة أخرى ، كنت سعيدة لأن « كيت » والطبيب لن يعكرا مزاجى هذا اليوم ، فى اليوم التالى سوف تشرق الشمس علينا جميعًا، سواء بـ"كيت" أم بدونها، بالطبيب أم بدونه.

كان البيت الذى يعمل به "الخادم" « بلدياتنا »متواريًا عن الطريق الرئيسى خلف عدد كبير من الأشجار ، سألنا أسئلة كثيرة عن الحفل و مكانه، إلا أننا لم نتوصل لإجابات ، وها نحن أولاء قد ارتدينا أفضل ما لدينا من فساتين وبدل ـ تلك التى اشتريناها من الشباب الذين كانوا يسرقونها ـ عند ذهابنا إلى حفل "الولد" بلدياتنا . . . وكنا نتهامس طوال الطريق ونحن نصعد ناحية المنزل ، شخص ما كان يعرف المكان أخبرنا أن الناس البيض فى المنزل المجاور مسافرون بسبب موسم الشتاء، قلنا: " أوه، هذا إذن السبب"

تدفقنا داخل الحـديقة من الخلف، ووقفنا أمام حجـرته ننادى بصوت خفيض ، جاء من البيت خلفنا، وصـعقنا حتى الخرس عندما قال لنا : أن ندخل منزل الناس الـبيض ، هل جُـن؟ دخلنا بخطوات بطيـئـة نكاد نمس الأرض، ونحن غير واثقين من أى شيء ، سرعـان ما توقفنا وجلسنا فوق حشايـا دافئة ، حيث كـانت المدافئ مشتعلة ، غـمرتنا الأنوار الخفيـضة ، أحصـيت خمســة عشر فرداً بـالمكان ، وتبادلنا كلمات الإعـجاب بملابس السهرة ، وكان الرجال « أنيقين » أيضًا.

كانت "ناعـومى" ، صديقة مـضيفنا، مـشغولـة فى المطبخ بتجهـيز الطعام.

أخرج الكئوس والمشروبات الباردة، عصير طماطم، فاكهة، « جعة » الزنجبـيل، والكثيـر جداً من المشروبات الخـفيفـة ، كان كل شيء لطيـفًا، الفطائر المحشوة، البـسكويتات، الوجبات الخفيـفة، ووو . . . أقول لكم، كان حـفلاً بحق ، أعتقـد أننى أكلت كثيـراً من كعكة الزنجبيل، أكـثر مما أكلت فى حـياتى كلهـا، وكانت " ناعـومى" قد خـبزت بعض الأشـياء الأخرى ، اقترب مضـيفنا منى وقال: لا أريد البوليس أن يأتى هنا ويكـون لديـه سبـب للقبـض علينـا، لذلك لم أقـدم مـــشروبات كحولية، ولا حتى البيـرة ، فلا يوجد قانون يمنعنا أن نقيم حـفلات، هل يوجد؟ لذلك يمكننا أن نشعر بالحـرية ، استخدامنا لهذا البـيت هو من شأن سادتنا، وإذا كنت سألتهم كانوا سيعتقدون أننى مجنون.

قلت له: " أرى أنك جرىء جداً حتى تفعل أمراً مثل هذا "

" ضحك " .

أدار موسيقى خفيفة من على أسطوانات الجرامافون، لكل من "ميريام ماكـيبا" و"دوروثى ماسـوكا"، ومغنين وعـازفين أفارقة ، رقـصنا وصار الحفل صاخبًا أكثر فأكثر، وأكثر بهجة ، يا سلام . . . . ! أعتقد أن هاتين الفتاتين، « ميريام » « ودوروثى » ، مغنيتـان ممتازتان، أكلنا كثيرًا وضحكنا كثيرًا، وحكينا الحكايات، فى وسط الحفل دعانا بلديـاتنا لسماع ما سيقول ، أخبرنا كـيف أنه هو وصديق له فى "أورلاندو"، جمعـا مالاً ليراهنا على حصان فى سباق يوليو للسـدود ؟! وكانا يقومان بذلك كل عام فى "دوربان" ، لكنهما كانا يخسران ، أما هذه المرة، فقد كسـبا مائتى جنيه، صفقنا جميعًا وهللنا. ووو . . . ،« مائتا جنيه » !

قلت له: لابد من أن تأخـذ راحتك وتمكث فى البيت تـضيع الوقت فحسب"

ضحك وقال: " غير معقول "

ثم قال: " أما الآن يا أخوتى وأخواتى، استـمتعوا بوقتكم ، إننى إذا كنت فى موطنى، كان يجب أن أذبح « جديًا » للاحتفال وشكر أسلافنا ، لكن هذه حـياة المدينـة، لابد من أن نشكرهم بالشـاى والكعك وكل تلك الأشياء الحلوة ، أعرف أن بعض الناس يـظنون أننى جرىء جدًا، حتى أنه يمكننى أن أقوم بتوليد أنثى الأسد. مع ذلك، استمتعوا بوقتكم ولا تخشوا شيئًا"

عادت سيدتى بادية القوة والانتعاش.

الأسبوع الذى وصلت فيـه جاء البوليس مرة أخرى لتفـتيش حجرات الخدم ، كـانوا يبحثـون عمن زعمـوا أنهم المتسكعـون والرجال الذين بلا تصاريح إقـامة، الذين يعيـشون مع أصدقـائهم فى الضواحى بطريقة غـير

قـانونيـة ، ارتعـد أصدقـاؤنا الشـبـاب الذين كنا ندعـوهم " خـدم لحم الكلاب "من البـوليس ، وسبب التـسميـة أن " الخادم " الذى له صـديقة تعمل طبـاخة، كـان يقول لأصدقـائه دائمًا : إنه كان ذاهـبًا من أجل لحم الكـلاب، فى حـين كـان يعـنى أنه سـيزور صـديقتـه ، وهذا لأننا كنا نعطى أصـدقـاءنا الشـبـاب جـزءاً من اللحم الذى اشـتـراه الناس البـيض للكلاب ولنا.

ذات ليلة دخل رجل بوليس أبيض وآخر أسـود فناء السيدة "بلام" ، قالا : إنهما جاءا للتفتيش ، قـالت لهما : لا ، لا يمكنهما تفتيش منزلها ، قالا: حسنًا ، بل لابد من أن يـفتشا، ردت هى : لا، اقتـحما المكان إلى خلفية المنزل، حـيث حجرة "ديك" وحجرتى ، أمـسكت السيدة "بلام" بخرطوم المياه الذى كانت مياهه تجرى فى الحديقـة الأمامية، وبسرعة حولته إلى الخلف ، عـبرت الطابق جريًـا لأرى ما كانت سـتقـوله لهمـا ، كانا يكلمان "ديك" وهمـا يستعمـلان كلمات بذيئة ، لم تنتظر السـيدة بلام، وجهت خرطوم الميـاه إلى رجلى البوليس ، ذهلا من تصـرفهـا ، استدارا فى مواجهتها، فوجهت الخرطوم إلى وجهيهما مباشرة ، ودون أن يريانى، ذهبت إلى الحنفيـة فى ركن المنزل، وفتحتهـا على آخرها. . رأيت "ديك" يحاول كتم ضـحكته مثلى ، راح رجلا البوليس يتصـايحان، وحاولا دفع المياه بعـيداً عنهمـا، لكنها وجهت الخرطوم إلـيهما وراحت تحـركه لأعلى ولأسفل ، استدارا وجريا ناحيـة البوابة الخلفية، وهما يلعنان اللحظة التى جاءا فيها.

قالت السيدة « بلام » : هذا ما يستحقانه.

فى اليوم التالى، نقلت صحيفة الصباح الحدث.

بعد الظهـر، وصل الشرطيان يصـحبهـما شرطى آخـر ، أشارا على السيدة « بلام » واقتادوها إلى مركز الشـرطة ، رحلوها للاستجواب بتهمة إعاقتها رجال البوليس فى أثناء أداء عملهم . . . .

عادت وقالت: إنها دفعت كفالة لتخرج .

قيل للسيدة أمام القاضى أثناء المحاكمة : أنها تصرفت تصرفًا خطأ ، ويجب عليهـا أن تدفع غرامة أو تدخل السـجن أربعة عشر يومًـا . لكنها قالت : إنها سوف تدخل السجن لتؤكد أنها ليست مخطئة .

جـاءت « كـيـت » وحـاولت إثـناءهـا عـن فكرة دخـول الـسـجن بسبب شىء سخيف مـثل هذا ، وقالت للسـيدة : " إن هذا ليـس بشىء ذى قيمة لتذهبـى إلى الســجن من أجـله ، ادفـعى النـقود، ما قيمة خمسة جنيهات؟

لكن السيدة رفضت . . ودخلت السجن.

عـندمـا خرجت مـن السـجن كانت تـبدو حـزينـة جـدًا ، وتذكرت ما كـانت تقول لنا "ليليان ناجـوى" كثيـرًا: " يجب أن تكونوا مستـعدين لدخول السـجن من أجل الأمور التى تعـتقدون أنها أسـاسية وحـقيقـية ، سـألت نفسـى: ما الذى كـانت تعـتقـده السـيدة "بـلام" بخصـوصى، وتشـيمـانى، وديك، وكل الناس السـود الآخرين؟ لم أكن أعـرف، لكن وسط كل هذه الأحداث، كانت تكتب للصحف وتحضـر كل الاجتماعات التى يتـحدث فيـها الناس البـيض والسود عن الطريقـة التى تعاملهـم بها الحكومـــة، وتذهـب مع النســاء البـيض ذوات الـشـرائط الســوداء على

سواعدهم، يقفن فى المكان الذى سيمر رجل الحكومة الأبيض منه، وقلت لنفسى: هذه المرأة تؤمن بنا كثيراً نحن الناس السود ، لكن لم هى حزينة؟

بعد هذا عادت « كيت » للمنزل لتبقى فيه ، كانت ما تزال تدير الجرامافون بصوت عال، عال، عال، ويتلوى جسدها حتى خصرها عند سماع الموسيقى حتى ظننت أن جذعها سينخلع ، ثم رأيت شاباً أبيض يأتى كثيراً لرؤيتها ، راقبتها من خلال الفتحة الموجودة بين مفصلات الباب الذى يفصل المطبخ عن حجرة الجلوس حيث كانا يجلسان ، رأيتهما يتبادلان القبلات لوقت طويل جداً ، كان قلبى يدق بعنف عندما رأيته يرفع فستان « كيت »، وراحت ساقاها البيضاوان.. البيضاوان.. ترتعشان، و . . أوه . . أستحى أن أقول أكثر ، نادته: جيم ، وكان قولها غريب. ذلك لأن الناس البيض فى المحلات كانوا يطلقون على الرجال السود: « جيم » .

كانت « كيت » قد بدأت علاقتها « بجيم »، عندما قابلتُ الشاب الذى أحبنى وأحببته ، كان أقوى من الآخر الذى تركته، وقد أحببته أكثر، أكثر كثيراً. لكن كثيراً ما كان وجه الطبيب يأتينى، إنما لم يعد يحزننى ، وتوقفت عن التلصص لمشاهدة « كيت وجيم » من خلال الفتحات ، عدنا، كيت وأنا، إلى الحديث معاً بانطلاق مثلما كنا فى الماضى، تقريباً ، وعادت هى وأمها أصدقاء مرة أخرى.

سمعت « تشيمانى » تنادينى ذات صباح بينما كنت أقوم بتنشية مئزرى، أجبتها: « هاللو تشيمانى » ، ذهبت ناحية الحبل لنشر المئزر ، رأيتها واقفة عند السياج، فعرفت أن لديها شيئًا تود إخبارى به ، ذهبت إليها.

- « هاللو » ،

- « هاللو تشيمانى، »

- أنا بخير ،

في تلك اللحظة خـرجت امـرأة من البـاب الخلفى من البـيت الذى تعمل به تشيمانى ،

قلت مشيرة برأسي: لم أر هذه المرأة من قبل!

نظرت « تشـيمانى » للـخلف: أوه، تلك، هاى، يا بنت الناس إنك ترين العجب، أتعرفين . . . هذه التى ترينها هنـاك هى حماة السيدة، ألم أخبرك عنها؟

- نعم لم تخبريني قط .

- الناس البيض تافهون، أتعرفين لماذا ؟ تلك المرأة المسكينة لها يومان هنا الآن ، وعليها أن تطهى طعامها بنفسها ، وأنا أطهو للعائلة.

- على نفس الموقد؟

- نعم، إنها تأتى ورائى بعد أن أنتهى من الطهى.

- ألديها طعامها الخاص الذى تطهوه أيضًا ؟

- نعم « يا كارابو » ، الناس البيض ليس لديهم قلب ولا إحساس.

- ما الذى يضيرهم إذا تقاسموا طعامهم؟

- خبـطت يـديها فـى بعـضهما قائـلة: تسـألينى ، تسألينى . يا الله! .

سألتنى تشيمانى: هل جاءتك أخبار من البلد؟

قلت لهـا: يا « بنت الناس » ، الموتى يـتزايدون ، شيء مـا يقـضى على الناس فى بلدتنا ، كتبت لى أمى إنهم جمـيعًا بخير، أبى وأخوتى ، إلا أن الناس هناك تموت ، "ماليبـو" ، هذا الشخص الذى عاش وحده فى منزل أريته لك العام الماضى، ذاك البيت الأبيض.. قد مات ، ثم المدرس "سـيديمو" ، كـان نحيـفًا جـدًا ويبدو مـريضًا طوال الوقت ، لقـد درس لأخـوتى وليس لى ، وحمـاته، أتذكرينها؟ قلت لك : إنها مـاتت العام المـاضى، لا، العام قبل الماضـى، تقول أمـى أيضًا إن هـنـاك امـرأة ، تظـن أننـى لا أتذكرها، لأن آخر مرة رأيتها كانت وأنا بنت صغيرة، هى أيضًا ماتت، وكانت قد انتقلت إلى "زيروست" ، وتعتـبر الصديقة الحميمة لأمى منذ كانتا بنتين ، كـان يجب أن تذهب أمى لجنازتها، ولـم تفعل لأن قدميها متورمتان.

– وكيف حال قدميها؟

– تقول : إن قدميها ما زالا يؤلمانها ، ثم سألت « تشيمانى» : كيف حال أهلك فى فوكنج؟ ألم يكتبوا لك؟

هزت رأسها بالنفى.

رأيت من عينيها أن ذهنها كان مـشغولاً بشيء آخر، وليس مع أهلها فى تلك اللحظة.

– انتظرينى يا تشيـمانى، اعذرينى لدىّ كعك فى الـفرن، إه! سوف أخرجه فورًا وأعود، إه!

عندما عدت وجدت « تشيمانى » تجفف دموعها ، وظلت أهدابها مندأة ،

- كارابو، أتدرين بما حدث لى ؟

هززت رأسى ، كى تستمر بالحديث ،

- إننى حامل ،

- أوه !

سادت الصمت لحظة ،

- تشيمانى، ممن ؟

- تيمى ، لقد عاد ليبتلينى بهذا

- لكنه يحبك ، ماذا قال؟ هل أخبرته عن الطفل؟

- أخبرته أمس ، لقد تقابلنا فى المدينة ،

تذكرت أننى لم أرها فى نادى "الغراب الأسود" ،

- « تشيمانى» ، هل أنت متأكدة؟ هل نسيت شهراً ؟

أومأت برأسها : لا .

وهو ، « تيمى » ، ألم يستخدم هذا الشىء؟

- لقد عرفت بعد أن انتهى أنه لم يفعل ،

- لماذا ؟ ما الذى يقوله؟

- يقول يجب ألا أنزعج، وأنه سيعتبرنى زوجته ،

-« تشـيمـانى » ،« تيمى » شـاب طيب ، كم من هؤلاء الشبـاب الذين يعرفون الكثير من حيل المدينة سيعترف بأن الطفل طفله ،

- « هاى »، « كـارابو »، إنك تحدثينى عن أشـياء أخـرى الآن، ألا ترين أننى لم أعمل وقتًا بما يكفى من أجل أسرتى؟ فإذا تزوجت الآن، من سيعتنى بهم، بينما أنا ابنتهم الوحيدة؟

- همهم، إننى مصـغية لك ، حاولت التفكير فى قـول شىء يساعد على تهدئتها .

ثم قلت : يمكنك بحث الأمر مع « تيمى» ، فـتعودين لبلدتك وحين يولد الطفل ترعينه ثلاثة أشهر، وعندمـا تتزوجان، تعودين للعمل بالمدينة، ويمكنكما أن ترسلا نقودكما لمساعدة الناس الكبار بينما هم يعتنون بالطفل ،

- وماذا سـوف نأكل طوال الوقت الذى أكون فـيه بالبلدة ؟ لـم يعد الزمن الآن مثل أيام زمان ، عندما كـان لدينا أرض وكان يمكن لأمنا العمل بالحقل إلى أن يحين وصول الطفل.

طارت أفكارى وأظلم عـقلى، ولم أعـد قادرة على الـتفكيـر فى رد مناسب ، كم من المرات كنت مـرعـوبة من نفس الشىء! الحظ، ورحمـة الله، هذا ما كنت أعيش به ، هذا ما نعيش به جميعنا ، جميعنا !!

- « كارابو » ، اسمعى ، لابد من أن أذهب لإعـداد الشاى للسيدة، ستدق العاشرة والنصف الآن .

عـدت إلى المنزل ، لأن سـيدتى لم تكـن قد وصلت بعـد، ألقـيت بنفسى على الأريـكة فى حجرة الجلوس، جـاء "مالان" يتشـمم ساقى ،

وضعت قدمي تحت بطنه السمينة، ودفعته دفعة عنيفة لأعلى بعيداً عنى، لدرجة أنه راح يعوى وهو ينسحب مبتعداً ، قلت له: اذهب وقل لأخيك ما فعلته بك، وقل له يحاول مثلك، وسترى ما سوف أفعله ، وقل لجدتك كذلك عندما تأتى.

عندما رفعت عينىّ كان "ديك" واقفًا عند باب المطبخ، قال لى: يا سلام! أنت أيضًا بدأت تحادثين الكلاب!

لم أرد عليه ، نظرت إليه فحسب ، وإلى فمه الذى يشبه الحقيبة وهو ممطوط على جانبى وجهه ومضيت لحجرتى.

جلست على سريرى، ونظرت فى المرآة ، منذ الصباح وأنا أحس كأن سحابة سوداء معلقة فوقى، تضغط على رأسى وكتفىّ ، لم أعرف كم من الوقت جلست هناك ، ثم شممت رائحة عطر السيدة ، ما هذا؟ أين كانت تلك المرأة؟ بعد لحظات اكتشفت الأمر ، كان شذى عطرى ، فقد كنت أستعمل مستحضر التجميل نفسه الذى تستعمله السيدة "بلام" ، ولابد من أننى اعتدت عليه الآن، لكن هذا الصباح، لماذا أحس بالضيق من رائحة السيدة بلام ؟ ثم، دون أن أدرى لِمَ ! سألت نفسى وقلت: لماذا يجب استعمال مستحضرات تجميل مثل التى تستعملها السيدة ؟ رغبت فى إلقائها جميعًا ، توقفت ثم أمسكت بكل مستحضرات التجميل وألقيت بها فى صندوق القمامة ، حسنًا ، سأشترى أنواعًا أخرى يوم الخميس ، انتهى!

لم أستطع الجلوس ، خرجت من منزل الناس البيض ثم دخلت ، جلت به حتى أصابتنى رائحة البيت بالقرف كأنها تملأ حلقى ، ذهبت إلى الحمام دون أن أعرف لماذا كان ممتلئًا برائحة السيدة ؟! وكان "ديك" ينظف

الحمـام ، وقـفت عـند الباب ونظـــرت إليه وهو ينظفـه من القاذورات ، قذر جـسم السيدة ، قلت لنفـسى : لماذا لا ينظف الناس الحمـام من قذر أجسامهم بأنفسهم؟ قبل أن يعرف "ديك" أننى قريبة، خرجت ، أخ . . . قلت ثانيـة لنفـسى : لماذا أفكر فى ذلك الآن ؟ بينمـا كنت أقـوم بتنظيف أشيائهم لـوقت طويــل جدًا، ونظفـــت الحـمام مـرات كثيرة عـندما كـان « ديك » مريضـًا ، لـقد أمســكت بأسـوأ الأشياء التى يلفظهـا جسمـها مرات لا تحصى . . .

خرجت ووقفت فى منتصف الطريق بين المنزل وحجرتى، نظرت إلى الفناء المجاور ، جـاءت من البيت المجاور قـطة رمادية بثلاثة أرجل ناحـية السياج ، تقابلت أعـيننا ، لا أدرى كم من الوقت وقفنا هكذا ينظر كل منا للآخر ، كنـت أفكر في أن أقول للقطة : لماذا لا تذهبين وتنظـرين لجدتك بمثل هذه الطريقة؟ وثبتت القطة أرجلهـا الثلاثة وهى تنظر إلى بالضبط مثل نظرة شخص يرثى لحالك.

فى حـجـرتـى ، رحت أنظر إلى المرآة المعلقـــة على الخـزانات ذات الأدراج ، تساءلت : أهذه « كارابو» ؟

جاء الخميس، وإجازة بعد الظهـر ، لم أر « تشيمانى» فى "الغراب الأسود" ، وساءلت نفسى ماذا جرى مـعها ؟! فى المساء وجدت ورقة تحت بابى ، فى تلك الورقة تخـبرنى « تشيمانى » بأنهـا إن لم تعد هذا المساء، فلابد من أن أعرف أنهـا فى المنزل رقم « ٦٦ » بالشـارع الثـالث، فى بلدة « ألكسندرا »، وعلى أن لا أخبر النـاس البيض ، سألت "ديك" أن يأتى معى إلى ألكسندرا بعد غسل الصـحون؟ فى أول الأمر كان لا يريد ، لكننى قلت له: عندما ترانى« تشيمانى » وحدى ، لن تصدق أنك رفضت أن تأتى معى ، فوافق.

في الأتوبيس حدثني "ديك" كثيراً عن أخته الصغرى التي كان يمدها بالمال لتظل في المدرسة إلى أن تنهي دراستها، وتصبح ممرضة وقابلة ، واكتشفت كم هو مغرم بها ، قال: إنه يدعو الله دائمًا ألا يضطر لفقد عمله ، فقد كان يفقد عمله بعد أن يقضي أسابيع قليلة به ، وقد حدث له ذلك كثيراً ، مما دفعه لاستلاف نقود من الناس كي يدفع المصاريف الدراسية لأخته، وليشتري لها الملابس والكتب.

تحدث عنها كأنها محبوبته ، إنها متفوقة في الدراسة، وجميلة ـ كانت في الصورة التي أراني إياها من قبل ـ وكانت في مدينة « أورلاندو » ، وهي تعتني بوالديه المسنين، على الرغم من أنها كانت في الثالثة عشرة فقط، يقول لي: في الوقت الحاضر ما زلت مدينًا للكثير من الناس، لأنني فقدت عملي كثيراً ، قلت: إذن لابد من أن تحافظ على عملك مع السيدة « بلام»

لا أستطيع القول : إنني كنت أعير كل انتباهي لما كان يحكيه "ديك" ، فقد كنت أفكر في « تشيماني» ما الذي فعلته؟ وما معنى تلك الورقة؟

وجدناها في الفراش ، في تلك المدينة المرعبة التي تمتلئ ليلاً ونهاراً بالسكاكين والجنازير والبنادق ونباح الكلاب الجائعة والناس الغرقى في المشاكل ، حاولت التماسك ، كانت تتألم ووجهها صار رماديًا حتى في ضوء الشمعة ، حولت عينيها نحوي ، كان هناك امرأة بدينة تجلس في كرسي، أسندت كوعها بيد بينما يدها الأخرى تحت ذقنها ، كانت قد فتحت لنا الباب بعد أن صرحنا بأسمائنا، وإذ ذاك عادت إلى مقعدها مرة أخرى كأنه ليس لديها شيء آخر لتقوم به.

تنحنحت كأنها تقول لنا : « إنها ستتكلم» ، قالت : هل هي صديقتك؟ إنها بنت أختي الغالية، أختي التي كانت تترك ثدي أمي لتفسح لي مكانًا ، لماذا تذهب وتفعل هذا الإثم ؟ أوه! أنتن يا فتيات هذا الزمن لا تعرفن أن الأطفال يموتون بسرعة في هذه الأيام، كان عليكم أن تحمدوا الله أنه زرع البذرة في أرحامكم لتنمو أطفالاً، إذا تركت الطفل يولد ، كنت بالتأكيد سأعتني به ، أو كانت أختي ستقوم بذلك وهي سعيدة أن تضع حفيدها في حجرها، لكن ما الذي يفيد الآن؟ لقد سمحت للدودة أن تقضم الجذور ،

ثم رأيت خالة « تشيماني » تبكي ، ولم تكن الخالة قد ذكرت اسم ابنة أختها ولا مرة، لأن قلبها غاضب عليها ، بينما كانت « تشيماني » تئن فحسب .

استمرت الخالة في الكلام كأنها لن تتوقف لالتقاط أنفاسها أبدًا، بل خُيل إليّ أن صوتها يتحرك من ورائي، ولم أشعر بنفسي وما حولي ، ومهما كتبت ، فأنا أحاول تذكر كل التفاصيل التي مرت بي وأنا جالسة إلى جوار « تشيماني» مهما كانت صغيرة ، فلا شيء يمكن أن يعبر عن تلك اللحظة التي مرت بي في تلك الحجرة الصغيرة المعتمة ، بمدينة وحشية مظلمة الشوارع ، وتذكرت القطة ذات الأرجل الثلاث، وعينيها الرماديتين وموائها، ما هذا الطيف الذي يحوم حولنا ولا يظهر لنا مباشرة ؟

شكرت الآلهة عندما عادت « تشيماني» للعمل في نهاية الأسبوع ، كانت ما تزال ضعيفة، لكن الطيف لم يعد موجودًا ، وتعجبت من أن تشيماني لم تخبرني من قبل بشيء عن خالتها ، وحتى الآن لم أسألها ،

أخبـرتها بأننى قلت للناس البيـض الذين تعمل عندهم : « أنها مـريضة » وقد أوصلها أخ إلى "نوكاننج" ، لم يحاولوا حـتى اكتشاف الأمر ، هؤلاء الناس نادراً ما يهتمون لأمرنا ، أكـذب عليهم أية كذبة، وسوف تمر ، فهم نادراً ما يصدقوننا مهـما قلنا ، وإلى أى حد يخاف الإنسان الأسـود الذى يعـمل عند البيض أن يخـبرهم بالأكاذيب ، ذلك لأنـهم دائمًـا يوجهـون الأسـئلة، وأنت الشخـص المتهم الذى عليه أن يقدم الإجابات.

أخبرتنى « تشـيمانى » بكل ما حدث ، لقـد ذهبت للمرأة التى تقوم بمثل هذه الأعمال ، وكانت طريقتها أن تمسك بإبرة حادة وتغطى سن الإبرة بإصـبعهـا، ثم توجـه الإبرة داخل الرحم ، وتظل تتحـسس بالإبرة داخل الرحم إلى أن تجد البـيضة وتثـقبها ، ثـم تعطيك شيئًـا ما يقلل النزيف ، ولكن الألم، آه . . يا أرواح أسلافنا.

كانت السيـدة "بلوم" و"كيـت" تتحـدثان ذات مساء على العـشاء عن الكـلاب ، كل مـرة أحـضر شـيئًـا إلى المائدة كنت أحـاول التقـاط كلماتهـما ، بدا على « كيت » أنها وجـدت الأمر مضحكًا، لأنهـا كانت تضحك بصـــوت عالٍ ، وكانت هناك كلمـة لم أستطع سمـاعها جـيداً، بدايتها "مد" ، أيًا كانت هذه الكلمة، فهى كانت تخص الكلاب ، فهمت هذا مــن وضع بعـض الكلمـات جمـيعًـا. السيدة « بلام » قـالت : إنه شىء شائع فـى المـدن الكبيـرة بأمريكـا مثـل نيويـورك ، وكان أيـــضًا شيـئًـا أرادته الســـيدة ، « بـلام » وضحـكت « كيـــت » على تلك الفكرة ، فيـما بعـد عرفت أن " مونتى" و "مـالان" سوف يكون لهـما مدفن جميل.

جاءنى صوت « تشيمانى» فى حجرتى فى الصباح التالى عبر السياج ، عندما خرجت أخبرتنى: هيه يا أختى، هناك شيء يدغدغ أذنيك ، هل تعرفين ما هو؟ قلت: ماذا؟ قالت: هؤلاء الناس البيض يمكنهم عمل الأشياء التى تغضب الله ، فلم أر ناسًا أكثر كفرًا منهم ، سيدة منزلنا تقول : إن ناس « الجرين سايد » يريدون أن يشتروا أرضًا حيث يمكنهم دفن كلابهم ، سمعتهم يتكلمون عن ذلك فى حجرة الجلوس عندما كنت أقدم لهم القهوة الليلة الماضية ، هيه يا ناس، دعوا أسلافنا يأتون وينقذوننا!!

قلت: نعم، أنا أيضًا سمعت سيدة منزلنا تتحدث عن هذا الأمر مع ابنتها ، لقد سمعت كلامًا متقطعًا ، « وحياة أمى » تلك الكلاب سيأتى يوم وتجلس إلى المائدة وتأكل بالشوكة والسكين ، تلك الأشياء تعامل مثل البشر، ومثل الأطفال المدللين الذين لن يكبروا أبدًا.

تنهدت « تشيمانى » وهى تقول: "يا خلق هوه" ، لماذا لا يعطوننى بعضًا من هذا المال الذى سينفقونه على الأرض وشواهد قبور الكلاب كى أشترى جوارب لى، وحياة أمى ليس لدى ما أرتديه.

من فوق كتفيها شاهدت القطة ذات الأرجل الثلاثة ، أشرت برأسى، وعندما التفتت تشيمانى ورأتها، قالت: هممم، حتى القطط تعيش مثل الملوك ، فقد وجدت الحماة القطة على الكرسى، وأزاحتها، لكن سيدتى قالت للمرأة : إنه لا يجب إزاحة القطة عن الكرسى، ولم يكن يوجد كرسى آخر، فاضطرت العجوز للانصراف.

تذكرت وأنا أهم بدخول المنزل الشيء الذى أردت إخبار « تشيمانى » به ، لقد عملنا جمعية من عشرة نساء بما فيهن « تشيمانى » ، كل واحدة تدفع جنيهين فى الشهر ، وتقبض عندما يحين دورها ، وأن خمسة منا دفعن كل واحدة جنيهًا لتسليفهم لها حتى تحاسب المرأة التى قامت بهذا العمل فى ألكسندرا ، وعندما يأتى الدور على « تشيمانى » فى قبض مبلغ الجمعية ترد لنا ما عليها ، كانت « تشيمانى » ممتنة لمساعدتنا لها.

ذهبت لإيقاظ السيدة « بلام » كما طلبت منى ، كانت نائمة لساعة متأخرة هذا الصباح ، وكنت فى طريقى كى أطرق الباب عندما سمعت جلبة غريبة فى حجرة النوم ، رحت أسأل نفسى: ما الذى يجرى للسيدة بلام، أيجب أن أنادى عليها فربما كانت مريضة؟ لكن لا، هذه الجلبة لم تكن كتلك التى لشخص مريض ، كانت أصوات سعيدة تشبه الأصوات التى تصدر عن إنسان فى الحلم ، صوت ممتلئ بالنوم ، انحنيت قليلًا لأختلس النظر من ثقب المفتاح ، ظللت أسأل نفسى: ما هذا؟ السيدة بلام! مالان! ماذا تفعل مع هذا الكلب؟ كانت ذراعاها تحيطان ببطن « مالان » وتضغطه إلى بطنها عند السرة ، وجسم السيدة بلام يتحرك فى ملابس النوم مثل شخص فى حالة نوبات . . . وساقاها يرتفعان ويهبطان . . . ومالان صامت مثل شيء مسلوب الإرادة لا حول له ولا قوة.

سمعتنى أقول : " فلتنقذنى الآلهة! وظلت الكلمات تتردد مثل الريح مندفعة من فمى: صحيح إذن، هذا ما قال « ديك » إننى سأكتشفه!

لا أحد يستطيع أن يعرف أين بدأ كل ذلك؟ أو من الذى أثاره لأول مرة ؟ هل البوليس أراد أن يخترع سببًا للقبض على الناس الذين يوجدون بلا تصاريح إقامة ؟ الناس الذين يعيشون مع الخدم ويعملون فى المدينة أو لا

يعملون على الإطلاق ، لكن الإشاعة ملأت « جوهانسبرج » بأن الخدم سوف يسمون كلاب السادة البيض، لأنها تشكل عبئًا كبيرًا عليهم ، أكان هذا هو السبب؟

سمعنا عن الرسائل التى أرسلها الناس البيض إلى الصحف يطلبون من البوليس أن يراقب الكلاب حتى يمنع أية أعمال شريرة ، وقال البعض : إننا نحن الخدم لم نكن حقًا سيئين، وأن هناك من حرضنا على التفكير فى ارتكاب هذه الأعمال الشريرة، وهم ناس من المدينة والأقاليم، وآخرون قالوا : يجب أن يسهر البوليس على مراقبتنا حتى لا نقوم بتسميم سيداتنا وساداتنا، لأن الناس السود لا يعرفون الصواب من الخطأ عندما يغضبون ، وقال آخرون : إننا ما نزال بقلوب أطفال ، قالت السيدة « بلام » : إنها أيضًا كتبت للصحف، بعد ذلك نزل البوليس فى الأحياء مثل الجراد فى حقل حنطة ، وكانت هناك طوابير وطوابير من الرجال الذين يُقبض عليهم كل ساعة وطوال اليوم ، وكل من أمسكوا به كان يُسأل: " إه، أين السم؟ أين خبأته؟ من حرضك على تسميم الكلاب ؟ إذا أخبرتنا سوف نتركك حرًا، أتسمع؟" وكثيرًا من الأسئلة الأخرى.

ظل « ديك » يقول : " هذا الشىء الذى يريدون أن يفعلوه خطأ ، قتل الكلاب المسكينة خطأ ، ماذا فعلت تلك الأشياء، كى تستحق القتل من أجله؟ ! هل الكلاب هى التى ترغمنا على حمل التصاريح؟ هل الكلاب هى التى تسن القوانين التى تسبب لنا الألم؟ ناس مجانين لا يعرفون ما يريدون ، أغبياء! لكن عندما تحدث معه رجال البوليس، راح يرتجف، وفقد لسانه، وفقد كل الأشياء التى كان يعتقد فيها، وراح يهز رأسه فقط وبعد أن فتشوا جيوبه ظل لعدة لحظات رافعًا ذراعيه، وتسمر

مكانه مثل « خيال المآتة » الذى يخيف طيور الحقل ، ولم يخفضها إلا بعد أن أشرت إليه خفية، فاندفع جريًا إلى ركن بالحديقة لاستكمال عمله.

وضعت السيدة « بلام » "مونتى" و "مالان" فى حجرة الجلوس بجوارها، وبدت فى غاية القلق ، نادت علىّ ، ثم سألتنى : " كارابو، هل تعتقدين أن « ديك » "ولد" يمكننا الوثوق به؟" لم أعرف كيف أجيب، لم أعرف ماذا تقصد عندما كانت تقول "يمكننا" ، قلت: " أنا لا أعرف ماذا تقصد سيدتى، " قالت: " أنت تعرفين ، " وقفت أحملق فيها، ثم قلت: " لا أعرف ما تفكر فيه السيدة ، " قالت: " لا أفكر فى شىء. " كدت أضحك لأنها كانت تكذب الآن.

ربما فى ظروف مختلفة كنت سأغضب إذا كذبت علىّ، فهى وأنا كنا كثيراً ما نكذب على بعضنا ، مثلما نفعل أنا « وكيت» أيضًا ، مثلاً عندما عادت من السجن، بعد ذلك اليوم الذى وجهت فيه خرطوم المياه على الشرطيين، قالت: الحياة فى السجن ربما تكون حسنة ، ومع ذلك كنت أراها خجلة من أنها كانت هناك ، ليست مثل ناسنا السود الذين كانوا يعتقلون دائمًا، وينظرون إلى ذلك على أنه مجرد لعبة شريرة من الرجل الأبيض ، فليليان ناجوى كثيراً ما قالت لنا هذا، والسيدة « بلام » أثبتت لى مدى صحة هذا الكلام ، أنا واثقة من أننا بقينا معًا لسبب واحد، هو كذبنا على بعضنا البعض ، كان بوجه السيدة " بلام " شىء ما وهى تتحدث إلىّ ، شىء يجعلنى أخشاها وأشفق عليها فى نفس الوقت ، لقد رأيتها عندما عادت من السجن، ورأيتها عندما تعاركت مع « كيت»، وتركت البنت المنزل، والآن هذا الكلام عن تسميم الكلاب ، لكننى قط لم أر وجهها بمثل هذا الشكل من قبل ، العينان، فتحتا الأنف، والشفتان،

والأسنان، جميعها بدت ممتلئة كراهية ومرهقة ومصرة على فعل أمر سيئ، بل وشيء ما في وجهها كان يدعوني لأكون في صفها.

وجدتني أقول: " سيدتي ، « ديك » لا غبار عليه ،" راحت تحتضن « مالان » « ومونتي » بين ذراعيها وتضغطهما إلى صدرها ، ومسحت بيديها فوق رأسيهما ، كانا يبدوان مثل طفلين آمنين في حضن أمهما.

قالت السيدة « بلام » : حسنا، يمكنك الانصراف، ثم قالت: لا تخبري أي أحد بما سألته لك عن« ديك » ، « فاهمة » ؟ هه ؟

عندما أخبرت ديك بذلك انزعج.

قلت له : إن ذلك لا يعني شيئًا ،

- لقد كنت أرى من قبل أنني لا أوافق هؤلاء الناس الذين أرادوا تسميم الكلاب، لكن البوليس هبط علينا، الآن لم أعد أهتم بما يقع لتلك الأشياء العجماء،

سألته: هل كنت تسمم الكلبين لو طلب منك أحد ذلك؟

رد: لا ، لكنني لم أعد أهتم ،

جاء البوليس مرة ثانية ، وثالثة ، فقد كانوا يحصلون على حوافز طيبة، الجميع يدركون ذلك ، في يوم آخر، أخبرت السيدة بلام " ديك" أن يرحل، لأنها لم تعد بحاجة إلى عمله.

كاد "ديك" يبكي عندما طُرد ، سأل : " هل السيدة غير واثقة بى إلى هذا الحد؟ لم أعتقد أن أى أبيض يمكن أن يخاف منى! " ورحل ،

نادت « تشيمانى » علىّ من الفناء الآخر ، قالت: " هاى، « البوير » يضربون بعنف، إه! "

قالت السيدة "بلام" إنها سوف تستخدم خادمًا آخر بعد أن تنتهى هذه المشاكل.

وصل خطاب والدىّ من« نوكانينج » ، مكتوب فيه أن خالى قد مات وعرفت من الخطاب كذلك بموت ناس آخرين ، وقال أهلى : إننى لن أذكر بعضهم، إلا أننى كنت واثقة من معرفتى بهؤلاء الآخرين، وكانت هناك أسماء المرضى أيضًا ، ذهبت إلى السيدة " بلام" أطلب منها الذهاب لموطنى ، سألت: " متى مات؟" من ثلاثة أيام يا سيدتى ، هل دفنوه؟ نعم يا سيدتى ، لماذا تريدين الذهاب إذن؟ لأن خالى أحبنى كثيراً جداً يا سيدتى ، لكن ما الذى ستفعلينه هناك؟ لأطلق دموعى وكلماتى الحزينة عند قبره، وأقدم تعازى لزوجته العجوز يا سيدتى ، لا، لا يمكنك الذهاب «يا كارابو »، إنك تعملين عندى، « هه » ؟ فاهمة؟ فاهمة يا سيدتى ، أنا من يدفع لك، وليس أهلك ،لكن لابد من أن أذهب يا سيدتى، فتلك هى عاداتنا ، سكتت لبرهة ، دخلت المطبخ، وخرجت ثانية « كارابو »، إذا أردت أن تذهبى، يجب أن أخصم من راتبك مقابل الأيام التى ستكونين فيها مسافرة ، سيدتى هل أفقد أجرى؟ نعم « يا كارابو ».

فى اليوم التالى ذهبت إلى السيدة "بلام" وقلت لها : إننى راحلة إلى « نوكانينج » ، ولن أعود إليها، فهل يمكن إعطائى خطاب توصية؟

فعلت، بشـفتين مزمومـتين ، شعرت أن شـيئًا ما بينـنا يلسع مثل الشطة الطازجة ، كان الخطـاب يقول : إننى قد عملت لدى السـيدة بلام لثلاث سنوات وحـسب ، ولا شيء أكثر ، ذكـرى طرد " ديك" كانـت ما تزال جرحًا موجعًا فى قلبى.

جاءت تشيمانى لترانى فى حـجرتى فى الليلة التى سبقت يوم سفرى ، كان لديها حكاياتها الخاصة لتخبرنى بها، « تيمى»، صديقها تركها نهائيًا ، لماذا؟ لأننى قتلت مولوده ، ألم يكن موافـقًا على ضرورة أن تفعلى ذلك؟ لا ، هل كان قـد عبـر عن قلقه عندما أخـبرته بحـملك؟ كان قلقًـا مثلى عندما رأيـته يا « كارابو » ، لكنـه يقول : « إننى إذا كنت قـتلت واحدًا، فإننى سوف آكل كـل أطفالـه عندمـا نـتزوج » ، هـل تـظنين أنـه يعـنى ما يـقول؟ أجـل يا كارابو، يقول : « إن والديه كانا سيـسعدان جدًا بأن يعرفا أن المرأة التى سيتزوجها يمكنها أن تجعل بذوره تنمو » .

راحت « تشيمانى » تبكى بصوت خفيض.

حاولت أن أواسيها، وأردت أن أقول لهـا لو كان « تيمى » قد تركها من أجل ذلك فـحسب، فإنه لـم يكن أصـلًا يريد أن يـتـزوج مـنهـا ، لكننى لم أستطع ، لا، لـم أستـطع ، كل مـا قدرت على قوله لها: /« لا تبك يا أختى ، لا تبك ، وقدمت لها منديلاً ».

عـادت كيـت للمنزل صـباح اليوم الذى كنت مـسافرة فيـه ، عادت مـن مكـان بعيد جـدًا، لا أتـذكـره الآن ، ولم تلـق أمها بالاً لمـا كانت تقـول « كيـت » ، سائـلة إيـاها أن تبقـينى، وأنا لـم أكن مـهتمة بذلك أيضـًا.

بعد ذلك بساعة كنت عند مـوقف الأتوبيس المتجه إلى « نوكانينج »، في الجزء الأول من الرحلة لم أشـعر بأى شىء تجاه منزل "الجـرين سايد" الذى كنت أعمل به ، فى الحقيقـة كنـت تائهة، تتداعى أفكارى بين السيدة « بلام »، وخالى، ووالـدىّ ، « ونوكانينج » مـوطنى ، نمت واستيـقظت عدة مرات أثناء ركوبى الأتوبيس ، طوال فـترة الرحلة خيل لى أننى أرى، أحيـانًا فى النــوم، وأحيانًا بين الــنوم واليقظـة، سيارة حمراء تمر بأتوبيسنا ، ثم تجرى خلفنا ، وفى كل مرة نظرت فيها للخارج كانت تختفى السيارة.

تتناوب علىّ الأحـلام ، يقول:« إنك قـتلت بذرتى، أرادت أمى أن تعرف أنك المرأة التى فيها يمكن أن تنمو بذرتى . . . قبل أن تجعل البوليس يأخذك إلى السجن، تأكد من أن ذلك لأجل شىء هام، وإلا سوف تخرج بقلب وعقل ينزفان داخلك ويسممانك . . . »

توقف الأتوبيس لوقت قـصير، فـاستيـقظت ، الغـراب الأسـود، نسـاء النـادى . . . هيـه، اسـمعى! لقد كـذبت على سيدة مـنزلنا وقلت : « إن لدىّ تلغرافًـا » من أمى تخبـرنى إنها مـريضة جـدًا جداً » ، أريـتهـا التلغـراف الذى أرسـلتـه أخـتى على أنها أمى ، وهكــذا ذهبـت لموطنـى وقضـيت عـطلة نهـاية أسبـوع جميـلة . . .

أيقـظنى ضـحك النساء فى الوقت المناسب تمامًا، لأوقف خط اللعاب الذى يسيـل فـوق شفـتى السفلى ، كان الأوتـوبيـس يثير كثيراً من التـراب الآن ، فـقد يـجرى فـوق جـزء من الطريق يحفـرونه ، تأكـدت من أن السيـارة الحـمراء خـلفـنا مـبـاشرة ، لكنهـا لـم تـكن موجـودة عـندما استيقظت .

أية واحدة منكن تريد أن تتعمد أو لها أقارب بلا كنيسة وتريد أن يتبعوا واحدة ، يمكنها أن تأتي وتراني في المكتب . . . رجلاً مكوراً بكرش ممتلئ ، وعينين حادتين جائعتين، وابتسامة تصل إلى أعماق الأعماق كأنها تخترقنا . . .

كان الأوتوبيس يرتقي بصعوبة وفي ضجيج ، رحت أهذي. . « رفست » كلب رجل أبيض، أو ألقيت به هناك ، إن لم يكن يعلم قانون الرجل الأبيض . . . هذا السيد « مونتي » وهذا السيد « مالان » ، الآن استيقظا أيها الولدان الكسالى، واستقبلا السيد « كيت » ، ارفعا أيديكما لأعلى وقولا مرحبًا ، كارابو، أحضري كأسين . . . انتظري قليلاً ـ ماذا ستأكلان يا أولاد ، بينما أنا والسيد كيت نتناول شرابًا ؟ لا شيء ، أكيد.

كنا نسير الآن بيسر على طريق مستقيم مسفلت، والأشجار تتراجع بسرعة ، تذكرت . . السيد « كيت » ، يا لها من تخاريف.

أتعرفين « يا كارابو »، كلاب السيدة ماتت، ماذا؟ السم ، أنا قتلتهم ، لقد طردتني من عملي ، ألم تفعل؟ بلا سبب، الآن أريدها أن تشعر أنها طردتني لسبب ، عدت عندما كنت في حجرتك، وأمسكت بالكلاب وسممتها . . . وهل تعرفين ما حدث؟ لقد دفنتها في ملاءات وردية في الحديقة ، أوه، ملاءات جيدة نظيفة ، سأذهب وأحفر وأخرج إحداهما ، هل تريدين الملاءة الأخرى؟ نعم، أعطيني الأخرى سوف أرسلها لأمي . . . هيه، كارابو، انظري، هنا، إنهما قادمان ، « مونتي » « ومالان » ، الحقيران، لا يريدان البقاء في حفرتهما، ارجعا أيها اللعينان ، ألا تريدان أن تتحركا؟ إه، تعاليا هنا ؟ الآن سوف ألقي بكما في بركة كبيرة ،

لا يا « ديك » ! لا « يا ديك» ! لا، لا! ديك! إنهما لا يستطيعان الكلام، لا تقتل الأشياء التى لا تقدر على الكلام ، السيدة يمكنها أن تتكلم بدلًا منهما، إنها دائمًا تفعل ذلك ، لا! لا يا ديك . . . !

استيقظت بقفزة وأنا مذعورة بعد أن صرخت باسم « ديك» ، وارتطمت بالنافذة، كانت جبهتى تتفصد عرقًا ، انبثقت السيارة الحمراء فى نومى أيضًا ثم اختفت. وتذكرت صديقة من صديقاتى قالت لى : «إنها هى والبستانى قد احتفظا بملاءتين بيضاوين كان سيدهما الأبيض قد كفن فيهما كلبيه، وأنهما ذهبا وألقيا بالكلبين فى خزان المياه.

عندما أخبرت والدى بحكايتى، قال: " ما دمت أنت يا ابنتى فى صحة جيدة، فهذا هو المهم ، العمال يموتون، والعمل لا ينتهى ، يوجد دائمًا عمل ، أعرف ذلك، فعندما كنت صبيًا وبجسم معافيً قوى وعقل راجح، كان هذا من أكبر النعم فى الحياة . . . وكان هناك دائمًا عمل، حتى الرجل الكسول لم يكن يقدر على أن يقول : « إنه لا يوجد عمل ، لكن اليوم الناس ترى العمل كأنه أعظم من أى شىء آخر، أعظم من الصحة، وكل ذلك بسبب المال"

رددت قائلة: " تلك الأيام قد ولت يا أبى ، لابد من أن أعود للمدينة بعد أن أرتاح قليلًا لأبحث عن عمل ، لابد من أن أعولكما ، اليوم الناس أكثر فقرًا إلى درجة أنهم لا يستطيعون مساعدتكما"

كنت أعرف عندما تركت "الجرين سايد" أننى سأعود إلى « جوهانسبرج » لأعمل، ولو أن المال قليل، لكن الحياة فيها الكثير هناك، والعمل أفضل من الجلوس فى « نوكانينج » ومراقبة الشمس تشرق وتغرب ،

لذلك قلت «لتشيمانى » أن تفتح عينيها وأذنيها إذا علمت بأية فرصة عمل لى.

مضى على وجودى فى « نوكانينج » أسبوع ، حينئذ وصلت سيارة حمراء، شخص ما كان جالسًا فى المقدمة بجوار السائق ، امرأة بيضاء ، فى الحال أدركت أنها سيارة السيدة « بلام » ، كان الرجل الجالس إلى جوارها يرشدها إلى الطريق، لأنه أشار تجاه بيتنا حيث كنت أجلس أمام واجهته ، خفق قلبى بضع خفقات، خرج كلاهما من السيارة ، شكرت المرأة البيضاء الرجل بعد أن تكلم معى بضع كلمات.

لم أعرف ماذا أفعل ، وكيف أنظر إليها وهى تتحدث إلىّ ؟! لذلك ظللت أنظر إلى قطعة القماش التى كنت أطرز عليها رسومًا ، كان على وجهها ابتسامة متعبة لكنها رقيقة ، ثم تذكرت أنها ربما تكون فى حاجة لأن تجلس ، ذهبت إلى الداخل وأحضرت لها دكة منخفضة ، عندما تذكرت ذلك فيما بعد، كانت الفكرة التى خطرت لى أن هناك أشياء لا أعتقد أن الناس البيض يرغبون فى القيام بها فى بيوتنا عندما يزوروننا لأول مرة: مثل الجلوس، أو شرب الماء، أو دخول المنزل، وهذا نفس ما ظننته عندما جاء القس الأبيض لزيارتنا ، وفى سنة من السنوات، فى عيد الفصح، أوصلتنى « كيت » بسيارتها إلى موطنى وهى فى طريقها إلى الشمال ، وأصابتنى حالة الحيرة ذاتها لبضع لحظات، ولم أعرف كيف أتصرف.

بعدئذ قالت السيدة « بلام» : " « كارابو» ، جئت لأطلب منك العودة للعمل عندى ، هل ترغبين؟ "

قلت: " لا أعرف، لابد من أن أفكر فى ذلك أولاً "

" أتستطيعين التفكير فى ذلك اليوم؟ يمكننى النوم فى فندق المدينة والعودة صباح الغد، وإذا أردت يمكنك الرجوع معى"

كنت أريدها أن تعتذر لأنها طردتنى، ولم أعرف كيف أجعلها تقول ذلك، لأننى أعلم أن الناس البيض يعتبرونه أمراً كبيراً جداً قول « آسف » لشخص أسود ، إذا لم تقلها، فكرت فى أمرين يصعبان عليها عودتى، وربما حتى تخسرنى إلى الأبد.

قلت : " يجب أن تسألى أبى أولاً ، فأنا لا أعرف، هل أنادى عليه؟ "

قالت السيدة « بلام » : " أجل"

ناديت أبى وأمى. قاما بتحيتها، بينما كنت أحضر المقاعد، ثم أخبرتهما بما تريد.

أبى سأل أمى، وأمى سألت أبى، وأبى سألنى ، قلت إذا كانا موافقين، سوف أفكر فى الأمر وأخبرها فى اليوم التالى.

قال أبى: " سيكون ما ترغبين فيه يا ابنتى . "

قلت للسيدة « بلام »: " إذا أردتنى أفكر فى الأمر يجب أن أعرف هل سترفعين أجرى عن ستة جنيهات لأن ذلك قليل جداً "

سألتنى : " كم تريدين زيادة ؟ "

" أربعة جنيهات زيادة"

نظرت لأسفل بضع دقائق.

" وأريد أسبوعين إجازة فى عيد الفصح، وليس عطلة نهاية الأسبوع فقط، " اعتقدت أنها لو كانت تريدنى حقًا فإنها يجب أن تدفع من أجل ذلك ، وهذا سيوضح كم هى آسفة ونادمة على فقدانى،

قالت السيدة « بلام» : " يمكننى منحك أسبوعًا واحدًا ، إنك ترين إنه أحيانا تكونين فيما يشبه العطلة عندما أكون فى « دوريان » فى الشتاء"

قلت: " سوف أفكر فى ذلك"

مضت إلى الفندق .

فى اليوم التالى ، وجدتنى مستعدة وقد حزمت أمتعتى للسفر معها ، كانت سعيدة جدًا، وبدت طيبة أكثر مما عهدت فيها ، وأنا شعرت بالثقة فى نفسى، أكثر مما شعرت فى حياتى كلها ،

السيدة « بلام » تقول لى : " لن تجدى « مونتى » « ومالان »"

" أوه؟ "

" أجل، لقد سُرقا فى اليوم التالى لسفرك، ولم يعثر البوليس عليهما بعد ، أظن أنهما ماتا "

تذكرت « ديك » . . . وحلمى هل جرؤ؟ وهى . . . هل هذه المرأة جاءت تطلب منى أن أعود لأنها فقدت الحيوانين اللذين تحبهما؟

قالت السيدة بلام: " أتعرفين يا « كارابو » ، إننى أحب قومك الأفارقة"

وتساءلت فى نفسى ؟" « وديك » ، وأنا"

العشاق

تأليف : بيسى هيد

بدأت علاقـة الحب فى الصيف ، بدأت عـلاقة الحب فى ذلك الزمن المضجـر الجهم الذى لم يكن يحق فـيه للشبـاب والفتيـات إقامة عـلاقات حب، كان صيفـا من تلك الأصياف التى ينهمر فيها المطر سـيولا جارفة ، كل أصيل تـقريبًا ، قـرب غروب الشـمس ، تجرى عبـر السمـاء السحب المنخفـضة المعبأة بالماء فى كـتل متراصـة ، فجأة ، وبلا مقـدمات ، يهطل المطر وتعتم صفحة السماء.

فى ذلك الأصـيل ، كانت الفـتيـات والبنات الصغـيرات مـازلن فى الغابات يجـمعن الحطب عندما ظهـرت فى السماء البوادر الأولى لسـقوط المطر، رفعـن أكوام الحطب بسرعـة ، وأخذن فى الجـرى للمنزل هربًا من العاصفة الوشيكة ، فجأة ، ترنحت إحدى الشابات من الألم حيث وطئت أثناء عدوها شوكة كبيرة .

نادت على البنت الصـغيـرة التى كانت تلهث خلـفها : "مـانوسى" أسرعى للبـيت ! لابد لى من إخراج الشـوكة من قـدمى ، إذا ما أدر كنى المطر، سوف ألجأ إلى مأوى ثم آتى للبيت بمجرد أن ينتهى" .

دون أن تلتفت الصغـيرة خلفها ، واصلت الجرى وراء جمـاعة النساء جامـعات الحطب المسـرعات ، صـارت الفتـاة وحدها تمامًـا مع العاصـفة

الوشيكة ، تبين لها أن إخراج الشوكة صعب ، فقد انطمرت عميقًا وانكسرت فى عقب قدمها ، سقطت على ظهرها بضع قطرات من المطر، واكفهرت السماء .

نظرت بقلق حولها بحثًا عن أقرب مكان تحتمى به ورأت بين الصخور ، عند قاعدة التل كهفًا كبيراً . رفعت حزمة الحطب ، ومشت بخطوات عرجاء مسرعة ناحية الكهف ، تلاحقها ضربات المطر العنيفة ، ما كادت تدخل الكهف حتى انهمر سيل المطر بشدة ، كان كل اهتمامها منصرفًا للوصول إلى المأوى ، لكن عندما وصلت ، انتفض قلبها من الخوف حين أدركت أنها ليست وحدها ، فقد ملأ المكان دفء جسد إنسان آخر ، خطرت فى المكان بسرعة ، ووجدت نفسها وجهًا لوجه أمام شاب ، قال بهدوء مهيب: " يمكننا أن نحتمى معًا هنا من العاصفة " .

كان تعبير وجهه حنونًا تشيع منه الطمأنينة والحماية مثل كلماته ، أعاد طمأنتها ، أنزلت الفتاة حمل الحطب فى الرحبة الداخلية للكهف الكبير، ومعًا جلسا قرب المدخل ، صم هدير المطر الآذان حتى أخمد فى كثافته الرعد والبرق ، بحركات هادئة متناسقة حل الشاب جراب جلد مربوط حول خصره ، كان يقضى كل وقته فى رعى الماشية ، ولكى تنقضى الساعات الطويلة كان ينشغل بأعمال الجلد ، فيركب الجلود على كل أنواع الملابس والأغطية ، فى جرابه عدد كبير من الأدوات المسنونة ، أبدى للفتاة رغبته فى إخراج الشوكة من قدمها ، مدت قدمها إليه ، ولبعض الوقت انشغل فى عمله ، أبعد الجلد الموجود حول الشوكة برقة إلى أن كشف عنها بما يكفى لإخراجها .

نظرت الفتاة إلى وجهه باهتمام واندهاش من الطمأنينة والراحة اللذين شعرت بهما فى وجوده ، فى عالمهم كان الرجال والنساء يعيشون منفصلين عن بعضهم البعض على نحو صارم ، خاصة من هم فى سن الشباب ، وغير المتزوجين ، هذا الإحساس بالعزلة والانفصال يدوم طوال الحياة الزوجية ، فيبدو الزواج ذاته ليس بذى معنى سوى أنه لقاء لإنجاب الأطفال، تلك الفجوة الواسعة بين الجنسين خلقت عائقًا على مستوى الاتصال الإنسانى بين الجنسين ، فعندما كان الشباب يرون امرأة ، كثيراً ما كانوا يحولون عيونهم عنها بصعوبة ، أو كانوا يقهقهون ، أما هذا الشاب فلم يقدم على أى شىء من هذا ، بل كان يحدق فى عينيها مباشرة ، كل حركاته طبيعية وغير متكلفة ، بل إنه كان سعيداً بالنظر إليها ، بمجرد أن أخرج الشوكة ، شكرته بابتسامة ، وطوت قدمها الممدودة تحتها ، خفت حدة العاصفة بعض الشىء ، لكن السماء المثقلة بحملها أسقطته بقوة على التل .

لقد رأت الشاب من قبل هنا وهناك فى القرية ، لكنها لم تكن متأكدة من معرفتها لأية عائلة كان ينتمى ، ومع ذلك كان كل ما يعنيها شعورها بالسعادة معه الآن .

سألت : " ألست أنت ابن "ررا-كيجا" ؟ " كان صوتها عذبًا أليفًا، مغلفًا بمسحة من الضحك ، معبراً أصدق تعبير عن شخصيتها ، فهى تحب دائمًا أن تكون مبتهجة .

رد الشاب بابتسامة : " أنا من تسمى "كيجا" على اسم جده[٥٠]، الابن البكر فى العائلة " .

(٥٠) اسم الجد يتسمى به الابن البكر عادة .

قالت : " أنا أيضًا الابنــة البكر فى العــائلة ، أنـا "تسلانى" ، ابنة "ماما - تسلانى" .

كانت فروع أسـرته أكثر تعقيـدًا من أسرتها ، قال مـفسرًا : " لأبى ثلاث زوجات ، كل أول مـولود فى البيت ، للزوجة الأولى ، والثـانية ، والثالثـة ، ذكر ، ولأبى ثمانيـة أطفال ، ثلاثة ذكـور، وخمس بنات ، " فقط عندمـا تعمقا معًـا فى الحديث ، انتبهت "تسـلانى" إلى أن جزءًا من حديثه قد فـاتها، كان صوته على طرف نقيض من نبرتها الخفـيفة العذبة ، تكلم بنبرات عميقة متزنة نابعة من أعماقه، وبدا كأنه ابتدع لغة خاصة به ، كان طوع أمـره سلسلة هائلة من التعـبيرات والمشـاعر؛ الآن أشـرقت عيناه بروح المرح، ثم صـارتا وقـورتين صادقـتين ، كـان يتمـايل بطريقـة غيـر محسوسـة أثناء الكلام ، تكلم بطريقة لم تسمعهـا من أحد من قبل ، بل كل مـا تفوه به كـان مبـاشرًا ، وبسـيطًا ، وصـريحًا ، انحنت للأمـام ، وأنصتت بانتباه أشد لطريقته المميزة فى الحديث .

صدمهـا قوله: " إننى غير راض عن أمى ، فأنا ابنهـا الوحيد ، ذلك لأن أبى ببساطة لم يعد يعاشرها بعـد ولادتى ، أبى وأنا متشابهان ، كلانا لا يحب أن يتحكم فيه أحد، وهى، منذ بداية زواجهما جعلت حياته بائسة، كأنها ولدت بأفعى تنهش فى قلبهـا، لأن لا شىء يرضيها، فكانت الطريقة الوحيدة التى يمكن لأبى أن يسيطر بها على حالتها هى تجاهلها تمامًا . . . "

لاذ بالصمت برهة سارحًا مع افكاره ، ثم قال: " أعتقد أننى لا أوافق على الزيجات التى يرتبها الأهل الموجودة لدينا هنا ، مـا كان أبى ليتزوجها أبدًا إذا كان له حق الاختيار، بالكاد قُـدم إليها ذات يوم عن طريق أسرته، وأخبـروه أنهما سـيتـزوجان ، ولم يكن فى وسعـه فعل شىء حـيال هذا الأمر " .

إزاء الأذى الذى تحمله من أمـه، أمسك صامـتًا! كانـت تكرهه بشدة ومرارة، رشقـته بالحجارة وخمـشته بأظافرها فى ذراعيـه ورجليه من جراء إحباطهـا الوحشى، ومثل أبيه، تملـص منها، نادرًا ما كان يقـضى وقتًا فى البيت، جعل من زرائب المـاشـية مكان إقامة وسكنًا دائمًا له، فـإذا اقترب من البيت فـإنه يحضر معـه دائمًا بعض الهدايا أو الأغطيـة، فى هذا اليوم بالذات، كانت معه قرعة ممتلئة باللبن.

تزلزلت أعماق الفتاة "تسلانى" ، أمام مـا تكشف لها من حقائق قاسية، كانوا يعيشون أشد أشكال التقـاليد تزمتًا فى الحياة، كل الأبناء تحت سيطرة الآباء حتى يتـزوجوا، ومـعنى ذلك أن مناقشة الكبـار تعد من المحـرمات، بطريقة حديثها المندفع، وإلى حد ما بسبب ارتباكها، كان على طرف لسانها القول بأنها تحب أمـها، لأن والدتها ذات قلب طيب، لكن فى بيتـها أيضًا مسحة خفية من الاضطراب، والدها وأمهـا ـ وهى متأكدة من ذلك لمعرفتها بتفاصيل حياة أمها ـ لم يكونا يعـاشران بعضهما البعض، منذ سنوات قليلة اتخـذ والدها لنفسـه زوجة أخـرى، كانت هى وحـيدة أمهـا، أوه، ظاهر حياتهم المنزلية هادئ ومنسجم، لكن والدها نادرًا ما كان يأتى للبيت، متى كان بالبيت؟ فإنه دائمًا ما يكون سريع الغضب ونكد المزاج.

أخيرًا قـالت، بنبرة خفيضة مـشحونة بعمق التفكيـر: " أنا آسفة لكل المتاعب التى ببـيتك" ، كانت تترنح تحت ضـربة مفاجئـة من طرق تفكير جديدة عليها تمامًا.

ابتسم الشاب وتحـول بترو ناظرًا إليها ، ومـحدقًا فيـها ، نظرت إليه باهتمـام ودى دافىء ، لم تمانع فى اقتـرابه ممعنًا النظر إليهـا؛ كانت رفقـته مطمئنة.. مريحًا ، صادقًا ، وصريحًا فى إيماءاته .

سأل وهو لا يزال مبتسمًا: " هل توافقين على الزيجات المرتبة؟"

أجابت بصدق: " أنا لم أفكر قط فى ذلك من قبل" .

كـــان الظـــلام يقترب بســرعة ، والمطر يقطر فى رذاذ ناعم، وقفت " تسلانى" ورفعت حـزمة الحطب، رفع الشاب قرعة اللبن، عندمـا مشيا معًا فى الظلام عائدين للبـيت ، كانا كطيفيين يريان بالكاد ، لم يكن بيت " تسلانى" بعيدًا عن التل، كانت تسكن عـند نهاية الجانب الغربى من القرية، وهو عند نهاية الجانب الشرقى.

أضاء وهج النار داخل الكوخ، الذى كانوا يستخدمونه كمكان للطهى فى الأيام الممطرة، أم تسـلانى جلست منحنية للأمام عـلى كرسى المطبخ، منصتة بانتباه لحكاية ضيفتها، إنها دائمًا هكذا ـ محاطة بالنساء اللائى يأتمنّها على أسرارهن، كل قصص الحياة تُفضّ يوميًـا حول كرسى مطبخها؛ علل الأطفال، النساء اللائى أجهضن توًا، نسـاء يقاسين العقم ويخضعن لعلاج الأرحام القاحلة؛ ولا نهـاية للقصة، كانت أكبر سعـادة لتسلانى أن تجلس خلف كرسى أمها بهدوء وتنصت بافتتان لقصص هذه المحن التى لا تنتهى، ضيـفة الأم هذا المساء كـانت قد اقتـربت من نهاية وصف حالة طفلتـها ، صرع مزمن مسـتعصٍ على العلاج، بدت الطفلة كأنها فى نوبـة احتضار، وكـانت أمهـا تصف شـدة النوبة المرضـية التى ألمت بابنـتهـا حين دخلت "تسلانى" ، أنزلت "تسلانى" كومة الحطب فى زاوية واستمر الحديث دون مقاطعة، أخذت مكانها المفـضل خلف أمها، جلست فى الجانب المقابل من النار، "مـاما-منـوسى" ، زوجة أبيـهـا الثانيـة، والتى بدت جـادة رابطة الجأش، ابنتها، البنت الصغيرة "منوسى" ، أخذت حاجتها من الطعام والعناية، وراحت بعد ذلك فى النوم سريعًا على حصيرة بأحد أركان الكوخ.

أحبت "تسلانى" سيدتىّ المنزل بنفس القدر، كلتـاهما قوية مستقلة، لكن مع فارق كبير، بين الشخصيتين: "ماما تسلانى"، ملكة تعاين مملكتها التى تحكمها، بعقل غـائب، عبر سنوات حياتها الزوجـية شقت طريقًا فى الحيـاة لنفسها يملؤهـا بالرضا، أُشيع أن صحـتها ضـعيفة لأنهـا بعد ولادة "تسلانى" عانت عدة مرات من الإجهاض، واتضح أنها لم تعد قادرة على حمل أى طفل بعـد ذلك، كان ضعف صـحتهـا مصدر سـخط شديد من جانب زوجها، وبعد وقت هجرها تمامًـا واتخذ "ماما-منوسى" زوجة ثانية له، بقصد أن يديم سلسلةً نسبه واسمه من خلال جسدها العفى.

هذا النظام كـان مناسبًا لمـاما- تسلانى، فـقد كـانت ذات قلب كبـير وعقل متـفتح، بل على العكس، كانت تفـخر بأنها شديدة التـمسك بكل التقاليد التى تخلص لها الجمـاعة، بمجرد أن صارت "ماما-منوسى" جزءًا من البـيت؛ لم تعد "مـاما - تسـلانى" تقوم بأى عـمل، لكنهـا صارت تستضيف النساء وتقوم طوال اليوم بالزيارات، بينما راحت "ماما-منوسى" تدير الشئون الداخلية للبيت.

امرأتان تكمل كل منهما الأخرى ، فإذا كانت "ماما-تسلانى" ملكة ، فإن "ماما-منوسى" عـاملة متواضعة، كانت "مـاما-منوسى" تبدو ظاهريًا سليمة العقل، متزنة مثل "مـاما-تسلانى" ، لكن كان هناك جانب آخر فى شخصـيتها غيـر متزن، كان أسلوبها طوال حـياتها مزعزعًـا، فإذا كان كل شىء مسـتقرًا وآمنًا ، فـإن "ماما ـ منوسى" مسـتقرة وآمنة ، إذا مـا كان هنالك أى تمزق أو اضطراب ، فـإن مؤشر الـتوازن الداخلى الروحى غـير المستـقر يشـير إلى كل ناحـية وتجيش عـواطفهـا، تاقت دائمًا لأن يتـقبل الآخرون كل عمل تقـوم به، وتكاد تكون مبتئسة لأيام إذا مـا لحق بها نقدٌ أو تأنيب.

هكذا، فيمـا بينهما، بلغتا حـياة منزلية غاية فى الانسجـام، امتُصت كلتاهما فـى دائرة انشغال حياتهـا اليومية، كلتـاهما لامبالية بما تـتلقياه من اهتمام شحـيح من رجلهما ، لأن "ررا ـ تسلانى" كان مستـوعبًا تمامًا فى شئونه، كان عضواً بارزاً فى مجلس زعـيم القبيلة، وقسم وقته بين المجلس وزرائب قطعانه، كان من أغنياء مُلاك الماشـية، ولديه خدم يرعون قطعانه، فى ذلك الوقت، كان "ررا-تسلانى" ، بعيداً، عند زرائب قطعانه.

تمتعت الفـتاة "تسلانى" بعلاقـة حرة وسعيدة مع "مـاما-منوسى" ، تعاملتا فيما بينهما دون كلفة، استمـتعتا معًا بالعمل الشاق، وحينما تكونان معًـا بمفردهما، تأخذان فـى الضحك وتلقيان النـكات طوال الوقت، بينما أمها كانت تنظر إليها على أنها مـجرد شىء ما، عليها أن تخفض صوتها، وتصدر لهـا الأوامر من بين أسنان مطبـقة، فى وقت مبكر جـدًا، تحركت "ما- تسلانى" فى كرسيها، وقالت بصوتها الخفيض: " تسلانى ، أحضرى لى حقيبة أعشابى" .

نهضت "تسلانى" بطاعـة وأسرعت إلى مكان معيشة أمـها لإحضار حقيبة الأعشاب، مرت فسـحة من الوقت أثناء وصف الأم لضيفتها طريقة استخدام ومميزات الأعشاب ثم راحت "مـا ـ منوسى" تجهز وجبة العشاء، انصـرفت الضيـفة على وعـد أن "ما ـ تسـلانى" سوف تزورها فى الـيوم التـالى، جلسن لبـرهة فى صـمت أنيس ، عندمـا خَـفت لهـيب النـار، نهـضت "ما ـ تسـلانى" واخـتارت بعض قطع الحـطب من حزمـة الابنة لتزكى النـار ،

قـالت: "إى "تسـلانى" ، حطبك جـاف تمامًـا، هل اختـبـأت من العاصفة" ؟

ردت "تسلانى": "يوجد كـهف بالتل، ليس بعيداً عن هنا يا أمى، اتخذته مـأوى" ورأت من الحكمة ألا تضيف أنها شـاركت شابًا المـأوى، لأن ذلك سيثير كثيراً من الأسئلة المربكة .

ألقت عليهـا الأم نظرة غامضة، كـأنها تقول.. كل شىء فى عـالمها مستتب؛ فهى دائمًـا تعين حقائق بسـيطة عن أية مسألة، ثم تنتـقل بهدوء للمهـمة التـالية القـريبة، فـجأة، قررت الأم أنهـا متـعبـة، وسوف تأوى للفراش، بقيـت "تسلانى" و"مـا ـ منوسى" جالستـين قرب النار، مازالت "تسلانى" مبتهجة من لقائها غير المتوقع مع الشاب ؛ لذا جال برأسها كثير من الأفكار السارة .

قالت بتلهف : "مـا ـ منوسى، أريد أن أسألك بعض الأسئلة" .

قالت "مـا ـ منوسى" خارجـة من أحلام اليقظة: "مـا الذى تريدين قوله يا ابنتى؟"

سألتها بصراحة: "هل توافقين على الزيجات المرتبة؟"

شهقت "مـا ـ منوسى" وخفضت صوتها رعبًـا، وقالت: "تسلانى، تعرفين أننى صديقـتك، لكن إذا سمعك أحد غيـرى تتكلمين بهذه الطريقة سوف تقعين فى مشاكل! مـثل هذه الأمور لا تناقش هنا أبداً! ما الذى جاء بتلك الفكرة لرأسك، فهى لم تخطر على بالى بالمرة؟"

قالت "تسـلانى" بطريقة دفاعـية: "عند سن معين يحدث اعـتراض على الحياة" .

قـالت "مـا ـ منوسى" بصـدق: "ذلك ما لن تـفعليـه أبداً، إذا مـا اعتـرضت على الحيـاة، سوف تضطرب، الحـياة دائمًـا مرتبة ومـنظمة"،

ونظرت إليها مروعة كلية ومستثارة المشاعر، ثم أضافت متجهمة: " أعرف أمراً رهيباً حدث ذات يوم لشخص ما اعترض على نظام الحياة".

سألت "تسلانى"، مستثارة المشاعر بدورها: " من كان هذا؟ ما الأمر الرهيب الذى حدث ؟"

قالت "ماما منوسى" بحزم: " لا يمكن أن أخبرك، إن ذكره مرعب جداً" ، غرقت تسلانى فى الصمت ساهمة، فهى تعرف ماما - منوسى جيداً، لا تقدر على الاحتفاظ بسر، ويمكن استدراجها دائماً لإفشاء السر، إذا لم يكن اليوم ، يكون غداً، قررت تسلانى أن تكتشف هذه القصة المرعبة.

عندما وصل " كيجا" للبيت كانت عائلته تتناول وجبة العشاء، أقبل أولاً على مكان معيشة النساء وقدم لهن قرعة اللبن، قال: " أنجب البقر عجولاً كثيرة، هناك الكثير من اللبن، ويمكن إحضار بعضه كل يوم".

حيته، بابتهاج، زوجتا أبيه الثانية والثالثة، اللتان سألتاه بقلق عن أحوال ولديهما اللذين يعيشان معه عند زرائب الماشية.

قال بلطف: " إنهما بخير تماماً، رتبت لهما إقامتهما وكذلك الماشية قبل مغادرتى، سوف أعود ثانية فى الصباح الباكر لأننى قلق على العجول الصغيرة".

تجنب تحديق أمه المؤذى، وفمها المطبق، المحرم عليه الحديث معه، لم يكن لديها ما تقوله له قط ، على الرغم من أنه عند اقترابه من مكان النساء سمع صوتها الصاخب الأجش مسيطراً على الحديث، أعطوه وجبته، وانسحب لمكان معيشة والده، كان الوالد يتناول طعامه بمفرده بعيداً عن النساء، وذكيت النار فى المكان.

حيـاه والده ، مداعبًـا إياه مداعبـة حنونة ومتلاعـبًا باسم "كيـجا" ، قائلا : " مـرحبا، يـا أبى " كيجـا " تعنى لى . . أنا آكل الآن لأن لى ابنًا يعتنى بى" .

كان الأب مغرمًا به ، لا يوجد فى نظره ابن أفضل من "كيچا" ، بعد تبادل التحايا، سأل الأب: "وما أخبارك؟"

أخبـر والده نفس المعلومات عن ولادة البـقر لعـجول كثـيرة، وزيادة اللبن، وعن حال أخـويه، راحا يأكـلان فى رفقة صـامتة لـبعض الوقت، ارتفع صوت أمه صـاخبًا، نفاذًا، مختـرقًا صمت الليل، دون توقع، رفع الأب بصـره ناظرًا إليـه، غامـزًا بعـينه، وقال: "يا أبى، تـلك العجـول الإضافيـة سوف تعود علينا بفـائدة، لقد بدأت توًا فى مفاوضـات الترتيب لزواجك" .

اعتـصرت قلب " كيـچا " نوبة قـشعريرة ، وخـوف بارد ، تساءل منزعجاً: " من سيتزوج يا أبى؟ أنا ؟ "

رد الأب بفـرح ، وهو غـيـر مـدرك لانزعـاج ابنـه : " لا يمكننى التصريح باسم العائلة الآن ، مازالت المفاوضات فى مرحلة دقيقة " .

سأل "كيـچا" ، بصوت بدت فيه حـدة الغضب: "هل ورطت نفسك فى هذا الأمر يا أبى؟"

أجاب الوالد: " أوه، نعم، لقـد أعطيت كلمة شـرف فى هذا الأمر، تلك الأشياء تحـتاج وقتًا طويلاً لتـرتيبها، لأن هناك الكثـير من الوساطات والاتفاقات التى يجب القيام بها" .

سأل الابن: "إلى متى؟"

رد الوالد: "ليس قبل مرور ستة أقمـار جديدة تقريبًا، وربما أكثر من ذلك، لا يمكننى القول بالضبط فى هذه المرحلة".

قال الابن بهدوء قاتل: " يمكننى اختيـار زوجة لنفسى، يمكننى اختيار زوجتى، وبعدها أخبرك باختيارى".

حدق الأب فيه مأخوذًا !

قـال: " لا يمكن أن تكون مـختلفًـا عن الجـمـيع، لابد من أننى أب ضعيف حتى يمكنك أن تكلمنى هكذا".

أدرك الأب أنه تسـاهل مع ابنه، ذلك لأن تعـاملاتهـمـا كانت حـرة وسلسة أكثر من المباح اجتماعيًا؛ فـحتى ذلك التعامل المقتضب كان أكثر مما يسمح به أغـلب الآباء لأبنائهم، كان الآباء يرتبـون كل تفاصيل مـسـتـقبل أبنائهم، وفى اليوم المقدر، بالكاد يخبرونهم بأن على فلان أن يتزوج "علانة"، ولا مجال لقـول: " لا يمكننى العيش مع فلان أو فلانة، أو قـد تكون غير مناسبة لى" ، لذلك، عندما لاذ "كيجا" بالصمت، ابتسم والده فحسب، غاضًا الطرف عن الموضوع، وانشغل معه فى حديث حول أمور تافهة ،

بلغ "كـيجا" بالـتأكيـد سن الزواج، فقـد مر العـام الماضى بالمراسم الشعائرية التى تؤهله لدخول عالم الرجـولة، بصرف النظر عن الاختبارات التى تحملها أثناء المراسم، فقد حصل هو ومـجموعة الشباب من نفس سنه على التعليـمات المفصلة عن العـلاقات الجنسية بين الرجـال والنساء، وهى نادراً ما كانت خـاصة وشخصيـة، إلا أنها متأثرة بعدد ضـخم من القواعد الاجتمـاعية والمحرمات، إذا مـا خالف المحرمات على المستـوى الشخصى والخاص، فإن الموت، والمرض، وسوء الحظ الكبير سوف يقع على أسرته،

أما إذا خالف المحرمات على المستوى الاجتماعى، فإن الموت والكوارث سوف تقع على القبيلة، كانت هناك فترات عديدة فى حياة الإنسان تحرم فيها العلاقات الجنسية، غالبًا هذا التحريم كان يراعى على مستوى القبيلة، كما فى الفترة التى تسبق حصاد الغلال، وينتهى هذا التحريم فقط يوم احتفال الشكر بموسم الحصاد.

كانت هذه القواعد والمحرمات هى ذاتها لكل من الرجال والنساء، لكن المراسم التى تخص النساء، والتى مرت بها " تسلانى" فى العام الماضى أيضًا، كانت تعليماتها أكثر تعقيدًا بمراحل، كان يجب مراعاة التوازن الدقيق بين الدورة التناسلية للمرأة وبين سلامة القبيلة - ففى كل مرحلة تقريبًا من حياة المرأة يوجد مصدر خطر كامن على القبيلة ، تلقت النساء كلهن تعليمات دقيقة بالحيطة والحذر، ويجب أن يتبعنها بدقة - أوقات العادة الشهرية، والولادة، والإجهاض، وعدم التقيد بهذه المحرمات قد يجلب الأذى لحياة الحيوان، والمحاصيل، والجماعة.

هذا يوضح أن المجتمع لم يكن به مكان للناس الذين تجرفهم العواطف المفرطة ، فهناك منطق ونظام دقيق يكيف وينظم العلاقات بين الرجال والنساء جسديًا وعاطفيًا، وليس هناك من يتحدى النظام والترتيب القائم للأشياء؛ فإذا ما شعر الناس بأية تعاسة شخصية كانت تُكبح وتُكبت، وهكذا تواصل الجماعة استمرارها من يوم لآخر فى سلام وانسجام.

كما يفعل كل المحبين، بدآ حوارًا شخصيًا وعاطفيًا أقصى كل الحياة من حولهما، ربما كان قالب واتجاه علاقتهما هو ذاته لدى كل المحبين، مؤلم،

ومُخبل حيـال مطالب البداية الأولى غير المستـقرة، من يبحث عن من؟ لم يستطيـعا القول، ما عـدا أن الطرف الغربى البعـيد غيـر الملوث من النهر، حيـث تملأ النساء جـرار الماء، وحيث توجـد الغابات التى يجـمعن منـها الحطب، أصـبحت أراضى "كـيجا" المـفضلة للصـيد، توافـقت مواعـيد عملهما، فى ذلك الوقت، وكان قد تم بذر حبوب الحنطة توًا، "وتبطلت" النساء فى القـرية عن العمل إلى حين تتشرب البـذور المطر الكثيف ويرتفع النبات فى حقولهن، وتأتى فترة انشغالهن بعد ذلك عندما يقتلعن الأعشاب الضارة من بين حنطتهن.

كان "كيجا" يعود كل يوم إلى القرية بقرعات اللبن لعائلته، ولم يفت "تسلانى" طويلا إدراك أنه يتعـمد التأخير ويتلكأ فى منطقـة عملها إلى أن يلتقط بعض الومضات من عينيها. كانت دائمًا فى جمع من الفتيات اللاتى يتحـدثن بحبور، ذكـرى لقائهـما الأول غيـر المتوقع مازالت حـاضرة فى نفسـها، مثيـرة ومليئة بالحـوارات المدهشة غير المـتوقعة، حـتى إنها تاقت للاقتراب منه ، ذات أصيل، خرجت لجمع الحطب مع رفـيقاتها، لمحته بين الشجيرات البعيدة فاحتالت للتخلص من رفيقاتها، وبينما تمشى فى اتجاهه، كان قـد اقترب منهـا وأمسك كلتا يديـها فوراً ، لم تبـد أية بادرة لسحب يديها، ارتاحت يداها بين يديه كأنـهما تنتميان لراحـتيه ، مشيا مـسافة ثم توقف، وانعطف ليواجهها، ويخبرها بكل مـا يجول برأسه بطريقته المباشرة البسيطة ، فى هذه المرة لم يبتسم على الإطلاق.

قال: " أبى يرتب لزواجى بعـد مرور حوالى ستـة أقمـار جـديدة ، لا أريد ذلك ، أريد زوجة من اختيـارى، لكن كل الأشياء التى أريدها قد تسبب المتاعب فحسب".

سرحت ببصرها بعيدًا، ولم تعرف ماذا يجب عليها أن تقول ؟ لم يعطها والداها أية إشارة عن خططهما لمستقبلها، حقًا ليس لديها سبب للتفكير فى هذا المستقبل، لكنها لاتحب معظم شباب القرية، هؤلاء الشباب ذوى الوجوه الذليلة والكبرياء المصطنع ، كما لو كان المجتمع قد كسر إرادتهم بوسائل ضغطه وتقاليده القاسية، لقد أحبت كل شيء فى "كيچا" ، وشعرت بالأمان معه منذ ذلك الأصيل العاصف فى الكهف الكبير عندما قال لها: " يمكننا أن نحتمى معًا هنا من العاصفة" .

استمر فى الحديث وهو لا يزال ممسكًا بيديها: " أفكارى ليست معقدة، علىّ أن أعرف كيف رأيك حيال ما سأقوله؟ إننى أود أن أختارك زوجة لى، إذا لم تختارينى بدورك، فلن أتابع سعيى من أجل ما أريد، وعند ذلك قد أتزوج الزوجة التى اختارها والدى" .

استدارت وواجهته، تكلمت بفكر واضح أجفلها هى ذاتها،

قالت: "أنا لا أخشى شيئًا، لا المشاكل ولا المتاعب ولا حتى الموت، لكننى أحتاج بعض الوقت لأعرف ما أنويه" .

طوعًا، ترك يدها تفارق يده، وهكذا افترقا، ومضيا فى طريقيهما منفصلين ، من تلك اللحظة، وحتى اليوم التالى، عاشت " تسلانى" فى حالة انفعال، مشتتة الفكر، لا تستقر على فكرة ، غلبتها نوازع الحب ، فى ساعة الأصيل المعتادة ، داهمها المرض الشديد لحظة أن همت برفع الجرة ، شعرت بالضعف إلى حد الموت ، وأحست بوهن وعجز ذراعيها وقدميها ولم تتحمل ثقل الجرة التى كانت ترفع بها المياه،

استغاثت بـ"ما ـ منوسى" .

قالت: " أشعر بدوار ومرض اليوم لا أستطيع رفع الماء" .

كانت "ما- منوسى" سعيدة جداً لمجرد أن تضطلع بأعمالها، لكنها في الوقت ذاته تشاورت بقلق مع "ما - تسلانى" عن مرض الفتاة المفاجئ، بعد تفكير مترو، قررت "ما- تسلانى" أن مرض ابنتها ما هو إلا مرض يصيب أطراف الفتيات عندما يتسارع نموهن، قضت الأم ثلاثة أيام سعيدة في تطبيب ابنتها بمشروبات الأعشاب الساخنة، فلا شيء أحب إليها أكثر من التطبيب، مازال الاهتياج الجسدى يجتاح الفتاة بلا توقف وبعنف ، فقد كانت ترتعد بشدة من رأسها حتى أخمص قدميها في الليل، كان أمراً فظيعًا استسلامها التام لمدة يومين للصدمة، لم تكن أية فكرة هى التى دفعتها لمصارعة اليأس والوقوف على قدميها في اليوم الثالث، بل كانت الحاجة لتهدئة الكرب الذى تعانيه، أقنعت أمها و"ما - منوسى" بتحسنها الكافى وقدرتها على استئناف عملها في جمع الحطب، قرب الأصيل أسرعت إلى الغابات، وتجنبت بحرص رفيقاتها.

عند لقائها بـ " كيجا" ، رُدت إليها الروح، ورأت وجهه يحمل نظرة الكرب ذاته الذى تحسه، تكلم هو أولاً، قال: " شعرت بالمرض الشديد والاضطراب، لم أستطع فعل شيء سوى انتظار رؤيتك" .

جلسا على الأرض معًا، كانت منهكة بشدة من جراء يومى صراعها حتى أنها أسندت رأسها على ركبتيه، عاودها الفكر مرة أخرى، لكنها ابتسمت بطمأنينة، وقالت: " أريد أن أفكر" .

نهضت ببطء، ونظرت للشاب بعيون لامعة، قائلة: "شعرت بالمرض الشديد، واظبت أمى على إعطائى مشروبات الأعشاب، قالت من الطبيعى أن تشعر الواحدة منا بالإغماء والتشويش عندما تكبر، أعرف الآن ما الذى

جعلنى أشعر بالمرض؟!، إنه صراعى مع تربيتى التى علمتنى أن الناس ليسوا مهمين فى ذاتهم، لكنك فجأة أصبحت مهمًا بالنسبة لى ، لا أعرف كيف أخبر أمى بهذا، لا أعرف كيف أخبرها بأى شىء ، إنها طيبة وتولت تربيتى ورعايتى ، لقد خلت أننى سأفقد عقلى ، لذلك جئت لمقابلتك" .

منذ هذه اللحظة، وما تلاها، بهدوء وبمحض إرادتهما، تزوجا، راحا يدبران كيف ومتى يمكنهما أن يتقابلا؟ كان الشاب صاحب تدبير وعزم، عرف أنه وفقًا لعرف مجتمعه، كادت أن تبدأ فوضى رهيبة، لأن مجتمعه كان يتكل على أن الإنسان قليل الحيلة مغلوب على أمره ، هذا المجتمع لا يضع فى حسبانه القدرة الإنسانية على الابتداع والمبادرة، كل ما كان يحتاج إليه "كيچا" هو عهد الفتاة، ومنذ عرف به، أخذ على عاتقه المبادرة فى كل الأمور، كان يفاجئها ويسعدها منذ ذلك اليوم بتدبيره وبعد نظره، كأنه عرف أنها سوف تلقاه يومًا ما، وأنهما سيبقيان معًا فى مكان ما فى فرح من ممارستهما الحب، لذلك، عندما عبرت " تسلانى" عن تأخر الوقت، أشار هو، بابتسامة عريضة إلى حزمة كبيرة من الحطب بالقرب منهما كان قد جمعها لتحملها إلى البيت.

تلا ذلك فترة هدوء، عاشت القبيلة حياة كل يوم، جاهلة بالتمزق والغليان اللذين سوف يهاجمانها قريبًا، خرجت النساء مبكرًا للحقول، ينتزعن الأعشاب الضارة، منصرفات لخدمة ورعاية محاصيلهن، بينهن "تسلانى" ، جنبًا إلى جنب مع "ماـ منوسى" مثلما اعتادت أن تفعل دائمًا، لم يكن هنالك أية إشارة عن الحياة السرية التى تعيشها الآن؛ إذا كان من شىء، فهو أنها تعمل بجد أكثر ورضا كبير، كانت تضحك وتطلق النكات كالمعتاد مع "ماـ منوسى" ، إلا أن صوت الغريزة جعلها تكتم شئونها الخاصة.

عندما ارتفعت الحنطـة فـى الحقـول، وشارفت على النضج، أدركت "تسلانى" أنها حامل، الأمر الذى كـان سراً لا يمكن أن يبقى سراً للأبد ، لمـا أفضت بهذه الأخبـار لـ "لكيچا" ، كان سعيداً جداً، مـستحسنا إياها كجزء من التدابير التى وضعـها، لأنه كما قال لها فى ذلك الوقت: " أنا لا أدبر للموت عندما نكون سعداء ، ما أريده هو أن نعيش" .

كان جزءاً واحداً فقط من خطته هو المضمون ، طريق هروب آمن إلى خارج القرية وإلى حياة جديدة ومجهولة، سـوف يصنعانها لنفسيهما، لقد جعلا نفسـيهما خارج نظام التقـبل الموجود فى حياة القرية، فعـرض عليها خيـارين لتختار من بينهـما، الأول: يمكنهمـا ترك القرية فى أية لحظة دون إخبـار أى أحد بنواياهمـا، والعالم واسع رحب أمام الإنـسان، لقد سـافر لمسافات طويلة ، فى كلتا الحالتين، وحـده، ومع جماعة من الرجال، أثناء واجبات الصيد أو الرعى، وجد المنطقة آمنـة للسفر لمسافات معينة، وجلس حول النيران واستمع لحكايات عن الحروب والهاربين، وعن القبائل الأخرى المضيـافة التى تسـكن على مسافـات بعيـدة عن هنا، والتى لديهـا عادات مختلفة عما لديهم، لم يهمل " كيچا" كل هذا للحظة، فقد أعد ما سوف يحتاجانه لرحلتهما وخبأه فى مكان سرى.

كان الخيار الثانى ، أن يخبرا والديهما بحبهما ويسألونهما الموافقة على زواجهما، كان هذا هو الخيار الأصعب بالنسبة للعاشقين ، ولم يكن متأكداً من نتيجتـه ، هذا الاختيار كأنه دعوة للموت أو أسوأ، ومـازالت صعوبته ترشد إلى طريق الهروب من القرية، وهو لم يكن ينوى الموت.

كان الخيـار الأول سيكسر قلبى والديها، لذلك قـررت بعد تفكير أنه من الأفضل أن تخبـر والديها، اتفقا على إخـبار والديهما بحبـهما فى هذا اليوم، وبالموعد الذى يرغبان الزواج فيه.

قرب الغسق، وصلت " تسـلانى" إلى البيت بحزمة حطبـها، كانت أمها و"ماـ منوسى" جالستين فى فناء البيت، منشغلتين فى حديث هادىء، وضعت "تسلانى" حـزمتها، مقتربة من المرأتين، وجـثت بهدوء إلى جوار أمها، حولت الأم نظـــرها إليهـــا، متوقعة طلبًـا أو رسالة من صديقة، لم يكن هنالك من طريق أمام تسلانى سوى الإفصاح عن سرها مباشرة.

قالت: " أمى! إننى أنتظر طفلاً من ابن "ررا-كـيجا"، ونحن نرغب فى الزواج عند القمر القادم، نحن متحابان . . . "

للحظة، قطبت الأم، كأن كلمـات ابنتها غير مـفهومة، ارتعـد جسد "ماـ منوسى" عـدة مرات كـأنها مقـرورة ولاذت بصمت قـاتل، فى آخر الأمـر تكلمت "أم تسـلانى" بصـوت خـفـيض من بين أسنان مطبـقـة، وقالت: " اذهبى إلى كـوخك وأبقى فيـه، لا تبرحيـه لأى سبب إلا تحت إشـــراف "ماـ منوسى".

جلست "مـاـ تسـلانى" لبـعـض الوقت تحـملق فى الفـراغ، امـرأة محطمة، تداعت هيبتها، مملكتها، احترامها لذاتها، غرورها.

بعد وقت قـصير، دخل الزوج الفناء، كـان قد قضى يومًا ممتـعًا فى قصـر الزعيم مع بقـية الرجـال، ويرغب الآن فى العشـاء والانصراف إلى خلوة الليل، وكـان آخر شىء يرغب فـيـه هو الحديث مع النسـاء، لذلك عندما ظهرت زوجـته دون العشاء، نظر فى غضب، فسـرت الأمر بكل ما استطاعت من وقار، كانت منهارة تقريبًا من الصدمة، استمع غير مصدق، وفى اللحظة نفسها، أطلق صراخًا غاضبًا.

فى تلك اللحـظة، دخل والد "كـيـجـا"، نادى: "ررا-تسـلانى"، سمعت توًا من ابنى عن الإسـاءة التى ارتكبها فى حق أهل دارك، لكنه لا يرغب فى شىء أكثر من رغبتـه فى أن يتزوج ابنتك، أنا موافق إذا كان هذا سوف يخفف بعض إثمه".

رد والد تسلانى: "يا ررا-كيجـا، أنت تعرف أيضًا أن هذا الزواج لا يحقق منافع لعائلتك أو عائلتى،" ثم نهض واقفًا ومضى ضاربًا فى الظلام بانفعال شديد.

محطم الفؤاد، نهض والد "كيجا" أيضًا، ومضى خارجًا من الفناء.

كانت كلمـات زوجها هى التى نفضت عن "مـاـ تسلانى" غيبـوبتها ورثاءها لذاتها، أسرعت لمكان معيشتها، وأحضرت شالها الجلدى، وهمست ببعض الكلمات لـ "ماـ منوسى" عن مهمتها، جرت "ماـ منوسى" بسرعة فى الظلام خلف "ررا-كيـجا"، عندمـا أدركته همـست بعجلة: "ررا - كيجا"، ربما لا تعرفنى، لحقت بك لأننا نتقاسم هذه المصيبة التى ألمت بنا، هذا الأمر لن يبـقى سرًا، غـدًا سوف يكون على كل لسـان، لذلك أحثك على أن تفعل مثلمـا فعلت "ما - تسلانى"، وتقدم التـماسًا تدافع به عن ابنك، لقـد ذهبت "مـا - تسـلانى" إلى جناح الحـريم فى بيت الرئيس حيث إن لها عديدًا من الأصدقاء هناك ساعية لتسوية الأمر.

خففت كلمات "ماـ منوسى" عن قـلب الرجل العجوز المثقل، ووعد بإرسال أخباره إليها، ثم تحول ومشى فى اتجاه فناء الرئيس.

عادت "ماـ منوسى" مسرعة إلى فنائها.

قالت مـاـ منوسى بجدية : " تسـلانى، ليس أمرًا هينًا انتـهاك وكـسر الأعراف، سـوف تدفعين حـياتك بسبب ذلك، كـان يجب أن أحكى لك القصـة فى تلك الليلة التى ناقشنا فـيها العـادات، عندما كنت شـابة، كان عندنا حـالة مثل هذه، لكنهـا لم تصل إلى هذا المأزق الكبـير، كان شـابًا مغـرمًا بفتاة، وهى أيضًـا مغرمة به، رفـض الشاب الفتاة التى اخـتارها له أبواه، لم يستطيعا إثناءه عن موقـفه، لذلك قتلوه، لقد قتلوه، برغم أنه لم يمس الفتـاة، غير أن هناك أمرًا آخـر أريدك أن تعرفيه ، إننى صـديقتك ، وسـأدافع عنك حـتى الموت. لن يمسك إنسـان بضرر طالمـا أنـا على قيـد الحياة" .

عادت بينهما علاقة الألفة والتعاطف، تحدثتا عن علاقة الحب، كانت "ماـ منوسى" تمتص كل كلمة فى حبـور، بعد برهة دخلت "ماـ تسلانى" الفناء، كانت لا تزال غـاضبة بـشدة، فلم تكلم ابنتهـا، لكنهـا نادت على "ما - منوسى" ، وانتـحت بها جانبًا، وأعلمـتها أنها نجحـت فى الحصول على تأكيد وعهد من أصحاب المنزلة الرفيعة بألا يصيب ابنتها سوء.

وهكذا، بدأ أسـبوع احـتدام ثـورات الغضب؛ والمداولات البـربرية، كانت مشكـلة عائلية، وكانت مشكـلة عامة ، بوصفهـا مسألة عامـة فإنها سـوف تجلب الدمار والكوارث على القـبـيلة، فتـزايد السخط العـام، أبو تسلانى "وأم كيجا" ظهرا بمظهر أحمق حافل بالأخطاء، أعلن "ررا- تسلانى" بعناد أن الزواج لن يتم أبداً، كان يؤثر إطلاق الوعيد بالموت طوال الوقت، الأفعى التى كانت تأكل قلب "أم كيجا" ، ظـهرت أثناء ذلك والتهمت قلبها، كان يمكـن سماعـها وهى تتـوعدهمـا بالموت أيضًا، ثم هبط حـل غريب ومؤقت من أصحـاب المنزلة الرفيعة قـيل فيه إنه إذا ما أفلح العـاشقان فى

الخروج من القبيلة لعدد معين من الأيام، فإن هذا سوف يتيح خمود غضب العامة، حينئذ، سوف يبحث أمر زواج العاشقين.

كانت حالة الاضطراب العنيف التى شملت القبيلة مرعبة. يوم خرج "كيچا" من بيته، وسُمح له بالاقتراب من بيت "تسلانى"، انسحب الناس إلى داخل بيوتهم كأنهم لا يريدون أن يكونوا شهودًا لذلك المنظر المخيف، "ما- منوسى" فقط، هى التى أشرفت على تفاصيل الرحيل الأخيرة، ووقفت علانية تراقب الاتجاه الذى سيترك منه العاشقان القرية قرب حلول المساء، رأتهما يصعدان التل القريب من بيت "تسلانى"، عرفت "ما - تسلانى" التى كانت راقدة منهارة فى كوخها، تفاصيل ما جرى فى الخارج من "ما - منوسى".

قالت: "لم يكن الشاب أحمق، لقد اتخذ طريق التل، يعرف جيداً أن قمة التل هى الأفضل، الناس غاضبون وقد يفكر أحدهم فى مهاجمتهما، سوف يجد أى مهاجم المهمة صعبة، لأن الشاب قد يدفع الحجارة عليه قبل أن يقترب خطوة واحدة، إن ابنتنا آمنة تمامًا معه".

ثم تحولت القصة إلى طور مرعب، ساد التوتر عندما اقترب اليوم المفترض لعودة العاشقين لحياة القبيلة، مرت أيام ولم يعودا، أخيرًا، أرسلوا الفرق للبحث عنهما، لكنهما كانا قد اختفيا، حتى آثار أقدامهما لم تكن موجودة على سطح الصخور العارية والروابى "المعشوشية" على جانبى التل، فى أول الأمر عاد الباحثون ولم يقدموا أية أخبار عن ظواهر غير طبيعية، فقط دهشة محيرة، حينئذ، انقلب الاتزان العاطفى غير المستقر عند "ما - منوسى" إلى تشوش كامل، كانت تُرى سائرة متجهة ناحية التل وقد سحقتها الكارثة، عندما تصل إلى قاعدته تقف فى سكون ويمر أمام عينيها

مرة أخرى قـصة اختفاء العـاشقين، فى أول الأمر سمـعت أنات عالية لمن يعانى من الكرب، فكانت تجعل دماءها تتجمد، رأت "تسلانى" و"كيچا" بمجرد أن وضعا قـدميهما على التل، انفلقت الصخـور وانشقت عن فجوة ابتلعت العاشقين، وأطـبقت عليهما، وعندمـا كانت تنادى: "تسلانى . . كيچا"، كـانت روحاهما ترتفعان وتطفـوان سابحتين لـقمـة التل بعيون لا ترى.

عادت "ما ـ منوسى" إلى القـرية وحكت القصة المهيـبة والمقنعة عن كل الظواهر التى رأتها، حسب الناس أن يقال لهم: إن هذه الظواهر موجودة، ليبـدأوا جميـعًا فى رؤيتـهـا أيضًا، عندئذ، جُنت وذهلت "مـاـ تسلانى" لفقدها ابنتها ، صعدت التل ببطء وعيونها ملأها الحزن راقبت القصة تبعث من جديد أمامـها، عادت للبيت وماتت، منـذ ذلك الحين، اقترن هذا التل بقوى الشر والشؤم التى دمرت الحياة.

لم يعد المكان بُعدًا آمنًا لإقـامة القبيلة، جمـعوا ممتلكاتهم على ظهور حيواناتهم، دمروا القرية، وهاجروا إلى منطقة أكثر أمنًا.

هكذا ظلت المنطقة مهجورة إلى أن جاء عام ١٨٧٥، فعمرتها قبيلة " بماليت " ـ ورغم أنهم غـرباء عن المنطقة، إلا أنهم رأوا الـظواهر نفسـها، سمعوا الأنات العالية لمن وقع فـى كرب ، ورأوا روحىّ العاشقين الصامتين محلقـتين بالمكان ، ظلت الأسطورة حـية ، تتوارثـها الأجيـال جيـلا بعد جيل، واليوم يقف التل فى قرية "أوتسـا ، جنوب بتسوانا" ، شاهدًا على أسطورة الحب الخالدة ، وأصبح يطلق على تل ليـتسوى ـ " لبراتانى" . . تل العشاق .

المنفى

تأليف : "روز موس"

نعس "ستيفن كاتيلا " فى المقعد الخلفى للسيارة ، من حين لآخر كان يفتح عينيه ، فيجد نفسه يواجه رأسى الزوجين الأبيضين بشعرهما الأسود اللذين يصطحبانه إلى منزلهما ، بالأمس كان فى كلية أخرى يلقى محاضرة عن الموسيقى الإفريقية ، وقد استضافه زوجان أبيضان طيبان آخران ، واضطر للحديث معهما عن جنوب إفريقيا أيضاً، أغمض عينيه ، ظلت فكرة تنبض فى لاوعيه حدودها غير واضحة مثل حدود قطة فى كيس ، مثل جسده الضئيل عندما انسل أسفل سرير أمه وكان يظن أنه لا يمكن لأحد أن يراه بسبب العتمة تحت أغطيته المنسدلة، لعب أخوه معه فى الظلام عديم الشكل "لعبة المس واجرِ" ، ولعبة الاستخفاء بلا أية قواعد، إلى أن بدءا لعبة المصارعة ، وراحا يتلويان بسرعة كبيرة متدحرجين بعيداً عن السرير وقد تخطيا حدود المزاح ، عندئذ راحت أمهما تعنفهما ، بينما كانت تطعم طفلا آخر طبق "مهلبية" الذرة بيد واحدة، وباليد الأخرى تعمل الشاى وتقلب باقى "المهلبية" على الموقد، خرج ستيفن وأخوه للعب إلى أن تناديهما الأم للإفطار، تجاهلا أوامرها بأخذ الصابون والاغتسال تحت "طرمبة" المياه فى الفناء ، فقد كان الاغتسال أمرًا شاقًا للغاية فى ذلك الشتاء البارد ، ستظهر الأم بعد إطعام الطفل، ستضربهما وتعنفهما مرة أخرى ، ثم تقف تراقبهما يرغيان الصابون بالتبادل وتشاهد تلويهما عند "الطرمبة" وعندما يتم غسل آثار استكشافهما القصير حيث كانا يحركان

رماد الفرن بحثا عن الفحم ، وقد تلطخا بالسناج ، كأنهما كانا ينقبان فى النفاية بالشارع ـ ستضمهما إلى الحضن الدافئ للحجرة ، كان تَذكُره لرائحة نيران الصباح الباكر ، والسديم الرمادى الضارب للزرقة فى البلدة، هذه الذكرى كانت مثل وخز لاسع، أو غازٍ سام فى ذاكرة "ستيفن" ، فتح عينيه مرة أخرى ليملأهما بالصورة "السلويت" للاثنين الجالسين أمامه ، الزوجين الأبيضين وهما يقودان السيارة إلى البيت خلال الضباب الكثيف ، حتى بدت مصابيح السيارة الأمامية باهتة ومصمتة وقريبة من السيارة .

كان الطريق يتلوى ، ويعلو وينخفض ، لقد انتهوا من الطريق الرئيسى بسلاسة و انسيابية من "فرچينا" حتى "مين" ، وذلك جعل "ستيڤن" يشعر كأن كل جولة محاضرته ما هى إلا هذيان، وأن المسافة ليست أكثر من حلم ، والمشاهد التى تكرر النماذج الاستحواذية ذاتها، تلك التى توالت وراء بعضها البعض بحدة وإن اختلفت خلفياتها فحسب، كانت مثل مسرح فقير، فقد كانت كل الطرق متشابهة ، الاختلاف الوحيد كان فى ترتيب اللافتات السطحية ، والمعابر الفوقية ، وركام الحشائش المُسيجة للأسوار ، والأشجار التى سلمت بالتدريج وعلى مضض مكانها لتكتل المبانى الرمادية ، حيث كانت الضواحى منذ زمن بعيد قد حاصرت الرداء الأخضر الذى يشبه الريف ، أخيرًا ، بعيدًا عن الطريق ، ظهر مدق ترابى ولف الطريق مجموعة من الحقول والجداول الممتدة ، كأنها سحبت إلى أقصى حد وانفردت على الأرض المستوية، وحزمت بكثافة الوديان فى انحدارها وصعودها ، كان الضباب كثيفًا جدًا حتى تعذر عليه رؤية النباتات، من أمواج الطريق الطويلة المتراقصة ، خُيل إليه أنه عاد إلى الامتداد الواقع بين نهر "موىٌ" ومدينة "بيتر مارتيز" ، حيث كان الضباب

المتناثر يغـذى الأرض، والماشيـة تكثف البيـاض الوهمى وتحوله إلـى مادة صالحة للأكل لأولئك الأغنياء القادرين على شرائها .

لكن من حين لآخر ، كان يشد عينيه الطريق واقتحام أوراق الشجر ، والحواجز غير المستوية للأسيجة الخشبية ، أو الكريات الحجرية الصغيرة غير المنتظمة للحوائط ، وتلك الأشـكال والألوان الأجنبية ، كل تلك الأشكال والألوان الأجنبية ذكرت "ستيڤن" بأن هذا ليس طريق "ناتال" ، وأنه بمكان ما فى "نيوإنجلند" ، ذاهبًا لقـضاء الليلة فى بيت غريب بين غرباء ، هذه المناظر كأنها عناصر غريبة تُكَفِّت نسيج كل ما كان قد رآه وعاشه ، ركبت إلى مقومات نفسه كانت تحفز مقاومته ، كل شىء يذكره بأنه ليس فى وطنه كان يزيد من تحفزه فيما يشبـه حالة الرفض، فجسمه، وقدرته على الفهـم، والتركيب الكيميائى لـكينونته، كل ذلك وَسَم هذه العناصر الأجنبية، ومنع تسربها الخـبيث إلى نفسه، كى يسـهل عليه التخلص منها كـجلد أو عضو غريب، كى يسهل عليه طرد كل ما هو أجنبى مسموم، أغلق عينيه، حاول تهدئة نفسه ، لن يترك نفسه للاعتقاد بأنه إذا لم يتعلم كيف يتمثل أمريكا، فلن يكون ثمة شىء آخـر يفهمـه، ولا مكان يستطيع أن يستـعيد فـيه هذه الذات الحـائرة، التى يشعـر أنها ذاته، فلـيس هناك مكان يمكنه أن يتذكـره ويحس بأنه ملكه إلا وكـان يتضاءل، فكـر فى أخيه ولعـبة كـرة القدم فى الحقل المتـرب حيث اعتادا أن يـلعبا عندما كـانت أمهمـا تذهب إلى مدينة البيض، حاملة الطفل وصـرة الملاءات المطبقة المغسولة، حـيث كانت تعمل إلى أن يهبط الليل، كيف برز هذا الموضوع أمامه الآن؟

كان مضيفه مؤلفًا موسيقيًا أيضًا، وقد استمع "ستيڤن" إلى رباعية من تأليفه، عُزفت فى إحدى الكليات حيث كان "ستيڤن" يساهم فى ندوة عن

الموسيقى الحديثة، كانت هناك محاضرات وورش عمل أثناء النهار، وفى المساء الحفل الموسيقى، وكانت الرباعية الوترية لـ"كين رادلى" يستشهد بها كنموذج من بين بعض أفضل نماذج التأليف الموسيقى فى الولايات المتحدة، وقد عُزفت لتعطى المستمع درسًا لما سيجده من صعوبة فى تناول مثل هذه المؤلفات، أما من وجهة نظر ستيڤن، فهى رباعية غير ذكية، ضعيفة ومملة، لكنه أرجع عدم استجابته إلى جهله، كانت رباعية "كين" مثل يافطة من اليفط الإرشادية الكبيرة ، أو لوحة إعلانات على الطريق، تقول له: "نحن لا نتحدث إليك، نحن لم نكتب بلغتك، وليس لديك شىء تقوله لنا".

أبطأت العربة، وانعطفت نحو درب خاص، ها هم أولاء قد وصلوا، أعلنت "جانيت" مبتسمة: "ها نحن أولاء قد وصلنا" ، كان منزلها، ابتسم "ستيڤن"، كانا غاية فى اللطف معه ، فتح "كين" الباب، فتوهج نور الممر الأصفر الشاحب على الدرجات الرطبة، فى الداخل كان الضوء أشد.

اقترح كين: "لِمَ لا نغتسل ونحتسى كأسا أثناء إعداد "جانيت" للعشاء ؟ سوف أريك حجرتك" .. وحمل حقيبة "ستيفن" التى كان قد أحضرها بالفعل من السيارة، تساءل "ستيفن" فى نفسه: هل من الصواب ترك "كين" يحمل حقيبة سفره، أم أنه يشعر بعدم الراحة لأن "كين" رجل أبيض ؟ " ثم قال: "سأحملها،" وأمسك بمقبض الحقيبة، تركه "كين" يحملها، ورفع حقيبة أخرى، ثم قاده إلى سلم مكسو بالسجاد، وأشار إلى الحمام، ثم أطل برأسه من مدخل حجرة عند نهاية الممر: "هذه حجرتك، أراك بالطابق الأسفل" .. وبابتسامة سريعة، أوحى بثقته فى أن "ستيڤن" يمكنه تدبر أمره، إنه بالفعل يستطيع تدبر أمره، فقد قام بذلك من قبل، أمسك بأصغر المنشفتين، اللتين كانتا موضوعتين على طرف السرير بعناية كبيرة،

وبقطعة الصابون التى مازالت فى غلافها، ومضى إلى الحمام، فى الحمام حوض عتيق الطراز من النوع الذى يوجد فى المنازل القديمة، ووضعت فروة خروف ممشطة على الأرضية، ومن فوق الحوض رف عليه منفضة السجائر، وقصتان بوليسيتان، و"فازة" صغيرة مدهونة بألوان زاهية بها ورود الزنبق، كل ذلك الترتيب أوحى بأن "كين" و "چانيت" لا يتوقعان أى سلوك فوضوى فى هذا المكان.

عندما عاد إلى الغرفة التى أعطوه إياها، لاحظ "ستيڤن" أشياء تخص حياة شخص آخر، طفولة لا يمكن تخيلها، حياة مختلفة عن الحياة التى كانت تحيط بطفولته، خلف السرير علقت صورة مرسومة لشاطئ، كان البحر فى الصورة أزرق هادئًا بلا تموجات، وعلى صفحته خطوط خارجية سوداء ليخت مبحر، وعلى اليخت سمكة ضخمة بريئة، تبدو من صورتها الجانبية ساكنة وبلا حراك، وبين السمكة والرمل الأصفر والأرجوانى علاقة رمزية، على حين أوحت الخربشات الخضراء بوجود الحشائش، فى خزانة كتب قصيرة تحت النافذة، وضعت كتب أطفال عن القواقع والطيور، وقصص المغامرات، وقاموس وبستر المصور، وميكروسكوب تحت غطاء بلاستيكى، كل ذلك أشار إلى طور آخر من حياة طفل أمريكى، كان هذا الطور الحديث ظاهرًا قرب التسريحة، حيث يوجد ملصق لـ"همفرى بوجارت" متجاهلاً علم الجامعة المثلث وصورة الشخص الغريب التى ظهرت فى المرآة.

جلس "ستيڤن" على طرف السرير، تحسس ركبتيه براحتى يديه، إن كل حياته، التى لا يستطيع التنكر لها، طفولته خاصة، كانت تدور فى إطار قطعة الأرض الترابية، ومدرسة الإرسالية الترابية، وحول شطارته وحذقه

كى يكون "مسلوعًا" مثل "توتسى" الذى كان يرتدى بنطلونًا ضيقًا ويحمل المطاوى، وقد سُخِرَ منه كبعوضة عندما راح يعزف على الصفارة الرخيصة عند تواصى الشوارع، يسأل بنسًا أو تيكيه أو نصف شلن، نزل للطابق السفلى من أجل الشراب.

كانت "چانيت" منشغلة فى المطبخ الذى يفصله عن حجرة الطعام والمعيشة نضد خشبى طويل، لاحظ أنها تلبس سلسلة بتلك الحبات الرمادية التى تعتبرها النساء البيضاوات فى جنوب إفريقيا غير جميلة، بينما كانت هذه السلاسل هنا، هى المفضلة لدى زوجات أساتذة الجامعة مثل "چانيت"، ولدى الطالبات من البيوت الراقية.

شيء طيب وجميل أن تجلس فى نفس الحجرة التى تعد المرأة فيها الطعام، عرض عليها المساعدة : "هل لديك بعض الخضراوات تحتاج للتقشير؟"، فى أمريكا لا مشكلة فى أن تساعد المرأة.

ضحكت: " إن كل شئ قد أصبح جاهزًا ومقطعًا لشرائح ومجمداً. أمريكيًا صرفًا، "حلت مئزرها وعلقته على المشجب.. "هيا، تعال واحتسى كأسا".

كم كان عرضها تقديم كأسٍ له تصرفًا طبيعيًا ، كم كان عادياً أن توجد وحدها مع رجل أسود فى جنوب إفريقيا، عندما تعرض عليه النساء البيضاوات كأسًا، فإن عليه أن يتوخى الحذر، حتى فى الحفلات المختلطة، كان يحس أن صمام أمنه يقظ مثل حد السيف، كان من عادته أن يشرب كأسًا من " ليكور البراندى" بعد عشاء اللحم بالنبيذ مع "سنثيا " أثناء حديث هادئ وظلمة، استيقظ يومًا وقلبه يخفق بشدة على قرع البوليس الباب بعنف، ووقف أخوه باكيًا شاحبًا، فقد اعتقل البوليس

"ديڤيد ميسنج" مع امرأة بيضاء، واكتشفوا أنه موسيقا ، فخرقوا طبلتى أذنيه . . على سبيل المزاح، بعد ذلك الحادث لم يعد يزور "سنثيا" وحده قط، وعلى التليفون كانت تقول: " بحق الله ، لا تشرح، ليس هناك ما يقال، إذا أردت ألا تأت، فلا تأت، أنت لست مدينًا لى بشىء. إننى لست امرأتك البيضاء." لم تدعه قط يخبرها بما وقع لـ "ديڤيد ميسنج".

فى نيويورك، زار المجموعات المختلطة التى أخبره عنها "أندرو موهان" وهم الجنوب أفارقة الذين رحلوا بعد "كينج كونج"، وبعد "شاربفيل"، وبعد "مانديلا"، وبعد "ساباكو"، وبعد موجات الاعتقال تحت مظلة قوانين الشغب، وبعد "فورستر"، حصلوا على منح دراسية، وعلى تصاريح مغادرة، وجوازات سفر، وأموال العائلة، وتقابلوا جميعا هنا، فى الأحزاب المختلطة، فقد يمكنهم استعادة المخاطرة والإثارة القديمة، كرروا مظاهر التمرد، التى هى هنا لا تعنى أى تمرد، وعرفوا مرة أخرى أنهم وحدهم شجعان وأحرار، كان فى هذه الأحزاب مجموعة من الأمريكان البيض : صحفيين شباب ، مدرسين من جامعة كولومبيا (تبع المدرسة الحرة)، رجال كنيسة فى صحبة معارف من إرسالياتهم - تجمع متنوع من البشر، ذاك الذى يشبه الجنوب أفارقة ذاتهم، فمنذ أجيال اتضح أن المشترك بينهم قليل، فيما عدا ما يشير إلى المنبت الجغرافى، فى الساعة الثانية ظهرًا، كانت الأحزاب تنقسم إلى حزبين توءمين متشابهين تماماً، واحد أسود، وآخر أبيض، لو كانت هذه التركيبة فى جنوب إفريقية لاستمرت آلة الفرز طوال الليل، أما هنا فهذه الأحزاب المختلطة تفتقد لتدخل البوليس.

مرة أو مـرتين وصل انفصـاليون من السـود بدلاً من البيـض، كانوا يلقون على ستيڤن تعليقـات مثل: " أرى أنك من إفريقيا، وجهك غاية فى الإباء" ، لم يسمعوا قط مـوسيقاه، إن حياة الأحـزاب المختلطة رخية، فى أول الأمر ، سأله العـجوز الجنوب إفريقى عن الأخبـار، والقيل والقال : "هل تعرف ديانا زند برج ؟. . . ما الذى تفعله الآن ؟

ألم تتـزوج من رجل إنجليـزى؟ أظن أنهـا تزوجت من رجل خـريج "أوكسفورد" ، رجل ما يسد حـاجاتها، لعلها على الساحل الغربى الآن، أم بقيت فى جنوب إفريقيا ؟".

قلة من الناس كانوا يعرفون "سنثيا بارتون"، وسألوا إن كان يعرفها

" أجل، أعتقد أنها مازالت فى جوهانسبرج"

"هاى، إننى مازلت أفتقد البلاد، حسنا، كانت "سنثيا" حكاية كبيرة ، على الرغم من أنها ماتت موتًا روحـيًا بطيئًا، حقًا لقد كـانت فتاة رائعة ! ياليتها كانت معنا هنا . . "

سأل ستيڤن : " لِمَ ؟ لماذا يتمنى أى أحد ذلك؟"

كان يتخيل تلك المجـموعات فى نيويورك ، المجموعـات التى أسسها البـيض من الروس ، والصرب ، والفـوضويـين الأسبـان ، والفلسطينيين العرب ، والغـينيين ، والتشيك، كلـهم منفيون، الجـميع يموتون كل يوم، وحين ينفد أوكسـجينه هو أيضًا ، فإنه سـوف يستطيب الإشاعات المتـفرقة الضئيلة عن جنوب إفريقيا، وعن الناس من جـيله، ويصبح منفيًا مرتاحًا، خليـة ما فى نسـيج المنفيين والمواطنين العـالميين، الذى قد أصـبح من الآن مقبولا عضويًا فيها، ومتممًا لعمليات "الأيض" داخل الجسم الأمريكى.

دخل " كين " من حجرة أخرى، قال موجها حديثه إلى جانيت :
" وصلت برقية من "كريستوفر"، يقول : إنه سيتوقف بالبيت فى طريقه إلى نيويورك" .

" حسنًا ، متى سيكون ذلك ؟"

" فى أية لحظة ".

راحت تفسر الموقف "لستيڤن" : " ابننا "كريستوفر". لقد كان يصطاف فى خليج "هدسون"، يقول : إن هناك بعض الطحالب المثيرة للاهتمام، " وابتسمت بحنان ٠٠ وحب.

ألحت على "ستيڤن" ضآلة تلك الحيوات التى كان يراقبها فى وسط النهر، لم يترك شيئًا لفضائه ألبتة، ضياء الشمس الفسيح غير المترف الذى تعلم من خلاله أن يطالع العالم، أما هنا فكان الوجود مركبًا من دراسات منفصلة مقسمة إلى ميادين متخصصة، كل إنسان كان يعرف موضوع تخصصه، ويلاحظ بدقة علاقاته المتداخلة وبنياته، وحساب تعقيداته التى سبق وعرفها الآخرون ، فى جنوب إفريقيا ألف موسيقى بدت الآن مثل طفل، ألف مع ذلك ما يجعل الصوت البسيط يتدفق من قلب إنسان آخر، قلب لم تُحجب بصيرته النفاذة المتحررة التى تستوعب المعرفة المتعذر توصيلها ، هناك كانت رسائله واضحة محددة ، كان مؤلفًا موسيقيًا متمرسًا، وهو الحجة فى موسيقى الجنوب الإفريقى ، لقد أصبح هنا تحفة مخصصة للفضوليين، المؤلف الموسيقى ـ المتحدث بلغة سرية ، وبناءً على هذا، فهو هنا مؤلف موسيقى ليس لأى أذن سوى أذنه، كلما طالت إقامته هنا، صارت موسيقاه أكثر سريةً، فهى لا بدمن أن تلقح ذاتها لتبتعد عن تلك الثروة الدخيلة التى من المفترض أن تعطيها قيمة، ولم يكن بمقدور موسيقاه

أن تتزاوج مـرة أخرى مع أصوات حيـاته اليوميـة، التى هى الآن أمريكيـة تلك الحياة التى تسـتولد لغة نابية على صوته، وأسلوبًا جـديدًا دخيلاً على فنه، وبعد ذلك سـوف يفقد مسـتمعيـه الغائبين فى جنوب إفريقـيا الذين، حين كانوا يسـتمـعون إلى موسـيقاه، كـانوا يظنون أن الأرض تغنى، وأن حشـرات الحصاد الشفـافة تردد جميـعًا موسـيقاه، ولم يعرفـوا أن أرضهم الفريدة، ما هى إلا هضبة غريبة، وأن ليلهم ناءٍ عن ليل الآخرين.

كل واحـد من هؤلاء الأمريكيين بمعـرفتـه الدقيـقة، شكل خليـة فى مجتمعه المعقد، هذا المجتمع تتحرك حياته بشكل مختلف عن حياة "ستيڤن"، هدفـه شيء ما لا يعـرفه، ولا يمكنه تبنيـه دون تدميـر نفسـه، إذا لم يتبن أهداف هذا المجتمع، فـإن أمريكا ستتخلص منه، مثل دخـيل، مثل جسم غريـب، مثل خليـة أو عضو عـاش على أسس ومـبادىء بعض الأجـسام الأخرى التى ولدت وعاشت تحت الصليب الجنوبى.

انبعث شيء من شعور الوحدة الذى انتاب "ستيفن" ووصل چانيت، حثـها ذلك على التلطـف والكياسة التـى تتطلب الانصراف عن مـوضوع المحادثة إلى اهتمامات ضيفهـا، أرجأت موضوع "كريستوفر" وخطابه إلى وقت آخر، إلى ذلك الحـوار الزوجى الذى يحمل سـمت الخصوصـية بين الرجل وعائلته، سوف تبحث مسألة "كـريستوفر" فى وقت آخر وبلغة أخرى، فشعر "سـتيڤن" أنه منع من التسرب لحياتهم كـأن هواء الحياة منع عنه فى أثناء احتسائهم "الجين" و "التونيك" بقطع الليمون وهو مشروب لم يعرفه فى جنوب إفريقيا، ولا حتى فى الأحزاب المختلطة فى "هوتين" و "نورث كليف"، وبالتأكـيد ليس فى الخـمارات الرخيـصة على الإطلاق، وصلت أخيرًا إلى السؤال الذى يسأله كل هؤلاء الأمريكان اللطفاء، المتعاطفين.

" ألن تعود ؟ "

" ليس بمقـدورى ، فقـد خرجت بطريقـة غيـر قانونيـة، دون جواز سفر، إننى لاجئ"

" أتعنى أنهم لن يمنحـوك جـواز سفـر، باللـه عليـك ، ما الذى يمنع ذلك ؟

" لأن لهم بعض التـجـارب السـيئـة مع الناس الذين هربـوا وقامـوا بالدعاية ضد الحكومة ، فنحن الأفارقة نتحدث كثيراً هنا"

لم يشرب "كين" كأسه: "وهل تكلمت كثيرا؟"

" إننى فى جولة محاضرات" ، وضحكوا،

تابع "كين" ، لكن موضوعك ليس تحريضيا" ،

" حقًا، لكننى أسبب بعض التخريب فى المحادثات العادية مثل هذه، ومن ثم ، فأكثـرية الأفريكان، خاصة هؤلاء الذين يتـعاملون مع حالاتنا، جهلة، إنهم يخشون أناسا مثلى ، لأننى كافيرى غير عادى"

أرادت "جانيت" أن تعرف.. " كيف هربت ؟ "

" أوه ، ثمة طرق سرية ، ومراكز للاجئين فى دار السلام" .

" هل ستعود إلى هناك ؟ "

" لا أعرف ما سيحدث" ، بعد أن تكلم، سمع العجز الواضح الذى كشف عنه حديثه ، وسمعه "كين" أيضا.

" لماذا تريد العودة لجنوب إفريقيا ؟ "

" لا أريد "، لكن "كين" تجاهل هذه الإجابة ، فكان صمته شديد الوطأة على "ستيڤن" ، مثل إحساس باليقظة يقتحم النوم ويكسر إهابه ، واصل "ستيڤن" كلامه مثل النائم حين يتكلم قبل أن يتخلص من نعاسه، فيتحدث بصدق مثلما يتحدث فى الحلم.

" إننى غير قادر على العمل هنا ، أقول لنفسى سأعمل غدا، أو فى الأسبوع القادم ، لكننى لا أستطيع، أؤلف الموسيقى ، لكنها كلها مزيفة ، لا أحتمل سماعها ، أعتقد أننى غير قادر على كتابة الموسيقى خارج جنوب إفريقيا" .

" إذن يجب أن تعود" لقد ذكر "كين" الحقيقة التى يخشاها ستيفن، وقد حملها بكل الحقيقة السمعية للهجة الأمريكية فى ثبات وعزم ودون أى التواء ، بطريقة لم تكن تخطر على بال "ستيڤن" قط، وظل هذا الصوت الذى يشبه الأرضية الغليظة المتكررة للحن الباساكليا(٥١) يتردد فى نفسه ومشاعره لأسابيع دون انقطاع ،

كرر "ستيڤن" : " لا أستطيع " ،

لم يقل "كين وچانيت" شيئا ،

" إذا عدت سوف أسجن لمدة عام ـ وهو ليس سجنًا لطيفًا مريحًا حيث يمكن للناس أن يكتبوا ذكرياتهم ، بل سوف أكون فى سجن جنوب إفريقى ، حيث يضرب الناس ويعذبون حتى يفقدوا عقولهم، لقد كنت بالسجن من قبل ، المذنب العابر، يركل فى كل مكان من جسده ، وأحيانا

(٥١) الباساكليا ، أو البساجليا ، لحن إيطالى أو أسبانى راقص ، واسم رقصة تؤدى على هذا اللحن أيضا .

يُرسل للعـمل بمزارع البطاطس، حيث يرتدى "شـوال" البطـاطس صيـفًا وشتـاءً ، وفى أحيـان أخرى يُضرب لأنه لـم يعمل جديًا بما يكـفى، لقد خـرقوا طبلتـى أذن صديقى لأنه مـوسـيقى، وبعض الـناس ضُربوا حـتى الموت، فى السـجن يضعون كل عـشرة رجـال فى زنزانة، ويعطونهم دلوًا لقضاء الحـاجة، يمتلئ قبل الصباح بوقت طويل، لا توجـد أسرة، ويحاول السجين الذى ينام على الأرض، أن ينام بعيدًا عن الدلو قدر الإمكان، وأنا لست سجينا عابرًا ، ولا أتوقع مثل هذه المعاملة الحسنة، لا أتوقع أن أكتب الكثير من الموسيقى فى السجن" .

"إذن عليك أن تتعلم كيف تكتب هنا"

نفث "ستيڤن" من غيظه . . "كيف ؟ كيف يمكن أن أتعلم شيئا كهذا ؟" ، هؤلاء الأمريكيـون يعتقدون أنهم قـادرون على حل كل شىء، ليس لديهم أدنى تقدير لثقل الصـخور، للأشياء شديدة العـمق التى لا يستطيع الإنسان تحملها.

" لا أعـرف أظن أن الكلام أسـهل من الفـعل، على أية حـال أعط نفسك فسحـة من الوقت لتسمع ما تعزفه هذه البلاد. فربما تكـون محتاجا للوقت فقط" .

أثنت عليـه "چـانيت" : " أجل، برغم كل شىء، لم يمر عـليك هنا وقت طويل" .

تعاطفهمـا غير محتمل زاد من غيظ "ستـيڤن" ، أريد أن أكتب بلغتى الخاصة، وذلك غيـر مسموح به فى جنوب إفريقيا، فـالإفريقى عليه إما أن يتحـدث الإنجليزية أو الإفريكانية، والمؤلـف الموسيقى عليه أن يتـعلم قالب

"السوناتا" وآلات "الأوركسترا" الأوربى، فهم من سنؤلف لهم، لدينا فى "ليسوتو" ـ قوس ووتر، وقرعة تعمل كصندوق مصوت، يُعزف عليها نغمتان فقط . والعازف عليها يسمعها بصعوبة، إنها تشبه الهمس، تشبه العاشق، فى ذلك العالم بالغ الهدوء ، يوجد مكان لمثل هذه الآلة، فليس هناك سوى الجبال، وطريق واحد سئ، هذا الطريق تتجنبه السيارات، ومن النادر وجود أجهزة الراديو لدى الناس، كل ما ينتجونه هو صوت هذه القرعة، صوت مثل الأرض، مثل ضوء الشمس، مثل أن تكون فقيراً، وأن تكون أسود ، لا يمكنك سماع هذه الآلة فى "جوهانسبرج" ، فسماعها سواء لدى الأفارقة الأغنياء أو الفقراء ، يُعدّ ذنبا كبيراً، هذا القوس ، وهذه القرعة يقولان ما أريد ـ لكن أين يمكننى العزف على شىء مثل هذا فى أمريكا ؟ لا أحد سيسمعها، كل شىء هنا صاخب ـ السيارات ، أجهزة الراديو ، عربات الإطفاء، والطائرات، لا يمكننى سماع أى شىء إنسانى . . أى شىء حى، وحتى إن سمع أحد قوسى وقرعتى، ماذا سيفهمون منها ؟ نغمتان تترددان مرارا وتكرارا فى رتابة شديدة ، تشبه إلى حد ما . . المخدر، " ابتسم عند ذكر هذه الكلمة المذمومة فى الإطراء ، كأنه ينتصر على الحساسية الأخلاقية لاستعمالها، "إننى أنفث عن غضبى، لكننى لست غاضباً على الأمريكيين لكونهم على ما هم عليه. ، هذا ما تربوا عليه. كأن هذه التربية داء عضال ، تماما مثلما تكون إفريقيًا، لكن إفريقيا عند الطرف الأخر من العالم، ومن الصعب علىّ أن أكتسب هوية جديدة مثل طفل، أنا لا أبدأ من فراغ، لأننى رجل تكونت هويته بالفعل" .

"كين" و"چانيت" أُحرجا من هذا الجيشان العاطفى ، فقد اعتادا عدم التورط مع الغرباء، خاصة الغرباء الذين تزيد مشاكلهم الغير قابلة للحل الحزن ، وليس للشفقة أية قدرة على المداواة ـ تدريب متجذر فى

عادات الأسلاف الذين عرفوا أن الضعيف يجب أن يحمى أحيانًا بالتجاهل المتعمد ، وحيث لا يجب الإشارة إلى الاغتصاب ، والظلام ، أو المال أمام النساء ـ الرواقية التقليدية التى لا تذرف الدمع ، والاحتفاظ بالمتاعب للنفس ، وصر المشاكل حول البطون ، لكى يبقى الرجال صامدين .. كل ذلك جعلهما ينصرفان عن متابعة سؤال ستيڤن .

تحدث «كين» أولا: "أتمنى أن تحصل على المميزات الخاصة بجولة الحفلات الموسيقية فى هذه الأنحاء، سوف يكون هناك بعض الحفلات الموسيقية المشوقة فى نيويورك هذا الخريف، وأشياء أخرى أيضًا، لقد حصلت على البرامج من كلية " هنتر" ، سوف أبحث عنها بعد العشاء، ستكون فى نيويورك، أليس كذلك؟ "

" بلى ". لم يرغب "ستيڤن" فى إخباره بأنه حصل على نسخته من برنامج الحفلات ، ودعواته،

" وقد حصلُت على برامج مركز "لنكولن" ، وتذاكر مجانية لحفلات كثيرة . . . "

تخيل "ستيڤن" كيف تم حل مشاكل "كريستوفر" وهو صبى باصطناع الحيلة المناسبة، إلى أن كبر وأصبح شابًا، ليس رجلاً بمعنى الكلمة، فهو لم يُقحم فى خبرات إنسانية عنيفة ، لذلك أصبح خبيرًا فى الطحالب.

عاد "كريستوفر" إلى البيت فى تلك الليلة، سمع "ستيڤن" بوصوله، من ضجة الترحيب والاستفسار عن الضيف الذى كان ينام فى غرفته، قال "كين" بلكنته الأمريكية دون أن يهتز صوته: " إذن لابد من أن ترجع" ، وغاصت المقاطع الترحيبية المتقطعة فى جمل طويلة غير واضحة، بينما كان

"ستيـڤن" يحاول أن يصهر فى إذنه، إيقاع الحـديث العائلى الذى أيقظه ، بالموضوع الذى كـان يصارع ليـشق طريقه إليه أثناء الـقيادة فى الضـباب، أنشـودة اللعب مع أخـيـه فى الصبـاح، لكنه لم يـقدر على تحـقـيق هذا الاندماج، واستغرق فى النوم مرة أخرى .

تقابل مع "كريستوفر" على مائدة الإفطار ، قدمه "كين" إلى الشاب شديد النحافة : " إن "ستيف" سيقدم بحثًا عن الموسيقى الإفريقية بـ "قاعة فينمور" بعد الظهيرة، وسيذهب إلى نيويورك غداً " .

قال "ستيڤن" بتردد: " أظن أننى أحتل حجرتك " ،

رد "كريستوفر" مؤكداً : " إننى أتوقف هنا فحسب ، أنا أيضا سوف أذهب إلى "نيويورك" .

اقترح «كـيـن» : " يستطيع "كريس" توصيلك، إلا إذا كنت مـسافرا بالطائرة . . . "

أثناء تناول الطعام بدت على "كريستوفر" ملامح الجدية، فقد كان يحكى حكايات صيـفه وهو يمد يده إلى الزبد أو التوست على المـائدة المعـروفة له جيداً، تحـدث عما أنجزته بعـثته: "لقد جـمعنا مئات من العـينات التى قد تكون جديدة، أمـى. . . !! ، إلى أى حد ترغبين فى أن يسـمى الطحلب المكتشف على اسمك ؟ "

ردت الأم مازحة: " يجب أن أراه أولا "

لقد أحضرت بعض الـشرائح عنه، هل أنتِ حرة الليلة ؟ هل يمكنكِ إلقاء نظرة عليه؟ "

" لقد انتظرتك طوال الصيف كى تساعـد أباك فى تفريغ القبو" . . . أعادته چانيت إلى البرنامج الخاص باليوم.

وافق "كريستوڤر "حتى قبل أن يتمكن "كيـن" من الاعتراض: "حسنًا ، سيكون ذلك أمرًا عظيمًا . "

تساءل "ستيـڤن" هل سيرحـبان بمساعدته لهـما، أم سيعـتبران ذلك تطفـلاً، لا ، لابد من أن يعمل فى مـوضوعـه الأساسى ، حـتى وإن لـم يصل لشىء فيه.

حين جلس "ستيـڤن" إلى المكتب الذى كان المكان المعتاد "لكريسـتوفر" وهو صبى ، شاهدهما يسيران فى الأرض المحيطة بالمنزل، أحيانا كانا يتوقفان ليـريا إذا كان ثمـة شىء تغـير أم لا ، كـانا رجلين بين الأشـجار، يظهـر رأسهما ويختفيـان بين أوراق النبات اللامعة، تلك النباتات التى عاشت فى هذا العـالم المسكون بالسناجب وطيـور أبو زريق التى قـرأ عنهـا فى بعض كتب القصص الشمالية، كانا حقًا بشرًا ، ولـم يكونا بدائل بلاستيكية، كانا نتاج ذلك المجتمع الـذى يحرم العقاب، ويبغى مستـهلكين أذكياء ، لديهم مقدرة على الإدراك والفهم ، هذان الرجلان كانا أبا وابنا ، من طراز بدئى وأسطورى بالنسبة "لستيڤن" ، مثل الغـابات التى أخفت مخلوقات كثيرة، طراز غريب مثل الثلوج، والتوت الأزرق، وأشجار القيقب، هذا التدفق العائلى لم يكن معروفـًا له، لقد كان والده واحدًا من هؤلاء الرجـال الذين عاشوا مع أمه لبضع سنوات وبعـد ذلك اختفى فى السجون، ومـتاهات الحوارى والأزقة حول "چـوهانسبرچ" ، أو فى عشش السـود، سلسلة من الرجال لعبوا معه ومع إخوته دور الصداقة عديم الجدوى . . حنينًا لحياة لم يعرفها بعضهم مطلقًا، وعينوا أهميتـه كمرشح للشعائر، فحكوا له قصص البطولة

الخارقة عن إمباس[٥٢] الزوله الذين قادهم "شاكا" و "دينجان"، إلا أن هؤلاء الرجال غالبًا ما كانوا سريعى الغضب، وكان الأطفال دائما مُداسين مُحتقرين، وكانت سارة فى حاجة دائمة لنقود أكثر لتشترى لهم الملابس، وكان "ستيڤن" دائما يسرف فى استخدام الشموع فى الليل ، عندما كان الرجل يرغب فى الظلمة .. وسارة تتسارع أنفاسها.

تعرف "ستيڤن" وأخوه على العالم مباشرة وليس عن طريق توسط الآباء، لم تكن هناك عوالم سرية، عالم للأطفال ملئ بالحيوانات التى تتكلم والجنيات الطيبة، وآخر للكبار ملىء بالأموال والضرائب والسياسة، لا ، بل كان عالمًا واحدًا ، الرجال الكبار خائفون مثلهم مثل الأطفال، من رجال البوليس الذين لا يمكن مقاومتهم ، ذلك البوليس الذى يخشونه مثلما يخشون السحر الأسود، فقد يقرعون الباب فى منتصف الليل ليسألوا عن التصاريح، أو يقلبون الأرض رأساً على عقب بحثًا عن الـ"سوكوكيان"[٥٣]، لقد كان كل شىء عالمًا واحدًا ، ذات فجر وردى قاس بلون ملايين الجنيهات، تسلق الجيران درجاتهم وساقوها إلى المدينة ؛ فى طابور طويل نحو محطة الأتوبيس حيث كانوا يسيرون فى الصقيع الذى التصق بقوة بكتل الحشائش الصغيرة والنبات ؛ بينما بعض الذين كانوا نائمين مع المجامر فى حجرات مغلقة يتنفسون الهواء الدافئ لوقت طويل لم يستيقظوا فى الوقت المناسب للحياة، لا شىء أغفل سوى هذا العالم الآخر الذى لم يكن يتخيله .. هذا المنزل الواقع بين الأشجار البرية والحشائش الوافرة ، هذا العالم الذى كان الأب والابن يعيدان زيارته،

(٥٢) إمباس : نوع من الغزلان الإفريقية سريعة العدو .

(٥٣) السوكوكيان : مشروب وطنى مسكر رخيص .

والذى لم يتركاه من قبل قط، وذلك النوع من الإنسانية الذى نما وكبر بينهما، بينما ستيڤن لا يستطيع أبداً العودة ثانية لعالم طفولته، والآن مطلوب منه أن يعيش فى عالم لا يحسب أى حساب لما كان من طفولته.

فى تلك الليلة عرض عليهم "كريستوفر" شرائح بعثته فى خليج "هدسون"، على مدى البصر والسمع فى حياة إنسانية أخرى، تجمعت القرى الصغيرة فى صداقة حميمة، وقد اكتست الصخور الجرانيتية بنبات "الأشنة" كأنها وحمات، وفى صيفهم القصير، امتلأت الجبال بالأزهار الناعمة، تشبه تلك الزهور فى "كاروو" " فايجيس "، أطلت من شريحة أطياف كان "ستيڤن" قادراً على فهمها ـ الفراغ ، والضوء ، والبكارة ـ فى الوقت الذى كان يتوقع رؤية الكثير الغريب الذى لا يستطيع تمثله. فى أرض مثل هذه يمكن للإنسان أن يعزف آلة ذات نغمتين، لكنه كان يخشى أن يفكر فيما شاهده، فهل عليه أن يذهب إلى خليج "هدسون" ليجرب نوعا آخر من النفى؟

فى الطريق إلى "نيويورك" سأل "ستيڤن" كريستوڤر عن البعثة، "ألم تشعر بالوحدة هناك؟"

" لا نحن سبعة نعمل على ظهر سفينة، وقد تعرفنا على بعض القرويين معرفة وثيقة، والغرباء موضع ترحيب هناك، ثم إن هذه المنطقة ليست بلا وسائل اتصال، لقد كنت أطلب صديقتى المقيمة فى "نيويورك" مرتين فى الأسبوع ، إنها لن تكون بنصف سوء بعثة العام القادم عندما نذهب إلى بحيرة "بيكال"، هذا فى حال نجاحنا فى إنهاء ترتيباتها ، قد نذهب إلى "آنتاركيتكا"(٥٤) بدلاً منها، كيف تبدو "كيب تاون" ؟"

(٥٤) قارة غير مأهولة تقع حول القطب الجنوبى .

" لم أكن بها قط، تحـاول الحكومة أن تبـقينا نحن الأفـارقـة خارج كيب تاون" .

" أوه ، كنت أعتقد أن الزنوج هم الأغلبية"

" يوجد الكثير من مختلطى الدماء فى "كيب تاون" ، يطلقون عليهم الملـونين ، وهم يُعامـلون بطريقة مخـتلفة تمامًا عنا، فكل ظل من البـياض يستحق درجة خاصة من الامتياز"

" لابد من أنك سعيد حقا لخروجك منها"

" فعلا ، ألم يحدث وشعرت بالحنين للرجوع إلى البيت عند ذهابك لتلك الأماكن الغريبة ؟"

" أحسب أننى لم أكن بعيدًا لفترة كافـية قط حتى أشعر بذلك ، حقًا لم يمثل هذا مشكلة لى، فيمكننى العـودة فى أى وقت، بدا كما لو كانا قد وصلا لطريق مسدود ، " هل شعرت أحيانا بالحنين للوطن ؟"

" أحيـانا "

" أظن الناس يعـبـرون عن الحنين للوطن من خـلال أشـياء شـديدة الغرابة، فأحد أفراد فريقنا البحـثى جاء من الأناضول منذ فترة طويلة، لقد كان يشتـاق إلى عيون الغنم فى بلاده ، فكان يبحث عن تـلك العيون فى السوبر ماركت !" وضحك "كريستوفر" .

صَمت "ستيفن"

" هل تمانع لو أدرت الراديو؟"

" هيا، فلتفعل "

كانا أحيانًا يتركان موسيقى الباروك تصخب بديلاً عن الحديث، وأحيانا يتكلمان فى أثنائها.

" لماذا جئت إلى الولايات المتحدة؟ هل هربت من جنوب إفريقيا ؟"

" هذا صحيح إلى حد ما، كان الناس دائمًا يقولون لى: إننى يجب أن أذهب للخارج لأتم دراستى، وقالوا : إن مؤلفاتى بحاجة للصقل " . وابتسم من سخرية الأقدار.

" إلا أن عائلتك مازالت هناك ؟"

" أمى "

" أليس لك إخوة أو أخوات ؟"

" مات أغلبهم وهم أطفال ، أخ واحد كبر معى لكنه مات عندما كنت فى المدرسة العليا" .

" لابد من أن أمك تفتقدك " .

" لا أعرف، كتبت لها، ولم يصلنى رد، وقد طلبت من شخص أعرفه البحث عنها، لكننى لم أسمع عنه شيئًا هو أيضًا"

" لم لا تتصل بالتليفون ؟"

" لا يسمح لنا بالحصول على تليفون، فى المراكز، يحصل الموظفون البيض فقط عليها"

انتهت مقطوعة " فيفالدى" ، تبعها فقرة إعلانية ، ثم مقطوعة تشيماروزا(٥٥) .

(٥٥) فيفالدى ، وتشيماروزا ، مؤلفان موسيقيان .

إلى متى يجب العيش فى عالم "كريستوفر"، حيث لا فراغ، لا مسافة، لا سكون، ولا ظلام ؟ تذكر "ستيڤن" أنه قرأ عن ليلة من الإظلام هبطت على "نيويورك" مثل كارثة، إلى متى يجب أن يعيش بهذه الطريقة، محرومًا من أى إحساس بالضوء والأرض اللذين خلقهما الله كائنين مستقلين؟ كيف سيعيش فى أمريكا ويفقد كل السكون، والأماكن غير المطروقة، والإنسانية المختلفة ؟. . . أن يعيش فى عالم يهمس فيه وتر على قرعة بطريقة تكاد لا تسمع، هل يعقل ذلك ؟ إن "كريستوفر" يصغره بخمس سنوات تقريبًا، لكن ستيفن يشعر بأنه عجوز ، طراز عتيق، عجوز مثل الحرباء[٥٦] التى جلبت أخبار موت الإنسان للعالم ، عجوز مثل الموت، لا يفهمه كريستوفر. إن كريستوفر يعيش فى العالم الجديد، هل هناك أى موسيقى يمكن لـ"ستيڤن" أن يؤلفها هنا ؟ ما الذى فى حياة كريستوفر يستطيع ستيڤن فهمه ؟

" ماذا تعمل صديقتك ؟ "

" رد "كريستوفر" فى جمل كانت كلماتها واضحة فى ذاتها، لكن البناء، والمعنى، هما اللذان هربا " .

عندما وصلا نيويورك ، فقد الطريق كل صلة له بشكل وهيئة الأرض، كان الطريق يغطس ، ويميل، وينحنى، ثم يعود ملتويا على نفسه، أو فوق طرق أخرى أو تحتها ، تكدست المبانى لصق بعضها ببعض فيما يشبه هلوسة الاختناق، ورهاب الأماكن المغلقة، واللا فراغ، تراجعت الإعلانات التجارية التى بين إذاعة "السيمفونيات" أمام نشرة أخبار طويلة

(٥٦) انظر حكاية أصل الموت المنشورة هنا ، والحرباء هى التى جلبت الموت للبشرية وذلك فى أساطير قبائل "الهوتنتوت" .

عن "فيتنام" ، "ونيويورك"، "وتركيا"، "وإسرائيل"، "وليندا ساى"، "وركفلر"، وبشر لم يكن ستيفن قادراً على تحديد أدوارهم وأسمائهم، كالعادة لم يكن هناك شىء عن جنوب إفريقيا، بدت من هنا كأنها بلد ليس له وجود القلة من الأمريكيين الذين سمعوا بها ، شوهوها ، دمروها ، رأوا فيها صورة لصراعاتهم، هذا إذا اهتموا أصلاً، فهى لم تكن بالنسبة لهم دولة لها وجود مستقل، بل كانت رمزاً لصراعاتهم، اسم جنوب إفريقيا الذى بقى على قيد الحياة امتص وتدفق فى شرايين نظام آخر، وإذا قدر له العيش فى أمريكا، فلابد له من أن يتعلم من كل هؤلاء الناس، يجب أن يتعلم كيف يصبح مهتماً بهم، يجب أن يعود نفسه على نظام الرموز والاختصارات هذا، هذا الـ COR, LSD, FBI, CIA, UCLA[٥٧]، نظام من الاختصارات والشخصيات ليس لهما أية أهمية لديه ، لابد من أن يتخلى عن ذاته ، لابد من أن يصبح الذات التى يمكنها العيش فى هذا النتاج المصطنع الكبير الذى يعرض نصال الحشائش بالكاد ، تلك الحشائش هى الشىء الوحيد الذى عرفه فى حياته.

شقا طريقهما عبر حى "هارلم"، أعلنت المحلات عن أطعمة لم يكن قد أكلها فى حياته قط، ولُعب أطفال ذات قواعد محددة وكلمات مرور لم يعرفها فى حياته، ها هو ذاهنا غريب فى عالم السود مثلما هو فى عالم البيض، حيث لم يفهم الناس إنجليزيته ، وحدقوا فى غرابته، هذا "هارلم" حى السود إلا أن لغته مبهمة، مثل إسبانية "هارلم"، ومثل البياض، ومثل الثقة الذكية لشاب مثل "كريستوفر".

(٥٧) هذه الاختصارات تعنى من اليسار إلى اليمين على التوالى ، السجل المدنى ، عقار الهلوسة ، المباحث الفيدرالية ، المخابرات المركزية الأمريكية ، جامعو كاليفورنيا – لوس أنجلوس .

خلفا وراءهما "السنترال بارك" والمحلات الكبيرة ، ووصلا إلى فندق "ستيفن" ، عندما جاء "أندرو موهان" و "إيستر" لاستقباله بالمطار ، وعرضا عليه المساعدة فى إيجاد مسكن له، حرصا ألا يصطحباه إلى "هارلم" ، وكان أندرو" يرتدى قميصًا فضفاضًا ، مزينًا بالورود ، ذلك الذى لم يحدث أن لَبِس مثله قط فى جنوب إفريقيا ، وحمل تحت إبطه طبعة البريد الجوى من صحيفة "التايمز" اللندنية ، فيما بعد راح يفسر هذا التصرف ، بأن الكثيرين اضطروا للتحايل بهذا الشكل لينالوا الاحترام الذى لم يكونوا قد حققوه عن طريق آخر.

" ألا ترى أنه أمر مضحك أن تكون إفريقيا ، وتتظاهر بكونك إفريقى ، كى يتعرف عليك الأمريكيون جيدًا من خلال هذا القالب الذى يعرفونه ؟ أية لعبة هذه يا رجل ؟

" أنت مضطر لتقوم بها. صدقنى، هناك الكثير من الحيل التى ستتعلمها"

" ارتدت "إيستر" ملابس غالية كأنها ممثلة فى عرض خارج المسرح، تصرفاتها غير المتوقعة والتى لا تحتمل قلة الاحترام ، والهالة التى صنعاها حولهما ، مكنت "ستيڤن" من تأجير حجرة خارج هارلم .

عندما تركه "كريستوفر" ، بتعليقات أمريكية حميمة غامضة عن كونه سعيدا بمقابلته ، تساءل "ستيڤن" ما إذا كان عليه أن يعاود الاتصال بـ "إيستر" ، أم يجب عليه أن ينتظر حتى يخفف من هذا المزاج الكئيب ؟ أحس باللامبالاة ، وفقدان الوعى تقريبًا ، فتح نافذة حجرته ، كانت تشرف على عمود التهوية الأسود ، فى أحد الأركان كومة من الصناديق وعلب الكرتون المهترئ تنتظر من يحملها للتخلص منها ، أنوار الحجرات

الأخرى بالفندق توهجت بلا أية شخصية مميزة ، السماء الشاحبة تدلت على معظم جسم المبنى القاتم ، وزئير المدينة المذهل الرخو ،غرق فى الزوايا المتعفنة لعمود التهوية ، كان زئيراً مبحوحًا نفث الهواء فى وجهه ، وكان الهواء الخارجى ، مثل الهواء الذى فى حجرته وفى ممرات الفندق ، هواء استعمل كثيراً جداً حتى أن سخامًا غير محسوس التصق به ، مثل "البلىً" على وجه بغى عجوز، أى كائن يتنفس هذا الهواء، سوف يموت، كأنه نائم فى حجرة مغلقة بينما تبعث المجمرة دخانها.

أخرج تدويناته الموسيقية الخاصة بخطة بحثه من تحت البطانية ، كل الموضوع بدا متفرقًا على نحو بائس، تافهًا، لكنه حاول أن يعمل عليها، كانت كل فكرة جديدة تبدو سخيفة ، وزائفة، أو بقايا لا إرادية غير مقصودة من إعلان تجارى، أو متنكرة مثل "أندرو" فى شكل إفريقيا التى لم يعرفها قط ، ساطعة، ونشطة على نحو غير طبيعى ، آى ! كانت الصباحات الشتوية باردة ، والهواء فى الخارج عنيفًا ، وماء الصنبور يصيب بالعمى من شدة برودته ، وهو وأخوه فى صدريات ممزقة يختبئون من الريح التى عصفت بالشمس، فهل حكى "أندرو" حكايات عن الحياة فى الأدغال ؟ هل لبس بلداً آخر فى ذاكرته ونسى مكان فصول الشتاء والسترات الأوربية " المكرمشة " فى ماضيه الوطنى ؟ تلاعبت "بستيڤن" الذكريات الرهيفة عن فصول الشتاء تلك، التى لم يجرؤ على نسيانها، دَوَنَ توليفات وتنويعات على الألحان، ثم أبعد الأوراق أخيراً.، واتصل بـ"إيستر".

" ستيڤن ! يسعدنى سماع صوتك ، كيف حالك ؟"

" بخير ، كيف حالك ؟"

" إننى أقيم حفلا ، هيا تعال "

" متى ؟ الآن "

" نعم الآن . لدى شخصان من "كولومبيا" سمعا موسيقاك ويريدان مقابلتك ، هل عملت أى شىء جديد ؟"

" لا "

" على أية حال ، لقد أحبا سماعها . "

" حسنًا "

" ستيفن ، هل أنت على ما يرام ؟"

" أجل ، لِمَ لا"

" لابد من أننى أتخيل هذا ، مر وقت طويل منذ أن رأيتك ، أود أن أراك ، ليس فقط لتقديمك لهذين الشخصين الكولومبيين"

" أتركِ الحفل وتعالى إلى"

" لا أستطيع ، رجال التليفزيون والصحفيون هنا أيضـا ، "ستيڤن" أريدك أن تقابلهم"

" لقد عدت توًا ، وأنا متعب ، ليكن فى وقت آخر"

" ستيڤن" ، تبدو مكتئبا بشكل مخيف"

" وداعا "إيستر"

اندهش من اكتشافه أن "إيستر" تقيم حفلا ، كانت الحفلات حيلة من حيل "أندرو موهان" ، على عادة جماعـة المنفيين ، ولم تكن "إيستر" واحدة من ذلك النوع ، إنها لم تكن لتتصنع تصرفا تافها لتـبين أنها جنوب إفريقية مختلفة ،

لقد انضمت "لنيويورك" بشروطهـا ، كانت تعمل ، ولم تتكلم عن مدى معـاناتها فى الوطن ، أو كيف كـان هروبها فذًا ؟! كانت تعـمل ، وكان "كيـن" يعمل، وكان "كـريستوفر" يعمل، وذلك ما أبقاهم على قـيد الحياة، أما هو فلم يعد قادرًا على العمل ، لقـد فقد أدواته ، أصبح رمة ، أصبح مثل بقية مـجموعة الجنوب أفارقة المغلقة علـى نفسها ، ربما لا يحق له أن يحتقر حفلهم .

اغتسل وغير ملابسه ، نظـــر فى المـــرآة "بقـرف" ، قـال لنفسه : "ما الحكاية يا رَجُل" ؟ كان لا يزال قادرًا على الحياة.

مشى خلال دهاليز الشوارع الخالـية من الهواء ، كانت المحلات تقدم الإغراءات لملايين البشر عن احتياجات غير مفهومة ، عرضت فى واجهات المحلات أوعـية نحاسيـة ، سلاطين خشـبية ، أراجـيح شبك مصبـوغة ، كرات زجاجية ملونة ، آنية حساء الفطر الخزفية ، صدريات جلدية ، كتبًا عن الزن ، ملصقات ، وقوائم عن النباتات الهندية .

فى أفضـل الأحوال ، فإن مـوسيـقاه سـوف تعرض فى خضـم بحر الأرفف هذا ، مع بقيـة الأشكال الغريبة الوحشـية الأخرى ، من تحف ، موضـات ، مخدرات ، سـوف يسمـعها ذلك المخنث الذى يـنضغط تحت الأشكال الغـريبة والذى سـيتغـاضى عن ملابـسه وسواده ، هذا الـهذيان العابر، كـان الآن عالما آخـر٠٠ لغة أخرى ، لقـد ضاع فى تنوع الأشـياء اللامتناهى ، والإمكانيات غـير المفهومة، كانت كلها تحطـمه، تضغط عليه لتخنقه، وكان هو ضـئيل الشأن، وكانت جنوب إفريقيـا ضئيـلة الشـأن، ماذا عاد عليه من إحلال عالم محل آخر؟! ٠ عوالم لانهائية.

ركب باستسلام أتوبيسًا ، وظل به إلى أن أخبره السائق أن عليه أن يدفع أجرة أخرى ، فقد أكمل الأتوبيس دورته، نزل ومشى بين محلات رديئة غير محددة المعالم ، جرى بعض الصبية أمامه وهم يتصايحون، وامرأة تصرخ فيهم معنفة ، لم يستطع تفسير كلماتها ، توقف محدقًا إلى نافذة ظهر منها حجرة طعام على طراز فرنسى بسيط ، ثم واصل السير مرة أخرى ، مال عليه رجل ، ربما كان مخمورًا ، وسأله عن الساعة قائلا: أخى ، لكنه لم يرد عليه، فقال الرجل : " تبًا لك من زنجى " ، لم يرد على ذلك أيضًا ، كان بالقرب من طريق سريع آخر، تتوالى فيه الحركة بلا انقطاع ، كان الطريق يصخب بلا تواتر، وصل فوق كوبرى علوى، توقف محدقًا فى العربات المسرعة بجنون ، وفى القوائم الأسمنتية القوية الثابتة لكوبرى علوى آخر . . فى الصخب الأمريكى، هناك طريق واحد فقط، سوف يتقبل أمريكا، سوف يلقى بنفسه إليها، فى هوائها الراكد، فى ضوء الآلة، شد بيده على "الدرابزين" ورفع نفسه لأعلى، تحته ، كانت السيارات تندفع فى سرعة جنونية على الطريق السريع، وثب داخلاً الطريق .

ابن عمي يأتي إلى جو ـ برج

تأليف : "ميبلالو ميزاماني"

صبية المدينة بارعون بدرجة لا تصـدق فى استقصاء أصل أى إنسان، يمكنهم ـ عادة ـ التعـرف عليه من لهجتـه ومشيته، نادرًا مـا ينقضون على المختـال الذى ينشغل بـاجتيـاز تقاطع الطريـق دون توقف قبل أن تتـحول إشـارات المرور للون الأخضـر، لكنهم لا يتـرددون عن التـوبيخ الساخـر للرجل الذى يسمـعونه يهمـهم بأغنية قبلية بـــدلا من أن يصفر موسـيقى الجـاز،

ابن عمـى، "جولا"، قادم من "تسـولو" بـ "ترانسكى"، له قـامة "غوريللا" بـالغ ، يمشى ،وذراعاه متـقوسـتان و يتطوحـان بعيـدًا ، مثل ذراعى راعى بقر مستـعد لسحب الحبل ، يتقدمه صدره البـارز كأنه يسحبه حيثما يذهب، هيئتـه ككل تعطى انطباعًا ببرج متين البناء، يمكنه أن يحمل صندوقى القمامـة الخاصين بمنزلنا ممتلئين، بالسهولة والـوقار اللذين يحمل بهما رجل مـتعلم جريدة ، لم يكن غندورًا فى مشيـته مثل الموظفين الذين يمشون للتريض، بل كانت مشية إنسان غير متعجل، المشى بالنسبة له معتاد مثلما هو ضرورة.

له الآن بالمدينة عدة سنوات، لكن كـان هناك وقت حين كان وما يزال أخضر مثل كرنبة غير ناضجة.

ذات يوم ذهب "مزال يو جولا" لشراء بعض المشروبات الباردة، عادة توجد "شِلل" من صبية الشــوارع " الصيع " حول المحلات، رصدوه عن بُعد حاملاً زجاجة فارغة من الحجم العائلى.

سأل "يوجولا": "مكودينى، أين يمكننى أن أملأ هذه الزجاجة؟"

ضحك الصبيــة بسخرية، عندمــا دعاهم (بيكاننّى)، هل دار فى ذهنه أنه يستطيع سحلهم بيد واحدة؟

تســاءل ولد باسـتظراف: "هل يظــن أننا نملأ المشــروبات البــاردة من الصنبور؟"

أضاف آخر: " لقد اعتاد أن يحصل على اللبن من البقرة مباشرة"

وضحكوا . .

كان "مزال يو جولا" مستغرباً أكثــر منه متضايقاً من الانفجار المفاجئ للصبية فى الضحك، هؤلاء المتسكعون من هم فى مثل سنهم فى" تسولو" يعتنون بالماشية فى المزارع، تركهم ومضى إلى سيدة متقدمة فى العمر تحمل طفلاً على ظهرها، فقادته حتى محل "ميزامبا للمأكولات الوطنية".

خرج من المحل بزجــاجة مشــروب التوت الأحــمر، دفع هذا الأولاد لموجة عاصفة من الضحك المجلجل ،فالأحــمر والأخضر، هما اللونان المفضلان لأهل الريف ، أما سكان المدينة فإنهم يشترون "الفانتا" أو "الكولا".

اتفق الأولاد على خطة لمضايقته، اعــترضوا طريقه وتظاهروا بأنهم لم يلاحظوا وجوده، عندما غير اتجاهه، غيــروا هم أيضًا اتجاههم ووقفوا أمامه

صفاً واحداً، تعاظم غضبه، اتجه ناحية المركز التجارى مثل وحيد قرن حرون.

استمد الصبية الشجاعة من عددهم، وتشبثوا بوقفتهم.

تقابلت عيناه مع عينى الولد الواقف فى الوسط، حدق فى وجه الولد، حدق الولد فيه بدوره بنفس الطريقة، اتجه "مزال يو جولا" نحوه مباشرة.

قال للولد الواقف فى الوسط: " اغرب عن وجهى، يا . . . "

اقترب الآن على نحو خطير، فغر الأولاد أفواههم كما لو كانوا متأهبين للعراك، أمسك "بوجولا" برئيس العصابة الذى أحس بالخوف والحصار، والذى كان فى الحقيقة مكروهًا من الآخرين،

تلاشى تظاهر رئيس العصابة بالشجاعة وتنحى عن الطريق، تراجع بقية الأولاد، وأخيراً مر "مزال يو جولا"،

ذات مرة اضطر والدى للسفر "أوتوستوب" من "نالتلسبيروت"، ذلك لأن سيارته كانت قد سرقت أثناء زيارته لمنزل أحد الأصدقاء هناك،

سأل " مزال يوجولا" والدى: " ألا يمكنهم أن يطلبوا منك باحترام استعارة السيارة إذا كانوا يحتاجونها على هذا النحو الملح؟ "

حدقنا فيه جميعنا، فاغرين أفواهنا دهشة.

دق جرس التليفـون، كانت الشرطة، وجدت السيارة مـهجورة قرب "نيومـاركت" في "ألبير تول"، لم يكن بالسيـارة أى تخريب، فيـما عدا كسر زجاج نافذة السيارة الجانبى.

قال "مـزال يوجولا": "إننى غـير قـادر على فهم كـيف يفكر أى إنسان أن يأخذ سيارة غيره، أو حتى حـصانًا يخص شخصًا آخر، لمجرد أن يلقى به فى مكان بعيد"

مرة عرض أخى الصغير "سوسو" أن يصطحب "مزال يوجولا" إلى السينما، كـانوا يعرضون فيلم "شـارع بدون اسم" لـ "ويد مارك"، وكان الفيلم يلقى نجـاحًا كبيرًا لدى مشاهدى المدينة، أغلبنا شاهد الفيلم مرتين أو ثلاث مرات من قبل، ولـم يكن لدينا مانع من رؤيته مرة أخرى.

وكان لدينا "راديو ترانزستور"، كان "مزال يوجولا" مغرمًا به بشكل غير عادى، فكان يديره حتى فى أثناء استـماعنا لجهاز "الراديوالكهربائى"، وكانت بطاريات الراديو "الترانزستور" تستبدل يوميًا، كم من مرات طلبت منه إغلاق الراديو "الترانزستور" قبل أن ينام، فقـد كنت غالباً ما اضطر لسحبه من تحت وسادته مفتوحًا، وأخمد تلك الموسيقى بنفسى، قط لم يتعلم هذا الأمر، أتذكـر أننى هددت بكسـر هذا الترانزسـتور عندمـا فتحـه فى أثناء استماعى لنشرة الأخبار، وخطر ببالى أن أعلمـه استعمال سماعات الأذن، فقد كنت أعتقد أنه سوف يحـمل ذلك الراديو "الترانزستور" معه حتى إلى المرحاض.

فى المساء ذهبنا إلى السينما، لم يره أى منا وهو يخفى "الترانزستور" تحت معطفه.

قدم الفيلم عرضًا مليئًا بالإثارة والحركة، لكن الحوار كان يشد الانتباه أيضًا، معظمنا كان يحفظ الفـيلم عن ظهر قلب، ومع ذلك كنا نود سماع الحوار كله.

" لا يوجد سوى شخص واحد فقط يملك عقلاً من هذا النوع، وهذا الشخص هوأنا "

" كل هؤلاء البرابرة تحت إمرتى"

" لا أحد يطلق النار إلا بأمرى"

" أيها الأصدقاء، أيها الرومان، يا شعبى ، أعيرونى آذانكم . . . "

وفجـأة، إذا بضوضـاء هادرة تصدر من مـعطف "مزال يـوجولا ". كانـت الأغنية الناجـحة لـ "لويد لويس"، "الهـوية" دفعـته بمرفـقى بين ضلوعه، لكننى اصطدمت بطبقات من الملابس.

ارتفعت همسهـات، وانطلقت صيحات استهجـان وقدح بين صفوف المشاهدين: "اغلق فونوغراف البطن ذاك"

و"من ابن الـمرا . . الـشـ. . . . ذاك؟"

سأله "سوسو" مستنكراً: "ما الذى تهببه ؟"

همست له من بين أسنانى المطبقة من الغيظ : " أغلق هذا الشىء ". انتزعته منه ، وأغلقته فوراً.

قال "مـزال يو جولا" : "من فضلك، أعطـنى إياه، سوف أضع شئ الأذن هذا"

قال "سوسو" : "لا تعطه إياه"

احتفظت "بالترانزيستور" ، عند نهاية الفيلم، وقبل إضاءة النور بوقت قليل، تسللت وانتظرتهم فى الخارج، لم أكن أرغب فى أن يتعرف الناس علىّ باعتبارى من كنت مع الفتى الذى أدار الراديو أثناء عرض الفيلم.

كان أبى ينزل ببعض المحطات النائية أغلبها عند المناجم، وكان هناك الكثير من العمال المهاجرين الذين نزحوا من "تسولو" ، عرف والدى العديد من هؤلاء الرجال، الذين قدمهم إلى "مزال يو جولا" ، عادة كان أبى يصطحب "يوجولا" معه عند ذهابه إلى مناجم "كراون" ، كان "هلوبى" و"مبيلى" من بين الأصدقاء القدامى الذين قابلهم هناك "مزال يو جولا" ، فقد كانوا من أصدقاء الدراسة السابقين، الذين تركوا الدراسة جميعهم بعد الصف الرابع الابتدائى.

فى أثناء عطلات نهاية الأسبوع، كان "هلوبى" و"مبيلى" أحيانًا يزوران "مزال يوجولا" ، ويصطحبانه إلى الحانات غير المرخصة المفضلة لديهما، حيث يحتسون الـ "مهابمها" . لكن فى أغلب الحالات كان والدى هو الذى يصطحب "مزال يو جولا" إلى مناجم كراون" ، إلى أن عرف، إلى حدٍ ما، طريق العودة للبيت.

ذات يوم أحد، ذهب أبى و"مزال يو جولا" إلى مناجم "كراون" كالمعتاد، طلب "مزال يو جولا" من أبى أن يتركه هناك، كانت المرة الأولى التى يطلب فيها مثل هذا الطلب، لذلك كان أبى مترددًا فى تركه، "هلوبى" و"مبيلى وعدا أبى بالاعتناء بأمره، فتركه أبى على مضض، راحوا يشربون الـ "مهابمها" إلى أن حان موعد عودة "مزال يو جولا" للبيت، فى الواقع لم يكن هناك مشكلة، لأن الأوتوبيس سوف ينزله تقريبًا

عند عتبة باب البيت، اصطحباه إلى محطة الأتوبيس، وأشارا للعربة التى سيركبها.

هبط الظلام بسرعة، واكتست السماء بدخان أسود، فى الأوتوبيس، كان على "مزال يو جولا" أن يحتفظ بوجهه ملتصقًا بالنافذة الضبابية حتى يتمكن من رؤية ما بالخارج، كان الأوتوبيس ممتلئًا عن آخره، وجاء مكان "مزال يو جولا" فى المقعد الخلفى الأخير، وكانت مجموعة من الصهاينة عائدين من وليمة تعميد، وراحوا يغنون بحماس طوال المسافة التى قطعها الأوتوبيس، عندما تعرف "مزال يو جولا" على المحطة القريبة من البيت، كان الأوتوبيس قد تحرك بالفعل، راح يشق طريقه لمقدمة الأوتوبيس خلال طبقات من اللحم البشرى، غالبيته نسائى، بين شتائم الجماعة المخمورة إلى أن وصل للباب، لكن فى ذلك الوقت، كان الأوتوبيس قد مر بمحطة أخرى، أى أنه نزل بعد محطتين من محطته المقصودة.

لكى يصل إلى البيت، كان لابد له من اختراق منطقة المركز التجارى، قرب المحلات سمع شخصًا ما يقول: "ها هو ذا رجل قبيلة الزهوسا" لكنه لم يعره انتباهاً، راح يغنى لنفسه بهدوء ترنيمة المدح الشعبية "يولوثيكسو أمكييلوا".

أزّ قالب "قرميد" فى الهواء، بينما وجد آخر طريقه لصدره، أمسك "مزال يو جولا" بضلوعه متألمًا، لكنه استمر فى المشى، واستطاع سماع الخطو السريع لوقع أقدام تتراجع فى الاتجاه المضاد.

"سوسو"، الذى كان آتيًا من ناحية المحلات، سمع بالصدفة جماعة من الصبية شديدى الابتهاج، يتحدثون عن كيف انتقموا من رجل قبيلة "الزهوسا" ذاك؟!، لكنه لم يعر الأمر أدنى اهتمام، عندما عاد للبيت، وجد "مزال يو جولا" فى الحمام يدلك ضلوعه فى سرية، فسأله عما حدث،

جر "يو جولا" "سوسو" إلى داخل الحمام، وأغلق الباب: "هش، لا تخبر أى إنسان، لقد ضُربت بقرميدة"

" هل ضربك الصبية قرب المحلات؟ "

" كيف عرفت؟ "

" قابلت فى طريق عودتى مجموعة مـن الصبية يتحدثون عن شخص ما أصابوه تواً"

دار "مزال يو جولا" حول نفسـه من الغيـظ: "إذا كنت تعرفهم، ما عليك إلا أن تأخذنى إلى مكانهم أريد أن أضع يدى عليهم فحسب"

"هاى! أنا لم أتعب بعد من أكل الذرة"(٥٨)

فى هذه الفترة تقريبًا، تعرف "يوجولا" على بعض الشخصيات ذات الشأن، ذات شأن لأنهم فيما بعد سيكونون حـلفاء لهم قيمتهم فى حياته، الشخص الأول هو "جـيكيدا"، الرجل الماكر الذى يمكنه أن يجـد طريقه بين فكى تمساح جائع بسهولة، صاحب حيل لا تنتهى وخبرة واسعة، عمل فى فترة "ما كونستابل"، لمجرد أن يكون على اتصال جيد بقوة البوليس، وعمل أيضًا لدورتين فى طاقـم مستشارى مجلس المديـنة، تلك الفترة التى كون فيها ثروة صغيرة عن طريق ما كان يقدمه للناس من استشارات، على أنه محـامٍ، وعندما تعرف عليـه "مزال يوجولا"، عـرفه بوصفـه مداويًا بالأعشاب وصاحب أرض.

حضر "جيكيدا" لمنزلنا لرؤية والدى بخصوص بعض الأعمال، وجد

(٥٨) تعبير محلى يقصـد به أنه مازال صغـيرًا، ومتمسكًا بالحيـاة ولا يرغب فى المخاطرة.

أبى بالخـارج، فقـرر أن ينتظره لبعض الـوقت، فى أثناء انتظاره لوالدى ، راح يثرثر مع "مزال يو جولا"

سأله: "وأنت أيضًا تقيم هنا؟"

رد "مزال يو جولا": "نعم، هذا بيت عمى"

" هل تقابلنا من قبل ؟ "

" لا ، لقد جئت هنا منذ أعياد الميلاد الماضية "

" من أين أتيت ؟ "

" من ترانسكى "

" من أية منطقة ؟ "

فى النهاية اتضح أن "جـيكيدا" كان يعـرف جيدًا منطقـة "يوجولا" بترانسكى، وهو نفسه تلقى تدريبه كنجار فـى "سانت كاثبرى"، فقد جاء - أصلاً - من "كوفـيمنا" منذ أكثر من عـشرين عامًا. ومـا زالت زوجته تعيش هناك، وتأتى من وقت لآخر إلى "جوهانسبرج" لتحمل بطفل.

قال "جـيكيدا": "لابد من أن تزورنى يومًـا لترى ما نـفعل فى هذه الأرض"

سأل "مزال يوجولا": "ماذا تعمل لتدبير المعيشة؟"

" أنا مداوٍ بالأعشاب! "

" أنت إذن الرجل القـادر على مسـاعـدتى ، عندى ألم هنا، لا أنام بسببه منذ عدة ليال" وأشار إلى ضلوعه.

" أعرف الدهـان المضبوط الذى تحـتاجـه، حصلت عليـه فى زيارتى الأخيـرة لحديقة الحـيوان، لا يوجد شىء أكـثر فـعالية من فـضلات بعض الحيوانات القوية المتوحشة"

حددا موعد لقاء ثابت للعلاج.

منذ ذلك اليوم صار بيت "جيكيدا" بيتًا ثانيًا لـ "مزال يو جولا"

فى شقـة "جيكيدا"، التـقى "يوجولا" بأول صديقـة له، كانت من المستأجرين عند "جيكيدا"، كان "جـيكيدا" يشغل شقة من شقق "مجلس البلدية" بأربع حجرات، وقد أجر ثلاثاً منها لعائلات مختلفة، وكان يتطفل على نساء مستأجريه أكثـر من إعجابه بأزواجهن، وعدم قدرتهم على إيجاد مسكن بديل، أجبرهم على البقاء فى بيت "جيكيدا"

كانت المرأة التى تعرف عليها "مزال يوجـولا" ـ يعمل زوجها حارسًا ليليًا بالمدينة ـ بدينة بطـريقة أنثوية واضحة، مـتقوسة السـاقين، ثدياها مثل بطيختين، وردفـاها ريانان وبدينان أيضًا، ترتدى ملابس لينة على جسـمها فتبدو الملابس مثل لحاف من زغب البط الناعم على فراش مزدوج.

فى أثناء تلك الفـترة بات "مـزال يوجولا" لأول مـرة خارج بيـتنا ـ الشىء الذى أصبح عادة له فيما بعـد ـ وجر عليه ذلك وابلاً من التهديدات والشتائم التى كالتها له أمى.

قالت أمى: "أول أمـر تتعلمـه هنا، هو أن تختـار أصدقـاءك بحذر شديد، سـوف تجد نفسك و"جيكيـدا" ذات يوم معتـقلين فى السجن، أنا أعرف كل ما يجـرى فى وكر النجاسة ذاك، لن تكون جثـتك أول جثة فى ذلك الفناء"

وبأسلوب أقل حدة، عبر والدى أيضًا عن استنكـــاره مرافقة "مزال يو جولا" لـ "جيكيدا".

أضاف أبى قائلاً: "شىء آخر فقط، لا تتجول فى المدينة كثيرًا، نحن ما زلنا نحاول الحصول لك على تصريح"

قالـت أمى: "فى يوم من الأيام سيعرف بنفسه، سـوف يصطدم بـ "مـولولا" وجمـاعـته من رجـال الشـرطة، دعه يسـتـمـر فى اللف فى الشوارع"

لم يحدث الأمـر بالطريقة التى تنبأت بها أمى، لسـبب واحد، أنه لم يكن يتـجول فى الشـوارع، بل كـان فى فناء بيتنا، منـحنيًا على البـوابة، يراقب حـركـة المـرور، عندمـا توقف بعض رجـال الشـرطة من راكـبى الدراجات أمام بيتنا بالضبط.

سأل أحدهم: "هل يمكن أن تعيرنا كبريتا؟"

قال "يوجولا": "أنا لا أدخن، لكن أعتقد أنه يمكننى أن أحصل لكم على كبريت من البيت"، اختفى داخل البيت وعاد بعلبة كبريت.

ظل رجال الشـرطة على دراجاتهم، لذلك كان عليه الخـروج للشارع والمشى ناحيتهم لإعطائهم الكبريت.

سأل الشرطى الذى أرسله لجلب الكبريت: "هل تقيم هنا؟"

"نعم"

"لكننى لا أعرفك!"

اقترح شرطى آخر: "دعه يبرز تصريحه ليثبت ذلك"

"ليس معى هنا "

قال الشـرطى صاحب الأفكار النيرة: "إذن "نجره" إلى قـسم الشرطة حتى يقدمه"

تراقص بنطلون "مزال يو جولا" رقصات بهلوانية ،

نزل شرطى آخر عـن دراجته وتقدم نحو "مـزال يو جولا" بزوج من الأصفاد، لكن قـبل أن يثبتهما، ظهـرت عند الناصية مجمـوعة أخرى من رجال الشرطة.

قال أحدهم: "ماذا فعل؟ ما الأمر؟"

رد الشرطى الذى يحمل الأصفاد: " ليس لديه تصريح"

" انتظـر، أظن أننى رأيت هـذا الفـتى من قـبل، ألـست ابن أخ 'مفانديزى'؟"

أومأ "مزال" بالموافقة.

" حسناً، يا فتـيان، اتركوه، إنه ابن أخ مفـانديزى الذى نعرفه، هل وصلت حديثاً من ترانسكى؟"

أومأ "مزال يوجولا" مرة أخرى.

قال الشرطى حامل الأصفاد: "حسناً، امض، لحسن حظك أن تدخل الرقيب "مولولا"، لا نريد متشردين فى هذه الناحية"

رد إليه الشرطى الآخر علبة الكبريت، وقـادوا دراجاتهم مبتعدين، لم ينس "مزال يو جولا" الرقيب "مـولولا" قط طوال الوقت الذى قضاه فى مدينتنا، كان يزداد إعجابه بهذا الرجل، فقد كان الرقيب رجلاً محنكًا.

مرت أيام قبل أن يستجمع "مزال يو جولا" شجاعته ويغامر بالخروج إلى الفناء، لكنه حتى فى ذلك الوقت كان يذهب مع والدى إلى مناجم "كراون".

كان لدى "هلوبى" و"مبيلى" أخبار طيبة له، فقد تحدثا بشأنه مع رئيسهما فى العمل، وكان أكثر الرجال البيض تفهمًا، كانت هناك وظيفة له، لا تتطلب منه حمل تصريح، ناقشا الأمر مع والدى، الذى وافق على ضرورة أن يلتحق "مزال يو جولا" بعمل.

هكذا بدأ "يوجولا" العمل فى المناجم كعامل نظافة، كان يقيم هناك، ويعود فى إجازة نهاية الأسبوع فقط.

عندما حصل على تصريحه أخيرًا، ترك عمله فى المناجم وذهب للعمل كعامل نظافة فى فندق. فيما بعد تم ترقيته إلى طباخ.

منحه التصريح شعوراً بالحرية، فرفض أن يكون مقيداً بوظيفة محددة، حتى أنه فى سنواته العديدة بالمدينة عمل كطبيب، ونجار، وكاهن، وعراف.

قُبض عليه ورُحل إلى "ترانسكى" عدة مرات. ذات مرة نجحت الشرطة فى اقتياده حتى "بلوم فونتين"، لكنه عاد إلى "جوهانسبرج" فى قطار البضائع.

هذه الخبرات والتجارب علمت "مزال يو جولا" الكثير حتى الخفاش الأعمى يمكن أن يعرف ذلك : لقد صار يقظاً ، وعيونه مفتوحة مثل بومة، أقام بالمدينة حيث أصبحت حواسه حادة من كثرة معايشته لحياة الرذيلة. الأهم، أنه عاش فترة طويلة تحت ظل قانون التشرد، وقوانين تنظيم الهجرة الداخلية، وأصبح يعتبر هذه الأخطار جداراً ومظلة تحميه، عرفت أيضًا أن المزمور الثالث والعشرين هو مزموره المفضل، ويذكر سكان المدينة أنه مازال يقطن بها بجوار "ناكوسى سيكاللا".

أختان

تأليف : "أحمد إيسوب"

" عندما أريد الاستحمام، فإنهما يريدان أن يستحما أيضًا، عندما أريد دخول المرحاض، فإنهما يريدان دخوله أيضًا، إنهما أنانيان جدًا فى كل ما يفعلانه، أحيانًا تغلق زوجة أبى، وأبى الباب عليهما طوال النهار، ولا أعرف ماذا يفعلان هناك، لا يوجد طعام بالمنزل، وإذا وجد شىء، يتعين علينا أن نطبخه، عندئذ يخرجان فورًا من حجرتهما ويأكلان الطعام كله. "

" لماذا لم تتحدثى فى هذا الشأن مع والدك؟ "

" لم يعد يستمع إلينا منذ تزوج هذه المرأة، هو رجل لطيف، لكنه منذ تزوجها اختفى كل لطفه معنا، لقد أتلفته، فلم يعد يهتم بنا، قلت لأختى حبيبة، لنرحل بعيدًا عن هنا، أليس كذلك يا حبيبة؟ "

" بلى "

" قال لنا أحد الأصدقاء : إنه توجد حجرة خالية فى هذا الرَّبع.

أثارت الأختان ضجة عندما ظهرتا للسكن فى الرّبع، كانتا ترتديان العباءة وتحتها سراويل، لا يوجد شىء غير عادى فى ذلك، أما غير العادى فهو لون شعرهما، فقد كان مصبوغاً باللون الأصفر، فى الواقع بدتا غريبتى المنظر بشعرهما الأشقر الذى لا يتلاءم مع القسمات الشرقية، كانتا غزيرتى الشعر وخاضتا معركة متواصلة لإزالة الشعر عن وجهيهما، قال

صديقي عمر عن غزارة شعرهما: "بأنها تدل على أنهما من بنات المتعة"، كانت "روكية" في الثلاثينات، و"حبيبة" تصغرها ببضع سنوات.

بعد مضي فترة قصيرة، جرى تغير في طريقة لبسهما، طرحت الأختان لباسهما الشرقي بسبب الموضة، أو بسبب بعض الخصوصيات النسائية (مما سبب الرعب "لعزيز خان") وارتدتا الملابس الغربية.

سرعان ما مارسنا، أنا و"عمر"، الجنس مع الأختين، أخذتُ "حبيبة" الأخت الصغرى، لم يكن هناك اختيار مقصود من جانبنا لواحدة منهما، فقط أنجذب كل منا إلى واحدةٍ، وانغمسنا في ممارسة الجنس ببالٍ خالٍ.

وجدت في "حبيبة" امرأة مهتزة عصبيًا، فقد كان جسمها عند لمسه يتحرك حركة متشنجة مثل دمية آلية ممتلئة الزنبرك، حتى مشيتها مرتعشة كالدمية، تنظر يسارًا، ثم يمينًا، ثم خلفها كأنها خائفة من الملاحقة، ذراعاها مثنيان بزاوية تسعين درجة، وعندما تطأ قدماها الأرض تبدو كأنها تخطو على مساحة من الشوك، انتابني إحساس غريب عندما قبلتها أول مرة، أحسست كأنني أقبل هيكلاً عظميًا متحركًا.

بعد قليل من الوقت، سئمنا أنا و"عمر" صحبة الأختين، وهكذا بعد انفصالهما عنا، ارتبطتا برجال آخرين.

في الصباح كانتا تخرجان من مسكنهما، لابستين بتأنق، هابطتين السلالم، تتقدم "روكية" "حبيبة" كأنها تحميها، ثم تخرجان للطريق العام، وتركبان الترام إلى مكان عملهما، كانتا تعملان كعاملتين مساعدتين

فى محل، فى آخر النهار تعودان، تجهزان الطعام، تأكلان، تغسلان الصحون، وترتديان أحيانا السارى البراق .. وتنتظران، كان يحضر إليهما الرجال بشكل منتظم وتساقان بعيداً فى السيارات.

تراوح موقف النساء الأخريات فى الربع تجاه الأختين ما بين الازدراء البارد والعداء الصريح، أما الرجال المتزوجون الذين يسكنون الربع، فكانوا تحت رقابة زوجاتهم، ولذلك لم يقدروا على الاقتراب منهما، لكن الرجال غير المتزوجين حاموا حولهما على الرغم من نبوءة "عزيز خان" بأن الأختين وعشاقهما سوف "يدخلون نار جهنم يداً بيد."

فى أصيل أحد أيام السبت أو الأحد صباحاً، ارتدت الأختان "شورتين"، ورآهما الجميع وهما متكئتان على الدرابزين الحديدى للشرفة تتحدثان مع مجموعة من الشباب المتجمعين أسفلها، وتضحكان كلما ألقى أحدهم بتعليق مكشوف أو أطلق نكتة فاحشة.

بعد ذلك، وكما هو متوقع حبلتا، فى أول الأمر ذعرتا وأطلقتا اتهامات عشوائية، كان "عمر" واحداً من هؤلاء الذين اتهمتهم "روكية" بأنهم السبب فى حملهما.

أرسلت "روكية" فى طلبى.

" من فضلك أخبر "عمر" بأننى حامل وأنه والد الطفل، سوف أتزوجه فى أى وقت يشاء، ولو أننى خائفة من إخباره بنفسى لأنه شاب صغير إلى حد ما"

" وكيف تعرفين أنه هو؟"

" نحن النساء نعرف الأب، أليس كذلك يا حبيبة؟ "

" نعم ، هو كذلك "

" حبيبة" ، "من هو والد طفلك؟ "

" حامد مجيد، من "نيو تاون" . صاحب محل"

" وهل يعلم بالأمر؟ "

" لقد أخبرته عن الطفل، لكنه قال : إنه متزوج ولديه ستة أطفال، ولكنه قال : إنه سيعتنى بالطفل"

" إنك محظوظة يا حبيبة"

قالت روكية مبتسمة: "أنا أيضًا محظوظة" تركتهما ورحت لتبليغ عمر بادعاءات الأبوة ، رفض "عمر" مواجهة "روكية" ، كان يخشى أن يكون لديها بعض الشواهد الدامغة، ماذا سيقول والداه؟ ماذا سيقول كل الناس؟ والداً لطفل أمه عاهرة! سيسخر منه زملاؤه بالمدرسة، ومعلموه سوف يشيرون إليه كمثال للشاب المنحل.

بعد بضعة أيام قرر أن يواجه روكية و. . . "يصفّى المسائل معها"

تشاجرا، وكانت دموع، ونوبات غضب، وهستيريا (حسبما قال عمر)، لكن لم يُصَفَّ شيء.

أرسلت "روكية" فى طلبى مرة أخرى، قالت: "أخبر عمر أن الطفل طفلى ، كنت أنا سبب وجوده، ولم يكن أى رجل هو السبب، أخبر عمر أننى أحبه وليس عليه أن يقلق من ناحيتى"

" لكن بالتأكيد، لابد من أن يكون للطفل والد؟ "

" طفلى لا يحتاج أبًا ، إنه سعيد بأن ليس له أب، لقد قال طفلى لى ذلك ، أنا أشعر به داخلى بقولى : "والدى لا يهتم بنا ،" ولهذا فطفلى ليس بحاجة إليه"

" وحبيبة ؟ "

" حبيبة أيضًا لا تهتم بأن يكون لطفلها أب أليس كذلك يا حبيبة؟ "

" بلى ".

بمرور الأيام، ارتفعت بطنا الأختين. وأحدث أمر الحمل غضبًا، وأثار الحس الأخلاقى لدى سكان الربع ،

قالت زوجة "السيد موسى" ، مالكة العقار الذى أسكن به: "إنهما تضربان مثلاً سيئاً لبناتنا، ألا تريان أن لدىّ بنات شابات ؟!"

" لحسن الحظ ليس عندى بنات أقلق عليهن. "

" لابد من أن أخبر زوجى ليفعل شيئًا حيال ذلك، لا أطيق الاستمرار فى العيش جنبًا إلى جنب مع امرأتين حبلتين دون زواج، والأدهى أن ابنتى الكبيرة ودودة معهما جداً"

قالت زوجة "السيد قاسم" ، وهى نصف صينية: "اعتادت أمى أن تقول لى : بأن الفتيات غير المتزوجات فى الصين لا يحبلن مطلقًا"

أمنت زوجة "السيد حليم" المالوية موافقة: " نعم، هذا حقيقى، حتى النساء فى "كيب تاون" يتصرفن أفضل، إنهن يخرجن مع الرجال لكن يحترمن أنفسهن"

قالت زوجة السيد قاسم: " إننى مندهشة، كيف أمكنهما الحمل معاً فى وقت واحد " !

ردت عليها مالكة عقارى: "ربما رقد رجل مع كلتيهما فى نفس الليلة" ، ولبرهة أنساهن الضحك جدية المسألة.

قالت "دوروثى" زوجة "سلمون" البناء، محاولة استدرار الضحك مرة أخرى: "إنهما تمارسان تعدد الزوجات."

ردت زوجة "السيد موسى" بحجة معاكسة، منزعجة من سوء فهم ديانتها: "عفواً يا سيدة "سلمون"، هذا ليس تعدد الزوجات، إنهن لم يتزوجن أصلاً من أى رجل"

الحاجة فاطمة، التى كانت فى مكة العام الماضى، قالت: "فى بلد إسلامى كالسعودية مثلاً، فإن مثل هاتين المرأتين ترجمان حتى الموت"

قالت "دوروثى" ،(وهى قارئة نهمة للروايات الرديئة) : " يجب أن "يزيلوا" (their pudenda)[٥٩]على الرغم من أن واحدة منهن لم تسمع الكلمة من قبل، إلا أنهن فهمن ما كانت تعنيه.

بعد تفكير، رأت النساء أن هذا الأمر دموى جداً، أما الرجم فهو أمر أكثر تهذيباً ونظافة.

بينما كانت النساء يتكلمن، قررت زوجة "عزيز خان" أن تتصرف بنفسها، ذات يوم فى آخر النهار، خرجت متسللة من مسكنها، رفعت بصرها إلى مسكن الأختين ورابطت عند قاعدة السلم، ارتفعت الإثارة فى

(٥٩) باللغة اللاتينية : فرجاهما .

الرّبع وتجمع حـولها السكان، عندما وصلت الأختـان، تفحصت بطنيـهما المرتفعتين وراحت تبصق، وولولت صائحة: "يا للنساء المسلمات! يا للنساء المسلمات الـلاتى يدعون أنفســهن مسلمـات ويأثمن، يا الله، يا الله أنزل عليهما عقابك! يا للمسلمين إلى أى حدٍ ترديتم"!

وخرت باكية:

نظرت الأختـان إليها فى خـوف، صعدتا السلالم مـسرعتين وأغلقـتا على نفسـيهما المسكن، مـا قامت به زوجة "عزيز خـان" كان أمرًا فاجـعًا حتى أن جـو الكآبة خيم عـلى الربع، نُبِّه على الأطفـال مراراً أن يلتـزموا الهدوء، وخرج السكان من مساكنهم ونظروا ناحية سكن الأختين كأن شيئًا مأساوياً يحدث هناك.

"عزيز خـان" رجل بدين بجسم مـترهل الطيات، مـدملج، يرتدى ملابس أكـبر من مـقاسه، له وجـه طفل سمين، قـال لنا: "إذا كان لدى وقت، كنت كتبت كتابًا عن سلوك الأختـين الشائن، إنهما مثال للانحطاط الأخلاقى الذى يعيشه المسلمون الآن، يجب أن تُحـبسا فى سجن، وتتركا حتى تموتا من الجوع"

عندمـا أوحى شخص مـا بأن مـسئـولية حـملهـما لا تقع عليـهمـا وحدهما، رد: "هل تود أن تقول: إنهما لم تكونا قادرتين على حماية أكثر أجزاء جسـميهمـا حُرمة؟ لم يكن للإسلام أن يصل للمكانة العظـيمة التى وصل إليها فى الماضى لو كان سمح لبناته بإطلاق العنان لشهواتهن الجنسية البربرية وأن يمارسن كل أنواع العُهر"

بعد بضعة شهور، وضعت الأختان مولودتين.

كـثُر الحـديث فى الربّع عن المولودتين، شـعر البـعض بالأسف على الطفلتين وتمنوا أن يتبناهما أحد، والبعض الآخـر اقترحوا أن يُلقى بهما إلى الحيوانات المتوحشة بحديقة الحيوان؛ وآخرون أرادوا إشعال النار فى الشقة.

شعر "عـزيز خان" بأن الوقت قد حان للعـمل، وأنه يجب "إلقاء" الأختين وطفلتيهما خارج الربّع، لأن استمرار إقامتهما يعتبر تهديداً أخلاقياً يمس الناس القاطنين معهما، وتلويثاً لاسم وسمعة ديننا ونبينا الكريم"

ذهب أولاً إلى قاطع الطريق "جول"، لمفاتحـته فى منزله عقب صلاة الجمـعة مباشـرة، لكن "جول"، ربما كان مـهتمـاً أكثر بمحاولات إشـباع جوعه، أو أنه وجـد الكلام الأخلاقى بغيضًـا، فطرده شر طردة وهو راضٍ تمامًا، وأغلق الباب بازدراء.

كانت زيارته الـثانية إلى "مـولفى هارون"، شيخ جـامع "نيوتاون" ورئيس الأكاديمـية الإسلامـية، رافـقه فى تلك الزيارة، عـبد الله، تلمـيذ "عـزيز خان"، الذى أطلعنا على خـلاصة المـقابلة: "حكى عـزيز لمولفى المشكلة الأخلاقية التى تواجهنا، هل تعرفون ماذا قال الشيخ؟ قال إن عقاب هاتين المرأتين متروك بين يدى الله! لذلك استشـاط "عزيز" غضباً من ذلك المحتمى بكرسيه، ودعاه بـ 'القزم الغبى'.

"رفع الشيخ "مولفى" عصاه، بينما دفعـه "عزيز" بقبضته اليسرى، إلا إننى سحبت "عزيز" إلى خارج المنزل"

كانت زيارة "عزيز" التالية إلى السيد "جوسِب" مالك الربّع، والسيد "جوســب" رجل غريب الأطـــوار، كـان يرتــدى دائماً "كـورتاه"(٦٠)،

(٦٠) باللغة كورتاه : عباءة من القطن الأبيض .

حتى فى الأيام الباردة، رأسه دائمًا حليـق تمامًا، وذقنه كثة وطويلة، كانت تستحـوذ عليه الهواجس الدينية، عندئذ، يأخـذ فى الصلاة فى أى مكان، حتى وإن كـان عند مفـارق الطرق، ذات مرة فى أثناء العـيد، حـضر إلى الرّبع مع قرد، كان مـعقودًا على رأس القرد طربوش أحـمر بشرابه ، راح السيـد "جوسب" يصرخ فى هؤلاء الـذين تجمعـوا للمشاهدة والفـرجة، موجهًا كلامه، خاصة، إلى الخدم:

"هذا القرد مـسلم! هذا القرد مسلم! لكن أنتم لـستم بمسلمين، أنتم لستم بمسلمين" ثم بعثر حفنة من العملات، التى تـبين فيما بعد أنها مجرد سنتات.

عبـر السيد "جـوسب" عن استعداده لطـرد "العاهرتين" من الرّبع، وأنه سـيفـعل ذلك بنفســه، كـان الآمـر الـنــاهى على عـدة مبـان فى "فورد سبرج" ، وهو، لن يقبل بوجود "عاهرتين" فى أملاكه.

حـضـر ذات يوم أحد آخـر النـهـــار ، وسـائقه يقـود له سـيـارته "المرسيـدس" ، وقف عند أسفل السلالم المؤدية إلى مـسكن الأختين وراح يتوعدهمـا بالضرب وهو يتحرك على طريقة الملاكـمين، تجمع الناس حوله من خارج الرّبع، تـقدم صاعـدًا السلالم بصـعوبة، وهو يتنفس بعُـسر ، قابضًا على الدرابزين، عندما وصل لمنبـسط الدرج توقف ليستريح لدقائق، وقفت الأختان قرب مدخل الحجرة، اقترب أولاً من "روكية" وضربها ضربة قوية على خدها صائحًا: خنزيرة! عاهرة! خنزيرة !". وتلقت "حبيبة" التى كانت تحـاول الهرب من خلفـه، ضربة على رأسـها، سقطـت وتدحرجت على السلالم، دخل السيـد "جوسب" بعد ذلك الحجرة، كـانت الأختان ترتجفان من الخوف، وقفتا إلى جانب البـاب لتريا ماذا سيفعل بعد ذلك؟!

ظهـر فى المدخل توًا، ممسكًا مـوقـد الجاز البـريموس فى يديه، والنحـاس الأصفر يتـلألأ فى الشمس، ثم قذفه من فوق الـدرابزين، سقط الموقد من أعلى الدرابـزين مـحـدثًا دويًا، وانـشطر إلى أجـزاء من جـرّاء الارتطام بالأرض، ثم تتابع بسـرعة قذف الأدوات المنزليـة فى حمأة هوس التدمـير الذى استحوذ على السيد "جوسب" .. كسارة بندق، بياضات، ملابس، نظرت الأختان مرعوبتين، ضعيـفتين، عبر المدخل الذى دخل منه مالك الحجرة، أفسحتا له الطريق مثل دمى متحركة، عندما ظهر ومعه بعض الأغراض.

صرخت "روكية وحبيبة"، فـجأة، عندما ظهر السيد "جوسب" فى المدخل ممسكاً بإحـدى الطفلتين، ألقـيتا بـنفسـيهمـا عليـه، حاول السـيد "جوسب" مصارعـتهما بيدٍ، بينما يقـبض بيده الأخرى على الطفلة التى كانت تصرخ.

عند هذا الحـد اندفع السيـد "سولمون" شـاقاً طريقـه وسط الحشـد، وصعد السـلالم، نحى جانباً الأختين بهدوء، وأمسك بالسـيد "جوسب" من رقـبتـه وراح يهزه، ثـم أمسك الطفلة وأعطاهـا لأمهـا، ودفع السيـد "جوسب" دفعـة شديدة فى إطار الباب حتى أن وجهـه ارتد مصطدمًا فى الجهة المقـابلة منه، أبقى يده قابضة بقـوة على السيد "جوسب"، وسـحبه نازلاً السلالم، عندما وصـل للأرض، أفسح الحشد لهمـا الطريق، وانفجر الأطفال مصفقين، قاد "سولمون" السيد "جوسب" إلى سيارته المرسيدس، فتح الباب، وبدون أية تحية دفعه داخلها، كان السائق عالماً بما يتعين عليه أن يفعل، فاندفع بالسيارة خارجًا من الربع.

لم نر السيد "جوسب" مرة أخـرى لفترة طويلة، لكن الأختين قررتا أن السكن فى بيت رجل مجنون يُعـد مخاطرة، وأخيراً وجدتا شـقة أخرى فى "نيوتاون"، ورحلتا.

علاقة غريبة

تأليف : "أكمات دنجور"

على الرغم من أننا فى نوفمبـر ، إلا أن رياح أغسطس مازالت تهب بشدة ، تحرق العيون مثـل بول ساخن، وليس هناك ما تفعله طوال اليوم، خاصة فى أيام الآحاد، ليس أمامـك سوى شرب البراندى المخفف ـ الذى يصيبك بالخـدر! ، لأن كل الخمارات تركته مخزونًا ـ والاختـباء من الريح اللعينة، ثم عليك تجنب ذلك الراهب الجديد شـديد الفضول ، دائما يدس أنفه فى شئون الآخرين ، لكونه شابًا قليل الخبرة .

يتدخل فى الخلافات الزوجية بطريقة عادية كأن هذا حقه، وكأن ليس هناك ما يكفى من الفضوليين الذين ينبشون فى حياتنا بالفعل .

فرجال الداخلية يسـألونك: " ماذا كان أبوك ؟ وأبو أبيك ، وأبو أبى أبيك . . . أوه، أنتم تعرفون بالطـبع أننا مازلنا جماعة مـختلطة، حسنا!، أنتم تعلمون ، بيض وسود ، لكن هذا لا يشكل أى فرق لدينا. "

" أيها الناس نحن نريدكم أن تعيشوا فى منازل لائقة ، سوف ننقلكم من تلك الأحياء الفقيرة " .

" سيدى ، نشكرك على هذا الكرم ، لكن الشـمس تشرق فى شارع "بايت" أيضا" .

أوه ، أوه ! ها هوذا قادم يهرول ، وحذاؤه يطرقع سليب ، سلاب .

كان الراهب مزينا بالأبيض والأسود مثل جثة، وعلى وجهه تعبير مفرط الجدية ، بنطلونه مصمم حسب نظام طائفة الرومان الكاثوليك، ببعض الكُسر الواسعة جدًا، ويمشى يخب سليب ـ سلاب ، سليب ـ سلاب .

يتوقف هنا وهناك ليلقى باللوم على بعض الضحايا المتوردين خجلاً، لأنهم تغيبوا عن قداس الصباح المبكر، وبرغم أنه كان مساعداً لراهب كاتدرائية شارع "سارتوجا"، وهى كنيسة ضخمة بحق مثل الكنائس الكبيرة التى تستوعب الآلاف من الرعايا، مع ذلك كان الأب "ستانلى" يعرف تقريبًا كل واحد من رعاياها المقيمين فى "لافونتين" .

إذا سألتنى رأياً ، فإننى أرى أن تكريسه كان متشددا ، وأن الأب نقع فى إنجيل التشدد، بينما لا أحد يزعجه حزام الفقر فى "هيلبرو" أبدًا، مع أنك تجد المهاجرين اللاتين يستقطرون التقوى من أنوفهم الأيقونية، ونحن سعداء لكوننا مهجنين ،أنصاف آدميين فى الظاهر، لكن أرواحنا تنحدر من البيض ، ولأنه لكل خاطئ منقذ .

على أية حال ، ها هوذا يصل ، يعبر ماشيًا بسرعة ملقيا نظرة خاطفة على كلا الجانبين ، حتى ولو لم تكن هناك سيارة لعينة على مدى البصر . "چورچ" ، الذى يعمل بوردية الليل فى استبدال لمبات الشارع التى حطمها هو وأولادنا أثناء النهار ، يراقب قدوم الراهب بحذر، واصل "چورچ" تنظيف أظافره "بمطواة تقطيع التفاح"، وهى مطواة فى حجم أكبر من المعتاد ، وعيناه المحتجبتان تحت غطاء رأسه يقظتان، ليرى هل لدى الأب "ستانلى" أية نية للتوقف عند بوابة بيتهم؟

همس "چورچ" لزوجته: "أررا ، ها هوذا يصل !" ، وانسحب بسرعة لداخل البيت ، ظهرت زوجة "چورچ" من متكئها مندفعة مثل صاروخ على الرغم من حمولة أردافها المترجرجة الضخمة، أدخلت أردافها إلى البيت وهى ترتطم وتحتك ببعضها مسببة لها ألماً.

يقف الأب "ستانلى" مكتئبًا وحزينًا فى المكان الذى كانت تقف فيه المرأة منذ لحظة منغمسة فى شرب البيرة، يهز رأسه ثم يواصل رحلته، تاركا بوابة البيت مفتوحة وراءه ، يبرز "چورچ" من المنزل ، ويمعن النظر بحذر فى هيئة الراهب المتراجعة قبل أن يغلق البوابة وهو يسب ويلعن بأقذع السباب.

يطوف الأب "ستانلي" فى نواحى شارع "بايت"، وجادة "سيفرايت"، حيث تلعب مجموعة من شباب الـ"أونز" وهم منغمسون فى رياضتهم المفضلة، رياضة ساذجة، لكنها الأخشن والأكثر إزعاجًا فى الحى .

"هاى ، انظر إلى ذلك " الليكربودا! " ، يصل الأب الآن إلى قسم من جادة "سيفرايت"، حيث تقف آخر المنازل ذات الشرفات الكبيرة ، تذكارات مفتته ، بالية لعصر عنيد ، عصر" بارناتوس"، و"سيسل رودس"

نعست فى استرخاء على شرفة قصر قديم فخم خمس عاهرات، كان الجزء الأعلى من المبنى مكسوا بالألواح الخشبية، والشعار التحذيرى المخيف، شعار الجمجمة والعظمتين المتصالبتين معلقًا هناك : (غير صالح للاستعمال، الدخول على مسئوليتك) .

نهضت ماريا ، إحدى العاهرات، ومسدت شعرها بيــدها النحيلة : " هاى، أب ستانلى، هيا تعال إلى هنا. "

فوراً نــهضت فتــاة تدعى "أديـل" ، وغــمغمــت بصوت خفــيض: " سأدخل البيت" .

تسأل ماريا: " هاى، ديـلا ، لماذا تجرين للداخل ؟"

يرتفع ضــحك خافت ذو مــغزى مــن بين نهدى ســوزانا الضخــمين المنتفخين، وتصيح: "هاى، ديـلا ، سمعت أنه طلب منك يوماً آخر فقط" .

ردت "ديـلا" من الداخل بسرعة : " هاى ، فويتسك"

"هاى، تعالى وانظرى إلى سراويل الحفل التى يرتديها اليوم"

ترد "ماريا" بينما الراهب لا يزال خارج مدى السمع: " أبى ، أبى ، متى ستدعــو قدماك بنطلونك لحفل، انتبه الأب "ســتانلى" إلى أنه موضع مزاح الفــتيات ، فأحــمر خجلا وارتبــكت خطواته ، ثم رفع رأسه لأعلى قليلاً. . . .

لا يجب أن يصلك انطبــاع بأن "دورن فونتين" قد ابتليت بالبــغايا أو المتشردين ، أو أن مثل هؤلاء الناس المبتذلــين أمر سائد فى هويتنا القومية، وبرغم ذلك، زلت قدم الأب "ســتانلى" المبجل فى الأرجل الممــددة لأحد السكارى الذى كان راقداً على مــقربة، حدث هذا عندما رفع عينيــه ناحية السماء فى ارتباك لأنه كان هدفاً لمزاح داعر.

تحت دعــوة تجديد المدينة، دك آباء المديــنة بيوتنا الواســعة، وقــسمــوا الأرض إلى قطع كثيــرة، وذلك اجتذب كل هؤلاء غــير المرغــوب فيهم ، فقد أغرت الأماكن المهجورة كل البشر المنبوذين.

على أية حال ، يرقـد الأب "ستانلى" هناك ، منبطحا علـى وجهه، والدم يتدفق من أنفه.

يزحزح المتـشرد ساقـيه ثم يروح فى النوم مرة أخـرى، يحاول الأب "ستانلى" النهوض على يديه وركبتيه، واستجماع حواسه من الدوخة .

ظهر التـعاطف الطبـيعى لدى العـاهرات مع من يسقطون ، فـهرعن لمساعدته ، والقول الأكـثر دقة: إن "أديـل"، التى كانت منذ لحظة ترفض مـجـرد الإيحـــاء بأية عـلاقـة مع الراهب ، هـى التى تحـوط الآن الأب "ستانلى" بذراعيها وتساعده على الوقوف.

فى هذا الوضع ، شاهدناه جـميعًا فى يوم الراحة المـقدس العاصف، واقفـاً فى جادة "سـيفرايت" وذراعـه يحيط بالعـاهرة النحيـفة "أديـل"، ورأسه يرتاح على كتفها.

ونحـن قوم بسطاء لا نميل للنبش تحت السطح، نأخـذ الأشياء حسب مظهرها. ها هوذا وجه الأب "سـتانلى" صورة لعينة للنعـيم، والأكثر من هذا، إنه مع تلك المرأة النفاية فى وضح النهار.. و يكفى هذا يا سيدى.

بقى سؤال محير .

لماذا "أديـل" بالذات هـى التى هربت داخل البـيت عندمـا اقـتـرب الراهب، ثم اندفعت فيما بعد ، قبـل زميلاتها لمساعدته ؟ أكان هناك شىء أكثر مما تراه العين ؟ فى هذا الوقت لم نكن نعرف، ما نعرفه حالياً بالضبط أنها تمارس تجارتها المريبة خارج "چوبيـرت بارك"، وأن سلعتها هى مجرد الظهور بفستان "محزق" ومكشـوف، تمشى وذراعاها يلتفان حول نحولها، حول جـسمـها "البناتى"، وبلا جدوى تـستجـمع قواها أمـام ريح عديمة

الرحمة، بلغت "أديـل" عامها الواحـد والعشرين فى العام الماضى فقط ، إلا أنها بالـفعل أم لصبى فى الخـامسـة، ربما هذا هو سبب انجـذابها للأب "ستـانلى" ، وربما يرجع عطفه عليـها لتـذكره لنشأته فى تـــلك الشوارع ذاتها.

هناك أحكام جـائرة لدى الناس غـير المبـالين مـثلنا، مثـلاً ، إن ابن العاهرة سيبقى ابن عاهرة، إذن ما الأمر!

من هذه اللحظة ، سيقاسى الرجل المسكين محنة مُعذبة ، يصر الأب "ستانلى" بتهور على إقامـة قداس المساء ، على الرغم من تأذيه وانزعاجه الواضح ، يقف الآن عند المذبح ، عـصبـيًا بـشكل ظاهر، يلقى موعظتـه بصوت أجش، وطرف أنفه ينتفخ ليستعيد سيطرته على نفسه .

تعاطف المصلون مـن "هيلبرو" والأماكن الأخـرى مع الراهب ، أما رعايا "دورى" فلم يكونوا مـثلهم ، أوه ، لا ! الرعايا المستقيـمون ضمن جمـاعتنا ـ رجال الأعمـال والموظفون الذين يسكنون فى شارع "سـميت" بالطرف القصى من منطقتنا ـ حدقـوا فى الأب "ستانلى" بنظرات عدائية . هؤلاء "الديكبيك" أعضاء ذوو ثقل فى مـجلس الأبرشية ، والحال ، هى أننا مجرد قتلة نبيح لأنفسنا إصدار أحكام غيابية من أجل مصالحنا ، بالفعل أخذوا يخططون لطرد الأب "ستانلى" .

أما على جـانبنا ، فإننا نستمـتع أيضا بورطته بالضحك والسخرية، وهى الطريقة ذاتها التى نعالج بها مشاكلنا ، فى الواقع ، علق أحد الشباب الساخر على ذلك بسـرعة ، بأنه أمر غير طبيعى لرجـل أن يحرم نفسه من المُتع المبهجة التى تقدمها واحدة مثل "أديـل" .

لا يريد هذا الشاب الذى يسكن فى الشارع المجاور لشارع "أديل" أن يفهم أياً من تفسيراتنا السطحية عن مهنة ورسالة الأب "ستانلى" ، وقال بطريقة مهيبة : " "ماذا إذن فى كونه راهبًا كاثوليكيًا ؟!، إن لديه عضواً ، أليس كذلك ؟"

ومن ساعتها، جرت معركة بين هؤلاء الذين يعتقدون أن الراهب مادام قد وافق على أداء رسالته، فإنه يجب أن يكون فوق المآخذ الإنسانية، وبين هؤلاء الذين يوافقون على أن مثل هذه الحماقات هى جزء من الرسالة الإنسانية ، كل ذلك يجرى ، بلا أية أوهام عن العدالة، إنها مسألة بسيطة إما أن نسامحه أو لا ، ونحن الذين فى الجانب الآخر من شارع "سميت" سوف ننسى بسرعة، وبتلك الوسيلة نسامح، لكن الـ"ديكبيك"خرجوا لسفك الدماء.

" هل لأنه يطوف بالشوارع محاولا إنقاذ الجميع ؟"

" نعم ، لأنه يريد أن يكون مُخلصًا بدلاً من أن يؤدى عمله كراهب" .

والكهنة حفظة قانوننا الأخلاقى قساة فى مهمتهم ، يختفى الأب "ستانلى" من المشهد ، وحسب الطبيعة الإنسانية المحزنة، يختفى من ذاكرتنا أيضًا، تساؤلاتنا القليلة التافهة واللامبالية أُشبعت بسهولة .

" إنه فى المعتزل" أو بضيق: " إنه يؤدى الكفارة" .

الأسقف الهرم ، الذى شوهد فى مناسبات عدة ، والذى نادراً ما استطاع الاحتفاظ بعينيه مفتوحتين، لم يرد تحمل تبعة أعمال راهب فضولى، فرغم كل شيء، فإن العجوز المبجل أصبح على وشك التقاعد،

ويريد أن يحفظ الأب "ستانلى" فى الثلج، حيث إن الأسقف الجديد يمكنه تجميده هو ذاته إذا استمر الراهب الشـاب على قيد الحياة فى العمل المنطوى على المخاطرة فى أثناء بحثه عن خلاص روحه.

كان شهر ديسمبر، خـمدت رياح أغسطس أخيراً، أو ربما عادت إلى "كرالها" - مشيعة بدعواتنا، ازدهرت الحـدائق مرة أخرى والنباتات "المعترشة" التى كانت تتلوى مشوهة المنازل ، لمعت بخضرة بهية عبر الطريق، كذلك ازدحمـت "الخرابات" بمعـمريهـا وهم خليط من البشـر، منهم من بذراع واحد، أو ساق واحدة ، كانوا يعودون كل مساء من المدينة بمزاج مرح بعد يوم شحاذة موفق.

ولأن الكريـسـمـاس على الأبـواب ، لذلك تزايـدت أعـدادهم ومكاسبهم، والعاهرات أيضًا كن فى رواج تجارى، فالمهاجر المتسرب للبلاد والمضُيق عليه ، قد أدخل تحسينات درامية على وضعه.

لكن أيام "أديـل" وزمـيلاتهـا كانت معـدودة ، فقـد نُصب أسقـفًا جـديدًا، والأسقف العـجوز الآخـر ذو النظرة المتـعبـة، تخلص من عبء عـبـاءته الثـقـيل وعـاد لموطنه أيرلندا ، وهناك ، أتاحـت له لجنة المجلس الكنسى الأيرلندية الموت فى سلام .

الزعـيم الروحى المحلى الجديد ، رجل شـاب مثلمـا يجب أن يكون الرهبان عـادة ، نفش شعره القصـير المجعد ، وأعلن فى خطبـته: " نحن لسنا هنا لنمد يد العـون للأصحاء والمستـقيمين فقط، نحن هنا لنـعيد إلى الطريق القويم أولئك الذين ضلوا الطريق، فالخطيئـة والإثم ليسا من المتعذر تغييرهما" .

ظننا أن ذلك لن يؤثر على جماعتنـا من "الليكرهوس" ، فالبغاء ليس خطيئة، بل هو عيب فحسب.

كنا نعرف القليل عن أسقفنا، كان يدور ذات الدورات التى كان الأب "ستـانلى" يقوم بـها، لكن بحنكة ورباطة جـأش أكثـر، ثم ، كمـا كان متوقعا، فإن حجم الأعمال الكنسية صارت كثيرة جدًا عليه، وبسبب رعب "الديك" الذين سـادت بينهم الفوضى بالفعل، أذاب الأسـقف الثلج عن الأب "ستانلى" ، وأرسله إلى الشوارع مسلحًا برخصة الإصلاح، ها هوذا الراهب الذى زحف ذات يوم عبر الشوارع الخالية وتعثر فى أحد المتشردين، يدخل الآن عامه الجديد بخطوة واثقة، قيل له: " لديك الفرصة لتصلح من صورتك فى عين الجـماعة، اعمل وسط هـؤلاء الذين ضلوا طريق العيش اللائق، خلص روحك. .. وخرج لينقـذ ، وكان الأب "ستانلى" يـتقد بالنار، تلك النار التى تطهر العالم أو تحرقـه.

تجول داخـل وخارج أوكـار الفسـاد ، يناشد هنا ، ويضـرع ويصلى هناك، كان يُرى فى مركز الشرطة وهو يضع فى كيس الكفالة للبغايا اللائى بعن سلعهن بطريقة غير قانونية ، أو فى المستشفيات هامسًا بكلمات المواساة للفتيات الشاحبات المحمومات اللائى يمتن بسبب أمراض البغايا المهنية .

نظرت العـاهرات لجـهـود الأب "ستـانلى" بعين الرضـا ولم يعـدن يزدرينه، فقد زودهن بفوائد جد حقيقـية، فقد كون نوادى صغيرة للأطفال تستضيفهم لأن أمـهاتهن "ذهبن لأعمالهن ليلا " ، وشكل منهم "كورالاً" أطلق عليه تـسميـة ملائمة تمامـا "ملائكة الليل" ، فكان الصـوت المخملى الناعم لذلك الكورال يسرى فى الليل مثل نور الشوارع السوداء.

كان الأب "ستانلى" مغرمًا بولد معين بشكل خاص، إنه "جون" ابن "أديل" ذو الخمس سنوات، فقد كانت الفتاة المسكينة داخلة خارجة من وإلى المستشفى ، لأن بنيتها لم تكن قوية بما يكفى لتحمل قسوة مهنتها.

حل موسم المطر، البلل والطين والقذارة ، غمرت الوحشة الشوارع ، وانتهى موسم الأعياد، وعاد المعربدون إلى منازلهم، عادوا إلى طمأنينة الكسل، إلى الحالة العادية، فقد بدأ موسم الزوجات مرة أخرى، وعادت العاهرات ينشبن أظفارهن - غالبًا فى بعضهن البعض - بحثًا عن العمل ولقمة العيش.

كانت الساعات أطول ، والبوليس أقل تساهلاً ، والطقس أسوأ، حل الشتاء ، باردًا وعاصفًا متوعدًا ، جفت الحدائق ووقفت الأشجار عارية بلا زينة .

والعاهرات ، مثل أغلب الناس الذين اضطروا للعيش بطريقة محفوفة بالمخاطر، كن يتطيرن ويخفن "سوزانا" ، "وماريا" ، والأخريات، اللائى أقمن فى جادة "سيفريت" ، اعتقدن أن "أديل" ومرضها المستمر، سببٌ أساسىٌ فى تعاظم سوء حظوظهن، فقد تزايدت مضايقة البوليس، والطقس كان باردًا بطريقة غير معتادة مما أبعد الزبائن.

" إنها هى الحظ السيئ عينه ، مرضها المستمر جعلهم يظنون أننا جميعا مصابات بالأمراض التناسلية . "

لهذا طردت "أديل" من المنزل بموافقة الأغلبية، وخوفًا من أن يستهدفهن النحس، ولكى يُسكن تحجر قلوبهن، أرسلن رسالة بذلك للأب

"ستانلى"، وجدها وطفلها يرتعدان فى "الخرابة" التى كان سكانها يمورون ببريق الرغبة، وعيونهم الشهوانيـة تلتهم الشابة الجذابة، قادهما عائدين إلى منزلهمـا، لكن رغم حججـه الكثيرة وتهـديداته، إلا أن العاهرات لم تلن قلوبهن، بل حـرمن على الأب "سـتانلى" الاقـتـراب من المنزل، وبذلك حرمنه من القسم الأعظم من رعاياه.

مشى فى الشوارع مع المرأة المحـمومة وابنها نائم على ذراعيـه، أخيرًا ، بعد أن لجأ إلى وسـائل عنيفة أكثر منهـا متملقة، وجد مسـتقرًا لـ"أديـل" وابنها فى حجرة مفروشة قذرة بشارع "روكى".

" تأتى غدًا وتصطحبهـا بعيدًا، لا أريد هذا الوضع السىء فى بيتى، فأنت تعرف أننى قد أفقد تصريحى، فهذه منطقة البيض".

عاد الأب "ستانلى" إلى صومعتـه ، وقضى ليلة مسهدًا يشق عليه الأمر ، أيثق فى الأسقف ويخـاطر بإفشاء حقيقة تشظـى رعيته، والولد ! بالتأكيد سـيرسلونه بعيدًا، وهذا سيكون منتـهى القسوة على "أديـل" التى فى رأى الأب "ستانلى"، ليس أمامها فى الحياة إلا شهور قليلة.

لا حاجة للقـول: إن الأب "ستانلى" لم يأتمن رئيـسه على أسراره، عاد إلى النُزُل ، حيث أسـتقبله المالك بعاصفة من الغـضب، " آه، سيدى الراهب ، أى بلاء جلبته لمنزلى ؟ هذه الفـتاة ظلت تصرخ طوال الليل مثل المجنونة، وقد اضطررت لإسكاتها مرتين، فـقد أزعجت نزلائى الآخرين، وقلت لهم : إن الراهب هو من أحـضـرها ، وأنا لا قبل لى بالعـراك مع الرهبان ، وهم يقولون : إنها عاهرة ، وكيف أن مجرد ياقة تجعل من المرء راهبًا، سوف ترحل مع صديقتك ، إه ؟"

مشى الرجلان فى الدهليز الكئيب ، صرفت أبواب ، وحدقت عيون بمكـر .

قلت لهم: " إننى واثق بـأنك راهب ، كم منهم صـدقنى ؟ كم منهم سيرحل ، إه؟ الآن من فضلك، احملها بعيداً عن هنا ، إه؟ "

من مكان ما شقت عاطفة طريقها بصعوبة ، وتدفقت بالحياة: " إن لم يكن لأجل خـاطر الولد، كنت ألقيت بهـما فى الشـارع الليلة المـاضـية، ولأنك راهب " .

سحب الأب "ستانلى" الستائر، رشـحت الشمس الشاحبة على وجه "أديـل" ، نظرة واحدة إلى خديها الملتهبين الغائرين دفعا الراهب للتصرف.

" استدع طبيبا " ، وأسكت اعتراضـات صاحب النُزل بإشارة مقتضبة من يده، "ها هوذا الرقم ، أخبر الطبيب أن الأب "ستانلى" هو من طلب منك استدعاءه" .

ظل الطبيب الخبـير يقرقر بأسف على حالة الفـتاة ، ثم أعلن بعد أن حقنها بحقنة مرعبة: " فى الوقت الحالى ستعيش" .

" أبتـاه ، لا أريد معرفة مهنة هذه الفتاة مهما كانت" .

" ش . . ش ا " ، ثم وضع إصبـعه على فم الأب "سـتـانلى" عندما حاول التـفسير، " إنها مـصابة بمرض تناسلى فى مرحلته المتـقدمة، أدخلهـا مسـتشفى، وبعـد ذلك . . . حـسنا، ربما تشفى، الله أعلم ؟ إنك تدعوه" .

" كـم . . . ؟"

" لا تدين لى بشىء، فأنـا أؤدى بعض الخدمات مـجانًا، ربما تصلى لأجل روحى".

توقف الطبـيب عند الباب، "سـتـانلى ، سامـحنى إذا كنت طرحت كلمة أبتاه لبـرهة، فإذا تجاوزنا عن كلمة أبتاه، فأنت فى مـثل عُمر ابنـى، لقد عرفتك منذ كنت طفلاً، كيف حدث وأصبحت راهبًا ؟ كيف أصبحت راهبا فى "دورن فونتين؟"

" القـدر، القدر وأمى"

" آه أمك ، حسنا ، وداعًا أبتاه"

وقف صاحب النُزل ينقر على رأسه عند المدخل متفائلاً .

هدأ الأب "ستانلى". ثم قال: " سيد باتل ، آسف لما سببته لك من إزعاج، لكننا نحتاج لسيارة إسعاف."

" لا. لا. لا ! الإسـعـاف تجلب الناس، يأخـذون فى التـحـديق، والثرثرة، هذا ليس حسنا لسمعتى، ولا لك أبدًا ، إه ؟

صدرت عن الأب "ستانلى" تنهيدة حزينة .

قال السيد "باتل" مقلداً الطبيب: " أبى ، انظر، لدى سيارة ، ليست مثالية ، لكنها تصل بصديقتك للمستشفى، إنها صديقتك ،أليس كذلك ؟"

ومن عيونه أطل بريق خبث متقد.

كـانت تمطر بالخارج مطـراً رخواً مـتواصـلاً ، يدعـونه بالأفريكانيـة "موطيرن" ، نظر بالمصـادفة فى المرآة التى تكشف الخلف، أو على الأصح نظر إلى الأب "ستانلى" الذى كان يوسد رأس المرأة المريضة حضنه.

توقف عند مدخل المستشـفى ، ورفعت "أديـل" على النقالة ، وضع الأب "ستانلى" بسرعة حفنة من الأوراق المالية فى راحة السيد "باتـل" .

" هاى ، سيدى الراهب "

" أهذا كاف ؟ "

هز السيد "باتـل" رأسه بأسف .

"إنه كثير جدًا، أبتاه ، إن لى ضميرًا ، على الرغم من أننى أسود ، بالإضافة لأنك راهب ، حظًا طيبًا. "

قضى الأب "ستانلى" الشهور التـالية فى رعاية ابن "أديـل" ، وبغير نجاح ، حـاول أن يعيد بناء عـلاقته مع رعـيته، وانقـطع الخيط الهش من الولاء الذى كـان يربطه وعـاهرات جادة "سـيفـرات" ، فـعلى الرغم من وجـوههن المبـهرجـة، والحلى الأخـرى المثـيـرة ، فإن العـاهرات نسـاء متشكـكات فى طيبة الدوافع الإنسانيـة، وبسخرية كن يعتـقدن أن للراهب غرضًا خاصًا هو: امتـلاك أديـل.

قـالت سوزانـا: " فليأخـذها، إذا كـان هذا الراهب يريد قطعـة من التورتة، فإن هذا شأنه، لكنه لا يجب أن يعظنى! "

" هاى يا رجل أرحل، ألا يمكنك أن تـترك إنسـانًا يشـرب الليكور، هيه ؟ "

كل ليلة كان يعـود إلى الكاتدرائية متـعبًا وخائب الرجـاء ، لا تواتيه الجرأة على البوح بفشله لأى من زملائه الـرهبان خوفًا من التخلى عن كل الحملة الإصلاحـية المستحيلة، مـاذا قد يحدث لابن "أديل"، ولـ"أديـل" ذاتها التى كانت تتحسن بالمستشـفى ببطء ، ولكن باطراد ؟ فقد كان يعتقد أنه مصـدر طمأنينة وقوة للمـرأة ، وكان قد رتب إقامـة الابن فى دار أيتام كاثوليكية مع ترتيب يضمن عدم إبلاغ السلطات بهذا الأمر، وقد كلفه ذلك الترتيب الكثـير من التملق والتوسل، والجـزء الأكبر من راتبه الضـئيل كل شهر.

دفع الأب "ستانلى" لقـاء خداعه الكثير من تعذيب الضـمير، فكان يصلى لساعات وهو راكع على قدميـه، راجيًا من الرب السماح والهداية، وقد كوفئ بتيبس الأطراف ، وفى النهاية، بعد هذا الاستنزاف الشديد ينام . كان ابن "أديـل" هو وميض البـهجة الوحيد فى حياته ، فـقد كانت عيناه مثل ومضة متـألقة، تلك النظرة التى افتتنت بها حتى الرئيـسة الأم المتزمتة لدار الأيتام .

أما "أديـل" ، فهى الآن مـتجردة من قناعها المبهـرج الفظ كعاهرة ، واكتشف فـيها امرأة ذكـية وفى غاية الرقة، كثـيرًا ما كان يجلس مـعها فى جناح المستشفى، ذلك الجناح المبيض باللون الأبيض الغامق، يتحدثان معا، ولبراءته راح يخطط لمستقبلها، أوجد لهـا ولطفلها مسكنًا. وسوف يجد لها عمـلاً، كان عـقله يلهث وراء الأوهام والآمـال، بينما هى راقـدة شاحـبة وضعيـفة، مستندة إلى الوسـائد مبتسـمة له ، ياله من وقت مفعـم بالحياة عـاشه الأب "سـتـانلى" ، كـان عُمـرًا طالت أحـزانه، بطول زمن رياح أغسطس ، بطول زمن الأمطار ، زمن طال بلا جدوى وبلا أمل.

خرجت "أديـل" من المستشفى عند نـهاية الشتاء ، ولـم يكن الصيف قد حل بعـد ، الأب "ستانلى" والصـغير "جون" ، انـتظراها عند البوابة والمطر يسيل على وجهـيهما ، لكم تغيرت الآن ! بلا أية مـساحيق ، دون رداء المستـشفى البشع الذى ظل يراها به طوال ثلاثة أشـهر، تحول جمـالها "البناتى" الذى كان قد تلاشى أثناء المرض، إلى تمثال منحوت لفتنة الجمال فى ضعفه.

طاف بذهنه ظل من الخـوف ، لكنه نحـى هذه الأفكار العـاصيـة ، أدخل الأم والابن المتعانقين التاكـسى المنتظر، ثم وجه السائق إلى عنوان فى "بيريا".

مرة أخرى عصفت الرياح حتى أغلقت القرية ، وهزت زجاج النوافذ فى أُطُرها الخشبية ، الأب "ستانلى" و "أديـل" كانا قد فرغا من عشائهما توا ، و"جون" نائم فى سـريره الخاص لأول مرة فى حياته، جـالت عينا "أديـل" بالكوخ الصغير النظيف المرتب ، نهضت وعانقت الأب ستانلى .

" لا أعرف كيف أشكرك ".

فى أول عهده بالكهنـوت ، كان يقمع أية رغبات جـسدية بضراوة ، ودفع غاليا مقابل أية فكرة متمردة ، حيث كان يردد "السلام المريمى" ألف مرة ، الكفارة والعـقوبة الذاتية أخمدتا فيـه أية عربدة عاطفية، وفيـما بعد رقدت غـرائزه محبـوسة فى صندوق حديدى بمكان مـا فى روحه، الآن ، وبعد عشر سنوات من التقيح والمنـى الخفى، ها هى ذى تتسرب من سجنها الحديدى وتسرى فى عروقه بالرعشة.

" أبتاه ، إنك تؤلمنى "

رفع رأسه عن كتفها، وأطلقها.

غطى وجهه القرمزى العار والحنق . . " سامحينى ، سامحينى . "

نظرت "أديـل" بذهول لوجه الراهب القانى المرتعد .

" ستانلى" ، "ستانلى" ، لماذا لم تقل لى"

احتضنت رأسه برقة وقبلته على فمـه وهى تسحب جسده إليها، عشر سنوات من الانفعـال المؤلم انفجرت فى ســرواله ، وراحت "أديـل" تمسد شعره .

" طيب ، طيب ، أفـهم ، مضـى زمن طويل جداً ، ســوف يكون هناك وقت طويل آخر" .

فقـد شجاعـته وانهار فى نشـيج حار منكس الرأس: " لا ! لا ! . " لمست "أديـل" ظهره المرتعش، نهض ، ودفعـها جانباً بفظاظة هاربًا، ظل يعدو طوال الطريق عـائداً إلى مأواه ، كأن الشيطان يلاحـقه، والمنى المبدد فى سرواله مازال طازجاً ولزجاً.

لأيام عدة بعد ذلك كـان يُرى وهو يحك جسمه بشدة بفـرشاة البلاط التى يحك بها أرضية حجرة الاجـتماعات ، جُرح وتمزق ظهره ، مع ذلك ظل مـثابراً على هذا العـمل، كأنه ابـتلى بداء رهيب ، ورقد عـارياً على أرضية حجرته وراح يصلى باستمرار.

أما الأسقف ، على الرغم من خوفه على صحة الراهب ، إلا أنه لم يعترض سبـيله فيما يفعل ، فمهـما كانت خطيئته ، فـإنه وحده سيكتشف كفارته الخاصة ، وسيجد الغفران طريقه إليه .

ذات يوم هزه أحد الرهبان وهو يرتل صلواته المتصلة.

"أب ستانلى ، أب ستانلى ، هناك ولد صغير جاء ليراك"

ظل مبهور الأنفاس ومشى يتعثر فى اتجاه الحديقة ، وكان يساعد ساقيه المثخنتين الواهنتين بالاستناد إلى جدران حوائط الرواق .

" چون " .

" مرحبا ، أبتاه "

" ما الذى تفعله هنا ؟"

بدا الولد قذرا وشعثاً مثلما كان دائما .

" جئت لأراك يا أبتى"

" لما تبدو على هذه الحال ؟ أين أمك ؟"

نكس الولد رأسه فى خجل ولم يرد .

" أوه ، يا إلهى ، ليس ثانية . "

كان الأب ستانلى قد نسى أن يدفع الإيجار ، ربما طُرِدوا ، والباقى سهل معرفته ، اضطُرت "أديل" لاستئناف عملها القديم .

" لم أرَ أمى منذ أسبوع "

بسرعة اغتسل ولبس ، واستعاد وجهه الكابى وعيناه الغائرتان رباطة الجأش ، بحثا فى المستشفيات ومراكز البوليس ، وكل أماكن اصطياد الزبائن المعروفة ، لكن لم يجدا أثراً لـ"أديل" .

عادا متعبين لصومعة الأب "ستانلى" وتناولا العشاء ، الطريقة النهمة التى كان يأكل بها ضيفه ، بينت له قدر معاناة الولد ، معاناة شاقة أكثر من معاناته بكثير ، ها هوذا يعرف المعنى الحقيقى للخطيئة.

جلس الأب "ستانلى" خارج مكتب رئيسه والولد جالس على ركبتيه ، قبالته جلست مجموعة من " الديكيبك" العابسين فى أرديتهم السوداء ، وكان أحدهم يمشى جيئة وذهابا فى الردهة بحذاء يصرف .

أدرك الأب ستانلى لِمَ استدعى .

فُتح الباب ودخل الوفد مكتب الأسقف .

لماذا يبدون متشددين جداً .

" إنهم فى نوع من السجن أيضا .

" أوه "

فى الخارج هبت الرياح باردة ، وغسل المطر النافذة ، الدموع على الخدود المصطبغة مثل سطح جرح ، ورجل يمشى بالجوار ، ثم يتوقف ناظراً للنافذة ، كان يروم هذا الدفء الندى ، ربما كان راهبًا أخرق يتلمس طريقه فى ممر ضيق بينما يكتنفه الغموض ، لقد امتزجت حياته بشوارع "روكى" ، و"بايت" و "كورى" مثل مطر فى أرض بكر عطشى .

كان الأب "ستانلى" يفكر فى بدايته الخاصة ، هنا فى تلك الشوارع ، إذ ربما ، هناك تحت شجرة كانت ترشح بضوء النجوم وقطرات المطر ، بذر رجل غير معروف بذرتى ، ربما كان مدفوعا بجوع عورته ، وكانت أمى خادمة شابة من "كارو" غير معروف .

فُتح الباب وانسل منه الوفد وهم مبتسمون بفخر ، كأن شخصا ما شق حلوقهم غير التقية، " هبت العاصفة" ، اعتاد أسلافه فى القرية مداواة النفوس التى يتلبسها الشيطان ، وكان العلاج عنيفًا وقاسيًا جدًا على المريض المسكين ، إن قدرة الشيطان على البقاء حيًا غير عادية. فى هذه اللحظة يمشى الشيطان ·· فى سواد كامل ·· وحذاؤه يصرف فى الردهة.

" أبتاه ، إننى مبلل من المطر"

كان صدى المطر يترجع على الأسطح المنخفضة من حولهما: "بنج - بانج "

" لماذا لا تثق بنا ؟"

" إننى أثق بالله "

" أبتاه ، أنت على حافة التجديف ! "

" لا : إن حدوده بداخلى ! "

" يا بنى ، أنت مشوش "

" ليس أكثر ولا أقل من العالم ، ليس أكثر من البذور التى بداخلى"

" إنهم يعرفون أنك ملون "

" لم أنكر ذلك ، والحياة تفسد اللون"

" أبتاه ، لا تتلاعب بالألفاظ ، إنهم يتذرعون بذلك للقضاء عليك . "

" وأنا لا أقضى على نفسى"

" والمرأة ؟ "

" إنها امرأة ، ملاك ساقط "

" والطفل "

" إنه تَذكِرة لى "

" أب ستانلى ، هل أثمت ؟ "

" منذ صرختى الأولى ، والأخيرة "

الطريق إلى ميجاوى[1]

تأليف : "كين ليبينجا"

رغم أن الأوتوبيس حمل أكثر من سعته وأصبح مثل علبة السردين ، مع ذلك ركب بعض المسافرين من " تشيكاتيل" زيادة عن حمولته ثم استمر فى طريقه، الطريق مخضل بالماء ومطر مارس المتواصل يطرق بنعومة وبلا انقطاع على سطح الأتوبيس، خارج الأتوبيس تقف بكسل الذرة الناضجة فى الحقول، ثملة من كثرة المطر، الموسم المطير المظلم الطويل الثقيل اقترب من نهايته، وعاجلاً سيقوم الناس بالحصاد.

لكن، لا الطريق الموحل، ولا الحصاد الوشيك يمثلان شيئًا جديدًا أو مثيرًا بالنسبة لى، فلتسع سنوات كنت قاطع تذاكر الأتوبيس، ولا تحصى تلك المرات التى كنت فيها على الطريق خلال هذه السنوات التسع، سواء كان موسمًا ممطرًا مثل الآن، أو أمسيات سبتمبرية متربة، أو صباح بارد من يونيو، فهى كلها سواء بالنسبة لى.

إننى دائمًا -وباستمرار - أرغب فى شىء واحد. أن أصل إلى نهاية الرحلة بأسرع ما يمكن، ويبدو أن أمنيتى لن تتحقق أبدًا، حينئذ أحس بأنى مربوط إلى نفس الطريق كل يوم منذ أن بدأت العمل، أقسم أننى أعرف تاريخ حياة كل جسر، وكل حجر وكل شجرة فى الطريق من "ليمبا" إلى "ميجاوى". كل ماضىّ على الطريق، كذلك حاضرى، ولا يمكننى تخيل

المستقبل بعيداً عن هذا الطريق، الطريق من "ميجاوى" والوصول إلى "ليمبا" ، ثم العودة مرة أخرى إلى "ميجاوى" . . .

أجد قليلاً من المتعة فى تذكر ماضىّ قبل أن أعمل قاطع تذاكر، أعرف أننى ذات يوم كان لى أب وأم، وأننا عشنا ذات يوم فى كوخ صغير، بمزرعة كبيرة للشاى فى "ميولانج" ، لكن بالنسبة لهذا الجزء من الماضى، بقى منه فى ذاكرتى شىء غائم مثل حلم، مات والدى عندما كنت صبيًا، لدغته أفعى فى أثناء عمله بالمزرعة، وعاشت أمى، تبيع الـ "كاتشوشو" حتى ترانى فى المدرسة الابتدائية، عندما تحقق لها هذا الهدف، راحت تغرق نفسها فى شرب الخمر حتى ماتت فى ذلك اليوم الذى كنت راجعًا فيه إلى البيت بأول مرتب لى، وقطعة القماش الـ "تشيندو" الجديدة التى اشتريتها لها استعملت فى تغطية نعشها.

لى أيضًا أخٌ أكبر كان قد ذهب للعمل بالمناجم فى جنوب إفريقيا، فى أول الأمر اعتدنا على مراسلة بعضنا البعض، ثم توقف أخى عن الرد على خطاباتى، فتوقفت عن الكتابة له.

يتوقف الأتوبيس عند محطة من المحطات العديدة، فأسأل بصوت عالٍ إذا ما كان أحد سينزل هنا، لا يرد أحد، وبناء عليه، يبدأ السائق فى إدارة محركه ويتحرك الأتوبيس، لكن بعد ثانية يدق شخص ما الجرس، فيتوقف الأتوبيس مرة أخرى.

يقول رجل وهو ينهض واقفًا من مقعد ليس بعيدًا عنى: "إننى نازل هنا" ، وبينما الرجل يشق طريقه للنزول، يرفع العديد من الركاب عقيرتهم بكلمات غضبى، غير صالحة للنشر، لا أوجه للرجل الذى تسبب

فى إيقاف الأتوبيس أى تأنيب، فيؤدى بى ذلك إلى أن أرشق أنا أيضًا ببعض الكلمات البذيئة.

قبل أن أصبح قاطع تذاكر، كنت أعمل مساعدًا فى مختبر محطة أبحاث الشاى، وكانت وظيفتى أن أجلس طوال اليوم وأسجل قراءات آلات غريبة ومعقدة، والتى قيل لى: إنها تقيس نسبة دُكنة الشاى المُصنع، لم أفهم قط معنى تلك القراءات، ودع جانبًا معرفة كيف توصلت الآلة إليها، لكن رئيسى قال لى مرارًا إن وظيفتى ذات أهمية كبرى فى تحسين الشاى، حتى هذا لم أفهمه، رغم ذلك أحسست ببعض الفخر لمساهمتى فى أمر له بعض الأهمية، ثم، صرت أتعب بسرعة من الجلوس فى الموضع ذاته وتسجيل نفس الرموز يومًا بعد آخر، رتابة العمل هددتنى بالجنون، فتركت الوظيفة بعد عام واحد فقط، قلت لزملائى عندما تركت هذا العمل: "أريد وظيفة ممتعة، سأعمل قاطع تذاكر؛ فهذا العمل به تنوع، ناس مختلفون، وأماكن مختلفة كل يوم"

دق الجرس مرة أخرى، وتوقف الأتوبيس لإنزال بعض الركاب،

قال واحد من بين هؤلاء النازلين: "لى دراجة على السطح"

وقال آخر: "وأنا لى كيس ذرة"

أقسم أننى أعرف السبب الذى جعلنى أشيخ وأصبح نحيفًا .. فأذناى صارتا متعبتين من سماع مثل هذه الأشياء، لقد سمعتها مئات المرات، لا، بل آلاف المرات، وكنت أدعو دائمًا أن يجئ اليوم الذى يرحمنى الركاب فيه من هذه الكلمات.

وصل الأتوبيس إلى أسوأ جـزء من الطريق وراح يتحـرك ببطء، أخذ السائق يؤرجح الأتوبيس من جانب لآخر مـحاولاً السير فى الأماكن الأقل وحلاً، كم من مرة انغرزت العـجلات فى الوحل، وكان الركاب يضطرون للمساعدة فى دفع وتحريك الأتوبيس.

أقول بصوت عال دون قصد منى: " متى سنصل إلى" ميجاوى؟

يسمعنى السـائق، ينظر فى ساعته وهو شـاعر بالذنب ، ثم يقول: " لابد من أن نكون هناك فى تمام الخامسة "

السائق رجل عـجوز جداً، يعمل سـائقًا منذ أكثر من ثلاثين عـاماً، تجاوز سـن التقـاعد بكثـير، مع ذلك فـإن كل محـاولات "شركـة النقل الوطنية" لإقناعه بالتقاعد قد فشلت، لم يفهم أحد لماذا هذا الرجل العجوز، غريـب الأطوار - والذى يقال عنه : إنه غنى جـداً - يفضل التـعب على الراحة فى البيت؟! ومع ذلك أشك أنه سوف يموت وهو على الطريق.

فهو خلف عـجلة القيادة يبدو رشـيقًا ونشطًا، فترتخى إحـدى عينيه على المجسمات، والأخرى "صـاحية" على الطريق، يتلوى بالأتوبيس كأن قوة تدفعه إلى تابوته قبل موعد موته.

تمايل الأتوبيس بشدة عند موضع مقلقل، مـرتقى صاعد خلال الطين الزلق، وعدة نهيرات تقرقر مياهها حافرة عدة خنادق فى الطريق.

" كلكم ينزل ويدفع . . . "

أحسست أنه ليس السائق فحـسب، ولكن أيضًا الركاب الذين قابلتهم، جمـيعهـم يحتاجـون للبقاء عـلى الطريق، أو كأن الطريق يمدهم بأسـباب الحياة، كأنه يمثل لهم شيئًا لا يشـفون منه أبدًا ، هذه الفكرة أثارت الشفقة فى نفسى، لكنها أيضًا أزعجتنى.

لقد صرت قاطع تذاكر كى أهرب من السأم، أهرب من موضوعية الآلات التى تقيس دكنة الشاى، لكن بعد تسع سنوات، لم أجد اختلافًا كبيراً بين دُكنة الشاى، ودُكنة الرجال، حقًا تبين لى أن الركاب الذين نزلوا فى "ليمبا" هذا الصباح الممطر، كانوا هم نفس الركاب طوال السنوات التسع الماضية.

هذا الرجل الوقح الثرثار خلفى ، يجلس فى هذا المقعد منذ تسع سنوات، ولا يزال يحكى قصة نجاحه فى بعض الأعمال، كذلك أيضًا الرجل الآخر بجوار النافذة، الذى يدخن طوال الوقت بينما يصر على أن تكون جميع النوافذ مغلقة، وذاك الطفل الباكى الذى يبدو أنه لن يكبر أبدًا. وهناك أيضًا تلك المرأة السمينة، التى تضغط بحذق على كل شخص يحاول أن يقاسمها المقعد . . . أجل، هؤلاء هم نفس الركاب ، ونفس الطريق ، ونفس الرحلة بلا نهاية.

" كلكم ينهض ويدفع "

تواصل سقوط المطر، ووصل السائق التلوى من جانب لآخر ، ليتجنب البرك الصغيرة الموحلة، والأتوبيس يئن باستمرار، كأنه مرعوب من حال الطريق، أو من وزن حمولته، التى بقيت على حالها على الرغم من الركاب الذين نزلوا، هذا الأتوبيس دائماً كان ممتلئًا مثل علبة السردين، ويبدو أن الركاب يتزايدون طوال الوقت.

عند "كامبنجى" توقف الأتوبيس لالتقاط بعض الركاب المنقوعين فى ماء المطر، وبينهم رجل يلبس أسمالاً بالية، معطفًا ممطراً أصفر ممزقًا، تابعته بعينى عن قصد حتى دخوله، أجل، حقا! إنه أبى! بالضبط بنظرته الصلدة التى تطل من وجهه ، هو بالضبط، وتلك الانحناءة الخفيفة لكتفيه

بسبب انحنائـه لجمع أوراق الشاى، الشىء الذى لا يصـدق، إنه لأول مرة خلال السنوات التسع، اندفعت أمام عـينى صورة نابضة بالحياة لأبى، وآمى، وأخى، وبيتنا الصغير بمزرعـة الشاى، وأشجار "الأفوكاتو"(٦١) و"البابو" أمام البـيت، يظهر السـقف الأحمـر للمصنع من على مـسافـة، والدخان الأسود يخرج من مداخنه، كل شىء ظهر أمامى بكل تفاصيله.

سمعت غناء العمال عند قطفهم أوراق الشاى فى الحقول، رأيتهم فى معـاطفهم الصفـراء الخشنة، وسلال "البـامبو" مطروحـة على ظهورهم، أحس الآن مثلمـا كنت أشعر فى ذلك الحين.. الإعـجاب بهؤلاء العـمال الذين جعلت أغنيـاتهم الكدح والشقـاء فاتنًا وجذابًا. وتحـركت إلى حيث يقف الرجل، وربتُّ عليه بحبور.

هتفت: "أبى!"، وشعـرت بالدموع تملأ عينىَّ، استـدرت وابتسمت لكل الناس فى الأتوبيس، ورأيت فـرحتى وقد انعكسـت على كل الوجوه من حولى، أوه، ياله من عـالم جميل! تقـاطر المطر على السطح، وتحول أنين المحرك إلى أصوات فرح، والرجل العجـوز خلف عجلة القيادة أصبح فى قمة السعادة، أصوات الركاب والبكاء المتواصل للطفل، تجمع كل ذلك ليملأنى بالانفعال والسرور غير العادى.

" أبى ! "

إذن ، أبى وأمـى لم يموتـا قط، وأخى لـم يذهـب قط إلى جـنوب إفريقيا، وأنا لم أسجل قط قراءات الآلات التى تقيس دكنة الشاى.

(٦١) شجرة «الأفوكاتو» : نبات أمريكى استوائى مثمر من فصيلة الغاريات . نو ثمر يشبه الأجاص (الكمثرى).

وفجأة ، وضع السائق قدمه على الفرامل ، واهتز الأتوبيس بعنف حتى توقف ، وسقط الركاب الواقفون فوق بعضهم البعض، أحاول ألا أسقط بالتشبث بالرجل الذى تخيلت أنه أبى، لكن الرجل هو ذاته كان قد سقط وسحبنى معه لأسفل، اختفى كل حلمى، وأحسست كأنما أعود فجأة من خدر، وأنا والرجل الذى دعوته أبى يعاون كل منا الآخر للوقوف على قدميه.

انغرز الأتوبيس مرة أخرى فى الطين؛ وغاصت العجلتان الأماميتان فيه عميقًا حتى أن تحريكهما استغرق ساعات قبل أن نتمكن من مواصلة السير.

عندما نجحنا أخيراً فى سحب الأتوبيس، قال السائق: " لابد من أن نصل ميجاوى فى السابعة. "

تلك الكلمات، فيما سبق، كانت تعيد إلىَّ الطمأنينة، أما عندما سمعتها هذه المرة ، أصابتنى ببرودة تامة، بدأ مشهد الوصول الآن يخيفنى، لم أقل شيئًا، ورحت أنظر إلى حقول الذرة الناضجة بالخارج.

الوقع البطيء لقدميه

تأليف : " دامبدزو مريكورا "

يومًا ما ، إذا جلست ، فى هذه الزاوية
خالى البال .. منصتًا ،
ربما ،
قد يأتى من هذا الطريق ..
الوقع البطيء لقدميه،
(ج .د .س .بيلو)

حلمت الليلة الماضية أن الجراح البروسى جون فريدريش ديفنباخ قد قرر بأننى أتلعثم فى الكلام ، لأن لسانى كان ضخمًا جدًا ؛ فخفضه إلى حجمه الطبيعى ، بقص مقدار وافر من الطرف والجانبين، أيقظتنى أمى لتقول لى : إن أبى قد دهسته عربة مسرعة فى الساحة .. ذهبت إلى المشرحة لرؤيته ، كانت عيناه مفتوحتين ، وقد خاطوا الرأس إلى الجذع، حاولت إغلاق عينيه ، لكنهما لم تغلقا ، دفناه وعيونه ما تزال مفتوحة ومحدقة لأعلى .

كانت تمطر عندما دفناه.

كانت تمطر عندما استيقظت باحثاً عنه، يرقد غليونه فى مكانه حيث كان دائمًا، على رف المدفأة، عندما نظرت لـلغليون انهمر المطر بشدة وراح يخشـخش، على السطح الصفيـحى لذكرياتى معـه، وقفت كتـبه المجلدة منتصبة فى خـزانة الكتب، صامتة، من بينها كتـاب أوليفر بلدشتين "دليل التلعثم"، هنالك أيضًا نسخة مطابقة للوح عظمى مكتوب باللغة المسمارية، تلك اللغة التى كـان يكتب بها لقرون عـدة قبل ميلاد المسـيح، كان اللوح يحمل صلاة جادة للشفاء من كرب التلعثم، أخبرنى والدى أن "موسى"، وديموسثينس"، و"أرسطو" كانوا أيضًا يعانون من إعاقة فى الكلام، كذلك كان الأميـر "باتوس"، الذى نصحه مسـتشاره أن يشفى نفسـه من التلعثم بغزو الأفارقة الشمالـيين، وأن "ديموسثينس" ذاك علم نفسه أن يتكلم دون عوائق بموجات من الصياح تنطلق من فمه الممتلئ بالحصى.

كانت ماتـزال تمطر عندما رقدت وأغلقت عينىّ، فـاستطعت أن أراه ممدداً فى المقبـرة المخضلة بالمـاء، يحـاول تحريك فكيه، عـندما استـيقظت شـعرت بـه يسكننى، وكـان يحاول الـتكلم؛ أما أنـا فلم أقدر، غـمـغم "أرسطو" بشىء عن كـون لسانى غليظًا وثقـيلاً على نحـو غيـر عادى، "هيبوقراطيس" فتح فمى بالقـوة وألصق مواداً على لسانى لتسحب السائل الأسود منه "سـيليسوس" هز رأسه وقـال: "كل ما يحتـاجه غرغرة جـيدة وتدليك"، لكن "جالين" - الذى لا يجوز التغاضى عنه - قال: إن لسانى بارد ورطب فحسب، بينما "اقترح فرنسيس بيكون كوبًا" من النبيذ الساخن.

وأنا ذاهب إلى حانة الجعة، شاهدت طابورًا طويلاً من ناقلات الجنود تتقدم ناحـية بوابات المدينة، كانوا جنوداً من البيض، قـفز أحدهم للأرض

مصوبًا سلاحه نحوى، وطلب رؤية أوراقى، كان معى فقط بطاقتى الجامعية ، تفحصها لوقت طويل حتى أننى تساءلت فى نفسى عن الخطأ الموجود بها.

سألنى: "لماذا تتصبب عرقاً؟"

أخذت ورقة وقلمًا وكتبت شيئًا ما وأريته له.

" إه، أبكم ؟ "

أومأت برأسى .

" إه، وتظن أننى أبكم أيضًا ؟ "

هززت رأسى بالنفى، لكن قبل أن أتمكن من الانتهاء من هز رأسى، ارتفعت يده عاليًا ونزلت على فكى بالضبط، رفعت يدى لأمسح الدم، لكنه أمسك بها بقوة وضربنى مرة أخرى، انكسر طقم أسنانى وخشيت أن أبتلع الشظايا الخشنة المفلولة، فلفظتها من فمى دون أن أمد يدى ناحيته.

" إه، أسنان زائفة أيضًا ؟ "

كانت عيناى غائمتين وتوخزاننى بشكل مؤلم، لم أتمكن من رؤيته بوضوح، لكننى أومأت بنعم.

" إه، هوية مزيفة أيضًا "

كانت تحدونى رغبة عارمة لتحريك فكى وإجبار لسانى على الكلام كى أكرر له بياناتى الموجودة فى بطاقتى الجامعية، كل ما نجحت فيه هو النق كضفدع، أشرت لورقتى وقلمى اللذين سقطا على الأرض.

أومأ برأسه موافقًا.

لكن عندما انحنيت لالتقاطهما، رفع ركبته فجأة ونزل بها على رقبتى التى كادت تنكسر.

" إه، تبحث عن حجر، أليس كذلك؟"

رحت أهز رأسى، التى كانت تؤلمنى، بالنفى، هززتها إلى درجة أننى لم أقدر على التوقف عن هزها بعد ذلك، كانت هنالك أقدام تركض خلفى؛ صوتا أمى وأختى، فقد صدر بيان صارم بإطلاق النار، هوجمت أمى، وهى تمشى بخطوات مسرعة، تصلب جسمها فى الهواء القارص، وأطلت من عينيها نظرة محدقة للأمام، فى اللحظة التالية، انكسر شىء ما فى داخلها وسقطت متداعية، يد أختى الممدودة ، التى ترتفع لتلمس وجهى، طارت إلى فمها المفتوح، واستطعت أن أرى عضلات حنجرتها وهى تصرخ من فمى.

ماتت أمى فى عربة الإسعاف.

صرخت الشمس دون صوت عندما دفناها، سطعت الشمس فى دوائر ساخنة وباردة، أختى وأنا، مشينا أربعة أميال عائدين للبيت، مارين بمستشفى " الأفارقة فقط " ، ومستشفى " الأوربيين فقط " ، ومعسكر البوليس البريطانى لـ "جنوب إفريقيا " ، ومكتب البريد، ومحطة السكك الحديدية، وعبرنا حزامًا أخضر باتساع ميل ٠٠ ثم دخلنا منطقة السود.

لف الصمت الغرفة٠٠ شعرت بالصمت يحاول تحريك لسانه وفكيه ليكلمنى، كنت أحدق فى عوارض السقف الخشبية، فسمعت أختى تذرع غرفتها الملاصقة لحجرتى رائحة غادية، أحسست بها تسكننى بشدة ٠٠

لم أعد أحتمل، لم تكن غرفتي تحوى سوى السرير الحديدى، ومكتبى، وكتبى، ولوحات كنت قد حاولت منذ زمن بعيد أن أصور عليها شعور الصمت، والأصوات اليائسة التى بداخلى، غشيتنى الدموع وشعرت بها تسكننى، لم أعد قادراً على الاحتمال ، رحمة بى انفتح الباب ٠٠ وجاءوا يسوقونها من يدها، كانت مرتدية ملابس ناصعة البياض، انبعث منها ضوء أزرق شاحب، فى قدميها الصغيرتين صندل جلد أبيض لامع، لكن مغناطيسية وجهها العظمى ومحجرى عينيها الفارغين، والأطراف الحادة لأسنانها ـ كان سطح سنة من أسنانها مكسوراً ـ وعظم وجنتيها المرتفع، والأنف المجدوع بوحشية، مغناطيسية كل ذلك أمسكت بعينى المحدقتين وكأنهما امتصتا فى صمتها الجامد .

كان مرتديًا الأسود، يدها العارية من اللحم ترقد ساكنة بين أصابعه العارية من اللحم، رأسه لم تُخَطْ بدقة، كانت مائلة إلى جانب، وبدت كأنها سوف تسقط فى أية لحظة، كان بجمجمته فلق من أعلى وسط الجبهة إلى طرف الفك السفلى، أعيد لحام الجمجمة بغير إتقان لتأخذ شكلها، ورغم ذلك، بدت كأنها ستسقط فى أية لحظة.

كان الألم بعيونى غير محتمل، رفت عيناى، عندما فتحتهما، كانوا قد اختفوا، كانت تتنفس بعسر مما جعل صدرى يتوجع، مددت يدى ولمستها: كانت دافئة وحية، وخرج نَفَسَها مصحوبًا بالألم فى صوتى، كان يجب علىّ أن أتكلم، ولكن قبل أن أتمكن من نطق أى لفظ، انحنت فوقى وقبلتنى، النفس الحار هزنا

الموسيقى النحاسية والوترية لفرقة عسكرية تبتعد.

سطوع الشمس في شارع تريزوند[1]

تأليف: "آلن باتون"

اليوم قال لى الضابط : سأقدم لك خدمة، لم أرد عليه ، فأنا فى غنى عن خدماته ، قال: لا يفترض أن افعل ذلك ، إذا أمسكوا بى سأواجه المتاعب ، ثم نظر إلى كأنه ينتظر ردًا، كان يمكن أن أقول له٠٠ إن ذلك قد يحطم قلبى ، لكننى لم أقلها ، أعتقد أنى لن أتكلم ما لم يعود ذلك علىّ بفائدة ، هذه واحدة من قواعدى الراسخة .

سأل: ألا تريد أن أقدم لك خدمة ؟ قلت: أنا لا أهتم ، إذا ما قدمت لى خدمة أو لم تفعل ، لكن إن أردت أن تؤديها فهذا شأنك .

إنك شيطان عنيد ، ألست كذلك ؟ لم أرد على ذلك ، ورحت أراقبه، إننى أراقب "كاسبر"منذ فترة طويلة ، وتوصلت إلى أنه يميل لاحترامى ، و إذا كان "الميجور" يعرف واجبه ، فإنه سوف يقصى "كاسبر" بعيدًا عنى ، ويبتلينى بواحد أشد ضراوة .

ألا تريد الخروج من هنا ؟ لم أرد ، فهناك نوعان من الأسئلة لا أرد عليها ، وهو يعرف ذلك ، النوع الأول تلك الأسئلة التى يريد أن يعرف إجابتها ، والنوع الثانى يعرف إجابته بالفعل ، بالطبع أريد الخروج والابتعاد عن تلك العيون المتفحصة الصارمة التى لا يمكنك أن تتحملها إلا إذا كانت عيناك متفحصتين و قاسيتين أيضًا ، أريد أن آكل طعامًا شهيًا ،

وأشرب قليلاً من النبيذ ، فى مكان ما به مـوسيقى هادئة وأضواء خافتة . أريد٠٠ لكننى استبعدت ذلك من تفكيرى تمامًا، لقد وضعتها قاعدة .

كم يوما لك هنا ؟ لم أرد على ذلك ، لأنى لا أعرف ، فـقد توقفت عن العد ، ولا أريد لـ "كـاسبر" أن يعـرف جهلى بذلك ، عندمـا منعوا عنى الكتاب المقدس ، كان قد مر ٨١ يـوما، و بجهد إرادى استنفذنى ، استطعت الإحصاء حتى ١٠٥ يومًـا ، كنت على حق ، فلى أكثر من مائة يوم بأية حال ، لأنهم فى ذلك اليوم جاءوا لإخـبارى - بشكل احتفالى - أنه عمل بالقانون كذا وكذا ، والمادة كـذا وكذا ، يتحفظون على لمدة ١٠٠ يوم أخرى ، وسوف يطلقـون سراحى عندما أجيب على أسـئلتهم بشكل مُرضٍ ، صدمت من هذا القرار ، ومع ذلك حـاولت إخفاء صدمتى عنهم ، لكنى فقدت صـوابى بعض الشىء ، فصحت بأعلى صوتـى،" تحيا سلطة القانون" ، كانت حماقة ، لم يعد ذلك على بشىء ، بعد ١٠٥ أيام كنت محطمًا تقريبًا ، ففى الـصباح التالى لم أعد أذكر هل هى ١٠٦ ، أم ١٠٧ أيام ، بعد ما حدث لا يمكنك أن تتذكر شيـئًا ، تفقد يقينك ، تصبح مثل رجل أعمى سقط فى غائط بماخور ، لا احتفال بعيد الميلاد ، لا فُسحة فى وسط المدينـة ، ولا خطابات من الخـارج ، هـذه الخطابات التى تجـعلك تتذكـر، أما إذا حاولت الرجـوع لذكرياتك ، فـإن الأمر يبدو مـثل العودة للبحث عن شىء سقط منك بالأمس فى الصحراء ، أو فى الغابة ، أو فى ماء البحيرة ، شىء ما ضاع منك ولن تجده مطلقًا .

استغرق ذلك منى أياما كثيرة لأقنع نفسى أن كل ذلك غير هام، شىء واحد فـقط هو المهم، ألا أعطيـهم فرصـة لاقتـحام ذاتى ، وكـان مثـالنا

البطولى النبيل هو "ب. ب . ب." الـذى لم يتكلم ، أو يصرخ، أو يقف ، أو يفعل أى شيء طلبوا منه أن يفعله ، لم ينظر حـتى إليهم، إن كان مثل هذا الأمر ممكنا ، الحبس الانفرادى لم يؤثر فيه ، فقد كان يمكنه الانسحاب لعزلته الخاصة ، كأنه نوع من التلاشى، لقد مات فى إحدى نوبات انعزاله ، البعض يقول أنه انسحب بعيـدًا جدًا ولـم يستطع العودة ، وآخرون قالوا : أنه عُذِبّ حتى الموت، أى أن الألم اقتحم العزلة فى النهاية ، من يدرى؟!

حتى الآن لم يمسـونى ، وإذا حدث ، ماذا سأفعل ؟ قـد يفتح الألـم باب تلك الذات ، إن خـوفى من ذلك هو الذى يجعلنى غـير مـغرور ، فالغـرور دائـمًا يمنى بالعـقاب أسرع من أى شيء آخـر، هذا أثر من إيمانى الذى خسرته .

قال كـاسبـر: إنك تفكر بعـمق ، سوف آتى غـدًا ، أتوقع أن آتيك بأخبار طيبة.

أخبرنى كاسبر: إن "رفـائيل شوارتز" قد قُبض عليه ، كل همى كان الاختـباء منه ، فلأول مرة أقف أمـامه وعورتى وذاتى عاريتـان ، لا أجرؤ على سحب ملابسى حـولى ، لأنه سيعرف ما سببـه لى ، لمـاذا لم يحضر الأجهزة ليقيس التعاظم المفـاجئ المتعذر ضبطه فى سرعة ضربات القلب ، وتوتر عضلات الـوجه ، وانقباض بؤبؤ العين ؟! أم يظن أنه سـيعرف دون أجهزة ؟! لا يبدو عليه أنه يلاحظنى باهتمام؟!، ربما يضع الطعم بإهمال ، واثقًا من أن الفريسة سوف تقع من تلقاء ذاتها ، لكن ألا يعرف أن الفريسة فى الواقع واعية أكثر منه بـآلاف المرات ؟! مازلت واقفا عاريا ، ومع ذلك أحاول أن أبدو كأنى مستور .

"رفائيل شوارتز" ، هل هو شجاع ؟ هل سيجعلهم ينتظرون ١٠٠٠ يوم ، إلى أن يتركوه فى ثورة غضبهم ؟ أم أنه أنهار فور أن رفع أحدهم - عرضًا - قضيب تقليب النار الذى ترك بإهمال فى الجمر؟

قال "كاسبر" : إنه وضيع ، لقد وشى بك فعلاً، قلت بحماقة : كيف يشى بى وأنا هنا بالفعل ؟

قال "كاسبر" موافقًا : إنك هنا ، ثم قال بتذمر: لكنك لم تخبرنا بأى شىء ، أما "شوارتز" فسوف يخبرنا بما لم تقله لنا ، الأشياء التى لا تريدنا أن نعرفها ، دكتور ، قل لى ، من هو الرئيس ؟

لم أرد عليه ، وبدأت أشعر بملابسى تنسل عائدة إلىّ ، وأننى يمكن أن انظر الآن بثقة "لكاسبر" ، لكن هذا بالضبط ما لا يجب أن أفعله ، لابد من أن انتظر إلى أن يحدث ذلك عرضا.

قال كأنها محادثة كانت جارية بالفعل : لا أعرف متى سأراك مرة أخرى ، سوف اقضى بعض الوقت مع شوارتز ، أتوقع أن أجد عنده حديثا شيقا ، سوف أعود فوراً إذا تراءى لى أن هناك ما يجب أن تعرفه ، إلى اللقاء يا دكتور .

توقف عند الباب ، هناك أمر قد تحب معرفته، إن "شوارتز" يعتقد أنك وشيت به .

ثم نظر إلىّ قائلاً : أنه يعتقد ذلك ، لأن هذا ما أخبرناه به .

جون فوريستر ، كان يقول لى دائمًا عند المغادرة : كن شجاعا ، فهل لدى تلك الشجاعة ؟ هل لدى شجاعة أكثر من "رفائيل شوارتز" ؟ من أنا لأعرف مدى شجاعته ؟ ربما يكذبون على ، ربما سنخر منهم عندما قالوا

له إنى وشيت به، ورد عليهم : إنهـا حيلة قـديمة لا يمكنكم حتـى خداع كلب عجوز بها .

"رفائيل" ، لا تصدقهم ، وأنا أيضـًا لن أصدقهم ، "رفـائيل" كن شجاعا ، وسأكون أنا أيضا شجاعا .

أيام خمسة الآن ولم يحضر "كاسبر" ، أو على الأقل أظن أنها خمسة، لقد أصبحت غير قادر حتى على التأكد من ذلك ، "رفائيل" ، كن شجاعا !!

لابد من أنهـا عشـرة أيام الآن ، لم أعـد أشعـر بنفسى ، معـدتى مضطربة ، أروح وأجىء طـوال اليوم ، وهذا يتركنى ضـعيفـا مسـتنزفا ، ورغم أن جسمى كسول ، إلا أن ذهنى نشط ويعمل على نحو متواصل ، ترى ما الذى يجرى هناك فى حجرة أخرى مثل هذه ، و ربما فى هذا المبنى أيضا ؟ أعرف أن هذا التفكير غير مجدٍ ، لكننى واصلته ، كففت عن قول "رفائيل" كن شجاعا ، على أساس أنه إذا فقد شجاعته ، فليس من المفيد قولها ، وإذا لم يفـقدها ، فإن هذا لا يعد ضـروريا ، لكننى خائف ، إن ذلك الشىء يقترب جدًا .

يسأل "كاسبر" : من رئيسك ؟ وبالطبع لم أجب ، تحدث حديثًا غير مترابط عن "رفائيل شوارتز" ، و "لوفتى كومبى" ، و "إيلين كولومبوس" ، وهو يسأل من حين لآخر أسئلة تبدو عابرة ، كان حديثا باردًا وتافها ، هل الضابط غبى أم أنه يدعى ذلك ؟

ثم قال لى : أنت الفـارس الأسود ، أليس كذلك يا دكتـور ؟ تعيش حياة مزدوجة ، ونحن لا نعرف .

ملأني الخوف، ذلك الشيء يقترب أكثر، أرى الآن "جون فورستر" ، أبيض الشعر سـمح الوجه ، ماذا يطلقون على رجل مميـز ، الرجل الأكثر روعة ، مزيجًا من الرقة والصلابة اللتين يعـرفهما كل منا ، يبتسم لى الآن قائلا : استـمر فى شجاعتـك ، نحن نفكر فيك فى كل لحظة من لحظات اليوم .

ماذا يقصد "كاسبر" بحياتى المزدوجة؟ طبعا، لقد عشت حياة مزدوجة ، لذلك أنا هنا، أم أنه يقصد نوعا آخـر من الحياة المزدوجة؟! وكيف لهم أن يعرفـوا ؟ هل عرف رفائيل؟ هل يمكـنك الهرب يا حبـيبتى؟! فـأنا خائف عليك ، خائف علينا جمـيعًا ، ما الذى أخبرتك بهِ ؟ لا أذكـر ، أقسمت يمينًا ألّا أخبر أحدًا ، لكن معك ، لا أتذكر ماذا قلت.

وأقـسمت يمينا ألا يكون فى حـيـاتى امرأة قـط ، وهذا القـسم هو "غلطتى" .

عندما جئت إلى هنا ، سمحت لـنفسى أن أتذكرك مرة فى اليوم لمدة دقيقـة ، لكن الآن يتزايد تفكيرى فيك ، ليس فـقـط لأنى أحبك ، لكن لأنى خائف عليك أيضًا ، هل قلت لك من نحن ؟

حبـيبتى ، لِـمَ لا تهربين ؟ قولى لهم : إنك لم تـعرفى أنى ثورى، قولى لهم أى شيء حتى ترحلى .

أما أنا ، فـرأيى فى نفسى لا يوصف ، كنت أعـتقـد أنى الأفضل ، ذلك لأنى استطعت أن أحب امرأة ، وأن يظل هذا الحب سـرًا ، بعيدًا عن العيون ، غير معـروف ، وشرعنا فى الحب مثل الأطفال ، تآمرنا وخططنا لنكون معًا ، وامتلأنا بالأسرار ، كل شيء هو سر إلا هذه السرية ذاتها .

ماذا سيحدث الآن ؟ يأتى اليوم "الميجور" مع الضابط ، إن مجرد رؤيته تجعل قلبى يضطرب بشدة، الميجور ليس مثل "كاسبر" ، إنه لا يعاملنى كشخص أرفع أو أقل شأنا ، يقول : اجلس ، فأجلس ، يقول لى : إذن لن تتعاون ! وفى حالة تشبه الحماقة أقول له : لماذا يجب أن أتعاون ؟ لا يوجد قانون يقول : إنه لابد من أن أتعاون ، فى الحقيقة ، القانون يسمح لى بعدم التعاون ، ويمنحك سلطة احتجازى إلى أن أفعل .

يتحدث "الميجور" على المستوى ذاته ، فيقول : أجل ، يمكننى احتجازك ، لكن قد أفعل أكثر من ذلك ، فى إمكانى تحطيمك وأستطيع إرسالك من هنا رجلاً عجوزاً محطمًا ، تمشى ورأسك متدل ، تُحدث نفسك ،مثل "صامويلسن" .

يتحدث إلى كما لو كنت عجوزا بالفعل ، أنت لا ترغب فى ذلك يادكتور ، فأنت تحب أن ينظر إليك الآخرون على أنك قيمة كبيرة ، تحب أن تشفق على الآخرين ، وهذه الشفقة تزيدك حماسة وعزمًا ، لكن قد يكون الجحيم هو شفقتهم عليك ، فى "فودرزفيل" ظنوا أن الشمس تشرق من عينيك ، صارت أسماؤنا بغيضة هناك لأننا قبضنا عليك .

قال : يا دكتور، يمكننا تحطيمك ، لا نحتاج لتعذيبك بالصدمات الكهربائية ، أو تعليقك من قدميك ، أو غرز شوكة فى خصيتيك ، هناك الكثير من الوسائل، لا نريد لك أن تهذى ويسيل لعابك فى "فودرزفيل" ، ثم أضاف بتهكم : فقد يفسد ذلك صورتنا .

نظر إلى نظرة محايدة ، إلا أن نغمة صوته كانت قاسية ، قد تكون وسائل مزعجة ، لكن ربما لن يكون هناك من سبيل آخر ، وإن لم يكن هناك من سبيل آخر ، فسوف نحطمك ، الآن أنصت إلى جيدا ، سوف أسألك سؤلاً .

ظل صامـتا لحظة ، ربما أطول ، أراد أن يفكر فى جـدية تهديده، ثم سأل : من هو رئيسك ؟

ما الذى سيقوم به "كاسبر" ؟ أتعذيب ؟ تعذيبى ؟ أم تعذيب "رفائيل" "شوارتز"؟ استبعد عقلى إمكانية تعذيبك أنتِ ، لكن ما الذى يقصده بالحياة المزدوجة ؟ إن مهاراتهم التى كانت مـحط إعجابى أحيانا ، هى التى تملؤنى الآن يأسًا ، إنهم يسربون الخوف إلى عقلك ثم يتركونك ، ينشغلون بأمور أخرى ، عاكفينّ على مهمتـهم ، مهمة تحطيم البشر ، وأنت تجلس وحدك لأيام تفكر فى آخـر شىء قـالوه ، آه ، إنـى خائـف عليكِ ، فى العـالم ٣٠٠٠ مليون إنـسان ، ولا أستطيع الظفـر بالاتصال بواحـد منهم يذهب إليك ويقول لك : اهربى ، اليوم ، الآن فى هذه اللحظة بالضبط .

يقول كاسبر: "باربرا تريفيلان" ، ياله من اسم جميل ، لقد أحسنت إخفـاءه يا دكتور ، لذلك نحن غـاضبون عليك ، لكن هناك من هو أكـثر غضبًا منا ، ألم تعد فى القسم أنك لن تقيم صداقة خارج عُصبة الشعب ، وعلى الأخص مع امرأة ؟ ماذا سيقول رئيسك ؟

أجل ، لقـد وعدت ، لكنى لم أسـتطع الاستـمرار فى الحيـاة هكذا محـرومًا من كل حب، محرومًا مـن علاقات مع الناس ، محروما من أية لمسة حـنان ، أردت أن أمثـل شـيئًا عند إنـسان ما ، إنسـان حى ، وليس قـضيـة، امتـلأت بالخـجل ، ليس لأنى أخلفت وعـدى ، لكن لأننى لم أستطع صنع جزيرة يكون فيها حبنا وحسب ، أنتِ وأنا فقط ، لكن العالم قد تدخل ، والخطـــة الكبرى لتغيـير العالم ، والمعـــرفة المحرمة الخطرة ، و ٠٠٠لا أحب أن أعتـرف بذلك ، ربما دخـل التـباهى والغـرور أيضًا ، التباهى الخطر ، رأسى يوجعنى من الألـم ، أحاول أن أتذكر ما قلته لكِ .

يقول "كاسبر" : سـوف تكون هذه فرصتك الأخيرة . إذا لم تتكلم اليوم، لن تحتاج للكلام بعد ذلك، اتخذ قرارك ، هل تريدها أن تخبرنا ، أم ستخبرنا أنت ؟

لا أعرف ، إذا تكلمت ، ما فـائدة الـ ١٠٠ يوم تلك إذن ؟ البعض قد يدخل السجن ، والبعض الآخر قـد يموت ، إذا لم أتكلم ، إذا تركتها هى تتكلم ، سيقاسون بالقدر نفسه .

يقول "كـاسبر" : لا يهم إن أنت اعتـرفت، أم هى ، على أية حال، فإنهم سوف يقتلونك ، لأننا سندعك تخرج .

ها هوذا يشن علىَّ هجوما من نوع آخر ، أتعـرف يا دكتور ، إنها لا تؤمن بالقضية ، إنها تؤمن بك فـقط ،غدا لن تفعل ذلك ، لأننا سنخبرها أنك وشيت بها .

الآن يتفحصنى عن قرب، شىء ما يتحرك على وجهى، أهى حشرة؟ أم حبة عرق؟ لا تخبريهم يا حبيبـتى ، اسمعينى ، يا حبيبتى ، أننى أبعث إليك برسالة ، لا تخبريهم بشىء، يا حبيبتى .

هل تذكر الأيام الخوالى وما اعتـاد "رفائيل شوارتز" أن يتباهى به فى تلك الاجتماعـات، من أنه سيتبعك إلى الجحيم ؟ حـسنًا ، عليه أن يفعل توًا ، ألا يجب عليه ؟ لأنك الآن فى الجحيم .

خلع ساعتـه ووضعها على المـائدة ، قـال : امنحك خمس دقائق ، وستكون آخر خمس دقـائق تمنح لك على الإطـــلاق ، من هو رئيسك ؟ ثم وضع يديه على المـائدة أيضًـا ، وأراح رأسه علـيهمـا ، أهو متـعب ؟

متعب من تحطيم الرجـال ، يرفع رأسه ،ويلبس ساعتـه ثم يقف ، بوجهه نظرة لم أرها من قبل ، نظرة كراهية ووحشية .

جمـيعـكم تتخـذون الموقف ذاته ، أليس كذلك ؟ التـخريب مـعظم الوقت ، والنسـاء يأتين بين ذلك ، أمـا الزواج ، والأسـرة فـهى أشيـاء للطيور ، لأن مـجتمعنا ذاك منحط ، تريد أن تكون حـراً، ألا تريد ؟ لقد صورت الحرية بـطول وعرض المدينة المـلعونة ، حسنا ، سـوف تكون حراً فورا ، وقسما بالله ستكون نهايتك .

" لوفـتى " ، و" إيلين " و " لوجرانج " ، والآن " رفـائيل " ، هل هناك إنسـان لا يستطيعـون تحطيمـه؟ هل هناك أقوى أو أضـعف أمام انقضاء الزمن؟ "رفائيل" ، سأتلو صلاة لأجلك الليلة، أياً كان إلهك . . .

هل نطقت باسم رفائيل؟ "رفائيل" ، أنا أسف، فلست نفسى اليوم ، رفـائيل ، فلتكن شـجـاعا ،لا تصـدق مـا يقـولونه ، وأنا أيضًـا لن أصدقهم .

٥ أيام ؟ ٧ أيام ؟ أكثـر ؟ لا أستطيع التـذكر ، أنام الآن بصـعوبة ، أفكر فيكِ وأتسـاءل عما يفعلونـه معكِ ، أحاول تذكر مـا قلته لك ، هل أخبرتكِ إلى أى حد كـنت منغمسًا ؟ هل أخبرتكِ بأسمائهم ؟ ذلك سؤال غير مجدٍ الآن ، لأنـنى لا أعرف له إجابة ، وإذا طرأت الإجابة على بالى فجأة ، فإننى لا أعرف على أى سؤال كان .

آه ، لا تصـدقى أبداً أننى وشـيت بك ، إنهـا حيلة قـديمة ، الحـيلة الأشد قسوة ، من أقـسى مهنة فى العالم ، حبيبتـى ، فلتكونى شجاعة .

انظرى إليهم بعينيك الرماديتين البريئتين ، وأخبريهم أنك لا تعرفين أى شىء على الإطلاق ، وإنكِ فقط امرأة تحب .

يقول لى "كاسبر" : أنت مطلق السراح ، ما المفترض أن أقوم به ؟ أيجب أن يضىء وجهى بالفرح ؟ ربما يكون قد حدث هذا منذ بضعة أيام فقط ، هل تعرف لماذا نطلق سراحك ؟ هززت رأسى : أتوجد مشكلة فى عدم الإجابة ؟

لأننا قد وجدنا رئيسك ، هذا هو السبب ، عندما رأى حذرى ، ولم يعرف هل أنا مصدق أم لا؟ ، راح يقول : اسمه "جون فورستر" ، لم يعرف ماذا يصدق ؟، خاصة عندما قلنا له : إنك وشيت به ، دكتور ، لا ترجع إلى هنا مرة أخرى ، إنك لم تخلق لهذه اللعبة ، وقد أبقيناك هنا طويلا تبعا للأوامر التى تلقيناها فحسب ، هيا ، سأصطحبك للبيت .

فى الخارج بالشارع المزدحم تشرق الشمس ، تسقط أشعة الشمس على الأشجار التى علق بها السخام فى شارع "تربيزوند" ، وتتراقص الأوراق السوداء مع النسيم ، تمتلىء المدينة بالضوضاء والحياة ، والضحك أيضًا ، مع ذلك لا يهتم أى أحد بما يجرى خلف تلك الأسوار المترسة ، يحلق فى الجو وهم بالحرية .

دكان الجزار

تأليف : "شيلا روبرتس"

كنت أتمشى جيئة وذهابا أحيانا على الجانب المشمس من الرصيف ، وأحيانًا أخرى أنتقل إلى الجانب الظليل ، كنت أرغب لو أمكننى البقاء على الجانب المشمس كل الوقت ، فزينا الرسمى لم يكن سميكًا بما يكفى ليقينا من رياح مايو الباردة ، إلا أننى كنت مضطرة معظم الوقت إلى العبور للجانب الآخر كى أتفحص العدادات التى تسجل وقت انتظار السيارات ، حسنًا ، إنها ليست وظيفة سيئة ، أولا: تمنحك بعض الوقت للتطلع لواجهات المحلات حتى وإن لم يكن معك مال لإنفاقه، ومع هذه العدادات أيضًا يكون لديك فرصة لتدرس الناس فيما يقدمون عليه من تصرفات ، خاصة عندما يحسبون الفاتورة ، ويضعون بسرعة خمسة سنتات فى العداد ، بمجرد أن تمسك بقلمك لتحرر لهم تذكرة ، وأنا أكره العودة للمحطة دون حصيلة جيدة من التذاكر ، كما أظن أن الزى الأحمر الداكن هذا يناسبنى تمامًا ، فهو يخفى قوسى الضخم ، وقد قال لى هاين ذات يوم : " بيتى ، إما أن تنقصى بعض وزنك الذى تحملينه خلفك ، أو سأتوقف عن ممارستنا المعتادة فى أيام السبت" أعرف أنه كان يمزح ، لأننى مازلت أراه يحملق فى قوسى كأنه قد قضم قطعة خبز جاف لا تتفتت فى فمه ، للحقيقة ، هذه التمشية جيئة وذهابًا لابد من أنها ستنقص بعض الوزن ، كما أظن أن هذه القبعة رائعة على شعرى ، الذى ليس به

أية شعـرة بيضاء بعـد ، بينما "هاين" له " لطخـة" مضحكة من الشـعر الأبيض فى مـؤخر رأسـه ، كـأن طـائرًا "عـملها عليـه " من ارتفـاع شاهق .

كنت على هذا الحـال وأنـا أتمشى رائحـة غـادية عنـدما شـاهدته ، كان يوقف سيارتـه أمام عداد مازال به ثلاثون دقيقة، هـرولت مسرعة إلى ناحيـته يتـملكنى ذلك الشعـور المبهج ، بأن قوى مـا تدفعك وأصـدقاءك القدامى للتلاقى مرة أخرى بعد مرور سنوات كثيرة.

عندما شاهدته يبتعـــد ، كدت أصرخ وأنا أنـادى عليه: " كريس ديفونتيرا ! غير معقول ؟" التفت جهة الصوت.

قال: " أوه . . . مرحبًا. "

قلت مبتسمة وأنا أصافحه: " لم أرك منذ أجيال"

كان فى نيتى تقبيله ، لكنه لم يَـملْ تجاهى كأنه كان يتوقـع ذلك ، إلا أن يده كانت دافئة ، أو بالأحرى سـاخنة ، وكانت راحة يده عرقى ، عندما ترك يدى أحسست بملمس يده كأنه ملمس ليفة خشنة .

قال وهو يظلل عينيه من أشعة الشمس بيده التى سحبها من يدى: " أجل انقـضى زمن طويل ،" ثم أضـاف : " إننى أعـانى من الآثار البغيضة للإسراف فى الخمر" .

اقترحت عليه وأنا مسرورة بمنظـره فى تلك السـترة التى خلعها ، وربطة العنق المتسقة مع بدلته : " هيا ، دعنا نتناول قدحا من الشاى"

ثم لاحظت أن المقعد الخلفى فى سيارته مختـفيا تحت حقائب سفر ، وأشياء ملقاة عليها ، قبعات ، كتب ، كاميرا ، منظار أو شىء ما يشبهه ، مضـرب تنس قديم ، وجـهاز تسجـيل ، وكانت كل الإسطوانـات المحلية والغربية فى أغلفتها القديمة اللامعة موضوعة على المقعد الأمامى الأيسر.

مشينا إلى قاعة الشاى .

سألت ، وأنا أجذب ذراعه مثل حبل الجرس: " كيف حالك ؟"

" بخيـر . . . سوى أننى فقط لم أنم جـيدا الليلة الماضـية ، لذلك تجدينني . . "

اندفعت فى الكلام مـبتسـمة: " هاى، هل مازلـت ترسم "بريتوريا" بكل درجات اللون الأحمر مثلما كنت تفعل فى المـاضى ؟ " يا إلهى مضى على ذلك الآن ما يقـرب من عشرين عامـا، منذ أن كنا جميعًـا فى المدرسة الفنية ، كان هو وزمـلاؤه متهورين ، كانوا يتسللون واحـدًا بعد الآخر من الفصل ، ثم تتبـعهم البنات، حـقًا ، لقد أحبـتهن البنـات ، وأنا أيضًا ، أما اليوم فإنه يبدو مختلفًا ، لم تعد له تلك النظرة التى أتذكره بها .

اندفعت فى الكلام مرة أخرى: " هاى ، انظر إلىّ "

نظر إلى نظرة لم أكن متأكدة أهى نظرة قلق ، أم نظرة خوف ، ذلك لأن من يعانى مـن الإسراف فى شرب الخـمر قد يرى الشـىء الواحد اثنى عشـر شيـئا دفـعة واحـدة ، يا ليتنى أرى وجـه " هاين" الآن وقـد صار مضحكًا من القلق والغيرة، خاصة بعد أن حصلت على هذه الوظيفة .

اتخذنا مـقاعدنا فى ركن هادى من قاعـة الشاى ، وطلب من النادلة إحضار قهوة سوداء له ، وشاى لى ، عندما عرض علىّ أن أطلب كعكا ، فكرت للحظة ثم هززت رأسى بالرفض .

قال وهو يبذل جهدا فى محـاولة أن يجرى محادثة عادية : " بيتى ، تبدين فى حالة جيدة . كيف حال "هاين" ؟ "

قلت " حسنا ، إنه بخير ، وكيف حال إنيته ؟ "

" حسنًا ، . . . أتعـرفين . . . فى الحقيقـة . . . لقد طردتنى هذا الصباح . . "

" طردتـك ؟ "

" أجل ، قالت لى اخرج أيها التافه . فجمعت أغراضى وخرجت . "

ثم حاول الابتـسام ، ولمس فكه على طريقتـه القديمة ، لكنه لم يفلح فى ذلك قط ، فقد تمدد فكـه فحسب ، وكشف عن أسنان صفـراء ، فهو مدخن شره ، بطريقة جامدة خالية من الحياة.

سألته : " ماذا فعلت هذه المرة ؟ "

" إنها حكاية طويلة . . . "

قلت : " أظنك لا تريد أن تخبرنى بهـا ، أعتذر لك . . ، ماذا عن آثار الخمر الآن؟ "

" شوفى" ، إنــها لا تستطيـع تصور أن "البنى" آدم قـد لا يعود إلا أحيـانا إلى البيت مباشـرة، لا تفهم ذلك مطلقًا وهذا يعـود لتربيتهـا، تأثير الكنيسة ، ومثل تلك الأمور ، لكن فى الواقع قـد لا يعود الرجل أحيانا للبيت ليلاً . . . يمكن أن يحدث . . . "

أشعل سـيجارة فى صمت ، فـقد كان ينتظر ردًا ذكيًـا يقال لرجل ، لكننى كامرأة كنت أشعر فى قرارة نفسى بأنه وغد بشكل ما.

قلت أخيراً : " هاى ، هل لك بكأس آخر من "الشيرى" ؟"

" أج ، بيتي ، ياإلهى ، لقـد انقضت تلك الأيام التى كنت أحـتفظ فيها بأكثر من امرأة سـعيدة فى وقت واحد ، انتهت تلك الأيام تماما ، لقد كبرت" وحاول أن يبتسم لى بظل من ابتسامته القديمة .

" فى الحقيقة كان هناك أمراً قد حدث بـ "المكتب" . . .

" أوه ، إذن قد لا ترغب الحديث عنه ! "

" حسنًا ، لن تخبرى أحـدًا ، أليس كذلك ؟ إنك المرأة الوحيدة التى أعرف أنه يمكنها الاحتفاظ بسر ، وإخفائه . . . "

قلت وأنا أربت على كتفه : " كـفى يا رجل " ، وظهرت فى عيوننا ابتسامة الرضا والتفاهم ،

" حـسنًا ، أتعرفـين . . لقد حـدث أن . . أطلقت النار على دكـان الجزار . . . "

" مـاذا ؟ "

" أج ، لقد أطلقت الرصاص على دكان الجزار ذاك . . . "

" لـماذا ؟ بحق "يسوع" ، لـماذا دكان الجزار ؟ "

" يا أختى ، الجزار كان موجودًا معنا ، ولـم يبال بالأمر"

سألت : " لكن لـماذا ؟ لِمَ أقدمت علـى هـذا العمـل الأحمق ؟ لـم تنقب دكان جزار ؟ "

نظر إلىَّ وضحكنا قليلا ، لكن بفتور.

" كل شيء بدأ في المكتب ، وكما تعرفين يا بيتي ، أن المكتب لا يعنيه سوى شيء واحد فقط ، شيء واحد ، وهذا الشيء يعنى كل شيء ، علينا أن نؤديه بفعالية كلية ، ذلك هو ما يعنيهم ، لقد كانوا يصرفون الناس من الخدمة مؤخرًا. إذا اعتقدوا أنك لا تفكر بالطريقة الصحيحة ، أى بطريقتهم ، يطردونك فورًا ، حتى وإن كنت تؤدى عملك على أحسن وجه ، كنت ستصابين بالكوابيس من طريقتهم هذه ، ذات يوم ، منذ فترة قصيرة خفضوا رتبة كولونيل بوليس سابق ! كيف ؟ وضعوا كولونيل البوليس ذاك ليعمل فى مكتب ثانوى ، وتركوه هناك يفرز البريد ، كولونيل البوليس التعس ذاك ! "

همست : " معك حق ! "

شرد بذهنه بعيدا ثم واصل حديثه : " ما علينا ، هل تذكرين كيزبرينك ؟ الزميل البدين، ذا الوجه الأحمر ، المستغرق دائمًا فى الضحك ؟ "

" لا ، لا . . . لا أعتقد أنى أتذكره . . . "

" أنت تعرفينه ، كان فى كلية الشرطة معى بعد المدرسة الفنية ، ذلك الفتى صاحب الشعر الفاتح والوجه الأحمر ، والذى كان ينضح عرقا باستمرار حتى أننا أطلقنا عليه نافورة ، وأطلق عليه شخص ما (بويز أوو كيز) !!! حتى التصق به الاسم ، لكنه فى الحقيقة كان (لكيرو)!!! لقد بقينا أصدقاء لسنوات ، حتى عندما أصبح فى منصب أعلى من منصبى ، لم يكن غبيًا على الرغم من أن منظره لا يسر ، وقد أنهى دراسته بالمدرسة الفنية ، ثم التحق بكلية البوليس ، وعيِّن فى المكتب ، دفعوا له رسوم الالتحاق بالجامعة ، ونجح هذا التعس وحصل على البكالوريوس العسكرى "

سألته وأنا غير متأكدة من ماهية الشهادة : " بكالوريوس عسكرى ؟ "

" نعم ، البكالوريوس العسكرى" .

" أوه "

" المهم ، صباح الأمس دخل المكتب كالمعتاد ، وكان يرتدى حلة جديدة ، وشعره الخفيف الأصفر ممشط إلى جانب واحد وابتسامة عريضة تملأ وجهه ، دخل يلقى بالنكات وهو يضحك ، وبمجرد أن أخرج منديله الجديد الرقيق من جيبه ليجفف جبهته ، أخبره أحد الكتبة أن الرئيس يريد رؤيته ، يا سيدتى ، لم تمض عشر دقائق إلا وقد عاد لحجرتنا ومنديله ذاك يُعتصر فى قبضته كأنه كرة مشبعة بالماء "

كور "كريس" قبضته تحت أنفى ليرينى كيف كان زميله يعتصر منديله الجديد والدموع تملأ عينيه ، وأخذ يكرر : " كان المنديل يعتصر فى يده مثل كرة مشبعة بالماء "

خمنت ما حدث ، إلا أننى مع ذلك سألته : " لماذا ؟ "

" لقد فصلوه مَن الخدمةِ ، هؤلاء الأوغاد طردوه! "

سألته : " لأى سبب ؟ "

عند ذلك أحضرت النادلة الأقداح والصحون والأباريق الصغيرة ، وملاعق وفوطًا ورقية ، وراحت تتلكأ وتضعهم ببطء كأنهم صنعوا من قشر البيض ، بينما جلسنا نحن نراقبها فى صمت ، بنت بلد حقيقية ، عندما تريد منهن أن يسرعن فى العمل ، فإنهن يأخذن راحتهن تماما ، وإذا طلبت منهن الحرص ، فإنهن يتصرفن باندفاع وتهور لعين .

عندما ابتعدت قال "كريس" كـأنه قد أنهى حكايته : "عارفة" ، لقد بدأت أبول على الأفـريكان ، ولا أرغب حتى فى قراءة أى أدب أفـريكانى مطلقا .

" لكنك تعيش هنا ، إنك أفريكانى ! "

" ومع ذلك ، فإنى مُصر على رأى ، أننى أبـول عليهم "

استدار ثم اقترب بمقعده ناحيتي حتى اضطررت للتراجع للخلف حتى لمس رأسى الحـائط ، ودفـــعت بطريق الخطأ قـدحى ، ثـم قـال وهو يكاد يصحن أسنانه : "هل تدرين بما يجرى؟ توجد طبقة من الأفريكان متسلطة ، لا تهتم سوى بالمال ، وكل مـتمرد عدوانى يمكن شراؤه ، وهـم لا يهـتمون بأى شىء آخر ، الإنجليـزى فى هذا البلد أصبح لا يعـنى عندهم شيـئًا ، والبلد نفســه لا يعنى شيئا ، إذن مـاذا بقى؟ نحن بالنسبة لهم مـجـرد ناس فارغين ، هذا ما أطلقوه على رجل الشارع ، ورجل الشارع يعرف ذلك ، لا يدرى كيف تسير الأمـور ، وعلاوة على ذلك هناك المكتب. هل تعلمين ؟ أن كل الأفكار . . . وكل المُثـل ، كل هذه الأمور التى تشغل بال الرجال ، هى مـجـرد بغـبغـة ، ذلك لأن . . . ، أقـول لك ، ذلك لأن الرجـال ينفخونها مثل الكرة ويشوشون بها عقولهم . أنا نفسى لم أعد أومن بشىء بعد الآن ! لا شىء مطلقا ، وأجزم لك أنهم لا يؤمنون بشىء ! "

" لكن كيـف يمكنك العمل فى المكتب إذا كنت لا تؤمن بما تـفعله ؟ فمن الضرورى أن تؤمن بما تقـوم به ، وإلا سيكون الدور عليك فى الطرد إذا توصلوا إلى أنك تؤمن بخط مختلف "

" أفٍ ، إنهم لن يطردونني . فـأنا لست ذا شأن ، أنا مـجرد إدارى فى حجرة خلفية ، أنا مجرد مصدر معلومة من هنا أو هناك كما أبقى فمى الثرثار مغلقًا دائمًا ، ومع ذلك .. فليفصلونى ! فليطردونى ! "

رشف رشفة من قـهوته وقد أطلت من عيـنيه نظرة مشتعـلة كأنه كان يستمتع بتحطيم شىء ما .

" لم أعد أؤمن بشىء غير موجود بعد ،" هكذا راح يردد كلماته بصوت خـفيض ،" لم أعـد أهتم حتى بالحديث فى السـياسـة ومثل هذا الهـراء مع أى أحـد ، لن أقـدم عنقى من أجـل هذا . . . شىء ليس له وجود ربما من أجل صديق !! لكن ليس من أجل أية فكرة ، إننى سأعيش دون أى فكر ، وسوف أؤدى عملى وحسب . . . "

" لكن كـيف سـتؤدى عـملك دون الإيمان بأن هذا العـمل مـهم لنا وللوطن ؟ هذا غير معقول! "

" لكن يا "بيتى" ، لا شىء مـعقول فى هذه الدنيـا ، الحياة مـجرد سباق تَبَول طوال الزمن اللعين . "

عند هذا الحـد توقفـنا عن الكلام ، وراح كل منا يشـرب من قدحـه لبعض الوقت، شعرت بالأسف على ضياع صديقى القديم . إننى مخلطة ، نصف أفـريكانيـة ، خمـسون بالمـائة أفريكانيـة فـقط ، لم أتمكن قط من الحصول على الزبد لا من البيض ولا من السود ، لكن!! كريس كان دائما شديد الولاء للغتـه وبلده ، كان على استعـداد أن يموت من أجلها ، وكان يتكلم عن الوطن وعيونـه تلمع من الحماس ، وأحيانًا من البـراندى الكثير الذى كان يشربه ، لكنها على أية حال كانت تلمع ، وقد اعتاد أن يقول :

إنه إذا حققنا وحدة جنوب إفريقيا ، فبإمكاننا أن نملك كل العالم الخارجى اللعين . كان يريد أن يشترك الإنجليز ، بل والملونون فى هذه الوحدة .

نظرت إلى صورة وجهه الجانبية ، آه ، تقدم الآن فى العمر ، وصارت البشرة تحت جفنيه مثل الجلد المدبوغ القديم ، وتهدل جلد عنقه تحت رقبته ، كان الصلع يزحف على رأسه والشعر الأبيض خطوطا تغزو رأسه ، منظرها على الأقل أفضل من " اللطخة " السخيفة فى شعر "هاين" ، ويقولون : أنكِ لن تكتشفى حمارا أصلع ، حسنًا ، سنرى إذن

قلت : " إذن ، طردوا "كيز . . . "

" أجل ، وقف هناك يعتصر منديله فى يده ، وأدركت ما كان يفكر فيه . . . كان يفكر : ماذا سأقول للزوجة ؟ ماذا سأفعل غدًا عندما يستيقظ الجميع للذهاب لإعمالهم وأنا بلا عمل أذهب إليه ؟ وماذا سأفعل بالبكالوريوس العسكرى ؟ أحقا إن ذلك المكتب قد ألقى بى خارجه ؟ "

"لكن ، لأى سبب طردوه ؟ أم أنك لا تعرف ؟"

اقترب منى مرة أخرى مما أجبرنى على التراجع ناحية الحائط ، وبسط راحتيه كأنه يتوسل إلى أن أكون معقولة فى سؤالى !!!.

" يا سيدتى ، هذا ما فعلوه وحسب ، أنصتى . . . "

" إننى منصتة"

" لقد أرسلوه للجامعة ، "أوكى" ؟ وحصل على البكالوريوس العسكرى ، "أوكى" ؟ وقالوا له اشترِ بدلاً أنيقة ، وأعطوه حافظة جلدية لحفظ الأوراق ، ثم أرسلوه خارج المكتب قائلين له : اقبض على

الشيوعيين ، ما الخبرة اللعينة التى حصلها من القبض على الشيوعيين ؟ لا شيء ، إنها ليست بخبرة على الإطلاق ، ماذا كان يفعل ؟ كان يقوم بحملات لعينة ، وقد ساق الحملات إلى كل ممرات الحدائق التى كان بها مجموعات الطلبة ، ومن بعدهم كانت جماعات السود ـ ثم ؟ ثم طردوه ! "

" هاى ، وأنت شعرت بالأسف لأجله ورحت وأطلقت الرصاص على دكان الجزار ؟ "

" أجل ، لكن ليس فى الحال "

" حين شاهدت منديله يُعتصر فى يده بهذا الشكل قلت له : " هيا يا صديقى العجوز ، دعنا نذهب من هنا ونشرب كأسا" تركنا المكتب إلى بار " كولومبوس " منذ أن فتح أبوابه ، وقضينا اليوم كله هناك ، كنا فى أول الأمر نشرب بتعقل، إلى أن وصل اليونانى "كوستا كوستاكيس" ، كان يملك دكان جزارة ، ويدير مدرسة لتعليم البوكر ، على أية حال ، طلبت منه الانضمام إلينا ، كان اليوم الأربعاء ، وللحظ العاثر أنه كان فى إجازة بقية اليوم ، هكذا جلسنا نحن الثلاثة نحتسى الخمر ونثرثر ، ونروح عن أنفسنا إلى أن ألقوا بنا خارج البار عند منتصف الليل . . . "

سألته وقد شعرت بالغثيان لمجرد تصور حالتهم : " وأنت ألم تتناول طعاما طوال اليوم؟! "

" بلى ، لكنهم قدموا لنا الشيبسى ، والسودانى ، ونحن طلبنا بعض السجق ، لكننا مع ذلك بقينا سكارى تماما ، وكنا نتحدث فى ذلك الوقت عن البراعة فى التصويب على الأهداف ، ونتبارى فى إظهار مهاراتنا ، وكيت . . . وكيت . . . وحين ألقوا بنا خارج البار كنا ما نزال نتكلم

حول هذا الموضوع، وفى الطريق إلى البيت ، مررنا بدكان جزارة كوستا ، الذى قال لنا : إنه سيعطينا بعضًا من اللحم المقدد ، عندئذ دخلنا ، فقال "كوستا" متحديا : إننا لا نقدر ألبتة على إصابة طبقة القرميد العليا المركبة بطول الحائط ، وهى طبقة من الحجارة التقليدية القديمة باللون الأزرق الجميل المزين بنقوش"

" ثم ؟"

" أطلقت عليها الرصاص واحدة تلو الأخرى ٠٠ على كل القرميد الأزرق ، إصابة مباشرة صائبة "

" ألم يكن ذلك خطرا ؟! أقصد ألم يحدث ارتداد للرصاص يسبب الأذى؟!"

" تقصدين ارتداد القذيفة ؟ لا ، لا يحدث هذا عندما يكون خط الرصاص كثيفًا متلاحقًا والتصويب جيدًا ، لقد كانت القرميدة تنكسر وتتبعثر ثم تسقط الرصاصة على الأرض فورًا ، "عرفتى"

" كان يجب أن ترى وجه كوستا حين أطلقت الرصاص بهذا الشكل ، لقد كان يعتقد أننى سكران كلية بحيث لن أستطيع تحديد الهدف والتسديد عليه ، لكن من ! ليس معى !"

" و كيز ، هل أطلق الرصاص هو أيضًا ؟"

" لا ، لقد كان جالسًا على الأرض ممددًا ساقيه ورأسه متدل ، وفى كل مرة أسحب الزناد كان يصيح : هيا بنا ننصرف لبيوتنا"

أفتر ثغر كريس عن شبه ابتسامة .

"كريس" ، وما الذى حدث بعد ذلك ؟"

" قلت "لكوستا" : إنه من الأفضل أن يصطحب "كيز" لـلبيت ، فلم أكن واثقا من قدرتى على قيادة السيارة ، واستولى على شعور مفاجىء بأننى سأموت إذا قدتها ، وجدت سيارتى ، وحين دخلتها ، رحت فى النوم فوراً ، استيقظت حوالى السادسة هذا الصباح ، تعرفين ، كان العالم رماديا "مقرفًا" ، كل شىء رمادى، هل تفهميننى؟ لا لون سوى الرمادى ٠٠ مبان رمادية ٠٠ وسماء رمادية ، كل شىء رمادى ، ثم قدت السيارة إلى البيت ٠٠٠"

" كريس ، هل ستقع فى مشاكل مع "كوستا" بسبب ذلك ؟"

" لا ، لقد أعطانى لفة كبيرة من اللحم المقدد عند رحيلنا ، وحين وصلت البيت أعطيتها لـ"إنيته" كى أثبت لها أننى لم أكن مع امرأة أخرى ، لكنها ألقت بها على الأرض ، وكنت مضطراً لرفع كل هذه الكمية مرة أخرى"

" لابد من أنها كانت قلقة عليك . أية امرأة فى موقفها كانت ستتصرف هكذا . "

" بيتى ، اسمحى لى ، "إن هذا كلام فارغ" نحن زوجان منذ زمن طويل بما يكفى لـ ٠٠٠ لتعرف ، لقد كنا جميعنا فى الشهور الأخيرة واقعين تحت ضغط العمل ، فمنذ أحداث الشغب الأخيرة ونحن لدينا الكثير من العمل ٠٠٠ وهم يعتقدون أننا لسنا بشراً ٠٠٠ كنت هذا الصباح وأنا أقود السيارة فى طريقى إلى البيت أرى كل شىء رماديًا ، وحين دخلت وبدأت الصياح فى وجهى ، بدت لى عباءتها الزرقاء رمادية

باهتة ، ولـم يكن بى من طاقة لإقناعـها ، وعندما قـالت لى لابد من أن أحزم أمتعتى ، سحبت حقيبة السفر اللعينة وألقيت فيها بأشيائى"

" والآن"

" والآن ماذا ؟ "

"أين ستذهب للإقامة ؟"

" لا أعرف ، مازلت أفكر . . . "

" كنت أود دعوتك لمسكننا ، لكن هاين يعرف أنى كنت مـعجبة بك فى الأيام الخوالى"

" لا ، لا ، لا . . . "

" ألم تذهب إلى عملك بالمكتب هذا الصباح ؟"

نعم لم أذهب . . .

" إذن هكذا تكون قد تغيبت يومين ، ماذا سيقولون عن ذلك ؟"

قال وهـو يزدرد آخر قطرة من قـهوته : " اللوطيـون التافـهون قـاله بكراهية ، قلت له بإلحاح : " كريس ماذا ستفعل إن فصلوك ؟"

انزلق فى كرسـيه ومـد ساقيـه ، وغاصت يداه فى جـيوبه ، ونكس رأسه وسرح .

" إنك غير مؤهل لأى شيء سوى العمل فى المكتب . . . "

قال : " تذكرين أننى تخـرجت فى كلية الشرطة ، سوف أقـضى بقية حياتى أحـقق ، وشرع يقلد كتابة المحاضـر على الآلة الكاتبة بتكتكات من أصابعه . . من سرقة غسيل ، سرقة "بستانى" لزجاجات الكولا الفارغة ،

سـرقة دراجـة طفل فى الطريق ، القـبض على بعض أفـراد البانتـو الذين يتواجدون بلا تصـاريح إقامة ، القبض على المتشردين فى الحـدائق العامة، القبض على مـجموعات "البانتـو" الذين يحدثون ضجة خـارج المقاهى ، إلى مساعدة التانييز!!! فى عبور الشوارع ، هذا ما سوف أقوم به ! "

اضطررت أن أضحك ، وسألته : " مزيد من القهوة ؟"

" لا ، شكرا ، من الأفضل أن أبدأ التفكير فى المكان الذى سأقيم فيه "

" حـسنًا ، وأنا من الأفـضل أن أذهب لتفـقـد العدادات وأرى أيهـا يحتاج تذكرة "

نهضنـا ، دفع الحساب ، وتركنـا قاعة الشـاى ، مشـيت معـه حتى سيارته ، وكان مؤشر عداد الساعة على التوقيت المحدد مع زيادة طفيفة ، ولكن لم يزعجـه ذلك ، قال وهو يفـتح باب سيارته : " يـجب أن نبقى على اتصال " ، لكننى كنت أدرك أنـه لا يعنى ذلك حقيقـة، ثم قال وهو يضع لفة فى ورق بنى بين يدى : " هـيًا ، يستحـسن أن تأخذى هذه " ، وأحسست باللحم المقدد داخل الورق .

قلت فى أول الأمـر وأنا سعيـدة بهذه الهـدية : " شكراً " ، ثم طرأ على بالى ، ماذا سأقول لـ"هايـن" عنها ؟ فـثمن هذه الكمية يقدر برندات وراندات(٦٢) ، لكن كـريس كان بالـفعل فى الاتجـاه المعـاكس من ساحـة موقف السيارات ، وكان يلوح لى مودعا .

وصاح : " تيجيراس ! " .

" صحت فى المقابل : " بلغ حبى لـ . . . لـ . . . دكان الجزار ! "

(٦٢) الراند : وحدة العملة المحلية فى جنوب إفريقيا .

موعد مع النصر

تأليف : " نادين جورديمر "

الولد الأسود الصغير الذى اعتاد مواجهة الكلاب فى ضواحى البيض بشجاعة عندما كان يسلم البرقيات ، "سنكلر- جنرال جاينت - زويدو" ، مازال يحمل ندوب تلك العضات سلى ساقيه حتى اليوم .

هكذا ، ضت الفقرة الاستهلالية من مقال " بروفيل" ، وكان حق النشر لصحيفة "صاندى" الإنجليزية ، وأعيد نشرها بالاتفاق المتبادل بين الصحف فى نيويورك، وواشنطن، وبالاتفاق مع اتحادات النشر فى استراليا ، كما ترجمت فى كل من صحيفتى "اللوموند" ، "وزيورخ الجديدة" ، لكن هذا المقال مثل غيره من المقالات الأخرى التى قرأها عن نفسه ، لم تكن دقيقة ، لا ، فى ذلك الزمن ، كان صبيًا يحب الكلاب ، وكانت الكلاب التى تعدو خلف دراجته هى تلك الكلاب التى أحبها - فما كان عليه سوى أن يصفر لها وهو ماض فى طريقه ، حتى كانت تقف هناك وتهز ذيولها الطويلة فى سذاجة ، أما الندوب التى على ساقيه ، فهى من الجروح التى أصيب بها عندما انفجر ملجأه الموجود بالأحراش ، وكادت تأسره قوات البيض، قرر الصحفى تصوير الجروح على أنها عضات كلاب، فهى بذلك تصلح مقدمة لقصة ، وفى الوقت نفسه ، تظهر أن الصحفى ليس فى جانب البيض ، إن الحقيقة الوحيدة فى ذلك ، هى أنه هو ذلك

الصبى الصغيــر الذى أصبح "سنكلر- جنرال جاينت - زويدو" ، الذى ولد فى عــشش السود ، فى مــزرعة قــصب رجل أبيض ، بأشد مناطق الــبلاد حرارة وتخلــفًا ، وذلك بعد بضع ســنوات قضاها فى المــدرسة ، فى ذلك الزمن الذى كان الأطفــال يجرون عمليات الجمع علــى التراب ، وكان هو ساعى بريد فى مدينة صاحب المزرعة ، فى شارعى تلك المدينة، كان هناك فندق البــيض الرئيــسى ، وطريق الجــراج الرئيــسى ، والمخــازن ، ونادى البلياردو ، ومحطة السكة الحديدية ، حيث سمع لأول مرة فى ذلك المكان صوت الأخ الذى سوف يصبح فــيما بعد رئيس الوزراء ، ورئيس الدولة ، سمع هذا الصوت من ميكروفــون كبير محمول على سيــارة خردة تقريبًا . وقد دعى (وكان هناك آخرون ، لكنهم لم يصبحوا شيئاً يذكر) لاجتماع فى صالة الإرسالية الكاثوليكية بناحــية "جود ويل" ، التى كان البيض يطلقون عليها عشش السود ، وكانت تقع على أطراف مدينتهم . كان يعيش هنا ، بناحية "جود ويل" ، ساعى البريد الصغير ذاك ، الذى انفرد بفريق كشافة الصبية السود ، الذى نظمه البيض منفصلاً عن فريق الصبية البيض ، انفرد بهم وحــولهم إلى جــمــاعة شــبــاب حــزب الاستــقــلال الوطنى ، قــال لهم: "حسنًا ، سوف يتم إعدادكم ، ســوف يعلمكم الحزب كيف تشعلون نارًا لا تستطيع الحكومة إطفاءها"

وكان هو الذى عندما قُبض على القــادة لأول مرة ، سجينًا مع رئيس الوزراء المُقبل" ، وأصبح أحد ضباطه الأساسيين ، فى الحقيقة ، كان هو الذى ألف فى السجن أغنيات التحدى التى ســرعان ما انتشرت وغُنيت فى اللقاءات الجماهيرية، وهو الذى يقلد حراس السجن ، وهو الذى جعل من إحدى الســجينات التى كانت تمســح أرضية الزنزانة حــاملاً - ومع ذلك لم

يصدقها أحد عندما أعـلنت على الملأ متفاخرة أن الطفل هو طفله ، إلا أنه هو الوحيد الذى كان يعلم أن هذه هى الحقيقة ـ وأخيراً ، عندما أرسل إلى سجن آخـر كى يتجنبـوا تأثيره القوى عـلى الأتباع السيـاسيين المعـتقلين ، تغلب على ثلاثة من الحراس وهرب إلى الحدود .

هذه المأثرة هى التى أكسبـته لقب "چنرال چاينت"(٦٣) ، وصار مثل الأنبياء ، والقديسين ، والمتـمردين من الأفاقين ، والأبطال ، الذين يتلقون ألقابهم من عامة الناس ويصبحون أسطورة متداولة بكلام مجهول المصدر ، لم يعد إلى البـلاد إلا بعد أن أمـضى فصول الشـتاء فى بلاد الصـقيع التى تعـرض اللجوء السـيـاسى ، والتدريب العـسكرى ، بل وذهب إلى مـدن الصحراء الغنيـة لطلب المـال من سلالة القوم الذين باعوا الأفارقـة عبيداً ، وإلى جزيرة حيث كان عمال السكر بها بمثابة أمه وأبيه ، وقد أصبحوا الآن أقوياء بما يكفى لإمـداده بالأسلحة ، لقد كان ضمـن أول زمرة من الرجال الذين تركوا الوطن وأيديهم خاوية ، وأقدامهم عـارية ، وعاد ومعه مدافع الكلاشينكوف ، والقذائف الصاروخية الموجهة بالحرارة ، وألغام السفن ،

اعتقل رئيس الوزراء المُقبل مرة ثانية وثالثة ، وفى النهاية هرب خارج البلاد ، وأسس قيادة الحزب فى المنفى ، عندما كان يقابله "سنكلرـ چنرال چاينت ـ زويدو " فى لندن أو الجـزائر ، كان رئيس الوزراء المُقـبل يرتدى بدلة داكنة ، نسيجها الدقـيق يبدو فى الضوء بلون زرقة منتصف الليـل ، أمـا هو فقـد كان يرتدى زى القـوات الخاصـة ، ذلك الزى الذى ابتدعـه الرجال الذين لم يعيـشوا حياة البشر ، بل عاشـوا مثل قطيع من الأسود ،

(٦٣) الچنرال چاينت : الچنرال المـارد .

جسامـهم يملؤها القُراد ، عطشى ، رابضين بين أجمـات الشوك . . كلما زادت أعـدادهم وجرأتهم ، كلـما ترقى هو فى قـيـادتهم ، ويتطور الزى العسكرى كـذلك ، ليصبح زى قـتال يليق بأسلوبه ولقبـه وإنجازاته ، عند بداية الحرب ، كان يقـود مجموعة من الجنود الشعث مـهلهلى الثياب تحت شعـار: اضرب واجـرِ ، وبعد أربع سنوات ، ومـوت الكثيـرين ، مما أكد أسطوريته غير القابلة للتحطيم، أحكم أنصاره سيطرتهم على ثلث البلاد ، وكان هو الرجل الذى يود جيش البيض بشدة أن يأسره .

قـبل أن يجرى رئيس الـوزراء المُقبل مـحادثات مـع منظمة الوحـدة الأفريقيـة أو الأمم المتحدة ، كان عليه أن يرسل أولاً للتـشاور مع "قائد" جـيش التـحرير ، "سنـكلر - چنرال چاينت - زويدو" ، الذى جـاء من الأحراش فى عربته الجيب التشيكية ، وبعد أن نزل فى سلسلة مهابط سرية متتـالية صغيرة جـداً ، أدرج اسمه أخيراً فى جـدول خط طيران رسمى ، وركب بين رجال أعمال البتـرول والتعدين الذين تصوروا أنهم يجلسون مع شخصـية سوداء هامة ، صاحبـة ملايين من الدولارات ، قادم من دولة لا يعرفـونها ، ربما ينفعهم فـيما بعد، عندمـا انتهت المشاورات فى العـاصمة الأجنبية ، لم يضيع "چنرال چاينت" الوقت فى حفلات الكوكتيل الرسمية المملة ، لكنه كان يخـتفى ليكتشف بنفسـه ما يمكن أن تقدمه العـاصمة من عرض يتفق وقدراته الفائقة ـ مـن قيادة الرجال فى الحرب بلا خوف ، إلى إثارة الناس ليثـبوا مـرحًا ، إلى الصـياح والحبور ، والسُكر ، والمناقـشات الحامية ، كل ذلك من أجل التأثير على النسـاء ، بعد ليلة فى بار ، وفى سرير مع الفـتيات ـ لم يضطر قط أن يدفع لمحتـرفات ، فقد كـانت النساء المحترمـات من البيض أو السود على حد سـواء اللائى يبحثن عن البـهجة متـوفرات له بسهولـة ـ يركب طائرة عائداً إلى إفريقـيا ، لم يكن يحب أن

يبقى خارج البلاد قط ، لم يحسد أخـاه رئيس الوزراء المُقبل على شقته فى لندن ، حـيث كانت تنهـال عليه الـدعوات إلى الريف الإنجليـزى لمناقشـة مسـتقبل البـلاد ، كان يعود إلى إفـريقيًا غـريزيًا ، يشبـه فى ذلك الطيور الإفريقيـة المهاجرة التى تعود للتزاوج من أجل حفظ النـوع ، مسافرة آلاف الأميـال ، تمامًا مثله حين ركب الطـائرة عائدًا ، ثم ساق عـربته ، وتوغل أعمق فأعمق إلى حيث ينتسب ، إلى أن وصل إلى مركز قيادته مرة أخرى ـ إلى ذلك المكان الذى كـثيـرًا ما أعلنت قـوات الكوماندوز البـيضـاء أنها دمرته، لكنها لم تستطع ، لأن مركز قيادته كان الأحراش ذاتـها .

لم يكن ليتم النصر فى الحـرب دون "الچنرال چاينت" ، وفى مؤتمر السلام ، لم يكن له أى دور فى المفاوضـات ، لكنه كان يجلس إلى جانب أخيـه ، رئيس الوزراء المُقبل . . سلاحًـا، درعًا ، تهديدًا لحكومـة البيض المحبطة ، فى حال عـدم إقرار اتفاق السلام ، من حين لآخـر كان يتنحنح ليزيل تقلص السأم عن حنجرته ، فكان المفاوضون البيض يرتعدون كما لو أنه زأر .

استغـرقت المفاوضات حـول الدستور عدة أسـابيع - بالطبع - كانت هناك هدنة ، وقد أراد أن يعود لمقر قيادته ـ موطنه ـ لكن أحد الشروط التى تم صياغتها رسميا حول حرب المروج الحمراء كانت تنص على انسحابه من الميدان ، تجـول فى لندن ، ذهب إلى النوادى الليلية ، دعى إلى حـفلات العرب الذين اكـتشف أنهم لا يعرفون مـكان البلد التى حارب من أجله ، وانتـصـر من أجل شعـبـه لعـله كـان ؛ فى هذا الوقت يزأر فـعـلاً . . بالضحك ، ومشى عبر حى "سـوهو"، لكنه لم يستوعب لماذا يفضل أى إنسان مشاهدة اثنين يقدمان حركـات جنسية على شاشة السينما بدلاً من أن

يمارسـا ذلك ؟! ودخل مـصـادفة مـتـحف التـاريخ الطبـيـعى فى جنوب "كينزنجـتون" ، كان منبـهرًا بالحيـاة التى سبقت حيـاته ، فكان ينظر إلى الأشياء فى هذا المتحف وهو سارح ، يربط بين الطبـيعة القديمة وبين أنفاق الألغام ، وصـمامـات أمان القنابل اليـدوية دفاعـية وهجـوميـة ، ومدافع الكلاشـينكوف ذات المعـدن المزرق من الإحمـاء ، أرسل بطاقـات بريدية تحمل صـورة المـاموث ، والرخويات لأطفـاله ، الذين ظلوا بالمكان الذى عاشوا فيه مع زوجته طوال الحرب .. فى عشش السود بحاضرة بلدته .

أما زوجـته ، فقـد كانت تحت رقابة البـوليس منذ : تزوجتـه. وقد احتُجزت عدة مرات ، لكنها بقيت على قيـد الحياة بقولها إنها وزوجها قد انفصـلا عن بعضـهمـا ، وهذا صحـيح بطريقة مـا ؛ فرجل يقـود حرب عصابات ، ليس له عـائلة ، عليه أن ينسى الوجبات الـتى تعدها امرأة من أجله ، وينسى السـرير الذى عليـه طبـعة وأثر جـسـمين عند كل طرف ، وينسى "خنة" الطفل القريب منهـما ، مارس الجنس مع مغنيـة سمراء من جاميكا ، ليـست بعد شابة ، وكـانت تسريحة شـعرها عبـارة عن باروكة حمراء ، بدلاً من تسريحة ذلك الوقت مـوضة ، ذيول الخنازير المتصلبة ، ألفت أغنية عن شجاعته فى الحـرب لبلد تخيلته ولم تكن رأته قط ، غنتها فى لقاء النصر .. حفل التضامن ، حيث صفق لها كل الأخوة الموجودين فى المنفى، وكذلك كل البيض المتـعاطفين مع قضيتهم ، فى شقـتها ، كان لديها صندوق ويسكى "سكوتش" خاص ـ فهو مـعتق منذ اثنى عشر عامًا ، كان قـد أرسله لها أحد المعـجبين ، قالت له وهى تغنى: " دعنا لا نتـركه يصبح أكثر قدمًا " ، ولأنها تعـمل فى الليل فقط ، لذا قضيا طوال النهار فى البيت يمارسان الجنس فى جو سيىء ، فـتحول الرجل الكبير، الجنرال چاينت ، إلى قط شـوارع تحت مطر بارد: يمشى علـى أطراف أصابعـه ، ويرفع ساقه ويهزها كلما ابتلت .

كان ينتظر الموافقة ـ حسبما قال لأخيه رئيس الوزراء المقبل ، كى يعود إلى وطنهما ويشغل منصبه كقائد عام "جيش الدفاع" فى الدولة الجديدة . سوف يصبح لقبه أعلى رتبة رسمية ، مثل أولئك القادة فى بريطانيا والولايات المتحدة ـ سوف يصبح الجنرال زويدو.

استدار أخوه بطريقة مهيبة ، وهو يدارى أفكاره فى ذهنه ، فلا يستطيع أحد متابعتها ، وقال: " مستقبل الجيش مشكلة كبيرة فى الوقت الراهن ، ومازالت قيد البحث ، فالجيشان الأسود والأبيض ، اللذان حاربا بعضهما البعض ، يجب أن يكونا جيشًا واحدًا " ، أما ما كان يجهله من المباحثات السرية المستمرة فى الخفاء .. أن حكومة البيض المهزومة ، والقوى الأوربية التى وعدت دولة السود الجديدة بالقروض لإعادة البناء ، قد أصرتا على تجريد "سنكلر۔ جنرال جاينت ـ زويدو" من كل صلاحياته العسكرية .

إن وجوده وتأثيره الشخصى قوى جدًا ، ومرتبط بشدة بانتصار جيش التحرير ، وذلك لن يجعله سوى شخصية من الماضى تذكر بالخلاف والشقاق .. فى الجيش النظامى.. الجديد . وقد نصحوا : دعه يرشح نفسه للبرلمان فى أول دورة بعد السلام ، وسوف تضمن له أسطورته الفوز بمقعد ـ ثم بعد ذلك يستطيع رئيس الوزراء إيجاد أى منصب آمن له.

ما هو هذا المنصب ؟ ما هو ؟ هذا ما كان يدور فى عقل رئيس الوزراء عندما لم يكن "چنرال چاينت" قادرًا على متابعته ، إن كل ما يعرفه هو كيفية الدفاع عن الوطن ، هذا ما حارب من أجله " ، هكذا قال رئيس الوزراء المقبل للمستشارين الموثوق بهم ، والمحامين الإنجليز ، والخبراء الأفارقة خريجى الجامعة الأمريكية ، وبينما كان يقول ذلك ،

عرفـوا أنه لا يريد ، ولا يستطيع أن يترك أخـاه "سنكلر- چنرال چاينت - زويدو" ، سيد البرية ذاك ، يقف حجر عثرة أمام إرساء زمن السلام .

تركه فى أوروبا بحجة بعـض المهام السريعة المخترعة حـتى احتفالات الاستـقلال ، ثم أعاده للوطن ، إلى العاصـمة الاستعـمـارية القـديمة ، التى أصـبـحت ملكًا لهم ، وفى المـطار بكى الجنرال فى أحـضـان رئيس الوزراء من فرحة النصـر ، بينما كان أطفال المدارس يغنون . منحـه منصبًا وزاريًا - منصب "وزير الرياضة والاستجمام " .. المنصب غير المؤذى .

نظر "چنرال چاينت" إلى يديه الكبيـرتين ، كما لو أن المنصب شىء مادى عـالق بهـا ، ما المفـروض أن يفعل بهـذا المنصب ؟ فشلت الرئـتان الضخمتان فى ضخ الهواء لحنجرته ، فتكلم مع أخيه رئيس الوزراء بصوت منخفض ، وبامتنان ، بل وحتى بإشفاق .

الآن ، كـلاهما يرتـدى بدلة زرقاء داكنة ، فـى أول الأمر ظهـر مع رئيس الوزراء كترضية تبين للشعب- ضمنياً - أنه مازال يحظى بقبول رئيس الوزراء ، بوصفه واحداً ممن ساهموا فى تأسـيس الأمة ، وبطلها الشعبى . لعب كرة القدم فى الرقعة الفضاء فى مزرعة السكر بين فروع أشجار السنط و أعمدة البريد ، تلك الأرض التى شهـدت طفولته ، وفى الأرض الفضاء بجوار مبنى الإرسالية الكاثوليكية التى شهدت أيام شبابه ، أما كرجل فكان مشـغولاً بالحرب ولم يـكن لديه وقت للرياضة ، استـمتع إلى حـد ما فى الشهور القليلة الأولى بمـشاهدة المباريات الهامة وهو فى منصـبه الرسمى ، فشاهد المباريات من مـقصورة خاصة ، بعد ذلك كـان يرى نفسه فى نشرة الأخبار بالتليـفزيون ، أما الأحد فكان يوم إجازة ولهـو ؛ وإن طالت فترة الإجازة ، فليس لديه بحكم منـصبه الوزارى أية التزامـات لإلقاء خطب ،

لكن لأنه ذو اسم معـروف فى كل أنحاء العالم ، ولأن مـوقعه حـفر فى الجبال مثوى لشهداء حرب العصابات ، لذلك ذهب إليه الصحفيون لإجراء شتى الأحاديث ، هذا بالإضافة إلى أنه كـان نموذجًا رائعًا لحدث صحفى ، فهو ثرثار ، صريح ، مندفع ، عاطفى ، وقد ورط حكومته مرات ومرات برأيه الأهوج الذى يناقض سـيـاسة الحكـومة فى المسـائل التى ليـست من اختـصاصه ، وقد وجـه إليه مؤتمر الحزب تأنيـبًا رسميًا مـرات ومرات . فكانت استـجابته فى مثل هذه الاجـتماعات هى التـعالى والنظر بازدراء . قالوا: " إن زويدو ـ (وقدحان الوقت لإسقاط لقبه) ـ مغرور يفكر كثيراً فى نفسه ، وأنه أساء إلى الحزب ، أما هو، فكان يعلم أن ما يزعمون ليس هو الحقيقة أبدًا ، وكان متبرمًـا من مؤتمر الحزب ، قال: "إنه كان يشعر برغبة فى التثاؤب طوال الوقت ، مثل فرس نهر يرقـد ناعـسًا فى المياه الغـامقة الغليظة تحت الشمس قـرب آخر مقر من مقـار قيادته وفكاه مفـتوحان . " ضـحك رئيس الوزراء لهذا الوصف ، وشـربا مـعا ويد كل منهـما تحـيط بالآخـر۔ مثلمـا كانا يفـعلان فى الأيام الخـوالى عندمـا كانا فى " منظمـة الشباب " ، قال له رئيس الوزراء: " لكن بجد ، إن الرياضـة والاستجمام فى غاية الأهمية للنهوض بأمتنا ، سوف أنظر فى زيادة مخصصات إدارتك فى الميـزانية الجديـدة، كى تتمكن من التـخطيط ، أنت تعرف كـيف تُلهم الشباب . . وقد قيل لى : إن أحد الفرق المحلية تبنت إحدى أغانى الحرية التى ألفتها وغنتها فى التليفزيون. "

فى تلك الأيام كان وزير الرياضة والاستجـمام يرسل نائبه ليؤدى عنه مهمـة حضور الاجتماعـات والمناسبات الرياضية ، ولم يسـمع بأغنيته التى كانت عن الحرب وقد تحولت إلى أغنية تشجيع لكرة القدم ، وصلت المغنية "الجاميكية" حـسب التعاقد الذى أبرمته مع الهيلتون لإقـامة حفلات به ،

حيث أفتتح "الهيلتون" تواً عدداً من قاعات المؤتمرات ، والبارات ، وكازينو، وملهى ليلياً ـ وأُقيم السجن الجديد مكان المعسكر السابق لرابطة السلام ، وكان الجنرال هناك ، كل ليلة "بالملهى الليلى" ، يحتسى الـ "سكوتش" مثل الذى كان لديها بشقتها فى لندن ، ويتمايل برأسه مع الغناء ، قامت إدارة الفندق بالإشارة إليه فى دعايتها لجلب الزوار من الخارج ، .. "سنكلر - جنرال چاينت - زويدو، الچنرال چياب ، التشى چيفارا ، قائد الحرب المرعبة فى تلك البلاد" ، فكان السياح يقضون اليوم ، حيث تحملهم طائرة خاصة، لمشاهدة ما وصف فى دليل الرحلة بأنه حديقة اللهو الخلابة فى البلاد - محارب الحرية الشهير كان يتعين عليه أن يقول لهم : حقًا أليست كذلك ؟!؛ لأنها فى الحقيقة كانت منطقته .. مقر قيادته. أحيانًا كان يرقص مع إحدى النساء ، فكانت أسنانها البيضاء تلمع متناقضة مع بشرتها التى لوحتها الشمس ، فتبدو مثل السود ، ذات يوم كاد يقع شجار ؛ فقد رقص مرات كثيرة مع امرأة واحدة ، التى بدت مستمتعة بهذه الصحبة الحميمة ، إلا أن زوجها اعترض ، ضحك الوزير المخمور ، وأمسك بالرجل من قفا سترته الكتانية البيضاء وألقى به فى كرسيه، وقد نقل الصحفى المحلى هذه الواقعة ، لكن الصحافة المحلية المملوكة للدولة لم تنشر قصته أو الصورة التى التقطها ، إلا أن صحفيًا من الخارج أجرى حديثًا مع "الچنرال چاينت" حول تلك الحادثة ، وحصل منه على تصريح بأن: " الوزير كان مخموراً بالفعل " ، ثم استضاف الصحفى على الويسكى الممتاز فى المنزل الذى أستأجره للمغنية الجاميكية ، وحصل على بعض الآراء حول موضوعات بعيدة كل البُعد عن فضيحة الملهى الليلى.

عندما أثير استجواب فى البرلمان عن مقال فى صحيفة أمريكية أسبوعية فى دولة الحلفاء العالميين ، وقف الـ"چنرال چاينت"

ومرة أخـرى وزع اتهامات لم تستطع الصحف المحلية نشـرها ، قال : إن الدفاع عن الوطن لابد من أن يوضع فى أيدى المستعمرين الجُدد الذين كانوا معادين للوطن أثناء الحرب ـ أما هو فيقف بلا حول ولا قوة لفعل أى شىء حيال ذلك ، لكنه سوف يتمسك بالقانون ليحمى مبادئ حزب "الاستقلال الوطنى لديمقراطية الشعب " ، لقد كان يستعمل الاسم القديم فى مثل هذه المناسـبات ، عـلى الرغم من أن اسم الحـزب قد اخـتـصر إلى " الحـزب الوطنى"؟ ألم يحارب ؟، ألم يُرق الأخـوة دماءهم كى يتخلصوا مـن عُقد القوانين القديمة التى كانت تعتـبرهم لا شىء ؟ ألم يحاربوا من أجل قوانين جديدة ، فى ظلها سوف يكونون بشرًا ؟ إنه على اسـتعداد لإراقة الدماء ، ولا يرى الحزب يُخان ويضلل باسم ما يدعى التحالفات المنطقية ، والوحدة الوطنية .

قيم مستشاروا الحكومة الدوليون كلـمته بأنها تحريضية ، إلا أنها على قدر كبيـر من التشويش ، لذلك من الأفضل تجاهلها ، أمـا أعضاء مجلس الوزراء ، وأعـضـاء البرلـمان ، فطلبـوا من رئيس الوزراء التـخلص منه . "چنرال چاينت ـ زويدو"؟ كيف هذا ؟ وإلى أين ؟ كان رئيس الوزراء يعبر عن شدة غضبه فى صورة أسف شديد ، لـقد كان غاضبًا من كلام كل من أعضاء مجلسه، ورفاقـه، الذين بدونهم لم يكن ليتربع فى مجلس الوزراء ، أرسل فى طلب زويدو ؛ لابد له من تقبل هذا الاسم الآن ، لأنـه ببساطة رفض أن يتكيف مع أى شىء بطريقـة غيـر منطقية ، فلم يـتخل عن اسم "سنكلر" ، مع أن هذا الاسـم كان اسم صـاحب مـزرعـة قـصب السكر الأبيض الذى كـان يعـمل والداه عنده ، ولـم يعـد أحـد يحمـل أسمـاء العبودية تلك .

"زويدو" ، مطمئنا تماماً لوسامته فى حلة مجلس الوزراء (فلم تعد تلك الحلة الزرقاء القديمة ، بل أصبحت بدلة صوفية بخطوط طولية ، أمرت بإحضارها المغنية الچاميكية من لندن على نفقته) فى هذا الزى الرسمى لا يمكن أن يتصور أحد أن تصدر عنه كلمات وحشية وخطيرة ، يبدو صالحا لمنصب دبلوماسى فى أى مكان . . . قال له رئيس الوزراء وهو فى غاية الأسف والتحفظ : " إن عليه أن يتوقف عن شرب الخمر ، والمقابلات الصحفية" ، ولم يأت على ذكر الوزارة ؛ ولم يخبر رئيس الوزراء أخاه ، أنه لن يستسلم للضغوط التى تطالب بإقصائه عن منصبه ، فالمنصب الوزارى الذى لم يسع إليه قط ،هو الشيء الوحيد المتاح عرضه عليه ، لم ينو رئيس الوزراء إقصاءه ، على الأقل حتى يتم ذلك بطريقة لائقة تحت غطاء التغيير الوزارى ، وكل ما استطاع رئيس الوزراء قوله: " لا تخذلنى" أما ما كان يريد قوله فعلا ولم يقله: " ماذا أفعل بك ؟!"

كان هناك نقص فى الإنتاج ، ومشاكل مع اتحادات عمال مناجم الفحم ، وعندما جاء التعديل الوزارى إشارت الصحف بالكاد لتغيير وزير الرياضة والشباب القديم ، لم يحصل السيد " سنكلر زويدو" على أى منصب وزارى ، وأشير إليه كوزير سابق ، عندما أضيف اسمه إلى مجالس إدارات الشركات الصناعية المتعددة الجنسيات ، التى وجهتها إداراتها إلى أن تتأفرق ، كانوا يعتمدون على أنه لن يحضر اجتماعات هذه المجالس ، وكانت بدلات الإدارة تكفى لشراء صناديق الويسكى ، وأحيانا تذهب لزوجته التى لم يعد إليها قط، أو يظهر فجأة مع أبنائه المراهقين فى أرقى محلات المدينة ، يشترون كل ما يخطر على بالهم ، وقد لام أصدقاؤه القدامى المرأة الچاميكية ، وليس رئيس الوزراء ، على اختفائه من الحياة العامة ، وقد عادت الچاميكية إلى لندن ، وكانت أسبابها جنسية

وصريحة ، فـقد أدركت أنها أصبحت عجـوزاً بالنسبة له ـ ومع ذلك ـ لم ينصلح أسلوب حياته ، لم يشف من الحرب ، ولا من ثلث مساحة الوطن التى كان يسـيطر عليها ، عندمـا فقدت الحكومة البيضاء سـيطرتها ، ولم تكن وجدت حكومة سوداء بعد.

الآن انفتح الوطن ،على كل المؤسسات السياسية والتجارية فى كل من الشرق والغـرب، بدلاً من الحلفاء التـقليديين للحكومـة البيضـاء القديمة، وامتد المطار واتسع، وأصـبحت صالة المغادرة الجديدة متـحفًا لفن النحت، حيث تتكئ الشـخصيـات البارزة بين أحواض النبـاتات، فى انتظار الوفود التى مهمتها تبادل المعلومات بين الشمال المُستعمِر والجنوب المُستعمَر، رئيس أركـان الجيش الأبيض السـابق، والذى يشـغل فى حكومة السـود الحاليـة منصب المستـشار العسكرى فى وزارة الدفاع ، كـان فى صالة انتظار المطار منتظرًا طائرة تقله إلى أوروبا فى مهمة حكوميـة ، انضم إليه صحفى حجز مقـدمًا إلى لـندن على نفس طائرة الوطن ، حيث عـاد من رحلة مـخيـبة للآمال. أبدى الصحـفى ملاحظة للرجل العسكرى أثناء تناولهمـا "الفودكا بالتونـيك" : "حسنًا ، من يريد أن يقـرأ عن برامج وخطط زيادة محـصول الأرز بدلاً من غارات التفتيش والتحطـيم،" كانت تلك إشارة لبقة صدرت عن رجل يجلس مرتـاحًا فى أرض محايـدة هى صالة المغادرة بالمطار بعيدًا عن سمع رجال الأمن الجدد السود ، المتنبهين لأية إشارة من شأنها تشجيع انقلاب الحرس الأبيض القديم.

سـبق الإعلان عن مـوعـد مغـادرة الرحلة المتـأخرة لخطوط الطيـران البريطانية جرس مـوسيقى، أخرج أحد "الهندوس" من عبـاءته الزعفرانية حلوى ، وراح يقدمـها هدية للمسـافرين كعـربون للسلام والمحبـة ، بينما

انتهز رجال الأعمال الفرصة لكتابة تقاريرهم فوق حقائبهم الجلدية المفتوحة على ركبهم، وكان الأطفال السود مثل البذور ، متعلقين بذيول أمهاتهم، بينما الأطفال البيض يركضون من وإلى البار، يشترون "البطاطس الشيبسى" والفول السودانى، أصر الصحفى على تناول دور آخر من المشروبات.

أعلن كل فترة عن مغادرة بعض رحلات الطيران، فكانت تتغير أشكال المجموعات والأفراد ، حيث يغادر البعض ، بينما موجة جديدة يسمح لها بعبور الجوازات فتستقر مجموعات البشر فى توليفات جديدة ، أما أولئك الذين تأخرت رحلتهم ، فقد أصبحوا جزءًا من مجموعة دائمة، تضم كنديين من طائفة "بروتستنتية" منهمكين فى مطالعة أناجيلهم بنفس الانهماك الذى يقرأ به الآخرون الروايات البوليسية، وامرأة سوداء عجوز جدًا مثل سمكة مجففة، وزوجان أسودان ثريان يرتديان ملابس غاية فى الأناقة، جلس رئيس الأركان الأسبق وصاحبه خلف هذين الزوجين بمسافة قصيرة ، وكان الزوجان يتبادلان الغزل والملاطفة ، مثل البيض ، وليس من المألوف رؤية أمثال هؤلاء الناس يتصرفون على هذا النحو على الملأ، وقد لاحظ الرجلان الأبيضان هذا ، على الرغم من أنهما كانا يريان فقط رأس الرجل الأسود وجانبًا من وجه المرأة الجميلة المتبرجة ، التى راحت بلا أى حياء تلعق أذن الرجل الصغيرة ببطء ، وأصابعها ذات الأظفار الطويلة تلتف حول عنقه .

لم يبد رئيس الأركان السابق أى تعليق ، فلم يكن مهتمًا ـ فما الذى لم يره المرء بعد فى هذا البلد ؟! أما الصحفى فكان هو من كتب مقال "روفيل" ، بعد انتهاء الحرب مباشرة ، الذى كتب عن: الولد الأسود

الصغير الذى اعتاد أن يواجه الكلاب بشجاعة فى ضواحى البيض...
فجأة انحنى للأمام ، وراح يحدق فى رأس الرجل الأسود من الخلف، ذاك هو "چنرال چاينت"! إننى أعرف هاتين الأذنين! ثم وقف ومضى إلى البار، ومال على النضد الطويل لتفحص الزوجين من الأمام ، اشترى كأسى "فودكا بالتونيك"،وعاد بخفة إلى رفيقه والثلج يتراقص فى الكأسين.
"أنه هو، كنت متأكدًا من ذلك، أعرفه جيدًا ، حقًا لقد أصبح بدينًا! وينتعل حذاءً من جلد السويدا الفخم ، تلك المرأة ... أين وجدها !"

الزى الرسمى لرئيس الأركان السابق ، بحشوته السميكة ، والأوسمة فوق الصدر، أرخى غطاء الرأس حاجبيه ، كأنه سيحميه من الغضب فضلاً عن المعاناة ، بينما شعر الصحفى بالارتباك ، وتخشب وراحت الفودكا ترشح من جسمه مع العرق ، فلم يكن يعرف هل يتقدم إلى "الجنرال چاينت" أم لا - فلم يكن الآن يرافقه رجال السكرتارية أو رجال الأمن ؛ كى يطلب حديثًا صحفيًا ، وهل هناك أحد يريد أن يقرأ هذا الحديث ؟ وهل يستطيع بيعه فى أى مكان؟ لكن ذهنه تشتت من إلحاح الميكرفون وإعلانه: إن على المسافرين المتسببين فى تعطيل الطائرة ، لسبب أو لآخر، التوجه إلى الطائرة فورًا ، لم يتحرك أحد ، و"الجنرال چاينت" ـ الذى لا يخطئه أحد ـ كان يلوح بيده الكبيرة فى الهواء ، طالبًا مشروبًا منعشًا له ولفتاته ، فهرع الساقى إلى اليد ، على الرغم من أن البار كان خدمة ذاتية، قبل أن يتمكن الصحفى من التوصل لقرار فى موضوع الحديث الصحفى، دخلت مضيفة شركة الطيران مسرعة وحفيف جواربها مسموع عند احتكاك ساقيها ببعضهما ، توقفت فى غضب ، وهى تنظر بازدراء للثنائى الأسود ، لم يتمكن الصحفى من سماع ما قالته لهما، لكنها وقفت بحزم ، بينما أخذ الثنائى راحتهما فى النهوض، تركت الفتاة ذراعيها

ينزلقان عن الرجل فى وله ، وتراخ ، رتبا حقائب السفر المصحوبة باليد على كتف كل منهما.

إلى أين كان ينطلق بها ؟

كانت المرأة ترتدى صندلاً بكعب عالٍ ، أنزلت ساقها أمام الأخرى ، ومشت بخطوة القط مثل عارضة الأزياء ، وكان "سنكلر- چنرال - چاينت - زويدو" يتبع مؤخرتها بالطريقة التى يتبع بها رجل امرأة غانية ، دون أن يفكر فى الاقتراب منها بوجهه المشرق، ورئيس الأركان السابق والصحفى ، لم يعرفا ما إذا كان قد تعرف عليهما ، أو حتى رآهما ، لأنه مر بلا تعجل ، والطائرة تقف فى انتظاره .

لبن

تأليف : "إلـزا چوبيـرت"(٦٤)

تحـدث الرجل الذى يطمـر التـراب أخاديد وجـهـه ببطء، ومن حين لآخر، كـان يجرى يده فوق رأســه ليسوى شـعره القليل المتناثر، لاحقـته المترجمة متابعة كلماته، وشخص ما، صحفى على ما يبدو، راح "يخربش" الكلمات على الورق.

كانت الكلمات تخرج من فمه بصعـوبة، فلم يستطيعوا الحصول على ما يـكفى من المعلومات، فى فـترات السكون الفـاصلة؛ كان يزدرد لعـابه بصعوبة، ويكمل:

" لقد ضغط على صدغى بالمسدس، لا أعرف كيف وصل إلى جانبى فى السيارة، فى ذلك الحين، كانوا بالفـعل قد "جرُّوا" زوجتى إلى خارج السيارة. قال لى: "حاول التحرك، وسوف تجد نفسك ميتاً"

" لم أسمع صراخـها، لم تطلق أى صوت، وخلفى، كـانت المقاعد مفرودة والأطفال نائمون "

(٦٤) ترجمها إلى الإنجليزية عن لغة الأفريكانيز : "مارك سويفت" .

" جلست ساكنًا، مـا الذى كان يمكننى فعله؟ فوهة المسدس عضت على جلدى ، عندما تناول الثانى المسدس ، استلم مكان الأول، بأن حشر جسمه إلى جانبى ، وراح الأول يتقدم خارجًا شيئًا فشيئًا " .

" كانـت فوهة المسـدس ضاغطة على صـدغى بطوال الوقت ، أظن أنهم كانوا خمسة أو ستة، أولئك الذين اغتصبوا زوجتى"

" عندما انتهوا منها، أرادوا تركها على جانب الطريق، لكننى رفضت قيادة السـيارة بدونها، كنا جزءاً من قافلة طويلة من السـيارات التى صارت متوقفة أمامى، وكنت أنا أعطلها.

" اقتلعـوا باب السيارة مـرة أخرى، وقـذفوا بزوجتى داخلهـا، كان شعرها متـدليًا محلولاً، وشفتاها الدامـيتان متنفختان، وقـد فاضت عيناها بتعبير غريب " .

" إنها راقية التربية ، حاولت إعـادة ترتيب ملابسها الممزقة ، وكل ما نطقت به أن قالت : " انطلق "

"عندمـا أدرت السيارة ، بدأت قـافلة سيـاراتهم فى التـحرك، بدأت السير، فدفعت للأمام بالتعشيقة الأولى، وفيما بعد، عندما زادت سرعتنا، أمكننى التقدم للسرعة الثانية والثـالثة، على مسافة ـ وخلفنا مباشرة ـ كنت أسمع صوت إطلاق الرصاص ، لكننا لم نتوقف مرة أخرى.

" عندمـا وصلنا قرب حدود جـنوب إفريقيـا ، كنا قد تأخـرنا على مواعيد العبور، أشار لنا جندى شاب ، حليق الوجه ، وقال : " لا تتوقف ، تقدم "

قضوا تلك الليلة فى معسكر طوارىء ، انتـفخت الخيام العسكرية فى الظلام، وباتت السيـارة على الدروب الترابية بينها، أو توقـفت فى السهل أمام السلك ، وعند السلك ، فـرد الزوجان سريرًا، وحـاولا النوم ، رقدا بين السلك والسيارة على حشية رفيعة ، وزعها عليهم الجنود .

جـرت الدموع على خـديه بينمـا يداه تمران على جسـدها، مسـدت شعرها الرمادى ورفعته عن جـبهتها المنداة، وكلمت الرجل بهدوء: "حاول أن تتخلص مما وقع . . . إنه ماضٍ"

دخل جسدها المنتهك مثل رجل يدخل بيته بعد أن أتلفه الحريق.

هل كان يبـغى مواساتها ؟ أم كـان يريد أن يتحرر من خـوفه؟ أو من الشك؟ أو من الإحساس بالذنب؟

بعد ثلاثة أشهر، عرف بحملهـا، حملق فيها ، كأنه يقلب الرأى فى أمرٍ ما، وقال: "هل تنتظرين مولوداً ؟"

ثم سأل : " هل هو طفلى ؟ "

ردت : " كيف لى أن أعرف ؟ "

هنا، فى البيت الجديد، فى المدينة الجـديدة، فى البلد الجديد، أخفت حملها قدر استطاعتها، كل صباح بعد أن يغادر الأطفال للمدرسة الجديدة، والرجل لوظيفـته الجـديدة، تسلم نفسهـا للغثيـان والقىء ، من المريح أن تكون وحدها، أن تكون قادرة على أن تميل فـوق الحوض وأن تفرغ ما فى معدتها، استمرار القىء أتلف جـسدها، والتصق الجنين بعمودها الفقرى ، وراح ينمو مثل شىء غريب.

اصطحبها لمستشفى الولادة ، مـلأ الاستمارات، وكتب اسم زوجته: "ماريا مـارجريدا دى سيلفا"، وكـتب اسمه ، الاسم المكتوب فى بطـاقته الطبية الجديدة الصادرة عن مؤسسته الجديدة ، وكتب لقبه ، وديانته.

نقلوها على "الترولى" ، لأنها لم تعد شابة.

كانت الـولادة سهلة، الجسـم، الذى رعى نمو الطفل لتسـعة أشـهر، دفعه بسـهولة، براحة. . . . وعندما أحـضروا إليها الطفل ، عـاينته ورأت لون بشرته وسحنته مشابهين لطفليها الآخرين، فبكت.

النســاء الموجودات معـها فى جناح الولادة بالمستشـفى أطلقن بعض الكلمـات المشجـعة: "بكاؤها طـبيـعى"، وقدروا أنهـا خائفـة إثر رحلة الطيران، رفعت سيدة ، خاوية البطن - نفسها على مرفقيها ، وقالت وهى هاجعـة بثقــل عــلى السرير: "اسمـحى لدموعك بالـنزول،" وأكدت أن "تلك الدموع طريقة طبيعية للتخلص من المـاء الزائد"

حملت "ماريا مـارجريدا دى سيلفا" المولود الذى أحضـروه إليها فى طية ذراعهــا، حلت أزرار ثوب النوم ، فأطبقت الشفـاه المائلة للزرقة على الحلمة ، وبدأت الامـتصاص، شعـرت الأم بالشد القوى على حلمتـها ، وبالاعتـصار المؤلم لسحب السـائل من الحلمة المقـاومة ، فلم تكن النداوة السـائلة من الحلمـة لبنًا بعـد ، بل كان" لبن السـرسـوب" الذى يعنى أن الطفل مازال جـزءًا من جسم الأم ، نظرت لا مـبالية فـرأت اليد الصغـيرة تائهة تتلـمس طريقها حـرة من لفائفهـا، حتى التقـت بغير توقع الانتـفاخ الناعم لصدرها وتعلقت به ، كانت الأصابع تضغط بشدة على اللحم الذى انتفخ بينها، بينما كـان الامتصاص على حلمتها مُلِحًّـا جداً حتى تنبهت له كل النهايات العصبية بجسمها .

فقط ، فى اليوم الثانى، فحصت المولود عن قـرب، كان يشبه طفليها الآخرين، الشفـتان فقط ، كانتا أغلظ ، مزمـومتين بطريقة أخف، أو ربما كانتا ترغبان بإلحاح فى الرضاعة فحـسب؟ ولد صغير، حتى عندما استوى فى لفائفـه شبـعان بقى زامًا شـفتـيه من أجل اللبن، الأنف، أيضًـا، كان مختلفـاً بشكل غير ملحوظ ، وما هى أنف طفل لم يتـشكل بعد؟ أليست كل أنوف الأطفال المولودين مثل بصمات الأصـابع معجونة من صلصال لم يستو بعد؟

التفت اليد الصـغيرة معـانقة أصابعها، لم يكن الطـفل راغبًا فى ترك يدها، حتى عندما حاولت الممرضة المبـتسمة أن تخلص يده الصغيرة من يد الأم بأصابعـها القـوية، كانت مسكتـه قوية حـتى أنها تركت عـلامة على يدها.

فى اليوم الثالث، ظهر الوجه الصغـير من خلال أغطيته، وبدا بمسحة خفيفـة للون داكن، كما لو أن ظلاً سقط عليه، نظرت "مـاريا دى سيلفا" للنافذة، لم تكن هناك أى ظلال، نظرت "ماريا" ليدها الممسكة بالطفل فى طيـة ذراعـهـا، لكن لم يكن هنالك أى ظل على جـلدها، رضع الطفل، كانت تشعر بأن كل رشفة تستنزف سـائل الحياة من نخاعها، من عظامها، من أعمق أعـماقهـا، حاولت شد الطفل بعـيداً عن صدرها، لكن الشـفاه التصقت بالثدى.

عندما جاءت الممرضة لأخذ الطفل ، تعاملت معه بطريقة بدت غريبة ، كما لو كانت تحمله بعيداً عن جسمها - أوه - يا أمنـا العذراء الحبيبـة ، أم كان هذا من صنع خيالها ؟ هل كان ما ظهـر فى عيون الممرضة اشمئزازاً من الطفل؟

زارها زوجها فى مساء اليوم الثانى.

لم يتحدث كثيراً عن الطفل.

قال: " كل الأمور بخير، البيت أفضل من ذلك الذى كان فى البرتغال، وحتى الذى فى أنجولا، لقد وظفوا قدراتى فى المصنع بأفضل ما يكون، فى الإدارة التى أعمل بها الآن، أعرف العمل مثلما يعرفه أفضل واحد منهم، وهم يعرفون ذلك، هم يحتاجون لأناس فى مثل كفاءتى"

سُرت لثقته فى نفسه، وتذكرت الليلة التى حاول فيها سبر جراحها، عندما أسقط عليها إحساسه بالذنب، عندما جرت الدموع من عينيه.

الآن خداه بلا دموع، ويداه راقدتان ساكنتان على أغطية السرير، أو تمسك أحياناً بذراعها. وقد أحضر لها زهوراً.

سألته: "والأطفال؟"

"إنهم بخير، المدرسة تساعدهم، حتى فى تعلم اللغة"

قالت: " ذلك أمر طيب" أجرى يداً مضطربة على رأسها وراح يمسد شعرها الرمادى.

عندما أحضروا لها الطفل فى اليوم الرابع، كان وجهه قد صار بلون الرماد، وإبطاه وثنايا جلده الناعم .. سوداء.

ناولتها الممرضة الطفل دون أية كلمة، وأرقدته إلى جوارها بالمسحة الداكنة السوداء التى انتشرت على كل بشرته وبرز تركيب الأنف أكثر وضوحًا، كان أنفه واسعًا مفلطحًا، مثل أنف الرجل الذى سحبها من السيارة، وكان زوجها جالسًا وفوهة المسدس فى صدغه.

بحث فم الطفل بتوق شديد عن ثديها، وعندما صادفه حليب الحلمة بدأ الرضاعة مفتشًا ·· قابضًا، سالت القطرات الأولى ، مانحة إياها راحة فورية.

أطبقت على أنف الطفل بالإبهام والسبابة، فراح المولود يقاوم، من كان يظن أن بهذا الجسم الصغير كل هذه القوة ؟ راحت قدما الطفل "ترفسان" بطنها بضراوة ، واليدان تضربان ثدييها الممتلئين، الفم ، ترك حلمتها وجاهد من أجل الحصول على الهواء فى اضطراب تام، اللبن الذى شربه ، جرى على جانبى فمه فى قطرات بيضاء.

دفعت ملاءة السرير فى فمه المفتوح ، وأقحمتها ·· وراحت تقحمها أعمق فأعمق.

بقيت ممسكة بها هناك إلى أن توقف الرفس الموجه لبطنها، إلى أن استرخت اليدان ذات الأصابع السوداء ساقطتين بعيداً عنها.

ظلت ترن الجرس ، إلى أن وصلت الممرضة أخيرًا؛ ثم قالت:

"اختنق الطفل"

كان الصحفى يريد نشر قصة ، اقترب من "ماريا دى سيلڤا" فى الحجرة، قال: "صديقتى الممرضة أخبرتنى بأن هناك قصة"

أشارت بيدها: " أنا لا أفهمك"

حاول عن طريق الإشارة: "الطفل الموجود على صدرك . . . هل غلبك النوم ؟" وطوى يديه على بعضهما البعض ، محاكياً حركة النوم، "هل غلبك النوم فاختنق المولود تحت صدرك؟"

أومأت، بأنها متعبة.

ألح الصحفى: "يريد الناس أن يعرفوا ما حدث، إنهم مهتمون، 'مأساة فى الوطن الجديد' "

نهر من الدموع انساب على وجنتى المرأة الراقدة على السرير، والملاءة البيضاء تغطيها حتى ذقنها، فوق ثدييها المتنفخين، تجمعت الدموع فى زوايا عينيها، عينان هامدتان، متغضنتان، عجوزان، ومتعبتان، وشعرها غزاه الشيب، تجمعت الدموع فى زوايا عينيها لتنهمر أنهاراً على وجنتيها .. لم تجففهما.

امتدت ذراعاها مفرودتين عن آخرهما على ملاءة السرير، داكنتين وممتلئتين، ولمة شعرها بخصلاته الرمادية ممدودة إلى جوارها على اليسار مثل حيوان داكن ميت.

كان الصحفى متلهفًا أكثر مما ينبغى ، ويخشى أن ينتهى الموضوع للاشىء فسأل: "كيف تشعرين حيال اختناق مولودك ؟ أريد عنوانًا للصورة"

حتى هو التزم الصمت أمام الدموع المتدفقة من عيون المرأة جارية على خديها.

أشارت لثدييها، كانت النداوة "تنز" على ثوب النوم، تساءلت فى صمت: "ماذا سأفعل باللبن؟ من سأرضعه بهذا اللبن؟"

غزاة الفضاء

تأليف : "بيتر فيلهلم"

الهدف : أن تبقى على قيد الحياة أطول فترة ممكنة .

السيناريو : أنت تقف على الأرض وحدك ، مدافعًا عن حضارتك ضد المهاجمين من الفضاء الخارجى ، وهم يهبطون تجاهك باستمرار ، محدثين ضوضاء متوعدة ، جميعهم يصوبون أسلحتهم نحوك ، وضربة واحدة سوف تدمرك ، إذا تركت أياً من المهاجمين يصل إلى الأرض ، فإن العالم سوف يضيع ، هذا حديث عن المسئولية .

إن استكشاف المدينة المهجورة معًا كان آثار كثيرة ، وخدم وظائف متنوعة ، كلما توغلت أعمق فى داخل مجمعات التسوق تحت الأرض ، كلما ابتعدت عن الأصوات الطاحنة لآلات حفر الغرباء، التى تطوق المدينة تماما الآن ، وتطبق عليها .

حقيقة التطويق فى المدى الواسع لمجمعات التسوق تحت الأرض ، بدت أخف وطأة من رهبة المترو المغلق تحت الأرض ، ليست مفارقة ألبتة : إضاءة البلاد والمراكز التجارية بالضوء الصناعى - بكنوزها من المجوهرات، والمعدات الإليكترونية ، والعقاقير المجدولة ، والروايات ذات الأغلفة المقواه - مما كان يجعل المكان معرضًا لحملاتهما اللصوصية ، كأنه غابة مباحة للشاعر الرومانسى .

كان عالم تحت الأرض هناك متاهيًا ومعقدًا ؛ يربط بين أجزائه ممرات ومساحات فوق مساحات مليئة بالمعروضات الاستهلاكية ؛ والمعالم الملموسة لمجتمع يزول ، هناك بأسفل كانت تتلاشى عداوتهما القديمة .. وتخفت قسوة علاقتهما .

أحبت "ليندا" الفراء الغالى والملابس التى على أحدث "صيحات الموضة" ، كان هناك شيء ما يدنو من التهلل والفرح فى الطريقة التى كانت تنهب بها " البوتيك " ، حيث كانت تقضى الساعات تجرب الأثواب ، والعباءات ، ففى تجسدها السابق كانت تحتقر هذه الملابس البرجوازية ، الآن وُضعت أمامها كل تلك الرفاهية ، فراحت تعرض فى بهجة وحشية أحدث صيحات الموضة لنفسها ؛ فقد كانت هى الشاهد الوحيد على نفسها فى الصالونات المتألقة ، تدور ، وتدور لتمسك بكل ملاك فى مأدبتها ، وقد تعنقدت عليها حُليات صغيرة من الماس والذهب مثل حشرات براقة .

كانت تقضى الساعات بهذا الشكل ، بينما يكون "بول" بمكان آخر ، يلعب لعبة غزاة الفضاء ، والرجل القارض ، وبوابة النجم ، ونجوم البحر والمدافع ، كان يحرك الآلات من "قوس شارع مفوض الشرطة" ، ويربطهم بسلك فى ردهة فندق " كارلتون " ، ثم يربط حطام السفينة المتألق إلى "عمود الساعة " ، ويقضى الكثير من وقته فى تلقيم الخزانة بالعملات المعدنية فئة العشرين سنتًا ، تلك النقود التى كان يسرقها من صندوق خزانة آلات "الفيديوجيم " الخرساء ، وصندوق جمعيات صناعة البناء .

كان سعيدًا بالآلات " الفيديوجيم " ، ووجد " بـول " أنها تحقق ما لا يعتقد الإنسان أبدًا أنه يمكن حدوثه ؛ بالتأكيد ، إنجاز يفوق المتع الغامضة لكونك " أستاذ تاريخ " .

هناك للحظات كان إحساس مُختلس من الاحترام يتسلل إلى نفسه ، بلا ريب كان إرثًا من نشــأته الدينية المتزمتة ، فى مـثل هذه الأوقات ـ التى تكون عادة فى المساء ، بعد افتراقه هو وليندا افتراقًا حادًا طوال النهار ، أو عندما كان ينفــجر سأمه من تحديه للآلات ـ كـان يخطط بذهول فى كراسة بالقلم الحبر "الباركر" ، وبشكل ثـابت ، ما كان يبدأ بملاحظات عن نهاية العالم، ويتحول إلى صور طفولية لنساء عرايا ، ولأنه لم يكن فنانًا محترفًا ، وهو على أية حال كـان يرسم من الذاكرة ، فإن التـفاصيل كانت أبعـد ما تكون عن الوضوح : نقط للحلمـات ، وخربشات لشعـر العانة، لم تكن الرسومـات مُرضيــة كفن إباحى ، ولا هى صحـيحة تشـريحيًا ، فـهو لم يعرف كيف تبدو المرأة دون ملابس منذ زمن بعيد .

ولكن فكرة أنه يجب أن يدوّن شـيئًا ، ظـلت تتسكع فى عقـله مثل درس غـير مُـعـد ، ولم يستطـع أن يصرفـهـا عن ذهنه ، لكن ، تدوين الملاحظات ، لمن ؟ فى النـهاية ، كـان تقـدم الغـرباء يبـتلعـه ، وليندا ، والحجرة ، والأوراق ، ويزول كل شيء ، راح يستـعمل "تليسكوبًا" من مركز الرصد على سطح " كارلتون سنتر " ، حيث كان شاهدًا على الفعالية المستعـصية على الفهم لعـملية التحول ، كانـت آلات الغرباء ، من خلال "التليسكوب" تشبه عددًا ضخمًا من الخنافس بلون فحم "الإنتراسايت" ، تجوف كل شيء فى طريقها ، وخلفت وراءها فضـاءً مسطحًا، هذا الفضاء كان داكنًا ومحفورًا بخطوط ، من حين لآخر ، يظهر حجر ضخم ينتصب

بارتفاع ميل عند تقاطع الخطوط المحفورة ، هذه المرتفعات من الأحجار الضخمة الرمادية كانت بلا أية زخارف وعكست منظراً تجريديًا .

لم يكن هناك أى دليل على الغرض من هذه المرتفعات ، ولا أى شاهد على وجود الغرباء ، فى الحقيقة ، لم ير "بول" مطلقًا أى كائن غريب ، أكثر ما استطاع تسجيله هو الانقباض الطاحن الذى لا يتوقف أبداً ، وتلك التشكيلات فى المدينة ابتلعت المكان بوحشية وحولته لفضاء مظلم ، وعمود حجرى يومض ، منذ بدأت العملية ، ومرت الفترة غير المحددة ، تحولت السماء إلى اللون البنفسجى القاتم الذى كانت ترى فيه النجوم : صلبة ونائية فى النهار ، وفى الليل تخفق عن قرب وتنتشر ، قطعت الشمس السماء بالعرض بأقصى درجات البطء وقطعتها فى وقت أكثر مما ينبغى ، لم يكن هناك تفسير منطقى لهذا البطء .

ذات مرة صدتـه "ليندا" ، عندئذ راح " بول" يستخدم سيارة البوليس المهجورة ليذيع الشعر تحت دهاليز الشوارع الفارغة ، تلك الشوارع التى يحيط بها واجهات أبنية المكاتب المملة .

وامتصت الكلمات فى الظلام.

كان يفكر فى النساء : كن يحترقن بعقله وهن يتألقن بفتنة وسحر ، كل ليلة كان هو و"ليندا" يقضيان ساعات قبل النوم كل منهما وحيداً ، يأكلان طعامًا معلبًا فى حجرتيهما بالفندق ، كل على حدة ، أضيئت الأنوار ، حقًا ، كل المعدات الإلكترونية كانت تعمل باستمرار ، بما يوحى أن الغرباء سمحوا بتدفق الطاقة داخل المدينة دون أن يعترض سبيلها شىء ، فى نفس اللحظة يمهد ذلك للتطويق المتواصل .

وكان لـ" بـول" غروره التافه ، فقد ترك لحـيته تنمو وقد خالطها اللون الأبيض، وذلك جعله يشعر بأنه مميز، رجل ضخم فى أواخر عقده الثالث ، اتخذ مظهر " أستاذ التـاريخ" ، بدخل مالى مريح ، ومثل "ليندا" ـ عندما كان كل شيء متوافرًا ـ كـان يختار أفضل الملابس من المحلات . لكن على العكس منها ، كان يفعل ذلك بسرعة ، مثل لص يشعر بأنه مراقب .

كانت "ليندا" تراقبه .

إذا كانت ليندا تتزين لنفسهـا ، فلمن يتزين هو ؟ كان يحلم بأنه قدم عرض أزياء للغرباء ، وأنهم صفقوا له استحسانًا لذوقه ، لكنه كبت شعور الحميمية هذا وأبقاه لشيء جوهرى .

فى البداية ، حـتى حين لم يكن هناك أحد بالمكان قـريبًا . . منه ، ولم تكن "ليندا" بالمكان لتكون شاهدًا عليه ، فإن سرقة شيء ما من محل دون دفع ثمنه كان يؤرقه ، وكـانت "ليندا" تسخر من ريائه : " إذا كنت تريد أن تدفع ، فـاحصـل على النقود من البـنك ، مثلمـا كنت تفـعل بلعب أولادك ، " الحقـيقة والعبـثية والسخف المكتـومة فى قلبه جـعلته يزيد من تجاربـه مع "ليندا" فى أثناء النهار ؛ هكذا كـانا مثــل الأطفال ، مـعًا ، ومنفصلين ، فى قصر تركه الكبار غير مغلق .

ذات ليلة شرب كثيرًا من الخمر ، نـصف زجاجة "تشيفاس" أشعلت كل جسده ، فـوجد نفسه يمشى مـتثاقلاً بضجـر ذهابًا وإيابًا ، كانت قطع الورق مبعـثرة فى الحجرة : رسومات تمهـيدية لنساء ، خربشات عـشوائية لملاحظات على المواقف ، تحاكى بسـخرية الدراسة الأكاديمية ، فى الحقـيقة قرر ، أن ما يريده هو امرأة، وذلك يعنى "ليندا" : على الأقل أقنع نفسه، أن ذلك كان يعنى "ليندا" .

ترك حجرته ونزل يترنح بوهن على الممر المكسو عن آخره بالسجاد ، ويدمدم لنفسه بتبريرات ، ثم ذهب إلى حجرة "ليندا" : رقم ١٣١٣ ، طرق الباب طرقًا مدويًا .

" من تكون ؟ " قالت ذلك والخوف يملأ صوتها

ضحك ، أو شرع فى الضحك قائلاً : " من القذر الذى تظنينه ؟ "

" بول ؟ ماذا تريد ؟ "

" افتحى ، أريد أن أتكلم معك "

" لا ، أنت سكران ، اذهب لتنام "

راح يقرع الباب بشدة ، شاعرًا بالغضب ، وسيطر عليه طيف برودة شديد ، أحس كأنه مبرمج لاتخاذ خطوات محددة .

دفعت "ليندا" الباب للخلف، وتراجعت بعدائية، وبيدها اليمنى كان سكين " بوما " ألمانى ، حافتها مشرشرة لإخراج أحشاء السمك ، دخل متجاهلاً لها ، واتخذ لنفسه مقعداً ، أشعل سيجارة ماركة " الجمل " ، وراح يراقب ردود أفعالها ، ثم راح يحدث نفسه : " كم تكون السعادة فى إعادة التأكيد على - ما الكلمة ؟ - الاستراتيجيات، هكذا ؟ " كانت ترتدى شيئًا حريريًا أزرق ، يخالطه خطوط رأسية من الذهب ؛ يمكنها أن تكون عارضة أزياء لدى " ديور " ، فشعرها الأسود كان ينسدل للخلف ، ضئيلة الحجم ، وعدوانية ، وشكاكة.

قال بتمهل : " لماذا لا ننهى هذا . . . العداء ؟!؛ فنحن نحتاج لبعضنا البعض . " ثم فكر مليًا : " أريد أن أذهب معك للفراش . "

" لا "

" لم لا ؟ "

" لقد ناقشنا ذلك من قبل ، إنك تنتهك فضائى ، أنا لا أجدك جذاباً ، أنت تذكرنى بزوجى . "

بتلك النظرة المحدقة المخمورة ، صارت "ليندا" أمامه شخصين منفصلين مثل الصور على الشاشة ، قد يوافقه جزء ، أما الآخر فلا ، شعر بالحاجة لأن يُذل كُلاً منهما : " إذن ، أنت تصونين نفسك طاهرة من أجل شئ لعين له ثمانية عيون وأذرع ؟ "

" لا تكن مثيراً للاشمئزاز ، فنحن لا نعرف حتى كيف يبدو سكان المريخ ، لا أقصد المريخ ، بل أقصد نجم 'سيجنوس أر. إكس ١٧٥ ' ، هذا النجم النائى الغامض "

ضحكت ، ثم صبت لنفسها كأسًا من " البوردو " الأحمر عالى الجودة ، المعتق فى قبو الفندق ، " أحيانًا تكون مضحكًا ومتحذلقًا ، " أطال التفكير: " إنه تعليمى ، هل حدث وخطر ببالك فى أى وقت أننا ربما نكون آخر ناس تركوا أحياء ؟ فى مثل هذه الظروف يكون رفضك لى سَخَفًا "

قالت ليندا : " نحن لسنا آخر ناس تركوا أحياء ، فالغرباء نقلوا السكان سالمين من "هونج كونج" إلى "سيجنوس" ، فى الحقيقة ، حملوا معهم المبانى ، ومضمار السباق ، والبورصة أيضًا "

قال بتململ : " أن لوكنا حديقة حيوانات ، فإن السؤال الذى يطرح هنا هو ، هل يستطيع الناس أن يعيشوا فى الأسر ؟ " ثم نهض واقفاً ، "

المهم أن موضوع "هونج كونج" ليس له عـلاقة بنا : نحن موجودان ، نحن هنا معًا، هيا لنجلس ،" تقـدم ناحيتها ، وهيئته الضـخمة اتخذت مظهر شخص مـتلصصٍ متسكعٍ ، قال وهو مـا بين الكآبة والغضـب: " هيا ، دعينا نذهب للفراش "

قالت وهى تربت على جسمهـا : " هذا الجسم ، ملكية خاصة ، أنا أملكه ، وإذا حاولت شـيـئًا ، سوف أقتــلك ، " ثم رفعـت سكين الـ " بـوما " ، أذهلته حافة السكين المشرشـرة ، كان الأمر ملتبسًا عليه ، خطت بالقرب منه ، تحركت بسـرعة ، أحدث السكين صوتًا قبيـحًا عندما شق قميصه موديل " بيير كاردان " مخترقًا لحمه ، تراجع للوراء مترنحًا ، رافعًا يديه ، مرعوبًا ، انبثقت منـه كمية كبيرة من الدم ، فكر ، " هذا أنا ، هذا أنا " ، وسقط نازفًا. اجتمعت فى هذه اللحظة صورتا "ليندا" معًا .

فى حجرته وجـد الجرح سطحيًا ، لكن ما اعـتبره مخيـفًا ، هو قوة "ليندا" ، فهى ـ كلتاهما ـ قـد أحدثت به الجرح ، ومن بعد ذلك ، صار صوت طحن آلات الغرباء يتقدم باستمرار .. نهاراً وليلاً ، وبعد تفكير ، خطر على باله أن هذه هى نهاية العالم .

نظف بول نفسـه ، ثم تناول كأسًا آخر، ركب المصعـد ونزل إلى بهو الفندق ، وراح يلعب بعض ألعـاب غـزاة الفضـاء فى آلة "الفيـديو چيم" لتهدئة نفسه، كان سعيدًا بالآلة، صـوب إلى مركبة الغريب، مفجرًا بعنف التـهـديد الواقع على كـوكب الأرض، كـانت مـسئـوليـتـه أن يدافع عن حضارته.

لقد لعب ألعاب " الفـيديو جيم " كثيرًا جدًا حـتى استطاع أن يسبق الآلة : عرف ، مـثلاً، الحـركة التى يجب أن يقـوم بها عند ظهـور تهديد

مفـاجىء، ولمـا ارتفع رصيـده ، اكتـشف أن ثمة خطأ، بدا له كـما لو أن قواعد علم الإلكترونيـات تتغير ، ثم ظهرت على الشاشة مركـبات فضائية جديدة : سفن فضـائية لم يشاهدها من قبل ، سداسيـة الشكل ، وتتحرك بعشوائية ، بمجرد أن أسقط واحدة ، ظهر مكانها اثنتان فى متوالية هندسية من التهـديد ، شعر كأنـه يواجه سكين ليندا ، فكر : " يا للمسـيح ، لقد تبدلت الشفرة ، ليس لى أية سيطرة هنا . "

خسـر الدور ، واندفـعت على الشاشـة كلمات : " خـراء ناشف يا صـديقى . . أتلهى. . " بهـتت أضواء الردهة ، وخـيل إليـه أن الأشكال الفضية تعدو فى الأركان البعيدة ، أو إلى ما بعد حدود الرؤية خلف رأسه ، أصبح الرجوع إلى حجرته واجبًا .

صار مهـزومًا تمـامًا ، ضغط زر المصـعد ، وهو بعيد كل الـبعد عن السكينة ، استغـرق المصعد وقتًا طويلاً فى الحضـور ، وبينما كان ينتظره ، شعر بالاهتزازات الأرضية ، كان شىء ما تحت الفندق يحفر .

ومض قضـيب معـدنى بارغ من سجـادة بهو الانتظار ، وكـان يدفع خطوطاً ممزقـة من نسيجـها المتـرابط ، بالنسبـة لـ" بـول" بدا الشىء يدوم بشكل سريع غير معـقول ، كان القضيب يصدر صوتًا يشبـه صوت مثقاب طبيب الأسنان السـريع ، ولعدة ثوانٍ اخترق الحجـرة ثم انسحب ، تلاشى تدريجيًا اهتزاز ما تحت الأرض ، لكنّ بصوت ينخفض إلى ما تحت مستوى السمع ؛ أدرك عمليات معقدة لا معنى لها تجرى تحت السطح .

حضر المصعد وانفتح مثل فـم ، عندما دخل وضغط زر الطابق الثالث عشـر، رشحت راحتـا يديه عرقًا ، انغلق البـاب ، لم يتحرك المصـعد ، ضغط على الزر مـرة أخرى ، لم يستـجب المصعد ، ضـغط على زر فتح

الباب ، فـانفتح نصف فتحـة ، وتعطل عن الحركة ، لم يكن المصـعد فى مستوى البهو ، وبدلاً من الخروج ، وجـد نفسه يحملق فى حائط أسود ، يتلوى وينبض ، وشـكله منبـعج ، هذا الشكل المنبـعج ربما صنع من قـار وشحـم ، تخرج من يمينه ويسـاره ، فى مجـال رؤيته ، رمـوز معـقدة ، متغيرة ، كما لو كان يواجه شـاشة كمبيوتر، لم يكن نظام أحرف أو رموز يعرفـها ، تصلب من تناوب الحرارة والبـرودة عليه بسـبب الخوف ، راح يضـغط بيـده على كل شىء يراه ، انطبـقت الأبواب بصـعـوبة ، ثم بدأ المصعد يرتفع .

عند الحجرة ١٣١٣ ، ضغط راحـتى يديه أمام اللوح الخشبى ، وأراح رأسه عليه لبضع ثوانٍ ، من خلال جفـونه المغلقة ، رأى الحروف المتحركة المبهمة تعكس ألوانًا ، نادى : "ليندا. دعينى أدخل ، الغرباء هنا "

اخترق حد سكين "البوما" المشرشـر لوح الباب قرب عينه اليسرى ، كان واعياً للقوة غير العادية التى كان عليها أن تستعملها لإدخال السكين فى الخشب ، سمع صوتهـا البارد يقول: " أعرف ، اذهب إلى مكانك النائى ، وإلى نجمك الغامض ، اتركنى وحدى . "

سمعت "ليندا" وقع أقدام بول المتراجعة، فعادت تجلس على الكرسى مرتعـشة ، فى يدها اليـمنى كانت تمسك بسـكين البوما الألمانـى ، ولبرهة جربت إدخالهـا فى الباب على سبيل التـحذير ، فربما قد يأتى من جـانبها شىء من شـفـقة ويأس ، لـكنها لـم تقدر ، وذلك قـد يزيد من حـالتـه الضلالية الوهمية ، واعتقـاده بأنها تكرهه ، وتنبذه ، وترغب فى أن تصيبه بجرح .

العنف ، اعتبرته واقعًا عليهما معًا ، عنف أكثر مما ينبغى ، إذا كان قد أنصت إليها فى أى وقت ، ربما كان استطاع تحويل مرارة الماضى ، على الأقل ، إلى جبهة مشتركة ضد العدو ، لكنه لم ينصت قط ، ولم يكن بيدها حيلة لمعرفة ما يدور فى عقله .

وضعت بعضًا من أحمر الشفاه ، وزعت اللون الأحمر على فمها ، ونظرت لنفسها فى المرآة ، ثم راقبت لطخة اللون الأحمر غير الواضحة من خلف دموعها ، ارتعشت يداها ، فى الخارج ، كانت الأصوات الطاحنة لماكينات الغرباء مستمرة بوحشية ليلاً ونهاراً ، همست : " بول ، عد إلىّ "

فى حجرته ، أحكم إغلاق الباب ، وفتش الدواليب ، ونظر تحت السرير الفخم ، انزلقت الأغطية للخلف كما لو أن خادمة غير مرئية قد سحبتها ، نظر فى المرآة ، ورأى وجهه قد تشوه بصورة شديدة البشاعة . مع ذلك ، مايزال وجهه .

كانت زجاجة " التشيفاس ريجال " إلى جوار التليفزيون ، شرب منها ، وبلا وعى ، أدار الجهاز مثلما يفعل عادة .

ظهر تشكل وجهه على الشاشة ، ذلك ، ما كان يعتقد أنه لن يحدث ، كان الوجه لرجل فى أواسط العمر ، بشعر فضى ، هذا النوع من الوجوه التى يمكنك الثقة بها ، قال : " مساء الخير ، هذه نشرة الأخبار الأخيرة . تراجعت السحابة الماجلانية الكبرى عن مجرتنا بسرعة بلغت ٠,٠٣٣٣ من سرعة الضوء ، ولم يعرف حتى الآن إذا ما كانت الحركة حدثت بسبب تضخم الكون ، أم ناتج عن اضطراب فى نسيج الزمن الكونى "

أغلق بول الجهاز ، شرب المزيد من " التشفاس ريجال " ، إلى جوار سريره كان التليفـــون ، أدار القــرص واتصـــل بـ ١٣١٣ ، ردت ليندا : " من ؟ "

" أنـا ! "

" نعـم ! "

قال بول : " أحبك ، أحتاج إليك . "

ساد صمت طويل ، بعــده قالت ليندا : " حسنًا ، لماذا لم تقل ذلك من قبل ؟ "

" كنت أعتقد أن هذا الكلام قد أصبح أسلوباً عتيقاً "

سألت "ليندا" : " إنك لا تريد أن تؤذى شعورى ؟ "

" بل أريد التشبث بك "

"يا إلهى ، كم هو رائع ، لقــد انتظرت طويلاً جداً ، ســوف أجىء إلى غرفتك حالاً . "

لم تأت إليه ، انتظر بول وهو نكد المزاج ، شاعراً باختلاف نوعى فى أحاسيسه من فترة الانتظار غير المحددة ، فحص التليفون وهو نصف واعٍ ، واكتشف أن التليفون لم يكن يعمل ، رجَـعّت السماعة عواءاً إلكترونياً ، مثل رياح بعيدة نشرت الانفجارات والأوامر والنواح بلغة غريبة .

تناول قلمه الحبر "الباركر" ، ورسم على الوسادة البيضاء علامات : نقط للحلمــات ، خربشــات لشعر العــانة ، أغرق الحــبر الأزرق القــماش ولطخه ، بعد ذلك ، أطفأ كل الأنوار مــا عدا الضوء الخافت الذى يضىء

فى زاوية ، وسط الورود الصناعية المنتشرة بالمكان ، رقد فى سريره غير المرتب فى ظلام أحمر مريح ، إلى أن ظهرت "ليندا" إلى جواره .

كان ظهورها بالشكل المنقسم الذى رآه من قبل .. كائنًا متغيراً ، غير مفهوم ، ولكن موجود .

تحسست صدره ، فى المكان الذى جرحته فيه ، " آسفة على ذلك ، فأنت لم تترك لى خياراً . "

" لا يهم . "

قالت "ليندا " ببرود : "لا شىء يهم عندما تفكر فيه من جهة أخرى . "

كانت ترتدى الماس ، والياقوت ، والذهب والفضة ، تلك التى تلألأت فى ضوء الفراش ، كرر كلماتها: "عندما تفكر فيه،" تناول منها عقدًا ذهبيًا وضمه إلى صدره.

خارج حمى الحجرة ، كانت أصوات آلات الغرباء مستمرة ، والسحابة الماجلانية الكبرى تتراجع عن مجرتنا ، عن "بول وليندا" ، وعن كل الكوكب ، الذى تحول إلى فضاء واسع قاحل ، بحفر هندسية وأحجار سوداء بارتفاع ميل ، ذلك الذى كان العمل الأعظم للغرباء .

نبذة عن المؤلفين

وايم بليك W.H.I. Bleek (١٨٢٧ – ١٨٧٥)

ولد فى برلين ، درس وتدرب ليكون لغويا على يد الأب " كولنسو " ، حيث قام معه برحلات إلى أراضى قبائل الزولو فى ١٨٥٣ ليجمع ويصنف قواعد لغتهم ، عمل مترجما رسميا ، وجامع فولكلور لدى " سير چورج چراى " حاكم الكيب ، وقد أفضى ذلك ، ولأول مرة ، إلى صدور الكثير من الطبعات من حكايات الثعلب فى جنوب أفريقيا تحت عنوان " الحكايات الخرافية والحواديت لدى شعب الهوتنتوت" وذلك فى عام ١٨٦٣ ، وهى المجموعة التى اختيرت منها قصة " أصل الموت " ، والتى تعتبر إحدى الروايات المتنوعة من الأساطير الأخلاقية الوعظية المعروفة عند "الخويخوى" ، وكذلك حدوتة " البنت المزعجة . . . " ، والأخيرة صنفها "بليك" على أنها حكاية منزلية ، وربما كان أول تسجيل و تدوين للقصة القصيرة لدى السكان الأصليين ، فهى فى لغة" دمارا " أو لغة" الهيررو"فى ناميبيا ، حظى "بليك" بالعمل تحت رعاية مكتبة جنوب إفريقيا وبرلمان الكيب ، وكرس جهده تماما لتدوين وحفظ لغة " لسان " الخاصة بقبائل "البوشمان" وفولكلورهم وكان أسرى حاجز الأمواج هم إخبارية ، إن بليك كان أول من درس آوى "إحدى قصص مجموعة" الأسد وابن آوى"التى صدرت فى ١٩٣٨ ، واشتملت على الحكايات التى دونت" بالكلمات التى حكيت بها ذاتها تقريباً" . وقد يسر نشر هذه المجموعة "منحة أبحاث كارنجى" ، تلك المؤسسة التى كانت تتولى الأنفاق على براونلى لبضع سنوات . وقد سجل "فرانك" أن رواية الهوسا لحكاية الحيوان الخرافية "اليمامة وابن آوى" ذات أصل خويسانى .

فرانك براونلي Frank Brownlee (١٨٧٦ – ١٩٥٢)

عاش فى شرق الكيب ، وعمل قاضياً فى تانسكى ، صدرت روايته "سارق الماشية – حكاية نتسومى" ١٩٢٩ ، تلك الرواية التى تناولت أثر الكساد على مدخرات ومخزون القبائل ، كانت أغلب أعماله الإبداعية مكرسة لتقديم تجربة وخبرة قبائل الزاهوسا Xhosa باللغة الإنجليزية ، وقد نقل الكثير منها نقلاً حرفياً عن الكلام الشافى المباشر للإخباريين ، قصة "اليمامة وابن آوى" مأخوذة من مجموعة "الأسد وابن آوى" التى دونت حسب كلام براونلى : "بنفس الكلمات التى حكيت بها تقريباً" ، وقد يسر نشر هذه المجموعة مؤسسة "أبحاث كارنجى" التى تولت الإنفاق على برونلى لبضع سنوات ، سجل براونلى "أن رواية الزاهوسا لحكاية "اليمامة وابن آوى" ذات أصل خويسانى" .

أ . س . جوردان Archibald Campbell Jordan (١٩٠٦ – ١٩٦٨)

ولد بمقاطعة " مبندوس " فى منطقة " ترانسكى " ، من مثقفى جماعة اللوفيدال Lovedal ، حاصل على عدة شهادات ماجستير فى اللغات الإفريقية من جامعة جنوب إفريقيا ١٩٤٢ ، عمل أستاذاً للغات والأدب الإفريقى حتى وفاته فى كل من جامعتى " ماديسون " ، و " ويسكونن" ، صدرت روايته الكلاسيكية "إتكويجيس يامينيا " ، فى لغة الزاهوسا Xhosa عام ١٩٤٠ ، ثم ظهرت بالإنجليزية بعد وفاته تحت عنوان " عقاب الأسلاف " عام ١٩٨٠ ، كتابه " نحو أدب إفريقى : نشأة الشكل الأدبى عند الزاهوسا " ، وهو مأخوذ بشكل رئيسى عن المقالات التى ظهرت فى دورية " جنوب إفريقيا " فى الخمسينيات ، هذا الكتاب يعتبر نصا رائدا فى النقد الأدبى فى جنوب إفريقيا ، قصة " ملك المياه " هى حكاية من حكايات جنوب إفريقيا المأخوذة من مجموعة " فاكا " ، وهى تستفيد من استعمال التقليد الملحمى لدى قبائل "الناتسومى".

يوجين ن. مارايس Eugene N. Marais (١٨٧١– ١٩٣٦)

عالم تاريخ طبيعى ، وأحد الشعراء العظماء الأفريكان - (المستوطنين) ، ولد فى منطقة الترانسفال ، ودرس فى لندن ، كتب الكثير من أبحاثه عن الطبيعة والتقنيات باللغة الإنجليزية ، ودعم بنشاط تطور اللغة الأفريكانية بالقصص القصيرة والمقالات ، له سلسلة من الاسكتشات المكتوبة بهذه اللغة (١٩٣٧) ، ترجمت تحت عنوان " روح الصرصار الأبيض " وصدرت عام ١٩٧١ ، وله مجموعة أخرى بعنوان " أصدقائى قرود البابون " صدرت ١٩٣٨ ، أثناء قيامه بالعمل

الميدانى ، خاصة فى الأماكن التى أخليت من سكانها فى منطقة" ووتر برج " بعد حرب جنوب إفريقيا ، واتباعا لنموذج د. بليك ، جمع ماريس حكايات الـ " خوسيان " ، خاصة من الإخبارى المتحدث باللغة الأفريكانية الذى كان يدعى " أو هندريك" ، والذى توفى فى ١٩١٠ ، وكان قد عاش أكثر من مائة عام ، من بين إخبارييه أيضا الحكاء الشهير " أوتا فيليب " ، الذى كان يخدم فى مزرعة عائلة جروبيلر، نشر فى عام ١٩٢٧ حكايات "التائه "، التى صارت من القصص المفضلة لدى الأطفال ؛ وحكاية " قصبة الصغير وحده فى الدوامة " تعتبر أول ترجمة أدبية إلى اللغة الإنجليزية لواحدة من تلك الحكايات .

أنتونى ديليوس Anthony Delius (١٩١٦)

ولد فى " سيمونس تاون" ؛ وهو شاعر وصحفى ، كانت ملحمته الساخرة الطويلة عن " سياسة الحزب الوطنى" فى عام ١٩٥٩ هى الكتاب الأكثر مبيعا ، لكنها كانت السبب فى طرده من البرلمان حيث كان يعمل مراسلا صحفيا به ، أقام فى لندن خلال العقدين الأخيرين حيث عمل فى مكتب الـ (ب. ب . س) ، كما عمل محررا لعمود صحفى ، قصة " دفتر يوميات مينى " جزء منفصل من روايته التاريخية " الحدود border" التى صدرت عام ١٩٧٦، وهى الرواية التى استخدم فيها الكثير من أشكال السرد لدى سكان المستعمرات البريطانية فى القرن التاسع عشر ، سجل اليوميات ابن بطل الرواية ، من يونيو إلى أغسطس ١٨٢٨ ، فى أثناء حملة عسكرية.

س. ت. بلاتج Soomon T. Plaatje (١٨٧٦ - ١٩٣٢)

ولد فى " أورانج فرى ستيت " لأبوين مبشرين مثقفين من قبيلة " بارولونج ". عمل رئيس تحرير ، ومؤلفًا ، وناشر كراريس ، ومترجمًا ، روايته الأولى " ميهودى Mhudi" تعتبر : السيرة الملحمية لحياة السكان الوطنيين الأصليين فى جنوب إفريقيا فى المائة عام الماضية ، نشرتها " لوفالاد برس" عام ١٩٣٠ ، وهى أول رواية جنوب إفريقية سوداء تنشر بالإنجليزية ، رواية "ميهودى" ذاتها، ومغامرات بلاتييه الأدبية الأخرى ، محاولات لتسجيل ونقل الأدب الشفاهى ، وتوثيق وطبع الحكايات الشعبية الفذة والأساطير فى " تسوانا " ، جوكاتونج والجاموس البرى " هى نموذج من تلك الترجمة التى قام بها النحوى دانييل جونز ، ونشرها هو وبلاتج فى (ستشوانا رايدار) عام ١٩١٦ ، مذكراته المكتشفة والمنشورة حاليا ـ تدور حول حرب البوير ، خاصة حصار مافكينج ـ تبين استعماله ومزجه للغات متعددة .

ج . بيرسى فيتزباتريك J. Percy Fitzpatric (١٨٦٢ – ١٩٣١)

ولد فى مدينة " كينج وليامز " وتوفى فى مزرعته قرب "بويتنجهام"، مؤلف أكثر الأعمال مبيعا فى الفترة الكولونيالية بعد عمل " رايدر هاجرد " مناجم الملك سليمان " ، عمله الأدبى " فارس الباسفيك " فى ١٩٠٧ ، يعتبر سيرة ذاتية سجل فيه حياته المبكرة وعمله كسائق نقل فى منطقة الترانسفال الشرقى ، وهذه المنطقة أيضا هى الخلفية لقصة " خارج الزمن " الصادرة عام ١٨٩٧ ، تعتبر هذه القصة نموذجًا وافيًا لحكايات الموقد أو حكايات المدفأة ، وكمثال يتقاطع فيه الحكى الشفاهى مع خصائص القصة "الكولونيالية" الراقية ، ويقوم "فيتزباتريك" فيها بدور الكاتب بين أفراد المجموعة ، تكشف القصة ، ربما بلا قصد ، عن الصداقة الحميمة ، والعمل الوحشى اللامبالى، والنظم المراتبية المغلقة ، والعنصرية ، والتخيل الكولونيالى الاسمى لإفريقيا، والكثير من القصص المختارة تستحق الدراسة والبحث من حيث إظهارها لنفسية الغازى ، فبقصد أو بدون قصد ، عرت هذه القصة عجرفة وادعاءات فيتزباتريك ، وأطلقت القصة القصيرة نحو الطبيعة والمجتمع من حيث أن شخصياته قد انفصلت عن ذواتها .

أوليف شراينر Olive Schriner (١٨٥٥ – ١٩٢٠)

ولدت لأب مبشر ألمانى وأم إنجليزية وتعلمت تعليما ذاتيا لفترة قصيرة فى مزارع " الكاروو" الإفريقية التى أمدتها بقصتها " مزرعة إفريقية " عام ١٨٨٣ ، وهى أول رواية "كولونيالية" من روايات المستعمرات باللغة الإنجليزية تكتسب انتشارا واسعا بين قراء العواصم ، ويصبح لها منزلة كلاسيكية ، قصتها من" رجل لرجل "– التى عالجت طموحات الزواج ومشاكل الملونين– نشرت بعد وفاتها. منذ ١٨٩٠ .. كتبت الكثير من القصص القصيرة فى شكل حلم رمزى ، أو على شكل سيرة ذاتية أو يوميات ، تمتعت تلك القصص بالرواج الكبير ، وقصة " وردة المرأة " ، إحدى القصص المأخوذة من مجموعتها " حياة الحلم وحياة الواقع " التى نشرت ١٨٩٣ . البيان الذى أصدرته أوليف شراينر الخاص بالحركة النسائية فى عام ١٩١١ ، بعنوان " المرأة والعمل " ، ربما كان النص الأكثر تأثيرا فى الوقت الحاضر ، وكذلك الكثير من تفسيراتها السياسية عن مشاكل جنوب إفريقيا وعن حرب "الإنجلو– بوير الثانية "، التى ذكرت فى كتاب " أفكار عن جنوب إفريقيا " ١٩٢٣ ،

والتى ظلت أفكارا مثيرة للجدل ، حركت "شراينر" بدفعة واحدة أدب جنوب إفريقيا نحو عالم الرسائل الأوربية ، من خلال شهادتها ، ودمغها المأزق الشخصية الكولونيالية الاستعمارية الاستيطانية .

پولين سميث Paulin Smith (١٨٨٢ – ١٩٥٩)

ولدت لأبوين بريطانيين فى " أوتد شورن " فى كارور صغير – تلك القرية الإفريقية التى كتبت عنها معظم أعمالها تقريبًا ، ودرست فى أسكتلندا ، حيث نشرت الاسكتشات الأدبية فى "آبردين جازيت" عام ١٩٠٢ ، وبإرشاد " أرنولد بينت " قدمت سلسلة من القصص عن الكارور/ القرية الصغير ، وقصة " المعلم" كانت أول قصة منشورة من هذه السلسلة فى " أدلفن " عام ١٩٢٣ ، نشر " جوناثان كيد سميث " عام ١٩٢٦ ، روايتها الوحيدة بعنوان " الشماس " ، وهى أيضا عن قرية "أوتد شورن" حيث صدرت فى ١٨٩٠ ، كانت پولين سميث تعود من حين لآخر من إنجلترا إلى جنوب إفريقيا ، كى تطابق مذكراتها وتكتب مقالات ذكية عن مسقط رأسها . قبل وفاتها بعام ، كرمها كتاب جنوب إفريقيا بجائزة مالية لطريقتها المبدعة التى كتبت بها ، متخطية المجموعات العنصرية ، خاصة سلسلة أعمالها عن "الكارور الصغير عام ١٩٢٥" ، ولإبداعها أسلوب متميز فى الأدب ، حيث أذابت اللغة الألمانية واللغات الأخرى فى إنجليزية شاعرية فعالة .

تون ڤان دان هيڤر Toon Van Dan Heever (١٨٩٤ – ١٩٥٦)

ولد فى "هيدل برج"، "الترانسفال"، وتوفى فى " بلوم ڤونتين "، پاورانچ ستيت ، عمل محاميا وقاضيا ، لكن شهرته ترجع فى الأساس إلى كونه الشاعر الذى كتب بالألمانية والأفريكانية ، أول عامٍ نشر له من شعر كان عام ١٩١٩ ، ليصبح رائد حركة الشعر الغنائى الأفريكانى فى العشرينيات ، جمع أعماله النثرية فى عام ١٩٤٨ تحت عنوان " حزم من إرث الرجل العجوز" ، والتى أخذت منها قصة" أوتا سام وبابا نويل " ، كان أول نشر لهذا العمل فى عام ١٩٦٤ ضمن مشروع الترجمة الذى كانت تشرف عليه أكاديمية جنوب أفريقيا للعلوم و الآداب .

هيرمان تشارلز بوزمان Herman Charles Bosman (١٩٠٥-١٩٥٠)

محرر، وشاعر ، وروائى ، ولد فى عائلة من المتحدثين باللغة الأفريكانية فى الكيب ، ودرس ليصبح معلما فى منطقة الـ " راند" ، بعد فترة من الاحتجاز فى السجن بسبب مقتل أخيه غير الشقيق، أصبح محرراً فى جريدة "البلاك سيمبوك" ، وفيما بعد عمل فى صحف المعارضة والإثارة فى جوهانسبرج ، نفى إلى لندن معظم الثلاثينيات ، وأعيد للوطن فى أثناء الحرب العالمية الثانية ليحرز تقدما فى عمله ككاتب قصة قصيرة ، نشر أثناء حياته فى جنوب إفريقيا ثلاثة أعمال فقط ، الأكثر شهرة من بينها مجموعته " طريق مافكينج " عام ١٩٤٧ ، والتى تضمنت قصة " الدخيل " ، التى صدرت فى الأصل فى سلسلة " التوليرى " عام ١٩٣٠ ، تعتبر هذه القصة من أكثر أعماله تطورا حيث استخدم شخصية " العم شاكال" كراوى ينطق بلسان المؤلف ، وخلفية هذه القصة حرب البوير ، يعاد نشر هذه القصة هنا كنسخة كاملة أصلية ، نشر له بعد وفاته ثلاث مجموعات قصصية ، ورواية " قرية وليامز " ١٩٧٧ ، ومجموعة مقالات ، واسكتشات أدبية ، من بين جميع كتاب الجنوب الإفريقى تعد كتاباته فى الوقت الحالى الأكثر انتشارا بين القراء ، بسبب حس الدعابة والشفقة ، والامتزاج الفريد بين الرمز و التاريخ .

ستيفن بلاك Stephen Black (١٨٨٠ - ١٩٣١)

ولد فى " كيب تاون " ، عمل صحفيًا وكاتبًا مسرحيًا . مسرحيته الساخرة " "حب و وصلة " ١٩٠٨ " التى تدور حول إمكانية اتحاد الجماعات العرقية فى جنوب إفريقيا - ظلت فى" ريبرتوار " فرقته المسرحية ، وعرضت موسما بعد آخر حتى ١٩٢٩ ، بين مواسم العرض كان بلاك قد أصدر الكثير من أعداد " البلاك سيمبوك " الأسبوعية المثيرة للجدل - التى كانت تتضمن فضائح جوهانسبرج، وظلت تصدر من ١٩٢٩ إلى ١٩٣١ - كانت تكشف وتعرى فضائح الرأسمالية ، وهى أيضا أول جريدة تنشر للكُتاب السود مثل "ر. ر. ر. دلومى" فى عموده الخاص ، وقد بدأ ستيفن بلاك عمله ككاتب بكتابة الاسكتشات فى مجلة " إرجوس " الأسبوعية ، التى ظهرت بها لأول مرة قصة " طفل السحاب " فى عام ١٩٠٨ ، حيث شجعه بشدة " رود يارد كبلنج " أثناء زيارته لكيب تاون ، والذى كان يواصل دعمه لخط الملونين المحليين ، عمل "بلاك" أثناء الحرب العالمية الثانية مراسلاً صحفيًا من بلجيكا وهولندا لجريدة " الديلى ميل " اللندنية ، كان ضمن مجموعة الكتاب الأفارقة الذين أعلنوا أول اتحاد لكُتاب جنوب إفريقيا .

أرثر شيرلى كريس Arther Shearly Cripps (١٨٦٩ - ١٩٥٢)

ولد فى " كنت " وتخرج فى جامعة أوكسفورد فى عام ١٩٨١ . رُسِّمَ كمبشر انجليكانيى عام ١٩٠١ ، مؤلف كتاب " أفريقيا للأفريقيين " الذى صدر فى ١٩٢٧ - الذى يدافع فيه عن حقوق السود ضد النظام الاستعمارى فى روديسيا ، شاعر وروائى كتب على الطراز الجورجى، وصور بطريقة بديعة جمال النصرانية السوداء ، تدور قصصه صراحة حول حقوق الأرض ، و القوانين التى تحكم جواز المرور والإقامة والعمل ، كذلك الوسائل الأخرى للسيطرة والضبط الاجتماعى ، قصة " وقود النار " من مجموعة له بعنوان " سندريلا الجنوب" ، وتلك المجموعة نشرت لأول مرة فى بريطانيا عام ١٩١٨ ، توفى بعد صراع مع كف البصر والفقر فى مستشفاه ب " إنكليلدون " .

وايم پلومر William Plomar (١٩٠٣ - ١٩٧٣)

ولد فى الترانسفال لأبوين إنجليزيين ؛ روائى ، وشاعر ، ومؤلف أوبرا ، كون مع "روى كامبل" و " لورانس فان دير بوست" فى ناتال "جماعة فورسلاج" ، التى كرست عملها لعرض الثقافة الإنجليزية الكولونيالية فى المستعمرات على الاتجاهات العالمية فى الفنون ، وقصة "عندما جاء السردين" مستمدة من هذه الفترة ، على الرغم من أنها لم تنشر حتى عام ١٩٣٣ ، روايته الأولى " turbottwolfe" - أثارت جدلا كبيراً ، والتى نشرها ليوناردو ، و ڤيرجينيا وولف عام ١٩٢٦ - كان موضوعها الرئيسى ينزع إلى الفكر الليبرالى فى الحب بين الجماعات العرقية ، بالإضافة إلى مسرحة حالة الركود الكولونيالى المحافظة ، والطموحات السياسية الإفريقية السوداء ، قصته " أولاماسوندو" - التى صدرت فى التاريخ ذاته - تعتبر النموذج الأصيل المبكر لقصة " ابن عمى يأتى إلى جو- برج" ، فهى تدور حول صدام رجال القبائل مع المدينة ، والعمل فى التعدين ، وعالم الجريمة فى المدن ، نشر " بلومر" أربع روايات ومجموعة من القصص القصيرة ، إلا أن مختاراته من القصة القصيرة لم تنشر إلا حديثا .

رالف ريجينالد ريموند دلومو R. R. R. Dhlomo (١٩٠١ - ١٩١٧)

ولد قرب " بيتر مارتز بورج " لأبوين من الزولو كتب أول قصة فى أثناء عمله موظفا فى منطقة راند ، وهى تعتبر أول قصة لرجل أسود تكتب بالإنجليزية وعنوانها " مأساة إفريقية " ، وصدرت عام ١٩٢٨ ، أما قصصه القصيرة بلغة السود فهى الأكثر قدماً ، ومنها "موت ميسابا" ، وقد نشرت لأول مرة فى الـ " بلاك سيمبوك " عام ١٩٢٩, عمل رئيسًا لتحرير صحيفة الزولو " إيلنجالاس ناتال" منذعام ١٩٤٣ ، وبعودته إلى ناتال كتب الكثير من الروايات ، منها السيرة الذاتية التى تناولت قواعد وأعراف السلالة الحاكمة لقبائل الزولو ، وقصة "موت ميسابا" واحدة من أوائل القصص التى صورت حياة السود من الداخل ، وتحتفظ بسمات حكايات موقد النار، أو المدفأة ، بينما تطلق تحذيرا عن شروط العمل السيئة ، فإنها أيضا لا تشجع على الهجرة للعمل فى مناجم الذهب .

بيتر أبراهامز Peter Abrahams (١٩١٩)

ولد فى" فرادادورب" بجوهانسبرج ، يعتبر أحد كتاب الرعيل الأول فى نهضة الكتابة الإفريقية فيما قبل الحرب العالمية الثانية ، ظلت روايته " صبى المنجم " التى صدرت ١٩٤٦ ، أحد أهم الكتب الأساسية فى القراءة عن العلاقة بين السود والبيض فى مجتمع المدينة الصناعية .

وروايتــه "إكليل من الزهور من أجل يودومـو " ، التى صدرت عام ١٩٥٦ ، تجرى حول كل إفريقيا قبل الاستقلال . سيرته الذاتية " قل حرية " عام ١٩٥٤ ، تروى بحيوية قصة أصوله العرقية ، وتعليمه نفسه ، وعلاقته المتأرجحة والمتناقضة مع جنوب إفريقيا ، التى هاجر منها إلى المملكة المتحدة فى ١٩٣٩ ، قصة " المستوحش " من مجموعته فى القصة القصيرة والاسكتشات التى صدرت تحت عنوان " كتاب العهد القديم الأسود " عام ١٩٤٢ ، وهى تبين معضلة عزلة واغتراب المثقف ، وتوضح الكثير من الأفكار السياسية الفعالة فى الثلاثينيات فى الجنوب الإفريقى ، يقيم بيتر أبراهامز فى جاميكا منذ ١٩٥٩ .

س. إى. مويكانجو C. E. Moiokangoa (١٨٧٩ - ١٩٥٧)

ولد فى "ليسوتو" التى كانت تسمى حينذاك مملكة بتسوانالاند ، تعلم فى إرسالية " موريا - موريجا " ، قرب توماس مافولو حاليا ، حققت روايته " شاكا " التى صدرت ١٩٢٥ ، شهرة مبكرة فى اللغة المحلية ، صار مويكانجو أول إفريقى مؤسس لمدرسة " لوفاديل براكتيزينج " ، وهو أحد اثنين من مفتشى التعليم الأفارقة الأوائل فى عام ١٩٣٢ .

نشر له معهد " مازيندو " فى عام ١٩٤٣ فى سيوتو الجنوبية مجموعة من ثلاث قصص طويلة بعنوان " غفير من نستوناتستسى " . قصة " مجىء سيبللو للبيت " هى إحدى قصص هذه المجموعة ، وقد قام بتلخيصها وترجمتها بنفسه ، وتلك القصة حازت على جائزة فى مسابقة " استشراف جنوب إفريقيا " فى أوائل الأربعينيات ، لتشجيع الأدب باللغات الوطنية المحلية السوداء ذات الموضوع المسيحى ، نشرت أول مرة فى سلسلة " الكتابة الأفريقية الجديدة " فى لندن ١٩٤٧ ، تلك السلسلة لعبت دورا كبيرا فى إبراز القصص المبكرة لكثير من الكُتاب الأفارقة باللغة الإنجليزية ، مثل " سيبيان إيكونسى"، وقد حقق هؤلاء الكتاب شهرة كبيرة فيما قبل الحرب العالمية .

د . ب . ز . نتولى D. B. Z. Ntuli

باحث من قبائل الزولو ، وهو صاحب البحث الهام والمؤثر بعنوان " أدب الزولو الحديث " ، الذى نشر فى " ليمى " فى يونيو ١٩٦٨ . روائى يكتب بلغة الزولو ، ومن أعماله رواية " The observant one اليقظ "، التى صدرت عام ١٩٦٢ . نشر عام ١٩٨٤ عملاً رائداً عن شعر الزولو الحديث ، تحت عنوان " شعر ب. و. فيلاكادى "، حصل بهذا العمل على درجة الدكتوراه من جامعة جنوب إفريقيا .

دوريس ليسنج Doris Lessing (١٩١٩)

ولدت فى إيران لأبوين بريطانيين ، وكبرت فيما كان يعرف بروديسيا الجنوبية آنذاك ، التى تعرف الآن بزيمبابوى ، مؤلفة لأكثر من خمسة وعشرين كتاباً ، من بينها روايتى "العشب يغنى " صدرت ١٩٥١ ،و" أطفال دائرة العنف " ، جمعت قصصها القصيرة فى أربعة أجزاء بدءاً من ١٩٤٠ حتى الوقت الحاضر ،

على الرغم من تنوع أعمال دوريس ليسنج عبر الزمن ، إلا أنه يمكن تقسيم هذه الأعمال إلى مناطق وموضوعات مركزية هي: الكولونيالية وحاجز اللون، والشيوعية ، والحركة النسائية ، والتصوف ، والخيال العلمي ، إلا أن مشروعها بقي واحدا ، ويندمج بشكل عام ضمن الأدب الغربي ، من المنظور الإفريقي ، لابد من أن نقول إنها قدمت الاستخدام الأكثر تفصيلا للمادة المحلية في إبداعية لامتناهية ، قصة " خارج النافورة " تقوم بنيتها على شكل الراوى الديكاميرونى ، كما تستخدم ليسنج إلى حد نموذجى المادة في مركب توافقى جديد متدفق ، وتظهر براعة في صياغة الشكل الذى يعتبر سمة أساسية في أعمالها القصصية .

چاك كوپ Jack Cope (١٩١٣)

ولد في ناتال ، وهو مؤلف لست روايات منها أول رواية: " بيت جميل" صدرت عام ١٩٥٥ ، إلى روايته الأخيرة : " طالب من الزند " التى صدرت عام ١٩٧٢ . مؤلف للعديد من القصص القصيرة منها مجموعة " الرجل الذى شك – وقصص أخرى" ، صدرت عام ١٩٦٧ وأخذت منها قصة " إيكاترينا " ، أشرف على تحرير مجلة " التناقض" منذ أوائل الستينيات التى صدرت فى كيب تاون ، وهى المجلة الأكثر ثباتا فى جنوب إفريقيا ، قام بتحرير الكتاب الهام فى سلسلة "بنجوين" عن " شعر الجنوب إفريقى " فى عام ١٩٦٨ ، بالتعاون مع " أيس كريج "، وهى أول سلسلة أدبية شاملة تجمع الشعر الجنوب إفريقى فى الكثير من اللغات ، نشر جاك كوب حديثا " الخصم " ضمن : مجموعة الكتاب المنشقين الذين يكتبون باللغة "الأفريكانية " ، تلك الجماعة التى ترسم خريطة بديلة ضد المؤسسة التى تقاوم هذا الأدب . يقيم حاليا قرب أوكسفورد .

إنجريد يونكر Ingrid Jonker (١٩٣٣ – ١٩٦٥)

ولدت فى الكيب لأسرة من الأوربيين المؤسسين فى جنوب إفريقيا ، وكانت أول مجموعاتها " هروب " قصائد باللغة الأفريكانية صدرت عام ١٩٥٣ ، ومجموعاتها الثانية " دخان ولون ذهبى " فى عام ١٩٦٣ ، مما زاد من أهميتها فى الواقع الثقافى وثبتها كصوت هام ومختلف فى الشعر الغنائى ، كانت أعمالها قوة دافعة كبيرة لحركة " الفهود الست " الأدبية ، التى تفرقت بشكل ما ، بعد وفاتها غرقا . ظهرت قصة " Die bok" أولا فى مجلة " التناقض " فى ديسمبر ١٩٦١ ،

وقد قامت المؤلفة بترجمتها إلى الإنجليزية بعنوان " التيس The goat" ، وأكمل هذه الترجمة وراجعها وأعدها للنشر في" لندن مجازين " چاك كوپ ، في ديسمبر ١٩٦٦ .

هيني اوكامپ Hennie Aucamp

ناقد وكاتب استعراضات غنائية cabaret writer ، ولد في الكيب ، ويحاضر عن التعليم في جامعة " ستيل إن بوش " ، نشر ثماني مجموعات من القصص القصيرة باللغة الأفريكانية ، وقصة " حساء للمريضة " ، من ضمن مجموعة " ساعة الذروة " ، من المجلد الثاني من أعماله الذي صدر عام ١٩٦٧ ، وهو من أنصار كتابة القصة القصيرة باللغة الأفريكانية ، يظهر إنجازه في توظيف التكنيك التقليدي والكلام المباشر مع الوضع في الاعتبار خصوصية التجربة الجنوب إفريقية التي لا مثيل لها في اللغة ، هذه الترجمة عن مختارات من أعماله تحمل اسم " زيارات البيت " ١٩٨٣ .

يان رابيي Jan Rabie (١٩٢٠)

ولد في الكيب واستقر بها بعد سنوات عديدة من الإقامة في "باريس وكريت" . كاتب قصة قصيرة ، وروائي ، وعضوا بارزًا في جماعة " الفهود الست " الخاصة بكتاب النثر باللغة الأفريكانية ، الذين أحدثوا تجديدا في الستينيات ، وكان من بينهم "إيتان ليروكس" ، "وأندريه ب. برنيك"، نشر "يان رابيي" رواية " رجل معزول a man apart" التي ظهرت عام ١٩٦٩ ، حيث كان قد ترجمها في ١٩٦٦ ، وهي عمل تاريخي يعالج موضوعات التحيز العنصري والتواجد مع الآخر ، يعتبر يان رابيي من أكثر الكتاب البيض في الثقافة الأفريكانية موهبة في تجريد المعاني والتعبيرات حول قيمة وفائدة الآخر ، وهو قد سعى لتدويل اهتمامات الأدب الأفريكاني ، اختيرت قصة " جفاف "، التي يرجع تاريخها إلى الستينيات ، ضمن المناهج الدراسية .

كيزي موتسيسي Casey “Kid” Motsisi (١٩٣١ – ١٩٧٧)

تعلم بمدرسة " ماديبان " الثانوية في المنطقة الغربية من جوهانسبرج ، ثم درس بكلية بريتوريا المتوسطة ؛ وعمل ضمن هيئة تحرير مجلة " الطبول "

منذ أواخر الخمسينات حتى وفاته ، حيث أمتع أعداداً هائلة من القراء بعموده " on the beat" ، ذلك العمود الذى خلق عملية روائية تخيلية لما يسمى بـ " ثقافة الحانة " ، ويعتبر موتسيسى من جيل " نات ناكاسا " ، و " كان ثيمبا " ، اللذين ماتا فى المنفى ، وقد ظهر "موتسيسى" متفرداً ضمن كتاب "حركة النهضة الأدبية" "بصوفيا تاون" ، "وجوهانسبرج" فى الخمسينات ، تلك الحركة التى شملت كتاباً مثل "إيزاكيا مافليلل" ، "وتود ماتشيكزا" ، "وريتشارد ريف" ، "وچيمس ماثيوز" ، قصة " الولد " إحدى قصصه القصيرة القليلة .

ريتشارد ريف Richard Rive (١٩٣١)

ولد فى "كيب تاون" ، ودرس فى جامعتها ، ثم جامعة أوكسفورد ، كانت أطروحته للدكتوراه عن حياة وأعمال " شرينر"، "وريف" أيضاً رجل تعليم ، وناقد ، ذاعت شهرة قصصه المبكرة " أغنيات إفريقية " صدرت عام ١٩٦٣ ، وربما كانت قصة " المقعد " من أهم أعماله التى حازت على شهرة واسعة بين القراء . . وكانت قد كتبت هذه القصة بشكل خاص استجابة لحملة جنوب إفريقيا لمعارضة وتحدى القوانين غير العادلة ، تلك الحملة التى استمرت من عام ١٩٥٠ – ١٩٥٢، "وريف" ، كاتب وناشر المجموعة الأدبية " الشعر الإفريقى الحديث " التى صدرت فى ١٩٤٦، قد أرسى دعائم الكتابة الإفريقية بالتزامن مع كتابات مدرسة " الطبول " التى تضم "مافليلل" ، و "موتسيسى" ، وكذلك مع كتابات " كُتاب المنفى " فى الستينيات مثل: "أليكس لاجوما" ، "ولويس ناكوسى" ، "ونات ناكاسا" ، "وبلوك موريسان" ، هذا وقد خضعت روايته "الطوارىء ، التى صدرت عام ١٩٤٩ ، للحظر والمنع من التداول فى جنوب إفريقيا لفترة طويلة . نشر له حديثًا سيرة ذاتية تحت عنوان " الكتابة السوداء " فى ١٩٨١ .

إيزاكيا مافليل Es'kia (Ezekiel) Mphalhlel (١٩١٩)

نشر مجموعته الأولى من القصص القصيرة عام ١٩٤٧ ، ثم نفى إلى "نيجيريا" فى ١٩٥٧ ، وهناك نشر سيرته الذاتية عن حياته المبكرة تحت عنوان " فى الشارع الثانى " عام ١٩٥٩ ، محرر كتاب "بنجوين" الكتابة الإفريقية اليوم" الذى صدر عام ١٩٦٧ ، وهو الكتاب الذى سلط الضوء على الكثير من الكتابات الإفريقية الجديدة ، وهو صاحب دراسة " التخيل الإفريقى " الذى صدر عام ١٩٦٢ ، تلك الدراسة

التي تم تنقيحها وإعادة طبعها ١٩٧٤ ، وهي دراسة مستفيضة واسعة للأدب الإفريقي ، وعمل نقدى معيارى . سلسلة أسفاره وتجواله لعشرين عاما في المنفى - بما فيها التدريس في "باريس" ، "ونيروبي" ، "ودنفر" ، "ولوزاكا" ، و"فيلادلفيا" - و هذه الأسفار مؤرخة ومسجلة بوضوح في أعماله . تعتبر روايات " مافليل " " التائهون " أو " المتجـولون " Wanderers ١٩٧١ ، و" تشيروندو " Chirundu ١٩٧٩ ، و " المنفيون والقادمون من الوطن " Exiles And Homecoming ١٩٨٣ ، سجلا وثائقيا في شكل سيرة ذاتية . يعمل "مافليو" حاليا أستاذا للأدب الإفريقي في جنوب إفريقيا ، بجامعة " ويتوتر سراند " وقد أخذ قصته الطويلة " السيدة بلوم " عن عمل له بعنوان " عند الناصية ب " . "In corner B" ، التي نشرتها دار " إيست أفريكان " في ١٩٦٧ ، وهي القصة التي تحتوى كل الموضوعات والاهتمامات التي ميزت أدب الستينيات في جنوب إفريقية .

بيسى هيد Bessie Head (١٩٤٧ - ١٩٨٦)

ولدت في" بيترمارتيز برج" بناتال ، ونفيت من جنوب إفريقيا فعاشت في "بتسوانا" منذ الستينيات ، وشيدت لها بيتاً في " سيرو" حيث أرخت لهذه القرية في عملها " قرية الرياح والمطر " عام ١٩٨١ . تهتم رواياتها الثلاث " عندما تتجمع السحب الممطرة "(١٩٦٩)، ورواية " مـارو " سنة ١٩٧١" ورواية ""A question of power الصادرة عام ١٩٧٤ بتجربة النفى والاغتراب ؛ وتعتبر" هيد " من أولى الكاتبات اللاتى فسرن الطبيعة الداخلية للمرأة السوداء ، أما المجموعة القصصية " جامع الكنوز - حكايات أخرى من بتسوانا " والتى صدرت ١٩٧٧ فهي سلسلة مترابطة من القصص القصيرة ، يشبه موضوعها موضوع قصة " العشاق " ، وهي واحدة من القصص الذى لم يتم نشرها من قبل ٠

روز موس Rose Moss

ولدت وتلقت تعليمها في جنوب إفريقيا ، ثم هاجرت إلى الولايات المتحدة في ١٩٦١ ٠ فازت بجائزة " الكاتب Quill" المخصصة للقصة عن قصتها " المنفى "عام ١٩٧١ ، والتي نشرت لأول مرة في " ماستشوستس ريفيو " ، وفيما بعد نشرت في "The Purple Renoster" في "جوهانسبرج" . للكاتبة روايتان منشورتان هما :" اجتماع شمل العائلة " ١٩٧٤ ، و " الإرهابي " ١٩٧٩ ، والأخيرة عرفت في جنوب إفريقيا بعنوان " المعلم " ٠تدرس " الكتابة الإبداعية " في كلية " ويلزلى " في ماستشوستس ٠

مبيوللو مزامين Mbulelo Mzamane (١٩٤٨)

ولد في "إيست راند" لأب قسيس انجليكاني وأم ممرضة ، حاضر بالإنجليزية في ليسوتو ، ويتسوانا ونيجيريا . حصل على الدكتوراه في " شعر جنوب إفريقيا في "شيفلد" ، روايته الأولى هي " أطفال سويتو " صدرت ١٩٨٢ ، ومنعت من التداول في جنوب إفريقيا . تنبه " مزامين " لأنواع الكتابة الأدبية السوداء في الجنوب الإفريقي ، خاصة أنواعها القصيرة ، ويتضح هذا من العنوان الساخر لقصة " ابن عمي يأتي الى جوبرج " ، تلك القصة التي يحاكي فيها أساليب كوميديا السود . وهذه القصة هي القصة الأولى في مجموعة باسم " مزالا " والتي صدرت في ١٩٨١ .

أحمد إيسوب Ahmed Essop (١٩٣١)

ولد في جوهانسبرج ، يعمل مدرسا ، وهوكاتب ساخر / هجاء ، أولى مجموعاته في القصة القصيرة هي " الحاج وقصص أخرى" التي صدرت ١٩٧٨ ، والتي أخذت منها قصة " أختان " ، والمجموعة تؤرخ للدمار والالتهام الوشيك الذي أصاب الحياة في "فوردسبرج – فريدروب " ، والتعقيدات الناشئة عن تعدد الأعراق في "جوهانسبرج" . نشر له منذ وقت قريب روايتان هما ، " زيارة " عام ١٩٨٠ ، و" الإمبراطور " ١٩٨٠ .

أكمات دنجور Achmat Dangor (١٩٤٨)

ولد وتلقى تعليمه في "جوهانسبرج" ، ويعمل في شركة لمستحضرات التجميل . ظهرت مجموعته الشعرية الأولى " بولدوزر " في ١٩٨٣ ، قصة " علاقة غريبة " – تدور في منطقة "دورن فونتين " في "جوهانسبرج" وهي منطقة مهجورة الآن تقريبا – وضمن مجموعته القصصية " في انتظار ليللى " .

كين ليبنجا Kan Lipenga

ولد في مولانج ، (بملاوي) الجنوبية ، حيث التحق بجامعتها وأنهى دراسته عام ١٩٧٦ ؛ يقوم حاليًا بتدريس الأدب واللغة في كلية "تشانسللور" في " زومبا" ، ظهرت مجموعته القصصية المتميزه " waiting for turn " في" سلسلة الكتاب الماليين " عام ١٩٨١ ، وهي تدور حول الأساطير والحكايات الخرافية ، والتاريخ

المالى فى صوره فيما قبل الاحتكاك الكولونيالى وطور الاستقلال (حيث كانت تدعى نيازالاند) مياجاوى. قصة" الطريق إلى " هى إحدى قصص هذه المجموعة ، وحتى تعتبر سيرة ذاتية فذة ، استعمل فيها ضمير المتكلم ، وتتعامل مع الموقف القروى من العمل .

دامبودزو ماريكورا Dambudzo Marechera (١٩٥٢ – ١٩٨٧)

نشأ فى "زيمبابوى" ، وطرد من جامعة "روديسيا" ، ثم تابع دراسته مستمعا فى كلية أكسفورد الجديدة ، صدرت مجموعته القصصية الأولى تحت عنوان " بيت الجوع " ، وقد اتخذت المجموعة عنوان القصة الطويلة المنشورة بها ، وقصة " الوقع البطىء لقدميه" هى إحدى قصص هذه المجموعة التى نشرت عام ١٩٧٨ ، فازت تلك المجموعة بجائزة " الجارديان " للقصة القصيرة، نشر له أيضا رواية " شمس سوداء" فى عام ١٩٨٠ .

آلن باتون Alan Paton (١٩٠٣ – ١٩٨٨)

ولد فى " بياتريس بورج " ، والذى تعتبر روايته **Cry the beloved country**، ربما هى العمل الوحيد الأكثر شهرة فى الإنتاج الروائى فى منطقة إفريقيا الجنوبية ، حيث قارنت بين علاقات العائلة البيضاء والعائلة السوداء فى إطار تراجيدى ، تلتها روايته " **Too late the phalarope** – طائر البحر تأخر كثيرا " فى ١٩٥٣ ، تدور حول موضوع المحرمات الجنسية بين الأعراق، وروايته " آه ، لكن وطنك جميل **Ah, but your land is beautiful**" التى صدرت ١٩٨١ ، هى تلك الرواية التى أقامت جسراً فوق التاريخ الاجتماعى للتفرقة العنصرية ، وقد وضعته هذه الرواية وروايته الأولى ، فى مصاف الكتاب الليبراليين ، قصة " سطوع الشمس فى شارع تريبزوند " ، كتبت فى الستينيات عندما كان باتون رئيسا للحزب الليبرالى الجنوب إفريقى ، وهو الحزب المحظور حاليا ، حيث نشرت هذه القصة ١٩٧٠ ، وهى تعكس اهتمامًا متزايداً فى الكتابة الإفريقية ، وموضوعها يدور حول قضية الاعتقال بدون محاكمة ، للكاتب قصص قصيرة أخرى فى مجموعة " ديبى ، عودى للبيت "صدرت ١٩٦١ ، ومجموعة " الطرق على الباب " فى ١٩٧٥ ، وسيرته الذاتية تحت عنوان " نحو الجبال " الصادرة ١٩٨٠ .

شيلا روبرتس Shella Robertts

ولدت فى "جوهانسبرج" أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهى شاعرة ومحاضرة فى الآداب الإفريقية ، وأدب الكومنولث بجامعة " ميتشجان " ، صدر لها مجموعتان قصصيتان هما " بعيداً عن متعة الحياة " فى ١٩٧٥ ، والثانية " هذا الوقت من العام " فى ١٩٨٣ ، كما أن لها ثلاث روايات أخرى ، ظهرت القصة القصيرة " دكان الجزار " فى سلسلة "الكلاسيكية الجديدة " عام ١٩٧٨ .

نادين جورديمر Nadine Gordimer (١٩٢٣)

ولدت لأبوين يهوديين مهاجرين فى منطقة "إيست راند" ، ثم أقامت فى "جوهانسبرج" ، نشرت مجموعتها القصصية الأولى فى جنوب إفريقيا عام ١٩٤٩ ، كما نشرت روايتها الأولى " أيام الكذب " فى بريطانيا عام ١٩٥٣ ، ومنذ ذلك الحين توالت كتاباتها في القصة القصيرة والرواية ، من رواياتها " ضيف شرف " (عن فترة ما قبل الاستقلال فى بلد إفريقى) ، ورواية" ابنة برجر " فى ١٩٧٩ (عن إضفاء الصبغة السياسية على العلاقات الإنسانية المعاصرة من خلال المعارضة الراديكالية فى الأسرة الإفريقية) ، ومجموعتها من القصص المختارة " مكان لا مثيل له ، عام ١٩٧٥ ، مستخرجة من الأجزاء الخمس السابق نشرها . قصصها الطويلة تتضمن " ناس يوليو" ١٩٨١ ، و " شيء ما بالخارج " ١٩٨٤ ، وهى التى صارت عنواناً لكل المجموعة ، أخذت منها قصة " موعد مع النصر" ، لقد أصبح تحليل "جورديمر" للمجتمع فى جنوب إفريقيا محكاً لاهتمامات القصة القصيرة فى شبه القارة ، مما جعل منها واحدة من أكثر الشخصيات المؤثرة فى مجال الفن ، حررت "نادين" مع "يونيل ابراهامز" كتاب "بنجوين" " الكتابة فى جنوب إفريقيا اليوم " وذلك عام ١٩٧٠ ، حصلت على جائزة نوبل عام ١٩٩١ فى الآداب .

إلزا جوبيرت Elza Goubert (١٩٢٢)

ولدت فى "الكيب" ، ولها عدة روايات باللغة الأفريكانية. قدمت كثيراً من المحاضرات المصورة عن رحلاتها إلى انجولا ، وجزر المحيط الهندى ، نشرت عام ١٩٧٨ الرواية الوثائقية "Die Swerfjare van poppie Nogena" التى تحكى عن قصة خادمة منزل سوداء وعشيرتها تلك الرواية لم يكن يتوقع لها

النجاح ، إلا أنها سرعان ما أصبحت الرواية الأكثر رواجًا فى الأصل الأفريكانى ، وحصلت على عدة جوائز كبرى فى العام ذاته ، ترجمت المؤلفة تلك الرواية إلى الإنجليزية بعنوان " Poppie" ، وقد حازت على جائزة الجمعية الملكية للأدب فى لندن ، وفيما بعد ترجمت على نطاق واسع ، أعدت تلك الرواية دراميًا وموسيقيًا فى اللغتين الإنجليزية والأفريكانية ، أما قصة "لبن " فهى إحدى قصص المجموعة التى تحمل الاسم ذاته وقد نشرت فى عام ١٩٨٠ .

بيتر فيلهلم Peter Wilhelm (١٩٤٣)

صحفى ، وشاعر مقيم فى "جوهانسبرج"، نشرت مجموعته القصصية " ل . م . وقصص أخرى " فى عام ١٩٧٥ ، تلتها رواية " الغابة السوداء " ١٩٧٧ ، ورواية "عند نهاية الحرب " فى عام ١٩٨١ ، وهذا العنوان مأخوذ عن قصة طويلة له ، وهو شكل يعد "فيلهلم" من المخضرمين القلائل الذين يمارسونه ، وقد كتب أيضا رواية الخيال العلمى للقراء من الشباب تحت عنوان " نهاية صيف " ، نشرت فى ١٩٨٤ .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضري
٥ – ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكي
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لوسي سميث	ت : أشرف رفيق عفيفي
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
١٨ – الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت : ماجدة العناني
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصري
٢٣ – تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوي	مولانا جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة في التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجي / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣ – التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيميتوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو- أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازار	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	آرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت.س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وابيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوربيديس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم الترجمة واللغة	چورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوي
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوازي	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازي السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيري وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيري ومحمد الجندي
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطي للتاريخ	جان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس جيلاتي	ت : جمال الجزيري
٣١٠ – يونج	ناجي هيد	ت : محيي الدين محمد حسن
٣١١ – مقال في المنهج الفلسفي	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دي بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدي
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعي
٣١٥ – جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحي
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلي
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفي برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – التاريخ الغربي للفن الحديث	دبليوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يوناني قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدي	ت : محمود سلامة علاوي
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق علي منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت مارفن شبرد ت : سامي صلاح
٣٣١ - عندما جاء السردين ستيفن جراى ت : سامية دياب

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٢٠٦ / ٢٠٠١

المجلس الأعلى للثقافة

Southern African Stories

هذه المجموعة القصصية هى المحاولة الأولى - على نطاق واسع - للمقارنة المنظمة بين آداب الجنوب الأفريقى المتنوعة ، وذلك حتى يمكن ترتيبها ضمن الخبرات العامة التى توضح أنه لا يوجد تقسيم يضع أدب منطقة الجنوب الأفريقى المكتوب باللغة الإنجليزية فى جانب ، والأدب المكتوب باللغة الأفريقية فى جانب آخر ، وترك أدب الأهالى السود فى بلدانهم الخاصة. والمترجمة لم تتبع هنا التقسيمات التقليدية ، بل انطلقت من فرضية أن هذه الآداب أجزاء متكاملة داخل منظومة أكثر اتساعًا يمكنها أن تشمل التقاليد السائدة للأدب ذاته، وبهذه الطريقة سوف يتضح ما فى آداب شبه القارة من امتداد وتداخل.

ولعلها المرة الأولى أيضًا التى يوضع فيها أدب منطقة جغرافية واسعة أكثر مما يفعله محررو المجموعات الأدبية الذين يتجهون إل نوع واحد أو آخر من آداب الجنوب الأفريقى ؛ حيث كانت بؤر الاختيار - فى السابق- إما ضيقة جدًا مثل «أدب الزولو» ، أو واسع جدًا مثل «الأدب الجديد باللغة الإنجليزية فى أفريقيا» إن هذا التقسيم يشمل كل من : جمهورية جنوب أفريقيا ، ليسوتو بتسوانا ، ناميبيا ، سوازيلاند ، زيمبابوى ، مالاوى .